

الشَّاعِرُ الْأَنْذَلِيُّ

من لفظ الإِسْلَامِيِّ حِتَّى سُقُوطِ غَرْنَاطَةَ
٩٢ - ٧١١ هـ (١٤٩٢ - ٨٩٧ م)

تأليف
الدكتور

عبد الرحمن علي الجبي

أساعد التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
في جامعة بنكاد

دار الفاتح
دمشق - بيروت

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

الطبعة الثانية

١٤٠٢ - ١٩٨١ م

حقوق الطبع محفوظ للمؤلف

دار الفاتح

دمشق - بيروت

الإدارة : دش - حلبي - ص. ب - ٤٥٢٣ - هاتف ٣٣٩١٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قال الله تعالى

* أَفَمَنْ يَمْشِي مُكْبِتاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَنْ يَمْشِي
سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

سورة الملك ، الآية ٢٢

* فَاسْتَمِسِكْ بِالذِّي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

سورة الزخرف ، الآية ٤٣

* وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاحَبُوكَمْ بِهِ
لَعْلَكُمْ تَتَّقُونَ *

سورة الأنعام ، الآية ٥٣



للله دراء

- * إلى كل عالم مَكَبِّثٍ صبور وعلى الحقيقة غير ، يحفظها كاملةً فلا يُنْقِصُها ، ويقوها مشرقةً فلا يُطْفِئُها ، وبغيرها – البتة – لا يَدِينُ فلا يَبُوح ، مهما كانت الظروف ؛ لأن العلم عنده سُلوك التقوى وهو له صفحة مثل .
- * إلى كل باحث يتابع ويتبعه ، يُنْضِجُه علمه غير مُسْخَرٌ ؛ مزّق أثواب العبودية الفكرية ، واستعلى على التبعية الثقافية ؛ لا يَنْحرِف مع الأهواء ولا يستجرف لاغراء .
- * إلى كل مؤرخ أمينٍ في فَهْمِه ، نزيهٍ في حُكْمِه ، نَظِيفٍ في قَلْمَبِه ، وَرِعٍ في كَلِمَبِه .
- * إلى كل مهتم بدرس هذه الحِقْبة من التاريخ الإسلامي ، الشَّرَّ النَّفِيس ، في تلك الْبُقْعَة من عَالَمِه الواحد الواسع .
- * إلى كل الطلبة الذين معهم تدارسنا – ونَتَّدارس – سَوِيَّةً ، بتفصي واهتمام .
- * إلى كل أهل الأندلس الذين شاركوا مجاهدين وعملوا مُحتسبين ، في أي ميدان ، لبناء تاريخه الإسلامي الوضيء ، وإقامة حضارته السُّنْنِيَّة الطَّهُور ؛ فعلَّ هذا السَّفَر يوفر له صورة .
- * إلى كل من يأْمُر الله – سُبْحانه وتعالى – يأْمُر ، وبه يَهْتَدِي ويَعْتَبر .



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافي نعمه ويكافئه مزيله ؛ والصلوة والسلام على خير عباده وأكرم خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمد الأمين ، بعثه بالحق ، إلى أهل الأرض كافة * بشيراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مهيراً *

كان من توفيق الله القدير وكرمه إنجازُ عدة أعمال علمية . لكن اثنين من بينها استغرقا وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً فائضاً .

لايُستغرب ذلك مع الأول ، لكنه منه مؤكداً مطولاً ، ذو ألوان ومن كل جانب ، وهي متعددة . أعني دراسة الدكتوراه ذات السنوات الخمس بتفرغ كامل وانكباب متصل في موضوع شاق عسير ، كانت مصادره في اثنى عشرة لغة ؛ وهو «العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية ، منذ الإمارة حتى نهاية الخلافة (١٥٥ - ٣٦٦) ». وهي مطبوعة بالإنجليزية بعنوان :

*ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE
DURING THE UMAYYAD PERIOD, BEIRUT, A.H. 1390 (A.D. 1970).*

أما الثاني (الحالي) فلا يعهد له بالضرورة ، لكنه كان ، إلى أي حد ومع بعض الفروق . إذا كان الأول أطول وأدق كان الحالي مشاركاً في ذلك لحد ، لكن بعد خبرة أكثر وتتبع أطول . وبه وحده يعتبر هذا إسهاماً أصيلاً صادقاً ، ويُعتبر كذلك لغيره . فهو إسهام لأنّه يوفر التاريخ الأندلسي ، من أوله حتى سقوط غرناطة (٩٢ - ٨٩٧) ، في كتاب واحد منفرد ؛ وهو ماليس متوفراً الآن .

هذا — مع غيره — يجعله صالحًا لاعتماده في التدريس الجامعي **مادةً** «التاريخ الأندلسي». بجانب احتوائه على الكثير من مواصفات العمل العلمي الأصيل أو كلها ، إلى أي حد . فهو كتاب علمي جامع صالح — دون تردد — لاقراره في أية جامعة لها بعادة التاريخ الأندلسي عنایة ، وأرجو الله جلّت قدرته أن يوفق له .

نحن نقرب أو نمر الآن سينيّاً توازي سنوات فتح الأندلس (٩٦-٩١ھ) ، بعد مرور ثلاثة عشر قرناً عليه . لعل بإمكان هيئات علمية أو دول في العالم الإسلامي يهمها الاحتفال بهذه المناسبة ، وما يزال هنالك وقت للإعداد له . ولعل في ظهور هذا الكتاب وجه مشاركة وإشارة تحية لهذا الفتح الجليل ولكل من شارك فيه ومن تلامه من الأجيال ، سارت في طريق الله المنيّر ، موكباً إيمانياً يغمره الخير وتحفه رحمة الله سبحانه وتعالى .

اتُّخذَت المؤلفات الأندلسية المتوفرة (مخطوطه ومطبوعة) المكان الأول في هذه الدراسة ، اعتباراً واختياراً ؛ بتبع مستمر ودراسة متراولة وعناية مثابرة وهمة صابرة ، خلال تدريس هذه المادة منذ خريف ١٩٦٦ ، في جامعي بغداد والرياض ، قد يقف ذلك قليلاً في أحيان أو يبطئ . نُفتح كتابته عدة مرات ، كلياً أو جزئياً . مع العناية باعتبار طبيعة هذا التاريخ الإسلامي والانتفاع بها في ذلك ، قياساً أو استرشاداً موضحاً ، حين لا توفر الكفاية ، واستثناساً وإظهاراً في غيره . فالعالم الإسلامي واحد متوحد ، حتى حين تقطع أجزاء منه عن باقيه ، سياسياً أو إدارياً ، فليست هذه سبب توحده ، بل الإسلام عقيدةً وعبادةً، تشريعاً ووجهةً، هو الموحد المتفرد دوماً . إنه عالم واحد في كل أحواله وفي بنية سكانه الإنسانية وأحواله الاجتماعية والمعمارية وغيرها ، من مظاهر الحياة الكثيرة المتعددة ، في عين المصمار والطريق النير والمسلك الخير .

كان الاطلاع على ماتوفّر من الدراسات الأندلسية باللغة العربية وغيرها ليس مقطوعاً ، ذلك يظهر جلياً من نظرة في قائمة المصادر أو حواشي هذه الدراسة .

زُودت الدراسة بقوائم النسب الكثيرة والخرائط ، وتتوفر بعض الصور التاريخية
والوثائق بعون الله تعالى .

أما عن الجهد والمشقة الذي اقتضاه وما حصل عليه فهو من توفيق الله الكريم له ،
ويترك للقارئ بيانه والحديث عنه .

الأمل بهذه الدراسة أن تنمو أكثر وتنتصل ، كما تكبر وتتفصل ، إن شاء الله .
فالحمد لله على منته ، أدعوه تعالى من هذا وأمثاله المزيد . وأرجو أن يجعله لوجهه
الكريم خالصاً ، ولا يحرمني به من الخير في الدنيا والأجر ﴿ يوم لا ينفع مال ولا
بنون * إلا من أتني الله بقلب سليم * ﴾ [القرآن الكريم ، سورة الشعرا ، الآياتان
رقم : ٨٨ - ٨٩] .

أدعوك اللهم أن تجعلني والمخلصين كذلك ، فمثلك وحدك السداد والرشاد ، وعليك
أنت الاعتماد .

والله أكبر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المحتوى

٥	الإهداء
٧	المقدمة
١١	المحتوى
١٥	قائمة الخرائط والصور
١٧	مدخل عام
١٩	أولاً : حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي للأندلس وبعده
٢٩	ثانياً : حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي
٣٥	ثالثاً : نظرة في جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية
٣٩	رابعاً : العهود التي مرت بها الأندلس
٤١	الفصل الأول فتح الأندلس
٤٣	أولاً : مقدمات الفتح
٤٦	ثانياً : مراحل الفتح
١١٣	ثالثاً : استدعاء موسى وطارق
١٢٩	الفصل الثاني عهد الولاة
١٣٦	أولاً : الاستقرار وتنظيم البلاد وإصلاحها
١٤٣	ثانياً : انتشار الإسلام واعتناق الإسبان له
١٧٢	ثالثاً : جهاد المسلمين في الأندلس وخلف البرت

الفصل الثالث

عهد الإمارة

٢١٣

- أولاً : أبرز الأحداث في هذا العهد
 ٢١٨
- ثانياً : الجهاد في عهد الإمارة
 ٢٤٤
- ثالثاً : نشوء الدوليات الإسبانية في شمال الأندلس وتحرشاتها
 ٢٦٦
- رابعاً : خصائص عهد الإمارة وأحواله وإنجازاته
 ٢٧٧
- خامساً : السياسة الخارجية
 ٢٨٨

الفصل الرابع

عهد الخليفة

٢٩٥

- أولاً : أبرز أحداث وقضايا هذا العهد
 ٣٠٠
- ثانياً : الأحوال العامة لعهد الخليفة وإنجازاته
 ٣١٤
- ثالثاً : السياسة الخارجية
 ٣١٧

الفصل الخامس

عهد الطوائف

٣٢١

- أولاً : دول الطوائف والصراع مع إسبانيا النصرانية
 ٣٢٦
- ثانياً : الدعوة إلى التوحُّد
 ٣٣٦
- ثالثاً : ذكر أهم دول الطوائف والحديث عنها
 ٣٥٤
- رابعاً : الحركة العلمية
 ٤٠٩

الفصل السادس

عهد المرابطين (الاتبعاش الأول)

٤١٧

- أولاً : المرابطون وجهادهم في الأندلس
 ٤١٩
- ثانياً : نتائج التعاون بين المرابطين وأهل الأندلس
 ٤٤٣
- ثالثاً : الأحوال العامة
 ٤٤٥

الفصل السابع

عهد الموحدين (الانتعاش الثاني)

- أولاً: الموحدون وجهادهم في الأندلس
 ثانياً: توحيد الأندلس وأهم الأحداث
 ثالثاً: السمات العامة

الفصل الثامن

ملكة غرناطة (الأندلس الصغرى)

- | | | |
|-----|--|--------|
| ٥٦ | نهايتها | أولاً |
| ٥٩ | ثبات غرناطة وأسبابه | ثانياً |
| ٥٢٣ | توقف الانحسار | ثالثاً |
| ٥٢٤ | حالة إسبانيا النصرانية | رابعاً |
| ٥٢٩ | الصراع بين غرناطة وسلطات إسبانيا النصرانية | خامساً |
| ٥٥٩ | أحوال غرناطة وأهم الانجازات | سادساً |
| ٥٦٢ | تضييد الخطير ووقوع الكارثة | سابعاً |
| ٥٦٢ | قائمة بأسماء ملوك غرناطة | ثامناً |
| ٥٦٨ | محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش | تاسعاً |
| ٥٧٤ | خاتمة | |
| ٥٧٩ | المصادر والمراجع | |
| ٦٠١ | للمؤلف | |



قائمة المخارات والصور

- خربيطة رقم (١) الأندلس (خريطة عامة) ٢٥-٢٤
- خربيطة رقم (٢) الأندلس (خريطة مفصلة شاملة) مقابل صفحة ٣٣
- خربيطة رقم (٣) فتح الأندلس (خطوط سير الفتح من سبتة حتى سرقسطة) ٨٩-٨٨
- خربيطة رقم (٤) فتح الأندلس (خطوط سير الفتح في شمال الأندلس) ١٠٥-١٠٤
- خربيطة رقم (٥) الفتح والجهاد وراء البرْت (خطوط سير الفتح والجهاد أيام الولاة ، مع سرايا موسى) ٢٠١-٢٠٠
- خربيطة رقم (٦) معارك الأندلس (أماكنها وتاريخها) ٤٨٩-٤٨٨
- موافقة آخر ملوك غرناطة ، أبو عبد الله محمد ، على ترك الأندلس ٥٥٥
- صورة جبة آخر ملوك غرناطة ، أبو عبد الله محمد ٥٥٦



مَدِينَةُ الْأَنْدَلُسِ

- أولاً : حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي للأندلس وبعده .
- ثانياً : حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي .
- ثالثاً : نظرة في جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية .
- رابعاً : العهود التي مرت بها الأندلس .



أولاً : حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي للأذل وَبَعْدَهُ

كانت أوربا - خلال القسم الأكبر من القرون الوسطى الأوروبية - تعيش حياة شاقة وسيئة ، رغم ظهور قوى سياسية متعددة في بعض بلدانها . وقد طفت هذه القرون الأوروبية بالعيوب والآثام ، وهررت من النظافة والعناء بالإنسان والمكان ، وزخرت بالجهل والفوضى والتأنف وشيوخ الظلم والاضطهاد . عاشت أوربا في ظلام وهمجية وقسوة . فشت فيها الأمية ، وقامت فيها الحروب والأعمال الوحشية ، وكانت للحروب مسرحاً وللاضطهاد ميداناً . فقد « افترستها الفوضى وطاحتها المحن » ، فهي « غائصة في فتن كقطع الليل المظلم »^(١) .

كانت حياة الناس تعة وشاقة وكئيبة ، تمحوج دنياهم بالمناكر والسيئات ، وهم عليها مقيمون وبها يتعاملون ، بل لعلّهم غدوا بذلك يتفاخرون ويتنافسون ، وأضحمي هذا الحال عاماً وعلى كل مستوى وإطار .

بدا هذا الدَّرَكَ - من المبوط الانساني العام - واصححاً في جنبات حياتها ، وملموساً في غارتها على الشرق الإسلامي خلال قرنين من الحروب المعروفة بالصلبية ، أو مشيتها في الغرب الإسلامي . بدت ظواهر هذا المبوط في الفكر والعلم والثقافة ، والخلق وأسلوب التعامل والتصرف ، والنظرية إلى الآخرين وإلى الإنسان والإلتزام بالقيم والآداب . كانوا عرابة في الفكر والنفس والخلق ، فضلاً عن عري بعضهم الجسدي ، وهو غير ذي بال .

كان ذلك عاماً ، حتى في الطبقات العليا عندهم من الزعماء والحكام والساسة

(١) انظر : *Muslim colonies in France, Northern Italy and Switzerland*, Reinaud 223.

والترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، رينو ، ٢٩٥ .

النبلاء والاقطاعيين والرهبان « محتكري المعرفة القليلة المحذودة ». دل على ذلك المصادر الوفيرة المتضائرة .

« إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها سيدورات متواحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الباهلين ، الذين يقضون أوقاتهم في أدبار هم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع ، وذلك فيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة .

« ودامت همجية أوربا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها ، ولم يبدُ في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد ، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ، فولّوا وجوههم شطر العرب [المسلمين] الذين كانوا أئمة وحدهم . »^(١)

ويعبّر آخر : « من الثابت أنه بينما كانت أغلب أوربا ترزح تحت نير الشقاء والفساد ، مادياً وروحياً ، أقام المسلمون في الأندلس حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة . لعب الأندلسيون دوراً حاسماً في تطور الفن والعلم والفلسفة والشعر ، وأثرت حتى في أرفع أعلام الفكر النصراني للقرن الثالث عشر ، كما عند توما الأكويني ودانلي فكانت إسبانيا - مرة - مشعل أوربا »^(٢) .

الاتفاق على ذلك قائم بين الكثير من المؤرخين الأوروبيين ، حتى مع التفاوت في الدرجة . وبقيت هذه الحالة من الجهل الفاضح والأمية المطبقة والهمجية المغرقة مستمرة

(١) حضارة العرب ، لوبون ، ٥٦٦ - ٥٦٧ .

انظر كذلك : The Moors in Spain, Lane — Poole, 129 — 130 .

الترجمة العربية ، العرب في إسبانيا ، ١١٥ .

(٢) Legacy of Islam , 5 . الترجمة العربية : تراث الإسلام ، ٢ / ١٠ ، مقال « إسبانيا والبرتغال » ، ترند .

حتى تيسر الاتصال بالعالم الإسلامي^(١).

كانت تلك حالة عامة في أوربا — شرقها وغربها — وبقية العالم ، قبل مجيء الإسلام وبعده . وزالت عن بلدان عمّها الإسلام بفيضه الخير وأخر جها من الظلمات إلى النور ، حين أشرقت الأرض بنور الله ، وعمّ فضله فيها بلداناً ، وعمّ شرعه منها الأرجاء^(٢)

بقيت تلك الحالة البائسة في المناطق التي لم يصلها هذا النور ، كالبلدان الأوروبية . زيادة على تسلط الكنيسة وسلطتها ، وتبنيها الأفكار الجامدة والموافق الفجة ، وإثارتها التحرّب بين الناس ودعوتها إلى الصليبية ، وهو أمر تبرأ منه النصرانية ، كما أوحى بها الله ، ولم يتزل به منه سبحانه كتاب .

لدينا وثائق مهمة لشهود عيان زاروا عدداً من المناطق الأوروبية وتركوا بعض التقارير . هؤلاء الشهود هم الرحالة المسلمين أو المسافرون لأي شأن آخر ، ومنهم الأندلسيون . زوّدونا بأخبار ذات قيمة تاريخية كبيرة عن تلك الشعوب وأحوالها ، كانت موضع اهتمام الدارسين فيها وعنها .

أورد أبوالخطاب ابن دحية الكلبي الأندلسي (٥٤٧ - ٦١٥ هـ) في كتابه **المُطْرِب** من أشعار **أهل المغرب** وصفاً حال سكان أحد البلدان الاسكندنافية (الدنمارك) ، التي كان يسكنها النورمان (Vikings) — عرف هؤلاء في المصادر الأندلسية « المجوس » أو « المجوس الأُرْدُ مانيون »^(٣) — هذا الوصف مأخوذه من تقرير كتبه يحيى بن حكم الغزال ، بعد عودته من السفارة التي قررتها إلى الدنمارك سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م) . وفيه يذكر أن « فيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ، وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ، منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس ، وما يليها من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار ، ودينهم

(١) راجع شرحاً لهذا مع منقولات عن عدد من الكتاب الأوروبيين في (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن التلوي ، ١٧٣ - ١٩٧ ؛ و (الإسلام والحضارة العربية) لمحمد كرد علي ، ١٩٥/١ - ٢٠٧ .

(٢) قارن : أوربا العصور الوسطى ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٥٠/١ - ١٥٢ .

(٣) راجع مفهوم هذا المصطلح في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار ، ونکاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشمار . وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم .^(١) وجود مثل هذه العادات الجاهلية وغيرها كانت معهودة هناك ، وذكرها جغرافيون آخرون كما أيدتها بحوث أوربية^(٢) .

وصف صاعد الأندلسي (المريّة ، ٤٢٠ – طليطلة ، ٤٦٢^{هـ}) في كتابه طبقات الأمم بعض سكان البلاد الأوربية : « فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان منهم موغلًا في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي هي نهاية المعمورة في الشمال ، فإفراط بعدهم عن مسامة رؤوسهم ، براد هواءهم ، وكثف جوهم ، فصارت لذلك أنزجتهم باردة ، وأخلاقهم فجة ، فعظمت أبدانهم ، وابيضت أنوفهم ، وانسللت شعورهم ، فعديموا بهذه دقة الأفهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباء ، كالصقالبة ، والبلغر ، ومن اتصل بهم .^(٣) »

ينقل البكري (شلطيس، حوالي ٤٠٥ – إشبيلية، ٤٨٧^{هـ}) في كتابه المسالك والممالك نصوصاً عن شعوب أوربية من تقرير لرحالة أندلسي من أهل القرن الرابع

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية الكلبي ، ١٤٠ – ١٤١ .

(٢) راجع : *Altnordisches Leben*, Karlweihold; 244; *Les premières incursions des Vikings en Occident d'après les sources Arabes*, Arne Melvinger, 81.

انظر كذلك : *Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad period*, El-Hajji, 202 .

جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) ، أبو عبيد البكري ، ١٨٧ ؛ آثار البلاد وأخبار العباد ، ذكر يا القزويني ، ٥٠١ – ٥٠٢ .

(٣) طبقات الأمم ، صاعد الأندلسي ، ١١ . عن الصقالبة (السلاف) راجع : جغرافية الأندلس وأوربا ، *Andalusian diplomatic relations*, 207 .

عن البلغار : جغرافية الأندلس ، ١٧٥ ؛ المسالك والممالك ، الإصطخري ، ١٣٢ ؛ رحلة ابن بطوطة ، *Andalusian*, 243 n.3 .

المجري (العاشر الميلادي) هو : إبراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطُّوشِي . فيصف أهل بلد جِلِيقِيَّة (شمال إسبانيا) بأنهم « أهل غدر ودناءة أخلاق ، لا ينتظرون ولا يغسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد . ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تتنعم به أجسامهم وتصبح أبدانهم . وثيابهم أصيق الثياب ، وهي مفرجة يبدو من تفاريحها أكثر أبدانهم . »^(١)

يؤكد هذا المعنى المؤرخ الأوربي لين بول ، فيقول : « تظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندرس وغيرها من المدن ، إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حمأة من الجهل وخشونة الأخلاق »^(٢) . ويصرّح كذلك بأن « قرطبة العظيمة ، التي كانت أujeوبة العصور الوسطى ، والتي حملت وحدتها في الغرب شعلة الثقافة والمدنية مؤتلة وهاجة ، وقت أن كانت أوربا غارقة في الجهلة البربرية ، فريسة للشقاق والحروب »^(٣) .

ثم يحدثنا البكري عن أصناف الروس : « وصنف ثالث يُسمون الأوئلانية، وملتهم مقيم بأوثان ، والتجار إليهم لا يتجاوزون كويانه . فأما أوثان فلم يجد أحداً يخبر أنه دخلها ؛ لأنهم يقتلون كل من وطئ أرضهم من الغرباء ، والله أعلم . »^(٤)

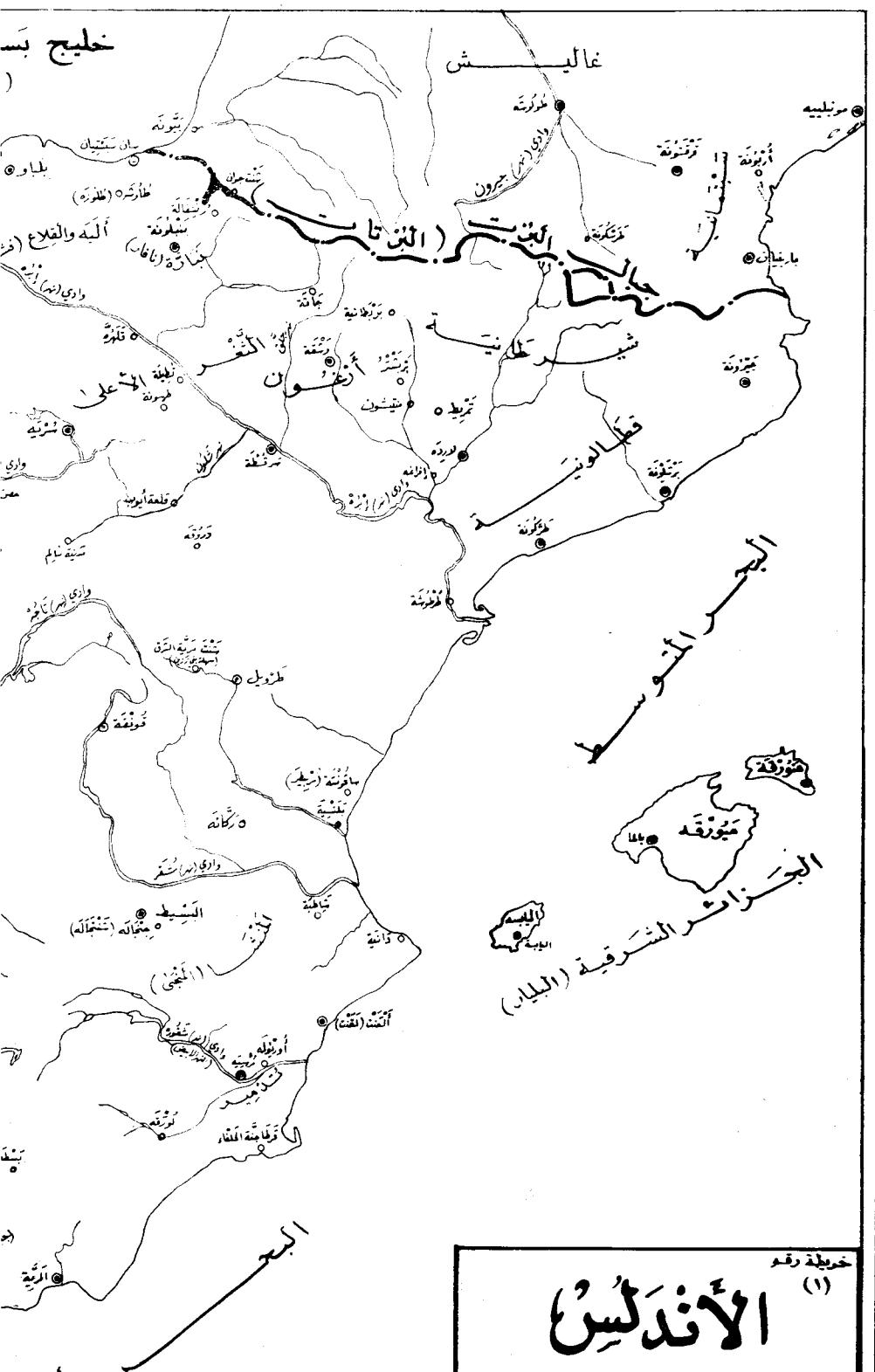
كما يخبر عن أجناس الصقالبة وأن أحدهم الذي « يُدعى سَرَنِين ، يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسمهم ، ويحرقون دوابهم ، ولهم أفعال مثل أفعال المند . وهم يتصلون بالشرق ويبعدون من الغرب . وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت ، ويزعمون أن سرورهم وإطراهم لرحمة ربه إياه . ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين . وإذا زعمت واحدة منهن أنها محبة له علقت حبلًا وارتقت إليه على كرسي ، فتشتد به في عنقها ، ثم يجذب الكرسي من تحتها ، فتبقى معلقة

(١) جغرافية الأندرس وأوربا (من كتاب المسالك والمالك) ، أبو عبيدة البكري ، ٨١. كذلك : جاء في آثار البلاد (٤٩٨) شيئاً بهذا الوصف حين الحديث عن إفرنجية .

(٢) Ibid. ١٣٠. كذلك : The Moors in Spain, ١١٦.

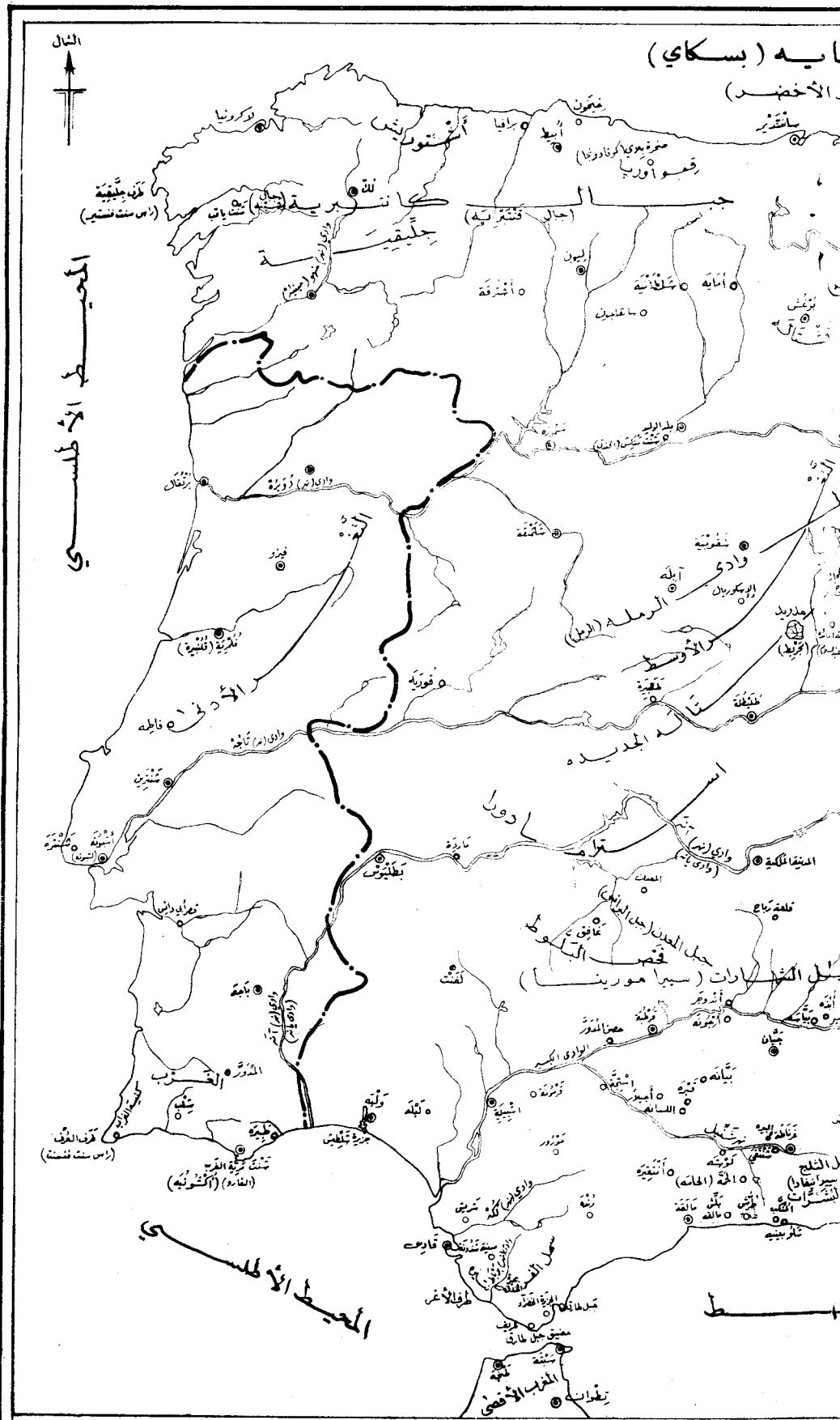
(٣) ٤٣. Ibid. كذلك : العرب في إسبانيا ، ٣٧ .

(٤) جغرافية الأندرس وأوربا ، ١٥٣ .



الْأَنْذَرُ

مشيخة الجالية الأندلسية (الديوبتية)



تضطرب حتى تموت ، ثم تحرق وتلتحق بزوجها . «^(١)» ويستمر البكري في سرد عادات جاهلية أخرى .

ويحدثنا البكري عن أهل روما (روما) حيث «يُدبر أمرهم بِرُوْمة البابه . ويجب على كل ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابه أن ينبطح على الأرض بين يديه ، فلا يزال يقبل رجل البابه ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابه بالقيام . »^(٢)

لم ينفرد البكري في هذا ، بل ذكر رحالة آخرون أموراً مشابهة . يحدثنا أحمد ابن فضلان في رسالته التي كتبها عن وصف المناطق التي زارها خلال رحلته إليها سنة ٣٠٩ هـ . فحين الحديث عن الروسية وصف بعض عاداتهم . من ذلك ما يقومون به من أفعال عند موت أحد رؤسائهم ، وأقلها الحرق للميت . وهو أمر يتم بالنسبة للجميع . لكن «إذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : (من منكم يموت معه ؟) فيقول بعضهم : (أنا) ، فإذا قال ذلك ، فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرِجع أبداً ، ولو أراد ذلك ما ترك ، وأكثر من يفعل هذا الجواري . »

ثم يروي ابن فضلان حدثاً في هذا شاهده ، وكيف ارتفعت جارية أن تموت مع سيدها . فتمر بترتيبات تشرب خلها وتغفي . ثم تهياً سفينه تتوضع فيها الجارية وتقوم بأعمال معينة ، ويُفعَل بها الأفاعيل الدنيئة البشعة ، حتى تنتهي بعد ذلك إلى مرحلتها الأخيرة التي تقتل فيها . حيث تتوضع إلى جانب مولاها ، وأمسكاثان رجلها واثنان يديها . وجَعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلًا مخالفًا ، ودفعته إلى اثنين ليجدباه ، وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل «فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعًا موضعًا وتخرجه والرجلان يختفانها بالحبيل حتى ماتت »^(٣) . ثم تحرق هي وモلاها والسفينة .

نقل خوليان ريري في مقال له وصف ريكاردو دي بيري - جامع الكتب الانكليزية

(١) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٨٦-١٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ٢٠٢ .

(٣) رسالة ابن فضلان ، ابن فضلان ، ١٥٦-١٦٤ .

المشهور في القرن الثالث عشر ومستشار إنجلترا – لحالة الكتب في أوربا أيامه ، ومبيناً رأيه في المرأة : « فإن الكتب يقذف بها خارج الأبواب ليحل محلها الكلاب في بعض الأحيان أو طيور الصيد ، أو في أحيان أخرى هذا الحيوان البغيض الذي يسمى المرأة ، والذي لا ينبغي أن يعاشره رجل الدين . ولا يكاد يقع نظر هذا الحيوان الذي يبغض العلم دائمًا على كتب مستوراة تغطيها خيوط العنكبوت حتى يلعنها بأقسى العبارات ، ويفضل بأن تستبدل بها الأقمشة الحريرية والقرمزية أو أي شيء آخر عديم الفائدة »^(١) .

كل ذلك وأمثاله كان يجري في أوربا وغيرها في هذا التاريخ (القرن الرابع المجري) وقبله وبعده . في حين قطع العالم الإسلامي مرحلة كبيرة في خطى الإنسانية على هدى الإسلام ، الذي كرم هذا الإنسان ، ذكرًا وأنثى ، كبيراً وصغيراً من أي جنس دون تمييز « كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(٢) . فكان بلا الحشبي ، العبد الأسود ، في الإسلام وفي واقع حياته ، أفضل من السادة . وكان عمر بن الخطاب يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ، يعني بلا لا . وطوت أم المؤمنين أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) زوج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فراشه عن أبيها سيد قريش كيلا يدنسه بجلوسه عليه إذ هو « مشرك نجس »^(٣) . قبل تاريخ هذه الأحداث بقرون أبطل الإسلام كل أوضاع الاحاهلية ومقوماتها في النفس والفكر والمجتمع وفي جنبات الحياة كافة . أبطلها في واقع النفس الإنسانية ، وتم إبطالها في حياة الإنسان ، وحطمت كل الطواغيت والأصنام ، فأقام حياة الإنسان وفكره على عقيدة سمححة وشريعة سامية بيضاء .

ففي حجة الوداع (السنة العاشرة للهجرة) كان تأكيد هذه المعاني ، في إعلان

(١) مجلة مهد المخطوطات العربية ، ٩٢/١٤ - ٩٢ ، بحث « المكتبات ومرارة الكتب في إسبانيا الإسلامية » ، زبيرا . كذلك : النخائر والتحف ، القاضي الرشيد بن الزبير ، ١٩٨ .

(٢) من خطبة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حجة البلاغ (الوداع) . راجع : مجموعة الوثائق السياسية في المهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمعها محمد حميد الله ، ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) راجع : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، ٨٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض كافة بقوله : « ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع »^(١) .

فكان ولادة الإنسان الجديد النظيف في كل شيء « الإنسان المسلم » . ومنذ ذلك التاريخ عرف الإنسان قيمته الحقة ذكرًا وأثنى ، كما أرادها الله سبحانه له ، بعد أن عرف ربه ، وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم له الناس أو يقبلوا يده ، وأرادهم أن يعبروا عن محبتهم له باتباع هديه والعمل بشرع الله العلي وبطاعة الله وطاعته والأخذ بنهجه سبحانه وتعالى .

* * *

إن سوء الأحوال في أوربا – وفي كل جوانب الحياة – بقي إلى قرون متاخرة في أوربا مثلما كان من قبل . ومعروف حال أوربا من السوء العام الشامل قبل الصراع والثورات التي جرت في تاريخها الحديث كالثورة الفرنسية (١٣٠٣ هـ = ١٧٨٩ م) .

ولذا تجاوزنا التقدم العلمي والمادي الذي جلبه الحضارة الأوروبية الحالية فهي – في خطها العام – خاوية إنسانياً ، تخلوها من النظرة الإنسانية و�بوط هذه النظرة نحو الكون والحياة والانسان . إنها أهملت خصائص الإنسان حين اعتبرته آلة ، أو واحداً من أنواع الحيوان .

ومع أن التقدم العلمي والصراع الاجتماعي ، الذي أحدث التغير في أوربا ، كانا بعد اتصالها بالعالم الإسلامي ، إلا أنها لم تحسن الانتفاع بذلك . فصاغت حياتها في إطار موروثاتها ، زيادة على الأجراء الاجتماعية التي أعطت أحدهاً تاريخية معينة تشكلت تبعاً لمواصفاتها وفي تيار أو ض ساعتها . لذا لم تعرف حياتها – عموماً – الاعتدال السوي ، وعاشت بين الإفراط والتغريب .

(١) حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد ناصر الدين الألباني ، ٧٧ .

ثانيًا : حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

كانت شبه الجزيرة الإيبيرية (Iberian Peninsula ، إيبارية = إسبانيا والبرتغال) ، قبل الفتح الإسلامي تحت حكم القوط الغربيين (Visigoths) . وقد بدأ احتلال القوط لها في أوائل القرن الخامس الميلادي ، بعد طردهم للوندال (Vandals) ، إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة ، الذين اتجهوا بعد ذلك إلى احتلال الشمال الأفريقي وطُردو منها على يد الرومان سنة ٥٣٤ م . احتل الوندال إيبارية منذ القرن الثالث الميلادي وحتى الخامس^(١) . ومن اسم الوندال جاء اسم الأندلس^(٢) .

استبد القوط (Goths) بالحكم ، لاسيما قبيل الفتح الإسلامي . وبسوء سياستهم ساءت حالة إسبانيا واضطربت حياة سكانها . فالقوطى متشرة ، وكثير من الناس يعيشون في شقاء لسوء الأحوال المعيشية ولسياسة الاستغلال . فكان الشعب يستغل حساب الطبقة الحاكمة والمترفة وأصحاب المصالح ، يضاف إلى ذلك الصراع الذي وجد بين الطبقات والحاكمين ، وفيما بين الحاكمين أنفسهم . والشعب الإسباني – مثل غيره من الشعوب الأوروبية – مقسم إلى طبقات عديدة هُضمت حقوقها ، مع وجود الفوارق الطبقية . فلا يحظى بالعيش المهني إلا طبقة معينة حصلت على امتيازات . والأسرة المالكة بيدها كل شيء دون سواد الشعب الذي يلاقي الإهمال والظلم ، ففرض عليهن الضرائب والتكاليف . وقد انقسم الشعب إلى هذه الطبقات :

طبقة النبلاء ، ومنها الطبقة الحاكمة .

طبقة رجال الكنيسة ، التي تشارك النبلاء في حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها .

طبقة التجار والزراع والملوك الصغار ، الذين يتحملون الضرائب المختلفة .

طبقة عبيد الأرض ، الذين يتبعون مالكها ويستقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر .

(١) راجع : فجر الأندلس ، حسين مؤنس ، ٢ وبعدها ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عاند ، ٢٧/١ - ٢٩ ؛ أوربا المصور الوسطى ، عاشر ، ٨٨/١ .

(٢) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

وطبقة العبيد ، التي تكونت من أسرى الحرب ، ويُتصرف فيهم بيعاً وشراءً ،
ولم تُعط لهم ولا لسابقיהם الحقوق التي يستحقون ، فلم ينالوا تكريماً^(١) .

لا يوفر هذا الوضع - دون شك - استقراراً ولا عدالة اجتماعية . ومن هنا كانت
الطبقات المنتجة في المجتمع محرومة من كثير من حقوقها ، في حين تؤدي المسؤوليات
والتكليف . ولا ينتظر من مثل هذه الطبقات أن تقدم إخلاصها وأفياً ، وتدافع بحرارة
عن ذلك النظام الذي حرمتها الحقوق ، ولو أن ذلك لا يمنع من دفاعها عن بلدتها . فلا
عجب إذا ظهرت العوامل التي تدعو للخشية على ذلك الملك والدولة والنظام القوطى
رغم قوته العسكرية .

بجانب هذه الطبقات وجد اليهود الذين لاقوا الاضطهاد أحياناً ، ولذا كانوا
لا يؤيدون هذا الملك وربما حاولوا تغييره . فكان هنالك صراع على السلطة ولكل
مؤيدوه .

قبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لُذرِيق
(Rodrigo) بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك غِيطةَشة (Witiza)^(٢) . وغداة
الفتح الإسلامي كان لُذرِيق هو حاكم البلاد . لكن أتباع الملك السابق ومؤيديه
وأفراد أسرته لم يرضوا عن هذا الحكم الجديد . وكانوا يتحينون الفرصة لاستعادة
ملوكهم ، ووجدوها في الفتح الإسلامي ، ووهموا أن المسلمين طلاب غنائم ، فسوف
لا يستقرُون في إسبانيا . لكنهم لم يجدوا لهذا الوهم إشارة ، فالمسلمون حملة عقيدة
يعملون على نشرها وإعلانها .

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي ، والتأخر
الاقتصادي وعدم الاستقرار ؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد .

لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع ، كما لا يعني انعدام

(١) راجع : الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المطار في خبر الأقطار) ، ابن عبد النعم الحميري ، ١٧٠ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٣٢/١ .

(٢) الروض المطار ، ١٩٣ . كذلك : أخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، ٥ .

قوتها السياسية والعسكرية ، بل كان بإمكانها أن تصدّ جيشاً مُهاجماً وتحاربه وتوقف في وجهه .

أقام القوط في إسبانيا دولة اعتُبرت أقوى المالك البرمنية حتى أوائل القرن السادس الميلادي^(١) ، وبقيت بعد ذلك تتمتع بقوة عسكرية مدربة وقوية ، تقارع الأحداث وتوقف للمواجهات .

* * *

بالإمكان أن توفر للدولة سطوة سياسية وقوة عسكرية مع سوء في الداخل أو هبوط مَا في حياة الناس . فطالما اعتمد الطواغيت والجبارية على البطش والقوة في مهاجمة الآخرين وتهديدتهم بها . إن توفر القوة وقتاً مَا لا يعني استمرارها ، إذ ليست هي قاعدة بالحق ، وذلك لا يمنحها قدرة للبقاء والثبات أمام أحداث الحياة . وهي بذلك لا تقود إلى التقدم ضرورة ، وإنها أبعد ما تكون عن بناء الحياة الكريمة . فالقوة المتمكنة التي لا تحكمها مُثُلٌ ولا توجهها عقيدة ، تحول إلى قوة غاشمة وجبروت قاصم ، لاسيما بعد أن تحوز أي تفوق أو تكون لها غلبة على أحد . وهي عادة تنفس بقرون شيطان في مثل هذه الأمور ، أو تزييف الحقائق ، فتجعل من المزاعم انتصارات تاريخية ، تجلجل بها أصوات دعاتها ، وما أكثر الشواهد التاريخية على ذلك ، كما يتلو إيرادها ، خلال استعراضنا لأحداث هذا التاريخ ، موضوع دراستنا ، ونلمسه بوضوح عند القوط والفرنج وغيرهم من الإمبراطوريات والدول يومذاك .

كما أن توفر وسائل المعيشة وتحسينها ليس دليلاً على الصحة العامة لشعب مَا . فالاستمرار في الهبوط أو بقاوته وطول ملازمته قد يفتّ القوة أيضاً ، أية قوة . والانحراف والسوء والتحلل الخلقي يصيب بآثاره جوانب أخرى في الحياة قد يكون منها القدرة الحربية وغيرها .

في حين - من الناحية الأخرى - تكون الاستقامة والنظافة وسمو العقيدة وصلاحية المنهاج وأصالحة الفكرة وصدق النظرة سبباً مؤكّداً في عزة الأمة وتفوّقها أحواها وبناء حياتها وحمايتها والقدرة على التقدّم السليم وقابلية التجدد واطرداد النمو ودوم الازدهار

(١) أوروبا العصور الوسطى ، ٨٨/١ .

في الميادين كافة . ولا يرجع انتصار الاسلام إلى التفوق العسكري بل إلى نوع البناء العسكري للفرد ، جندياً أو قائداً . وهو من نوع البناء العام للمجتمع الذي يقوم على العقيدة الاسلامية وشرعيتها الربانية . وهذا نلحظه ، بوضوح تام ، في فتح الأندلس وغيره . كانت أحوال أوروبا في تلك القرون قبلها وبعدها سيئة ، كما هو معلوم . ولكن ظهر فيها العديد من القوى السياسية ذات التفوق العسكري ، والامبراطوريات التي عرفت فيها شاهد على ذلك . بل إن عدداً من الدول كانت لها – مع تلك الأوضاع السيئة – حضارات يشار إليها . هذه المظاهر من القوة السياسية والحضارية ليست دائماً وحدها هي المقياس على توفر الجانب الانساني وسلامة الحضارة وسمو القيم . كانت الامبراطورية الرومانية ذات قوة حرية ونفوذ سياسي ، لكنها تمنتت بأخلاق هابطة ، حَفَّلت بصورٍ غير كريمة^(١) .

حملت موجات الحروب الصليبية وحملات التسار (المغول) – ذات التفوق العسكري – الخراب إلى العالم الإسلامي في كل مكان وصَلَته . كانت هذه القوى عاتية مدمرة ، تغتصب البلدان وتقتل الناس ، أو تحكمها بالقوة والسلط والاضطهاد . ثم ينشأ الصراع فيما بينهم أو مع أهل البلاد لإزالتهم . والاستعمار الحديث ليس إلا صورة لهذا التراث الزاخر .

وفي الإسلام يعتقد أهل البلاد عقيدته ويأخذون بشرعه طواعية . تمتزج العناصر كلها في ظل العقيدة ، متعاشة متعاونة متحابة . لذلك استمر الإسلام في المناطق التي وصل إليها وحافظ أهل البلاد عليه ، وحملوه إلى الآخرين ، وفَدَّوه بأنفسهم ، وصبروا حتى النهاية لكل ألوان الاضطهاد الخارجي والداخلي ، المتلون في كل صورة والسلوك لأي سبيل .

ارتفى العالم الإسلامي تولى السلطة من قِبَل مختلف العناصر والأجناس ، ماداموا

(١) راجع : درابر

History of the conflict between Religion and science, 31-2 (London, 1827).

نقل عن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ١٨٢ .

يدينون بالإسلام ويعملون به ، والشواهد كثيرة^(١) . والسلطات المحلية في أي من مناطق العالم الإسلامي هي أيضاً - حين قامت - حافظت على الإسلام عقيدة وشريعة وعملت في خدمته وعانت عليه بالتواجذ .

حين نتحدث عن الفتوحات الإسلامية وقوتها وسرعة مسيرها فإننا لانشير بذلك إلى تفوق المسلمين في القوة العسكرية والسلطة السياسية ، ولا نعمل ذلك بأي تفسير أو نرجع انتصار المسلمين إليه غير العقيدة .

لم يكن المسلمون متفوقين بالقوة الحربية أو المجد العسكري في قوتهم المادية أو تنظيماتهم الحربية أو إعدادهم الفني . بل كانوا دوماً - في فتوحاتهم - أقلَّ في الاستعداد والإعداد ، من عدوهم ، وأدنى منه في الجمع العددي والعُددي بكثير . وهي أمور ما كانوا - تفضيلاً - يحفلون بها أو يُعَوِّلون عليها ، ولا تأتي عندهم في طبيعة مقومات الانتصار . فليست هي المعتمد في الفتح ولا فيما بعده . إن الفتح فتح العقيدة التي سرعان ما يدخل الناس رحابها أفراجاً . فانتصار الإسلام وفتحاته معجزة أخرى تضاف إلى أحواتها .

يجب أن تدرس الفتوحات الإسلامية على هذه الأضواء التي تدعمها الحقائق المتوافرة وتبرزها الواقع المتضاد . فدراستنا الحالية للفتوحات الإسلامية غالباً ما تشير إلى العمل العسكري والجانب الحربي فيها ، ومع أنها تنتقص منها وتحاول تشويهها ، دراسة ناقصة . وهي محتاجة إلى البحث عن أعمال المسلمين ، دعاءً وفاتحين ، خلال جهودهم ومجرى حياتهم في الدعوة إلى الإسلام ، ومسلکهم الإنساني الرفيع ، والتزامهم الكريم في المعناد من تصرفهم . وذلك قِوام انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه واحتضانه وافتدايه .

لا يُرى فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وانتصار الإسلام المذهل فيها - كما في غيرها - في ظل أحواها قبل الفتح ، بل بصورة رئيسية فيما امتاز به الجيش الإسلامي من عقيدة

(١) راجع كذلك : *أندلسيات* ، ٢٢/٢ .

يفتدى بها بالنفس ، وفي قيم إنسانية حملها الفاتحون ، وعَبَرُوا عنها في سلوكهم ، أفراداً وجماعات ، أو حكاماً ومحكومين ، وحتى غالبين ومغلوبين .

ما من شك أن حالة إسبانيا أثراً سيئاً على مقاومتها . إلا أنه مهما قيل في ضعفها وسوء أحوالها فلا بدّ من اعتبار نوعية الجيش الإسلامي وحبه لإعلاء كلمة الله – سبحانه – التي افتداها بالحياة . هذه النوعية استطاعت إتمام فتح الجزيرة الإيبيرية في أربع سنوات ، وهو عمل لا يمكن أن يتكرر بسهولة بدون هذه النوعية .

ومن ناحية فإن عملاً حربياً سيواجه إسبانيا كلها من شأنه أن يلمّ كافة الأطراف ، مما له أثر في تقوية الجبهة القُوطية .

كان لإسبانيا وسلطاتها من تفوقها العسكري الكبير وكثرة عدتها وحربها في أرض تعرفها وقرب إمدادها ، ما يجنبها الخطر ويعوضها النقص وتنقدي به الضعف . بينما هي لم تكن بهذه المثابة من التردي ، إذ خاضت معارك وعرفت أحداثاً ، ولها في ذلك من التاريخ صفحات .

كان هذا الفتح الأمين سيم حتى لو تفاصلت إسبانيا تلك الظروف . لأن المدّ الإسلامي المُنْبِت المنير قد مزق - خلال سيره - حُجُب الظلام كافة ، وأزال حواجز الظلمات ، وهزم جيوش الضلال في كل مكان . وكذا حصل لتلك التي كان حالها أحسن ومقاومتها له أشد وأمن . فإن إحكام الظروف المادية وإنقاذ الأمور العسكرية لايقوم بها الفتح الإسلامي ، ولكنـه - قبلها - بمستلزمات العقيدة . فهي عامل النصر والفارق الذي يطبع الجيش الإسلامي ويميز سربه ويقود مده الدافق الكريم . وقلة الجيش الإسلامي الفاتح كانت سمةً مميزةً له في الفتوحات الإسلامية .

سرى كيف أن مقاومة القوط المسلمين كانت عنيفة ، وما بذلك الفاتحون وقائهمه عدّاً كبيراً . كان عدد المسلمين قليلاً وعددهم أقل ، ومحاربون في أرض جديدة مخبروها ، لكن عوامل الفتح تكمن في النوعية الباهرة لهذا الجيش الفريد والصفات الإنسانية الفذة التي حلّته بها عقيدته الربانية الخالدة . فهي موضوع الاختلاف وبها

كان النصر لا بغيرها . وهي وحدتها التي تستطيع فعل ذلك . فبدا القوط ضعافاً أمام هذا النوع من الجيش الفريد .

* * *

تذكر بعض الروايات فضل الملك لذريق وحسن سيرته ، وكذا الملك السابق غييطشة^(١) . المعروف أن لذريق كان حاكماً شجاعاً مهاراً قوياً وقائداً محرياً ، إذ « كان شجاعاً قد بَعْدَ صوته وطال ذكره في النصرانية ». ^(٢) لكن من السهل أن يرى الباحث عدم قدرة مثل هذه السلطة ، ولا غيرها ، على الوقوف أمام أناس أخلصوا عقيدتهم الرفيعة وتحمسوا لها ، فلا يهابون أحداً ولا يخلون بشيء من أجلها . هؤلاء هم الجيش الإسلامي وقيادته ، الذين قدّموا لفتح الأندلس^(٣) . وتاريخ الجيش الإسلامي – فيما تم قبل وبعد من فتوح – مليء بأنقى الصفحات وأشدّها نصاعة وأقواها ضياءً .

ثالثاً: نظرية في جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة الأوربية . تفصلها عن الشمال ، عن جنوب فرنسا ، جبال البرُّت - أو البرُّتات Pyrenees ، وتعرف بالاسبانية^(٤) – حيث تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة . يفصلها عن الجنوب –

(١) دولة الاسلام في الأندلس ، ٣٢ / ١ .

(٢) صلة السيطرة والمرتب ، ابن الشباط ، نشر سوية مع « الاكتفاء » لابن الكرديوس بعنوان « تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشساط » (نصان جيدان) ، ١٣١ ، كذلك: نفح الطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، ٢٥٠ / ١ ؛ فجر الأندلس ، ١٧ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٤١ ، ٣٤ / ١ ؛ أخبار مجموعة ، ٥ .

(٣) انظر : فجر الأندلس ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، السيد عبد العزيز سالم ، ٧١ .

(٤) تسمى هذه الجبال أحياناً « البرانس » . الظاهر أنها تسمية خاطئة ، لأن جبال البرانس تقع شمال قرطبة وتعرف أيضاً بجبال المعدن (Sierra de Almadén) . انظر : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٨٥ ، ١٢٩ ؛ الروض المطار ، ١٤٢ ؛ نفح الطيب ، ١٤٢ / ١ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٦١ ، ٤٨١ ؛ المريضة رقم : (١) ، من هذا الكتاب ص ٢٤ - ٢٥ .

حدوداً للقارة الأوربية ، عن إفريقيـة - مضيقُ جبل طارق الذي يبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب ١٣ - ٣٧ كم^(١) .

تقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى في الشمال الافريقي ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب الأقصى - وما بعده - برأً ، كما يصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط بحراً .

تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي عند خليج سقاية (Biscay) ، الذي عليه تقع مدينة خيخون (Gijon) . تقع سواحلها الغربية على المحيط الأطلسي ، الذي يعرف عند بعض الكتاب المسلمين : البحر الأخضر^(٢) أو البحر المحيط^(٣) أو البحر المحيط الرومي^(٤) أو البحر المظلم^(٥) أو بحر الظلمات^(٦) ، أو بحر الظلمة^(٧) ، أو أقيانس^(٨) . تقع شواطؤها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط ، ويسمى أيضاً : البحر الرومي^(٩) أو البحر الشامي^(١٠) ، أو بحر تيران^(١١) . ولا بدّ من إيضاح بعض المصطلحات قبل المضي في الحديث عن التاريخ الأندلسي :

(١) انظر كذلك : الاستبصار في عجائب الأمصار ، مجھول المؤلف ، ١٣٨ .

(٢) الروض المطار ، ٢٨ ، فتح الطيب ، ٢٧٦/١ ، ١٨٩/٣ (كأنه يطلقه على خليج سقاية = بسكاي) .

(٣) جغرافية الأندلس وأوربا ، البكري ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ٤ الروض المطار ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٤ ، ٨٣ ؛ المقدمة لابن خلدون ، ١/٤٢٧ ؛ تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٦٥ (نص ابن الشباط) ؛ فتح الطيب ، ١٣٧/١ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، ١٣/١ .

(٥) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١٦٩ ؛ الروض ، ٢ .

(٦) الروض ، ٢٨ .

(٧) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٢٧ .

(٨) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ٢٨ .

(٩) الروض ، ٢٨ ، ٦٢ ، ٨٣ ، ٦٢ ، ٤٢٧/١ ، ٤٦٤ ؛ فتح الطيب ، ١٣٢/١ .

(١٠) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٦ ، ٢٢ ، ١١٥ ، ٢٦ ، ٢٢ ، ١٢٦ .

(١١) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٢٨ (نص ابن الشباط) ؛ فتح ، ١/١٣٥ .

١ - مصطلح الأندلس ومدلوله

أصل مصطلح الأندلس مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني. احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها : فاندلسيا (Vandalusia)، أي : بلاد الوندال. ثم نُطقت بالعربية : الأندلس. أما مدلول هذا المصطلح فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون أحياناً على كل شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم)، والتي يسمونها أيضاً الجزيرة الأندلسية. ثم استعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنتها المسلمين وحكموها من شبه الجزيرة الإيبيرية^(١).

حدود الأندلس أيام الخلافة الأندلسية - مثلاً - تشمل كل البرتغال تقريباً وأكثر إسبانيا الحالية. كانت الأندلس تمتد جنوب الخط الافتراضي الذي يصل بين نهر دُورِه (Duero) في الغرب حتى برشلونة (Barcelona) في الشرق، مع ارتفاع إلى الأعلى في الوسط. يفصل هذا الخط بين إسبانيا النصرانية في الشمال وبين الأندلس (إسبانيا الإسلامية) في جنوبه.

حين يُذكر هنا اصطلاح الأندلس يُقصد به أيضاً - زيادة على ما سبق - المنطقة الإسلامية التي شملتها الإسلام، سلطاناً وسكاناً، من شبه الجزيرة الإيبيرية، وعلى الأغلب في شمالها أيام الخلافة الأندلسية. أو شاملة لكل شبه الجزيرة، كما تبين آنفاً.

تطلق اليوم كلمة أَنْدَلُسِيَا (Andalucia) بالإسبانية على المنطقة الجنوبيّة من إسبانيا. وهو اصطلاح إداري لا يمثل المعنى التاريخي المُبيّن لمصطلح الأندلس.

بعض أسماء الأمة والمدن في شبه الجزيرة الإيبيرية ذات أصل أندلسي، منقول إلى الإسبانية، أو أنه إسباني نقل إلى العربية. فعدد من الأسماء يتسم بطابعه الأندلسي. وكل اسم في الإسبانية - حالياً - مسبوق بـ ال التعريف دليل على أندلسيته أو تأثيره.

(١) راجع: جغرافية الأندلس، ٥٩؛ الروضن، ١٩٠٦-٤؛ نفح، ١٣٣/١-١٣٥؛ دولة الإسلام في الأندلس، ٢٧/١، ٥٠؛ أندلسيات، ١١/١.

Andalusian diplomatic relations with Western Europe, El-Hajji, 32 - 3.

كانت - ولازالت - تقوم في إسبانيا مدن وقواعد أندلسية ، بعضها كبرى ، تحفظ بآثار العمران الأندلسية ، مثل : قُرْطُبَة وإشْبِيلِيَّة وغُرْنَاطَة وطُلَيْطُلَة ومَالَقَة وغيرها .

٢ - الشعور الأندلسية

ووجدت في الأندلس ثلاثة ثغور أندلسية^(١) ، تقع على حدود إسبانيا النصرانية . وهي :

١ - الشَّغْرُ الْأَعْلَى^(٢) (أو الشَّغْرُ الْأَقْصِي)^(٣) : وعاصمته سَرْقَسْطَة (Zaragoza) ، يواجه مملكة نَبَارَة (Navarre = Navarra) .

٢ - الشَّغْرُ الْأَوْسَطْ : وعاصمته مدينة سالم (Medinaceli) ، ثم طُلَيْطُلَة^(٤) (Toledo) ، يواجه مملكتي : قَشْتَالَة (Castilla, Castile) وليون (León) .

٣ - الشَّغْرُ الْأَدْنِيْ : ويقع بين نهر دُوِيرَه ونهر تاجُه (Tajo) ، كانت عاصمته أولاً طُلَيْطُلَة^(٥) ، ثم حلَّتْ غيرها لعلها قُورِيَّة^(٦) (Coria) .

كانت في شمال إسبانيا ، حوالي القرن الرابع المجري ، ثلث دوليات نصرانية :

١ - ليون : في الشمال والشمال الغربي ، عاصمتها مدينة ليون ، تضم منطقتي جِلِيَّقِيَّة (Galicia) وأَسْتُورِيَّش (Asturias) .

٢ - قَشْتَالَة : وعاصمتها مدينة بُرْغُش (Burgos) ، وتقع بين ليون ونافار .

٣ - نَبَارَة (Navarre) : وعاصمتها مدينة بنْبُلُونَة (Pamplona) ، في الشمال والشمال الشرقي حيث تسكن قبائل البَشْكُنْس (Vascones, Basques)^(٧) .

(١) عن الثغور الأندلسية ، راجع : جغرافية الأندلس ، ٩٤ ؛ نفح ١٦١/١ .
Andalusian diplomatic relations, El-Hajji, 65-6.

(٢) انظر مثلاً : نفح ، ١٦١/١ ، ١٦٦ .

(٣) انظر مثلاً : نصوص عن الأندلس ، ٢٧ ؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذاري ، ٢/١٧٢ .

(٤) راجع : نفح ، ١٦١/١ . انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٣٧/١ .

(٥) انظر : المقبس في أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان القرطبي ، ١٨/٢ ؛ نفح ، ١٦١/١ .

(٦) انظر : المسالك والمالك ، ٣٦ ؛ دولة الاسلام ، ٣٢٩/١ .

(٧) راجع : أندلسيات ، ٣٩/٢ وما بعدها .

يوجد في شبه الجزيرة الإيبيرية الكثير من المناطق الخصبة والأنهار ، كما أن فيها المرتفعات والجبال الصخرية العالية . وقد جَمَعَت الأندلس خواصَ كثيرة ، أوردها عدد من الجغرافيين الأندلسيين ^(١) .

رابعاً: العهود التي مرت بها الأندلس

استقر حُكْمُ الْاسْلَامِ في شبه الجزيرَةِ الإِبِيرِيَّةِ ثمانيةِ قرونٍ ، مِنْذَ فَتُحِّمَا — بِقِيَادَةِ طارقِ بْنِ زِيَادٍ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَآخَرِينَ — سَنَةَ ٩٢ هـ (٧١١ م) حَتَّى سُقُوطُ غَرْنَاطَةِ سَنَةَ ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . وَمَرَّتُ الأَنْدَلُسُ فِي هَذِهِ الْقَرْوَنَ بَعْدَ عَهُودٍ ، تَقْلِبَتْ خَلَاهَا بَيْنَ الْبُضُوفِ وَالْقُوَّةِ وَبَيْنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ . وَيُمْكِنُ إِجْمَالُ هَذِهِ الْعَهُودِ ، الَّتِي كَانَ لِكُلِّ مِنْهَا طَابَعٌ مُّمِيزٌ ، عَلَى النحوِ التَّالِيِّ :

أولاًً : عهد الفتح الذي استمر حوالي أربع سنوات : ٩٢ - ٩٥ هـ (٧١١ - ٧١٤ م).

ثانياً : عهد الولاية : ٩٥ - ١٣٨ هـ (٧٥٥ - ٧١٤ م). ويُعتبر بعضُ المؤرخين مدة الفتح داخلة في هذا العهد ، الذي ينتهي بِمجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) . وقد حَكَمَ الأَنْدَلُسَ فِي هَذَا الْعَهْدِ - الَّذِي اسْتَمَرَ حَوْلَى ٤٢ سَنَةً - عَشْرَوْنَ وَالْيَاءَ تَقْرِيبًا ، كَانُوا تَابِعِينَ لِلْخَلَافَةِ فِي دَمْشَقِ مُباشِرَةً أَوْ بِوَاسِطَةِ وَلَايَةِ الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّيِّ (إِفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ) .

ثالثاً : عهد الإمارة : ١٣٨ - ٣١٦ هـ (٧٥٥ - ٩٢٩ م). ويبدأ منذ مجيء الداخل إلى الأندلس حتى إعلان الخليفة من قِبَلِ عبد الرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، وقد أَسْسَ الدَّاخِلِ إِمَارَةً مُسْتَقْلَةً عَنِ الْخَلَافَةِ الْعَبَاسِيَّةِ ، اسْتَمَرَتْ مِئَةً وَثَمَانِيَّ وَسَبْعِينَ سَنَةً .

رابعاً : عهد الخليفة : ٣١٦ - ٤٠٠ هـ (٩٢٩ - ١٠٠٩ م). ويبدأ منذ إعلان

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٥٧ - ٧٠ ؛ نفح ، ١٢٦/١ ، ١٤٠، ١٤٤ - ١٦٧، ١٤٤ - ١٦٧.

الخلافة حتى وفاة الحَكَم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ، أو حتى الدولة العاميرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) . فكان عمر الخلافة حوالي القرن .

خامسًا : عهد الطوائف : ٤٠٠ - ٤٨٤ هـ (١٠٩١ - ١٠٩٩ م) . وهو عهد دول (أو ملوك) الطوائف ، الذي سبّقه أعوام من الفوضى . وقد استمر هذا العهد حوالي ثلاثة أرباع القرن ، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين .

سادسًا : عهد المرابطين والموحدين : ٤٨٤ - ٦٢٠ هـ (١٠٩١ - ١٢٢٣ م) ، حيث دخلت الأندلس أولاً في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالي ٥٢٠ هـ (١١٣٤ م) ، أي لأقل من نصف قرن . وبعد مدة تتضمن الأندلس حكم الموحدين (قرابة القرن) الذي ينتهي في حوالي سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . ويمكن اعتبارهما عهدين مستقليين .

سابعاً : مملكة غرناطة : ٦٢٠ - ٨٩٧ هـ (١٢٢٣ - ١٤٩٢ م) ، حيث تقوم دولة بني الأحمر وتستمر ما يزيد على قرنين ونصف ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . ويتمثل سقوطها نهاية الحكم الإسلامي للأندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسي منها . وتبقى ملايين عديدة من المسلمين عشرات السنوات ، لكنهم تحملوا الكثير من الاضطهاد وعمليات الإفقاء ، التي أنت عليهم ، قتلاً وتشريداً وإذابة . وكادت تأتي على كل ما خلفه المسلمون - بأجناسهم - من إنتاج إنساني رفيع كريم شَمَّلَ مختلف الميادين .

الفِيصلُ الْأَوَّلُ

فِي
تَبَعِي
الْأَنْدَلُسِ

- أولاً : مقدمة .
- ثانياً : مراحل الفتح .
- ثالثاً : استدعاء موسى وطارق .



أولاً : مقدّمات الفتح

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً ، حسب الخطوة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم ، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم. وذلك بالمضي في جهادهم إلى ماوراء تلك الحدود ، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقضي أن يستمر المد الإسلامي مادامت فيه القوة على الاستمرار . ولما وصل نيار الفتح إلى شمال إفريقيا ، كان المد الإسلامي المكين يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة . ومن هنا ما كان متوقراً من هذه القوة الجديدة – التي دفعت بالقائدين بها والعاملين فيها إلى الاستمرار – أن تقف عند شواطئ إفريقيا الشمالية الغربية . فكان طبيعياً ومتوقعاً عبور هذا المد إلى إسبانيا ، عبر المضيق (المجاز أو الزقاق) .

بعد أن أرسى موسى بن نصير ، ومن معه ، كلمة الإسلام بجهودهم في الشمال الإفريقي ، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس . وقد اتبع موسى خطوة سليمة أكمل بها جهود من سبقه من الجند الدعاة – قادةً وجيشاً – في ترسيخ قدم الإسلام في المغرب الكبير ، وأدرك – وتلك سُنَّة مُتَّبَعة – أن تعزيز الإسلام وإقراره يتطلب تثبيته في النفوس ، ليحافظ عليه ذاتياً ، وكيفما تحبظ قلوب الناس – لا القوة الغشوم – هذا الدين الجديد^(١) ، وتلك أصالة فيه ، وأسلوب واضح ثابت ، تقييمه طبيعة هذا الدين ولا ترتضى غيره بديلاً. لذلك جهز موسى بن نصير جيشاً من نوع جديد – وكل جيوش المسلمين كذلك – يحمل العلم والمعرفة الإسلامية ، لترسيخ وتفقيه وإفهام المغاربة هذا الدين . مثل هذه الخطوة لها اعتبارها دوماً وهي متتبعة في كل الظروف ، وأمكن بهذا لأن يرسخ الإسلام في قلوبهم فحسب ، بل غدوا يتسمون نشره في الخارج^(٢) . حتى لقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الإيبيرية من المسلمين

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذاري ، ٤٢/١ .

(٢) انظر : نفع الطيب ، ٢٣٩/١ .

البربر ، الذين تحمسوا لهذه العقيدة ، حبّاً لها وتضحية من أجلها ، لاطماعاً في مَغْنِتٍ أو حرضاً على جاه . هذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية ، التي يكفي الاطلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزورة ، التي تشير - تلميحاً أو تصريحاً - إلى اعتبار الغنائم سبباً في هذا الفتح ، وهو أمر مضحك ومثير . تاريخ الفتوحات الإسلامية شاهد ثابت قوي في بيان هذه الحقيقة الساطعة^(١) . ومتابعة تاريخها ينهار هذا الوهم وأمثاله ، مما لا يحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السندي التارينجي .

فكرة الفتح :

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الإيبيرية هي فكرة إسلامية تماماً . بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان^(٢) . فقد كان القائد عقبة ابن نافع الفهري (٦٣ هـ) يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع^(٣) . وسبق لل المسلمين نشاط على شواطئ إسبانيا الشرقية وبعض جزر^(٤) (الجزائر الشرقية Islas Baleares , Balearic Islands) القريبة منها ، وهي مَسْنُورَةَ (Mallorca) - كبراهما - وَمَسْنُورَةَ (Menorca) واليابسة (Ibeza)^(٥) . يذكر النهي (٧٤٨ هـ)

(١) راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٧١ ؛ المسلمين في أوربا في العصور الوسطى ، إبراهيم علي طرخان ، ١٢٦ ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٤٤ .

(٢) البيان المغرب ، ٤/٢ ؛ نفح ، ٢٠٤/١ ؛ تاريخ الطبرى ، ٤/٢٥٣-٢٥٥ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير ، ١٥٢/٧ ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٣٦٧-٣٦٨ (بحث عبد العزيز الشعالي) ؛ الحلل السنديسة في الأخبار والآثار الأندلسية ، شكيب أرسلان ، ١/٢٣٨-٢٣٥ ؛ جغرافية الأندلس ، ١٣٠ ؛ الروض ، ٣ . قارن : نفح ، ٢٠٤/١ - ٢٠٥ .

(٣) البيان المغرب ، ٢٦/١ - ٢٧ . قارن : فجر الأندلس ، ٥٤ ؛ دولة الإسلام ، ١/٢٠ .

(٤) انظر : المسلمين في أوربا ، ١٢٦ ؛ دولة الإسلام ، ١/٢٥ ، ٣٩ .

(٥) راجع عن هذه الجزر : المغرب في حل المغرب ، ابن سعيد الأندلسي وأسرته ، ٢/٤٦٦-٤٧٠ ؛ الروض ، ١٨٥ ، ١٨٠ ، ٢٨٨ ، ١٩٨ ، ١٦٩/١ ؛ نفح ، ١٦٩/١ . صفة الأندلس (من ذرّة المشتاق في اختراق الآفاق) ، ٢١٤ . (= الحلل السنديسة ، ١/١٤٧ - ١٤٨) .

أنه في سنة ٨٩ هـ (جهز موسى بن نصيّر ولده عبد الله . فافتتح جزيرتي مَيْوُرْقَة وَمَنْوُرْقَة) ^(١) .

أما الاتصال بِيُلْيَان (Julian) حاكم مدينة سَبْتَة (Ceuta) ، أو بغيره من الإسبان ، فإنها جاءت مواتية على ما يبدو . في الوقت الذي كان موسى بن نصيّر (والى الشمال الإفريقي قبل وخلال فتح إسبانيا) يفكر في تنفيذ فكرة الفتح .

لكن كيف تم الاتصال بالخانب الإسباني (يُلْيَان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم)؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالرسالة أو باللقاء الشخصي ، وأين؟ إذا كان هذا الاتصال أصلًا قد تم وبهذا المستوى . على كل حال فإن اتصالات الخانب الإسباني بموسى ومساعديهم – أثناء عمليات الفتح – ربما كانت عاملاً مساعدًا سهل سير الفتح أو عجل به . لكن المبادأة ومرد العمليات وإنجازها كانت من الخانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة مرتكزاً على عقيدته .

لعل موسى بدأ استشارته للخلافة في دمشق (الوليد بن عبد الملك : ٨٦ - ٩٦ هـ) قبل اتصالاته بِيُلْيَان ، أو اتصال هذا الأخير بموسى . وقد ترددت الخلافة – بادئ الأمر – بالقيام بمثل هذا العمل الكبير ، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مقاوم أو إيقاعهم في مهالك . لكن موسى أقنع الخليفة الوليد بالأمر ؛ ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية .

أرسل موسى في رمضان سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) سرية استكشافية إلى جنوب إسبانيا مكونة من خمس مئة جندي ، منهم مئة فارس بقيادة طَرِيف بن مالك الملقب بأبي زُرْعَة ، وهو مسلم من البربر ^(٢) . وجاز هذا الجيشُ الزَّقَاقَ – اسم يطلق أحياناً على المضيق ^(٣) – من سَبْتَة ، بسفن يُلْيَان أو غيره ، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما

(١) العبر في خبر من غير ، الذهبي ، ١٠٤/١ . كذلك : المغرب ، ٤٦٦/٢ ؛ نفح ، ٢٧٩/١ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٤٠٢/٤ .

(٢) نفح ، ١٦٠/١ ، ٢٥٣ ، ٢٣٣ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ؛ الروض ، ٨ ، ١٢٧ . قارن : تاريخ الأندلس ، ٤٥ (نص ابن الكريديوس) ، ١٣١ (نص ابن الشباط) ؛ البيان المغرب ، ٥/٢ .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ٨٣ ، ١٢٧ ؛ المقدمة ، ابن خلدون ، ٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٣٣ ، ٢٢٢ ، ١٤٥ ، ١٢٩ ، ١٢٧/١ ؛ نفح ، ٤٢٧/١ .

(*Isla de las Palomas*) في الجانب الإسباني ، وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد : جزيرة طريف^(١) (*Tarifa*) . عادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح^(٢) . وفي ذلك ينقل المقرري وغيره نصوصاً موضحة : « فكتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يليان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها ، ولا تغدر بال المسلمين في بحر شديد الأحوال ، فراجعه أنه ليس ببحر زحّار ، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلا بدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البرابرة اسمه طريف يُكْنَى أبا زُرْعَةً في أربعينات رجل معه مئة فرس ، سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالحضراء ، التي هي اليوم معبر سفائفهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم جزيرة طريف لتروله بها »^(٣) .

من المتوقع أن يكون طريف درس أحوال المنطقة وتعرف على موقعها ، وأرسل جمادات إلى عدة أماكن – منها جبل طارق – لهذا الغرض . فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل .

ثانياً : مراحل الفتح

بعد رسم خطة البدء بعمليات الفتح ، جهز موسى بن نصير جيشاً من سبعة آلاف جندي من المسلمين البربر ، ليس فيهم من المسلمين العرب إلا العدد القليل^(٤) . واختار

(١) المغرب ، ٣١٩/١ ؛ نفح ، ١٦٠/١ ؛ الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، محمد عبد الله عنان ، ٢٧٨ .

(٢) راجع : دولة الإسلام ، ٤٠/١ ؛ فجر الأندلس ، ٦٧ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٠ .

(٣) نفح ، ٢٥٣/١ . كذلك : البيان ، ٥/٢ ؛ الروض ، ٨ ، ١٢٧ ؛ أخبار مجموعة ، مجھول المؤلف ، ٥ - ٦ . ومعلوماتنا عن طريف قليلة جداً .

(٤) الروض ، ٩ ؛ نفح ، ١/٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ؛ البيان ، ٦/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ابن خلkan ، ٣٢٠/٥ .

طارق بن زياد - والي طنجة - قائداً لهذه الحملة ، التي تلتها - فيما بعد - نجدة من خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك . وطارق هذا مسلم بربري من قبيلة نفرزة^(١) (وهي من البُسْرُ)^(٢) . كان طارق عسكرياً ناجحاً وقائداً ممتازاً ، مخلصاً للإسلام ، متحمساً لنشره . ونحن لا نعرف كثيراً عن الحياة المبكرة لهذا القائد المسلم^(٣) . ييد أن موسى كان يثق به وبكتفاءه لهذا العمل الجليل الذي أناناه به .

حملة طارق

وفي العام التالي لحملة طريف عبر طارق وجيشه من سبتة أيضاً - سفن يليان^(٤) أو بغيرها - إلى الطرف الإسباني ، في الخامس من شهر رجب ٩٢ هـ (نيسان ٧١١) . ومن غير بعيد أن تكون للمسلمين سفن عملت واستعملتها جيش طارق في هذه الحملة ، وحدها أو مع غيرها .

سفن العبور : الباحث المتحرى في واقعية هذا الموضوع يسعه التردد في قبوله ، أو لعله يشك في واقعيته . الراجح تماماً أنه كانت للمسلمين سفنهم ، استعملها جيشهم في فتح الأندلس ، وهي تعبير المضيق إليها منذ حملة طريف الاستطلاعية سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) ، وذلك :

١ - كان اهتمام المسلمين الواضح في صناعة السفن مبكراً ، وقد أدركوا حاجتهم إليها ، وأقاموا عدة دور لصناعة السفن ، مثل دار الصناعة في تونس التي أقامها الحسان بن النعمان الغساني^(٥) والي الشمال الإفريقي (٨٦ - ٧٦ هـ) . بل إن معركة بحرية صميمية خاضها المسلمون على شواطئ تونس سنة ٣٣ هـ أو ٣٤ هـ هي معركة ذات السواري استعملوا فيها أسطولهم المكون من متى سفينة^(٦) .

(١) نفح الطيب ، ٢٥٤/١ . (٢) المسالك والمالك ، الاصطخري ، ٣٦ .

(٣) انظر : البيان ، ٤٣/١ ؛ نفح ، ٢٣٠/١ ، ٢٣٩ ؛ دولة الاسلام ، ٤١/١ .

(٤) راجع : نفح ، ٢٥٤/١ ؛ فجر الأندلس ، ٦٨ ؛ دولة الاسلام ، ٤٠/١ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٠ .

(٥) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ، ابن أبي دينار ، ١٥ ، ٣٥ .

(٦) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر ، ٩١٩/٣ ؛ العبر ، الذهبي ، ٣٤/١ .

كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٣١١/١ .

٢ - كان قد مضى على فتح الشمال الإفريقي عقود من السنين - قبل فتح الأندلس - وكانت شواطئه الطويلة المتعددة على المتوسط والأطلسي تجعلهم بحاجة إلى السفن ، وهو أمر لا يتم بالإعارة ولا تفيه .

٣ - سبق لل المسلمين نشاط بحري حربي من الشمال الإفريقي . ففي سنة ٤٦ هـ وجّه معاوية بن حدّيْج - والي الشمال الإفريقي - أسطولاً إسلامياً ، عَدَّهُ مائة سفينة ، لفتح جزيرة صقلية^(١) . وفي سنة ٥٨٦ هـ ولّى موسى بن نصير عيَاش بن أخْيَل قيادة مراكب ، صُنِّعت في تونس ، إلى صِقلِّية^(٢) . كما مرّ بنا نشاطهم على سواحل الأندلس والجزائر الشرقية^(٣) .

٤ - فتحت طنجة متذلاة عُقبة بن نافع (٦٣ هـ) ، وهي مبناء صالح ليكون « دار الصناعة » للسفن .

٥ - ذَكَرَتْ عدة من مراجعنا أن طَرِيفَ بن مالك استعمل أربع سفن للعبور بسريرته الخمس مائة جندي المضيق إلى الأندلس^(٤) ، وأن هذه السفن الأربع استعملها طارق للآلاف السبعة التي قادها عبر المضيق^(٥) . فلم تذكر اسم يُلْيَان بهذه المناسبة ، كما تخبرنا بأن موسى استمر في تحضير السفن « وكان عَمِيل من السفن عَدَّة »^(٦) ، « وكان موسى متذلاة طارقاً لوجهه ، قد أخذ في عمل السفن حتّى صار عنده منها عَدَّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددأً »^(٧) . وإن كان ابن عذاري ذكر أن يُلْيَان هيَّا « مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس »^(٨) لنقل أول جيش طارق . وحتّى على هذا فهي ليست يُلْيَان الذي عاون في تأجيرها لمعرفة بها .

٦ - لدينا خبر يشير إلى توفر وجود السفن (أو صناعتها) في الأندلس ، بُعْيَد

(١) البيان المغرب ، ١٦/١ - ١٧ . (٢) البيان ، ٤٢/١ .

(٣) أعلاه ، ٤٤ - ٤٥ [والمراد من كلمة « أعلاه » ما سبق من الكتاب] .

(٤) أخبار مجموعه ، ٦ .

(٥) أخبار مجموعه ، ٦ ؛ نفح ، ٢٣١/١ (نقلًا عن ابن حيان) .

(٦) نفح ، ٢٤٢/١ (نقلًا عن ابن حيان) . كذلك : البيان ، ٥/٢ .

(٧) نفح الطيب ، ٢٥٧/١ .

(٨) البيان المغرب ، ٦/٢ .

فتحها . ذكر الحُمَيْدِي في جنوة المُقْتَبِس أن عَيَّاشَ بْنَ شُرَاحِيل (أو عَبَاسَ بْنَ أَجِيل) الْحِمِيرِي : « دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ وَقَدِمَ بِالسُّفُنِ مِنْهَا إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ سَنَةَ مَئِةٍ . »^(١) وَلَعِلَّهُ يَفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ قَدْوَمَ هَذِهِ السُّفُنِ مِنْ دَارِ صِنَاعَةِ سُفُنِ الْأَنْدَلُسِ ، وَفِيهِ بَيْانٌ مُقْدَارٌ عَنِّيَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِصِنَاعَتِهَا .

٧ - الْقِيَامُ بِعَمَلِيَّةِ فَتْحِ مُثَلِّ الْأَنْدَلُسِ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَفْيِي بِحَاجَتِهِ اسْتِعَارَةِ سُفُنِ ، لَا سِيمَا وَأَنَّ النَّشَاطَ الْبَحْرِيَّ مَأْلُوفٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينِ ، وَسَبَقَ التَّهْوِيُّ لِفَتْحِ الْأَنْدَلُسِ قَبْلَهُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ . وَامْتِلَاكُ السُّفُنِ وَصِنَاعَتِهَا أَحَدُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ^(٢) .

كُلُّ ذَلِكَ يُؤْكِدُ أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ دُورٌ صِنَاعَتِهِمُ الْخَاصَّةُ لِمَدِهِمُ فِي هَذَا النَّشَاطِ بِالسُّفُنِ . وَهُوَ يُرْجِحُ أَنَّ السُّفُنَ الَّتِي اسْتَعْمَلُهَا الْمُسْلِمُونُ فِي فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ كَانَتْ أَكْثَرُهَا أَوْ كُلُّهَا إِسْلَامِيَّةُ الصِّنْعَةِ ، أَنْتَجَتْهَا دَارٌ قَرِيبَةٌ أَوْ جُلُبَتْ مِنْ دُورٍ أُخْرَى بَعِيدَةً .

تَجْمُعُ الْجَيْشِ : كَانَ نَقْطَةُ تَجْمُعِ الْجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ فِي الْطَّرِفِ الإِسْبَانِيِّ عَلَى جَبَلِ صَخْرِيِّ عِرْفٍ فِيمَا بَعْدَ بِاسْمِ جَبَلِ طَارِقِ^(٣) (Gibraltar) ، كَمَا عُرِفَ بِهِ الْمُضِيقُ ، وَبِكُلِّ الْلُّغَاتِ . وَهَذِهِ مِكَافَأَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ طَيِّبَةٌ عَلَى عَمَلِ طَارِقِ وَتَحْلِيلِ لِبَطْوَلَتِهِ ، زِيَادَةٌ عَلَى مَكَانِتِهِ فِي نَفْوِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَقْدِرُونَ هَذِهِ الصَّفَاتَ وَيَشْيَدُونَ بِهَا الْعَمَلُ . إِلَّا أَنَّهُ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكُ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ^(٤) وَلَقَدْ سُمِيَّ هَذَا الْجَبَلُ – بَعْدَ الْفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ – بِأَسْمَاءِ أُخْرَى ، مَثَلُ : الصَّخْرَةُ وَجَبَلُ الْفَتْحِ^(٥) ، لَكِنَ الشَّائِعُ : جَبَلُ طَارِقِ .

عُرِفَ جَبَلُ طَارِقِ – قَبْلَ ذَلِكَ – Mons Calpe (جَبَلُ كَالِبِيِّ) وَسُمِيَّ هُوَ

(١) جنوة المقتبس ، ٣٢٢ (رقم : ٧٤٢) . كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٣٤٤/١ (رقم : ١٠١٤) . لم يعش هذا هو المذكور في الصفحة السابقة فقرة ٣ .

(٢) أدناه ، ٦٩ ، ٥٢ . (٣) نفح الطيب ، ١٤٥/١ ، ١٤٦-١٥٩ ، ١٦٠-١٥٩ .

(٤) من الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٥) تاريخ الأندلس ، ٤٦ (نص ابن الشباط) ؛ نفح ، ١٦٠/١ ، ٢٣٠ ؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٤٥٢ .

وَجَلْ أَيْلَا الْمُقَابِلَ لِهِ عَلَى السَّاحِلِ الْإِفْرِيقِيِّ : أَعْمَدَةُ هِرَقْلٍ^(١) . (Columnas de Hercules).

يَعْتَبِرُ ابْنُ حَزْمٍ – فِي رِسَالَتِهِ الْقِيمَةِ فِي فَضْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّتِي حَفَظَهَا لَنَا الْمَقْرَرِيُّ كَامِلَةً^(٢) – فَاتْحِي الْأَنْدَلُسِ هُمُ ثَانِيَ الْجَمَاعَتَيْنِ اللَّتِيْنِ أَخْبَرَ عَنْهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ شَرِيفٍ لَهُ فِي فَضْلِ الْجِهَادِ فِي الْبَحْرِ^(٣) . وَتَلَكَ إِحْدَى مَعْجَزَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَقَدْ رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى بَيْتِ خَالِتِهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ أُمِّ حَرَامَ بِنْتِ مِلْحَانَ زَوْجِ عُبَيْدَةَ بْنِ الصَّامتِ « فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَأَطْعَمَهُ ثُمَّ جَلَسَ تَفْلِيَّا مِنْ رَأْسِهِ ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ اسْتِيقْظَ وَهُوَ يَصْحَّكُ ، قَالَتْ فَقَلَتْ : مَا يَصْحَّكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَاسٌ مِنْ أُمِّي عَرَضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَرْكَبُونَ شَبَّاجَ هَذَا الْبَحْرَ ، مَلُوكًا عَلَى الأُسْرَةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الأُسْرَةِ (يَشَكُ أَيْمَانًا قَالَ) قَالَتْ : فَقَلَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَدَعَاهَا ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ، فَنَامَ ، ثُمَّ اسْتِيقْظَ وَهُوَ يَصْحَّكُ ، قَالَتْ : فَقَلَتْ : مَا يَصْحَّكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « نَاسٌ مِنْ أُمِّي عَرَضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ فِي الْأُولَى ، قَالَتْ : فَقَلَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ . قَالَ : « أَنْتَ مِنَ الْأُولَى » ، فَرَكِبْتَ أَمْ حَرَامَ بِنْتَ مِلْحَانَ الْبَحْرَ فِي زَمْنِ مَعَاوِيَةَ ، فَصُرُّعْتَ عَنْ دَابِّتِهَا حِينَ خَرَجْتَ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكْتَ . »^(٤)

يَقْرَرُ ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ الْمَصْوُدَ حَتَّىَ بِالْجَمَاعَةِ الثَّانِيَةِ هُمُ فَاتْحُو الْأَنْدَلُسُ ، وَهُوَ شَرِيفٌ لَهُ . ثُمَّ يَعْلَقُ عَلَى ذَلِكَ مَبِينًا أَهْمَيَّةَ التَّدْلِيلِ وَارْتِبَاطِهِ بِالْوَرْعِ . وَهُوَ أَمْرٌ مِنْهُمْ فِي مَعْرِفَةِ مَسْتَوِيِّ وَمَقْوِمَاتِ الْعِلْمِ وَخَلْقِهِ عَنْدَ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ يَشِيرُ إِلَى الْحَادِثَةِ وَمَدْلُولَهَا بِقَوْلِهِ :

(١) الْآثارُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ ، ٢٨٤ ؛ تَارِيخُ الْأَنْدَلُسِ ، ٤٦ ؛ رَحْلَةُ ابْنِ بَطْوَةَ ، ٦٦٥ ؛ *Histoire de l'Espagne Musulmane*, E. Levi-Provençal, I, 18.

(٢) نَفْعُ الطَّيْبِ ، ١٥٦/٣ - ١٧٩ .

(٣) نَفْعُ الطَّيْبِ ، ١٦١/٣ .

(٤) مُنْخَرِضُ صَحِيحِ مَسْلِمَ ، الْحَافِظُ الْمَنْذُريُّ ، ٤٠٥/٢ - ٤٥٦ . وَكَانَ مَا جَرِيَ لِأَمْ حَرَامَ فِي فَتحِ جَزِيرَةِ قَبْرِصِ سَنَةُ ٢٨٥ هـ ، أَيَّامُ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عَهْبَانَ بْنَ عَفَانَ ، وَكَانَتِ الْحَمْلَةُ بِقِيَادَةِ مَعَاوِيَةِ بْنِ أَبِي سَفِيَّانَ .

« ومثل هذا من التأويل لا يتراهل فيه ذو ورَّاع ، دون برهان واضح وبيان لائع ، لا يتحمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح فالجواب – وبالله التوفيق – أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قد أُوتِي جوامِع الكلم وفصْل الخطاب ، وأمْرَ بالبيان لما أُوحِي إلَيْه ، وقد أخْبَرَ في ذلك الحديث المتصل سندُه بالعُدُول عن العدُول بطائفتين من أمْمَتَه يركبون ثَبَّاجَ هذا البحْر غُزَاة واحدة بعد واحدة ، فسألَه أَمْ حرام أن يدعُو ربَّه تعالى أن يجعلها منهم ، فأَخْبَرَهَا صلَّى الله عليه وسلَّم وخبرُه الحق بِأَنَّها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وضَعَ البرهان على رسالته بذلك ، وكانت من الغُزَاة إلى قُبْرُس ، وخرَّت عن بعلتها هناك ، فتوفيت ، رحْمَهَا الله تعالى ، وهي أول غُزَاة رَكِبَ فيها المُسْلِمُونَ البحْر ، فثبتَ يقيناً أنَّ الغُزَاة إلى قبرس هُم الأوَّلون الذين بَشَّرَ بهم النَّبِي صلَّى الله عليه وسلَّم ، وكانت أَمْ حرام منهم كما أَخْبَرَ صَلَواتَ الله تعالى وسلامَه عليه ، . . . »^(١).

١ - معركة وادي برِّباط

بعد أن استكمل طارق تجمعياته على الجبل ، وضع الخُطَّة أو درسها واستكمالها – ربما مستفيداً من يُلْيَان وأعوانه ، في هذه المرحلة أو قبلها – وتم ذلك بكتمان وإحكام . « فمضى لسبتة ، وجاز في مراكبه إلى جبل ، فأُرسَى فيه فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك ستة اثنتين وتسعين من الهجرة . ووُجِدَ بعض الروم وقوفاً في موضع وَطِيءٍ كان عَزَمَ التزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر ، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون »^(٢). يذكر ابن حَيَّان أن طارقاً تجهز « في سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهم من البربر ، في أربع سفن ، وحطّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، ولم تزل المراكب تعود حتى تَوَافَى جمِيعُ أَصْحَابِه عندَه بالجبل »^(٣) .

(١) نفح الطيب ، ١٦١/٣ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٤٦ (نص ابن الكردبوس) . كذلك : البيان المغرب ، ٩/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٢١/١ .

سار الجيش الإسلامي منحدراً إلى جنوب إسبانيا في الجزيرة الخضراء (Algeciras) . وهناك وقعت مناوشات في معركة أو أكثر مع قوات القوط ، انتصر فيها المسلمين . يذكر صاحب تحفة الأنفس أن قتالاً جرى عند أو قرب جبل طارق ، قبل معركة البرباط الرئيسية : « فاقتتلوا ثلاثة أيام وكان على الروم تدْمِير ، استخلفه لذرِيق ملك الروم ، وكان قد كتب إلى لذرِيق ليعلمه بأن قوماً لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إلى بنسك »^(١) .

بينما كان لذرِيق منشلاً بقمع بعض الثورات في الشمال ، جاءه الخبر الذي وقع عليه وقع الصاعقة ، وبدأ يتجهز لقاء الجيش الإسلامي . ولما علم طارق بأخبار هذا التجمع الكثيف كتب إلى موسى يستنجد به . فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف محارب ، بقيادة طريف بن مالك^(٢) . حملتهم سفن عملها المسلمون ، لعل يُلْيَان هنا قدم التسهيلات لعبورهم . وكلت عدة الجيش الإسلامي التي عشر ألف محارب جلهم من المسلمين البربر^(٣) .

يخبرنا صاحب أخبار مجموعة أن طارقاً « كتب إلى موسى يستعدّه وينبهه أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البُحَيْرَة وأنه قد زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به ، وكان موسى مُذْهَبَ وجهه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافي المسلمين بالأندلس عند طارق اثنان عشر ألفاً »^(٤) . بل نقل المقرري أن عدد الجيش كان « اثنان عشر ألفاً من البربر خلا اثنين عشر رجلاً »^(٥) هم من المسلمين العرب .

أما ابن خلدون فيقول بأن طارقاً « أجاز البحر سنة اثنين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصیر في نحو ثلاثة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء

(١) تحفة الأنفس وشمار سكان الأندلس (مخطوطة) ، علي بن عبد الرحمن بن هذيل ، ٧٠ .

(٢) انظر : العبر ، ٤/٢٥٤ = نفح الطيب ، ١/٢٣٢ .

(٣) نفح الطيب ، ١/٢٣٩، ٢٣١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ٧ .

(٥) نفح الطيب ، ١/٢٣٩ .

عشرة آلاف ، فصييرهم عسكريين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح ، فسمى جبل طارق به ، والآخر طريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف ، فسمى به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن «^(١)».

جمع لُدُرِيق ما أمكنه جمعه من الجيش ، وقد اختلفت الروايات التاريخية في عدد جيشه ، فجعلها بعضهم مئة ألف «^(٢)» . وأقل تقدير هو أربعون ألفاً ، وهو ما يرويه ابن خلدون «^(٣)» . ويبدو أن الجيش القوطي كان يشعر بقوته وكان متاكداً من تغلبه ، إلى درجة أنهم أعدوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين ، كما يذكر ابن الكربابوس : « فلما انتهى خبره إلى لُدُرِيق ، خرج إلىلقائه في مئة ألف فارس ومعه العَجَل تحمل الأموال والكِسَا ، وهو على سرير تحمله ثلاثة بغلات مقرنونات ، وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت ، وعلى جسمه حلة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الإبريم ، ومعه أعداد دواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى ، إذ لم يَشْكُّ في أخذهم » «^(٤)».

كان الجيش القوطي يفوق الجيش الإسلامي مرات عديدة في العدد والعدد ، وربما في التنظيم والتدريب ، وهو يحارب في بلد يعرفه و قريب من مصدر الإمداد . لكن الجيش الإسلامي كان متفوقاً بالروح المعنوية ، أو بشكل أدق بقوة العقيدة وأهدافها السامية . فكان هذا الجيش متancockاً قوي البناء شديد الاندفاع ، مستعداً للاستشهاد ، يسترخص الحياة من أجل هذه العقيدة ، متعالياً على كل روابط الأرض ودفاع الدنيا ومنافع الحياة «^(٥)» . على حين كان الجيش القوطي يفتقد هذه المعاني ، فيشقه واقعه ، وتفت فيه عوامل ضعف أسيرة تجاه هذه العقيدة الميرة .

هناك نقطة لا بدّ من الإشارة إليها ، وهي : أن أحوال إسبانيا كانت

(١) العبر ، ابن خلدون ، ٤ / ٢٥٤ (=فتح ، ١ / ٢٣٣).

(٢) فتح ، ٢٣١ / ١ ، ٢٥٧ ؛ دولة الإسلام ، ٤٢ / ١ ؛ فجر الأندلس ، ٧٢ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٥ . وبقدر ابن هذيل بستعين ألفاً . تحفة الأنفس ، ٧٠ .

(٣) العبر ، ٢٥٤ / ٤ (=فتح الطيب ، ١ / ٢٣٣).

(٤) تاريخ الأندلس ، ٤٧ . (٥) انظر : أدناه ، ١٢٠ وبعدها .

سيئة وصفوف من الجيش المحارب غير متماسكة ، وذلك قد يساعد في التمجيل بالفتح . غير أن بعض الدارسين يؤكدون كثيراً على هذه الناحية ، ويريدون بذلك الانتقاد من قوة الجيش الإسلامي ومن أهمية ومتانة بنائه وقوته منطقه – وهي أمور توفرها عقيدة التوحيد – وليهمسو أن بإمكان أي جيش آخر – غير الجيش الإسلامي – القيام بما قام به من إنجازات .

لكن لو لا العقيدة وسمو المهدف فيها ل كانت الغلبة للجيش القوطي الذي يفوق الجيش الإسلامي في الجانب المادي ، لاسيما وهو في بلد عرفة . وأن هذا الجيش القوطي – كما تؤكد النصوص التالية – قاتل قتالاً شديداً ؛ رغم ما يشار أحياناً إلى ما كان فيه من خيانة أو تلاؤ .

يذكر الرازي ، نقاً عن نفع الطيب للمقرري بأنه « كانت الملاقة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد نخمس خلؤن من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين »^(١) .

كانت المعركة – خلال أيامها الشمانية – تزداد عنة في المجالدة ، وقدّم المسلمين كثرة من الشهداء ، وكانت قلة منهم يركبون الخيل ، بينما توفر لجيش القوط منها العدد الكبير . « فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجاله ، ليس فيهم راكب إلا القليل ، فاقتلوها قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء . »^(٢) ويقول ابن الشباط : « فاقتتل المسلمون والمرشكون ثمانية أيام قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً صبراً عظيماً ، ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين »^(٣) .

واستمرار المعركة ثمانية أيام ، في قتال شديد ، حسب الوصف السابق وغيره ، دليل قوي على قوة الجيش القوطي وشدة قتاله :

* معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ) ، التي خسرها المسلمون ، استمرت عشرة

(١) نفع الطيب ، ٢٥٩/١ . كذلك : تاريخ الأندلس ، ١٣٥ .

(٢) البيان المغرب ، ابن عذاري ، ٧/٢ .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ .

أيام^(١) ، حيث كان جيش العدو (الفرنج) فيها قوياً .

* جرت في الأندلس معارك أخرى حاسمة ، كان خصم المسلمين فيها قوياً كثيراً، أضعاف عددهم ولم تزد مدتها على يوم واحد . وقد نصر الله - سبحانه وتعالى - فيها المسلمين على عدوهم نصرأ مؤزرآ ، مثل : معركة الزلقة^(٢) (٤٧٩ هـ) ومعركة الأر��^(٣) (٥٩١ هـ) .

كان المسلمون يقاتلون العدو في أرض جربها ، في هضاب ومحاوز شاقة^(٤) . لكن تفوق المسلمين بالعقيدة اكتسح أمامه كل هذه المصاعب . وما كان انتصارهم سهلاً ، فقد قدّموا حوالي ثلاثة آلاف شهيد^(٥) . ثم إن الحملة التي قادها موسى فيما بعد - وعدتها ثمانية عشر ألف محارب - تدل على إدراك موسى لقدرة القوط العسكرية وضرورة توفرها للMuslimين لأعمال الفتح ، وعلى إدراك طارق لهذا الأمر وطلبه لذلك النجدة من موسى . فالحملة دليل على أن الأوضاع العسكرية في شبه الجزيرة الإيبيرية لم تكن سيئة إلى ذلك الحد الذي يتعمد البعض تصويره . فهذا الفتح - مثل غيره - يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانها في نفوسهم . إن تفوق المسلمين مستمد دوماً من إيمانهم بعقidiتهم وليس من سوء أحوال الآخرين . كما أن الإسلام ينبع تفوّقه وسبقه من ذاتيه القوية وعقيدته النقيّة وتشريعه المكين ، لأنّه من وحي الله تعالى . وفي كل هذا تميّز له عن غيره ، وسموه عما عداه ، وتفوّقه على كل ما تواضع عليه الإنسان - حتى مع الإخلاص - في كل زمان ومكان .

الذي تم في شبه الجزيرة الإيبيرية - وفي غيرها من قبل ومن بعد - على يد المسلمين بفعل الإسلام وهديه يمثل المعجزة ويصور التحدّي ، سواء في عمليات الفتح ، أو في انتشار الإسلام في تلك البلاد ، الذي هو الفتح الحقيقي ، بل به كان الفتح المعهود .

(١) راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٢) راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٣) راجع الفصل السابع من هذا الكتاب .

(٤) دولة الإسلام في الأندلس ، ٤٢/١

(٥) راجع : تاريخ الأندلس ، ١٣٥ (نص ابن الشباط) ؛ نفح ، ١/٢٥٩ ؛ فجر الأندلس ، ٧٥ ؛ تاريخ المسلمين ، ٨٠ .

مكذا غدت الأندلس دار جهاد ، كما هي مخضن حضارة علياء رائقة خضراء
يانعة أكلها دائم وظلها ممدود .

تم اللقاء بين الجيش الإسلامي والقوطي يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ
(أواسط تموز ٧١١ م) ، في كورة شَدُونَة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا^(١)
في سهل الفرنترة (Frontera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر بِرْبَاط
(Barbate) المتصلة به . قد تعرف أحياناً معركة ونهر برباط في الرواية الإسلامية
معركة ووادي بكه أو لَكُهْ (Guadalete)^(٢) ، لعله مأخوذ من Lago وهو
البحيرة ، أي بحيرة الخندق^(٣) . فأصبحت البحيرة علمًا على المكان^(٤) . أما وادي
لَكُهْ (Guadalete) ، المعروف في الجغرافية الإسبانية الحديثة ، فيقع إلى الشمال
منه ويصب في خليج مدينة قادس (Cadiz) ، ويصب نهر برباط في المحيط الأطلسي
عند طرف الأَغْرَى (Trafalgar) .

غير بعيد أن يكون اسم وادي لَكُهْ – في الرواية الإسلامية – لم يقصد به وادي
بِرْبَاط – ولو أحياناً – بل قصد به أصلًاً وادي لَكُهْ (Guadalete) ، كما هو
المعروف اليوم ، الذي يصب في المحيط عند مدينة قادس ، ويقترب أحد فروعه من
ميدان المعركة الواسع أو كان شاملًا له . جَعَلَ وادي لَكُهْ هذا ضمن كورة شَدُونَة
(Sidonia)^(٥) ، التي كانت مديتها شلونة (Medina Sidonia) ، ميدانًا لمعركة
البرِّيَاط ، « وبها كانت الهزيمة على رُذْرِيق^(٦) » ، يزيل اللبس . على ذلك فلا وجود

(١) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ - ١٣٦ (نص ابن الشباط) ؛ نفح الطيب ، ١ / ٢٥٨ .

(٢) الروض ، ١٦٩ ، ١٩٣ ، ٢٥٨ ، ٢٤٩ / ١ ؛ نفح ، ٢٥٨ ، ٤٤ - ٤٢ / ١ .

قارن : فجر الأندلس ، ٧١ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٦ .

(٣) فرحة الأنفس ، ابن غالب ، مجلة مهدي المخطوطات العربية ، ٢٩٤ / ١ / ١ ؛ الحلة السراء ، ابن الأبار ، ٣٣٢ / ٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٧ ؛

Histoire de l'Espagne Musulmane , Levi-Provençal , I , 21. (Sp. tr. , IV, 14).

(٤) نفح ، ٢٥٧ / ١ ، ٢٥٨ . قارن : نصوص عن الأندلس ، المناري ، ١١٨ ، ١١٩ .

(٥) تاريخ الأندلس ، ١٣٤ (نص ابن الشباط) .

(٦) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ .

لاشتباه أو خلط أو تغليب في تسمية الرواية الإسلامية لوادي لَكُهُ . عندها تصرف التسميات المتعلقة بهذه المعركة إلى مسمياتها الأصلية .

كان اللقاء بين المسلمين والقوط حاسماً ، وامتن الله على المسلمين بالنصر الكبير . فشتت الجيش القوطي وقتل لُدُريق أو غرِيق « فالتقى يوم الأحد ، وصدق المسلمين القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم ، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يُعرف لملتهم لُدُريق خبر ، ولا بانَ له أثر . فقيل إنه ترجل وأراد أن يستتر في شاطئ الوادي ، فصادف غدراً ففرق فيه فمات»^(١) . في حين يذكر البعض أن لُدُريق فرَّ من الميدان والتقي بال المسلمين في معركة أخرى ، شمالي إسبانيا ، قُتل فيها^(٢) . لكن هذا الرأي ضعيف لا تدعمه الأدلة .

تعقب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار . وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الإيبيرية .

٢ - حول المعركة

لا بد من الإشارة هنا إلى عدة أمور :

أ - الخطبة

هل إن الخطبة المسوبة إلى طارق أمر مُسْلَم به ؟ الأفضل إيراد نصها أولاً ، كما جاءت في *نفح الطيب* :

لما بلغ طارقاً اقتراب لنديق بجيشه القوطي الكثيف « قام في أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورَغَبَهم في الشهادة ، ثم قال : أيها الناس ، أين المفرُّ ؟ البحرُ من ورائكم والعدُوُّ أمامكم وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيَّعُ من الأيتام في مأدُبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزَرَ لكم إلاَّ سيفكم ، ولا أقواتَ لكم إلاَّ ما تستخلصونه من أيدي عدوَّكم ، وإن امتدَّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوضت

(١) تاريخ الأندلس ، ٤٨ . كذلك ١٣٥ ؛ البيان المغرب ، ٧/٢ ، ٨ ، ٩ ؛ نفح الطيب ، ٢٤٢/١ ، ٢٤٢ .

(٢) راجع : تاريخ الأندلس ، ٢٩ وبعدها ؛ أدناه ، ٨٤ - ٨٥ .

القلوب من رُعبها منكم الجرأةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خُذلانَ هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألت به إليكم مدینتُه الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإلتي لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعٍ فيها النفوس إلا وأنا أبداً بنفسي . « واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفة الـَّذِي طويلاً ، فلا ترغبا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظُّكم فيه بأوفى من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات بالدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُرباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه باريحاكم للطعان واستماحكم بـِجَالَدَةِ الأبطال والقرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنِمُها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولِي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرآ في الدارين .

« واعلموا أنني أولُ محيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنني عند مُلْتَقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لـُذْرِيق فقاتلُه إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُغُزِّكم بطلٌ عاقل تستدون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلُون . »^(١)

بالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة :

١ - ذَكْرُ المَقْرَى وغیره أن هذه الخطبة جزءٌ مما ألقاه طارق على جيشه بهذه المناسبة حين « قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال ... »^(٢) فيورد الخطبة الآنفة التي ينقلها عن ابن خلkan . يروي الخطبة بنصها المذكور آنفاً ابنُ خلّكان (٦٨١ - ٦٠٨ هـ) في وفيات

(١) نفح ، ٤٠/١ - ٤٠/٢ (نقل عن وفيات الأعيان ، ٥/٢١ - ٣٢٢) . عربان : عربون .

(٢) نفح الطيب ، ٤٠/١ .

الأعيان^(١) ، حين يترجم لموسى بن نصيّر ، وابن خلّakan مشرقي (عرافي من أربيل) . والمقري ينقل عنه حتى مقدمة الخطبة .

وأقدم نصًّا أندلسي توجّد فيه إشارة إلى خطبة طارق مع سطور قليلة منها — بعد التقديم على أنها كل الخطبة — لعبد الملك بن حبيب (٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م) ، وهو :

« فلما بلغ طارقاً دنوه منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم حضَّ الناس على الجهاد ، ورَغَبَهم في الشهادة ، ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ والبحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، ألا وإنني صادم إلى طاغيَّتِهم بِنفسي ، لا أقصُّ حتى أخالطه أو أقتل دونه . »^(٢)

فهل يمكن أن تكون الخطبة مقتبسة في نص عبد الملك بن حبيب متنقلة عن ابن خلّakan أو غيره ، من إضافة الناسخ الذي اختصر هذا النص ، وكانت المصادر المشرقة معتمدة . وإلا أفاليس مستغرباً ألا ترد عند غيره من كتاب الأندلس الذين وصلتنا كتابتهم ؟

أورد علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي (القرن الثامن الهجري) خطبة طارق — أو لها ، مع اختلاف — في كتابه : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس فيقول : « فاقتلو ثلاثة أيام أشدَّ قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحثّهم على الصبر ، ويرغبهم في الشهادة ، وبسط في آمالهم . ثم قال : أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس إلا الصبر منكم والنصر من ربكم . وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلي ، والله لآقصُّه طاغيَّتِهم فإذا ما أُقتلُه وإما أن أُقتلَ دونه »^(٣) . وهذا النص شبيه بنص ابن حبيب السابق .

إن تعرض القليل جداً من مؤرخينا الأندلسيين المتأخرین — دون المتقدمين — للخطبة قد يشير إلى عدم شيوعها وعدم معرفة المؤرخين لها . وهو أمر يقلل أو يمحو الثقة بواقعيتها .

(١) وفيات الأعيان ، ٥/٣٢١ - ٣٣٢ .

(٢) مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٥/٢٢٢ (القسم الفرنسي) .

(٣) تحفة الأنفس ، ٧٠ - ٧١ .

أورد ابن قتيبة (٢٧٦ = ٨٨٩ م) ، وهو مشرقي ، في الإمامة والسياسة^(١) – المنسوب إليه – خطبة لطارق أقصر من السابقة وقليلة الشبه بها . في حين لم تذكر المصادر الأندلسية^(٢) ، لاسيما المبكرة ، هذه الخطبة .

٢ - لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول المجري) ، وغير متوقع لقائد جيش أن يعني بهذا النوع من الصياغة .

٣ - إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم والروح الإسلامي العالية ، التي توفرت لدى الفاتحين ، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته ، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك . فهي لاشيد بدوافع الفتح وأهدافه – وهي معروفة مألوفة – التي أنبتها ورعتها العقيدة الإسلامية ، عاملة على ابتعاد مرضاة الله تعالى وحده ، لعلو رأيه الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله ﷺ * وقاتلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً * ويكونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * ^(٣)

٤ - يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ويلاحظ فيها التناقض في المعاني ، وبعض ما فيها يخالف لحقائق تأريخية كاستعمال «اليونان» التي ربما جاء ذكرها للسجع . فالمورخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم^(٤) ، وكذلك : العلوج والعجم أو المشركين والكافر^(٥) ، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال . غير أن ابن خلkan – وهو مشرقي – أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة^(٦) . ثم « وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ... » فالذى انتخبهم موسى بن نصیر وليس الوليد .

٥ - كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول

(١) القسم الأندلسي منه نشر مع : تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٤٧ - ٤٨ .

(٣) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

(٤) انظر : نفح ، ٢٦٤/١ ، ٢٦٩ ؛ الإحاطة ، ٤/١٠٠ .

(٥) انظر : نفح ، ٢٥٩/١ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ؛ البيان ، ٢/١٤ .

(٦) وفيات الأعيان ، ٥/٢٢٣ - ٢٢٤ ، ٣٢٨ - ٣٢٧ ؛ نفح ، ١/٢٤٤ .

الأمين صلى الله عليه وسلم ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلامية أخرى تناسب المقام ،
كالمعبود^(١) .

٦ - ثم إن طارقاً وأكثر الجيش كانوا من البربر ، مما يجعل من المناسب أن يخاطبهم بلغتهم ، إذ من المتوقع ألا تكون لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوىً عالٍ^(٢) .
٧ - وضوح تنافي الجُحْمُ الأخيرة من الخطبة (« ولم يعوزكم بطل عاقل ... »)
« واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ... ») وأسلوب الفتح وحقيقة أهدافه ،
فضلاً عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقها التنظيمية ومتطلباتها الفنية .
هذا وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام ، وأنه خطَّبَ جنْدَه بجهنم
على الجهاد^(٣) .

يروي المَقْرَرِي أبياتاً قالها طارق بهذه المناسبة :
« وأنشد في المسْهِبِ وابنُ اليسع في المُعْرِبِ لطارق من قصيدة قالها في الفتح :
ركبنا سفينَا بالمجاز مُقْبِراً عسى أن يكون اللهُ مِنَا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنةَ إذا ما شتهيْنا الشيءَ منها تَيسَّرَا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسُنَا إذا نحن أدركنا الذي كان أَجْدِرَا
قال ابن سعيد : وهذه الأبيات مما يُكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لا لعلوه طبقتها»^(٤) .
وقال ابن بشكوال : « إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه »^(٥) .
وجهة هذه الأبيات تغيير وجهة الخطبة ، فهي منسجمة ومعاني الإسلامية ومُسْتَمدَّة
من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشترى من المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمُ الْجَنَّةَ
يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدْنَا عَلَيْهِ حَقًا فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبِشُوا بِبِيعِكُمُ الَّذِي بَايْعَمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ
الفوز العظيم * * *^(٦) .

(١) انظر مثلاً : تحفة الأنفس ، ٢٩ - ٣٢ .

(٢) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٤٦ .

(٣) الآية ١١١ من سورة التوبة .

ب - حرق السفن

هل حقاً أن طارقاً أحرق السفنَ التي عبر بها المضيقَ ، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة ، فيستحب في الدفاع ؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك^(١) . لكن لماذا يحرق طارق السفن ، سواء امتلكها المسلمون أم يُلْيَان ؟ كان طارق وجشه يقاتلون من أجل عقيدة ، وإنهم من ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة ، وطارق متأكد من هذه المعاني .

فإذا كانت السفن يُلْيَان فليس من حق طارق التصرف بها . وإن كانت للمسلمين وليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً ، مادام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالغرب لأي غرض . وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة ، واحتاجها فيما بعد .

إن دوافع المعاني الإسلامية والمدف الندي جاء الجيش من أجله لأقوى في الاندفاع من أي سبب آخر . وما كان المسلمين يتخلرون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، بل لذلك أتوا . والمصادر الأندلسية – لاسيما الأولى – لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة .

ج - أحوال إسبانيا

يُطيل بعض المؤرخين المحدثين الكلامَ عن أحوال إسبانيا السيئة قبل الفتح الإسلامي لها . حقيقة إن أحوال إسبانيا كانت سيئة وأن ذلك أفاد عمليات الفتح . لكن هل تخفي الدوافع المعينة التي تكمن وراء هذا التأكيد على هذه القضية^(٢) ؟ .

* * *

كانت معركة وادي برباط فاصلة ، غنم فيها المسلمون غنائم كثيرة ، من أوها الحيوان ، حيث خاض أكثر الجيش الإسلامي هذه المعركة مشاة ، وبعد المعركة

(١) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، الادريس ، ١٧٧ (= الملل السندي ، ٨٢/١) ؛ تاريخ الأندلس ، ٤٦ ؛ الروض ، ٧٥ ؛ نفح ، ٢٥٨/١ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ٤٨/١ - ٤٩ .

(٢) انظر : أندلسية ، ٩٢/١ - ٩٣ .

لم يبق منهم أحد دون فرس ، فأصبح الجيش الإسلامي كله خَيَّاله^(١) .
ولم يلاق المسلمون بعد ذلك مثل هذا التجمع الكثيف ، وإن مرّت بهم معارك
مهمة وقوية ، منها واحدة قرب مدينة إِسْتِجَّة (Ecija) . ولا يعني هذا أنهم لم
يواجهوا صعوبة في فتح بقية الجزيرة الإيبيرية .

وحين ترامت أنباء النصر المبين في هذه المعركة إلى الشمال الإفريقي وفد بعض
الناس ملتحقين بجيش طارق مجاهدين^(٢) . وفرق طارق بعض جنده في بُعوث جانبية ،
وتوجهَ هو إلى طُليطلة ، عاصمة المملكة القوطية ، ولم يتوقف بعد هذه المعركة الكبرى
كثيراً كيلا يتبع للجيش المنزه فرصة التجمع . لكن الجيش القوطي تجمّع عند مدينة
إِسْتِجَّة لحرب الجيش الإسلامي . فرحف طارق إليه ، فاتحاً في طريقه بعض المدن .

مرَّ طارق بمدينة شدونة (Medina Sidonia) ، وفتحَها بعد حصار ، ومضى
إلى مَورُور (Morón) وافتتحها . ثم عطف على مدينة قَرْمُونَة (Carmona)^(٣) ثم
تقدّم إلى إشبيلية (Sevilla, Seville) ، فتمَّ له فتحُها صُلْحًا . اتجه بعدها إلى مدينة
إِسْتِجَّة ، حيث دارت معركة حامية هُزِم فيها الجيش القوطي وافتتحت المدينة .
أما «إشبيلية فصالحه أهلُها على الجزية ، ثم نازل أهلَ إِسْتِجَّة وهم في قوة ومعهم
فلُّعسْكُر لُدُريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثُر القتل والجرح بال المسلمين ، ثم إن
الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسرُوا ، ولم يلْقَ المسلمين فيما بعد ذلك حرباً
مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغترراً سيء
التدبر ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى مثل
ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذنه وجاء به إلى العسكر ،
فلما كاشفَه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحبَّ ، وضرب عليه
الجزية ، وخلّى سبيله ، فوفّى بما عاهد عليه ، وقدف الله الرعبَ في قلوب الكفرة
لما رأوا طارقاً يُوغِّل في البلاد ، وكانوا يحسِّبونه راغباً في المغم عاملاً على القُفُول

(١) راجع : فتح ، ٢٦١/١ ، أخبار مجموعة ، ١٠ ، فجر الأندلس ، ٧٥ ، ٧٢ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس ، ٤٨ (نص ابن الكرديوس) .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ - ١٣٨ (نص ابن شباط) .

فُسْقِطَ في أَيْدِيهِمْ ، وَتَطَايِرُوا عَنِ السَّهُولِ إِلَى الْمَعْاقِلِ ، وَصَعَدَ ذَوَوِ الْقُوَّةِ مِنْهُمْ إِلَى دَارِ مُلْكِتِهِمْ طُلَيْطُلَةً^(١) .

وَجَّهَ طَارِقُ مِنْ إِسْتِجَّةٍ سَرَايَا مِنْ جَنْدِهِ إِلَى عَدَةِ جَهَاتٍ . فَبَعَثَ جِيشًا بِقِيَادَةِ مُغِيَثِ الرُّومِيِّ لِفَتْحِ مَدِينَةِ قُرْطُبَةِ (Cordoba) فِي سَبْعِ مَائَةِ فَارِسٍ^(٢) . وَاسْتَطَاعَ مُغِيَثُ فَتْحَ الْمَدِينَةِ دُونَ مَشْقَةٍ كَبِيرَةٍ بِفَضْلِ شَجَاعَةِ وَصَدْقِ الْمَحَارِبِينَ^(٣) . وَأُرْسَلَ جِيشًا آخَرَ إِلَى مَدِينَةِ مَالَقَةِ (Malaga) وَآخَرَ إِلَى كُورَةِ إِلْبِيرَةِ (Elvira) ، حِيثُ افْتَحَ مَدِينَتِهَا غَرْنَاطَةَ (Granada) وَكَذَلِكَ إِلَى كُورَةِ تُدْمِيرِ^(٤) (Tudmir) – وَكَانَتْ قَاعِدَتِهَا أُورِيُولَةَ (Orihuela) – الَّتِي حَلَّتْ مَدِينَةَ مُرْسِيَّةَ (Murcia) مَحْلَهَا قَاعِدَةً لِكُورَةِ مُرْسِيَّةَ بِدَلَّاً مِنْ تُدْمِيرِ^(٥) .

وَقَدْ حَدَثَتْ مَعَارِكُ عَدَةٌ فِي هَذِهِ الْمَنَاطِقِ ، لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ اسْتَطَاعُوا فَتْحَ عَدَةِ مَدِينَاتٍ فِيهَا . يَذَكُرُ الرَّازِيُّ ذَلِكَ حِيثُ يَقُولُ : « فَقَرَّقَ طَارِقُ جِيَوشَهُ مِنْ إِسْتِجَّةٍ ، فَبَعَثَ مُغِيَثًا الرُّومِيِّ مُولَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى قُرْطُبَةَ – وَكَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ مَدَائِنِهِمْ – فِي سَبْعِمَائَةِ فَارِسٍ ، لَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ رَكِبُوا جَمِيعًا خَيْلَ الْعِجمِ ، وَلَمْ يَبْقِ فِيهِمْ رَاجِلٌ ، وَفَضَّلُوكُمْ عَنْهُمُ الْخَيْلُ » ، وَبَعَثَ جِيشًا آخَرَ إِلَى مَالَقَةِ ، وَآخَرَ إِلَى غَرْنَاطَةِ مَدِينَةِ إِلْبِيرَةِ ، وَسَارَ هُوَ فِي مُعْظَمِ النَّاسِ إِلَى كُورَةِ جِيَانَ يَرِيدُ طُلَيْطُلَةً^(٦) .

ثُمَّ يَنْقُلُ الْمَقْرَرِيُّ عَنِ الرَّازِيِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِفَتْحِ تُدْمِيرٍ فَيَقُولُ : « وَأَمَّا مَنْ وُجَّهَ إِلَى مَالَقَةِ فَفَتَحُوهَا ، وَبِلَا عُلُوْجٍ إِلَى جِبَالِ هَنَالِكَ مَمْتُنَعَةٍ ، ثُمَّ لَقِنَ ذَلِكَ الْجَيْشُ بِالْجَيْشِ الْمُتَوَجِّهِ إِلَى إِلْبِيرَةِ ، فَحاَصَرُوهَا مَدِينَتِهَا غَرْنَاطَةَ ، فَفَتَحُوهَا عَنْتَوْهُ »^(٧) . « وَمَضَى الْجَيْشُ إِلَى تُدْمِيرٍ ، وَتُدْمِيرٌ : اسْمُ الْعِلْجِ صَاحِبِهَا ، سُمِّيَّتْ بِهِ ، وَاسْمُ

(١) نَفْعٌ ، ٢٦٠/١ . كَذَلِكَ : تَارِيخُ الْأَنْدَلُسِ ، ١٤١ (نَصُّ ابْنِ الشَّبَاطِ) ؛ الْبَيَانُ الْمَغْرِبُ ، ٨/٢ .

(٢) نَفْعُ الطَّيْبِ ، ١/٢٦٠ - ٢٦١ ، ٢٦٣ - ٢٦٦ - ٢٦٩ .

(٣) انْظُرْ : نَفْعُ الطَّيْبِ ، ١/٢٦١ .

(٤) الْبَيَانُ ، ٩/٢ - ١١ ؛ الْإِحْاطَةُ ، ١٠١/١ ؛ نَفْعٌ ، ١٠١/١ - ٢٥٩ .

(٥) رَاجِعٌ : الرُّوضَةُ ، ٣٤ ، ٦٢ ، ١٨١ ؛ نَفْعُ الطَّيْبِ ، ١٦٤/١ .

(٦) نَفْعٌ ، ٢٦٠/١ - ٢٦١ . كَذَلِكَ : الْإِحْاطَةُ فِي أَخْبَارِ غَرْنَاطَةِ ، ابْنِ الْخَطِيبِ ، ١٠١/١ .

(٧) نَفْعُ الطَّيْبِ ، ٢٦٢/١ . كَذَلِكَ : الْإِحْاطَةُ ، ١٠١/١ .

قصبتها أُرْيُولَة ، ولها شأن في المَنْعَة ، وكان ملکها عِلْجَانْ داهية^(١) . وهذا يعني أن سرية مَالَقَة التحقت بعد فتحها بسرية إلْبِيرَة ، وافتتحتا تُدْمِير سوية . فتكون على هذا - عدد السرايا التي أرسلها طارق ثلثاً ، بدلاً من أربع .

سار طارق إلى عاصمة القُوْط طَلِيْطَلَة (Toledo) ، ماراً بمدينة جَيَّان (Jaén) وفتح طليطلة ، وعاملَ أهلَها بكل إنصاف ، تاركاً لهم حرياتهم كاملة ، وتلك طبيعة الفتح الإسلامي التي لازمت جميع الفتوحات ، وذلك مما كان يحبب أهل البلاد المفتوحة في الإسلام فيعتنقونه . استمر طارق في الفتوح شمال طليطلة لتأمين وإخلاء المناطق القرية منها وحوطها من التجمعات ، وللتعرف عليها ، ولم تشغله الكنوز التي وجدها فيها ، فما جاء من أجلها ، وإن العقيدة التي يحملها تجعله أكبر منها . وهو أمر - رغم سموه المتفرد - مأثور معتمد في تاريخ الفتوحات الإسلامية .

سار طارق شماليًا إلى منطقة وادي الحجارة (Guadalajara) حتى وصل مدينة المائدة^(٢) أو بعدها . بينما يقول البعض أن طارقاً وصل إلى مناطق في شمال

(١) نفح ، ٢٦٤/١ .

(٢) انظر: الروض ، ١٧٩ . وادي (نهر) الحجارة ، يسمى اليوم : نهر هنارس (Rio Henares) ، أحد فروع نهر تاجه (Tajo) . قامت على هذا الوادي مدينة حملت اسمه (وادي الحجارة) ، ٥٧ كم شمال شرق مدريد ، تسمى أيضًا مدينة الفرج ، وأطلق اسم الوادي على المنطقة التي يجوها النهر . راجع: الروض المعطار ، ١٩٣ ، ٢٦٢ ؛ المغرب في حُلِي المغرب ، ٢٦٢/٢ ؛ الحلل السنديسة ، شكيب أرسلان ، ٦٩٢ . يذكر ابن حزم الأندلسي (٤٥٦) في كتابه : جمهرة أنساب العرب (٤٩٩) ، حين الحديث عن بيوتات البربر في الأندلس ، منهم « بنو الفرج بوادي الحجارة » . ثم يقول « وبنو سالم ، الذين تنسب إليهم مدينة سالم ، وتنسب مدينة الفرج إلى آباه الفرج بن سالم . ومنهم : أبو جفر المعروف بالتيسيري صاحبنا - رحمة الله - وهو تميم بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرج ، الذي تنسب إليه مدينة الفرج ، ابن سالم ، الذي تنسب إليه مدينة سالم » . جمهرة ، ٥٠١ : كذلك : المقتبس ، ٧٩/٢ ؛ البيان ، ١٧٦/٢ . تقع مدينة المائدة على نفس النهر (Henares) إلى جنوب مدينة وادي الحجارة . لعل مدينة المائدة هي التي تعرف اليوم قلعة هنارس (Alcala de Henares) تقع على نهر هنارس ، وكانت تعرف بقلعة عبد السلام . تبعد عن مدريد ٣٤ كم شمالاً . وهي التي فتحها طارق قبل عودته إلى طليطلة ثم كان لقاوه بموسي بعده . أعمال الاعلام ، ٢٠٩/٢ ؛ التكملة ، ١/٢٩٣ (رقم ٧٩٣) ؛ الحلل السنديسة ، ٥٠/٢ ؛ ٧٤، ٦٩، ٥٠/٢ ؛ مدريد العربية ، محمود علي مكي ، ٤١ ؛ رحلة الأندلس ، حسين مؤنس ، ٣٣٦-٣٣٥ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٢ (نص ابن الشباط) . انظر كذلك : المحيطة رقم (١) ، ص ٢٤ - ٢٥ .

إسبانيا ، ثم عاد إلى طليطلة ، قبل حلول الشتاء على ما يمدو^(١) . يقول – في ذلك – ابن حيّان ، فيما ينقله المقرري في نفح الطيب : « ومضى خلفَ مَنْ فَرَّ من أهل طليطلة . فسلاك إلى وادي الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فجّ سمّي به بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، ... ، ثم مضى إلى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حُلُيًّاً وما لا ، ورجع ولم يتتجاوزها إلى طليطلة سنة ثلاَّث وتسعِين . وقيل : إنَّه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جليقية واحتقرها حتى انتهى إلى مدينة أسترقة ، فدواخ الجهة ، وانصرف إلى طليطلة ، والله أعلم . »^(٢)

فيكون خط سير حملة طارق : منذ جوازها إلى الأندلس (٥ رجب ٩٢ هـ) حتى لقاءه بموسى (أواخر ٩٤ هـ) ، كالتالي :

سبتة (عبر الزقاق) ، جبل طارق ، الجزيرة الخضراء ، وادي (نهر) برباط (المعركة ، رمضان - شوال ٩٢ هـ) ، مدينة شَدُونَة ، مورُور ، قرمونَة ، إشبيلية ، إستِجَّة [منها سارت السرايا إلى : (١) قُرطُبَة و (٢) مَالِقَة و (٣) غَرْنَاتَة - مدينة كُورَة إلبيَّة - و (٤) كُورَة تُدْمِير و قصبتها أُورُبُولَه] ، جيَّان ، طليطلة ، منطقة وادي الحجارة : مدينة المائدة [= قلعة عبد السلام = قلعة نهر هناس وهو وادي (نهر) الحجارة] ، طليطلة .

يبدو أن عودة طارق إلى طليطلة كانت في أوائل ٩٣ هـ (أواخر ٧١١ م) أو خلالها^(٣) ، وأن كل عمليات الفتح - التي قام بها طارق ، قبل لقاءه بموسى - وإنجازاته استغرقت أقل من سنة ، ربما بعده شهور . وهذا معقول^(٤) إذا اعتمدنا ما ذكره الحجاري في **المسهِب في أخبار المغرب** من أن « فتح قرطبة في شوال سنة ٩٢ »^(٤) . قام بفتحها مغيث الرومي الذي وجهه طارق إليها من إستِجَّة ، وسار هو بكثرة الجيش إلى جيَّان ي يريد طليطلة ، التي يمكن أن يكون فتحُها في شوال نفسه أو في ذي القعدة بعده وهو أرجح .

(١) انظر : فجر الأندلس ، ٧٩ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٦٤/١ - ٢٦٥ . كذلك : الروض المطار ، ١٧٩ .

(٣) الروض المطار ، ١٧٩ . (٤) نفح الطيب ، ١٢/٣ .

لم أتعرف على الشهر الذي كانت فيه عودة طارق لطليطلة من جهاده فيما وراءها . ربما في هذه الأثناء وصل أمر موسى بن نصيّر إلى طارق بالتوقف وانتظار قدومه إلى الأندلس أو إلى طليطلة . أطاع طارق قائده وبقي في طليطلة متظراً بوصول موسى إليه . كان عبور موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ .

إذا كان بالإمكان تقدير عودة طارق إلى طليطلة - بعد جولات السريعة في الشمال - خلال النصف الأول من سنة ٩٣ هـ ، فكيف أتفق من الوقت ما يزيد على السنة حتى وصول موسى بن نصيّر إليه ؟ اللهم إلا إذا كانت عودة طارق إلى طليطلة في النصف الثاني أو أواخر سنة ٩٣ هـ ، أو أنه بقي في طليطلة طيلتها للتنظيم والحماية . ولعل ذلك كان بأمر من موسى نفسه .

٣ - عبور موسى إلى الأندلس

تولى أبو عبد الرحمن موسى بن نصيّر (١٩ - ٩٧ هـ)^(١) عدة مهام ، منها ولاية الشمال الإفريقي . «كان من التابعين - رضي الله عنهم - وروى عن تميم الداري ، رضي الله عنه ، وكان عاملاً كريماً شجاعاً ورعاً تقى الله تعالى»^(٢) . «وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمةً ونبلاً وشجاعةً وإقداماً»^(٣) .

تولى الشمال الإفريقي سنة ست وثمانين للهجرة ، وأتَمَ جهوداً من سبقه في خدمة الإسلام من ولاته ، وشارك في فتح الأندلس بجهاده وقادته . وحين وجَهَ طارقاً لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث ، منذ بدايتها ، ويُهيئ المطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير ، بهمة المؤمن وإخلاص التقى ، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين . يقول ابن الكربلائي : «وكان موسى بن نصيّر حين أتَى طارقاً مُكِبِّاً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى ، والابتهاج إليه في أن ينصر جيش

(١) راجع ترجمته في : جلوة المتبис ، الحميدي ، ٣٢٨ (رقم : ٧٩٣) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٤٦/٢ (رقم : ١٤٥٦) ؛ بثة المتبس ، الضبي ، ٤٥٧ (رقم : ١٣٣٤) ؛ البيان المغرب ، ٣٩/١ - ٤١ ؛ فتح الطيب ، ٢٨٦/١ .

(٢) وفيات الأعيان ، ابن خلkan ، ٣١٨/٥ - ٣١٩ .

(٣) العبر في خبر من غير ، النهبي ، ١١٦/١ .

ال المسلمين ، وما عُلم أنه هُزم له جيش قط . «^(١)

كان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نُصَيْر ، يفتح الفتوحات باسمه ويعليماته ، وينبئه عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح ، ويستشيره فيما يحتاج إليه . وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادي لِكُه . وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح . يقول ابن الكردبوس بأنه بعد المعركة « اتصل الخبر بموسى بكلتا بطارق إليه ، فكتب به موسى إلى الوليد . »^(٢) وبعد سنة تقريباً – من عبور طارق ، وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت – خاف طارق أن يُغلب وأن يُستغل القوط قلة جيشه ، فأرسل إلى موسى يستنجده^(٣) . ذلك لأن طارقاً قد وزع جيشه الذي استشهد نصفه أو أقل بقليل ، بعد المعارك العديدة خلال عمليات الفتح وتوسيع مهامه ، وبهذه السرعة التي قد تدعه في خطأ من ثغرات خلفية . فوجد موسى من المناسب أن يلحق بالأندلس على رأس جيش يقوده بنفسه .

الظاهر أن طارقاً استنجد بموسى ، سواء كان ذلك بصيغة الطلب والمحث على النجدة أو من قبل الإخبار وشرح الأحوال وبيان الحاجة إلى زيادة الإمداد من جند الفتح . ولعله بعد توسيع طارق في الفتوحات وتشعب طرقها – وهو أمر كان موسى بسبب مراسلات طارق على علم به – صدر أمر موسى له بـألا يسرع . إن وصول أوامر موسى لطارق بالتوقف كانت قبل فتح طُلِيْطُلَة أو بعده ، لأن طارقاً عاد بعد أن خاض منطقة وادي الحجارة متتصراً .

غير واضح تماماً أين كان يُقيم موسى خلال عمليات فتح الأندلس حتى قبل عبوره إليها ، ولا من أين رحل بجيشه نحوها . لكن هنالك إشارات إلى أنه جاء إلى الأندلس من القيروان ، يقول ابن خلدون أن موسى : « استخلف على القيروان ولده عبد الله ... ونهض من القيروان سنة ثلاثة وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم »^(٤) .

(١) تاريخ الأندلس ، ٤٧ . كذلك : ٤٦ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٤٨ . كذلك : البر ، ابن خلدون ، ٢٥٤/٤ .

(٣) راجع : الامامة والسياسة (في تاريخ افتتاح الأندلس) ، ١٤٠ ؛ فجر الأندلس ، ٨٩ ؛ تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، ٩٢ . (٤) البر ، ابن خلدون ، ٤/٢٥٤ .

وذكر الرازي : «أن موسى خرج من إفريقيا إلى الأندلس في رجب سنة ثلث وتسعين ، واستخلف على إفريقيا أسن ولده عبد الله بن موسى»^(١).

جهز موسى جيشاً قوامه ثمانية عشر ألفاً ، وعبر المضيق إلى إسبانيا في رمضان سنة ٩٣ هـ (حزيران ٧١٢ م)^(٢) . جاز الزقاق إلى إسبانيا ، من سبتة إلى جبل طارق أو قريباً منه أو من طنجة^(٣) إلى الجزيرة الخضراء بسفن كان قد أعدّها . إلا أنها لانعلم أين أعدّها ، في تونس أو في أحد موانئ المغرب . وقد يُعيّن هذا على تقرير أن المسلمين منذ أول عبورهم استعملوا سفناً لهم ، جُهزت في دور صناعتهم . لا سيما وأن فتح الأندلس لم يكن عملاً مرتجلأً ، بل هو – كالمعتاد – خطوة مدروسة مرسومة . ولا بدّ أن تكون تهيئة السفن في جملة الترتيبات التي اتخذت ، وهي أمر مهم في مثل هذه الخطوة . ولدينا خبر عن سفن إسلامية استعملتها الآلاف الخمسة بقيادة طريف بن مالك في الحملة التي عبرت إلى الأندلس^(٤) لنجددة الجيش الإسلامي في المعركة الأولى مع لذريق .

أما عن موضع جواز موسى إلى الأندلس ، عبر المضيق ، فذكر عدد من المؤرخين أنه كان من سبتة إلى جبل طارق^(٥) أو قريباً منه . وهذا أمر معقول لأن المسافة بين ضفتى المضيق من هذه المنطقة أقصر مما هي بين طنجة والجزيرة الخضراء : موضع العبور الذي أشار إليه مؤرخون آخرون^(٦) . يقول ابن خلدون عن موسى بأنه «وافي من خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع»^(٧) . وحتى مع اعتبار هذا النص ، فإن التزول في الجزيرة الخضراء

(١) نفع الطيب ، ٢٧٧/١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) ؛ البيان المقرب ، ١٢/٢ ؛ نفع ، ٢٦٩/١ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) ؛ البيان المقرب ، ١٢/٢ ؛ نفع ، ٢٦٩/١ . *Histoire de l'Espagne Musulmane* , Levi-Provençal , I , 24 (Sp. tr. , *Historia de Espana* , *Espana Musulmana* , IV , 15).

(٣) انظر : نفع الطيب ، ٢٧١/١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ٧ ؛ نفع ، ٢٣٢/١ ، ٢٥٧ ، ٢٣٢/١ ؛ أعلاه ، ٥٢ ، ٦٥ .

(٥) الروض المطار ، الحميري ، ٧٥ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٤٩/٢ ؛ (نفع الطيب ، ٢٧١/١) .

(٧) العبر ، ٢٥٤/٤ .

يناسبه الإبحار من سبعة أيضاً ، إلا إذا نزل جزيرة طريف ، فيكون الإبحار من طنجة أنسُب . وقد مرّ بنا أن طريف بن مالك نفسه تحرك من سبعة إلى جزيرة طريف .

يذكر ابن خلدون نفسه في عِبره – بعد ذلك مباشرة – ما يؤيد هذه الوجهة في فهم الأحداث . لكن عبارة ابن خلدون هذه موجودة في النص كما نقله المرحوم شكيّب أرسلان في إضافاته لترجمته تاريخ غزوات العرب وفي الحلل السنديّة في الآثار والأخبار الأندلسية من تأليفه ، وليس هي في المطبوع من العِبر^(١) ولا فيما نقله عنه المقري^(٢) . ولعل أرسلان نقله عن نسخة مخطوطة أتم مما لدينا . يقول ابن خلدون : « ويقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب إليه ، المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب الترول على جبل طارق »^(٣) . ويقع جبل موسى ، الذي حمل اسمه لعبوره من جانبه ، قرب سبعة عند قرية بَلْيُونش (Baliunech) أو بَنْيُونش^(٤) . إذ يذكر ابن سعيد الأندلسي حين الحديث عن جواز موسى إلى الأندلس : « ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسبعة »^(٥) . ويukkan الإدريسي موقع هذا الجبل في غرب سبعة حين الحديث عنها في نزهة المشتاق « ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى وهذا الجبل منسوب لموسى بن نُصَيْر ، وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الإسلام ، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة . وقصب سكر ، وأنثرج يُسْجَهَز به إلى ما جاور سبعة من البلاد لكثرة الفواكه بها »^(٦) .

(١) العِبر ، ٢٥٤/٤ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٣٣/١ .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ٥٦ ؛ الحلل السنديّة ، ٢٠٢/٢ . كذلك : نفح الطيب ، ١/٢٦٩ .

(٤) عن هذه القرية راجع : اختصار الأخبار عما كان بشعر سبعة من الآثار ، محمد بن القاسم الانصاري السفي ، ٥٦ ؛ الاستبصار في عجائب الأمصار ، ١٣٨ ؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ١٠١ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٦٧ (= الحلل السنديّة ، ١/٦٣) .

(٥) نفح الطيب ، ١/٢٨٦ .

(٦) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٦٧ (= الحلل السنديّة ، ١/٦٣) . عن بليونش انظر كذلك : أزهار الرياض ، المقري ، ١/١٤٣ - ٣٨ .

بينما ينقل المَقْرَرِي عن ابن حِيَّان أو غيره ما يُفهِّم منه أن جبل موسى في الجاحب الآخر من المضيق قرب الجزيرة الخضراء : « فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلث وتسعين ، وتنكب الجبل الذي حلَّه طارق ، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى . »^(١) فهل أن هذا القموض كان بسبب تلخيص صاحب النفح نفسه والتصرف في النص ؟ أو لعل في العبارة نقاصاً ، أو قدَّسَ حين إبحار موسى من سبتة أو حين اجتيازها إلى البحر .

أقلعت سفن الجيش الإسلامي بقيادة موسى من سبتة من مكان حمل اسمه « مَرْسَى موسى » ، كما يشير صاحب اختصار الأخبار الذي يذكر المرسى ويقول : « ومن هناك اجتاز موسى بن ذُصَيْر »^(٢) .

قدَّر موسى حاجة الفاتحين المسلمين بالأندلس إلى قوات إضافية لمواجهة متطلباتهم في عمليات الفتح ، فعبر المضيق بجيشه الضخم الذي اختاره من المسلمين – عرباً وبريراً وغيرهم – فيما صحابي واحد هو المُنِيْدِر الإفريقي^(٣) وعدد من التابعين^(٤) من جيل موسى بن ذُصَيْر .

بعد أن رتب موسى الأمور في القَيْرَوَان « استخلف ابنه عبد الله على إفريقية ، وأقبل إلى الأندلس ومعه ابناء عبد العزيز وعبد الأعلى »^(٥) . وجاز المضيق إلى الأندلس حالاً بالجزيرة الخضراء^(٦) ، حيث رست سفاته إلى موضع حسن يبدو أنه – كذلك –

(١) نفح الطيب ، ٢٦٩/١ .

(٢) اختصار الأخبار ، ٦٠ - ٦١ .

(٣) الاستيعاب ، ١٤٨٥/٤ (رقم : ٢٥٧١) ؛ التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبار ، ٧٣١/٢ (رقم : ١٨٤٧) ؛ نفح ، ٢٧٧/١ - ٢٧٨ ، ٥/٣ - ٦ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٢٢/١ (رقم : ٣٨٣) ، ١٢٥ (رقم : ٣٩١) ، ٢١٢ (رقم : ٦٣٣) ، ٣١٠ (رقم : ٩١٥) ؛ جنة المقibus ، ٢٠٣-٢٠١ (رقم : ٤٠٣) ؛ تاريخ الأندلس ، ٤٩ (نص ابن الكردبوس) ؛ التكملة ٢٨٢/١ (رقم : ٧٥٥) ؛ نفح الطيب ، ٢٧٨/١ - ٢٧٩ ، ٢٨٨-٢٨٧ ، ١٢-٦/٣ ؛ تاريخ عبد الملك بن حبيب ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٣٢٣/٥ (القسم الفرنجي) .

(٥) تاريخ الأندلس ، ١٤٤ (نص ابن الشباط) . كذلك : نفح الطيب ، ٢٧٧/١ .

(٦) تاريخ الأندلس ، ٤٩ (نص ابن الكردبوس) ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) .

حمل اسمه « مرسى موسى »^(١) . ولعله المكان المشار إليه عند ابن سعيد الأندلسي حين الحديث عن الجزيرة الخضراء نقلًا عن كتاب الرازي : « توسطت مدن السواحل وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز »^(٢) ، وميناء الجزيرة أقرب للعبور من الساحل المغربي إلى سبتة « ومرسى الجزيرة مشتى مأمون ، وهو أيسر المراسي للجواز وأقربها من بَرِ العُدُوَّة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة ، ويقطع البحر بينهما في ثلاث مجار ويتلوه جبل طارق . »^(٣)

يورد هذا عدداً من البغداديين والمؤرخين ، فيقول ابن غالب الأندلسي في تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس عن الجزيرة الخضراء : « توسطت مدن السواحل وأشرف سورها على البحر ، ومرساها أيسر المراسي للحيوان وأقربها من العُدُوَّة »^(٤) .

٦ - وصول حملة موسى الأندلس

انتظر موسى في الجزيرة الخضراء ، عبور الجيش واستكمال الترتيبات ، ووضع الخطة ، فتوافدت فرق جيش المسلمين ، يحمل عدداً منها رايته . وتم تجمعهم في الجزيرة الخضراء عند باب البحر قرب البحر ، فزاد عدد الرایات على عشرين . وقد سُمِّيَ الرازي كتاباً له بهذا العبور ورایاته . دلَّ على ذلك النص التالي : « قال محمد بن مُزَيْن: وجدت في خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مئة أيام الراضي بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي ، سماه بكتاب الرايات ، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصیر ، وكيف رأية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب فعدّها نِيَفَا وعشرين راية ، منها رایتان لموسى بن نصیر عقدها له أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على إفريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على إفريقية أيضاً وما يفتحه وراءها إلى المغرب ، ورأية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ٣٥ .

(٢) المغرب ، ٣٢٠/١ . انظر : صفة الأندلس للرازي ، مجلة الأندلس الإسبانية ، ٩٨/١٨ .

(٣) الروض المطار ، ٧٤ .

(٤) مجلة معهدخطوطات العربية ، ٢٩٤/٢/١ .

معه ، وسائل الرأيات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال ، وذكر فيه سائر البيوتات من دخل دون رأية^(١) . فهل إن هذا النص ناقص أو مشوه ؟

تشاوروا هناك في خطة الفتح ، وأقام موسى في هذا الموضع مسجداً عُرِفَ بمسجد الرأيات « وقيل إن اجتماعهم بهذه المشهد الكريم كان في الموقع الذي كان فيه مسجد الرأيات في الجزيرة الخضراء ، وانه باجتماع الرأيات في ذلك اليوم سُميّ ، وبها سُمِيَ الرازي كتابه . وقال : إن موسى بن نصيير رحمة الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذة مسجداً »^(٢) وكان موقع هذا المسجد على البحر « وبها على باب البحر مسجد يُسَمَّى بمسجد الرأيات ، ويقال ان هناك اجتمع رأيات القوم للرأي »^(٣) . ولعل هذا هو المسجد الجامع الذي أحرقه المجروس (النورمان) ، في هجومهم الثاني على الأندلس سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٤) .

ب - فتح شَذُونَة وإشبِيلِيَّة

تحرك موسى بهذا الجيش نحو شَذُونَة فكانت أول فتوحاته^(٥) . ثم توجه « إلى مدينة قَرْمُونَة ، وليس بالأندلس أحصن منها ، ولا أبعد على من يرُوها بمحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيَان ، دخلوا إليهم كأنهم فُلَّال ، وطرقهم

(١) رحلة الوزير في افتتاح الأسير ، محمد بن عبد الوهاب الغساني ، ١١١ . انظر :

Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis , Memorias de la Real Academia de la Historia, Pascual de Gayangos, 13 – 4.

وتجده في : تاريخ المغاربة والمغارفين في الأندلس ، حسين مؤنس ، ٢٨ . عن أبي بكر محمد بن عيسى ابن مزین (٤٧٠ م = ١٠٧٨) انظر : تاريخ الأندلس ، ٢١ ، ١٦٢ ؛ تاريخ الفكر الأندلسي ، آنجل جثالث بالشيا ، ٢١٢ ؛ الحلة السيراء ، ابن الأبار ، ٨٨/١ ، ١٩-١٨/٢ ، ١١٦ ، ١٢٩ .

(٢) المرجع نفسه . راجع كذلك : فجر الأندلس ، ٩١ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٤ .

(٣) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٧٧ (= الحلل السنديسة ، ٨١/١) . كذلك : الروض ، ٧٥ .

(٤) انظر : نصوص عن الأندلس ، ١١٨ - ١١٩ ؛ البيان ، ٩٧/٢ ؛ الروض ، ٧٥ . وانظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٥) البيان المغرب ، ١٣/٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٦٩/١ .

موسى بنحيله ليلًا ، ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملَّكت المدينة .^(١) فافتتحها . وتوجه بعد ذلك « إلى إشبيلية جارتها فحاصرها ، وهي أعظم مدن الأندلس شأنًا وأعجبها ببنائها ، وأكثرها آثارًا ، وكانت دار الملك قبل القوطين ، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طليطلة ، وبقي رؤساء الدين فيها — أعني إشبيلية — فامتنعت أشهرًا على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجة ، فضم موسى يهودها إلى القصبة ، وخلف بها رجالاً»^(٢) .

جـ - فتح ماردة

ثم سار نحو مدينة مَارِدَة (Merida) مفتتحاً في طريقه لِقَنْت^(٣) (Fuente de Cántaros) . ونجدها عند ابن القوطية لِقَنْت « ثم قصد من إشبيلية إلى لِقَنْت ، إلى الموضع المعروف بفتح موسى في أول لِقَنْت إلى مَارِدَة»^(٤) . فإذا كان هذا فعلاً موقع فتح موسى (وادي موسى) فهو يعني أن لدينا واديان يحملان هذا الاسم ، ثالثهما في جليلية كما سيأتي بيانه^(٥) .

تذكر مصادر أخرى أن موسى افتتح لَبْلَة (Niebla) وبَاجَة (Beja) قبل مَارِدَة . وذلك معقول لأنها في الطريق إليها ، ولأن بعض من فرّ من إشبيلية بحثاً إلى بَاجَة . ويدرك ابن الشَّبَّاط — نقاًلاً من اختصار القباس الأنوار^(٦) — حين

(١) نفح ، ١/٢٦٩ (نقل عن ابن حيان وغيره) . كذلك : البيان ، ٢/١٣ ؛ أخبار مجموعة ، ١٥-١٦.

(٢) نفح ، ١/٢٦٩ (نقل عن ابن حيان وغيره) . كذلك : البيان ، ٢/١٤ .

(٣) نفح ، ١/٢٦٩ - ٢٧٠ . كذلك : فجر الأندلس ، ٩٢ . وهي غير لِقَنْت أو لِقَنْت (Alicante) شرق الأندلس جنوب دائمة على البحر المتوسط . صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٩٣ (= الحال السندي ، ١١٢/١ - ١١٣) ؛ الروض ، ٢٠ ، ١٧٠ ؛ نفح ، ١٦٦ ، ١٦٦ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٢٢٠ ، ٢٢٠ مجلد الأندلس (الإسبانية) ، ١٨/١١٠ - ٧٠ . فهل أن لِقَنْت هي لِقَنْت (Lecanto) . انظر : نفح ، ١/٢٧٠ . فجر الأندلس ، ٩٢ . ورد اسم مدينة « لِقَنْت الصغرى » (التكلمة ، ٢/٥٩١) ، لكن وردت « لِقَنْت » اسم قرية « خارج غرناطة » (الاحتامة ، ١/٥٢٠) ؛ أعمال الاعلام ، ٢/٢١٧ . وممّا يكن فان المدينة التي مر بها موسى بعد إشبيلية ، في طريقه إلى ماردة ، هي غير هؤلاء جميعاً ، فهي كا في المتن أعلى أعلاه أقوم تماماً . (٤) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٥ . (٥) أدناه ، ١٠٧ ، ١١٨ . (٦) انظر : تاريخ الأندلس ، ١٨-١٩ (المقدمة) . عن هذا الكتاب راجع : الذيل والتكلمة ، ابن عبد الله الأنصاري ، ٦/٣٤٨ (رقم : ٩٣٣ ، ٤٩٢) (رقم : ١٢٧٢) .

الحادي عن وصف باجة بأن موسى «فتحها ثم خرج إلى البلاط ، ثم خرج على الفج المنسوب إليه وهو المعروف بفتح موسى . قال فانقطع إليه أهل ذلك الموضع ، فأقر لهم على حالمهم وسموا موالياً موسى . ثم تقدم إلى ماردة فنزل عليها ، وقيل إنها كانت قاعدة ملوك الأندلس ثم تنقلوا عنها إلى طليطلة .»^(١)

لكن مصادر أخرى تذكر أنَّ عبد العزيز بن موسى هو الذي فتح لبلة وباجة^(٢) . وهذا يعني أن فتحهما كان في حملة موسى هذه ، بقيادة ابنه عبد العزيز الذي كان معه ووجهه لفتح هذه المدن . مثلما فعل طارق في إرسال فرق من إستِحة لفتح بعض المدن في حملته . أو أن موسى أرسل ابنه عبد العزيز — بعد افتتاح مَارَدَة — لاستعادة إشبيلية ، ثم فتح لبْلَة وباجة ابتداءً ، كما أورده ابن عذاري في بيانه^(٣) .

أما مَارِدَة ففتحها حديث . كانت مَارِدَة قبل الفتح الإسلامي إحدى قواعد الأندلس ومداهنه ، بناها الرومان سنة ٢٥ قبل الميلاد^(٤) . يذكر البكري أنها : « كانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل ، فكثرت بها آثارهم والمياه المستجلبة إليها .»^(٥) فكانت لهم قاعدة . ويؤكد ذلك ما يورده المقري في نفح الطيب — نقلًا عن ابن حيَّان وغيره — أن ماردة كانت « دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر . وهي ذات عزٍ ومتانة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فاتحة الوصف .»^(٦)

يفهم ماقله المقري — عن مُقتَبس ابن حيَّان — أن الذين اتخذوا ماردة عاصمة هم الوندال ، ويسميهم « البِشْتُولُقَاتِ »^(٧) . ويرجح المرحوم شكب أرسلان أن

(١) تاريخ الأندلس ، ١٤٦ (نص ابن الشباط) .

(٢) البيان المغرب ، ١٥/١ . كذلك : نفح ، ٢٧١/١ ؛ فجر الأندلس ، ٩٦ ؛ Histoire, I, 25 (Sp. tr. , IV, 17). نفس المصادر .

(٤) الحلل السندي ، ٨٩/١ ، ١٧٢ ، ٨٩/١ . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٥ .

(٥) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١٨٩ . كذلك : الروض المعطار ، ١٧٥ .

(٦) نفح ، ٢٧٠/١ . كذلك : نفح ، ١٣٩ ، ١٣٨ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨١ = الحلل السندي ، ٨٩/١ . تاريخ الأندلس ، ١٤٧ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٧٦-١٧٥، ٦ ، ١٧٦ .

(٧) نفح ، ١٣٨/١ . كذلك : نفح ، ١٣٩/١ . وردت عند ابن عذاري في البيان المغرب (٢/٢) « البِشْتُولُقَاتِ » وعند الحميري (الروض ، ٦ ، ١٧٥) « الشبونقاتِ » .

البشتولقات تعني الفيزيقوت (Visigoths) = القوط الغربيين^(١). وجعل القوط طليطلة عاصمة لهم^(٢).

لأنزال بعض آثار ماردة القديعة والاسلامية قائمة حتى اليوم^(٣). وجاء في وصف المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين لبقاياها بالمباني الحسنة وإتقان الصنعة^(٤).

كانت ماردة «مدينة حصينة لها سور لم يُبْنَ للناس مثله»^(٥). كانت تقوم عدة أبراج في هذا السور الضخم المحيط بالمدينة وكان عَرَضُ هذا السور حين الفتح أو قبله، ١٢ ذراعاً (٦٥ م) وارتفاعه ١٨ ذراعاً (٩٧٥ م) كما يذكر أبو عبد البكري^(٦). وهذه الحصانة فقد آلت إليها فلول القوط المنهزمة من النواحي . وتجمّع فيها لهم جيش قوي حتى «كان في أهلها منعة شديدة وبأس عظيم»^(٧).

حاصر موسى المدينة ، لكن قواها خرجن خلف الأسوار تحارب «فناوا من المسلمين دفعات ، وآذوه»^(٨). وعبارة نفح الطيب هذه غير واضحة تماماً ، إذ فيها إشارة إلى أن الأذى وقع على المسلمين ، مما لا تؤيده عبارة صاحب أخبار مجموعة من أنهم «خرجوا إليه وزحمهم دفعه ، فقاتلوا من سورها على قدر ميل أو أكثر قتالاً شديداً»^(٩) . واستمر «حتى صرفهم إلى المدينة»^(١٠) ، وحاربهم إلى أن دخلوا المدينة .

(١) الخلل السندي ، ١٧٢/١ . عن القوط الغربيين . انظر : أوربا العصور الوسطى ، ٨٣/١ - ٨٨.

(٢) نفح ، ١٣٨/١ (نقل عن مقتبس ابن حيان) ؛ جغرافية الأندلس وأوربا ، ٨٧ ؛ تعليق متقدى من فرحة الأنفس ، ابن غالب الأندلسي ، مجلة ممهد الخطوط العربية ، ٢٨٨/٢ ؛ الروض ، ١٣٠ .

(٣) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ٣٨٠ - ٣٨٣ .

(٤) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٧ (نص ابن الشاط) ، الروض المطار ، ١٧٦ .

(٥) أخبار مجموعة ، ١٧ . كذلك : صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨٢ .

(٦) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١١٩ .

(٧) نفح الطيب ، ٢٧٠/١ (نقل عن ابن حيان وغيره) .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) أخبار مجموعة ، ١٦ .

(١٠) البيان المغرب ، ١٤/٢ .

لم يترك موسى الأمر بل احتاط له ، فاتبع أسلوب الكمان ، ووجد — وبعد تفتيش السور — ثُقِبَّاً في مقاطع الصخور ، فوضع فيه مجموعة من الفرسان ليلاً . فلما خرجوا في الصباح ظهر لهم رجال الكمين ، وهاجهم المسلمون فقتلوا من محاربيها الكثير ، وعاد الباقون إلى داخل المدينة فتحصنت فيها ولم يخرجوا . وتبدأ المرحلة الشاقة في فتحها . ودام الحصار شهوراً دون جدوى ، مما حدا بموسى إلى تجربة جديدة . عمل المسلمون دَبَابَةً فَدَبَّتْ جماعة منهم تحتها إلى أحد أبراج السور لإيجاد ثُغْرَةً « فنَقَبُوا صخرةً ، فلما نزعوها أفضوا إلى صخرة صماء نَبَّتْ المَعَاوِلُ عنْها ويشوا منها ، فبینا هم يضربون عليها ، إذ استثار العلوجُ عليهم ، فاستُشهدَ المسلمون تحت الدبابة . فسُمِّي ذلك البرج برج الشهداء ، وبه يعرف إلى اليوم ، فحmit عند ذلك نقوس العلوج ، وثبتت إليه أنسُهم »^(١) . واسم هذه الصخرة الصماء « بلسان العجم الاشه ماشه »^(٢) . وهي في أخبار مجموعة : « اللاشة ماشه بلسان أهل الأندلس »^(٣) ، من كلمة لاتينية Laxmax ، وبالإسبانية : Argamasa ، أي : الإسمنت^(٤) .

استمر حصار ماردة حتى رمضان أو أول شوال سنة ٩٤ هـ (٣٠ حزيران ٧١٣ م) . وجرت بين موسى وبين جندها اتصالات للتفاوض على الصلح ، وتبولت في ذلك الوفود^(٥) « دعا القوم إلى السُّلْمٍ ، فترسلَ إِلَيْهِ فِي تقريره قومٌ من أمثالهم أعطاهم الأمان »^(٦) ، فتم الصلح وكتب به عهد . والصلح عند المسلمين تُضمنَ فيه مصلحة الطرف الآخر وتترك لهم أمورهم الخاصة ، والمسلمون يحافظون على ذلك ويلتمون به في كل حال^(٧) . وهو مسلك معروف مشهور في تاريخ الفتح الإسلامي والتعامل مع غير المسلمين .

(١) البيان ، ١٤/٢ ، ١٥/٢ . كذلك : نفح ، ١/٢٧٠ (نقل عن ابن حيان وغيره) .

(٢) نفح الطيب ، ١/٢٧٠ (نقل عن ابن حيان) .

(٣) أخبار مجموعة ، ١٧ .

(٤) نفح الطيب ، ١/٢٧٠ ، ٤ ؛ تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، ٩٦ .

(٥) البيان المغرب ، ٢/١٥ .

(٦) نفح الطيب ، ١/٢٧٠ (نقل عن ابن حيان وغيره) . (٧) انظر : أدناه ، ٨١-٨٢ .

للأسف ليس لدينا وثيقة الصلح هذه . وما أورده بعض المؤرخين عنها ليس إلا فقرة منها ، على ما يبدو . وهو أن تُدفع أموال قتلى ماردة يوم الكمين وأموال الفارين منها دية لشهداء برج الدبابة ، أما أموال الكنائس فتبقى لها « فصالحه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاريين إلى جلية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحلوها لها ، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وستعين »^(١) .

لم تتيسر معرفة المدة التي استغرقها فتح ماردة ، إذ لم يتبيّن ابتداء عملياتها ، ولعلها حوالي نصف سنة . ذلك لخصانة ماردة وتجمّع جيش القوط وقوته والاستعداد للمواجهة . لكن أليست المدة طويلة ؟ ويمكن أن موسى قام – خلال مدة الحصار – بجهاد في أماكن ومدن أخرى حول المدينة ، بجانب توجيهه السرايا ، غير حملة ابنه عبد العزيز .

أقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتّب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجناد من العناء ويستعد لاستئناف السير .

٤ – جهاد عبد العزيز بن موسى

وجه موسى جيشاً من ماردة – بقيادة ابنه عبد العزيز – إلى إشبيلية ، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها ، وقتلوا العديد من المسلمين ، متهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة وبلاغه الخبر خلال الحصار^(٢) . فأعاد عبد العزيز فتح إشبيلية ثم فتح لبلة وباجة ، كما ذكر قبل قليل .

فتح تُدْمِير

لعل من المناسب هنا تناول موضوع فتح كُورة تُدْمِير . وتُدْمِير في الأصل : اسم حاكمها لدى الفتح (Teodomiro Ergobado – Tudmir) فسميت باسمه^(٣) . وحلّت مكانها فيما بعد كُورة مُرْسِيَة ، وقاعدتها مدينة مرسية (Murcia) .

(١) أخبار مجموعة ، ١٨ (بعد إيدال له بـ لها ، لتنstemي العباره) . كذلك : نفح الطيب ، ٢٧٠/١ .
البيان المغرب ، ١٥/٢ ؛ فجر الأندلس ، ٩٣ ، ٤٤٢ .

(٢) البيان المغرب ، ١٥/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ١٨ .

(٣) الروض المطار ، ١٥١ .

يذكر المَقْرَرِيُّ بأنَّ إحدى الفرق التي أرسلها طارق من إسْتِحْجَة قامت كذلك بفتح كورة تُدْمِيرٌ^(١) ، قاعدتها مدينة أُورِيُولَه (Orihuela) . في حين ورد « أن فتح ما ذكر تَأَخَّرَ إلى دخول موسى بن نُصَيْرٍ في سنة ثلث وتسعين . فتوجه ابنه عبد الأعلى [عبد العزيز^(٢)] في جيش إلى تُدْمِيرَ فافتتحها ، ومضى إلى السِّيرَة فافتتحها ، ثم تَوَجَّهَ إلى مَالَقَة . »^(٣) كذلك ذكر ابن عبد المنعم الحِمِيرِيُّ في الروض المعطار – حين الحديث عن قَرْطاجَنَةِ الْحَلَفاء ، ميناء كورة تُدْمِيرَ (مُرْسِيَّة ، فيما بعد) – أنه « بقَرْطاجَنَةِ هذِهِ هَزَمَ عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْرَ تُدْمِيرَ بن عَبْدُوس ، الذي سُمِّيَّتْ به تُدْمِيرَ ، هَزَمَه وأصحابه ، ووضع المسلمين فيهم السيف ، يقتلونهم كيف شاؤوا ، حتى نجا تُدْمِيرَ في شِرْذَمَةٍ من قلال أصحابه إلى حصن أُورِيُولَه ، وكان مجيئاً بصيراً ذا هيبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فشنرن شعورهن ، وأمسكن القصب بأيديهن فيما بقي من الرجال ، وقصد بنفسه كهيئة الرسول واستأنف ، فأَمْنَنَ ، وانعقد الصلح له ولأهل بلده ، وفتحت تُدْمِيرَ صُلْحًا ، فلما نفذ أمره عَرَفَهُمْ بنفسه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا بها إلا نفراً يسيراً من الرجال ، فندم المسلمون على ما كان منهم ، وكان ما انعقد من صلح تدمير مع عبد العزيز على أتاوة يؤدى إليها ، وجزية عن يدِهِما ، وذلك على سبع مداشر : منها أُورِيُولَه ، ولقَنْتَ ، وبلانة ، وغيرها . وتاريخ فتحها سنة ٩٤ . »^(٤) كما يورد المَقْرَرِيُّ أيضاً رواية أخرى بأنَّ موسى أخرج ابنه عبد الأعلى لفتح تدمير^(٥) ، وهو ما ورد في إحاطة ابن الخطيب ، في بعض خطوطها^(٦) .

من الممكن أنَّ عبد العزيز أرسل سَرِيَّةً أو أكثر إلى بعض المدن لفتحها أو تأكيد فتحها ، مثل مَالَقَة ، كما اسبق غيرها إلى مدن ليلحق بها ، وإن بعضها كانت بقيادة

(١) نفح الطيب ، ١/٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ أعلاه ، ٦٤ - ٦٥ .

(٢) أثبت في الطبعة الأولى من الإحاطة (١٠٧/١) ، لكنه أبدل في الطبعة الثانية (الإحاطة ، ١٠١/١) .

(٣) الإحاطة ، ١٠١/١ .

(٤) الروض المعطار ، ١٥١ - ١٥٢ .

(٥) نفح الطيب ، ١/٢٧٥ .

(٦) الإحاطة ، ١٠١/١ .

أحد أخوانه : عبد الأعلى ومروان أو غيرهما . فعل ذلك وهو متوجه إلى ملاقاًة القائد القوطي تُدمِّر في قرطاجنة ، وعلَّ بعد بلوغ خبره لموسى . استمر عبد العزيز يتبع قاتله حتى كُورة تُدمِّر ، حيث عقد الصلح خلال حصار قاعدتها أوريولَة .

ثم فتح تُدمِّر صلحاً وأعطي الأمان لأهلها وحاكمها والتزم به المسلمين ، لأن ذلك عقيدة عندهم ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلَةً ﴾^(١) . كان هذا مع الخديعة التي استعملها تُدمِّر والتي سببت ندمهم « فندموا على الذي أَعْطَوهُ مِنَ الْأَمَانِ ، واسترجحوه فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادهم »^(٢) .

لدينا مصادر أندلسية أخرى تؤيد فتح تُدمِّر صلحاً ، وتجعل عبد العزيز بن موسى هو الذي يتولى أمر فتحها بعد أن هزَّم تُدمِّر في معركة عند قرطاجنة الحلفاء (Cartagena) — ميناؤها على البحر المتوسط — فهرب إلى حصن (مدينة) أوريولَة قاعدة كُورة تُدمِّر^(٣) .

تزوَّدنا هذه المصادر بنص وثيقة الصلح التي عقدها عبد العزيز مع تُدمِّر . وهي وثيقة سياسية مهمة ، وصلنا القليل من أمثلها ، وهذا نصها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لـ تُدمِّر بن غندريس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورُسله ، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يقدِّم له وألا يؤخِّر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يُسبِّبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا يُكَرِّهُون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائِن ، أوريولَة وملولة وأورقة وبَلَشْتَلَة ولَقَنْتَة وإِلْشَن ، وأنه لا يدع حفظ العهد ولا يخل ما انعقد ، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية ، من ذلك على كل حرف : دينار وأربعة أمداء من قمح وأربعة أمداء من

(١) من الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

(٢) فتح الطيب ، ٢٦٤/١ .

(٣) راجع : نصوص عن الأندلس ، ١ ، ٤ ، الروض المطار ، ٣٤ .

شعيرو ، وأربعة أقسام خل ، وقسطا عسل ، وقسط زيت . وعلى كل عبد نصف هذا . « شهد على ذلك : عثمان بن عبيدة القرشي ، وحبيب بن أبي عبيدة القرشي ، وسعدان بن عبد الله الربعي ، وسلامان بن قيس التنجي ، ومحبي بن عمر السهيمي ، وبشر بن قيس اللخمي ، ويعيش بن عبد الله الأزدي ، وأبو عاصم الهنلي . وكتب في رجب سنة أربعين وتسعين . »^(١)

ولعله يحسن إلقاء الضوء على مسائلتين :

١ - الظاهر أن السبب في إيراد عبارات في الوثيقة تفصّل ما يتعلّق بالضمادات على النفس والأمان على الحياة والإبقاء على الشعائر هو التخوف من تصرف وسلوك الغالب ، كما كان معروفاً لديهم في غير الفتح الإسلامي . وقد ألف القوم من الأحداث التي سمعوا عنها أو شاهدوها أو مارسوها انتهاك الحرمات والاستهانة بالناس . إن هذه الأمور التي ضمّنوها كان انتهاكها جارياً في تصرف غير المسلمين ، فلم يجد المسلمون مانعاً من الاستجابة لهم بكتابتها مفصّلة . بل إن المسلمين يحرصون على ذلك لأنهم يتذمرون بما يقولون ويحرصون عليه قبل صاحب الشأن ، ويصيّبون في الالتزام به مع الآخرين هم أصحاب الشأن ، فذلك تطبيق لعقيدتهم . فشأنهم هو الالتزام بالعهود والمواثيق بداعي يقوم على العقيدة الإسلامية ، وهذا يميّز المسلمين في فتوحهم - كما في غيره - ويفرّدهم ، بهذه الصفات الكريمة والأخلاق العالية التي تنشئها العقيدة الإسلامية ، تفرداً يشير إلى سمو المنهج - وهو من عند الله تعالى - وإلى جدّية المسلمين وتمسكهم في كل الظروف وإلى بعد الحدود ، حتى لو كلفهم ذلك غرماً أو درّ عليهم نفعاً ، أيّاً كان نوعه ومقداره ، والأمثلة على ذلك تتدااعف وتزدحم كثرة

(١) هنا نص الوثيقة كما أورده العذري (نصوص عن الأندلس ، ٤-٥) . وعند آخرين ، في كل منهم بعض اختلاف . راجع : بعثة الملائكة ، الصبي ، ٢٧٤ (حين الحديث عن حبيب بن أبي عبيدة ، رقم : ٦٧٥) ؛ الروض المطار ، ٦٢ - ٦٣ (جاء ذكرها أيضاً : ٣٤ ، ١٥٢) . انظر : نصوص عن الأندلس ، ١٢٣-١٣٤ ؛ فجر الأندلس ، ١١٤-١١٥ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٥٥-٥٦ . غير معروف الأصل الذي نقلت عنه هذه الوثيقة ولم كان هذا الاختلاف . أسماء المدن بالإسبانية على التوالي هي : Orihuela, Mula, Lorca, Valentilla, Alicante, Ello, Elche.

في كتب التاريخ الأصيلة ، واعترف بها المنصفون من غير المسلمين ، من لم تمسهم لوثة التعصب أو التقليد .

٢ — أما شدة التوثيق والتدمير فتشير أيضاً إلى تجربة القوم هناك مع الآخرين في غير الفتح الإسلامي — في إخفار الذمة ، بعد إعطاء العهود . لكنهم هنا سيرون معاملة جديدة فريدة لم يألفها التاريخ إلا من أولئك الدعاة الفاتحين ومن سار على نهجهم من الحلفاء .

* * *

تضع الوثيقة تاريخ الصلح في رجب سنة ٩٤ هـ (نisan ٧١٣ م) . يعني أن فتح كورة تُدْمِيرَ كان قبل إعادة عبد العزيز بن موسى بن نصيّر فتح إشبيلية ، ثم فتح باجة ولبلة ، بعد الانتهاء من فتح ماردة الذي كان في رمضان — شوال سنة ٩٤ هـ (تموز ٧١٣ م) . وهذا يضمننا أمام إشكال ، لوجود فجوات في أخبار الفتح ، ولعدم وضوحها وتمامها ، ولأن بعض الدارسين يجعلون فتح عبد العزيز لتُدْمِيرَ أيام ولايته للأندلس التي ابتدأت في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ (أيلول ٧١٤ م) ، فجعل تاريخ الوثيقة سنة ٩٦ هـ ، بدلاً من سنة ٩٤ هـ^(١) .

ما دامت المصادر التي روت هذه الوثيقة اتفقت كلها على تاريخها المذكور في الشهر والسنة (رجب ٩٤ هـ) . فعل أي أساس يقترح تبدل تاريخها ، والمصادر لم تشر — لا تلميحاً ولا تصريحاً — على أن معاهدة الصلح هذه كانت في ولاية عبد العزيز لا قبلها ؟

ما يحمل هذا الإشكال أن يكون موسى أرسل ابنه عبد العزيز لاستكمال فتح شرق الأندلس ، قبل توجه موسى إلى ماردة ، إذا نظرنا إلى تاريخ فتح موسى لماردة (رمضان — شوال ، ٩٤ هـ) وفتح عبد العزيز لتدمير وعقده الصلح (رجب ٩٤ هـ) . وبعد إتمام عبد العزيز هذه الفتوح وعقد الصلح المذكور يتحقق بأبيه في حصاره ماردة . وبعد فتحها يعود موسى فيرسله — إن كان قد التحق بأبيه — إلى إشبيلية وباجة ولبلة ، ثم يتولى عبد العزيز فتح غرب الأندلس^(٢) . وتوليه فتح غرب الأندلس أمر معقول ،

(١) فجر الأندلس ، ١١٧ . كذلك : دولة الاسلام في الأندلس ، ٥٦/١ .

(٢) راجع : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، ١٠٩ .

حيث لا نسمع عن مشاركته لأعمال الجهاد في شمال الجزيرة الإيبيرية .

يذكر المَقْرِي - نقلًا عن ابن حِيَّان وغيره - بعد الحديث عن لبلة « واستقامت الأمور فيما هناك ، وعلا الإسلام ، وأقام عبد العزيز بإشبيلية »^(١) . لعله اتخذها مركزاً لجهاده ، في غرب الأندلس . هذا حل يُرْكَنُ إِلَيْهِ ، وبغيره يعني التناظر والشك في تاريخ الوثيقة ، وهو أمر يصعب تصريفه ، لا سيما وأن تدوين رقم السنة كتابة ، وقد اتفقت المصادر فيه .

فيكون خط سير حملة موسى ، منذ عبور المجاز (رمضان ٩٣ هـ) حتى لقائه بطارق (ذو القعدة ٩٤ هـ) ، الآتي :

سَبَّتْنَةَ (عَبَرَ مُضيق جبل طارق) ، الجزيرة الخضراء ، مدينة شَدُونَة ، قَرْمُونَة ، إشْبِيلِيَّة ، لَفَنْتَ ، مَارِدَة [أُرسِلَ ابْنَهُ عَبْدُ الْعَزِيزَ فِي جَيْشٍ ، فَتَحَ : لَبْلَةَ وَبَاجَةَ وَإِشْبِيلِيَّةَ وَالْبِيرَةَ وَمَالَقَةَ وَقَرْطَاجَنَةَ وَأُورِيُولَةَ وَرِبَّماَغِيرَهَا] ، طَلَبِيرَةَ (لِقاَوَهُ بَطَارِقَ) ، طُلَيْطُلَةَ .

٥ - لقاء موسى وطارق

في بداية ذي القعدة سنة ٩٤ هـ (بداية آب ٧١٣ م) ابتدأ موسى السير صوب طُلَيْطُلَة . ويبدو أنه - احتياطًا من مخاطر الطريق - كتب إلى طارق بالتوجه إليه ، في مجموعة من جيشه . عسَّكر موسى في مكان يستعرض فيه الجيش عَرْفَ بـ « وادي المعرض » (Almaraz) ، ثم جاءه طارق . ذكر البعض أن لقاءهما كان عند طُلَيْطُلَة^(٢) أو قُرْطُبَة^(٣) ، والراجح أنه كان خارج مدينة طَلَبِيرَة^(٤) (Talavera de la Reina) التي تبعد ١٥٠ كم غرب طُلَيْطُلَة .

(١) نفح الطيب ، ٢٧١/١ .

(٢) البيان المغرب ، ١٦/٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٩ (نص ابن الشباط) .

(٣) البيان ، ١٦/٢ (نقل عن الطبرى الذي لم أجده هنا في تاريخه ، ٤٨١/٦ ، حين يتحدث عن لقاء طارق موسى) .

(٤) البيان ، ١٦/٢ (نقل عن الرازى) ؛ نفح ، ٢٧١/١ (نقل عن ابن حيان وغيره) ؛ أخبار مجموعة ، ١٨ . عن طَلَبِيرَة راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٨٩ ؛ الروض ، ١٢٧ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشاق) ، ١٨٧ ؛ الحلة السيراء ، ٢٥٧/٢ ؛ الحلل السنديسة ، ٤٣/٢ .

يقول المقرّي : « وتجه الأمير موسى من ماردة في عقب شوال من العام المؤرخ يريد طليطلة ، وبلغ طارقاً خبره ، فاستقبله في وجوه الناس ، فلقيه في موضع من كورة طلبيرة »^(١) . وقد يكون موسى قام بفتح مدينة طلبيرة أو أن طارقاً سبقه إلى ذلك .

يذكر صاحب أخبار مجموعة ذلك ، إلا أنه يجعل « با سد » – بدون نفط – موضعًا للقائمهما^(٢) . لعلها تعني التيتار (Tiétar)^(٣) وهو أحد فروع نهر تاجه (Tajo) . وعبارة أخبار مجموعة لا تبين ما إذا كان هذا المكان نهرًا . فهل هناك مكان حمل اسم النهر أيضًا ، وهل هو في « وادي المعرض » أو بالقرب منه ؟ على كل الأحوال إنهم التقى وسارا سوية نحو طليطلة ، من طريق قديمة طويلة نمت من ماردة إلى سلامنقة (Salamanca) .

آ – معركة السوافي

تذكرة روایات – أكثرها إسبانية – أن لذریق – آخر ملوك القوط – كان يختبئ للإيقاع بال المسلمين ، معتبرة بقاءه بعد معركة « وادي برباط » . فوجد فرصة في مهاجمة الجيش الإسلامي ، يفجّره وهو بعيد عن مركز الإمداد . وكانت في ذي القعدة سنة ٩٤ هـ (أيلول ٧١٣ م) عند السوافي معركة قوية انتصر فيها الجيش الإسلامي على لذریق وجيشه ، وقتل هو بيد مروان بن موسى بن نصیر ، وحمل اتباع لذریق جسنه ودفن في فيزو (Viseo)^(٤) . لكن لا تبدو أدلة وجود هذه المعركة قوية .

ذكرت بعض المصادر الأندلسية اسم « السوافي » ، لكنه لا ينطبق على المكان الذي تشير إليه الرواية الإسبانية . يقول ابن الشبّاط في صلة السّمط وسمة المروط : « وأفلت لذریق إلى موضع يقال له السوافي ، فيقال إنه قتل وهو لا يُعرف وقيل

(١) نفع الطيب ، ٢٧١/١ (نقلًا عن ابن حيان وغيره) . (٢) أخبار مجموعة ، ١٨ .

(٣) فجر الأندلس ، ٩٨ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٩ . كذلك : *Histoire*, I, 25 (Sp. tr. , *Historia de Espana, Espana Musulmana*, IV, 17).

(٤) راجع : تاريخ الأندلس ، ٤٠-٢٧ (مقدمة المحقق) ؛ فجر الأندلس ، ٩٨ - ٩٩ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٨ - ٩٩ .

أيضاً إنه أراد الاستمار بسمار الوادي فغرق فيه وهلك ^(١) . ولعل هذا يعني أن لُذْرِيق لم يقتل في المعركة الخامسة أو في ميدان القتال بل هرب محاولاً الاختفاء إلى مكان قريب يسمى « السوافي » عند حافة نهر فقتل أو غرق فيه ^(٢) . ولدى ابن عذاري عبارة تجعله في اتفاق مع هذا المعنى ، إلا أنه يسمى الموضع الذي قتل فيه لُذْرِيق « وادي الطين » ، وهي : « فانهزموا وأدْرِكَ رُذْرِيق ، فقتل في وادي الطين » ^(٣) . وفيهم من هذا أن يكون وادي الطين (Guadatin) قريباً من ميدان المعركة ^(٤) .

ب - وصول طُلَيْطُلَة

وصل موسى وطارق إلى طُلَيْطُلَة (ذو القعدة - ذو الحجة : أو آخر سنة ٩٤ هـ = خريف ٧١٣ م) . وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء - أو جله - في طُلَيْطُلَة ، يرتبون أحواها وينظمون شؤونها ، ويستريحون ويتهدأون وينحطتون لفتح شمال شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد - وربما ليس لأول مرة - أخبار الفتح . وضُربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس ، ولا بد أن أنهم قاموا بنشاط آخر ، هو إفهام الناس الإسلام وشرحه لهم ودعوتهم إليه ، بعد أن رأه أهل البلاد عملياً في خلق الفاتحين . ولعلهم أرسلوا فرقاً إلى بعض المناطق ؛ فقد كان طارق خَبَّرَ أحوال طُلَيْطُلَة ، لا سيما شمائلها ، إذ كان قد وصل إلى مدينة المائدة (في منطقة وادي الحجارة) ^(٥) .

٦ - سبب عبور موسى

يمسن التوقف هنا لإلقاء الضوء على مسألة أوردها بعض المؤرخين في أكثر من صورة . وهي أن سبب عبور موسى إلى الأندلس كان حسده لطارق بن زياد ، لسبقه

(١) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ . سمار : نوع من النباتات . تاريخ الأندلس ، ١٧٠ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس ، ٣٢ - ٣٣ (مقدمة المحقق) .

(٣) البيان المغرب ، ٧/٢ .

(٤) قارن : تاريخ الأندلس ، ٢٨ .

(٥) انظر : أعلاه ، ٦٥ - ٦٦ .

بهذا الشرف والمجد^(١) . وحينما التقى أهان موسى طارقاً وضربه بالسوط حتى هم بقتله^(٢) .

ليس لهذا الكلام واقع تاريخي ، ولا تسمح بقبوله مجريات الأحداث ، كما مرت بنا ، وتنفيه طبيعة هذا التاريخ كما عرفناها . وكل ما أثير حول هذا الموضوع وصيغ في هذا الاتجاه لا يقوى على الثبات أمام النقد العلمي التاريخي الأمين والبحث التزيم .

لم يكن موسى مغموراً أو محروماً من شرف الفتح وخدمة الإسلام . هو الذي قدم الكثير في الميدان ، قبل ولاته للشمال الإفريقي وبعدها . لاسيما وأن موسى – القائد المحنث – كان مقدراً لأهمية فتح الجزيرة الأندلسية منذ البداية ، مهتماً به غایة الاهتمام . أليس هو الذي حث على هذه الخطوة وكرر المحاولة لإقامة الخليفة بها ، فلماذا لم يتولَّ هو ابتداءً قيادة الجيش الفاتح بنفسه؟ إن طارقاً – الذي لم يخالف موسى أمراً – ليس إلا أحد الضباط تحت إمرة موسى ، وهو الذي عينه ، وكان بإمكانه أن يعزله لو أراد دون الرجوع إلى الخليفة .

بعض النصوص المتعلقة بعبور موسى تعينا في فهم الأحداث . زيادة على ما علمنا من أن عبور موسى كان بناء على استغاثة طارق له ، ومشاركة له في الجهد والفتح . «وفي سنة ٩٣، شخص موسى بن نصیر إلى الأندلس ، ذلك أنه لما سمع بما فتح الله عز وجل على يد طارق أحب أن يكون شريكاً في ذلك له»^(٣) . ولو كان عبور موسى حسداً بحال الزقاق الأندلسي بنفسه في ثلثة قليلة و مباشرة بعد معركة وادي برِّباط ، التي وصلته أنباؤها ، واتجه إلى طارق في أقصر وقت .

(١) تاريخ الأندلس ، ٤٩ (نص ابن الكربابوس) ؛ نفح الطيب ، ٢٦٩/١ .

(٢) جنوة المقتبس ، الحميدي ، ٢٤٨ (ترجمة طارق ، رقم : ٥١٩) . عبارته مشوهة فيقول إن موسى لحق بطارق «ونقم عليها ، إذ غراها بغیر إذنه [!] ، وسجنه وهم بقتله» . كتب الحميدي (ميرقة قبل ٤٢٠ – بغداد ٤٨٨) ، العالم الجليل ، جنوثه وهو في بغداد والمصدر بعيدة عنه ، كما يقول في مقدمته . انظر : المغرب ، ٤٦٧/٢ ؛ نفح الطيب ، ١١٤/٢ . فاعتبه على حفظه وربما على مصادر شرقية . انظر كذلك : وفيات الأعيان ، ٥ (نقل عن جنوة المقتبس) ؛ نفح الطيب ، ٢٤٣/١ ، (نقل عن جنوة المقتبس) ، ١ (نقل عن مجھول) .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٤٤ (نص ابن الشباط) .

كان عبور موسى للأندلس بعد ستة من عبور طارق إليها . وكان موسى عارفاً بأحداث الفتح وأخبار الانتصارات من أول يوم ، فلماذا تأخر عبوره ؟

على أن موسى لم يذهب مباشرة لمواجهة طارق ، بل سلك سبيلاً آخر غير الذي سلكه طارق . ولو أراد موسى مخاومة طارق لسار إليه رأساً ، لكنه أراد حماية ما فتح طارق فسار في طريق أخرى ، واتجه « إلى مداين لم يفتحها طارق ولم يدخلها »^(١) .

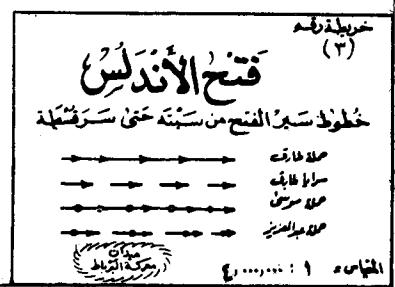
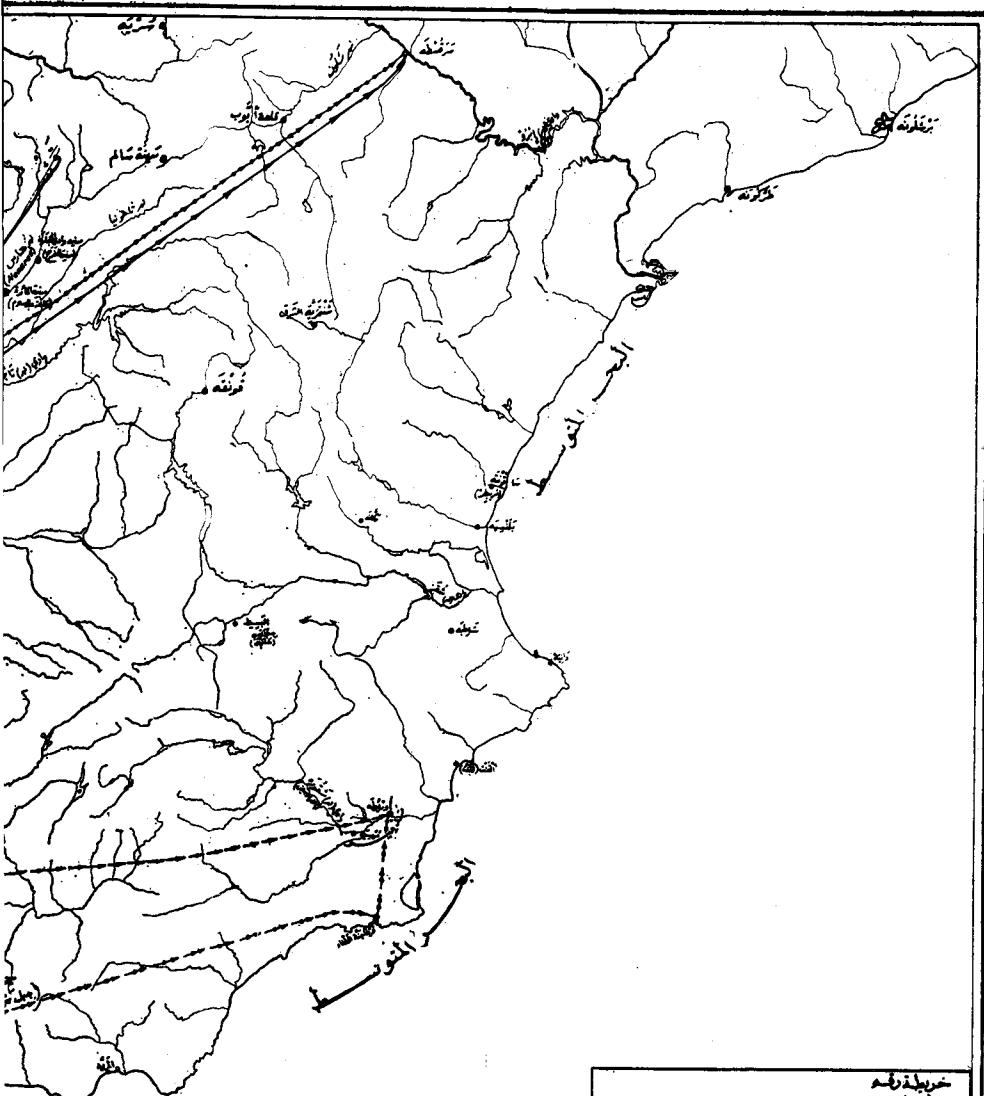
يبدو أن طارقاً سار في فتوحه بسرعة غير متوقعة ، ولعل موسى أصدر أمراً إلى طارق بانتظاره أو بالتوقف ، فعبر للمساهمة في الفتح والتعجيل به – ما دامت الفرصة مواتية – مُتَخَوِّفَاً على جيش المسلمين من قلته أمام الجيش القوطي ، في بلاد متعددة غير سهلة ، وذلك واضح من شرح حملة موسى .

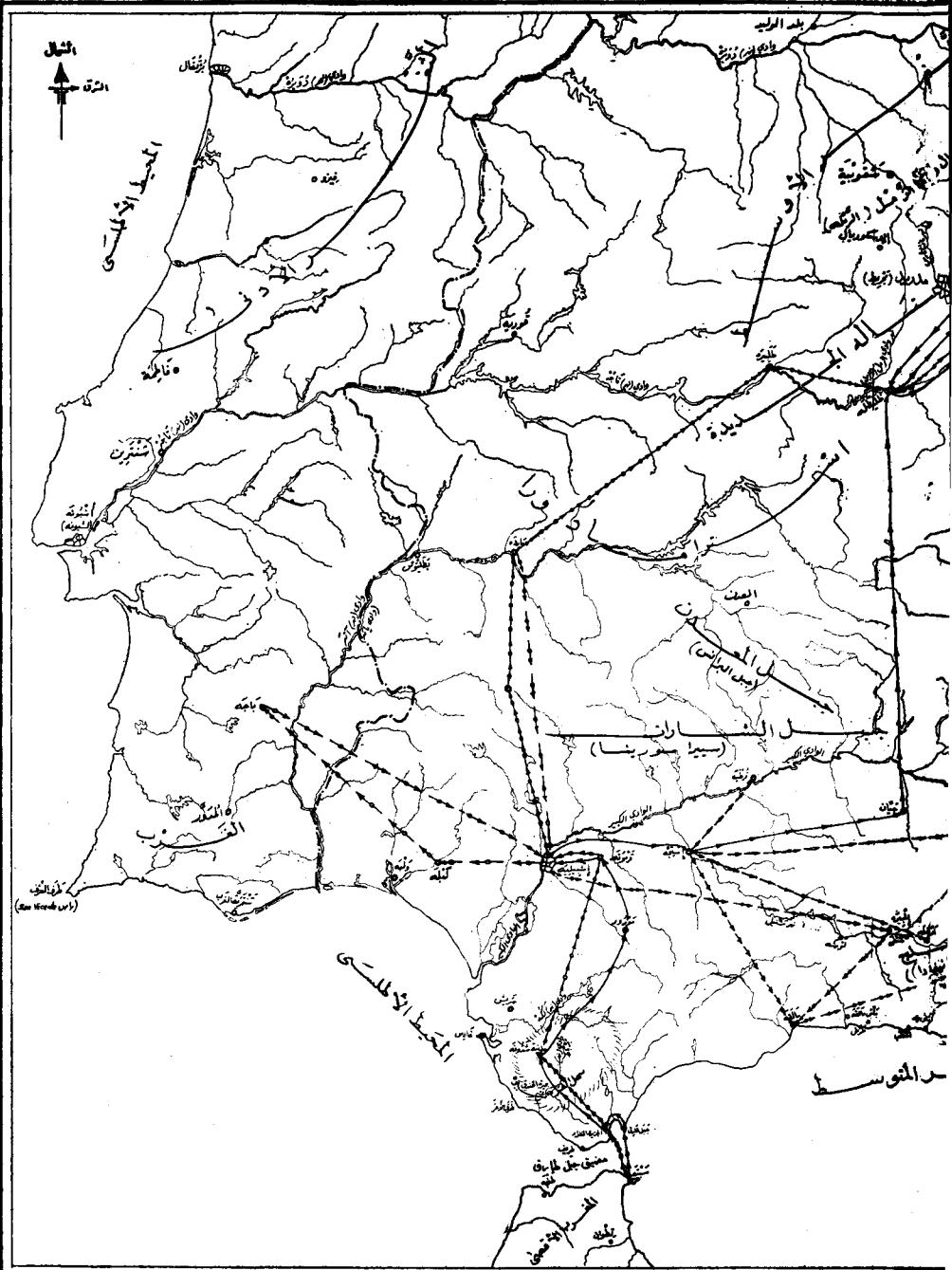
جهز موسى جيشاً كبيراً ، بنيّة التعاون والمشاركة في شرف الفتح والاستمرار به لتكون كلمة الله هي العليا وتسود شريعته . كان عبوره تعزيزاً للجيش الإسلامي وسدآً لمحاولات قطع الطرق عليه ، وأخذآً في الخطة وإنعاماً للخطبة ، وإنجازاً للفتح وتأكيداً لوجوده ونشرآً للعقيدة الإسلامية ، التي كان كل ذلك من أجلها .

لم يتخذ موسى أيّ إجراء – تلو عبوره إلى الأندلس – ضد طارق . لم يذهب إليه رأساً ، بل استمر في الفتوح وبذل الجهد لحماية الجيش الإسلامي فيما فتحه وافتتاح مناطق جديدة مما لم يفتحه طارق . لم يلتقي بطارق إلا بعد مرور ما يزيد على السنة من عبور موسى نفسه . كان بإمكانه خلال ذلك اتخاذ أيّ إجراء ، إن لم يرد التوجه إلى طارق رأساً .

لم نسمع عن أيّ حدث بينهما – بعد اللقاء – طيلة الشتاء في طليطلة – حيث أقاموا لوضع خطة الفتح – ولا خلال سيرهما سوية إلى الشمال ، ليتولى كل منهما قسماً من الجيش فيفتح الجهة التي سار إليها . لم يكن موسى أقلّ ثقة بطارق من ذي قبل ، لقد استعان موسى بطارق حين استدعاه للقاء عند طلبيرة . وصورة الاستدعاء واللقاء – كما تمت – تحول دون قبول مثل تلكم الأوهام .

(١) تاريخ الأندلس ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) .





إذا كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة بعض القضايا أو استفهامه من طارق خططه وإبداء الملاحظات عنها ، تخوفاً من الأذى « وعلى توغله بال المسلمين ، وتغريبه بهم »^(١) ، حيث سار بهذه السرعة إلى قلب البلاد . وحين « خرج إليه طارق وتلقاه ، فتَعَجَّبَ عليه موسى وقال له : ما دعاك إلى الإيغال والتفحص في البلاد بغیر أمری »^(٢) . فاعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه ، وقبل موسى عذرها . وسألاه — بعده — سوية إخوة مجاهدين ، ينشرون دين الله ويُعلّون كلمته ويبلغون للناس شريعته .

وقد ناقش هذه المسألة عدد من الدارسين ، وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها^(٣) . كان هؤلاء القائدان وغيرهما — من المسؤولين والجنود سواء — يسعون لخدمة الإسلام ورفع رايته ، وهم على استعداد للبذل والتضحية التي عليها يحرصون ويجدون فيها اطمئنانهم ، وذلك هو سُمْتُ المؤمن برب العالمين .

أما موضوع المائدة التي غنِّمَها المسلمون في طُليطلة^(٤) أو في مدينة المائدة^(٥) — وهو راجح — وأن طارقاً أخفى أحدي أرجلها^(٦) ، فهو أسطورة أخرى^(٧) . فلم تكن هناك مائدة أصلاً ، ولكنها كانت مذبح كنيسة طُليطلة . يذكر بعض المؤرخين أن طارقاً « أصاب فيها مائدة منظومة بالدرر والياقوت والزبرجد » ، وهي التي يزعم الناس [رواية العجم] أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ولم تكن كذلك ، غير أن الخبرة [أهل الحسنة] من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا

(١) البيان المغرب ، ١٦/١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٢٥ (مقدمة المحقق) ، ١٤٩ (نص ابن الشباط) . كذلك : الحلقة السيراء ، ٢٣٤/٢ .

(٣) فجر الأندلس ، ٩٠-٨٤ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩١-٩٢ ؛ قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيش خطاب ، ٢٥١/١ - ٢٥٥ ؛ دولة الإسلام ، ٥١/١ - ٥٣ .

(٤) تاريخ الأندلس ، ١٤٨ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٣١ ؛ نفح ، ١/١ ، ١٦١ .

(٥) البيان ، ١٧/٢ ؛ نفح ، ٢٦٥/١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ ؛ وفيات ، ٥/٣٢٨ ؛ تاريخ الأندلس ،

٤٨ (نص ابن الكردبوس) ، ١٤٩-١٤٨ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٣٢-١٣١ ، ١٧٩ .

(٦) نفح الطيب ، ٢٧٢/١ ؛ تاريخ الأندلس ، ٥٠ (نص ابن الكردبوس) .

(٧) قارن : النهايات والتحف ، ١٧٠ .

للكنائس بمال تصنع منه كراسى توضع عليها مصاحف الإنجيل في الأعياد ، فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه الملوك .^(١)

٧ - الجهاد في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية

عند انتهاء الشتاء وحلول الربيع يتهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة ، متوجهًا إلى الشمال . لم أجد تاريخ تحركه نحو الشمال . فإذا اعتبرنا الربيع بداية سيره يكون جُمادَى الثانية سنة ٩٥ هـ (آذار ٧١٤ م) – أو قبلها – تاريخًا للتحرك نحو الشمال .

فتح سرْقُسطَة والشَّغْر الأَعْلَى

سار الجيش الإسلامي سوية – أو يتقدمه طارق^(٢) – نحو الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية ، إلى المنطقة التي عُرِفت بالشَّغْر الأَعْلَى . وافتتح مدينة سرْقُسطَة (Zaragoza) « المدينة البيضاء »^(٣) ، دون قتال شديد ، على ما يبدوا . أقاموا هناك سوية مدة ينظمون أحوالها . وأنشأوا فيها مسجداً ، خَطَّطَه وسَدَّدَ قِبْلَتَه مهندسٌ المساجد في الغرب الإسلامي أثناء الفتح ، التابعِيُّ الحليل حَنَشُ بن عبد الله الصناعي (سرْقُسطَة ١٠٠ هـ)^(٤) . وكان قد أشرف على بناء عدد من المساجد في إفريقية . كذلك شارك في تأسيس مسجد قرطبة الذي بُني عنده مسجدُها الجامع – فيما بعد^(٥) – ومسجد إلْبِيرَة الجامع^(٦) . وحَنَشُ من صنَاعَ الشَّام ، شارك في فتوحات المغرب (الشمال الإفريقي) مع رُوَيْفع بن ثابت الأنباري وغيره ، ودخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر^(٧) .

(١) تاريخ الأندلس ، ١٤٩ (نص ابن الشباط) ، ومقدمته ، ٢٥ . ما بين الأقواس مأخوذ من كلام ابن حيان عن الموضوع . نفح ، ٢٧٢/١ . كذلك : نفح ، ٢٦٥/١ ، ٢٨٩ ، ١٣٢-١٣١ هـ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٧٣/١ . (٣) الروض المعطار ، ٩٦ .

(٤) البيان ، ٩٦/٢ ؛ الروض ، ٤٤ ، ٢٩ ، ٩٧ ؛ نصوص عن الأندلس ، ٢٢ ، ٢٣ ؛ نفح ، ٥٦٢/١ .

(٥) تاريخ الأندلس ، ١٨١ (نص ابن الشباط) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٧/١ (رقم : ٣٩١) ؛

جنوة المقتبس ، ٢٠٢ (رقم : ٤٠٣) ؛ بقية الملتزم ، ٢٧٨ (رقم : ٦٨٧) .

(٦) نفح الطيب ، ٩٦/١ . كذلك : المقتبس ، ابن حيان ، ٢٤٢/٢ .

(٧) الإحاطة ، ٩٢/١ ؛ الروض ، ٢٩ .

(٨) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ (رقم : ٣٩١) ؛ جنوة المقتبس ، ٢٠٢ (رقم : ٤٠٣) ؛ بقية الملتزم ، ٢٨٧ (رقم : ٦٨٧) ؛ نفح ، ٧/٣ ، ٢٧٨/١ ؛ البر ، النهي ، ١١٩/١ .

فُتحت مناطق حول سرقوسطة أو تابعة لها ، ومدن أخرى في تلك الناحية : وشقة (Huesca) ولاردة (Lerida) وطركونة (Tarragona) وبرشلونة (Barcelona) .^(١)

لم تتوفر – في المصادر الأولى – معلومات واضحة عن فتح كل هذه المدن . ويدرك ابن خلدون في عبّره أن موسى « توغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق »^(٢) . لكن المقرري (نقلًا عن ابن حيّان) يذكر أن بعث طارق هي التي فتحت برشلونة^(٣) . فهل يعني هذا أنهما تعاونا في فتحها (والمنطقة) ، أو أن طارقاً قام بذلك بنفسه أو بسراياه ، أو أن موسى كلّفه بالإشراف على عملياتها ؟ لعل في نص ابن حيّان الآتي ما يُلقي بصيصاً على هذه الأمور .

أما فتح وشقة فالحيميري يذكر أن المسلمين فتحوها صلحًا بعد حصار سبعة أعوام ، منذ الفتح^(٤) .

إذا قصرّت بنا المصادر في أخبار فتح مفصلة عن هذه المدن فالمتوقع تماماً أن الفاتحين قاموا بجهاد وافر متواصل لفتحها وغيرها من مدن تلك الجهة .

يورد المقرري – نقلًا عن ابن حيّان ، ولعله يتصرف – كلاماً يحمل فيه نشاط كل من موسى وطارق في تلك المنطقة وفيما وراء جبال البرُّت (Pirineos, Pyrenees) نقبيس بعضه ، حيث أمر موسى طارقاً « بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيشه ، فارتدى إلى التغر الأعلى ، وافتتح سرقسطة وأعمالها ، أوغل في البلاد ، وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلا فتح عليهم ، وغنمَّهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفارة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح ، وموسى يجيء أثر طارق في ذلك كله ، ويكمّل ابتداءه ، ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه ، فلما صفا القطر كله ، وطامن نفوسَ منْ أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في

(١) فجر الأندلس ، ١٠٣ ؛ تاريخ المسلمين ، ١٠١ ؛ دولة الإسلام ، ٥٣/١ .

(٢) البر ، ٢٥٥/٤ ؛ نفح الطيب ، ٢٣٣/١ (نقلًا عن ابن خلدون) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٣/١ .

(٤) الروض المعطار ، ١٩٥ .

الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين إلى إفرنجية ففتحوا وغنمو ، وسلموا وعلّوا وأوغلو ، حتى انتهوا إلى وادي رُودَنْهُ^(١).

لعل موسى أقام في سرقة سطة في هذا الوقت متخدناً منها مقراً - يرسم خططاً للفتح - ومركزأً تخرج منه فرق الجند للقيام بعمليات الفتح . وغير بعيد أن موسى وجه الفرق لفتح المدن السابقة وغيرها ، وربما افتتح هو بنفسه بعضها . وهي أمور غير واضحة تماماً في النصوص لدينا ، التي ما زال فيها غموض حول بعض أمور الفتح وفجوات حول البعض الآخر ، مثلما مرّنا في فتح برشلونة . كما لم أجد أخباراً تتعلق بفتح بعض مدن ساحل الأندلس الشرقي مثل بلنسية وطرطوشة .

يدرك شبيب أرسلان أنه «في سنة ٧١٤ صارت بلنسية مدينة إسلامية بعد أن فتحها طارق هي والمدن التي تجاورها مثل ساقونة وشاطبة ودانة»^(٢) . وقد يكون استند في ذلك إلى مصدر ، لكنه لم يذكره .

في خبر طريف يُورده ابن سعيد في مُغْرِبِه عن سرقة سطة التي «التفت عليها أنهارها الأربعه . . . وأشهرها نهر جلتق ، وشرب موسى بن نصيبر فاتح الأندلس من ماء نهر جلتق ، فاستعدبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس ماءً أعنده منه»^(٣) . لكن هذا الخبر لم يبين لنا الموضع الذي شرب منه موسى . وهو أمر يفيد - إلى أي حد - في معرفة بعض خط سير موسى . فهل شرب من هذا النهر عند مدينة سرقة سطة أم خارجها؟ لأن نهر جلتق (Gallego) أحد الروافد التي تغذي نهر إبرة (Ebro) الذي تقع عليه مدينة سرقة سطة .

يروي المقرري - نقاً عن مجاهول - نفس الخبر بشكل يزيد الأمر صعوبة ، حيث يذكر «أن موسى بن نصيبر شرب من ماء نهر جلتق بسرقة سطة فاستعدبه»^(٤).

(١) نفح الطيب ، ٢٧٣/١ .

(٢) الحلال السندي ، ٥٠/٣ . ساقونته (Sagunto) هي مدينة مريطر (Murviedro) الأندلسية التي تبعد ٢١ كم شمال بلنسية . وشاطبة (Jativa) مدينة على بعد ٥٦ كم جنوب غرب بلنسية . ودانة (Denia) مدينة على بعد مائة تقريباً جنوب شرق بلنسية .

(٣) المغرب في حل المغرب ، ٤٣٤/٢ . (لمله نقاً عن المصب للحجاري) .

(٤) نفح الطيب ، ١٥٠/١ . كذلك : الحلال السندي ، ١١٩/٢ .

ويفهم منه أن جِلْقَ يَمْ بَسَرَقُسْطَةَ . ويقترب العُذْرِي من هذا حين يقول : «ولالمدينة سَرَقُسْطَةَ سُقِيَا من نَهْرِ جِلْقَ»^(١) . السبب في هذه الصعوبة أن جِلْقَ - على ما يبَدِّلُ - خارج سَرَقُسْطَةَ . لعلنا نخرج من هذه الصعوبة حين يمكن اعتبار أن المقصود هنا منطقة (أحواز) سَرَقُسْطَةَ لا المدينة . الصعوبة عارضة إذا صَحَّ لها هذا الحل تبقى مسألة التعرُّف على نَهْرِ جِلْقَ ليصحُّ الانتفاع بها^(٢) .

(١) نصوص عن الأندلس ، ٢٢.

(٢) استدعي هذا الأمر دراسة الأخبار الواردة عن نَهْرِ جِلْقَ ومعرفة خط سيره والبحث عن مصادر أخرى تساعدنا في تعين الموضع . مما اتفق إتفاق ساعات - لمسألة جانبيَّة - في المتابعة التي لم تخرج بنتيجة حاسمة . ويفهم له أكثر من موضع ، من الشروح المتوفرة والخرائط (قارن : نصوص عن الأندلس ، ١٥٢ ، الحاشية) . وقد زار شكيب أرسلان إسبانيا ، ورأى هذه المنطقة ، وحدثنا عن جِلْقَ في أكثر من موضع من حله . وذكر وادي جِلْقَ ، ويوقعه يعني نَهْرِ إبره (جنوباً) ثم يوْقَعُ على يَسَاه (شمالاً) . الحل السنديَّة ، ٩٤/٢ ، ١١٣ . فهل أن الوادي يشكل كل هذه المنطقة ؟

يتحدث أرسلان عن نَهْرِ جِلْقَ «الَّتِي يَمْ بَأْرَاضِي سَرَقُسْطَةَ ، وَيَتَصلُّ بِإِبْرَةَ» . الحل ، ١١٦/٢ . وهذا يؤيد ما قيل قبل أسطر . لكنه هنا يفيدنا في بيان موقع سَرَقُسْطَةَ بالنسبة لإبره ، تلي العبارة السابقة مباشرة «فَأَمَّا سَرَقُسْطَةَ فَهِيَ عَلَى الصَّفَةِ الْيَمِينِيِّ مِنْ إِبْرَةَ وَهَا رَبِّضَ عَلَى الصَّفَةِ الْيَسِيرِيِّ مِنْهُ» . ويقال لهذا الربض الطاباس (Altavas)) وبين البلدة والربض جسر حجر .» الحل ، ١١٦/٢ . ويقول العذري عن نَهْرِ جِلْقَ بأنه «شرق من مدينة سَرَقُسْطَةَ ، وهو يسقي جناتهم المعروفة بالربض وجِلْقَ» . نصوص عن الأندلس ، ٢٢.

ويبين ذلك أرسلان فيقول : «وَمِنْ سَرَقُسْطَةَ يَمْ بَأْرَاطِي الْحَدِيدِيِّ عَلَى الصَّفَةِ الْيَمِينِيِّ مِنْ نَهْرِ جِلْقَ» الحل ، ١٧٧/٢ .

فوق نَهْرِ جِلْقَ في الجهة اليسرى (الشمالية) لإبره ، وينزل جِلْقَ عليه من الجهة الشرقية لـ سَرَقُسْطَةَ ويسقي بعض أحوازها . ويفهم منه أن جِلْقَ ليس في مدينة سَرَقُسْطَةَ ولا يَمْ بها . يفهم من بعض النصوص القديمة لدى المغاربة في الأندلسيين أن نَهْرِ جِلْقَ ينبع من شمال شرق إسبانيا ، قرب جبال البرت من جبال الشيرطانيين في منطقة شير طانية أو شرتانية (Cerdaña)) وينحدر جنوباً . وربما له أكثر من منبع يَمْ أحدها بناحية وشقة وبربشت (Barbastro) يلتتحق به ، فيمَر بمدينة لاردة (Lerida) ثم يصب في نَهْرِ إبره في منطقة الشغر الأعلى شرق مدينة سَرَقُسْطَةَ .

وأكبر نص لدينا عن جِلْقَ ما ورد في المتبقِّي من مسالك العذري - زيادة لما سبق اقتباسه - الذي يحمل جِلْقَ إقلِيمَا ، مثل عبارته السابقة ، وهو : «وَإِقْلِيمَ جِلْقَ ، وَنَهْرَهُ يَسْقِي مَا وَازِي قَنْطَرَةَ سَرَقُسْطَةَ عَشْرَوْنَ مِيلَا ، وَخَرْجَ نَهْرِ جِلْقَ مِنْ جَبَالِ السِّيرَطَانِيِّينَ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى نَاحِيَةِ وَشَقَّةِ إِلَى سَرَقُسْطَةَ وَيَقْعُدُ فِي نَهْرِ إِبْرَةَ ، وَالْجَزْءُ الْأَعْلَى مِنْ نَهْرِ جِلْقَ يَرْوِي مِنَ الصَّخْرِيَّةِ إِلَى مَنْزَلِ حَسَانَ إِلَى قَنْطَرَةَ سَرَقُسْطَةَ عَشْرَوْنَ مِيلَا .» =

٨ - الجهاد وراء البرُّت

تذكر بعض المصادر أن موسى افتح مناطق عَبْر جبال البرُّت في الأرض الكبيرة، وأنه قاد هذا الجهاد بنفسه أو بالسرايا التي أرسلها . فتح الجيش الإسلامي أماكن جنوب فرنسا من بلاد الفرنجة : قَرْقُشُونَة (Carcasonne) وأربُونَة (Narbonne) وأبِينِيون (Avignon, Avinonum) ولوذون (Lyon) على وادي رُودَنَه ، وهو : نهر الرون (Rhone, Rodano, Rhodanus) . ويستشف هذا من عدة نصوص تاريخية ، ضمنها نص ابن حيَّان السابق واللاحق^(١) . لكن أليس من الصعوبة القيام بمثل هذا الجهاد في أيام الفتح الأولى ؟ فهل حدث أي خلط في الأخبار بين ما فتحه المسلمين في جهادهم الأول وبين ما فتحوه فيما بعد ؟ ليس من السهل الجواب الآن . وغير بعيد أن يكون موسى قد وجَه سرِيَّة أو أكثر لاختبار هذه المناطق ، سرايا سريعة الحركة خفية المهمة ، أشْبَهَ بسرِيَّة طَرِيف الاستطلاعية في فتح الأندلس .

= (نصوص عن الأندلس ، العذري ، ٢٤ . ولم يتيسر معرفة موضع الصخرة ومنزل حسان) . يؤيد هذا نص للرازي ، وهو : « نهر جلق ، وهو يقع في نهر إبره ، ومخرجه من جبال السيرطانيين » . صفة الأندلس ، الرازي ، مجلة الأندلس الإسبانية ، ١٠٤/١٨ . نشرت بعنوان :

La "Description de l'Espagne" d'Ahmad al-Razi, AL-ANDALUS (1935), Vol. XVIII, fasc. i, 51-108.

وحيث نتصور هذا الفهم يكون موسى قد شرب من مائه في موضع خارج مدينة سرقسطة ، شرقها أو شمالها . ولا بد أن ذلك تم حين اتجه لفتح مناطق هناك . أما خلال سيره نحو برشلونة ، التي تذكر بعض المصادر أنه هو قام بفتحها ، أو حين سار إلى شمال شرق إسبانيا صوب جبال البرت وأعلى ذلك الركن من شبه الجزيرة الإيبيرية . والثاني أرجح سواه حين كان يجاهد مفتتحاً تلك المناطق ، أو في عبوره - هو أو سراياه - جبال البرت لفتح ما وراءها حتى أربونة على الشاطئ الشرقي لجنوب فرنسا أو غيرها هناك .

بعد هذا كله توفرت خرائط مفصلة تحمل جلق هو النهر الذي ينبع من الشمال قرب جبال البرت وعند معبدها الثاني ، منحدراً نحو الجنوب ليقع في إبره عند سرقسطة ، مارأ قريباً من مدينة جاتة وله أكثر من مجرى . انظر : الخلل السنديسي ، ١٠٩/٢ . فهل أن أحدهما يسمى جلق أم الرئيسي منها ؟ إذا كان هذا نهر جلق فهل أخطأ المغارفيون الأندلسيون في تعيينه أم أن شرطانية في عرفهم تمتد حتى جاتة ؟ الآن وقد انتهت مسألة نهر جلق ، فإذا وجد فيها شيء من الاستطراد فلا يخلو من نفع . وقد كان المرض لعراضها بالشكل الذي تدرج فيه البحث عموماً وقدرت إليه التابعة .

(١) نفح الطيب ، ١/٢٧٣ - ٢٧٤ .

أما الطريق التي سلكتها السرايا فهي إحدى المرات المعروفة عَبْر جبال البرُّت (البرُّتات) المسماة «الأبواب» في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية إلى جنوب فرنسا في الأرض الكبيرة .

آ – جبال البرُّت ومرانُها

يحسن هنا الحديث عن جبال البرُّت للتعرف على البيئة الجغرافية ولتضيح الصورة .
البرُّت (جُمعت : بُرُّتات) كلمة لاتينية : Portus = ممر أو ميناء (Sp.Puerto) . وهي ذات صلة بالكلمة اللاتينية : Porta = باب أو مدخل (Sp.Puerta,Fr.porte) .

استعمل الكتاب الأندلسيون تسمية الجبل الفرنجية كما سمعوها ، وجمعوا أحياناً ، فقالوا : « جبال البرُّت » أو « جبال البرُّتات » ، وأحياناً بتعريف التسمية : « الأبواب ». وحين تحدث أحمد بن محمد الرazi (٢٧٤ - ٣٤٤ هـ)^(١) عن جبال الجزيرة الأندلسية قال – بعد أن ذكر جبل قُرُطبة – : « أما الجبل الثاني فمبتدئه عند ساحل البحر الشرقي مقبلاً من ناحية أربُونَة ، وهو الحاجز بين الأندلس وبِلَاد إفْرَنجَة ، والفرنجية تُسميه جبل رُنْشِفَالَّة ، ويُسِيرُ موازيًا لِبَلَدِ بَشْقَيَةِ وَبَلَدِ أَشْتَرِيَسِ وَمَنْتَهَايَهُ عَنْدَ الْبَحْرِ فِي جِلِيقِيَّةِ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ . »^(٢) ، ثُمَّ يعْدَ بقية الجبال . كذلك يقول : « وَبَيْنَهُمَا [البحر المحيط (المحيط الأطلسي) والبحر المتوسط] الْبَرُّ الَّذِي يُعْرَفُ بِالْأَبْوَابِ ، وَهُوَ الْمَدْخُولُ إِلَى بَلَدِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ عَلَى بَلَدِ إِفْرَنجَةِ ، وَمَسَافَتُهُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ مَسِيرَةُ يَوْمَيْنِ »^(٣) .

كذلك قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النَّظَام^(٤) عن جبال البرُّت : « مِنْهُ الْمَدْخُولُ إِلَى الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْأَبْوَابُ ، وَمِنْ قِبَلِهِ يَتَصلُّ بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ بِتِلْكَ الْبَلَادِ الْمُعْرُوفَةِ بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ ذَاتِ الْأَلْسُونِ الْمُخْلَفَةِ . »^(٥)

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٤٢١ (رقم : ١٣٧) .

(٢) تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مؤنس ، ٦٤ (مترجمًا عن الأصل البرتغالي لجغرافية الرازي التي فقد أصلها العربي) . (٣) نفح الطيب ، ١٣٠/١ .

(٤) انظر عنه : التكملة ، ٧٨٨/٢ (رقم : ١٩٣٣) ؛ تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، ١٠٢ .

(٥) نفح الطيب ، المقربي ، ١٣٣/١ .

ويتحدث البكري عن جبال الأندلس فيقول : « ومنها جبل البرُّت ، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش . ومبتدئه من البحر القبلي المتوسط المجاور طرُوطُوشة ومتناه إلى البحر الغربي بين الأُشْبُوَّة وجِلِيقِيَّة ». ^(١)

و قريب من هذا ما قاله ابن غالب الأندلسي حين تحدث عن جبال الأندلس في كتابه تعليق مُتنقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس : « والجبل الثاني المُتَهِي إليه الحاجزُ بين الأندلس وبلد إفرنجية ، ومبتدئه من البحر القبلي ومتناه البحرُ الغربي وهو المحيط ، المسمى البرنيوه ». ^(٢)

وقال ابن سعيد الأندلسي فيما ينقله المقرري في نفح الطيب : « وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الأكْسُن الكثيرة ، وفي هذا المكان جبل البرُّت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب ». ^(٣)

وتوجد في جبال البرُّت أربعة مرات أو خمسة . وصف الإدريسي (٥٦٠) أربعة منها ، يبدأها بالترتيب من الشرق (على البحر المتوسط) إلى الغرب (على المحيط الأطلسي) ، عند خليج بسكاي ، وهذا نصه : « وفيه أربعة أبواب فيها مضائق يدخلها الفارس بعد الفارس ، وهذه الأبواب عراض لها مسافات ، وهي محفوفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذي في ناحية برشلونة ويسمى بُرت جَاقَة ، والباب الثاني الذي يليه يسمى بُرت أشبُره ، والباب الثالث منها يسمى بُرت شِيزِرُو وطوله في عرض الجبل ٣٥ ميلاً ، والباب الرابع منها يسمى بُرت بَيُونَة . ويتصل بكل بُرت منها مدن في الجهتين ، فمما يلي بُرت شِيزِرُو مدينة بنبلونة ، والباب المسمى بباب جَاقَة عليه مدينة جَاقَة . وسنذكر ما مختلف هذا الجبل وما اتصل به من بلاد الروم بعد هذا بحول الله ». ^(٤) فالمرات - كما عند الإدريسي ، وغيره - هي :

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٨٥ .

(٢) مجلة محمد الخطوطات العربية ، ٣٠٧/٢/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٢٨/١ .

(٤) نزعة المشتاق ، ٢٥٣-٢٥٢ (القسم الأوروبي) . كذلك : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ٢٧٤ ; الحلل السندي ، ١٠٩/٢ - ١١٠ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١٧٧/١ ؛ الروض المطار ، ٦١ ؛ كتاب الجغرافية ، الزهرى ، نشر في مجلة الدراسات الشرقية (*Bulletin d'études orientales*)

١ - بُرْت (مر) جَاقَة (Jaca) : من جهة بَرْشَلُونَة . يُعرف الآن بِم باربینیان (Perpignan) باتجاه بَرْشَلُونَة إلى جَيَرُونَة (Gerona) إلى أَرْبُونَة جهة المتوسط . وهو أكبر المراط وأقدمها . لكن لماذا سمّاه الإدريسي باسم مدينة جَاقَة وهي بعيدة عن هذا المكان وجعلها عند بابه ؟ فهي تصح مع الممر الثالث (الباب الثاني كما عند الإدريسي) .

٢ - بُرْت بوكيরدا (Puigcerda,Cerdagne) : يمر بمنطقة شرطانية Cerdaña (Cerdagne) . ولم يذكر الإدريسي هذا الممر ، إن كان الممر موجوداً على أيامه .

٣ - بُرْت أشبـره (Portus Asperi) ، وهو حالياً Somport . وتقع مدينة جَاقَة أمام بابه .

٤ - بُرْت شِيزْرُو أو الشِزْرِي (Portus Cisereus) ، وهو رُتْشِفَالَّه ، ويُسمى بالإسبانية Roncesvalles وبالفرنسية Roncevaux . يقع فيه الطريق الواصل من مدينتي بَنْبُلُونَة (Pamplona) ورُتْشِفَالَّه الإسبانيتين إلى المدينة الفرنسية : شَنْت جوان St. (Saint) Jean-Pied-de-Port .

٥ - بُرْت بيـونَة (Bayonne) ، مدينة فرنسية على شاطئها الجنوبي الغربي . يؤول إليه طريق طُلُوزَه (Tolosa) الإسبانية إلى بيـونَة .

الواضح أن الجيش الإسلامي في حملات جهاده تلك سلك الممر الأول ، وكذا الحملات التالية أيام الولاة الذاهبة في هذا الاتجاه نحو جنوب وشمال شرق فرنسا . أما الممر الرابع (رُتْشِفَالَّه) فكان مأولاً لحملات جهاد المسلمين - مدة الولاة - لما وراء البُرْت تُجاه وسط وجنوب وغرب فرنسا . الظاهر أن حملة عبد الرحمن الغافقي سلكته في عبورها إلى « بلات الشهداء » سنة ١١٤ هـ (= ٧٣٢ م) . ومنه سيعبر شارلمان لمحاجمة الأندلس ، فكانت إبادة مؤخرة جيشه حين العودة سنة ١٦١ هـ (= ٨٧٨ م) .

= ٢٠٣/٢١ (فقرة رقم : ٢٧١) :

Andalusian diplomatic relations with Western Europe, 144 ; Muslim colonies in France, Northern Italy and Switzerland, Reinaud, 86 (Eng. tr.).

والترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، ١١٦ (حاشية) ، ١٥٣ .

ب - مناقشة الجهاد وراء البرُّت

يذكر الحِجَارِي في المُسْهِب : « أَن مُوسَى بْنَ نُصَيْرَ - نَصْرَهُ اللَّهُ نَصْرًا مَا عَلَيْهِ مُزِيدٌ - وَأَجْفَلَتْ مُلُوكَ النَّصَارَى بَيْنَ يَدِيهِ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَى بَابِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِي فِي الْجَبَلِ الْمَاجِزِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ »^(١) . وَيُشَيرُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَلْدُونَ إِلَى أَن مُوسَى تَوَغَّلَ إِلَى « أَرْبُونَةَ فِي الْجَوْفِ »^(٢) (الشَّمَال) . بَلْ إِن قَضِيَةَ حِبَّانَ التَّابِعِي^(٣) - الْآتَى الذِّكْرُ - تَفِيدُ أَن مُوسَى قَادَ هَذَا الْجَهَادَ بِنَفْسِهِ .

لَكِن ذَلِكَ قَدْ يَعْرَضُ خُطْبَةَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّيِّيَّةِ تَقْنِصِيَّةَ التَّوْدَةِ ، لِلْقِيَامِ بِالْفَتْحِ النَّظِيفِ الْمَتَّاصِلِ وَأَنَّهُ فَتْحٌ عَقِيلَةٌ . زِيَادَةً عَلَى الْمَدَةِ بَيْنَ السِّيرِ مِنْ طُلَيْطُلَةَ نَحْوَ الشَّمَالِ وَالْعُودَةِ إِلَى الْمَشْرُقِ . هَلْ هِي كَافِيَّةٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ ، بِجَانِبِ فَتْحِ الشَّمَالِ الإِسْبَانِيِّ؟ لَا تَغِيبُ عَنْ قَادِهِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّيِّ الْأَنْدَلُسِيِّيِّ مَحَاجِرَ مِثْلُ هَذِهِ السُّرْعَةِ ، وَمَا تَخَلَّفُهَا مِنْ جِبَوبٍ وَفَلَولٍ وَتَأْخِيرٍ كَثِيرٍ عَنْ فَتْحِ الشَّمَالِ الإِسْبَانِيِّ ، لِلَّذِهَابِ فِي عَمَلِيَاتِ حَرْبِيَّةٍ خَلْفَ الْبُرُّتِ تَقْنِصِيَّةَ تَحْضِيرَاتِ جَدِيدَةٍ بَعْدَ الْاِنْتِهَاءِ مِنْ فَتْحِ شَبَهِ الْجَزِيرَةِ الْإِبِيرِيَّةِ وَإِقْرَارِ الْأَوْضَاعِ فِيهَا . وَقَدْ يَكُونُ مَا لَمْ مُوسَى طَارِقًا فِيهِ إِسْرَاعُهُ فِي الْفَتْحِ .

إِذَا أَخَذْنَا بِهَذِهِ الرِّوَايَةِ نَفْهُمُ مِنْهَا أَنَّ مُوسَى أَرْسَلَ فَرْقَةً أَوْ أَكْثَرَ - إِنْ لَمْ يَقْدُمْهَا بِنَفْسِهِ - مَا دَامَ قَدْ اقْتَرَبَ مِنْهَا عَنْدَ جَبَالِ الْبُرُّتِ - لِاستِكْشافِهَا - فِي الْقِيَامِ بِنَشَاطِ عَامِ وَجَرْدِ الْمَنْطَقَةِ . يُعِينُ فِي هَذَا الْأَنْذَرُ بِمَا قَبِيلَ عَنْ فَكْرَةِ مُوسَى بِاخْتِرَاقِ أُورَباِ كَمَا سَيَّأَتِيُ بِيَانُهُ .

قُولُ ابْنِ حَيَّانَ التَّالِي - كَمَا يَنْقُلُهُ الْمَقْرِيُّ - لَا يَعْنِي هَذَا الْفَهْمُ . فَإِنْ سَرَّا يَا قَامَتْ بِفَتْحِ بَعْضِ مَدَنِ إِسْبَانِيَا الشَّمَالِيَّةِ وَبَلْدَ الْفِرَّاتَجَةِ « وَقَدْ دَوَّخَتْ بُعُوثُ طَارِقِ وَسَرَّا يَا بَلْدِ إِفْرَنجَةِ فَمَلَكَتْ مَدِينَتِي بَرْشَلُونَةَ وَأَرْبُونَةَ وَصَخْرَةَ أَبِينِيُونَ وَحَصْنَ لُوذُونَ عَلَى

(١) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٢٧٤/١ .

(٢) الْعِبْرُ ، ٤/٢٥٥ (نَقْلُهُ الْمَقْرِيُّ : نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٢٢٢/١) .

(٣) تَارِيخُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، ١٢٢/١ ؛ نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٢٧٨/١ ، ٩/٢ .

وادي رُودَتُهُ ، بعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدآً^(١) . ثم يشير إلى أحداث وقتل جرت هناك .

لدينا خبر آخر يؤكّد إرسال سرايا إلى ما وراء البرُّت . تذكرت المصادر عن حِبَّان بن أبي جَبَّلَةَ (نحو ١٢٢ هـ) – أحد التابعين الداخلين للأندلس مع موسى – أنه اشترك في فتح قرْقَشُونَة جنوب فرنسا : «أن حِبَّان بن أبي جَبَّلَةَ غزا مع موسى ابن نُصَيْر حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حِصن من حصونها يقال له : قرْقَشُونَة ، فَتُوْفِيَّ بها والله أعلم»^(٢) . كذلك أورده المقرّي مع اختلاف : بأن حِبَّان «غزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وانتهى معه إلى حِصن من حصون العدو يقال له قرْقَشُونَة»^(٣) .

يتضح أنه مهما كان الاختلاف في طبيعة وقيادة ومدى هذا الجهاد – أيام الفتح ، في حملة موسى وطارق – فإن المسلمين قد جرَّبَت جيوشهم فيه أماكن فيما وراء البرُّت .

إذا كان اختبار بلاد غاليش أو غالَة (Gaul , Galia) من الأرض الكبيرة قد تم بهذا الشكل ، فهل أن موسى وطارقاً كانوا يتظاران حين القيام بهذا النشاط ؟ الأمر لا يبدو كذلك ، فإن موسى وطارقاً استمرا في عمليات الجهاد شمالي إسبانيا .

٩ – تتمة فتح شمال شبه الجزيرة الإيبيرية

تذكر بعض الدراسات الحديثة^(٤) أن الجيش الإسلامي – بقيادة موسى وطارق – سلك خطأً في فتح الشمال الإسباني . ربما نفهم ذلك من فتوحات قام بها كل منها

(١) نفح الطيب ، ٢٧٣/١ - ٢٧٤ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٢٣/١ (رقم : ٢٨٣) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٨/١ . كذلك : ٩/٣ . راجع عنها : تاريخ غزوات العرب ، ٢٩ .

(٤) فجر الأندلس ، ١٠٤ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٥٣/١ .

على انفراد ثم التقى^(١) . ولعل ذلك الوضع كان أساساً لهذا الفهم . لكن أين مكانه ؟ إنه غير واضح تماماً .

من الممكن أن الشَّغْر الأعلى (سرقسطة وأعمالها) جُعِلَ مركزاً للنشاط السابق . وكان إرسال السرايا إلى جهات متعددة - من كلا القائدين أو أحدهما - أسلوباً لِلفناه . ولا بد أنه اتبَعَ هنا، وسراياهُ استعمل في أماكن أخرى لما يأْتِي من عمليات الجهاد . وأيَّاً ما كانت وجهة نشاط موسى وكيفما اتبَعَ من أسلوب في الفتح فإنه - منفرداً أو مع طارق - كان غابة في الحركة النشطة والفاعلية المندفعة في تلك المنطقة خلال المدة كلها . فلا يمكن أن يمر يوم يكون فيه عُطْلَاً عن العمل وعن الجهاد لإعلاء كلمة الله .

حتى لو لم يذهب هو بنفسه لما وراء البرُّت فإنه استمر في ممارسة أعمال الفتح في مناطق الشَّغْر الأعلى وما بعده في اتجاه الشرق والشمال . يذكر ابن عذاري أن موسى افتتح سرقسطة « وافتتح ماحولها من الحصون والمعاقل . »^(٢) لعل فيما ذكر حول جلتَ له ارتباط بهذا الأمر .

اتخذ الجيش الإسلامي اتجاهين تحرّك فيه ، لفتح الشمال الإسباني . قاد أحدهما طارق وقد قاد موسى الآخر . وقد اقتضى التعرُّفُ على هذا الأمر ومعرفة طريق سيرهما بذلَّ الجهد ومتابعة النصوص والدراسات وتركيز النظرة فيها ، مع مراعاة مجرaiات الأحداث واعتبار الارتباطات الأخرى والإشارات المتقدمة . لعل الصورة التالية - رغم حاجتنا إلى نصوص أخرى نتظر ظهورها بعون الله تعالى - قريبة من الواقع وتتسم بقدر من الوضوح .

سلك طارق من سرقسطة يساراً ، مواجهًا تيار وادي إبرُه ، نحو الغرب . الشمال الغربي ، لعله محاذياً يمين النهر (صفته الجنوبيَّة) . فسار بجيشه باتجاه بلاد البَشْكُنْس (نَبَارَة ، نافار) . في حين سلك موسى يميناً ، مُتَحَدِّرًا مع إبرُه نحو الشرق والشمال الشرقي ، محاذياً يسار النهر (صفته اليسرى) .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ - ٢٧٦ .

(٢) البيان المغرب ، ١٦/٢ .

لا تذكر النصوص المتوفرة مواجهات قوية مع الجيش الإسلامي في هذه المناطق . ذلك لأن القوط كانت تقود المقاتلة ، فلما ذهب فلتهم وزالـت كثـرـهم ، لم يجد أهلـ الـبـلـادـ مـصـاحـةـ أوـ إـمـكـانـيـةـ فيـ المـقاـوـمـةـ بـعـدـ سـقـوـطـ أـكـثـرـ الـجـزـيرـةـ الإـيـرـيـةـ بـأـيـدـيـ الـسـلـمـيـنـ . بل لعل ذلك في مصلحتهم ، بعد أن تسامعوا عن خلق الفاتحين وحسن معاملتهم . وكله غرس عقيدهم الإسلامية السمحـةـ التيـ لهاـ خـرـجـواـ وـبـهـ اـنـتـصـرـواـ ، وـوـجـدـ النـاسـ منـ كـلـ جـنـسـ -ـ فـيـهاـ الـحـيـاـةـ الـآـمـنـةـ . ولـلـأـسـفـ ، فـرـيـادـةـ عـلـىـ غـيـابـ وـفـيـرـ منـ الـمـعـلـومـاتـ الـخـاصـةـ بـهـذـهـ الـأـحـدـاثـ ، نـجـهـلـ الـكـثـيرـ منـ نـشـاطـ الدـعـوـةـ لـلـفـاتـحـينـ الـيـ جـعـلـتـ النـاسـ يـدـخـلـونـ فـيـ هـذـاـ الـدـيـنـ الـخـيـفـ^(١) . كـمـاـ أـنـ وـثـائـقـ الـمـصـالـحـاتـ وـالـعـهـودـ لـمـ تـصـلـنـ رـغـمـ حـدوـثـهـاـ -ـ رـبـماـ مـتـعـدـدـةـ -ـ كـمـاـ يـسـتـبـيـنـ مـنـ الـنـصـوصـ . وـهـوـ أـمـرـ يـفـضـلـهـ الـفـاتـحـونـ وـيـسـارـعـونـ إـلـيـهـ .

يُذـكـرـ أـنـ حـاكـمـاـ هـنـاكـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـبـشـكـنـسـ هوـ قـسـيـ دـخـلـ فـيـ عـهـدـ الـسـلـمـيـنـ وـاعـتـقـدـ الـإـسـلـامـ وـذـهـبـ إـلـىـ الشـامـ لـمـقـابـلـةـ الـخـلـيفـةـ^(٢) . وـغـيرـ وـاضـعـ الـمـنـطـقـةـ الـيـ كـانـ يـحـكـمـهـاـ قـسـيـ هـذـاـ ، الـذـيـ كـانـ مـنـ أـسـرـتـهـ -ـ فـيـماـ بـعـدـ -ـ حـكـامـ لـبعـضـ مـدنـ الـغـرـأـلـىـ . وـلـمـ كـانـ لـغـةـ الـبـشـكـنـسـ غـيرـ الـلـاتـيـنـيـةـ الـمـعـهـودـةـ فـيـ إـسـبـانـيـاـ وـصـفـ صـاحـبـ الـرـوـضـ الـمـعـطـارـ أـهـلـ بـنـبـلـوـنـةـ (Pamplona)ـ الـعـاصـمـةـ بـأـنـ «ـأـكـثـرـ هـمـ مـتـكـلـمـونـ بـالـبـشـقـيـةـ لـاـ يـفـهـمـونـ»^(٣) ، فـلـاـ بـدـ أـنـ يـكـوـنـ مـعـ الـسـلـمـيـنـ مـنـ يـعـرـفـ هـذـهـ الـلـغـةـ ، وـذـلـكـ أـمـرـ بـدـيـهـيـ . وـقـرـيبـ مـنـ هـذـاـ قـولـ صـاحـبـ الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ وـهـوـ يـتـحـدـثـ عـنـ مـوـسـىـ :ـ «ـ وـفـتـحـ بـلـادـ الـبـشـكـنـسـ وـأـوـغـلـ فـيـ بـلـادـهـمـ حـتـىـ أـتـيـ قـوـمـاـ كـالـبـهـائـمـ»^(٤) . وـوـاضـعـ مـنـ هـذـاـ أـنـ مـوـسـىـ هـوـ الـذـيـ اـفـتـحـ بـلـادـ الـبـشـكـنـسـ . فـرـبـماـ يـكـوـنـ قـدـ التـقـىـ بـطـارـقـ وـتـعـاوـنـ مـعـهـ فـيـ فـتـحـهـاـ ، أـوـ

(١) انظر عن هذا الموضوع مثلاً : البيان المغرب ، ٤١/١ ؛ اختصار الأخبار ، ١٥ ؛ فتح الطيب ، ٢٧٨/١ ؛ معلم الإيمان في معرفة أهل القیروان ، الدباغ ، ٢٧/١ - ٣٤ ، ١٨٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٤١/١ ، دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٥/١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ٥٠٢ ؛ فجر الأندلس ، ١٠٤ ؛ تاريخ المسلمين ، ١٠٢ ؛ *Andalusian diplomatic relations*، 102.

(٣) الروض المطار ، ٥٦ .

(٤) البيان المغرب ، ١٦/٢ .

لعله يعني أن ذلك تم بالبعث والسرايا التي قاد طارق بعضها ، إذا كنا متأكدين من خط سير كل منها .

فهل كان قسي حاكم بنبلونة أو أحد الزعماء فيها ، وهل أن عهد بنبلونة الذي جاء ذكره - دون نصه الأصلي - تم في هذا الوقت معه ؟ جاء ذكر هذا العهد مررتين في كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (قرطبة ٣٥٠ - ٤٠٣ هـ) حين ترجم علي بن رباح (١٥ - إفريقية ١١٤ هـ أو بعدها)^(١) وحنش الصناعي (١٠٠ هـ)^(٢) من التابعين الداخلين للأندلس ، بأن أحد الوزراء « وجَد شهادة علي بن رباح وحنش بن عبد الله في عهد بنبلونة »^(٣) .

آ - فتح جليقية

ثم سار طارق بن زياد نحو الغرب ، لعله بمحاذة سلسلة جبال قنطبرية (كتنبرية = Cantabria, Cantabrian Mts = La Cordillera Cantabrica) ، من جنوبها . تعرف هذه السلسلة الجبلية عند بعض الجغرافيين المسلمين - منهم الإدريسي - باسم « شيبَة »^(٤) (Mons Aseuva) . تقدم يفتح المدن حتى دخل جليقية ، فافتتح مدن : أمَايَة^(٥) (Astorga) وأسْتُرْقَة (Amaya) وليون . لم أجد ذلك كله في المصادر الأولى ، لكن في بعض الدراسات الحديثة ، دون بيان السند^(٦) .

أما موسى - بعد أن افتتح مناطق في الشرق والشمال الشرقي وجاهد وراء البرّ ، بالسرايا أرسلها ، أو بنفسه - فقد سلك طريقه ، يسار وادي إبره^(٧) (ضيقته

(١) معلم الإياعان في معرفة أهل القيروان ، الدباغ ، ٢٠١/١ .

(٢) معلم الإياعان ، ١٨٨/١ . يقول : « كانت وفاته بإفريقية سنة مئة » .

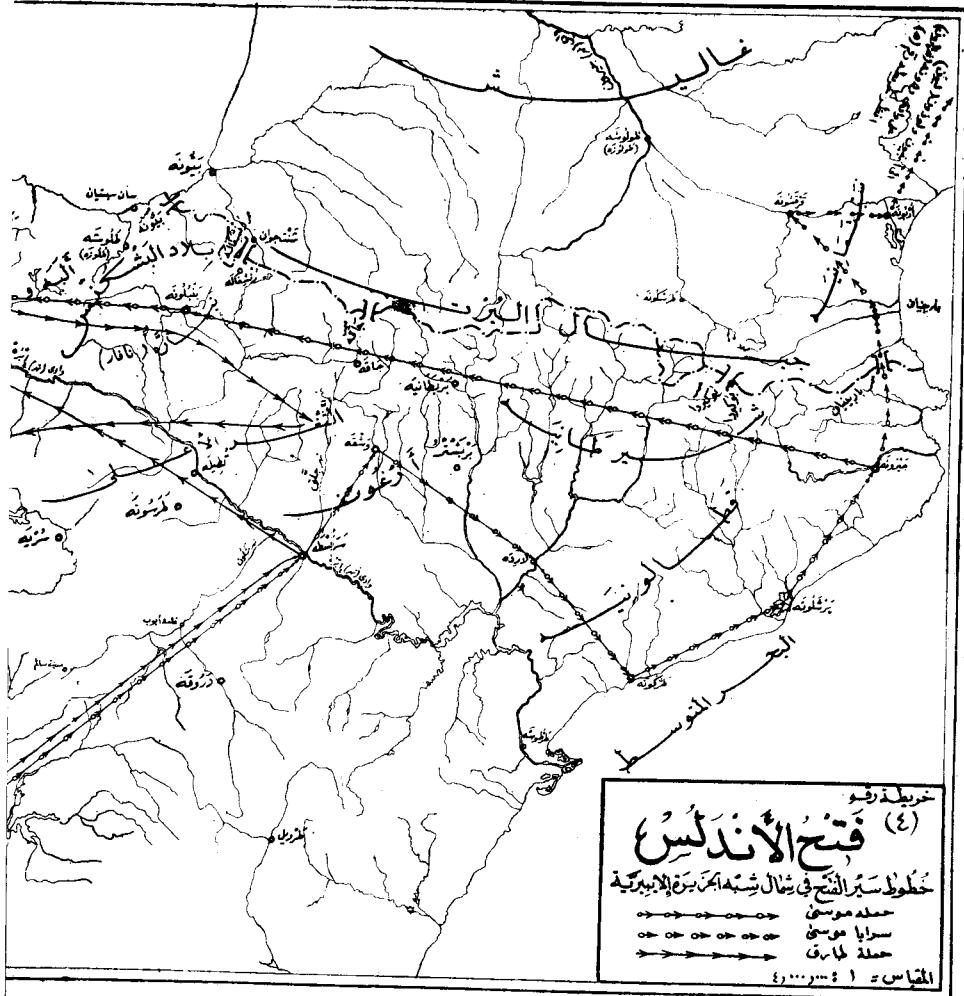
(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ (رقم : ٣٩١ ، ترجمة حنش) ، ٣١٠/١ (رقم : ٩١٥ ، ترجمة علي بن رباح) .

(٤) انظر : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ٢٦٦ ، ٣٧٤ . قارن : الروض ، ١٤٩ .

(٥) أخبار مجموعة ، ١٥ .

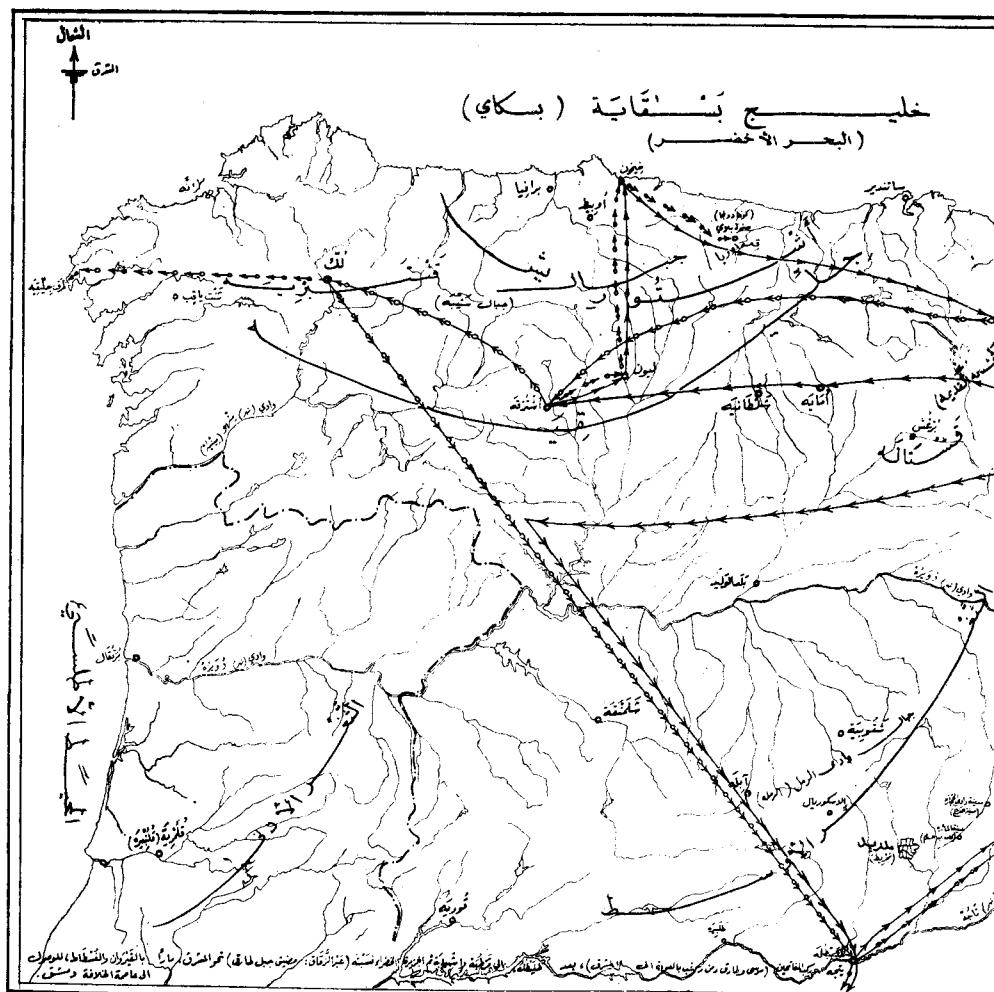
(٦) نفح الطيب ، ٢٦٥/١ ، ٢٧١ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٥ . وَصَعَ ابن القوطيَّةُ تارِيخًا آخر لفتحها ، وهو وهم .

(٧) فجر الأندلس ، ١٠٤ .



خرائط رسمية
فتح الأندلس
خطوات سير المعركة في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية

حملة موسى
حملة موسى
حملة مارق
المقياس = 1 : 1000000



الشمالية) ، نحو الشمال والغرب ، في خط يكاد يتواءزى مع سير طارق ، مطهراً المنطقة من الجحوب ومفتوحاً ما هنالك من مدن في مناطق عرفت عند الكتاب الأندلسين باسم **آلَبَة** (Alava) والقلاع (Castella , Castile , Castella Vetula) . والقلاع هي **قَشْتَالَة** القديمة (Castilla la Vieja) مقابل **قَشْتَالَة** الجديدة (Castilla la Nueva) فيما بعد التي شملت **طُلَيْطُلَة** وماحولها^(١) . وسماها البكري « **قَشْتِيلَة** » ثم قال : « **وَقَشْتِيلَة** القصوى **وَقَشْتِيلَة** الدنيا »^(٢) .

ربما وافي موسى مدينة **أشْتُرْقَة** . وهذا يعني أن لقاءه بطارق كان فيها حسب ترتيب سابق . ثم سارا سوية لإتمام عمليات الفتح . هذا وترد في **نَفْع الطَّيْب** أخبار عن موسى تذكر لقاءه الأول بطارق عند **طَلَبِيرَة** تُعِين على هذا الفهم : « **وَقِيل** : إِن مُوسَى تَقْدَمَ مِن مَارِدَة فَدَخَلَ جِلِيقِيَّةً مِن فَجَ نُسْبِ إِلَيْهِ ، فَخَرَقَهَا حَتَّى وَافَى طَارِقَ بْنَ زِيَادَ صَاحِبَ مَقْدِمَتِه بِمَدِينَةِ أَشْتُرْقَةِ »^(٣) . ولا نعلم المدة التي استغرقتها هذه الأعمال ، منذ افتتاح **سَرَقُسْطَة** ومتى كان وصولهم **أشْتُرْقَة** . وهذا يعني أن بقية الفتح في الشمال الإسباني ، في **أَشْتُورِيش** (Asturias) وجِلِيقِيَّة (Galicia) ، قاما به سوية . وهو مناسب ، لأننا لا نعرف – بعد هذا – عن نشاط طارق شيئاً ، فيكون معقولاً أنهما سارا سوية بقيادة موسى العامة . ولعلهما وضعا خطة للدخول **أشْتُورِيش** وجِلِيقِيَّة . وفعلاً سارت أعمال الفتح في هذه المناطق . لكن رواية الفتح تذكر وصول رسول الخليفة الوليد في هذا الوقت ، يستدعي موسى بالقفول إلى المشرق وترك عمليات الفتح^(٤) . وهو موضوع يؤجل الحديث فيه حتى إتمام عمليات الفتح هذه .

يبدو من المناسب أن يكون **عَمِيل** كل من موسى وطارق في جهة أو أنهما **عَمِيلا**

(١) انظر : دولة الإسلام ، ٢١٦/١ ؛ الحلقة السيراء ، ١٣٥/١ ؛ الحلقة السندينية ، ٣١٧/١ - ٣٢١ ، ٣٢١ - ٣٥٩.

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٧٢ . عن القشتالتين انظر كذلك : الحلقة السندينية ، ٣١٧/١ - ٣٢٠ .

(٣) نفع الطيب ، ٢٧١/١ . كذلك : تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٥ . قارن : فجر الأندلس ، ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) أورده المقربي (نفع ، ٢٧٥/١ - ٢٧٦) دون أن يشير إلى من أخذ عنه .

سوية ، وهم يرسلان السرايا إلى الجهات المختلفة كما سيرد . النصوص في ذلك ضئيلة لا تلقي إلا ضياءً باهتاً . ولدينا بعض الأعمال الحربية والفتوحات التي تذكر مع اسم موسى ، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون طارق معه ولم يُؤتى القيادة العمة . لكن عبرة في نفح الطيب تذكر أن لقاء طارق بموسى كان بعد خروج موسى من جيليقية لترك الأندلس ، استجابة لاستدعاء الخليفة « فانقلع حيثـنـ من مدـيـنـةـ لـكـ جـيلـيقـيـةـ ، وخرج على الفتح المعروف بفتح موسى ، ووافاه طارق في الطريق مُنصـرـاًـ منـ الشـغـرـ الأـعـلـىـ ، فأـقـفـلـهـ معـ نـفـسـهـ وـمـضـيـاـ جـمـيـعـاـ وـمـعـهـمـاـ مـنـ اـخـتـارـ الـقـفـوـلـ »^(١) .

يذكر المقرري في نص لا يُعرف كاتبه أنه في هذا الوقت لم يبق أمام الفاتحين غير جيليقية^(٢) . ولعله استعمل جيليقية بمفهوم أوسع مما تدل عليه المقابلة الإسبانية (Galicia) . فهي عنده ، كما عند كثير من الكتاب المسلمين ، شاملة لمنطقة أشتوتريش أيضاً^(٣) . ذلك واضح من بعض الأماكن التي أشار إلى فتحها فيها ، كصخرة بِلاي (Peña de Pelayo) في كوفادونجا (Covadonga) . بل جعل المقرري وغيره - بكل وضوح - أشتوتريش ضمن جيليقية^(٤) ، حيث ذكر أنه لم يبق في جيليقية غير الصخرة^(٥) ، التي هي في أشتوتريش . وجعل بعض الكتاب الأندلسيين - كأبي عبيد البكري - جيليقية شاملة لأكثر مناطق إسبانيا الشمالية بضمها أشتوتريش^(٦) ، تقع فيها الصخرة . ولو أن ذلك ليس دواماً ، لكن انضواء أشتوتريش في مفهوم مصطلح جيليقية ، عند كتاب الأندلس ، ليس غريباً .

يبدو من نص ، مجھول القائل ، أورده المقرري - في هذا الفهم من مدلول جيليقية - أنه حوالي هذه المرحلة وصل رسول الخليفة مغيث الرومي يستدعي موسى إلى دمشق ، قبل وصوله إلى أشترقة أو بعده . وكان موسى يعتزم ، بهمة غامرة

(١) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ .

(٣) Adalusian diplomatic relations with Western Europe , 40.

(٤) نفح الطيب ، ٤/٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/١٧ . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢٨ ؛ البيان المغرب ٢٩/٢ .

(٦) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٧١ - ٧٣ .

وَتَطَلُّ فَعَالٌ ، دخول جَلِيقِيَّةِ « فَبِينَمَا هُوَ يَعْمَلُ فِي ذَلِكَ وَيُعْدُ لَهُ إِذَا نَاهَ مُغْبِثٌ الرَّوْمِيُّ رَسُولُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَوْلَاهُ يَأْمُرُهُ بِالْخَرُوجِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ وَالإِضْرَابِ عَنِ الْوَغْوَلِ فِيهَا ، وَيَأْخُذُهُ بِالْقَفْوِ إِلَيْهِ ، فَسَاءَهُ ذَلِكُّ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنِ إِرَادَتِهِ »^(١) .

افتتح الجيش الإسلامي بقيادة موسى مناطق ، بعضها حصينة . منها مدينة أو حصن – وربما تكون مدينة فيها حصن – بارو (Villabaruz) في منطقة مدينة بلد الوليد (Valladolid)^(٢) . فإذا وقعننا بارو في هذا المكان فقد يعني أن موسى افتحتها قبل وصوله أشترقة ومناطقها ، متوجهًا إلى جليقية (الغربية) حيث افتتح فيها أماكن ، منها حصن لُكَّ . واتخذه موسى مركزاً للقيام بأعمال الفتح وبئث سراياه في مختلف المناطق « فلاظف موسى مغيثاً رسولَ الْخَلِيفَةِ ، وَسَأَلَهُ إِنْظَارَهُ إِلَى أَنْ يُنْفَدِّ عَزْمَهُ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا وَالْمَسِيرِ مَعَهُ فِي الْبَلَادِ أَيَّامًا وَيَكُونُ شَرِيكَهُ فِي الْأَجْرِ وَالْغَنِيمَةِ ، فَفَعَلَ ، وَمَشَى مَعَهُ حَتَّى بَلَغَ الْمَفَازَةَ ، فَافْتَحَ حصنَ بارو وَحصنَ لُكَّ ، فَأَقَامَ هُنَاكَ ، وَبَثَّ السَّرَايَا حَتَّى بَلَغُوا صَخْرَةَ بِلَيِّ عَلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ »^(٣) .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ . (٢) انظر : فجر الأندلس ، ١٠٥ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

هذا ، وقبل المغيء في مناقشة هذا الموضوع – مستعينين بالنص السابق – يشار إلى ملاحظتين حوله :

١ - المفازة : ما المقصود بالمفازة (في الأندلس) ؟ هل هي اسم علم لمكان معين ، أم مصطلح جغرافي أطلق على مكان أو أكثر ، له نفس المصائر التي تشبه القفر ، فعرفت به كما هو الحال في « الفحص » مثلاً ؟ لعل المقصود هنا المنطقة التي تقع بين قشتالة (Castilla) وجليقية الغربية (Galicia) شمال بلد الوليد وجنوب أشتوريش (Asturias) .

لعل لقول أحمد الراري علاقة بهذا حين تحدث عن أندلسيين ، فببدأ الحُوزُ الْغَرْبِيُّ « من ناحيةِ الشَّرْقِ مع المفازةِ الْخَارِجَةِ مَعَ الْجَوْفِ إِلَى بَلْدِ شَتَّمِرِيَّةِ طَالِعًا إِلَى حُوزِ إِغْرِيَّةِ الْمَجاوِرَةِ لِطَلْبِلَةِ مَائِلًا إِلَى الْغَربِ وَمَجاوِرًا لِلْبَحْرِ الْمُوْسَطِ الْمَوَازِيِّ لِقَرْطَاجَةِ الْمُخَلَّفَةِ الَّتِي مِنْ بَلْدِ لَوْرَقَةِ » . نفح الطيب ، ١٣١/١ . انظر :

صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ١٧٥ ، تاریخ الجغرافیة والجغرافین في الأندلس ، ٢٦٠ . قارن :

تاریخ الجغرافیة ، ١٠٤ . شترمیریة هنا هي : شترمیریة الشَّرْقِ ، وَهِيَ شترمیریة (أو سهله) يبني رزین (Santa María de Albarracín) .

الحلة السيراء ، ١٠٩/٢ ؛ البيان المغرب ، ٣٠٧/٣ . كذلك : رحلة الأندلس ، ٣٣٢ .

٢ - الأجر والغنيمة : أما المشاركة في الأجر والثواب عند الله تعالى فعلوم ، لأن مغيثاً يعين موسى ويمهله لإتمام الفتح ، جهاداً لإعلاء كلمة الله ، فهو فيه معاون . بل إن ابن الشباط ينقل نصاً يؤكده =

غير واضح إذا كان « حِصْن لُكَ » هذا هو نفسه « مدينة لُكَ » ، التي يذكرها المقرئي مرتين في نفس الصفحة^(١) ، ويجعلها مرة « حِصْن لُكَ » والثانية « مدينة لُكَ » وهل هما شيء واحد؟ وترد عند المقرئي في مكان آخر من نفعه على أنها « مدينة »^(٢) .

يدرك البعض^(٣) - من غير مصدر - أن « حِصْن لُكَ » (Luco) حِصْن قرب مدينة أُوبِيِط (Oviedo) في أشتوُرِيش ، أما « مدينة لُكَ » (Lugo) أو Maria de Lugo (في جِلِيقِيَّة (الغربية) . وذكر أن « لُكَ » الجِلِيقِيَّة (Lugo) اسم « مدينة لُكَ » ، قاعدة ولايتها وسميتُها المعروفة قديماً باسم (Locus Augusti)^(٤) . وهذا يعني أن « لُكَ » اسمًا لولاية في جِلِيقِيَّة ولقاعدتها ولحصن فيها ، بجوارها أو بعيداً عنها .

لكن مناسبة ذِكر المقرئي لمدينة لُكَ ليس خلال إيراد افتتاحها ، بل يوردها على أنه سبق فتحها . وذلك حين الحديث عن وصول رسول الخليفة الثاني (أبي نصر) يعجل عودة موسى ، فتوجه عائداً من مدينة لُكَ : « فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخُذل الشرك ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قَدِمَ عليه رسول آخر من الخليفة يكتفي أبا نصر أردف به الوليد مُغيثًا لما استبطأ موسى في القفول ، وكتب إليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إز عاجه ، فانقلع حيثُد من مدينة لُكَ بِجِلِيقِيَّة ، وخرج على الفج المعروف بفتح موسى »^(٥) .

= جهاد مغيث في جليقية ، حين قدم إلى موسى رسولاً من الخليفة يستدعيه إلى الشام : « وغزا مغيث مع موسى بالجيش إلى جليقية . » انظر : تاريخ الأندلس ، ١٥١ .

أما الثانية فغير واضح تماماً كيف ذلك . لأن الفتائم ليست ملكاً لموسى ، يتصرف بها . بل هي للفاتحين والدولة ، إلا إذا كان المقصود أن يجعل سهم مغيث فيها كأحد الفاتحين ، حتى لو لم يشترك في عمليات الفتح ، أي مجرد الانتظار والامهال . وهذا لا يعني أن استجابة مغيث لهذا الرجاء بسبب الفتائم ، بل الأمر الطبيعي أن مصالحة الفاتحين وموقفه في المشاركة والتعاون يتيح له هذا . مع أن نص ابن الشباط - السابق تواً - يؤكِد اشتراكه مغيث الفعلي في الجهاد .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ . (٢) نفح الطيب ، ٢٣٠/١ .

(٣) Historia de la Espana Musulmana , Gonzalez Palencia , 11 .

كذلك : تاريخ المسلمين ، ١٠٤ .

(٤) انظر : تاريخ الأندلس ، ١٥١ (حاشية) . (٥) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

أليس من الممكن أن تكون لُكَّ هي مدينة ويتبعها حِصن يقع في أحد أطرافها أو قريباً منها أو تابعاً لها ؟

تقع مدينة لُكَّ على نهر مينيو (Miño) أو منهـو (Minho) والظاهر أن الحـمـيرـيـ قصـدـهـاـ فيـ الرـوـضـ المـعـطـارـ بـقولـهـ :ـ إـنـ اـقـشـ «ـ كـانـتـ قـاعـدةـ الـجـلـيـقـيـيـنـ ،ـ ...ـ وـهـيـ مـسـبـبـيـةـ بـالـصـخـرـ الـمـرـبـعـ الـكـبـيرـ ،ـ وـهـيـ عـلـىـ نـهـرـ كـبـيرـ يـدـخـلـ مـنـهـ الـمـجـوسـ بـمـراـكـبـهـ إـلـيـهـ »^(١).ـ لـكـنـهـ جـعـلـهـ لـكـهـ (Lugo) خـلـالـ حـدـيـثـهـ عـنـ «ـ حـيـنـ الـمـنـارـ »ـ ،ـ مـوـقـعـهـ «ـ قـرـيبـ مـنـ مـدـيـنـةـ لـكـهـ ،ـ وـهـوـ مـنـتـهـيـ الـرـكـنـ الـثـالـثـ مـنـ أـرـكـانـ الـأـنـدـلـسـ ،ـ الـيـ هـيـ حـدـودـهـ ،ـ وـهـوـ عـلـىـ ضـيـفـةـ الـبـحـرـ الـمـحيـطـ مـنـ الـغـربـ وـالـجـوـفـ ،ـ وـتـنـصـلـ بـهـ الـكـنـيـسـةـ الـمـعـظـمـةـ الـمـسـمـأـةـ عـنـهـمـ بـشـنـتـ يـاقـوبـ .ـ »^(٢)ـ فـهـلـ انـ «ـ حـيـنـ الـمـنـارـ »ـ هـوـ :ـ «ـ حـيـنـ لـكـهـ »ـ ؟ـ

مهما يكن من أمر فإن الجيش الإسلامي - بقيادة موسى - افتح مناطق كثيرة من جـلـيـقـيـةـ (ـ بـصـمـنـهـ أـشـتـورـيـشـ)ـ .ـ تـقـدـمـ مـوـسـىـ وـطـارـقـ -ـ وـبـالـسـرـايـاـ -ـ حـتـىـ وـصـلـواـ إـلـىـ مـرـتـفـعـاتـ أـشـتـورـيـشـ فـيـ قـيمـ جـبـالـ قـنـتـبـرـيـةـ .ـ فـبـلـغـواـ قـمـةـ وـعـرـةـ ،ـ عـسـيـرةـ الـمـنـالـ ،ـ صـعـبـةـ الـمـرـتـقـىـ ،ـ سـمـاـهـ الـمـؤـرـخـونـ الـمـسـلـمـونـ «ـ الصـخـرـةـ »ـ أـوـ «ـ صـخـرـةـ بـلـايـ »ـ ،ـ قـرـبـ السـاحـلـ الشـمـالـيـ إـلـيـسـپـانـيـاـ عـلـىـ الـبـحـرـ الشـمـالـيـ عـنـدـ خـلـيجـ بـسـقـايـةـ (ـ بـسـكـايـ = Mar Cantadrico, Bay of Biscay)ـ ،ـ «ـ وـبـثـ السـرـايـاـ حـتـىـ بـلـغـواـ صـخـرـةـ بـلـايـ عـلـىـ الـبـحـرـ الـأـخـضـرـ »^(٣)ـ .ـ

تـذـكـرـ بـعـضـ الـدـرـاسـاتـ الـحـدـيـثـةـ -ـ مـنـ غـيـرـ مـصـدـرـ -ـ أـنـ مـوـسـىـ وـصـلـ مـدـيـنـةـ خـيـخـونـ (Gijon)ـ عـلـىـ الـخـلـيـجـ وـاتـخـذـهـ مـرـكـزاـ لـعـمـلـيـاتـ الـفـتـحـ^(٤)ـ .ـ وـلـعـلـ الـعـبـارـةـ

(١) الروض المطار ، ٢٨ . كذلك : ٦٧ .

(٢) الروض المطار ، ١٨٥ . وردت «ـ لـكـهـ »ـ أـيـضاـ عـنـهـ (ـ الـرـوـضـ ،ـ ١٦٩ـ)ـ اـسـاـ مـدـيـنـةـ وـنـهـرـ جـنـوـبـيـ الـأـنـدـلـسـ عـنـدـ مـيـدـاـنـ مـعـرـكـةـ وـادـيـ بـرـبـاطـ -ـ لـدـيـ أـوـلـ فـتـحـ الـأـنـدـلـسـ -ـ بـيـنـ الـجـيـشـ الـإـسـلـامـيـ وـالـجـيـشـ الـقـوـطـيـ بـقـيـادـةـ مـلـكـهـمـ لـذـرـيقـ .ـ رـاجـعـ :ـ أـعـلـاهـ ،ـ ٥٦ـ -ـ ٥٧ـ .ـ

(٣) نـفـحـ الطـيـبـ ،ـ ٢٧٦/١ـ .ـ

(٤) فـجـرـ الـأـنـدـلـسـ ،ـ ١٠٥ـ .ـ

السابقة أفادت ذلك . وأيّاً ما كان الأمر فقد وصل الفاتحون المسلمين بجهادهم إلى هذه الأماكن في جلّيقيَّة (وأنثُوريش) .

ونص المقرِّي السابق يدل على أن موسى لم يصل بنفسه إلى الصخرة أو خيخون بل وصلتها سرايَاه . فهل يكون التحق بها بعد ذلك ؟ وهل أن اتخاذ هذا المكان مقراً كان قبل عمليات الفتح في جلّيقيَّة (الغربية) أم بعدها ؟ إذا اعتبرنا « لُكَ » اسمَ لحسن ومدينة لا علاقة بينهما ، فربما تكون سرايَا موسى هي التي وصلت إلى هذه الأماكن ، وربما بقيادة طارق .

شارف الجيش الإسلامي سواحل الخليج ، ينظرون إليه وتَمَلاَه نفوسُهم المُتَطَلَّعة وقلوبُهم المُسْتَقْتَحَة ، تَسَأَّلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مزیداً من النصر لدعوته ، وترى فيه وفيما أمامها قُدْرَةَ اللَّهِ وحِكْمَتَه .

يُعِينُ على هذا نصٌّ صاحب نَفْحَ الطَّيْبِ : « وَبِثَ السَّرَايَا حَتَّى بَلَغُوا صَخْرَةَ بِلَيِّ عَلَى الْبَحْرِ الْأَنْخَضِ » . وهذا يناسب رغبة طارق التي عَبَرَ عنها موسى حين التقى في المرة الأولى بقوله : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَاللَّهِ لَا أُرْجِعُ عَنْ قَصْدِي هَذَا مَا لَمْ أَنْتَ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَأَخْرُوْسُ فِيهِ بَفْرَسِي »^(١) . وهو كلام يُذَكَّرُنا ب موقف مماثل على الجانب الآخر من المحيط لأحد قادة فتح المغرب الإسلامي هو عُقبَةُ بْنُ نَافع الذي استُشْهِدَ في سنة ٦٣ هـ . فحين بلغ المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط عند إِيْغْرِيْطُوق^(٢) (آسَفي) وخاضه بفرسه حتى بلغ نَحْرَه فقال : « يَارَبِّ لَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ لَمْضِيَتُ فِي الْبَلَادِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ »^(٣) . وورد عند آخرين بالشكل التالي :

« اللَّهُمَّ اشْهِدْ ، أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ الْمَجْهُودَ ، وَلَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ لَمْضِيَتِ فِي الْبَلَادِ أَقْاتَلَ مَنْ كَفَرَ بِكَ حَتَّى لَا يُعْبُدَ أَحَدًا مِنْ دُونِكَ »^(٤) .

(١) وفيات الأعيان ، ٥/٣٢٨ . نقله المقرِّي : نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١/٢٤٢ .

(٢) كتاب الاستصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف ، ١٦٣ .

(٣) الكامل في التاريخ ، ٤/٥٦٠ . كذلك : البيان المغرب ، ١/٢٧ ؛ دولة الإسلام ، ١/٢٠ ؛ قادة فتح المغرب العربي ، ١/١١٠ .

(٤) رياض النفوس ، ١/٢٥ ؛ معلم الإيمان ، ١/٥١ .

يمكن - على هذا - اعتبار « لُكّ » (الحصن والمدينة) شيئاً واحداً ، موقعه « مدينة لُكّ » الحالية في جِلْيقيَّة (الغربيَّة) . والا يعني أن موسى - بعد أن فتح هذه الجهات - سار صوب الغرب (من جِلْيقيَّة) حتى وصل « مدينة لُكّ » واتخذها مركزاً لجهاده . وقام بنشاط ، مفتتحاً عدداً من المدن ، بالسرايا التي يرسلها ، حتى وفاه رسول الخليفة الثاني فيها فاستعاده .

أما « الصخرة » - أو « صخرة بِلَايِّ » فيما بعد - فتقع في قِيم أوروبا (Picos de Europa) في سلسلة جبال قَنْتَبِرِيَّة . وفي أعلى هذه الصخرة توجد مغارة أو كهف « كوفا دونجا » (Covadonga , Cova de Onga) .

جالت الفتوحات في هذه المنطقة كما جالت في جِلْيقيَّة (الغربيَّة) . لكن ليس لدينا تفصيلات عن موقع وأحداث هناك . وغير بعيد أن المسلمين جالوا في كل تلك المناطق ، ففتحوا معظم إسبانيا الشماليَّة وتُرُكَت فيها حاميات . لكن لا يبدو أنها صفت لهم وطُهُّرت من الجحوب ، كان منها تجمع الصخرة في كوفادونجا ، التي حالت وعورتها وقلةُ مَن فيها - فيما بدا للقاحين - دون متابعتها وحملت على تركها . والظاهر أنه لم يتم مسح الشمال الإسباني ب تماماً ، وإن كان الفتح شمل تلك المنطقة كلها عموماً . يقول ابن خلدون : « وتم موسى الفتح ، وتوغل في الأندلس إلى بَرْشَلُونَة في جهة الشرق وأرْبُونَة في الجَهَوْف و [الضم المشبه به] صنم قَادِس في الغرب »^(١) .

أورد بعض المؤرخين أنه لم يبقَ - دون فتح - من أرض جِلْيقيَّة غير « الصخرة »^(٢) ، من التي واجهوها وعصت عليهم . وربما هنالك مالم يواجهوه من الجحوب ، لا يتعلّق - على ما يبدو - بأيام الفتح الأولى بل أيام الولادة ، كما سيتبين . فقد كُرس جزء من جهاد المسلمين في عصر الولادة لاستكمال فتح مناطق في شبه الجزيرة الإيبيرية .

ثم كان استدعاء الخليفة موسى وطارق إلى دمشق . فلم يكن بدُّ من العودة وتوقفت عمليات الفتح . لكن لماذا لم يعهد موسى بإتمام الفتح في الشمال الإسباني إلى

(١) العبر ، ٤ / ٢٥٤ - ٢٥٥ . نقله المقرري : نفح الطيب ، ٢٢٣ / ١ . أصلحت العبارة .

انظر : نفح الطيب ، ١٣٢ / ١ ؛ جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٦٧ - ٦٨ .

(٢) نفح الطيب ، ١٧ / ٣ ، ٣٥١ / ٤ ، ٢٨ ، ٦١ ؛ البيان المغرب ، ٢٩ / ٢ .

غيره أو إلى والي الأندلس من بعده؟ لعل عدم القيام به بشكل رسمي تكليف يشير إلى أنه بقي القليل في الشمال الإسباني دون فتح . لكنه ترك ابنه عبد العزيز والياً ، يقوم بما تقتضيه أحوال البلاد من الدعوة إلى الإسلام ، وإتمام عمليات الفتح ، وتنظيم البلاد وإصلاح الأحوال ، وإجراء التغيير الذي يقتضيه دخول إسبانيا في حوزة الإسلام ، وهو إنجاز ليس سهلاً بحال . ولعل أحد الأمور التي أثار لها اهتمام ابنه هو متابعة الفتح وإقرار الأحوال في شبه الجزيرة الإيبيرية ، لاسيما وأن عبد العزيز – على ما يبدو – لم يكن في صحبة أبيه خلال جهاده في الشمال .

ثالثاً – استدعاء موسى وطارق

لماذا استدعي الخليفةُ موسى وطارقاً إلى دمشق؟

ذكرت الروايات والدارسون أسباباً ، ليس لكثير منها قيمة علمية . لكن السبب القوي – فيما يبدو – هو تخوف الخليفة الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض بعيدة منقطعة ، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها ، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده . وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس ، خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك ، حتى بين له موسى ألا داعي للخوف^(١) .

ذكر بعض المؤرخين أن موسى كان يُفكِّر بفتح ما وراء جبال البرت – من الأقطار الأوربية – فتحاً مستقراً . ولعل ذلك ما دفعه إلى مواصلة الجهاد حتى وصل إلى أربُونة جنوب فرنسا ، كما مرّ التنويم به^(٢) . بل قيل إنه كان ينوي فتح القسطنطينية والوصول إلى دمشق عن هذا الطريق ، والاستمرار في فتح الأرض الكبيرة حتى الشام : دولة الفرنجة (فرنسا) ، وشمال إيطاليا حيث بلاد المبارد، وبقية إيطاليا (وروما) ، ثم جنوب بلاد السلاف وسهول الدانوب (يوغسلافيا وبغاريا) ،

(١) أعلاه ، ٤٥ . قارن : دولة الإسلام في الأندلس ، ٥٤/١ .

(٢) أعلاه ، ٩٣-٩٤ ، ٩٥ .

فالدولـة البيزنطـية حيث يـسقط القـسـطـنـطـينـيـة ، ثـم آسـيا الصـغـرـى (تـركـيا) ، حـتـى يصلـ دـمـشـق . وـفـي هـذـا يـقـول ابنـ خـلـدـون – عـن مـوـسى – بـعـارـة مـخـتـصـرـة : « وأـجـمـعـ أـنـ يـأـتـيـ الـمـشـرـقـ مـنـ نـاحـيـةـ الـقـسـطـنـطـينـيـةـ ، وـيـتـجاـزـ إـلـىـ الشـامـ دـرـوبـ الـأـنـدـلـسـ وـدـرـوبـهـ وـيـخـوضـ إـلـيـهـ مـاـ بـيـنـهـماـ مـنـ بـلـادـ أـعـاجـمـ أـمـمـ النـصـرـانـيـةـ ، مـجـاهـدـاـ فـيـهـمـ وـمـسـلـحـاـ لـهـ إـلـىـ أـنـ يـلـحـقـ بـدارـ الـخـلـافـةـ مـنـ دـمـشـقـ . وـنـمـيـ الـحـبـرـ إـلـىـ الـخـلـيقـةـ الـوـلـيدـ فـاشـتـدـ قـلـقـهـ بـمـكـانـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ دـارـ الـحـربـ ، وـرـأـيـ أـنـ مـاـ هـمـ بـهـ مـوـسىـ تـغـيـرـ بـالـمـسـلـمـيـنـ ، فـبـعـثـ إـلـيـهـ بـالـتـوـبـيـخـ وـالـاـنـصـرـافـ ، وـأـسـرـاـ إـلـىـ سـفـيرـهـ أـنـ يـرـجـعـ بـالـمـسـلـمـيـنـ إـنـ لـمـ يـرـجـعـ هـوـ ، وـكـتـبـ لـهـ بـذـلـكـ عـهـدـهـ . »^(١)

يسـبـقـ اـبـنـ الشـبـاطـ (٦٨١ـ هـ) اـبـنـ خـلـدـونـ (تـونـسـ ٧٣٢ـ هـ - الـقـاهـرـةـ ٨٠٨ـ هـ) فـيـ بـسـطـ هـذـاـ السـبـبـ . وـلـعـلـ اـبـنـ خـلـدـونـ اـعـتـمـدـ فـيـ هـذـاـ عـلـىـ كـتـابـ مـفـقـودـ لـاـبـنـ حـيـانـ (٤٦٩ـ هـ) أـوـ غـيـرـهـ . وـهـذـاـ يـشـيرـ إـلـىـ تـوـفـرـ هـذـهـ الـمـعـلـومـاتـ لـدـىـ أـسـلـافـهـمـ مـنـ الـمـؤـرـخـينـ ، وـفـيـهـ دـلـالـةـ إـلـىـ تـوـثـيقـ هـذـاـ التـعـلـيلـ الـذـيـ يـوـرـدـهـ اـبـنـ الشـبـاطـ مـنـقـولاـًـ عـنـ اـخـتـصـارـ اـقـبـاسـ الـأـنـوـارـ وـالـتـمـاسـ الـأـزـهـارـ فـيـ أـسـمـاءـ الـصـحـابـةـ وـرـوـاـةـ الـأـثـارـ لـلـمـؤـرـخـ الـفـقـيـهـ الإـشـبـيلـيـ أـبـيـ مـحـمـدـ بـنـ الـخـرـاطـ (٥٨١ـ هـ) : « وـلـمـ اـتـصـلـ بـالـوـلـيدـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ رـحـمـهـ اللهـ ، تـلـقـوـمـ مـوـسىـ بـنـ نـصـيـرـ بـأـرـضـ الـأـنـدـلـسـ ، وـتـقـحـمـهـ بـالـمـسـلـمـيـنـ فـيـ أـرـضـ الـعـدـوـ مـنـ غـيرـ مـؤـارـةـ وـلـاـ مـشـاـورـةـ ، بـعـثـ مـعـيـنـاـ مـوـلاـهـ إـلـيـهـ ، وـأـمـرـهـ أـنـ يـعـنـفـهـ وـيـقـفـلـهـ إـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ . »^(٢)

وـنـقـلـ المـقـرـيـ عـبـارـةـ أـخـرـىـ – لـمـ يـذـكـرـ مـصـدـرـهـ – تـوـكـدـ هـذـاـ الـمعـنـىـ ، فـهـوـ يـقـولـ عـنـ عـودـةـ مـوـسىـ إـلـىـ دـمـشـقـ بـأـنـهـ تـرـكـهـ – أـبـيـ الـأـنـدـلـسـ – « وـهـوـ مـعـ ذـلـكـ مـتـلـهـفـ »

(١) الـبـرـ ، ٤/٢٥٥ـ (نـفـحـ الطـيـبـ ، ١/٢٢٣ـ ـ ٢٢٤ـ) . كـذـلـكـ : تـارـيـخـ غـزوـاتـ الـعـربـ ، ٦ـ ؛ الـخـلـلـ الـسـنـدـسـيـةـ ، ٢/٢ـ ـ ٢٠٣ـ .

(٢) رـاجـعـ تـرـجـمـتـهـ فـيـ : بـقـيـةـ الـلـتـمـسـ ، ٣٩١ـ (رـقـمـ : ١١٠٤ـ) ؛ عـنـوانـ الـدـرـاـيـةـ ، أـبـوـ العـبـاسـ الـفـيـرـيـنـيـ ، ٤١ـ (رـقـمـ : ٣ـ) . كـذـلـكـ : كـتـابـ الـوـفـيـاتـ ، أـبـوـ العـبـاسـ أـحـمـدـ بـنـ قـنـفذـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـ ، ٢٩٣ـ ؛ تـارـيـخـ الـأـنـدـلـسـ ، ١٨ـ ـ ١٩ـ (المـقـدـمـةـ) .

(٣) تـارـيـخـ الـأـنـدـلـسـ ، ١٥١ـ (نـصـ اـبـنـ الشـبـاطـ) .

على الجهد الذي فاته ، أسيفٌ على ماحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يخترق مابقي عليه من بلد إفرنجية ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام ، مؤملاً أن يتخذ مُختَرَقةً بتلك الأرض طريقاً مهيناً يسلُكُهُ أهلُ الأندلس في مسیرهم وعیشهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً^(١) .

غير بعيد أن يفكر موسى بمثل هذا المشروع أو جزء منه ، مستمراً في الجهاد خلف جبال البرت ، وهو ما قام به المسلمون بعد ذلك ، ولعل السرايا التي وصلت إلى أربونة أو حولها في جنوب فرنسا – خلال وجود موسى – تُقوّي واقعية هذه الفكرة وتوّكّد توثيقها . وإذا كانت فكرة هذا المشروع مبكرة لدى موسى ، إلا يمكن الربط بينها وبين الآلاف الثمانية عشر من الجند التي عبر بها إلى الأندلس ؟ الظاهر أن أخبار خُطّة موسى هذه وصلت إلى الخليفة ، سواء كتب هو بها إلى الخليفة ، أو عرف بها عن الرسل الذين أرسلهم موسى أثناء الفتوح الأولى حتى طُلِيَّطْلَة أو في أي وقت آخر .

ليس من الضروري أن يكون موسى قد كتب مرة واحدة إلى الخليفة بشأن فتح الأندلس ، وذلك حين أرسل – أثناء الإقامة بطُلِيَّطْلَة – أواخر سنة ٩٤ هـ(خريف ٧١٣ م) علياً بن رباح ومُعيثاً الرومي كما يقال . لعل موسى بذلك كان يستشير الخليفة بهذه الفكرة ، وهو أمر ضروري .

وغير معروف فحوى رسالات موسى ، مع علي ومغيث . لكن ابن الفرضي يقول : «أن موسى بن نصيير حين فتح الأندلس كتب إلى الوليد بن عبد الملك : أنها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر ». ^(٢) فكان ردُّ الخليفة استدعاء القائدين وإيقاف الفتح ، ولو إلى حين .

وَجَهَ الْخَلِيفَةُ الْوَلِيدَ مُعِيَّثَ الرَّوْمَىَ ، مُسْتَدْعِيَاً مُوسَىَ . يَقُويُ هَذَا كَوْنُ مَغِيثَ رَسُولاًَ (أَوْ أَحَدِ رَسُولِهِ) مُوسَىَ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، يُطْلِعُهُ عَلَى عَمَلِيَّاتِ الْفَتْحِ فِي الْأَنْدَلُسِ .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٧/١ . مهيع : بين ، سهل .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ١٤٧/٢ (رقم : ١٤٥٦) . كذلك : نفح الطيب ، ٢٨٥/١ (نقل عن ابن حيان) . قارن : الحلقة السيراء ، ٣٣٤/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٥ .

وأدرك مغيثٌ موسى وهو يقوم بجهاده في الشمال ، مستعداً لدخول جليقية عند آشتُرقَة : « فَبِينَمَا هُوَ يَعْمَلُ فِي ذَلِكَ وَيُؤْتَدُ لَهُ إِذَا تَاهَ مغيثُ الرُّومِيُّ رَسُولُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَالِكِ وَمُولَاهُ يَأْمُرُهُ بِالنَّهْرُوجِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ وَالإِضْرَابِ عَنِ الْوَغْوَلِ فِيهَا ، وَيَأْخُذُهُ بِالْقُفُولِ إِلَيْهِ ، فَسَاعَهُ ذَلِكُ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنِ إِرَادَتِهِ »^(١) . فَلَاطَّافَهُ موسى « وَسَأَلَهُ إِنْظَارَهُ بِالْقُفُولِ إِلَيْهِ ، فَسَاءَهُ ذَلِكُ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنِ إِرَادَتِهِ »^(٢) . إِلَى أَنْ يُنْفَدِ عَزْمَهُ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا وَالْمَسِيرِ مَعَهُ فِي الْبَلَادِ أَيَامًا »^(٣) .

بعد فتح مناطق كثيرة في جليقية (وأشتوريش) ، قَدِمَ أبو نصر رسولًا آخر من الخليفة الوليد ، يستعجل موسى العودة « لَا اسْتَبْطِأُ مُوسَى فِي الْقُفُولِ » . فلا يعلم موسى إِلَّا الاستجابة لأمر الخليفة « وَقَالَ الرَّازِيُّ : إِنَّ الَّذِي أَزْعَجَ مُوسَى عَنِ الْأَنْدَلُسِ أَبُو نَصْرِ رَسُولُ الْوَلِيدِ ، فَقَبَضَ عَلَى عَنَانَهُ وَشَنَاهُ قَافْلَاً » ، وَقُفلَ مَعَهُ مِنْ أَحَبَّ الْمَشْرِقِ »^(٤) .

يورد ابن الشَّبَاط - نقلاً عن مختصر تاريخ الطبرى لعربي بن سعيد (٣٧٠ هـ) - بأنه لما « استبطأ الوليد » - رحمه الله - قُدُوم موسى ، فبعث رسولًا يُعرف بأبي نصر ، فتوكل بموسى واندفع به من مدينة لُكْ بِجَلِيقِيَّةَ ، وخرج من الفجَّ المعروفة بفتح موسى ، ووفاه طارق بالطريق . ومضيا جمِيعاً معهما مغيثٌ وأبو نصر ، ومن أراد أن يرجع من الناس إلى المشرق ، واستخلف موسى بن نصیر على الأندلس ابنه عبد العزيز . وشخص موسى راجعاً إلى إفريقيَّةَ . »^(٥)

إذا كانت المدة بين الرسلين حوالي أربعة شهور ، فهل أنها كافية لاستبطاء الخليفة عودة موسى ليرسل رسولًا آخر يستدعيه ، أم أنه رسول واحد كان بانتظار موسى فكرر عليه الطلب^(٦) ؟ لكن نص المقرئي - وغيره - واضح في أنهما رسولان ، يذكراهما بالاسم والكنية . وحين الحديث عن عودة موسى يذكرهما متباينين بالاسم

(١) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ . كذلك : نفح الطيب ، ١٤/٣ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٢٦/١ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٨٠/١ .

(٤) تاريخ الأندلس ، ١٥١ - ١٥٢ .

(٥) قارن : فجر الأندلس ، ١٠٦ .

والكنية^(١) ، كما في النصوص المقتبسة^(٢) .

لإرسال رسولين من قبل الخليفة لاستدعاء موسى ، المدة بينهما أشهر قليلة — قد تكون ثلاثة — يشير إلى قلق الخليفة على المسلمين ، وأنه هو سبب الاستدعاء .

إذا كانت مسيرة^{*} موسى وطارق من طليطلة نحو الشمال ، في ربيع الأول سنة ٩٥ هـ (كانون الأول ٧١٣ م) ، أو بعده بقليل ، وعودته إلى المشرق — عابراً مضيق جبل طارق — في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ^(٣) (آب — أيلول ٧٠٤ م) ، فتكون عمليات الجهاد في فتح شمال إسبانيا قد استغرقت حوالي ثمانية شهور . مضى حوالي نصفها قبل مجيء مغيث — رسول الخليفة الأول — الذي ربما كان وصوله إلى الأندلس حوالي أواخر شعبان سنة ٩٥ هـ : أي بعد مضي حوالي ثمانية شهور على رحيله من الأندلس ، يحمل أبناء الفتح إلى الخليفة الوليد . يقول المقرري عن مغيث : « وهو الذي وجَّهَهُ إلى الأندلس غازياً ففتح قرطبة ، ثم عاد إلى المشرق ، فأعاده الوليد رسولًا عنه إلى موسى بن نصَّير يستحثه على القدوم عليه ، فوفد معه »^(٤) .

إذا اعتبرنا هذه المدة — ذهاباً وإياباً — طويلة وأن الخليفة أعاد مغيثاً مباشرة أمام قلقه على المسلمين ، فإما أن يكون خبر خطوة موسى وصلت بيد رسول آخر أرسله موسى من التغر الأعلى ، أو أن هذه التقديرات الزمنية غير دقيقة . إذا كانت أخبار خطوة موسى وصلت إلى الخلافة بواسطة مغيث — والطريق بين دمشق والأندلس يستغرق شهرين أو يزيد — فإن وصول مغيث كان أثناء وجود موسى في التغر الأعلى أو بعده ، وأن الخليفة استبطأ عودة موسى — أو أي خبر عنها — فأرسل رسولاً آخر . أو أن الخليفة لم يرسل رسوله الثاني استبطاء بل استعجالاً . يقوى هذا الفهم كونهما رسولين وأن أبا نصر كنية للرسول الثاني وليس لمغيث ، كما يقال^(٥) . ولعل هذا الفهم يقوى تعليل اعتبار الخوف على المسلمين سبباً في الاستدعاء .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٧٦ ، ١٤/٣ .

(٢) راجع الصحائف : ١١٤ - ١١٩ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٧/١ . (٤) نفح الطيب ، ١٤/٣ .

(٥) فجر الأندلس ، ١٠٦ .

١ - عودة موسى وطارق بالجند

ترك موسى عمليات الفتح في الشمال بعد أن رتب الأمور ، وهو في مدينة لُكَّ ، منصر فـأـنـوـ جـنـوـبـ الـأـنـدـلـسـ . ولعل ذلك كان في أوائل ذي الحجة سنة ٩٥ هـ . لا نعرف طريق العودة من الشمال ، ولكن المرجح أنه سلك أقرب طريق : من مدينة لُكَّ إلى الفـجـ (الوادي) المعروـفـ باـسـمـهـ «ـ فـجـ مـوـسـىـ »ـ (Valmusa)ـ ، وهذا ثـانـيـ فـجـ باـسـمـهـ (١)ـ . ثم التـحـقـ به طـارـقـ عـائـدـاـ من التـغـرـ الأـعـلـىـ أوـ منـ غـيرـهـ . ولا يـبـدـوـ أنـ هـذـاـ وـلـ لـقاءـ بـيـنـهـماـ خـالـلـ عمـلـيـاتـ الجـهـادـ فيـ الشـمـالـ الإـسـپـانـيـ ،ـ بـعـدـ اـفـرـاقـهـماـ مـنـ سـرـقـسـطـةـ .ـ وـلـعـلـ طـارـقـ قـامـ بـقـيـادـةـ بـعـضـ السـرـايـاـ أـثـنـاءـ فـتـحـ الشـمـالـ ،ـ فـأـرـسـلـ إـلـيـهـ مـوـسـىـ مـنـ مـدـيـنـةـ لـُكـَـ بـالـاتـحـاقـ بـهـ اـسـتـجـابـةـ لـأـمـرـ الـخـلـيـفـةـ ،ـ فـالـتـقـيـاـ هـنـاـ فـيـ الـطـرـيقـ .ـ

لا شك أن كـثـيرـاـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ -ـ قـادـةـ وـجـنـدـاـ -ـ قدـ توـزـعواـ عـلـىـ المـنـاطـقـ لـإـدارـتـهاـ .ـ وـالـإـشـرـافـ عـلـيـهـاـ وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ إـلـسـلـامـ فـيـهـاـ .ـ وـكـلـ هـذـاـ يـدـعـوـ بـعـضـ إـلـىـ إـلـقـامـ الدـائـمـةـ .ـ انـحـدـرـ مـوـسـىـ وـطـارـقـ وـرـسـوـلـ الـخـلـيـفـةـ وـعـدـدـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ تـجـاهـ إـشـبـيلـيـةـ ،ـ وـلـعـلـهـمـ مـرـؤـاـ بـطـلـيـطـلـةـ وـقـرـطـبـةـ ،ـ وـالـظـاهـرـ أـبـنـهـ عـبـدـ الـعـزـيزـ كـانـ فـيـ إـشـبـيلـيـةـ أـوـ قـرـيبـاـ مـنـهـاـ ،ـ عـلـىـ مـوـعـدـةـ سـابـقـةـ .ـ

من المـمـكـنـ القـوـلـ أـبـاـهـ تـرـكـهـ لـيـقـومـ بـافتـاحـ مـدـنـ مـعـيـنـةـ فـيـ شـرـقـ الـأـنـدـلـسـ أـوـ غـربـيـهـ .ـ يـفـسـرـ ذـلـكـ عـدـمـ وـرـودـ اـسـمـ عـبـدـ الـعـزـيزـ فـيـ كـلـ الـفـتـوـحـاتـ الـتـيـ تـلـتـ مـاـرـدـةـ نـحـوـ الشـمـالـ .ـ إـنـ عـدـيدـاـ مـنـ الـمـدـنـ فـيـ شـرـقـ الـأـنـدـلـسـ وـغـربـيـهـ لـمـ يـرـدـ ذـكـرـ فـتـحـهـاـ مـنـ قـبـلـ مـوـسـىـ وـطـارـقـ لـعـلـ عـبـدـ الـعـزـيزـ تـوـلـيـ فـتـحـ بـعـضـهـاـ (٢)ـ .ـ

أـقـامـ مـوـسـىـ فـيـ إـشـبـيلـيـةـ أـيـامـاـ لـتـرـيـبـ أـمـرـ الـأـنـدـلـسـ وـأـحـواـلـهـ .ـ وـعـيـنـ اـبـنـهـ عـبـدـ الـعـزـيزـ وـالـيـاـ عـلـىـ الـأـنـدـلـسـ ،ـ مـتـخـذـاـ مـنـ إـشـبـيلـيـةـ عـاصـمـةـ ،ـ لـمـوـقـعـهـاـ .ـ وـقـفـلـ مـوـسـىـ «ـ عـنـ الـأـنـدـلـسـ بـعـدـ أـنـ أـنـزـلـ الرـابـطـةـ وـالـحـامـيـةـ بـشـغـورـهـاـ ،ـ وـاسـتـعـمـلـ اـبـنـهـ عـبـدـ الـعـزـيزـ لـسـدـهـاـ وـجـهـادـهـاـ »ـ (٣)ـ .ـ

(١) أـعـلـاهـ ،ـ ٧٤ـ ،ـ ١٠٧ـ .ـ (٢) اـنـظـرـ تـارـيـخـ الـمـسـلـمـينـ وـأـثـارـهـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ ،ـ ١٠٩ـ ،ـ ١١٢ـ .ـ

(٣) الـعـبـرـ ،ـ اـبـنـ خـلـدونـ ،ـ ٢٥٥ـ /ـ ٤ـ (ـ =ـ فـحـ الـلـيـبـ ،ـ ٢٣٤ـ /ـ ١ـ)ـ .ـ كـذـاكـ :ـ الـحـلـلـ الـسـنـاسـيـةـ ،ـ ٤ـ ،ـ ٢٠٣ـ /ـ ٢ـ .ـ تـارـيـخـ غـزوـاتـ الـعـربـ ،ـ ٥٦ـ .ـ

تَوَجَّهَ مُوسى وَطَارِقُ وَمَنْ مَعَهُمَا بَعْدَهَا إِلَى الْجَنُوبِ ، وَعَبَرُوا الْمُضِيقَ فِي نَهَايَةِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةٍ ٩٥ هـ (أَيُولُو ٧١٤ م). كَانَتْ مَدَةُ جَهَادِ مُوسى فِي الْأَنْدَلُسِ سَتِينَ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَيُزِيدُهُ طَارِقُ سَنَةً وَاحِدَةً . اسْتَغْرَقَ فَتْحُ الْأَنْدَلُسِ - غَيْرُ سَرِيَّةٍ طَرِيفٍ - ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ وَنَصْفٍ . يُسْجُلُ الْمَقْرِيُّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « وَبَيْنَمَا مُوسى كَذَلِكَ فِي اشْتِدَادِ الظَّهُورِ وَقُوَّةِ الْأَمْلِ ، إِذْ قَدِمَ عَلَيْهِ رَسُولُهُ آخِرُ مِنَ الْخَلِيفَةِ يَكْنِي أَبَا نَصْرٍ أَرْدَفَ بِهِ الْوَلِيدُ مُعْنِيَّا لِمَا اسْتَبَطَ مُوسى فِي الْقَوْلِ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَوْجُنَّهُ ، وَيَأْمُرُهُ بِالْخَرْوَجِ ، وَأَلْزَمَ رَسُولَهُ إِزْعَاجَهُ ، فَانْقَلَعَ حِينَئِذٍ مِنْ مَدِينَةِ لُكَّ بِجِلِيلِيَّةَ ، وَخَرَجَ عَلَى الْفَجَّ الْمُعْرُوفِ بِفَجَّ مُوسى ، وَوَافَاهُ طَارِقُ فِي الْطَّرِيقِ مُنْصَرًا مِنَ الشَّغَرِ الْأَعُلَى ، فَأَقْفَلَهُ مَعَ نَفْسِهِ وَمَضَيَّا جَمِيعًا وَمَعَهُمَا مِنَ النَّاسِ مِنْ اخْتِارِ الْقَوْلِ ، وَأَقَامَ مِنْ آثَرِ السُّكْنَى فِي مَوَاضِعِهِمُ الَّتِي كَانُوا قَدْ اخْتَطَوْهَا وَاسْتَوْطَنُوهَا ، وَقَفَّلَ مَعَهُمُ الرَّسُولُانِ مُغِيَثًا وَأَبُو نَصْرٍ حَتَّى احْتَلُوا بِإِشْبِيلِيَّةَ ، فَاسْتَخْلَفَ مُوسى أَبْنَهُ عَبْدَ الْعَزِيزَ عَلَى إِمَارَةِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَقَرَّهُ بِمَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ لِاتِّصَالِهَا بِالْبَحْرِ نَظَرًا لِقَرَبِهِ مِنْ مَكَانِ الْمَجَازِ ، وَرَكَبَ مُوسى الْبَحْرَ إِلَى الْمَشْرُقِ بَذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ وَطَارِقُ مَعَهُ ، وَكَانَ مَقْعَدُ طَارِقَ بِالْأَنْدَلُسِ قَبْلَ دُخُولِ مُوسى سَنَةً وَبَعْدَ دُخُولِهِ سَتِينَ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ^(١) .

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ خَطُّ سِيرِكُلٍّ مِنْ حَمْلَةِ مُوسى وَطَارِقٍ ، مِنْذِ سِيرِهِمَا مِنْ طِلِيلَةِ (أَوَّلَيْ ٩٥ هـ) حَتَّى تَوْجِهِهِمَا نَحْوَ جَنُوبِ الْأَنْدَلُسِ فَالشَّمَالِ الْإِفْرِيْقِيِّ (أَوَّلَيْ ٩٥ هـ) ، كَالآتِي :

مُوسى (سَوِيَّةً مَعَ طَارِقَ) : طُلِيْطُلَةَ ، سَرَقُسْطَةَ (فَتَحَتْ مَعَاقِلَ وَحَصُونَ حَوْلَهَا) . انْفَرَدَ مُوسى بِحِيشَهُ ، مَتَجَهًا شَرِقًا وَشَمَالِيَّ الْأَنْدَلُسِ : وَشَقَّةَ ، لَارِدَةَ ، طَرَكُونَةَ ، بَرَشَلُونَةَ ، رَبِّما جَيَرُونَةَ وَغَيْرُهَا [جَرِيَّ جَهَادٍ وَرَاءَ الْبُرُوتِ - قَادَهُ بِنَفْسِهِ أَوْ بِالسَّرَايَا - عَبَرَ مَرْ بَارِيَّيَّانَ ، فِي مَنْطَقَةِ سَبَتَمَائِيَّةٍ وَوَادِيِّ رُودَنَهُ (نَهْرِ الرُّونِ) ، قَرْقَشُونَةَ ، أَرْبُونَةَ ، أَبِنِيَّونَ ، لُوذُونَ (لِيُونَ)] . اتَّجَهَ نَحْوَ الشَّمَالِ الغَرْبِيِّ فِي مَنْطَقَةِ الْبَشَكُنْسِ (يَسَارِ إِبْرَهُ) بِعَوْازَةِ خَطِّ سِيرِ حَمْلَةِ طَارِقَ: بَنَبِلُونَةَ ،

(١) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٢٧٦/١ - ٢٧٧ . كَذَلِكَ : تَارِيخُ الْأَنْدَلُسِ ، ١٥١ - ١٥٢ (نَصُّ ابْنِ الشَّبَاطِ) ؛ أَعْلاَهُ ، ١١٦ .

آلَّبَهُ والقلاع (قَشْتَالَةُ) ، منطقة جلّيقيَّة : أَشْتُرُقَةُ (التقى مع طارق ثم افترقا) دخل مفازتها : حصن بارو ، لُكَّ (حصن ومدينة) ، وربما غيرها ، أَشْتُورِيشُ : الصخرة [خِيَخُون ، بنفسه أو بالسرايا] ، ربما قام طارق بكلها أو ببعضها . كان التحرك نحو الشام من : مدينة لُكَّ ، فَجَّ مُوسَى (التحق به طارق ، قادماً من الثغر الأعلى) ، طُلَيْطُلَةُ ، قُرْطُبَةُ ، إِشْبِيلِيَّةُ (أخذت قاعدة) ، الجزيرة الخضراء (جازوا الرُّقَاقَ) ، سَبَّتَةُ (نحو الشمال الإفريقي) ، مارين بالقَيْرَوَان ، إلى دمشق ، مركز الخلافة ، خلال فُسْطاط مصر ، القاهرة .

طارق (سوية مع موسى) : طُلَيْطُلَةُ ، سَرَقُسْطَةُ (ينفرد بجيشه ، متوجهًا نحو الغرب والشمال الغربي بمحاذاة يمين إبره) ، منطقة البَشْكُنْسُ (مجاورين جبال قَنْتَبِيرِيَّة) ، منطقة جلّيقيَّة : أمَايَةُ ، أَشْتُرُقَةُ (التقى به طارق ، ربما ليس لأول مرة ، بعد سَرَقُسْطَة) ، ليون (وربما غيرها ، مباشرة أو بالسرايا ، في منطقة الثغر الأعلى) . يتجه نحو موسى ملتحقاً به - بناءً على أوامرها - للتوجه إلى الشام ، من مكان ما في الثغر الأعلى ، فَجَّ مُوسَى ، طُلَيْطُلَةُ ، قُرْطُبَةُ ، إِشْبِيلِيَّةُ ، الجزيرة الخضراء (عَبَرَ المضيق) ، سَبَّتَةُ ، بصحبة موسى إلى دمشق .

٢ - صفة الفتح الإسلامي وطبيعته

أمرُ هذا الفتح الإسلامي في كل مكان - في عموم تاريخه ، مثله في شبه الجزيرة الإيبيرية - مُدْهِشٌ ويدعو إلى العجب .

افتتح المسلمون في خمسة عشر عاماً مناطق واسعة فتحاً أصيلاً . فسقطت بيد تلك القلة القليلة أكبر امبراطوريتين عريقتين في العالم ذاك : وهما تملكان أنواع القوى المادية الظاهرة التي هي مُسْتَكَأُ الرجحان في الغلبة ، والأمل في النصر الكاسح ، والاستعلاء والخبرة والدُّرْبَة والتنظيم والعلم والفلسفة والتفكير . ذلك رغم محاولات هاتين القوتين الكبيرتين - من أجل إيقاف زحف الإسلام النَّيَّر والقضاء عليه - الاستمداد من خارجهما^(١) أو الاتحاد بينهما . بل لم يكن يخطر على بال ولا خيال أية من القوتين أن

(١) تاريخ الطبرى ، ٤/١٦٧ - ١٧٣ (= حياة الصحابة ، ٤/٦٤٨ - ٦٥٠) .

تفت أمام هذا المد الجديد الفريد ، وقد كانت من قبل متحاربتين وكان العداء بينهما شديداً والحروب مستمرة . لقد وقفت هاتان القوتان بكل الإمكانيات المعهودة المحسنة أمام المد الإسلامي فأصابها الفشل .

كان عدد الجيش الإسلامي في معركة مؤتة (السنة الثامنة للهجرة) ثلاثة آلاف ، وجيش الروم مئة ألف أو يزيدون . عندها قال ثابت بن أقمر لأبي هريرة – وكان إلى جانبه في المعركة ، وقد برق بصر أبي هريرة من كثرة ما رأى من العدة والسلاح – : « يا أبو هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ – قال : نعم – قال إنك لم تشهد بدرأ معنا ، إنما ننصر بالكثرة »^(١) . وفي نفس المعركة خاطب الجيش قائدُهم عبدُ الله بن رواحة قائلاً : « ... وما نقاتل الناس بعدد وقوه ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسْنَيْن : إما ظهور وإما شهادة »^(٢) . وقد قال أبو بكر الصديق : « إن الله لم ينصرنا مع نبيه صلى الله عليه وسلم بكثرة عدد ولا بكثرة جنود »^(٣) .

أبان لطليحة بن خوبلد الأنصري^(٤) – الذي « كان يُعدُّ بألف فارس »^(٥) – أحدُ أتباعه ، سببَ هزيمة جنده – وهم أكثر – أمام الجيش الإسلامي . ذلك أنه « لَمَّا رأى كثرة انهزام أصحابه ، قال : ويلكم ! ما يهزكم ؟ قال رجل منهم : وأنا أحذلك ما يهزمنا ، إنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنما لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه »^(٦) . تلك بعض آثار عملية التحول القوي والإحياء الإنساني المنير الذي أحدهُ الإسلام في اتباعه ، فكانوا لوناً إنسانياً جديداً وفريداً ، بهر الناس . حتى وصفهم أعداؤهم بأقوى الأوصاف ، مدركون سبب هذا

(١) حياة الصحابة ٤/٦٤٠ .

(٢) السيرة النبوية ، ابن هشام ، ٢/٣٧٥ . كذلك راجع : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، ٦١-٦٢ .

(٣) حياة الصحابة ، ٤/٦٤٠ .

(٤) أحد المتبدين الكذابين الذي عاد إلى الإسلام ، بعد الارتداد . فأبلى في الجهاد – لاعلام كلمة الله تعالى – بلاء حسناً . جاهد في عدة معارك : القادسية (١٦)^(٨) ، واستشهد في تهواند (٢١)^(٩) . عنه راجع :

الاستعباب ، ٢/٧٧٢ (رقم : ١٢٩١) ؛ سير أعلام النبلاء ، النهيبي ، ١/٢٢٩ (رقم : ٧١) .

(٥) البر ، النهيبي ، ١/٢٦ . (٦) حياة الصحابة ، ٤/٦٤٢ .

المستوى الكريم ومقوماته ومصدره ، من الإيمان بالإسلام والتقوى لله تعالى ، وأنهم « بالليل رُهبان وبالنهار فُرسان ... »^(١) يتسابقون للشهادة ، فوزاً بالجنة . فكانوا رياحاً تعصف بالعدو – رغم كثرة عَدَّده وعُدْته – « لا يثبت لهم العدو فَوَاق ناقة عند اللقاء »^(٢) . فهم لكل أفقٍ حياته ، ولكل ميدان فرسانه الأبطال – من النساء والرجال – بأشرق لون ، وأشرف موقف ، وأكرم سَمَّت .

الفتح هو فتح العقيدة وفتح القلوب للإيمان بها . ليس هدفها القتال – الذي يجب أن يكون في سبيل الله – بل السلام ، السلام الإيماني هو غاية كبرى في الإسلام .

لم يكن تقدم الجيش الإسلامي – في كل مكان ، هذا التقدم – بسبب العوامل الخارجية التي ينتفع بها أو الداخلية والذاتية المادية ، تلك التي ألغتها الناس . بل لعوامل ذاتية جديدة كامنة في نوع بنائه ومقومات حياته التي أقامها الإسلام ، وبها حاز النصر وحقق الإنجاز المدهش * وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم *^(٣) . والله جلَّت قدرته لا يهب النصر إلا بختنه . وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة (السنة الثامنة للهجرة) : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صَدَّقَ وَعْدَه ، وَنَصَرَ عَبْدَه ، وَأَعْزَّ جُنْدَه ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَه وَلَا شَيْءٌ بَعْدَه ». .

لم يكن تقدم الجيش الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية بهذه الشكل إلا بإسلامه ، وبه كان نصر الله له . فَمَرَدَ تقدمهم – وبهذه السرعة – لا إلى ضعف أعدائهم كما يزعم البعض . استطاع المسلمون فتح كل أو غالبية الجزيرة الإيبيرية في حوالي أربع سنوات . نازلوا القُوط في عدة معارك ، بعضها كان حاماً جداً . كانوا يقتلون مع المسلمين ، لكنهم لا يثبتون . وكرروا المحاولات الكثيرة في أماكن متعددة والمسلمون يكتسحونهم أمامهم كالسيل بالحarf ، رغم قتلهم . لو كان الجيش الإسلامي بغير هذه العقيدة ، وأعداؤهم بهذا التفوق العددي والمادي ، ما كان مثل هذا الفتح أن يتم . لقد حدث أن دخل الجزيرة جيش أو أكثر قوي في قبل المسلمين فلم يتحقق مثله ، وطبعاً مع الاختلاف في نوع الفتح وطبيعته وأصالته وأهدافه ووجهته .

(١) حياة الصحابة ، ٦٤٦/٤ . (٢) حياة الصحابة ، ٦٤٤/٤ .

(٣) من الآية ١٢٦ من سورة آل عمران .

فالقوط أمة وُصفَت بالشجاعة والأمجاد العسكرية الكثيرة^(١) ، رغم ضعف هذه الصفات أحياناً^(٢) . كل ذلك الفرق يشير إلى الفرق الأساسي بينهما . فالجيش الإسلامي يقوم بالعقيد الإيمانية ، التي ميزته وأفراده وجعلته في مثابة عالية قوية سمت به ، فتصاعد أمامه أي تجمع وإن هزم ، وضعفَت في تقدمه كل قوة فتاثرت . وبهذه العقيدة هزم القوط وغيرها .

٣ - خلاصة فتح الأندلس

أخبار فتح الجزيرة الإيبيرية – في أكثر من حلقة أو موضوع – ناقصة أو غامضة أو مفقودة . وما من شك فأحداثها – خلال الفتح – كثيرة وبطولاتها نادرة ، كأخواتها في أحداث الفتوحات الإسلامية الأخرى . وزيادة إلى عدم وضوح عدد من أحداث فتح المدن وتفاصيلها . فإنه لم تتوفر لدينا أخبار الجند جماعة ، إلا ما ندر ، وأفراداً وهي من غير شك كثيرة وفريدة .

ان عدد الذين أتموا عمليات فتح شبه الجزيرة الأندلسية وقدموها لفتحها حوالي ثلاثة ألفاً ، وهو ليس كثيراً أبداً . وقد يكون مثل هذا العدد لحركة واحدة . وفعلاً كان عدد جيش القوط في المعركة الأولى أكثر منه ، ربما بعدة مرات . كان المسلمون يقرون بهذا الفتح ويعرفون أن أعدادهم أقل بكثير من عدوهم ، لكنهم كانوا يتفوقون عليه باليمن القوي المتدفع ، الذي تعلّموا منه ألا يكون موعظهم في النصر على العدد ، مع التمسك الفعال بقوله تعالى : ﴿ * وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْنَمِنْ قَوَافِلَهُمْ ﴾^(٣) . لذلك لم يكن اعتمادهم على قوى أخرى فقدموا بهذا العدد القليل مثل هذه المهمة الشاقة البخلية ، التي ما كانوا فيها يُفَرِّطون ، بل يحرصون عليها أشد من حرصهم على الذات وشؤونها . وكانوا مستعدين لكل تضحيّة مهما عزّت ، وهي أمنية في نصرة الإسلام .

أتَمَّ المسلمون هذا الفتح النصير بقوّة إيمانهم وقلة جيشهم - ذي الآلف الثلاثين -

(١) دولة القوط الغربيين ، إبراهيم علي طرخان ، ١٢٠ ، ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ١١٦ .

(٣) من الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

بقيادة موسى وطارق وغيرهما من نجحهم أسماءهم . « ولو أن قائدًا معه ثلاثة مئة ألف مقاتل ، ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها ما أحاطه موسى وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء توج حواليه كالبحر الراخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوعاً لهنته ، بل حدثه نفسه التي قلَّ مثلاً في نفوس البشر ، في بعد الملة ، أن يوغل في أرض الإفرنج ، ويعطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القُسْطَنْطِينِيَّة ». ^(١) جعل الإسلام الفرد يُجاهد بهذا الإيمان ، بكل كيانه ، فوهب له حياته ، بل غدت حياةُ الإسلام حياتَه .

ال المسلم في نصر دائم حتى في حالة الهزيمة (العسكرية) في الميدان مادامت نفسه المؤمنة لم تنهرم . أما الهزيمة الداخلية ، فهي الهزيمة الحقيقة . فالإسلام هو القوة الأصلية الفاعلة الحقة ، وهي أعلى من كل قوة أخرى وأمضى من أي تجميع . ولدينا من التاريخ الإسلامي القديم والحديث مصاديق متكرر ، يؤكِّد بوضوح هذه القاعدة التي لا تختلف .

مهمة الفتح الإسلامي لا تنتهي أو تتوقف عند النصر الحربي ، بل بعدها تبدأ . بيان الإسلام والدعوة إليه هي مهمة مابعد الفتح ، على لسان الفاتحين وفي سلوكهم وتصرفهم ونظرتهم وتعاملهم ونصرهم وهزيمتهم وخطابهم وعهودهم وجدهم ومتزحهم وفي كل أمرهم ، في اليقظة والنوة والصحوة والغفوة والسر والعلانية والخبر والمظهر والنشط والمكره وفي كافة أحواهم . الجهاد الحربي بباب لغيره من أنواع الجهاد والمهام ، وما يتلوه من تبدل في الحياة ، قواهه تبدل النفس الإنسانية وتوجهها إلى الطريق الوحيد : طريق الله . هذا هو الفتح الحقيقي ، يقوم بكلمة الله وبها يدوم . فتتم العملية الكبرى والإنجاز . الرائع بفعل التبدل الخير والتتحول النير .

لكن عدد الجيش الإسلامي الفاتح في شبة الجزيرة الأندلسية لم يأت إليها دفعة واحدة . ومع ذلك لعله لم يجتمع للمسلمين مثله في مرة واحدة ، حتى مع تعدد الجبهات وتکاثر الواجبات . وغير بعيد أن يكون ربع هذا العدد نال الشهادة ، وهي أمنية في

(١) تاريخ غزوات العرب ، ٥٨ (تعليق ارسلان) . راجع كذلك : فجر الأنجلس ، ١١٨ .

خدمة الاسلام . وربما ربع آخر – أو أقل – توزع في المناطق ، ومع ذلك فقد كان الاكتساح ، لنوعية الجيش وتمثيله المعاني والخلق السامي الذي أدخل الناس في الدين أفواجاً . كان الفتح عملاً للناس ومن أجلهم وليس ضدَّهم ، فهو هدايتهم ووضعهم في طريق النور .

تكمِّن في الفتح الاسلامي للجزيرة الإيبيرية معجزة ، والإسلام يفتح به الإنسان – وبقدرة الله – المعجزات . هذا التقدم في الفتح لا يعني أنه كان سهلاً ، بل تمّ – بهذا الشكل – بذلك النوع من الأجناد ، أجناد العقيدة . فبدا للبعض هكذا ، إلى حد وصفه نفر من الإسبان بأنه كان نزهة عسكرية ، كله أو بعض مراحله « Mero paseo militar »^(١) .

كان ذلك كذلك أمام هذا النوع من الجندي أ أصحاب العقيدة ، استهانوها بالصعاب وبذلوا التفوس رخيصة ولرفع شأنها . فالفتح نفسه لم يكن يحتوي على نزهة أو ما يماثل شكلها . وإذا كان هذا الوصف مقبولاً ، فأمام هذا النوع من الجندي الفرد . وإلا فالتضحيات كثيرة والجهد كبير والdroub شاقة والمناخ شديد والجحود غريب والأرض مُصْخِّرة عنيفة ، وكان مستوى العقيدة أعلى من ذلك وأكبر . فأنساب الفاتحون في في شوطهم بهذه السرعة فبدت للآخرين نزهة ، لكنها روحية من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض . وهي مجلبة لراحة المؤمن وفرحة بنصر الله إن عاش ويحيته إن استشهدَ . * * *

* قل هل تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَّيْنَ *

عاد موسى إلى المشرق تاركاً الأندلس ، فتوقفت الفتوحات في الشمال الإسباني إلى حين . ولكنه أتاح المجال لتلك الفلول أن تنفس ، وكان من الأحسن أن تُطهر المنطقة تطهيراً كاملاً وأن يتوجه الفاتحون إلى ماوراء جبال البرت ، مجاهدين ومتصرفين . كان موسى – كما رأينا – قائداً مؤمناً تقياً ، متّحمساً لنشر الإسلام وحمل رايته إلى كل مكان ، ممتنعاً بشجاعة المؤمن وتضحيته وطاقاته السياسية والإدارية ، مع

Historia de la Espana Musulmana, Gonzalez Palencia, 11.

(١)

كذلك : تاريخ الأندلس ، ٤٠ (المقدمة) . (٢) من الآية ٥٢ من سورة التوبة .

الغزم والخزم الذي رباء عليه الاسلام . كان يقوم بكل ذلك الجهاد وعمره خمس وسبعون سنة أو يزيد . مع ذلك فكان بالامكان أن يجعل مكانه غيره ، وفي المسلمين كثير من القادة . لكن أمر استدعاء الخليفة أعاد موسى وطارق مع طائفة كبيرة من الجيش ، وأوقف الاستمرار في الفتح ، تخوفاً على المسلمين .

عاد موسى الى دمشق - عَبَرَ الشَّمَالِ الْأَفْرِيْقِيَّ وَمِصْرَ - وَوَلَى ابْنَهُ عَبْدَ الْمَلِكِ عَلَى الْمَغْرِبِ الْأَقْصِيِّ ، فِي طَنْجَةِ ، وَابْنَهُ عَبْدُ اللَّهِ - أَكْبَرُ الْأَبْنَاءِ - عَلَى إِفْرِيقِيَّةِ ، فِي الْقَيْرَوَانِ^(١) . فَلَحِقَ بِالْفَسْطَاطِ فِي رَبِيعِ الْأَوَّمِ سَنَةِ ٩٦ هـ (تشرين الثاني ٧١٤ م) . ثُمَّ غَدَّ السِّيرَ نَحْوَ الشَّامِ ، فَوَصَلَ دِمْشَقَ فِي أَوَّلِ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ ٩٦ هـ (كانون الثاني ٧١٥ م) وَالخَلِيفَةُ الْأَلِيدُ مَرِيضٌ . فِي أَوَاسِطِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ٩٦ هـ تُوْفِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، أَيْ بَعْدِ وَصْوَلِ مَوْسَى بِأَرْبَعِينِ يَوْمًا^(٢) .

٤ - خاتمة موسى وطارق

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) . وتقول بعض الأخبار إنه لم يحسن معاملة القائد الفاتح موسى بن نصير . وهنا تذهب بعض الروايات تتبخر في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى به الغمط والنكران^(٣) .

فضلاً عما في هذه الروايات من الغموض والتشوش والتناقض ، فإن مبالغتها مُغْرِبة ، ناقشها عدد من الباحثين وأنكروها^(٤) . ولو كان حصل مثل هذا الأذى لموسى من سليمان ، لما أبقى أبناءَ موسى الثلاثة في ولاياتهم التي وضعهم فيها أبوهم . لكن من الممكن أن يكون سليمان قد حاسب موسى على تصرفه في بعض الغنائم - خلال سيره من الأندلس الى دمشق - لا لاستحواذه على شيء منها ، بل لأنَّه أعطى

(١) فتح الطيب ، ٢٧٧/١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ .

(٢) فجر الأندلس ، ١٠٧ . كذلك : فتح الطيب ، ٢٧٢/١ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ .

(٣) فتح الطيب ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٧٢ - ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ - ٢٨٣ ، ٢٨٣ - ٢٨٥ .

(٤) فجر الأندلس ، ١٠٨ - ١١٠ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٥٧/١ - ٥٩ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ١٠٦ - ١٠٨ ؛ قادة فتح المغرب العربي ، ٢٧٩/١ - ٢٨٠ .

منها في الطريق من التقى به^(١) . وقد يكون وضع غرامة عليه أو ألغاها عنه . إن بطولة موسى وخدمته للإسلام وجهاده فيه - إن صحّ ما قيل - لا يبيح له التصرف في أموال المسلمين . لعله يجب القول أن موسى يستحق كل تقدير كان يدعو الخليفة سليمان ألا يغفله أو يغضبه ، إن صح أُيُّ قدْرٌ من محاسبته وتغريمه على تصرفه في المال .

مع ذلك تذكر الروايات أن الخليفة سليمان حين حجَّ بالناس^(٢) دعا موسى للحج معه مكرماً عام ٩٧ هـ^(٣) . هذا - بحق - يلغى الكثير مما قالته الروايات المُغْرِقة ، ولو عاد الخليفة فرضي عن موسى بعد غضبه عليه . بل قد ينفي - مع غيره - واقعية هذه الروايات أصلاً ، أو ينفي الكثير من تفصيلاتها .

يدرك الذهبي (دمشق ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) في تاريخ الإسلام أن الخليفة سليمان استشار موسى لدى عودته من الأندلس ومَسْلَمَةَ بن عبد الملك في أمر فتح مدينة القُسْطَنْطِينِيَّة^(٤) . كان حصار مَسْلَمَةَ للقُسْطَنْطِينِيَّةَ سنة ٩٨ هـ^(٥) .

تُوفِّيَ موسى بن نصَبَر وهو يتجه للحج برفقة الخليفة في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى (العلا ، حالياً)^(٦) أواخر سنة ٩٧ هـ^(٧) ، وعمره ثمان وسبعين سنة أو يزيد (٩٧ - ١٩ هـ)^(٨) . وما ترويه مراجعنا

(١) انظر : فجر الأندلس ، ١٠٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ٥٢٩ / ٦ .

(٣) الحلة السيراء ، ٣٤٤ / ٢ ؛ البيان المغرب ، ٢٢ / ٢ ؛ العبر ، النهبي ، ١١٥ / ١ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩ / ٥ .

(٤) تاريخ الإسلام ، النهبي ، ٣٢١ / ٣ .

(٥) العبر ، النهبي ، ١١٦ / ١ .

(٦) المئام المطابة في معالم طيبة ، الفيروز آبادى ، ٤٢٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ١٤٦ / ٢ (رقم: ١٤٥٦) ؛ العبر ، النهبي ، ١١٥ / ١ ؛ نفح الطيب ، ٢٧٢ / ١ . كذلك : جذوة المقتبس ، ٣٣٨ (رقم: ٧٩٢) ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩ / ٥ . اختلف في سنة وفاة موسى ، فقيل : سنة ٩٨ و ٩٩ هـ . والصواب سنة ٩٧ هـ لأن موسى حج مع الخليفة فيها حيث توفي في الطريق . ولم يبح الخليفة بالناس بعد هذا العام ، فضلًا عن الأخذ بها من قبل عدد من المؤرخين .

(٨) نفح الطيب ، ٢٨٣ / ١ .

أن موسى «تُوفّيَ بالمدينة متوجهاً إلى الحج ، وكان قد سأله الله عزَّ وجلَّ أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاهه .»^(١)

مات القائد المسلم موسى بن نصیر بعد أن ملاً جِهادُه – بقيادة المد الإسلامي المبارك – وديانَ المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلس) وجبارته وسهوله وهضابه ، ووجهَ دعاهُ الحق لاسماع ساكنيه نداء الخير فيخرجهم من الظلمات إلى النور المبين .

كان موسى يقود هذا الجهاد في شبه الجزيرة الأندلسية ، وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة . ممتنعياً جواده ، يهبط في وديانها ويرتفع على صخراتها . يتحرك فيه إيمان بالله العلي القدير ، فتسمو نفسه وتتجدد طاقته ، وتحدوه لاعلاء كلمة الله ورفع رايته في كل مكان . فيتدفع قويَّاً الجنان ، رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور . يقوده إصرار العقيدة السمحاء ، وهمة الإيمان الفتي ، وتُفتَّقُ طاقاته كلمةُ الله وتُقْيم قوتها إيماناً يعلو على أي اعتبار .

أما عن البطل طارق بن زياد ، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق . غير أن روایة تذكر رغبة سليمان في تَوْلِيَةِ طارق الأندلس^(٢) . وبعد ذلك لانعرف عنه شيئاً . هل بقي هناك في دمشق أم عاد إلى المغرب والأندلس ؟ لا يستبعد أن يكون عاد . البحث بانتظار نصوص جديدة تلقي ضياءً آخر على هذا الموضوع وغيره من تاريخ الأندلس .

وبهذا نصل إلى نهاية عمليات الجهاد لفتح شبه الجزيرة الأندلسية في هذه المدة ، تتلوها أخرى لها أحواها ومتطلباتها ، هي عصر الولاة الذي يشارك سابقه بأموره ويتميز – إلى حد – بخصائصه عنه .

(١) معالم الايمان ، ١ / ٢٠١ . كذلك : رياض النفوس ، ١ / ٧٨ . (٢) نفح الطيب ، ٣ / ١٣ .

الفِصْلُ الثَّانِي

عِهْدُ الْوَلَاةِ

(م ٧٥٥ - ١٣٨ هـ)

- أولاً : الاستقرار وتنظيم البلاد وإصلاحها .
- ثانياً : انتشار الإسلام واعتناق الإسبان له .
- ثالثاً : جهاد المسلمين في الأندلس وخلف البرت .



عهد الولاية

نظرة شاملة في العهد

بعدة القائدين - موسى وطارق - يبدأ في الأندلس ما يعرف بعهد الولاية (٩٥ - ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) ، الذي استمر حتى وصول عبد الرحمن الداخل (الأول) ابن معاوية بن هشام ، وما ترتب بعده .

استغرق عهد الولاية حوالي ٤٢ سنة ، تولى حكم الأندلس خلاها - بعد موسى وطارق - عشرون والياً^(١) ، حكم اثنان منهم مرتين ، هما : عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطان .

* * *

يمثل عهد الولاية في الأندلس التحول والانتقال إلى حياة جديدة خيرة ، فيها النور والامتداد في الغروس الثابتة النيرة . وهو هدف أصيل ومهمة تهدف الإنسان : تنظيفاً وتنقية وإعلاءً وتكرمةً ، في كل ميدان . ليحدث ازدهار الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها يانعة : لوناً سامي السمت ، غير الانتاج ، فريد المثال . هبة الله وهدايته : نوراً مضيئاً في عالم الإنسان .

* * *

ترددت الأندلس - في ارتباطها الإداري - بين ولاية الشمال الإفريقي والإشراف المباشر لمركز الخلافة . وحين كانت الأندلس تتبع الشمال الإفريقي ، يقوم الوالي الإفريقي بتعيين ولاة الأندلس ، مثل : الحمر بن عبد الرحمن الثقفي^(٢) (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠ هـ) وعَنْبَسَةَ بن سُحَيْمِ الْكَلَبِيِّ^(٣) (صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧ هـ) .

(١) قارن نفح الطيب ، ٢٤٩/١ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٧/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٤ .

اتبعت الأندلس إِنَّهُ . منذ أيام واليها الحر ، ثم عادت تابعة للخلافة أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩ - رجب ١٠١ هـ) . للسراج في الانجاز والإشراف عليه^(١) ، فعين السَّمْخَنَ بن مالك واليًا عليها (رمضان ١٠٠ - ذو الحجة ١٠٢ هـ)^(٢) . لكنها عادت تابعة لإفريقية في ولاية عنْبَسَة حتى استُشْهِدَ جنوب فرنسا (شعبان ١٠٧ هـ)^(٣) . وفي ولائيٍّ : عُقْبَةَ بن الحجاج السَّلُولِيَّ (شوال ١١٦ - ١٢١ هـ) وأبي الخطَّار (رجب ١٢٨ - ١٢٥ هـ) كانت الأندلس تابعة لولاية الشمال الإفريقي^(٤) . وهكذا ترددت تبعية الأندلس بين الإشراف المباشر للخلافة عليها وبواسطة ولاية الشمال الإفريقي ، حسب حاجة الأندلس والأحوال في داخلها أو خارجها .

اقتضى أحياناً تعين سريع وعدم الانتظار ، فيتفق أهل الأندلس على أحدهم حتى يأتي غيره ويعيَّد الخليفة أو الوالي الإفريقي هذا . كما حدَّث : بعد مقتل عبد العزيز ابن موسى ، إذ عيَّنَ أهلُ الأندلس أَيْوبَ بن حبيب اللَّخْمِيَّ (رجب ٩٧ - ذو الحجة ٩٧ هـ)^(٥) . كلما عند استشهاد السَّمْخَنَ (ذو الحجة ١٠٢ هـ) ، حيث اتفق على تعين الغافقي (ولاته الأولى^(٦)) ، وولاية يحيى ، وحُذَيْفَة^(٧) ، وعُقْبَة^(٨) . وفي هذه الحال يُكتب به إلى والي الشمال الإفريقي^(٩) ، لإقراره أو تعين غيره . كانت الأندلس - أكثر مدة الولاية - تابعة لولاية إفريقية . وانخذلت إِشْبِيلِيَّة في بداية هذا العهد قاعدة ، ثم انتقلت إلى قُرْطُبَة .

واجهت عصرَ الولاية - تِلْوَ الفتح - مُهماتٌ ضخمة ، ويجانب إتمام الفتح

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٦/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٧/٢ .

(٤) المصدر السابق ، ٢٩/٢ ، ٣٤ ؛ العبر ، ٢٥٧/٤ (= نفح ، ١/٢٣٥) .

(٥) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٦) المصدر السابق ، ٢٦/٢ .

(٧) المصدر السابق ، ٢٧/٢ .

(٨) المصدر السابق ، ٢٩/٢ .

(٩) أخبار مجموعة ، ٢٥ .

وأقراره مواكبةً للتبدل الذي طرأ على الأندلس بانتشار الإسلام فيه . فعل الولاة وبقية المسؤولين وعموم المسلمين خدمةً هذا المهد الأصيل في داخل الأندلس أولاً، وتهيئةً متطلباته بين الناس وفي الحياة من تعديل وتنظيم . نعرف ما جرى من تبدل وتقديره حينما نظر مقتضيات تبدل جانبي في ناحية مّا في العصر الحاضر ، فكيف إذا كان التبدل أساسياً وينص كيان الإنسان ؟

لا تقدم المصادر المتوفرة معلومات كافية عن ذلك كله . اضططع ولادة الأندلس بواجب آخر ، هو الاستمرار على رعاية المد الإسلامي والسير به عبر جبال البرت (وراءها) ، مجاهدين . إستشهاد العديد منهم هناك لإعلاء كلمة الله تعالى .

لهذا السبب – ولغيره – ما كان يطول حكم الوالي الأندلسي ، فأورث ذلك بعض الارتباك^(١) . ومعه فقد تمعن الأندلس بسنوات من الاستقرار ، مملوءة بالإنجازات . في حين وُجِدت سنوات غيرها افتقد فيها قدر من الاستقرار المنشود . قام – لوقت – نزاع بين بعض القبائل أو الجماعات ، حينما كانت سلطة قبَيلية لز عامة ذي عروق جاهلية . أثارت هذه الترعة أحياناً للاتكاء عليها في سلطانها . ﴿ * وأطیعوا الله ورسوله ولا تنزعوا فتفشلوا وتذهب ریحکم واصلبوا إن الله مع الصابرين * ﴾^(٢) . لكن هذا النزاع كان يزول بسرعة حين تذهب تلك الظروف .

حدث نزاع خلال ولاية عبد الملك بن قطّن الثانية (صفر ١٢٣ – ذو القعدة ١٢٣ هـ) وبَلْج بن بِشْر^(٣) (ذو القعدة ١٢٣ – شوال ١٢٤ هـ) اللذين قدّما بعصبة من خارج الأندلس ، حين كانت الدولة الأموية – في أواخر أيامها – يهتر سلطانها . وتولى كِبَر هذا الأمر أبو الحَطَّار والصَّمَيْل^(٤) .

كان لهذه التراعات أثر على حال الأندلس وعلى جهادها وراء البرت . وإذا كان لاستدعاء موسى وطارق والجندي وإيقاف الفتح أثر في عدم إتمامه وتبنته في الجزيرة

(١) انظر : العبر ، ابن خلدون ، ٤ / ٢٥٦ ؛ نفح ، ١ / ٢١٢ – ٢١٣ ؛ الحلل السنديّة ، ١ / ٢٤٦ .

(٢) الآية ٢٦ من سورة الأنفال .

(٣) انظر : البيان المغرب ، ٢ / ٣٠ – ٣٢ ؛ نفح الطيب ، ٣ / ٢٠ – ٢٢ .

(٤) البيان المغرب ، ٢ / ٢٢ – ٢٤ ؛ نفح الطيب ، ٣ / ٢٢ – ٢٦ .

الأندلسية ؛ فإن أثر هذه التزاعات بدا على استمرار المدى خلف البرُّت ، وهو ذو أثر على حال الجزيرة^(١) . لعل بعد الأندلس عن مركز الحلافة صلةً بذلك . فكان مهماً جعلها تحت إشراف الشمال الإفريقي .

عدا ذلك ، فقد سارت الأمور – عموماً – في طريقها . عند زوال هذه الحال تعود روح الجهاد وترتفع قوة المد الإسلامي ويزداد الوضع ازدهاراً^(٢) .

لم يتوقف الجهاد في الجزيرة الأندلسية لإتمام ما كان على موسى إتمامه . وبذل ذلك الولاة – لاسيما عبد العزيز – جهوداً واضحة . ثم ساروا بالمد إلى ما وراء البرُّت . انتقال ميدان الجهاد إلى الأرض الكبيرة – على سبيل الفتح الثابت والمستقر – يشير إلى منهج مرسوم ، وهي هناك خطوة جهادية أخرى جديدة .

بفضل الجهد الأصيل والسياسة الحكيمة استمر حال الجزيرة بالتحسن ، الذي تلا فتحها . دخل أهل البلاد في الإسلام ، بعد أن احتكروا بال المسلمين في مجال يظهر ، ولا يبقى منه كامن . لكننا فقراء إلى معلومات وصفية واضحة وإلى معرفة مقدار مساعدة مسلمي الجزيرة في هذا الجهاد . وإن كان يُفهم ضمناً وما سبق من تاريخ الفتح لمناطق أخرى سبقت أو لحقت .

دام جهاد المسلمين وراء البرُّت باهراً خلال الثلاثين الأولين من هذا العهد . شارك فيه عدد من الولاة ، لاسيما السَّمْخ بن مالك الْخَوْلَانِي (١٠٢ هـ) وعنْبَسَة بن سُحَيْم الكلبي (١٠٧ هـ) والغافقي في ولايته الثانية (١١٤ هـ) وعُقْبَة بن الحَجَاج السَّلَوْلِي (١٢١ هـ) . استشهد هؤلاء الأربعه مجاهدين خلف البرُّت . والظاهر أن السَّمْخ أول من بدأ بهذا الجهاد ، ولا بد أنه فعل ذلك بعد مشاورات الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهذا أمر لأنملك عنه خبراً ولا إشارة .

معقول أن تكون ولادة الأندلس – طول العهد – على صلة تلك المناطق ، حتى حين يتوقف الجهاد هناك . إذ أنه توفر للمسلمين فيها استقرار ما . بل وأقاموا هناك سلطة أو حكومة في ولادة سِبْتَمَانِيَّة ، كانت أرْبُونَة مركزاً أو قاعدة . تركوا

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

هناك حاميات لاخلو من نشاط خارج سَبْتَمَائِيَّة . وغير بعيد أن يكون قد أسلم الكثير من أهل تلك البلاد . لكن ذَهَابَ سلطان المسلمين عنها أوقف امتداده والإبقاء عليه بسهولة ، خلال الزمن . وهو أمر حدث كذلك في شمالي إسبانيا وفي الأندلس كافة ، بعد إزالة سلطان المسلمين السياسي بسقوط غرَنَاطَة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . تلاه العملُ على إزالة وجودهم البشري ومحاربة العقيدة الإسلامية بكل وسيلة ، لايؤبه لنوعها وحِدَّتها وكذا القضاء على ما تبقى بعد ذلك من الفكر الإسلامي— متمثلاً بشكل قوي في مؤلفاتهم — وإزالة عمرانهم ، مُعْبِراً في آثارهم . لكن ، أَلَّمْ يكن التأكيد من فتح الأندلس وإزالة جيوب القوط في شمالي الجزيرة أولى من توجيه المد خلف البرُّوت ، جيوب كانت نواة دوبيالت ثم دولة إسبانيا ؟

أم أن هذه كانت بسبب عوامل داخلية للأندلس وخارجية ، كان منها انقطاع الأندلس سياسياً عن بقية العالم الإسلامي ، فحرمه ذلك المد الدائم وصَدَعَ درعه الواقي^(١) ؟ وقد استشارت عزلةُ الأندلس وإحاطتها بالعدو تعجبَ الفُزُونِي^(٢) ٦٠٠ — ٦٨٢ هـ في آثارَ الْبَلَادِ وآخْبَارِ الْعِبَادِ — أو مَنْ نَقْلَ عَنْهُمْ — حول بقاء «المملكة الإسلامية بالأندلس مع إحاطة الفرنج من جميع الجوانب والبحر بينهما وبين المدن المسلمين»^(٣) . فالانقطاع عن العالم الإسلامي يقلل المد ويدع البلد وحده محاطاً بمن يكون من الأعداء حوله .

مع أن العالم الإسلامي — مُسْتَلِّاً في دولة القرية ، التي شابت حاله أحياناً — لم يدخل بشيءٍ لحماية الأندلس ، ذهبت هي الأخرى قبل ذَهَابِه . فكانت له نُذُراًً وكان هو بعدها يتيمًا حسيراً ، تخوف أو قرأ نهايته بعضُ رجاله^(٤) ، لما رأوا من حاله . عملت تلك الدوبيالت والدولة على حرب المسلمين بروح صليبية حادةً وفتك

(١) انظر : الحلول السنوية ، ٢٤٦/١ (حاشية) .

(٢) آثارَ الْبَلَادِ ، ٥٠٣ . كذلك : جغرافية الأندلس ، ١٣٠ (=الروض ، ٣) ؛ فتح ، ١٤٥/١ ؛ البيان ، ٢٦/٢ ؛ كتاب المغرافية ، الزهري ، ٢٢٦ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ٣٩ ؛ فتح ، ٤٣/٣ ؛ رحلة الأندلس ، مؤنس ، ٣١٤ .

(٣) انظر مثلاً : فتح ، ١٥/٣ ، ٤٥٢/٤ (نقلًا عن ابن حيان ، مختصرًا) ، ٢٠/٦ ، ٢٢ ، ١٦٦ = أزهارَ الرياض ، المقربي ، ٦٥/١ — ٦٦ . نقلًا عن : روضة التعريف بالحسب الشريف ، ابن الخطيب ، ٧٠٩/٢) . كذلك : لسان الدين ابن الخطيب ، محمد بن عبد الله عنان ، ١٨٨ — ١٨٩ .

فيها كل أوربا ، وخلت من الوفاء بجزء يسير لحسن المعاملة والخير العظيم الذي أصابها على الدوام . مما يُشكّل « الحروب الصليبية في الغرب » . وهو موضوع يستحق الاهتمام والدرس .

كان عهد الولاية غنياً بالجهود لإقرار الحال بعد تبدلاتها واستتاب الأمور . إذ تم تعديلها ، مع الإستمرار بالفتح في الجزيرة وما وراء البر . بجانب ذلك تمت الإصلاحات الضرورية والتنظيمات ومراقبة التبدل الاجتماعي وما أنجذب في جوانب الحياة ، بدخول الناس في الإسلام وما ترتب عليه .

كان العهد بدايةً لنشأة العلوم الجديدة المتنوعة التي نضحت ثمارها على مراحل . فوجِد في العهد إنتاج وأعلام في أكثر من ميدان ، وفي ميدان تكريم الإنسان واعتلاء مكانه ، أو قُول فصول ولادته وحقيقة وجوده .

وسيتبين هنا الكلام عن عدد من الموضوعات التي تختص بهذا العهد ، بعد أن أشير إليها وألقي ضوءاً عليها .

أولاً : الاستقرار وتنظيم البلاد وإصلاحها

قبل أن يغادر موسى الأندلس (مع طارق) عيَّن ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وانتخذت إشبيلية عاصمة ، وبقيت كذلك حوالي ثلث سنوات حتى انتقلت إلى قرطبة في ولاية أيوب بن حبيب اللخمي (رجب ٩٧ - ذو الحجة ٩٧ هـ ، بعد عبد العزيز بن موسى) ، أو في ولاية الحر التقفي (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠ هـ) بعد أيوب^(١) . أو يكون ابتداء انتقال العاصمة إلى قرطبة في ولاية أيوب ، فأكده وأنهى الحر .

بقيت الأندلس بعض سنوات يجري فيها التنظيم وإقرار الأوضاع وتنسيق الأمور بإشراف الشمال الإفريقي . ثم أصبحت ولاية مستقلة خاضعة للخلافة ، وإن لم تستمر ،

(١) راجع : نفح الطيب ، ٢٧٦/١ ، ١٤/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ١٩ ؛ فجر الأندلس ، ١٣٣ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٧٣/١ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، السيد عبد العزيز سالم ، ٣٠/١ .

كذلك . وكان أول وال عيته الحلافة : السَّمْحُونِي بْنُ مَالِكٍ الْخَوَلَانِي فِي رَمَضَانَ سَنَةٍ ١٠٠ هـ (نisan ٧١٩ م) ، وقد أقامه الخليفة عمر بن عبد العزيز . لكن تنظيمات الأندلس وسلطاته الأخرى عادت – أحياناً – تابعة للشمال الإفريقي .

هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأندلس بعد فتحها . وكان أكثرهم – كما يظهر – من مسلمي البربر ، واستقروا في كل ناحية . وليس صحيحاً من أن المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحي^(١) .

لعل سُكُنَتِي بعضِ النواحي الجبلية مِن قِبَلِ مجموعاتِ مِن مسلمي البربر قد تمَّ بناءً على رغبتهِم ، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليه في الشمال الإفريقي ، حيث بعض مناطقهم جبلية مرتفعة مَعْرُوفَة ، على الشاطئين الشمالي (البحر المتوسط) والغربي (المحيط الأطلسي) . ولدينا عدَّة نصوص تؤيد هذه الوجهة :

إن نواحي سهلة خصبة عديدة – بعضها غير جبلية – سكنها مسلمون من البربر^(٢) ، مع غيرهم من المسلمين . مثلًاً :

* كُورَة فَحَصْ البَلُوط (Valle de Pedroches) الواقع شمال قُرْطُبَة ، « فَحَصْ البَلُوط كُورَة خصبة واسعة ومدينتها غَافِق »^(٣) .

* كُورَة السَّهْلَة^(٤) – « وَحَضَرَتُهَا مَدِينَةُ شَنْتَمَرِيَّة »^(٥) – التي كان بنو رَزِين (Albarracin) مِن سكانها^(٦) ، وحكموها أيام الطوائف^(٧) ، وتُعرف بشَنْتَمَرِيَّةِ الشَّرْقِ (Santa Maria de Albarracín) أو سَهْلَةِ بْنِ رَزِين^(٨) . وهي

(١) انظر : فجر الأندلس ، ١٢٨ ، ٣٨٨ .

(٢) انظر : جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلس ، ٤٩٩ – ٥٠٢ .

(٣) المسالك والمالك ، الأصطاخرى ، ٣٦ .

(٤) انظر : نفح الطيب ، ١٦٦/١ .

(٥) المغرب في حل المغارب ، ابن سعيد الأندلسي ، ٤٢٧/٢ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ، ٤٩٩ – ٥٠٠ .

(٧) دول الطوائف ، عنان ، ٢٥٣ وبعدها .

(٨) الحلقة السيراء ، ١٠٩/٢ ؛ الحلقة السنديمة ، ١٠٠/٢ ، ٥٥٣/٣ . كذلك : تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مؤنس ، ١٠٤ .

« مُوَسَّطَةٌ مَا بَيْنَ الشَّغْرِ الْأَقْصَى وَالْأَدْنِي مِنْ قُرْطُبَةِ . . . وَلَيْسَ فِي بَلْدَ الشَّغْرِ أَخْصَبُ بَقْعَةً مِنْ سَهْلَتِهِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى بَنِي رَزِّينَ سَلْفَهُ فِي اتِّصَالِ عَمَارَتِهِ »^(١) .

* « وَأَمَّا نَفْرَةٌ وَمِكَانَسَةٌ مِنْهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ بَيْنَ الْجَلَالِقَةِ وَبَيْنَ مَدِينَةِ قُرْطُبَةِ، وَأَمَّا هَوَارَةٌ وَمَدْيُونَةٌ فَهُمْ سَكَانُ شَنْتَمَرِيَّةَ »^(٢) . وَهِيَ قَبَائِلُ بَرْبِرِيَّةٍ مِنَ الْبَسْطَرِ^(٣) .

* يَنْقُلُ ابن حَيَّانَ عَنِ الرَّازِيِّ أَنَّهُ « كَانَتْ خِطَّةً مُنْبَثِتَةً لِرُصَافَةِ هَذِهِ لَرَزِّينِ الْبُرْنُسِيِّ أَحَدُ أَكَابِرِ رِجَالِ الْبَرْبَرِ الدَّاخِلِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي جَيْشِ طَارِقَ ، وَكَانَ لَهُ تَقْدِيمٌ فِي الْجَيْشِ ، وَإِلَيْهِ يُنْسَبُ الْبَلَاطُ الَّذِي بِهَا وَالْزَّيْتُونُ الَّذِي يَأْتِيُهَا ، فَكَانَ الْمُخْتَطِ لِرُصَافَةِ . وَلَرَزِّينَ هَذَا آثارٌ كَثِيرَةٌ بِقُرْطُبَةِ وَغَيْرِهَا ، مِنْهَا الْمَسْجِدُ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِ بِالرَّبَّضِ الْغَرْبِيِّ ، وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ أَيْضًا الْحِنَانُ الَّتِي تَجَاوِرُ عَيْنَ قُبْشَ بِذَلِكِ الرَّبَّضِ . وَانْتَقَلَتْ الرُّصَافَةُ عَنْ وَرَثَتِهَا ، فَاشْتَرَاهَا الْأَمِيرُ الدَّاخِلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعَاوِيَةَ »^(٤) . يَضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ حَتَّى شَمَالِيَّ الْجَزِيرَةِ يَتَمْتَعُ بِالْخُصُوصَيَّةِ الْوَفِيرَةِ وَإِمْكَانِيَّةِ الْإِنْتَاجِ وَ« أَنَّ الرَّبِيعَ الشَّمَالِيَّ الْغَرْبِيَّ مِنْ شَبَهِ الْجَزِيرَةِ أَغْنِيَ نَوَاحِيهَا جَمِيعًا وَأَوْفَرَهَا خَيْرَاتِ »^(٥) . هَذَا حَالُهُ حَاضِرًا ، وَكَانَتْ إِمْكَانِيَّتِهِ كَذَلِكَ مَاضِيًّا .

إِنَّ سُكُنَّيَّ مَنْ بَقَى فِي الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْفَاتِحِينَ كَانَتْ حَسْبَ الْمَكَانِ الَّذِي يَنْسَبُهُمْ، سَوَاءً فِي ذَلِكَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ : الْبَرْبَرُ أَوُ الْعَرَبُ ، سَكَنُوا سُوَيْدَةً أَوْ مَنْفَرَ دِينِ . فَالْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ سُمُّوا بِالْبَلْدَيْنِ « لِيَمَارُ أَوْ بِلَادَ شِبَّهِ بِلَادِهِمْ خَصْبًا وَتَوْسِعَتْ سَكَنُوا وَاغْتَبَطُوا وَتَمْلَوْا »^(٦) . كَانَ الْجَيْشُ الْمُسْلِمُ الْفَاتِحُ الْقَادِمُ مَعَ مُوسَى وَطَارِقَ – الَّذِينَ سَارَا بِالْجَيْشِ سُوَيْدَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ، لَا سُكُونَ عَمَلِيَّاتِ الْفَتْحِ – فِيهِ الْمُسْلِمُونَ : الْبَرْبَرُ وَالْعَرَبُ . سَكَنَ مَنْ أَرَادَ الْبَقَاءَ مِنْهُمْ فِي مَنَاطِقِ تَنَاسُبِهِمْ . إِذَا حَيَّنَ اسْتَدْعَى مُوسَى لِلْعُودَةِ – هُوَ وَطَارِقُ ،

(١) الْبَيَانُ الْمُغْرِبُ ، ٢٢/٢ - ١٨٢ / ٣ - ١٨١ . كَذَلِكَ : الْحَلَةُ السِّيَارَاءُ ، ٢/١٠٨ .

(٢) الْمَسَالِكُ وَالْمَالَكُ ، ٣٦ .

(٣) الْمَصْدِرُ السَّابِقُ .

(٤) الْمَقْبِسُ ، ٢٤٢/٢ . قَارَنُ : نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١/٤٦٦ - ٤٦٨ .

(٥) رَحْلَةُ الْأَنْدَلُسِ ، ٣١٤ .

(٦) الْحَلَةُ ، ٢/٦٣ (نَقْلًا عَنِ ابن حَيَّانِ) . كَذَلِكَ : ١/٦١ ؛ الْأَحْاطَةُ ، ١/١٠٣ ؛ الْبَيَانُ ، ٢/٣٢ ؛ نَفْحُ ، ١/٢٨٠ .

وجيشهما الإسلامي مكون من العرب والبربر – إلى المشرق « وسكنت العرب المقاوز ، وكان العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بوضع استحسنوه حَطُوا به ، ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخذل الشرك ، ... ، ووافاه طارق في الطريق منتصراً من التغر الأعلى ، فأفقله مع نفسه ومَضِيَّا جمِيعاً ومعهما من الناس من اختيار القفول ، وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها »^(١) . كما كان اختيار سكنى الأندلس متروكاً لمن يريد ، فأقام بها « من أراد سكناها »^(٢) .

هذا بيان على أن الأمور سارت حسب الرغبة التي كان لنوع الحياة السابقة ، وطبيعة الأرض المعادة لهم . كانت الأرض الجبلية تناسب البربر ، فاختارها منهم من أراد « إذ كان البربر يرغبون عن سكنى المدن والقرى ، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحراء »^(٣) . زيادة على أن بعض المسلمين العرب سكنوا الجبال وبعض المسلمين البربر سكنوا السهول ، وقد سكن المسلمون – عرباً وبربرأً – سوية بأي نسبة ، فهم إخوة في الله تعالى ، ألف بينهم – سبحانه – بهذا الدين .

* * *

كان عبد العزيز بن موسى رجلاً تقياً قوياً وحريصاً ، مع نشاط وإقدام ، كما كان إدارياً وعسكرياً ماهراً ، زيادة إلى حبه للإصلاح وتلهيفه عليه ، بدأ ينظم أحوال البلاد ويتم عمليات الفتح ، وقضى على كثير من الجحود المتبقية فأخضعها .

أثبت المصادر العديدة عليه . يذكر المقرئي – لعله نقلًا عن الرازي^(٤) – أن عبد العزيز « ضبط سلطانها ، وضمَّ نَشَرَها ، وسدَّ ثُغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقي على أبيه موسى منها ، وكان من خير الولاية ، إلا أن مُدْتَه لم تَطُلُ »^(٥) . كما نشط في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ،

(١) نفح ، ١/٢٧٦ ، ٢٨٠ ؛ الاحتابة ، ١٠٣/١ . قارن : العبر ، ٤/٢٥٩ ؛ نفح ، ١/٢٩٠-٢٩٨ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٣/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٧/٢ . (٤) المصدر السابق ، ٢٤/٢ .

(٥) نفح العليب ، ٢٨١/١ . ضمَّ نَشَرَها : لم يُشرِّعْها . كذلك : البيان ، ٢٤/٢ . كان من عَقِيبَةِ قرطبة : الفقيه أبو بكر محمد (٣٩٠ هـ) . الصلة ، ٤٩٩ (رقم : ١٠٨٣) .

وكذلك وعمل الحر الشفقي^(١).

اتبع الفاتحون السياسة الحكيمة المتسمة بالرفق والاعتدال والوفاء بالعهود والالتزام بها في كل الظروف^(٢). ومن المعاهدات التي حفظتها مصادرنا جزء من مصالحة موسى مع أهل مارِدَة^(٣)؛ والنص الكامل لمعاهدة كانت بين عبد العزيز وبين تُدْمِير ، حاكم الإقليم المسمى بنفس الاسم (Tudmir) ، الذي عُرِفَ فيما بعد باسم مُرسِيَّة Murcia^(٤). وقد مر نص هذه الوثيقة السياسية المهمة^(٥).

تولى حكم الأندلس – بعد مقتل عبد العزيز بن موسى – واليان ، ثم أقام الخليفة عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩ – رجب ١٠١ هـ) عليها السَّمْحُ بن مالك الحوَلَاني (رمضان ١٠٠ – ذو الحجة ١٠٢ هـ) . وبه تبدأ مرحلة أخرى متممة ، ليس فيما يتعلق بنشاط المسلمين بالفتحات وراء جبال البرْت ، بل أيضاً بتنظيم بلد الأندلس وإقرار الأوضاع فيها والقيام بإصلاحات . وأصبحت الأندلس به ولاية مستقلة عن الشمال الإفريقي ، خاضعة إلى الخلافة رأساً.

يدرك مؤرخونا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز فكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين عنها « وكان من رأيه أن ينْقُلَ المسلمين عنها لانقطاعهم وبُعْدِهم عن أهل كلمتهم »^(٦) . وطلب من السمح أن « يكتب إليه بصفتها وأنهارها وبخارها »^(٧) . فكتب إليه السمح « يُعرَفُه بقوَّةِ الإِسْلَامِ وكثرةِ مدائِنِهِ وشَرْفِ مَعَاوِلِهِ »^(٨) . فعَدَّلَ عمر بن عبد العزيز عن رأيه وأقرَّ السَّمْحَ على ولايته^(٩).

تابع الولاية على الأندلس بعد استشهاد السَّمْح . كان تنظيم البلاد وإصلاحها

(١) دولة الإسلام ، ٧١/١ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٧٧ – ٨٢ . كذلك : أندلسياً ، ١٩/٢ .

(٣) أعلاه ، ٧٧ .

(٤) أعلاه ، ٨٠ – ٨١ .

(٥) نفح الطيب ، ١٥/٣ . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٦) نفس المصادر . كذلك : فجر الأندلس ، ١٣٧ ، ٦٠٥ .

(٧) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٩ .

(٨) راجع : البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

وإدارتها ووضع التشريعات للبلد – حسب الشريعة الإسلامية – هو عمل هؤلاء الولاة ، وقاموا بجهود كبيرة للاستمرار بموجة المد الإسلامي فيما وراء البرُّت (الأرض الكبيرة) . وفي أحيان – بعد ذلك – عادت الأندلس لتبعيتها للشمال الإفريقي .

اهتم ولاة الأندلس بتنظيم البلاد وإدارتها وحسن السياسة للرعاية بكل جماعاتها والقيام بالإصلاحات الالزمة . وأمر عمر بن عبد العزيز السَّمْعُون بن مالك بأن « يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، . . . ، وامثل ما أمره به عمر (رضي الله عنه) من القيام بالحق ، واتباع العدل والصدق ، فانفرد السَّمْعُون بولايتها ، وعزها عمر عن ولاية إفريقية ، اعتناءً بأهلها ، وتهَمَّماً بشأنها . »^(١) تنوه مصادرنا – بعد ذلك – بسِير العديد من الولاة وتفانيهم في الجهاد ، من أمثال عبد الرحمن الغافقي وعُقبة بن الحجاج السُّلُوكي . جاء في نفح الطيب – عن الغافقي – أنه قد « استقامت به الأندلس ، وضبط أمرها »^(٢) .

وكان هناك تنظيم إداري خاص بال المسلمين وآخر لغير المسلمين ، وكلما تقدم الزمن كان الناس يدخلون في الإسلام أكثر . وبذلك يصبح غالبية سكان الأندلس يحكمون إلى الشريعة الإسلامية ، وأصبح غير المسلمين أقلية يحكمون إلى قضاهم . لقد ترك المسلمون للنصارى (وغيرهم) حق اختيار قضائهم ورؤسائهم . وليس هذا فيما يتعلق بالقضاء فقط ، بل كذلك فيما يتعلق بالجباية والأمن وتنظيم الحرف .

في حقل الزراعة ، مثلاً : ذهب ما كان من اعتبار الزارع ريق الأرض . وأصبح هؤلاء الزراع أحراراً ، لهم حقوقهم ، يزرعون الأرض مُلاًكاً لها^(٣) . عاش غير المسلمين أحراراً في عقائدهم ، وبقيت الكنيسة تملك بعض الأراضي . وكان النصارى أحراراً في عقد مجتمعهم ، وانخالط كثير من غير المسلمين (النصارى واليهود) بالمسلمين ، وتقبلوا لغتهم وكثيراً من عاداتهم .

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١٦/٣ .

(٣) راجع : البيان المغرب ، ٢٦/٢ ؛ العبر ، ٢٥٧/٤ ؛ نفح الطيب ، ٢٣٥/١ ، ١٥/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٣ - ٢٤ ؛ فجر الأندلس ، ٤٥٩ وبعدها .

أما التنظيم الإداري والمالي فقد تمعن الأندلس باستقرار ، ضعف أحياناً في عهد الولاية . وفي التنظيم الإداري استفادوا من التقسيم الإداري الذي كان موجوداً قبلهم . والاتجاه في التنظيم الإداري الإسلامي – ومنه الأندلس – « يميل نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال »^(١) . فاعتمدوا على الكُور (جمع كُورَة) ، يتبع كل كورة عدة مدن ، يتبع المدينة عدة أقاليم (قرى كبيرة) ثم أجزاء (مزارع أو أرياف)^(٢) . كما كانت في الأندلس مراحيض (موانئ) ، فقد يبدأ هذا في أول الأمر رباطاً بحرياً .

قامت بعض الأعمال العمرانية ، منها إنشاء المساجد في المناطق المختلفة – وهو أمر كان أول شيء ينجزه المسلمون حين يقيمون في مكان ما – وكذلك المدارس^(٣) في المساجد أو الربط أو غيرها من أماكن التعليم . وعرفت المساجد – في العالم الإسلامي ، دوماً – بأنها أيضاً معاهد للتدريس . والمسجد كذلك مركز المدينة المسلمة ، وقلبها النابض المجدّد .

أنشأ السُّمْحُ بن مالك الحولاني سنة ١٠١ هـ ، بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز^(٤) ، قنطرة قُرطبة العظيمة – فوق الوادي الكبير – على آثار القنطرة الرومانية المتدهمة . فقد كتب السُّمْحُ إلى الخليفة « عمر يستشيره ويُعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يُعبر على نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض ، الشتاء عامّة » . فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلي قوّة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجندي ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرف صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال – والله أعلم – إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر سور ، وأن يُبني السور باللبين إذ لا يجد له صخرآً فوضع يداً في القنطرة في سنة إحدى ومائة^(٥) .

(١) فجر الأندلس ، ٥٥٤ .

(٢) فجر الأندلس ، ٥٨٥ وبعدها .

(٣) انظر : تاريخ غزوات العرب ، ١٢١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ٢٤ .

(٥) أخبار مجموعة ، ٢٤ . راجع كذلك : الروض المطار ، ١٥٦ .

« والقسطرة التي على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبع عشرة قوساً ، وبانيها – على ما ذكره ابن حيّان وغيره – السمح بن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه »^(١) . وعنها يقول الإدريسي : « ولقرطبة القنطرة التي علّت القناطر فخرًا في بناها وإنقاضها ، وعدد قسبيها سبع عشرة قوساً بين القوس والقوس خمسون شبراً ، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبراً ، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبراً . ولها ستائر من كل جهة تستر القامة . وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء ثلاثون ذراعاً ، وإذا كان السيل يصل الماء منها إلى نحو حلوتها . وتحت القنطرة يعرض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعُمُد الحافية من الرخام . وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرجاء ، في كل بيت منها أربع مطاحن »^(٢) . وهذه القنطرة أهمية حيث تصل جنوب الأندلس بقرطبة والشمال الإفريقي^(٣) .

ثانياً : انتشار الإسلام واعتناق الإسبان له

لم يكن فتح المسلمين لشبه الجزيرة الأندلسية حدثاً عسكرياً وسياسياً فحسب ، بل – الأهم من ذلك – أنه كان فتحاً إنسانياً وبدايةً لحدث حضاري فريد لإسبانيا وأوروبا على السواء^(٤) .

قضى الإسلام في إسبانيا على الأوضاع السيئة التي سبق وصفها ، قبل الفتح . فلم تعد هنالك طبقة متحكمة ممثلة في الأسرة الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض أو العبيد (الرقيق) ، حيث تحرر كل من دخل منهم الإسلام ، وقد دخل أكثرهم – أو كثرة منهم – الإسلام .

(١) نفح الطيب ، ٤٨٠ / ١ . كذلك : نفح الطيب ، ١ / ٣٣٨ ، ٤٦٠ ، ١٥ / ٣٠ . البيان المغرب ، ٢ / ٢٦ .
العبر ، ٤ / ٢٥٧ (= نفح ، ١ / ٣٢٥) .

(٢) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢١٢ (= الحلل السندينة ، ١ / ١٤٤) .

(٣) راجع كذلك : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ٩٧ / ١ وبعدها ؛ فجر الأندلس ، ١٣٩ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٧٥ / ١ .

(٤) انظر : أندلسيات ، ١٥١ / ٢ .

كان هم الفاتحين دوماً العمل على انتشار الإسلام : هدف الفتح ، وهو له مدخل . عوَّدَنا الفاتحون وقادتهم - في المعلومات القليلة حول هذا الموضوع ، في الغرب الإسلامي - على العناية بإفهام الناس الإسلام وشرحه لهم وتوجيه الدعاة إليهم . فكان الناس يرون في الإسلام من صفاء العقيدة وخلوها لله تعالى والتشريع والقيم ما لم يسمعوا عنه أو يخلُّوا به - ولو نظرياً - فضلاً عن الصورة العملية وهو أمر أكثر ندرة بل وتفرداً .

غدت القيم والتعاليم الإسلامية - وهي تقوم على العقيدة والإيمان والالتزام ، وبذاتية ثابتة - في أخلاق الفاتحين والدعاة مثلاً متحركة تُشاهد عياناً ، في شكل خلاب ، يُسر الناظرين ، ويُدهشهم . فيدخلون في دين الله أفواجاً ، فذلك فتح العقيدة . وهو الذي كان يجري في المناطق التي فتحها المسلمون ، وتلك التي لم تصلها سرية جهاد أو تطا أرضها فرسُّ جِلَاد ، بل المتطوعون من الدعاة وتجار المسلمين ورجالاتهم^(١) . كل داخل في الإسلام يُصبح هو داعية له ، وذلك نابع من طبيعة الإسلام ومنطق قبوله ووظيفته ، حسب السعة والطاقة . قال - جلَّتْ قدرُه : ﴿وكذلك جعلناكُمْ أَمَّةً وَسَطَا ، لتكونوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢) . وقال : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣) ، وقال : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرِجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾^(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». «بلغوا عني ولو آية .»^(٥) ، «لَئِنْ يَهْدِي بَكُ اللهُ رُجْلًا وَاحِدًا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .»

(١) انظر : الإسلام في الشرق الأقصى ، قيسر أديب مخول ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٨ - ٢٥ ؛ المسلمين في الفلبين ، نفس المؤلف ، ١٢ .

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ٥٠٧/٨ .

(٦) جامع الأصول ، ١٩/٨ .

فالأمةُ الإسلامية هي أمة الإيمان الخَيْر الذي أنزله الله تعالى إلى كل الناس ، هدايةً ورحمةً ، وأبلغه إليهم رسُلُه (عليهم الصلاة والسلام) ، ودعاهم إليه الدعاة من الفاتحين والعلماء والصلحاء بقوتهم وفعلهم . فاستجاب له الذين قبلُوا الهوى وأراد الله سُبحانه - بهم خيراً . أصبحوا الله عبیداً ، فكانوا الأحرار الذين كسرروا كل قيدٍ والأبرار الذين تابوا على أي عبد ، الأقوباء بربهم العظماء بشرعه . ساروا إلى الله ، يعتزون بالانتساب لدينه ، يجدون لرضاه ويدعون لهداه - عقيدة وعبادة وشريعة - ويرفضون ما سواه . ففتحوا الأمصار ، وعمروا الديار ، ساجدين لله الواحد القهار .

نواجه - في تدوين تاريخ الغرب الإسلامي - فقرأً في العلومات والدراسات عن هذا الموضوع المهم الخصيـب . لدينا نُسـفٌ وأخبار مـتناثرة ، بالإمكان - بعد المتابعة والجمع - أن ترسـم صورةً لا بأس بها ، مع الاستعـانة بالأمور الأخرى المتعلقة بأحداث الفتح الإسلامي وسياسـته وأحوال المجتمع المسلم وطبيعة العقـيدة الإسلامية وشـريعـتها . وذلك أمر سـارٍ في عمليـات الفتوح ، وهو بـحاجـة إلى دراسـة علمـية مجـتهـدة أمينة مستقلـة ، يكرـس لها الجـهد الكـافـي ، بـحثـاً وصـياغـة ، بـآمانـة وحيـدة .

ويـحدـدـ البـاحـثـ أـخـبـارـاً عنـ هـذـاـ الـأـمـرـ فيـ فـتـحـ الشـمـالـ الإـفـرـيـقيـ . حيثـ يـرـسـلـ الدـعـاةـ والـفـقـهـاءـ ، بـجـانـبـ الـجـيـشـ الـفـاتـحـ ؛ لـشـرـحـ الـإـسـلـامـ وـبـيـانـهـ . كانـ ذـلـكـ مـأـلـوفـاًـ حـتـىـ لـلـجـيـشـ الـمـسـلـمـ ذـاتـهـ ، وـقـدـ ضـمـمـتـ حـمـلـةـ طـارـقـ عـدـدـاًـ مـنـ الـجـنـدـ الـفـقـهـاءـ ، لـهـمـ مـهـمـةـ تـفـقـيـهـ الـجـنـدـ ، بـجـانـبـ الـوـاجـبـ الـعـسـكـرـيـ^(١) .

كان أول عمل يقوم به الفاتحون هو إقامة المسجد أو تجديده^(٢) : مركز نشاط المدينة المسلمة وقلبها النابض بأحلى حياة وأجملها وأحبها وأندتها . كما فعل عقبة بن نافع (٦٣ هـ) في ولايته لإفريقية حين أنشأ مدينة القيروان (٥٠ هـ)^(٣) وابنى

(١) انظر : أعلاه ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٧١ .

(٢) انظر أمثلة في : معلم الایمان في معرفة أهل القيروان ، الدباغ ، الدباغ ، ٢٧/١ ، ٣٣ ، ٢٢٣ ، ٢٦/١ ؛ رياض التفوس ، أبو بكر عبد الله المالكي ، ٢٦ ، ٣٧ .

(٣) رياض التفوس ، ٦/١ ، ٢١ ، ٦٢ .

مسجدَها الجامع^(١). أثناء بنائه القبر وان «أقبل يدعوه لها - هو وأصحابه - ويقولون في دعائهم : اللهم أملأها علمًا وفقها ، وعمّرها بالطائعين لك والعابدين ، واجعلها عزًا لدینك وذلاً لمن كفر بك ، وأعزّ بها الاسلام ، وأمنّها من جباررة الأرض»^(٢). فأنشأ مسجدَها أولًا «وكان أول شيء اخترط فيها الجامع»^(٣). ثم أقيمت المدينة ومعالمها وطرقها ومرافقها حوله ، فكان هو مركزها .

ذلك كله دليل الاهتمام بأمور الاسلام وإنشاء الحياة عليه ، والمسجد رمزه ، ومنارته نداء عليه ، وأنه قِوام وأساس وهدف .

كان أول شيء أقامه موسى بن نصير مسجد الرایات في الجزيرة الخضراء^(٤) ، لدى عبوره إلى الأندلس ، فاتحًا مجاهداً . ويشير الحميري إلى أول مسجد أسس في الأندلس «... في الشرق من مدينة الجزيرة مسجدًا يقال إنه من بناء صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [أو أحد التابعين^(٥)] ، ويُقال إنه أول مسجد بُني بالأندلس ، ويُعرف الموضع الذي هو فيه بقرطاجنة ، فإذا أقحط أهل الجزيرة استسقوا فيها ، فسقُوا بفضل الله تعالى ورحمته .»^(٦)

وأسس حنّش بن عبد الله الصناعي التبّاعي - بالتعاون مع غيره - مساجد مدن : البيرة^(٧) وقرطبة^(٨) وسرقسطة^(٩) ، وربما غيرها .

(١) معلم الایمان ، ١/٣٣ ، ١٦٦ ؛ رياض النفوس ، ١/٧ ؛ البيان المغرب ، ١/٢٠ .

(٢) معلم الایمان ، ١/٧ ؛ رياض النفوس ، ١/٦ ؛ البيان المغرب ، ١/٢٣ .

(٣) معلم الایمان ، ١/١٠ .

(٤) أعلاه ، ٧٣ .

(٥) زيادة أوردها العنري : نصوص عن الأندلس ، ١١٩ .

(٦) الروض المطار ، ٧٥ .

(٧) الا حاطة في أخبار عرنطة ، ١/٩٢ ؛ الروض المطار ، ٢٩ ؛ نفح ، ٣/٨ .

(٨) نفح ، ١/٥٦٢ ، ٣/٨ . كذلك : المقتبس (بيروت) ، ابن حيان ، ٢٤٣ ؛ نفح ، ١/٢٨٨ .

٣/٧ .

(٩) أعلاه ، ٩١ .

١ - ماقبل الأَنْدَلُس : المغرب

من المؤكد قيام الدعاة بواجبهم في الدعوة : بعملهم وسيرتهم ، أثناء الفتح أو بعده . وقد يكون هؤلاء من الفاتحين أصلاً . تلك سُنَّة جارية وهدف أصيل ، كرَّسَ الفاتحون له جهودهم وجهادهم ، وتولاها الولاية والقادرة مثلاً تولوا عمليات الفتح في الشمال الإفريقي ، وغيره طبعاً ، من قبل ومن بعد . هكذا فعل عُقبة وغيره في افتتاح الشمال الإفريقي مع سكانه البربر ، « وقد كان عُقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يُعلِّمُونهم القرآن والإسلام ، منهم : شاكر صاحب الرباط وغيره . »^(١)

ذكر محمدُ بن القاسم الأنصارِي السَّبَّيِي (بعد ٨٢٥ هـ) في كتابه اختصار الأخبار عمّا كان بشَغْرِ سَبَّةَ من سَنَّةِ الْآثار داعيَةً عَلَمَ أهلَ المَغْرِبَ القرآنَ الْكَرِيمَ . ويكتنِيه « أبا زُرْعَةَ » . ففي مقبرة التوتة ، شرقَيْ مَدِينَةِ سَبَّةَ « قَبْرُ الولي أبي زُرْعَةَ مَزَارٌ مشهورٌ ، حَكَى الشَّيخُ الصَّالِحُ الْمُحَدِّثُ الرَّاوِيَةُ أَبُو العَبَاسِ الْعَزِيفِ عن شِيخِه الشَّيخِ الْإِمَامِ الْمُحَدِّثِ الْأَشْهَرِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبِيدِ اللَّهِ الْحَجَرِيِّ أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ الْقُرْآنَ إِلَى الْمَغْرِبِ »^(٢) . وهذا يعني أنَّ أَبَا زُرْعَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِيَّنَ جَدًّا ، ولعله من مسلمي البربر .

ويذكر ابنُ الخطيب (٧٧٦ هـ) في القسم المغربي من كتابه أعمالُ الْأَعْلَامِ أنَّ « صالحَ بنَ منصورَ الْحِمِيرِيَّ - مِنْ أَهْلِ الْيَمِنِ - تَوَجَّهَ إِلَى الْمَغْرِبَ فِي الْفَتْحِ الْأُولَى الْكَائِنِ عَلَى يَدِ عُقْبَةَ الْمُسْتَجَابِ ، فَتَرَلَ بِمَرْسَيِ تَسَامَانَ وَيُعْرَفُ بِمَرْسَيِ الْبَقْرِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَكُورِ عَشْرَوْنَ مِيلًا » ، وأَسْلَمَ عَلَيْهِ بِرْبُرَ تَلِكَ الْجَهَاتِ ، وَبَقِيَّ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ فَدُفِنَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، وَقَبْرُهُ هُنَاكَ مَعْرُوفٌ بِقَبْرِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ »^(٣) . في حين وردَ في كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار مؤلفٌ مجهولٌ (ق ٦ هـ) ذِكْرُ هَذَا الدَّاعِيَةِ الْمُبَكِّرِ حِينَ الْحَدِيثِ عَنْ مَدِينَةِ نَكُورِ الْمَغْرِبِيَّةِ حِيثُ اعْتَبَرَ حَفِيدَ

(١) البيان المغربي ، ٤٢ / ١.

(٢) اختصار الأخبار ، ١٥.

(٣) أعمالُ الْأَعْلَامِ ، ٣ / ١٧١-١٧٢ (طبع هذا القسم بعنوان : المغرب العربي في العصر الوسيط) . كذلك : العبر ، ٤٣٩ / ٦ ؛ البيان المغربي ، ١٧٦ / ١ .

المذكور هو العبد الصالح « فتحها سعيد بن إدريس بن صالح الحميري ، وهو المعروف بالعبد الصالح ، في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان . وكان دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول قبل موسى بن نصیر ، وعلى يديه أسلم البربر المجاورين لهذه المدينة وهم صنْهاجة وغِمارة . »^(١) ولعل وصف الاستبصار هنا أيضاً خاص بصالح . وإن جهاد هؤلاء وغيرهم ناطق بلغة وبين مشهور في كتب التراجم ذات القوائم الطويلة .

مثل ذلك فعل موسى بن نصیر في المغرب والأندلس « حيث أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين . »^(٢) ولا ينفرد ابن عذاري في ذلك بل يشاركه آخرون بتفصيل أكثر ، منهم المقرّي الذي يذكر أن موسى وَلَئِن طارقاً طنجة وأعمالها « وترك عنده تسعه عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة . وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلفاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام »^(٣) . وهذه الإشارات مما يخص الشمال الإفريقي .

يذكر ابن عذاري عن هذا الأمر خبراً آخر لا يتضح تماماً إن كان في الأندلس أو في المغرب إذ يقول : « ترك موسى بن نصیر سبعة عشر رجلاً من العرب يعلّموهم القرآن وشرائع الإسلام . »^(٤) والظاهر أن ابن نصیر ترك هذا العدد من المسلمين الأوائل يفّقهون إخوانهم من مسلمي البربر الداخلين إلى الأندلس ، ولعل هذا العدد « سبعة عشر رجلاً » هم كل أو بعض مسلمي العرب الداخلين مع جيش طارق في حملته إلى الأندلس سنة ٩٢ هـ^(٥) .

ذكر عدد من مؤرخينا أنه منذ وصول المسلمين إلى إفريقيا وشمالها دخل إليها

(١) الاستبصار ، ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ، ٤٢/١ . كذلك : أعلاه ، ٤٣ .

(٣) نفح الطيب ٢٣٩/١ . كذلك : وفيات الأعيان ، ٣٢٠/٥ ؛ العبر ، ٢٢٠/٦ ؛ الحلل السنديمة في الأخبار التونسية ، الوزير السراج ، ٥٦٦/٣/١ .

(٤) البيان المغرب ، ٤٢ . انظر كذلك : دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٥/١ .

(٥) أعلاه ، ٥١ — ٥٢ .

مئات الصحابة الكرام والتابعين ، ومن كبارهم . وتولى بعضهم قيادة فتح الشمال الإفريقي أو ولايته ، واستقروا فيها أو رحلوا عنها^(١) إلى المشرق أو الأندلس ، فيما بعد . وقد دخل مع عقبة بن نافع العشرات منهم . فذكر أن عدد من « كان معه في عسكره خمسة وعشرون من الصحابة »^(٢) في ولايته الأولى ، وكثرة منهم ومن التابعين في ولايته الثانية . وهذا يعني أن قدرًا كبيراً من مسلمي البربر كان من التابعين وتابعهم بإحسان ، بعضهم من كان في فتح الأندلس .

كل هؤلاء - وغيرهم - كانوا دعاة ، بل الجيوش الإسلامية كل أفراده كانوا دعاة لأنهم جيش عقيدة . فكلهم يفقه دينه ، وأول وآخر أمر يهمه هو خدمة الإسلام ونشره ، وكلهم كانوا يشرحون الإسلام بأقوالهم وأفعالهم . إن وجود هذه الكثرة من الصحابة - كبارهم وصغارهم - ثم التابعين ، ليدل على مدى الاهتمام بالإسلام ونشره والجهاد بكل طريق في سبيله . يتضح ذلك بشكل جلي حين الاطلاع على حياة هؤلاء وجهادهم وغرامهم بذلك ، إعلاة لكلمة الله تعالى . وإن أسبقيتهم ومكانتهم تستدعي تقددهم للعمل للتضحية ، قبل غيرهم . فلقد أورد المقرري في نفح الطيب (نقاً عن كتاب مفقود لحافظ ابن بشكوال ، ٤٩٤ - ٥٧٨ هـ) أن التابعي : المغيرة ابن أبي بُرْدَة نَسَيْطِ بْنِ كَنَانَةِ الْعُدْرِي « دخل الأندلس مع موسى بن نصيّر ، فكان موسى بن نصيّر يخْرِجُهُ على العساكر . »^(٣)

تذكر المصادر كذلك أن واحداً من صغار الصحابة دخل الأندلس ، هو : المُنْيَدِر الإفريقي الذي دخل الأندلس مع موسى بن نصيّر^(٤) . وكان حدث بإفريقيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ قَالَ : رَضِيتُ بِاللهِ رَبِّي ، وَبِالإِسْلَامِ دِينِي ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، فَأَنَا زَعِيمٌ لَهُ ، فَلَا تَخْدُنَّ بَيْدَهُ ، فَلَا دُخُلَنَّهُ الْجَنَّةَ ». »^(٥)

(١) معلم الایمان ، ٣٢/١ ، ٧٠ وبعدها ، ١٨٠ وبعدها .

(٢) معلم ، ٧/١ . كذلك : البيان المغرب ، ١/٢ . (٣) نفح الطيب ، ١٠/٣ .

(٤) التكملة ، ٢/٧٣١ (رقم: ١٨٤٧) ؛ نفح الطيب ، ٣/٥-٦ ؛ الروض المطار ، ٣ ؛ أعلاه ، ٧١ .

قارن : كتاب الجغرافية ، الزهراني ، ٢٢٦ .

(٥) نفح الطيب ، ١/٢٧٩ ، ٦/٣ .

وذكر أبو العرب القَيْرَوَانِي (٩٤٤ هـ = ٣٣٣ م) في طبقات علماء إفريقية وقُوْنُس : «أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يُفْقَهُونَ أهْلَ إفْرِيقِيَّة»^(١)، وعدَّهُ منْهُمْ تسعَةً . لكن عدَّاً من مراجعنا ذكرت عَشَرَتَهُمْ^(٢) ، وأن ثلاثة من هؤلاء دخلوا الأندلس ، اثنان مع موسى بن نُصَيْر ، هما : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعاوري الحبلي الأنصاري^(٣) وحِبَّان بن أبي جَبَّالَة^(٤) . وثالثهم أبو شُعَامَةَ بَكْرٌ بن سَوَادَةَ بن ثُمَامَةَ الْجُذَامِيَّ^(٥) ، دخلها فيما بعد . وهؤلاء التابعون العشرة أرسلهم عمر بن عبد العزيز سنة مئة للهجرة^(٦) إلى الشمال الإفريقي ، للدعوة إلى الإسلام وتعليم القرآن والتلقينه في الدين . وهم :

- ١ - إسماعيل بن عَبْيَدِ الْأَنْصَارِي (البحر، ١٠٧ هـ) يُعرف بـ «تاجر الله» ، بنى (٩١ هـ) المسجد الكبير بالقَيْرَوَان (مسجد الزيتونة حالياً) . وهو «من أهل الفضل والعبادة والنُّسُك ، كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه .»^(٧) أقام بالقَيْرَوَان حتى خرج للجهاد (متطوعاً) ، فركب البحر «ولم يزل مُقيماً بالقَيْرَوَان إلى أن حضرته نِيَّةً في الجهاد ، فخرج في مركب متطوعاً في غَزَّةِ عَطَاءِ بن رافع إلى صقلية فغَرِّقَ في البحر فمات وهو معاون للمُصْنَحَفَ ، وذلك سنة سبع ومئة . وإنما سُمِّيَ تاجر الله لأنَّه جعل ثلث كسبه لله عَزَّ وجلَّ يَصْرَفة في وجوه الخير»^(٨) .
- ٢ - أبو عبد الحميد : إسماعيل بن عَبْيَدِ الله بن أبي المهاجر المخزومي (القَيْرَوَان ، حوالي ١٣٢ هـ) «كان فقيهاً صالحًا فاضلاً زاهداً ... استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم [بكتاب الله عَزَّ وجلَّ] وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم [ويفقههم في الدين] [وهو أحد العشرة التابعين] سنة تسع وتسعين ، وقيل

(١) طبقات ، ٨٤ .

(٢) معلم الایمان ، ١٨٠/١ وبعدها ؛ رياض النقوس ، ٦٤/١ - ٧٦ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٩/٣ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٢١٢/١ (رقم : ٦٣٣) .

(٤) نفح الطيب ، ٧٢٨/١ ، ٩/٣ ؛ أعلاه ، ١٠٠ .

(٥) نفح الطيب ، ٥٦/٣ .

(٦) البيان المغرب ، ٤٨/١ .

(٧) معلم الایمان ، ١٩١/١ . كذلك : رياض النقوس ، ٦٩/١ .

(٨) معلم الایمان ، ١٩٢/١ . كذلك : رياض النقوس ، ٧٠/١ .

سنة مئة ، فسار فيهم بالحق [والعدل ، وعلمهم السنن] وأسلم على يديه عامة البربر ،
وكان حريصاً على إسلامهم . ^(١)

ذكر ابن عذاري في بيانه أنه : « في سنة مئة ، ولّي إسماعيل بن أبي المهاجر إفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . فكان خير أمير وخير والٍ . وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه ، في دولة عمر بن عبد العزيز . وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام . وبعث معه عمر - رضي الله عنه - عشرة من التابعين أهل علم وفضل » ^(٢) . وهذا يعني أن إسماعيل ليس من العشرة .

٣ - أبو ثُمَامَة : بَكْرٌ بْنُ سَوَادَةَ الْجُذَامِيِّ (١٢٨ هـ) . « جَدُّهُ صَحَابِيٌّ ، وَكَانَ بَكْرٌ هَذَا فَقِيهًا كَبِيرًا مِّنَ التَّابِعِينَ » ^(٣) . أَحَدُ الْمُتَّلِّثَةِ - مِنَ الْعَشْرَةِ التَّابِعِينَ - الَّذِينَ دَخَلُوا الْأَنْدَلُسَ فِي تَارِيخِ مَجْهُولٍ ، لَعَلَهُ بَعْدَ فَتْحِهَا ، وَاسْتُشْهِدَ فِيهَا « وَقِيلَ أَنَّهُ غَرِيقٌ فِي بَحَارِ الْأَنْدَلُسِ » ^(٤) .

٤ - أبو سعيد جعْثُلُونَ بن هَائِعَانَ بن عُمَيْرِ الرُّعَيْنِيِّ (١١٥ هـ) ، تولى قضاء جُند إفريقية . ^(٥)

٥ - أبو النصر : حِبَّانَ بن أَبِي جَبَلَةَ الْقُرَشِيِّ (الْقَيْرَوَانُ ، ١٢٥ هـ) ^(٦) . أَحَدُ الْمُتَّلِّثَةِ - مِنَ الْعَشْرَةِ التَّابِعِينَ - الدَّاخِلِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسَ مَعَ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ ^(٧) .

٦ - أبو مَسْعُودٍ : سَعْدُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّاجِيِّيِّ (الْقَيْرَوَانُ) « كَانَ رَجُلًا صَالِحًا عَالِمًا مَشْهُورًا بِالدِّينِ وَالْفَضْلِ ، قَلِيلُ الْهِبَةِ لِلْمُلُوكِ [فِي حَقِّ يَقُولُهُ] ، لَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا » ^(٨) .

(١) معلم الإيمان ، ١ / ٢٠٣ (ما بين الأقواس المعقولة من : رياض النفوس ، ١/٧٠ - ٧٦) .

(٢) البيان المغرب ، ٤٨/١ .

(٣) نفع الطيب ، ٣/٥٦ ؛ التكملة ، ٤/٢١٥ (رقم : ٥٧٣) .

(٤) رياض ، ١/٧٤ . قارن : معلم ، ١/٢١٣ ؛ جنة المقتبس ، ١/١٠٨ .

(٥) رياض النفوس ، ١/٧٥ ؛ معلم الإيمان ، ١/٢٠٢ .

(٦) رياض النفوس ، ١/٧٣ ؛ معلم الإيمان ، ١/٢٠٩ ؛ نفع الطيب ، ٣/٩ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١/١٢٣ (=أعلاه ، ١٠٠) .

(٨) معلم الإيمان ، ١/١٨٤ (ما بين الأقواس من : رياض النفوس ، ١/٦٦) .

- ٧ - طَلْقُونَ بْنُ حَبَّانَ (جَعْنَانَ) الْفَارَسِيُّ^(١) .
- ٨ - أَبُو الْجَهْمُ : عَبْدُ الرَّحْمَنَ بْنُ رَافِعٍ التَّنْوُخِيُّ (الْقَيْرَوَانُ ، ١١٣ هـ) « مِنْ فَضْلَاءِ التَّابِعِينَ ... سَكَنَ الْقَيْرَوَانَ [وَانْتَفَعَ بِهِ خَلْقًا كَثِيرًا] ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتُفْضِيَ بِهَا بَعْدَ بَنَائِهَا ، وَلَاَهُ مُوسَى بْنُ ذُصَيْرٍ سَنَةُ ثَمَانِينَ ، وَكَانَ عَدْلًاً فِي أَحْكَامِهِ ثَقَةً فِي نَفْسِهِ »^(٢) .
- ٩ - أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْمَعَافِرِيُّ الْإِفْرِيقِيُّ الْحُبْلِيُّ (الْقَيْرَوَانُ ، ١٠٠ هـ) ، « بَعْثَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يُفْقَهُ أَهْلَ إِفْرِيقِيَّةَ فِي الدِّينِ ، فَانْتَفَعُوا بِهِ وَبَثَّ فِيهَا عِلْمًا كَثِيرًا ، وَشَهَدَ فَتْحَ الْأَنْدَلُسَ مَعَ مُوسَى بْنِ ذُصَيْرٍ ، ثُمَّ سَكَنَ الْقَيْرَوَانَ وَاخْتَطَطَ بِهَا دَارًا وَمَسْجِدًا »^(٣) .
- ١٠ - مَوْهَبُ بْنُ حَبِّيِّ الْمَعَافِرِيِّ (الْقَيْرَوَانُ) ، « مِنْ فَضْلَاءِ التَّابِعِينَ ، سَكَنَ الْقَيْرَوَانَ ، وَبَثَّ بِهَا عِلْمًا كَثِيرًا ، وَبِهَا كَانَتْ وَفَاتِهِ »^(٤) .
الظَّاهِرُ - مِنْ تَرَاجِمِ هُؤُلَاءِ - أَنَّهُمْ كَانُوا نَشِيطِينَ فِي دُعُوتِهِمْ وَجَهَادِهِمْ ، يَتَجَولُونَ فِي الْمَغْرِبِ مِنْ أَدْنَاهُ إِلَى أَقْصَاهِ^(٥) .
- ## ٢ - التَّابِعُونَ فِي الْأَنْدَلُسِ
- إِلَى جَانِبِ التَّابِعِينَ الْثَّلَاثَةِ : (١) - أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ ، ٢ - حَبَّانَ بْنَ أَبِي جَبَّالَةَ ، ٣ - أَبُو شُمَاسَةَ (الَّذِينَ دَخَلُوا الْأَنْدَلُسَ مِنَ الْفَقِهَاءِ ، تُعْرَفُنَا الْمَصَادِرُ عَلَى أَسْمَاءِ عَدْدٍ آخَرٍ مِنَ التَّابِعِينَ - غَيْرُ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ أَرْسَلُوهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ - دَخَلُوا الْأَنْدَلُسَ مَعَ : ٤ - مُوسَى بْنِ ذُصَيْرٍ ، وَهُوَ تَابِعٌ كَذَلِكَ^(٦) .
وَقَدْ أُورِدَ ذِكْرُهُمُ الْمَقْرَرِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَهُمْ :
- ٥ - أَبُو رَاشِدٍ : حَنَشُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّنْعَانِيُّ (صَنْعَاءُ الشَّامِ - إِفْرِيقِيَّةُ أَوْ

(١) مَعَالِمُ الْإِيمَانِ ، ١/٢١٥ ؛ رِيَاضُ النُّفُوسِ ، ١/٧٦ .

(٢) مَعَالِمُ الْإِيمَانِ ، ١/١٩٨ . (مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مِنْ : رِيَاضُ النُّفُوسِ ، ١/٧٢) .

(٣) مَعَالِمُ الْإِيمَانِ ، ١/١٨٠ . كَذَلِكَ : رِيَاضُ النُّفُوسِ ، ١/٦٤ ؛ نَفْعُ الطَّيِّبِ ، ٣/٩ .

(٤) مَعَالِمُ الْإِيمَانِ ، ١/٢١٣ . كَذَلِكَ : رِيَاضُ النُّفُوسِ ، ١/٧٣ .

(٥) انْظُرْ : رِيَاضُ النُّفُوسِ ، ١/٦٧ .

(٦) نَفْعُ الطَّيِّبِ ، ١/٢٧٨ ، ٣/٦ ؛ أَعْلَاهُ ، ٦٧ .

سَرْقُسْطَةَ ، ١٠٠ هـ). دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر^(١). جاهد في الشمال الإفريقي وله فيها مآثر . اخْتَطَ في القيروان مسجداً^(٢) . ويُذَكَّرُ أَنَّهُ اشْتَرَكَ فِي فَتْحِ جزِيرَةِ جَرْبَةَ (تُونُس) سَنَةَ ٤٧ هـ ، مَعَ رُوَيْفَعَ بْنَ ثَابَتَ الْأَنصَارِيَ^(٣) (بِرْفَةَ ٥٣ هـ) . وَفَتْحِ جزِيرَةِ شَرِيكَ (الرَّأْسُ الطَّيِّبُ ، حَالِيًّا)^(٤) . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ وَلَيَ عُشُورَ إِفْرِيقِيَّةَ فِي إِسْلَامٍ^(٥) .

- ٦ - حَيَّوَةَ بْنِ رَجَاءِ التَّمِيمِيِّ ، دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مَعَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ^(٦) .
- ٧ - زَيْدُ بْنُ قَاصِدِ السَّكْسَكِيِّ « دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ وَحْضَرَ فَتْحَهَا »^(٧) .
- ٨ - عَبْدُ الْجَبَارِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ الزَّهْرِيِّ ، دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مَعَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ^(٨) .
- ٩ - أَبُو عَمْرُو : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ بْنِ ذِئْبِ الْمَهْرِيِّ^(٩) .
- ١٠ - عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيِّ ، تَوَلَّ الْأَنْدَلُسَ مَرَّتَيْنِ ، وَقَادَ الْجَهَادَ فِي بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ^(١٠) .
- ١١ - عَبْدُ اللَّهِ بْنِ شِمَاسَةَ الْفِهْرِيِّ^(١١) .

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ ؛ فتح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٧/٣ ، ٢٧٨/١ ؛ معلم اليمان ، ١٨٨/١ ، ٤ . رياض النقوس ، ٧٩/١ ؛ أعلاه ، ٩١ ، ١٠٣ .

(٢) معلم اليمان ، ٣١/١ ، ١٨٨ .

(٣) معلم اليمان ، ١٢٣/١ ؛ رياض النقوس ، ٥٣/١ (كذلك : ٧٩/١) ؛ الحلل السنديّة في الأخبار التونسيّة ، السراج ، ٣٧٣/٢/١ ؛ مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، المغربي ، ٤٠ - ٤٢ . كذلك : العبر ، الذهبي ، ٥٤/١ .

(٤) معلم اليمان ، ١٨٨/١ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٨١ (نص ابن الشباط) ؛ الحلل ، السراج ، ٥٥٢/٢/١ .

(٥) فتح الطيب ، ٧/٣ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ . كذلك : العبر ، الذهبي ، ١٢٠/١ .

(٦) فتح الطيب ، ١٨١/١ ، ٢٧٨/٣ ، ١٠/٣ ؛ التكملة ، ٢٨٢/٢ (رقم : ٧٥٥) .

(٧) فتح الطيب ، ٥٧/٣ ؛ جنة المقرب ، ٢٢١ ؛ التكملة ، ٣٣٠/١ (رقم : ٨٩٥) .

(٨) فتح الطيب ، ٢٨٨/١ ، ١١/٣ ، ٦٤ .

(٩) المصدر السابق ، ٦٠/٣ .

(١٠) المصدر السابق ، ١٥/٣ ؛ أدناه ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٤ - ٢٠٩ .

(١١) المصدر السابق ، ٢٨٨/١ ، ١٠/٣ . هل هو أخوه المذكور في الفقرة (٩) قبله .

١٢ - أبو المُغِيرة : عبد الله بن المُغيرة بن أبي بُرْدَة الْكَبَنَيِّ (بعد ١٢٣ هـ).
ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء إفريقية (٩٩ هـ)^(١). دخل الأندلس هو وأبوه المُغيرة.

١٣ - أبو عبد الله : عُلَيْيَ بن رَبَاح بن قَصِير (نصير) اللَّخْمِيُّ^(٢) (عام اليرموك - إفريقية ، ١١٤ - ١١٧ هـ). تولى إفريقية «فَقَدِمَهَا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». «^(٣)
كان أَعْوَرْ ذَهَبَتْ عَيْنَهُ يَوْمَ ذات السَّوَارِيِّ فِي الْبَحْرِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ سَنَةً أَرْبَعَ وَثَلَاثِينَ»^(٤). دخل الأندلس مع موسى بن نصير^(٥). ويذكر أحمد بن عمر ابن أنس العذري (المَرِيَّةَ ، ٣٩٣ - بلَنْسِيَّةَ ، ٤٧٨ هـ) أنه «بِمَدِينَةِ سَرْقُسْطَةِ تُوفَى حَنَشُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّنْعَانِيِّ وَعُلَيْيَّ بْنُ رَبَاحِ اللَّخْمِيِّ وَهُمَا مِنْ أَجْلِاءِ التَّابِعِينَ»، وموضع قبريهما معروف بمقدمة باب القبلة بسرقسطة وهي أهداف من الحجارة.^(٦) لكن يذكر آخرُون أنه «سكن القَبَرَ وَأَنَّ وَاحْتَطَّ بَهَا دَارًا وَمَسْجِدًا... وَتُوفِيَ بِمَدِينَةِ مَتَوَجِّهًا إِلَى الْحَجَّ، وَكَانَ قَدْ سُأْلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ أَوْ يَمُوتُ بِمَدِينَةِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاهُ»^(٧).

١٤ - أبو يَحْيَى : عِيَاضُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعِ الْفِهْرِيِّ^(٨) (مصر ، ١٠٠ هـ).
١٥ - أبو عبد الله : محمد بن أَوْسٍ بْنِ ثَابَتِ الْأَنْصَارِيِّ^(٩) (١٠٢ هـ).
«كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه، وَلِيَ بَحْر إفريقية سنة ثلث وتسعين،

(١) المصدر السابق ، ١/٣ ، ٢٨٨ - ٦٠ ؛ معلم الإيمان ، ١/٢١٠ ؛ رياض النفوس ١/٨١.

(٢) نفح الطيب ، ١/٢٧٨ ، ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٣) معلم الإيمان ، ١/١٩٩.

(٤) نفح الطيب ، ١/٢٧٨ ، ٣١١ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٨/٣.

(٥) انظر : نفح الطيب ، ١/٢٧٨ ، ٢٨٨ ؛ أعلاه ، ٩١ ، ١٠٣.

(٦) نصوص عن الأندلس ، ٢٢ ، كذلك : الروض ، ٩٧ ؛ نفح ، ١/٢٧٨ ، ٨/٣.

(٧) معلم الإيمان ، ١/٢٠٠ - ٢٠١ ؛ رياض النفوس ، ١/٧٧ - ٧٨.

(٨) نفح ، ١/٢٨٨ ، ١٠/٣ ؛ معلم الإيمان ، ١/١٩٠ ؛ رياض النفوس ، ١/٨٤.

(٩) معلم الإيمان ، ١/١٧٩. كذلك : نفح ، ١/٢٨٨ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٣٢٨.

وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصیر^(١).

١٦ - المُغِيرَةُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ (الكناني) نَشِيطُ بْنُ كِنَانَةَ الْعَدْرِي^(٢). « وَفِي كِتَابِ الْحَافِظِ إِبْنِ بَشْكُوَّالِ أَنَّهُ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مَعَ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ ، فَكَانَ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ يُخْرِجُهُ عَلَى الْعَسَكِرِ . »^(٣) وَابْنُهُ أَبُو الْمُغِيرَةِ عَبْدُ اللَّهِ ، تَابِعٌ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ .

١٧ - مُنْصُورُ بْنُ حَزَامَةَ^(٤).

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ جَمْلَةُ مَنْ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مِنَ الْتَّابِعِينَ سَبْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا ، وَذُكْرُ أَكْثَرِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ^(٥) . وَيُذَكَّرُ إِبْنُ بَشْكُوَّالِ - الَّذِي وُضِعَ عَنِ التَّابِعِينَ ، الدَّاخِلِينَ لِلْأَنْدَلُسِ ، كِتَابًا سِيرَدًا ذَكَرَهُ - أَنَّ عَدَدَ مَنْ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مِنَ الْتَّابِعِينَ ثَمَانِيَّةُ وَعَشْرُونَ رَجُلًا^(٦) . وَمَعْقُولٌ جَدًّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّقْمُ - إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُ - عَدَدَ الْتَّابِعِينَ الدَّاخِلِينَ لِلْأَنْدَلُسِ مَعَ جَيْشِي : طَارِقَ وَمُوسَى ، وَغَيْرُهُمَا . فَإِنْ كُثْرَةً مِنَ الصَّحَابَةِ دَخَلُوا إِفْرِيقِيَّةَ ، بِجَانِبِ الْتَّابِعِينَ الَّذِينَ جَاؤُوا مِنَ الشَّرْقِ^(٧) . وَمَقْبُولٌ أَنَّ عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ ضَمَّهُمْ جَيْشُ طَارِقَ كَانَ مِنَ الْتَّابِعِينَ ، لَكِنَّ عَدَدَ الْتَّابِعِينَ الَّذِينَ دَخَلُوا مَعَ مُوسَى كَانَ أَكْثَرُ ، وَقَدْ ذَكَرَتِ الْمَرَاجِعُ أَنَّ عَدَدَ الدَّاخِلِينَ مَعَ جَيْشِ طَارِقَ لِتَفْقِيهِ الْجَنْدِ تَرَوَحَ بَيْنَ ١٢ وَإِلَى الْعَشْرَاتِ^(٨) ، وَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ هُؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْتَّابِعِينَ الْمَذَكُورِينَ أَعْلَاهُ أَمْ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَقَدْ وُضِعَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ خَلْفُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَنْصَارِيِّ إِبْنِ بَشْكُوَّالِ

(١) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣/٥٨ ؛ جَنْوَةُ الْمَقْبِسِ ، ٤٥ ؛ بَنْيَةُ الْمَلْتَمِسِ ، ٦٢ ؛ مَعَالِمُ الإِيمَانِ ، ١/١٨٩ ؛ التَّكْمِلَةُ ، ١/٣٥٤ (رَقْمٌ : ٩٥١).

(٢) مَعَالِمُ الإِيمَانِ ، ١/١٩٦ ؛ رِيَاضُ النُّفُوسِ ، ١/٨٠.

(٣) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣/١٠٠ . كَذَلِكَ : التَّكْمِلَةُ ، ٢/٢٧٤ (رَقْمٌ : ١٧٨٧).

(٤) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣/١١.

(٥) اَنْظُرْ : نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١/٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٨ ، ٣/١٢ . كَذَلِكَ : التَّكْمِلَةُ ، ١/٣٢٤ (رَقْمٌ : ٨٧٤) .

(٦) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١/٢٨٨.

(٧) أَعْلَاهُ ، ١٤٨ - ١٤٩ .

(٨) أَعْلَاهُ ، ٥٢ .

(قرطبة ، ٤٩٤ - قرطبة ، ٥٧٨ هـ) كتاباً - لا يُعرف له وجود حتى الآن - عن التابعين الداخلين للأندلس بعنوان التبيه والتعين لمن دخل الأندلس من التابعين^(١).

* * *

هذا وغيره يشير إلى أنه بجانب الجيش الفاتح - جنداً وقادة ، وهم دعاة قولًاً وعملاً - كان آخرون . هناك أفراد عرّفوا بصفة الدعوة وتميّزوا بفهمهم وحفظهم . وإذا كان هؤلاء من المكانة والفقه أن يُفَقِّهُوا المسلمين ذاتهم فكيف بغير المسلمين ، وهذا يشير إلى : غاية الجيش الإسلامي وبنائه وهدفه وسلكه ، وأن جنده فقهاء ودعاة . كما يوضح أن الجندي له - بجانب القتال - مهمة أخرى : الدعوة والتفرغ لها ، حين تنتهي الحرب . فهو في دعوة دائمة وجهاد مستمر في ميدان المعركة ، أو داعية في الميادين الاجتماعية . وهو في كل الحالين داعية خير في حربه وسلمه ، وهذا يُفرد الجيش الإسلامي الفاتح بهذه الصفة ، داعية خير في حربه وسلمه ، وفي كل الصور والأشكال .

ونحن نجهل جهود المسلمين غير الحرية (الدعوة بالسلوك والقول) إلى الإسلام ، بعد الحرب وخالاته . وهو أمر مستمر في السنوات التالية من حياة الأندلس الإسلامية . وهذا موضوع ما يزال بحاجة شديدة إلى البحث والدراسة ، ليس في الأندلس فقط ، بل في تاريخ الإسلام وفتواهه وانتشاره عموماً . تلك مسألة مجھولة في كثير من جوانبها ، وهي بحاجة إلى التماس نصوصها في بطون الكتب وجمع أشتاب هذه النصوص .

أخذ الإسلام طريقه للانتشار في إسبانيا . واتبع الفاتحون - الذين عبروا عنه وشرحوه بسلوكهم - خطوة وبذلوا جهداً في بيانه والدعوة إليه ، مثلما لوحظ الأمر في المغرب . كان ذلك هدفاً واضحاً لدى الفاتحين في أعمالهم كافة . يسرون على صوته ، وخلال المعارك التي كان الحرص على هذا فيها ظاهراً . أتقنوا مهنتهم وحسنوا مقدرتهم في إظهار جمال الدعوة الإسلامية ، قولًاً وعملاً . ونجحوا في المحافظة على إشرافها وجاذبيتها ، فأقبل الإسبان على دين الله - سبحانه - مختارين حريصين ، ودخلوه أفواجاً . حتى إن من لم يُسلم منهم مارس بعض العادات

(١) نفح ، ١٠/٣ ، ٦٠ ، ٦٤ ، التكملة ، ٢٨٢/١ (رقم : ٧٥٥) ، ٧٠٤/٢ (رقم : ١٧٨٧).

الاسلامية ، وتسماوا بأسماء المسلمين وتكلموا لغتهم ، كما سيرد ذكره .

ولدينا نصوص تشير الى انتشار الإسلام المبكر . لما رغب عمر بن عبد العزيز في نقل المسلمين من الأندلس وأجرى مشاورات ، تخلّي عن ذلك حين أخبر « أن الناس قد كثروا بها ، وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك »^(١) ، وكتب اليه السماحة ابن مالك « يُعرَفُه بقوّة الإسلام »^(٢) .

يدرك المقرري في نفحه - حين الحديث عن والي الأندلس عقبة بن الحجاج السّلولي (شوال ١١٦-١٢١ هـ) - أنه « كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ، ويبيّن له عيوب دينه ، فأسلمه على يده ألفاً رجلاً »^(٣) .

وتشير المراجع إلى جهاد السّلولي في الأندلس وخارجها وراء الپرت^(٤) ، إلا أنه غير واضح تفاصيل ذلك وأين جرت . مادامت تلك خطّة ، فيتم ذلك في الأماكن التي وصلها خلال جهاده .

ونتيجة لسماحة الإسلام ونظرته التكريمية للإنسان ومهمته الإنقاذية بهدية المنير ، أقبل الناس إليه ، واستظلوا وارفاً . كان هذا أساساً لميزان المسلم ، متوجهًا إلى ربه سائراً في صورة هديه ، فهو حريص على تقديم الهداية للآخرين ، وذلك واجبه وهو ما يحرض عليه ويسعى إليه . فلا يستأثر بالنور والضياء والهدى ، بل من تمام التزامه به أن ينشره ، ويرعى الناس بدعوتهم إليه أو تقديمهم إليه ، وتُصبح تلك مهمته لا ينفك يعمل بها ، وهي هدف الفتح والدعوة .

وقد لمس الناس ، من غير المسلمين ، حسن معاملة المسلمين لهم فأثار ذلك دهشتهم وقادهم إلى تقسيم الإسلام وحبّ أهله ، وكان من نتائج ذلك أن عاش المسلمين مع الآخرين بهذه الأخلاق . لا اعتداء على حقوقهم ، بل عدل ووفاء ، ولا انتهاص أو غمز ، بل تكريم وتعليم . وسماحة وإنصاف ورعاية في كل الأمور^(٥) ، حتى في

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٩ (= أعلاه ، ١٤٠) .

(٣) نفح الطيب ، ١٩/٣ . كذلك : البيان المغرب ، ٢٩/٢ . وعنده « ألف رجل » .

(٤) البيان المغرب ، ٢٩/٢ ؛ نفح الطيب ، ١٩/٣ .

(٥) انظر : أندلسيات ، ٢٤/٢ ؛ Andalusian diplomatic relations , 55 ff

الأمور العادية الخانية فضلاً عن الأساسية الضرورية .

ولم يمسّ المسلمين أياً من شؤونهم الخاصة وعبادتهم وأماكنها ، ولم يمنعهم من الإحتكاك إلى دينهم ، وتركتوا في هذا أحرازاً^(١) . كنت ترى المسجد إلى جانب الكنيسة ، ولم تُتَخَذ الكنائس مساجداً ، إلا في حالات استبدالها أو هجرها ، بعد دخول الناس في الإسلام^(٢) . لكن حين سقطت غرناطة (٨٩٧هـ) والمدن التي قبلها ، كان الإسبان الشماليون – ومن عاونهم من الأوروبيين – يتذمرون ، بروح صليبية ، كل حرمة ، ويعتدون على كل مقدس ، ويستبيحون عقيدة الإنسان ومآلته وغيره ، مع وجود عهود أبربوها ، وحاشا لله أن يأمر بذلك أو يرضاه ، ولا شيء من هذا في دين الله الواحد وما أنزله على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

كان من نتائج حسن المعاملة الإسلامية ازدياد الصلات والاختلاط مع غير المسلمين من الإسبان ، بشكل قاد إلى بعض المصاهرات معهم^(٣) .

وقد تم زواج أول ولادة الأندلس – بعد الفتح – عبد العزيز بن موسى بن نصیر (ذو الحجة ٩٥هـ – رجب ٩٧هـ) من آيله^(٤) (Egilona) أرملا لذریق آخر ملوك القوط ، وتکنیتها مصادرنا الأندلسية بـ « أم عاصم »^(٥) ، وغير واضح ما إذا كان تم ذلك قبل أو بعد إسلامها ، وفيهم ما ذكره ابن عذراً أي أنها بقيت على نصرانيتها^(٦) ، وفي القصة أو في تفاصيلها نظر^(٧) . يقول المقرئ : « زعموا تزوجه لزوجة لذریق المكناة أم عاصم ، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباعت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير فتحظيت عنده .

(١) أندلسيات ، ٢٦/٢ - ٢٨ .

(٢) قارن : فجر الأندلس ، ٤٩٢ و بعدها ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، سالم ، ٢٨٦ .

(٣) عن بعض آثار هذه المصاهرات راجع : أندلسيات ، ٨٥/١ ؛ Andalusian , ٥٧ .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٧ ؛ البيان المقرب ، ٢٢/٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٨١/١ ؛ أخبار مجموعة ،

٢٠ ؛ أندلسيات ، ٧٦/١ .

(٥) البيان المقرب ، ٢٣/٢ - ٢٤ .

(٦) قارن : فجر الأندلس ، ١٣١ .

ويقال : إنه سكن بها في كنيسة باشبيلية^(١) . ولكن إقامة عبد العزيز بن موسى في كنيسة غير معقول - لأكثر من سبب - إلا باعتبار ما كان عليه قبل أن تغدو الكنيسة - التي ربما كانت مهجورة أو هُجرت - مسجداً^(٢) ، فاتخذ داره بجواره . ويمكن أن يفهم هذا من نص ابن القوطيّة (٣٦٧ هـ) حين الحديث عن مقتل عبد العزيز ، أنه « كان ذلك بمسجد رُبِّيَّة المشرف على مرج إشبيلية اذ كان ساكنًا في كنيسة رُبِّيَّة ، وإذ كان نكح أمرأة من القُوط تسمى أم عاصم ، كان يسكن معها في هذه الكنيسة ، وكان قد ابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه »^(٣) .

و « رُبِّيَّة » - اسم (المسجد) الكنيسة ، مِنْ قَبْلُ - ورد عند ابن عذاري : « رُبِّيَّة » ، « وكان قتله صدر رَجَب من سنة ٩٧ ، بمدينة إشبيلية بمسجد رُبِّيَّة »^(٤) . فهو لم يشر إلى موضوع الكنيسة أو سكانها فيها ، مع أنه اعتمد على عدة مراجع . ولعل لم يراد اسم المسجد كما عند ابن عذاري أدق ، فقد تكون وجدت - مع الفتح الإسلامي - بهذا الاسم كنيسة في إشبيلية : Santa Rufina ، أو في ضواحيها^(٥) . من المستبعد أن تبقى أم عاصم غير مسلمة ، والأكثر قبولاً - إذا كانت هذه الرواية أو تفاصيلها موثوقة - أن زواجه بها تَمَّ بعد إسلامها .

و ذُكر أنه فعل مثله - من كان معه - زياد بن النابغة التميمي^(٦) . لدينا أكثر من مثال لهذا النوع من المصادرات تمت بعد إسلام المرأة . لما اختلفت سَارَة القوطيّة بنت المُنْد (Olmundo) بن غِيطَشَة (Witiza) - ملك القُوط قبل لُدُرِيق - مع عمها أرطباش (Ardabas) ، ذهبت إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٦ هـ) تشكوه ظُلُماتها من عمها ، فأنصفها . والظاهر أنها

(١) نفح الطيب ، ٢٨١/١ .

(٢) قارن : فجر الأندلس ، ١٣٠ .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٧ . ربما كان استهلاك « رُبِّيَّة » اسمًا للمسجد تجوزه من ابن القوطيّة وغيره ، وإلا فهل عرفت إشبيلية - فعلاً - مسجداً بهذا الاسم ؟

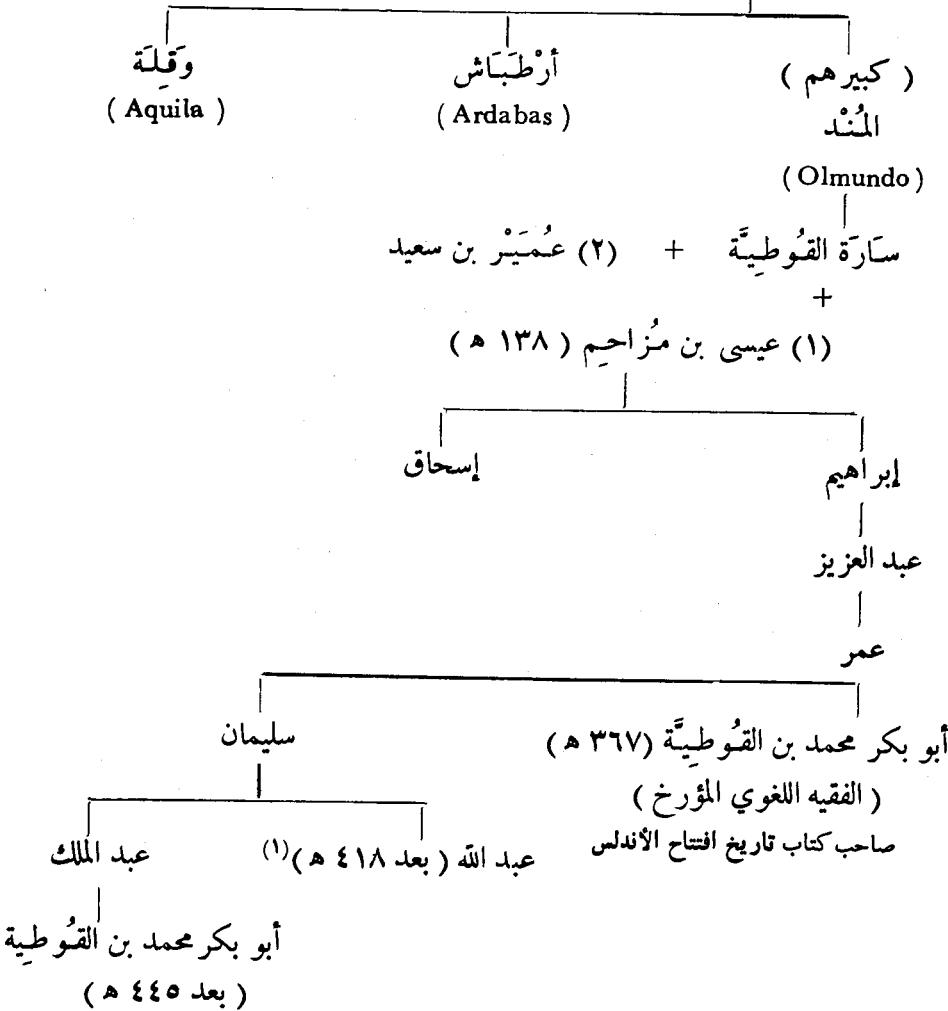
(٤) البيان المغرب ، ٢٤/٢ . ذكر أن مقتله كان « في عقب سنة ثمان وتسعين » . أخبار مجموعة ، ٢٠ .

(٥) المقتبس ، ابن حيان ، ٢٧٢/٢ ، ٥٨٥ .

(٦) البيان المغرب ، ٢٢/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٠ .

قائمة نسب ابن القوطية

غِيَطَشَة (Witiza)



أسلمت ، ثم تزوجت في الشام من عيسى بن مُزَاحِمٍ وقدِّما الأندلس ، فكانت إشبيلية سُكُناهُم (٢) . وعيسى هذا هو جَدُّ اللغوي المؤرخ : أبو بكر محمد بن

(١) التكملة ، ٧٩٣/٢ (رقم : ١٩٤٢) .

(٢) نفح الطيب ، ٢٦٧/١ .

عمر بن عبدالعزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مُزَاحِم المعروف بابن القوطية (قرطبة ، ٣٦٧^(١)) ، المنسب اليها ، وقد أنجحت سارة من عيسى ولدين : إبراهيم وإسحاق . ولما توفي ابن مُزَاحِم (حوالي ١٣٨ هـ) تزوجها عُمير بن سعيد ، فولدت له حبيب ابن عُمير جَدّ نبی سعید وبنی حجاج وبنی مسلمة وبنی حجر الجُرْز^(٢) .

ومن الحدیر بالذكر أن أبا بکر محمد بن القوطية هذا هو غیر کنیة وسمیه وحفید سليمان أخيه : أبو بکر محمد بن القوطية (بعد ٤٤٥ هـ)^(٣) .

تزوج عِدَّةُ أمراء وخلفاء من إسبانيات كن نصريات ، من قبل . فالخلفية الناصر لدین الله (٢٧٧ : ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) - على ما يذكر - حفيد امرأة من البشکنُش اسمها « دُرّ »^(٤) . مثلها كانت زوجة الحكم المستنصر بالله^(٥) (٣٠٢ : ٣٩٢ - ٣٦٦ هـ) . وتزوج الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٢٧ : ٣٦٨ - ٣٩٢ هـ) « عبدة »^(٦) ابنة شانجۀ ملك قشتالة^(٧) أو نبارۀ^(٨) (تزوجها، وحسن إسلامها ، وكانت من خيّرات نسائه دیناً متيناً وحسناً أصيلاً .)^(٩)

وهناك أمثلة أخرى لهذا النوع من المصاهرات ، سواء مع الحكام أو مع أفراد الناس^(١٠) . وهي إن خللت من الاحتياط فلا تخلو أحياناً من المأخذ والمخاطر^(١١) . بسبب تلك العوامل - السالفة وغيرها - كان دخول الناس في الإسلام مُبَكراً .

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٢ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٧٦/٢ ؛ جنوة المقتبس ، ٧٦ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٦٨/٤ ؛ نفح الطيب ، ٧٣/٣ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ - ٥٥٣/٤ .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٠ - ٣٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٦٦/١ - ٢٦٧ .

(٣) التكملة ، ١/٣٨٩ (رقم : ١٠٨٧) .

(٤) البيان المغرب ، ١٥١/٢ .

(٥) البيان المغرب ، ٢٥٣/٢ .

(٦) البيان المغرب ، ٣٨/٣ .

(٧) أعمال الأعلام ، ٦٦/٢ ؛ العبر ، ٣٨٩/٤ .

(٨) أعمال الأعلام ، ٦٣/٢ ، ٦٣ - ٧٣ ؛ البيان المغرب ، ٤٢/٣ .

(٩) أعمال الأعلام ، ٦٦/٢ .

(١٠) راجع : أندلسيات ، ١/٧٥ - ٨٦ ؛ Andalusian diplomatic relations 52,57 - 8 .

(١١) انظر :

ولدينا أسماء أعلام إسلامية مبكرة – أو طنوا فأعقوبوا ، أو ولدت في الأرض مُسْلِمَةً أو تحولت من الدين السابق للإسلام – عُرِفت بالعلم والفضل والقوى ، من أصول إسبانية . والبحث المستمر يزيد الأمثلة عدّاً ، ويقوّي الصورة رسوحاً ، وينحها ضوحاً ، وينوعها جمالاً .

وهذه الظاهرة عامة بكل بلدان الإسلام ، حين وصلتها عقيدته وأضاءتها شريعته .
ومن الأمثلة قبل الأندلس :

* حَنَش الصَّنْعَاني^(١) (١٠٠ هـ) من الشام ، كان من جِلَّة التابعين الفضلاء والعُباد الأتقياء والمحاربين البسـلـاء .

* عبد الرحمن بن وَعْلَة السَّبَّاعي المِصْرِي ، تابعي « من أهل الفضل والدين ... من أهل إفريقيـة ... كان شريفاً بمصر ، ثم سار إلى إفريقيـة . »^(٢) .

* أبو خالد عبد الرحمن بن زيـاد (الإفريقيـيـ) بن آنـعـم المـعاـفـري القـاضـي (برـفـة ، ٩٥ - القـيرـوان ، ١٦١ هـ) « أول مولود ولـدـ في الإسلام بعد فتح إفريقيـة . »^(٣) .

* أبو عمـرـان موسـى بن عـلـيـ (علـيـ) بن رـبـاح اللـخـمي^(٤) (القـيرـوان - الإسكندرـيـة ، ٥١٦٣ هـ) . أبوه عـلـيـ بن رـبـاح ، أحد التابعين الدـاخـلـين الأندلس مع موسـى بن نـصـير^(٥) .

* عـبـيـدـ اللهـ بنـ زـحـرـ الـكـيـنـاـيـ « كان فاضلاً صـالـحاً . مـولـدـهـ بـإـفـرـيـقـيـةـ ، وـهـ مـعـدوـدـ منـ شـيـوخـهـ . »^(٦) .

٣ - اعتناق الإسبان الإسلام

دخلَ سـكـانـ الجـزـيرـةـ الأـنـدـلـسـيةـ في دـيـنـ اللهـ أـفـوـاجـاـ ، فأـصـبـحـ المـسـلـمـونـ فيـ الأـنـدـلـسـ أـغـلـيـةـ كـبـيرـةـ ، وـأـكـثـرـهـمـ منـ سـكـانـ الجـزـيرـةـ :ـ الإـسـبـانـ .ـ عـاـشـواـ معـ الآـخـرـينـ إـخـوـانـاـ :

(١) أعلاه ، ٩١ ، ١٤٦ ، ١٠٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) معلم الإيمان ، ١٩٥/١ - ١٩٦ ؛ رياض النـفـوسـ ، ٨٣/١ .

(٣) معلم الإيمان ، ١/٢٣٠ - ٢٣١ ؛ رياض النـفـوسـ ، ٩٦/١ .

(٤) معلم الإيمان ، ١/٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٥) أعلاه ، ١٠٣ ، ١٥٤ .

(٦) معلم الإيمان / ٢٤٨ . كذلك : رياض النـفـوسـ ، ١١٢/١ .

وَغَدَا هُؤُلَاءِ وَغَيْرُهُم مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَوَاءِ دُونَ تَمِيزٍ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ^(١)
 «الْمُؤْمِنُونَ تَنَكَّافُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدْعُونَ عَلَى
 مَنْ سِوَاهُمْ» ^(٢).

وهذه أسماء بعض من دخل الإسلام في الأندلس أو ولد فيه كذلك :

* أبو محمد عبد الله بن فرروخ الفارسي (الأندلس ، ١١٥ - مصر ، ١٧٦).
 «يُقَالُ إِنَّ مَوْلَدَهُ كَانَ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشَرَةً وَمِئَةً ؛ ثُمَّ سَكَنَ الشَّيْرَوَانَ
 وَاسْتَوْطَنَهَا ؛ ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرُقَ ، فَلَقِي فِيهِ الْعُلَمَاءَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ ،
 فَأَقَامَ بِهَا يُعَلِّمُ النَّاسَ الْعِلْمَ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِسُنْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 حَتَّى اتَّفَعَ بِهِ كَثِيرٌ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرُقَ» ^(٣) ، «كَانَ فَقِيهًا وَرِعًا فَاضِلًا مَتَوَاضِعًا
 قَلِيلًا حَمِيَّةً لِلْمُلُوكَ ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، مُبَايِنًا لِأَهْلِ الْبِدَعِ ،
 حَافِظًا لِلْحَدِيثِ وَالْفَقِهِ . وَكَانَ رَبِّا غَسلَ مَوْتَى الْمُضْعَفَاءِ بِيَدِهِ» ^(٤).

* يَذَكُرُ ابن حَزَمُ فِي جَمِيعِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ ، عَنْ زَعِيمِ بُشْكَنْتَسِيِّ هُوَ قَسِيِّ ،
 قُومِيْسِ الشَّغْرِ فِي أَيَّامِ الْقُوْطِ ، أَنَّهُ : «لَمَّا افْتَحَ الْمُسْلِمُونَ الْأَنْدَلُسَ ، تَحَقَّقَ
 بِالشَّامَ ، وَأَسْلَمَ عَلَى يَدِيِّ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ» ^(٥).

* مَهْدِيُّ بْنُ مُسْلِمٍ «مِنْ قُدُّمَاءِ قُضَاءِ قُرْطُبَةِ ، وَمِنْ أَبْنَاءِ الْمَسَالِمَةِ» ^(٦) ،
 وَ«الْمَسَالِمَةُ» تَعْنِي فِي التَّارِيخِ الْأَنْدَلُسِيِّ : الَّذِينَ دَخَلُوا إِلَيْهِ الْإِسْلَامَ مِنَ الْإِسْبَانَ ،
 كَمَا أُطْلِقَ عَلَى أَوْلَادِهِمْ : «الْمُوَلَّدُونَ» ^(٧). تَوَلَّ بْنُ مُسْلِمٍ قَضَاءَ قُرْطُبَةَ أَيَّامَ

(١) من الآية ١٠ من سورة الحجرات.

(٢) من حديث للرسول الكريم صل الله عليه وسلم . جامع الأصول في أحاديث الرسول ، محمد الدين بن الأثير البجزري ، ٢٧/٨ - ٢٨/٨.

(٣) معلم الإيمان ، ١/٢٢٩. كذلك : رياض النغوس ، ١/١١٣.

(٤) معلم الإيمان ، ١/٢٢٨.

(٥) جمهرة أنساب العرب ، ٥٠٢ ؛ أعلاه ، ١٠٢ - ١٠٣. كذلك : أندلييات ، ١١/٢ ؛ Andalusian, 102.

(٦) التكملة ، ابن الأبار ، ٢/٧٣١.

(٧) أندلييات ، ١١/٢ ؛ أدناه ، الفصل الثالث ؛ Andalusian, 102. كذلك : Los Mozarabes, I, 89 ; Histoire, I, 75, III, 180, (Sp. tr., IV, 46, V, 101).

والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلوقي (شوال ١١٦ - ١٢١ هـ) «استقضاه على قرطبة عقبة بن الحجاج ، واستخلفه عليها ، وأمره بالقضاء بين أهلها . وكان من أهل العلم والورع والدين المتن .»^(١)

عُرْفَابنُ مُسْلِمَ بِعِلْمِهِ مُقدِّرته الأدبية وتمكنه في الفقه ، لذا طلب منه عقبة أن يكتب عهد القضاء الذي صار فيما بعد مرجعاً . أوصاه فيه بتقوى الله وطاعته والبحث عن مرضاته في السر والعلانية «مُعتصماً بحبله المتين وعروته الوثقى ، مُوفياً بعيده ، مُتوكلاً عليه ، وائتاً به ، متقياً منه ، فـ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الظِّنَانِ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُخْسِنُون﴾ [سورة النحل ، ١٢٨] . وأمره أن يتَّخذ كتاباً الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إماماً يهتدى بنورهما ، وعلمياً يعشش إليهما ، وسراجاً يستضيء بهما ؛ فإنَّ فيهما هدى من كل ضلاله ، وكشفاً لكل جهالة ، وتفصيلاً لكل مشكل ، وإبانة لكل شبهة ، وبرهاناً ساطعاً ودليلًا شافياً ومناراً عالياً وشفاءً لما في القلوب ، وهدى ورحمة للمؤمنين ...»^(٢) .

استمرَّ - بعد ذلك - دخول الناس في الإسلام ، ولدينا أعمال كثيرة وأسر شهيرة ذات أصول إسبانية ، مثل :

* علي بن حسن ، المعروف بابن شَبَرِقَهُ (إشبوري ، حوالي ٣٠٠ هـ) ، من أهل بطليوس . « كان كثيراً العلم . . . وكان موثقاً ، وابتني مسجداً ببطليوس »^(٣) .

* أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن البلكائيش ابن الْيَانِ (يليان) القُوْطِيِّ (قرطبة ، ٣٨٨ هـ) ، من أهل قرطبة «كان رجلاً صالحًا مُشاركاً في فنون من العلم مع سلامه وأمانة .»^(٤) وهو - كما يبدو -

(١) المرقة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أبو الحسن الباهي ، ٤٢ . كذلك : فجر الأندلس ، ٦٤٦ - ٦٤٩ .

(٢) قضاة قرطبة ، ابن حارث الحشني ، ٩ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٣١٢/١ (رقم : ٩١٨) .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٥٧/١ (رقم : ١٩٠) .

- * من عَقِبِ يُلْيَانَ ، حاكم سَبَّتَةِ أَيَامَ الْفَتحِ الإِسْلَامِيِّ لِلأنْدَلُسِ . ترجم ابن الفَرَّاضِيُّ أَبَاهُ (أَحْمَد) : أَبُو أَيُوبِ سَلِيمَانَ (٣٧٧ هـ) وَوَصْفُهُ بِالْعِلْمِ وَالْخُشُوعِ^(١)
- * أبو الفتح نَصْرُ بْنُ أَبِي الشَّمْوَلِ (عَقْبٌ شَعْبَانَ ٢٣٦ هـ) ، الْفَتِيُّ الْكَبِيرُ «الذِي تَنْسَبُ إِلَيْهِ مُنْيَةً تَضَرُّ» ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ نَصَارَى قَرْمُونَةَ^(٢) . وَيُذَكَّرُ بْنُ حَزْمَ (٤٥٦ هـ) خَبْرُ نَصْرٍ فِي نَقْطَةِ الْعَرَوْسِ كَذَلِكَ وَبِصِيغَةِ أُخْرَى ، فَيَقُولُ :
- * «كَانَ أَبُوهُ مِنْ أَسَالِمَةِ أَهْلِ الذَّمَّةِ مِنْ أَهْلِ قَرْمُونَةَ»^(٣) .
- * أَيُوبُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ ، سَرْقُسْطِيُّ الْأَصْلِ وَمِنْ مَسَالِمَةِ أَهْلِ الذَّمَّةِ . تَوَلََّ قَضَاءَ إِشْبِيلِيَّةَ سَنَةَ ١٨٢ هـ^(٤) .
- * أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدَ بْنِ حَزْمٍ (قُرْطُبَةَ ، ٣٨٤ - مُنْتَ لِيَشَمْ بِكُورَةِ لَبْلَةَ ، ٤٥٦ هـ) ، مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةِ . وَهُوَ الْفَقِيهُ الْأَدِيبُ الْمُؤْرِخُ الْمَذْاعِنُ الصَّيْدِيُّ ، يَقَالُ إِنَّهُ مِنْ أَصْلِ نَصَارَى^(٥) (أَوْ فَارَسِي)^(٦) .
- * ولعل الحافظ العلامة أبا عبد الرحمن بقيري بن مخلد ، يرجع إلى أصل نصاري^(٧) .

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ١ / ١٨٨ - ١٨٩ (رقم : ٥٦٦) . كذلك : أعمال الأعلام ، ٤٩/٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ٩٦ .

(٣) نقط المروض ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ١٣/٢/٧٣ . نقل ابن حيان (المقتبس ، ١٥/٢) هذه الصيغة عن ابن حزم من أحد كتابيه (جمهرة ونقط المروض) أو كليهما . وعلم ماورد عند ابن حيان (٤٦٩هـ) من زيادة يشير إلى أن طبعة الكتابين أو أحدهما غير كاملة أو مختصرة لخطوطة أخرى موجودة أو مفقودة . وهذا حادث في أمثلة عديدة . عن نصر انظر كذلك : تاريخ افتتاح الأندلس ، ٩٦ ، المقتبس ، ٨/٢ ، ٢٦ ، ٨٦ ، ١٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ؛ المغرب ، ٤٩/١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ١٢٥ ، ١١٤ ، ٣٣١ ؛ الروض المطار ، ١٨٧ .

(٤) التكملة ، ١٩٨/١ (رقم : ٥٢٣) .

(٥) النخيرة في محسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنيري ، ١/١ ١٤٢ ؛ المغرب في حل المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، ٣٥٥/١ ؛ نقط المروض ، ابن حزم ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ١٣/٢ - ٤٢ (مقدمة المحقق) ؛ أندلسيات ، ١١٥/١ .

٦) نفس المصادر .

(٧) عنه انظر : نفع الطيب ، ٤٧ / ٢ ، ٥١٨ ، ١٦٨ / ٣ .

* أبو عبد الله محمد بن حسين ، ابن رُلَانْ (أرليان) ، (بعد ٤٦٠ هـ) . من أهل بلنسية « كان أدبياً ، مُتَفَنِّناً ، متسع المعرفة ، معلماً بالعربية واللغة ، خيراً . من أهل القرآن والحمل له ... وكان لا يُقرئ شيئاً لا يتحققه ». ^(١)

* الفقيه أبو محمد الأصيلي : عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر (٣٩٢ هـ) ، أصله من شذونة أو الجزيرة الخضراء « وكان جدُّه من مسالمة أهل الذمة ... وكان أبوه ورافقاً للحاكم » ^(٢) اشتهر بالفقه في قُرطُبة وتولى الشورى مدة ، و « كان من جلة العلماء نسيج وحدته » ^(٣) .

* أحمد بن عبد الله « من أهل قُرطُبة ، وهو ابن أخي قومس ، كاتب الأمير محمد ». ^(٤)

قُومِس (Comes) ^(٥) هذا هو : قومس بن أنتُشينان بن يُلْيَانَه (مؤنث يُلْيَان) النصرانية ، أسلم بعد سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) . كان على صلة بالأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ، ثم ولأه الكتابة ^(٦) ، والظاهر أنه حَسْنَ إسلامه ، حتى وصفه الفقيه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطروح (٢٧١ هـ) ^(٧) « السَّجَادَ العَبَادَ ، حَمَامَةُ هَذَا الْمَسْجِدِ » ^(٨) : مسجد قرطبة الجامع . ذُكر له ابن ^(٩) هو « عمر بن قومس الكاتب » (٢٩٨ هـ) ^(٩) . وهذا يشير إلى أن الدخول في الإسلام كان مستمراً ، يدخله الآخرون باختيارهم .

(١) التكملة ، ١/٣٩٤ (رقم : ١١٠٤) .

(٢) ترتيب المدارك ، ٤-٣ / ٦٤٤، ٦٤٢ . عن المسالمة انظر : أعلاه ، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٥ . الفصل الثالث .

(٣) نفس المصادر .

(٤) التكملة ، ١/١٢ (رقم : ١٣) . قارن : تاريخ علماء الأندلس ، ١/٣٠ (رقم : ٩٢) .

(٥) تقابل Conde بالأسبانية الحديثة و Count بالإنجليزية ، وتعني : أمير أو نبيل .

(٦) المقتبس ، ١٤٢/٢ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ١٠١ . كذلك : Andalusiats ، ٢/٤٦٠ . Andalusian ، 57.

(٧) انظر عنه : تاريخ علماء الأندلس ، ٢/٩ (رقم : ١١١٣) .

(٨) قضاة قرطبة ، المشنفي ، ٧٦ .

(٩) البيان المغرب ، ١٤٨/٢ . انظر كذلك :

Histoire de l'Espagne Musulmane, I, 290 (Sp. tr., IV, 189).

قائمة نسب بني قومس

أنشئيان

عبد الله	قومس
أحمد	
	عمر (هـ ٢٩٨)

* تزوج تمام بن عامر بن علقة (١٩٤ - هـ ٢٨٣) ، الذي تولى الوزارة للأمير محمد ولابنه المنذر وعبد الله^(١) ، أمَّ الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية (لعلها أسلمت فيما بعد) . فكان من أحفادهما العلماء والوزراء والقضاة « وتزوج تمام بن عامر هذا الوزير أمَّ الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية ، فجاء من

قائمة نسب هذه الأسر

علقة			
١			
تمام			
٢			
غالب			
٣			
أحمد			
٤			
عامر			
٥			
تمام (هـ ٢٨٣)	+	أم الوليد	
٦			
خلف			
٧			
روماني			
٨			
سليمان			
٩			
فطيس = عيادة (هـ ٢٠٧)			
١٠			
أم البيضاء			
١١			
فطيس (الوزير ، هـ ٣٢٩)	+		
١٢			
عيسي (الوزير الكاتب)			
١٣			
محمد			
١٤			
أبو المطرّف عبد الرحمن (هـ ٤٠٢)			
١٥			
قاضي الجماعة بقرطبة (هـ ٣٩٥ - ٣٩٤)			

(١) الخلة السيراء ، ابن الأبار ، ١٤٤/١ .

نسلها الوزير الكاتب عيسى بن فطيس ، فتماماً جدده لأمه .^(١) ومن نسلهما أيضاً أبو المطرّف عبد الرحمن بن عيسى بن فطيس (٤٠٢-٣٤٨ هـ)^(٢) المحدث المؤلّف قاضي الجماعة بقرطبة (٣٩٤ - ٣٩٥ هـ) .

هناك ألقاب وأسماء قد تدل على أن أصحابها من أصل إسباني نصري : * محمد بن يحيى بن عمر بن لبابا (٩٤٢ هـ = ٣٣٠ م) المعروف: البرجون^(٣) «كان فقيهاً مُقدّماً»^(٤). وبنو لبابا أو اللبابيون أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام، منهم : محمد بن عمر بن لبابا (٢٢٥ - ٣١٤ هـ)^(٥) زعيم الفقهاء^(٦)، وأخوه : أحمد بن عمر بن لبابا (٣٢٥ هـ)^(٧) وعمر بن يحيى بن لبابا .

قائمة نسب بني لبابا

لبابا

|
يحيى (٩)

عمر (نحو ٣٠٥ هـ)

أبو عبد الله محمد (٣١٤ هـ)
|
أحمد (٣٢٥ هـ)
|
يحيى

القاضي أبو عبد الله : محمد البرجون (٣٣٠ هـ)

(١) المقتبس ، ١٨٢/٢ ، و ٧٦/٢ ، إعتاب الكتاب ، ابن الأبار ، ١٩٠ .

(٢) الصلة ، ابن بشكوال ، ٢٠٩ (رقم : ٦٨٢) ؛ ترتيب المدارك ، ٣ - ٦٧١/٤ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٥١/٢ (رقم : ١٢٣) ؛ صحيفه المعهد المصري (الدراسات الإسلامية) في مدريد ، ٦٣/٤ ، مقدمة «كتاب أحكام السوق» ليحيى بن عمر الكنافى . كذلك : ترتيب المدارك ، ٣ - ٣٩٨/٤ - ٤٠٣ ، نفح الطيب ، ١٧١/٣ ؛ أدناه ، الفصل الثالث .

(٤) جذوة المقتبس ، الحميدي ، ٩٨ (رقم : ١٦٣) .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ٣٥/٢ (رقم : ١١٨٩) .

(٦) المقتبس ، ابن حيان ، ٤٧/٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ٣٧/١ (رقم : ١١٥) .

- * أبو المُطَرَّفِ بن فُورْتَش (٣٨٦هـ)^(١) ، من أهل سَرَقُسطَةَ وَتولَّ قضاها .
- * أبو وَهْبِ مَنْتَيْلِ بن عَفِيفِ الْمُرَادِي^(٢) (بَرْبَشْتُر ٣١٧هـ) ، من أهل وَشْقَةَ .
- * أبو عمر أَحْمَدُ بْنُ فَرْجِ بْنِ مَنْتَيْلِ^(٣) (٣٤٤هـ) ، من أهل قُرْطُبَةَ .
- * أبو عمر أَحْمَدُ بْنُ قُزْلُمَانَ (قِرْلَانَ) (٣٧٧هـ) ، من أهل قُرْطُبَةَ ، « وَكَانَ يُؤْدِبُ بِالْقُرْآنَ ، وَكَانَ مِنَ الْعُبَادِ وَالْمُتَبَتَّلِينَ . »^(٤)
- * أبو القَاسِمِ أَحْمَدُ بْنُ بِطَيْرِ (٣٠٣هـ) ، من أهل قُرْطُبَةَ^(٥) .
- * أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الرُّومِي^(٦) ، من أهل قُرْطُبَةَ .
- * أبو عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ وَسِ بْنِ ذِي زَوْيَه^(٧) .
- * أَحْمَدُ بْنُ أَبِي قُومِسَ ، من أهل قُرْطُبَةَ^(٨) .
- * أبو عمر أَحْمَدُ بْنُ غَرْسِيَّهَ ، مِنْ أَهْلِ مَدِينَةِ الْفَرَاجَ ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا^(٩) .
- * أبو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ^(١٠) (٣٢٢هـ) ، من أهل وَشْقَةَ .
- * عَبْدُ السَّلَامَ بْنُ بَسِيلِ الرُّومِيَّ ، أَحَدُ وُزَرَاءِ أَوْ مُشَارِيِّي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ^(١١) .
- * أبو عمر بْنُ الْحَصَّارِ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ سَعِيدَ بْنُ مُحَمَّدَ بْنُ بِشَرِّ بْنِ غَرْسِيَّهَ ، قَاضِيِّ الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ (٤٢٢هـ)^(١٢) .

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٢٦٦ (رقم : ٨٠٧) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ٢/١٥٣ (رقم : ١٤٨٢) .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٤٠ (رقم : ١٢٩) .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٢/٥٣ (رقم : ١٨٢) . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٥٠ .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٢٨ (رقم : ٧٧) .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٢٩ (رقم : ٨٢) .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٣٠ (رقم : ٩٢) .

(٩) التكملة ، ١/١٥ (رقم : ٢٣) .

(١٠) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٣٢ (رقم : ١٠٠) .

(١١) نفح الطيب ، ٣/٤٥ .

(١٢) الصلة ، ١/٣٢٦ (رقم : ٦٨٩) .

* الطبيب الصيدلي ابن الرؤمية (ابن فُرْتُون) : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الخليل مُفَرِّج الأموي (٦٣٧ هـ)^(١).

* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قُوطي المعاشرِي (٤٤٠ هـ) ، من أهل طُليطلة « وكان خَيْرًا فاضلًا متواضعًا كثير الدراسة للمسائل موئقاً شاعرًا ». ^(٢)

نعرف عدداً من الأُسر الأندلسية – في مختلف العهود – يدل لقبها على أصلها النصراوي . مثل : بنو القَبَطْرُونُ Cap — Torno : الرأس المستدير^(٣) . والأمثلة كثيرة^(٤) ، وهو طبيعي . وكما توجد أُسر أخرى مُسْلِمة نعرف منها أعلاها ظهرت واشتهرت في عديد من الميادين ، ولو أنه ليس في ألقابها وتسمياتها ما يشير بوضوح إلى أوليتها^(٥) .

كلما تقدمنا في الزمن نجد الإسلام مستمراً بالانتشار ، حتى غدا غير المسلمين أقلية ، لها كافة حقوقها وحرفيتها في المعتقد والعبادة . فأعجبوا بهذه المعاملة الحسنة المتسمة بالانصاف . وكثرة من لم يُسلِّم منهم ، رضيت أن تعيش المسلمين وتنعم بالأمن وتحصل من عادات المسلمين وأسلوبهم الكبير . كذلك قبلت لغتهم وأفنتها . وهؤلاء هم الذين سموا « المُسْتَعْرِبُونَ » ، وهم غير المسلمين (في الأندلس) الدين قَبَلُوا العربية لغة ومارسوا بعض الأساليب الإسلامية في حياتهم . مثلاً: لبسوا ملابسهم واستعملوا الحِتَانَ ، وامتنعوا عن أكل الحِنْزِير . وكان لكتلة منهم اسمه الإسلامي إلى جانب اسمه اللاتيني . وأتقنوا العربية وتدوّوها : قراءة وكتابة وإنشاءً وأدباً .

(١) الإحاطة ، ٢٠٧/١ ؛ التكملة ، ١٢١/١ (رقم : ٣٠١) ، ٢٣٧، ١٧٦ ؛ أدناه ، الفصل السابع .

(٢) الصلة ، ٥٣٢ (رقم : ١١٦١) .

(٣) نفح الطيب ، ١٥٥/١ ، ١٥٤ ، ٦٣٩ ؛ المغرب ، ١/٣٦٧ ؛ الإحاطة ، ٥٢٠/١ .

(٤) انظر: تاريخ علماء الأندلس ، ٥٨/١ (رقم : ١٩٤) ؛ المقبس ، ابن حيان ، ٧٤/٣ ؛ التكملة ،

٢٩٨/١ ؛ نفح الطيب ، ٤٥/٣ ؛ حاضر العالم الإسلامي ، ١/٢ - ٢ (تعليق شبيب ارسلان) ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ١٢٨ - ١٢٩ ؛

Histoire de l'Espagne Musulmane, I, 76, 359, III, 184, (Sp. tr., IV, 47, 230, V, 103).

(٥) انظر مثلاً : نفح الطيب ، ٤٥/٣ ؛ التكملة ، ١١٨/١ (رقم : ٢٩٧) .

بيَدَ أَنَّ الْفَارُوَ القُرُطِيَّ (Alvaro de Cordoba, Alvarus Cordubensis) كتب سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) ببرارة نقداً لهذا الاتجاه سُمي « Indiculus Luminosus » أي : الدليل المنير^(١) .

لَكِنَّ الْإِسْلَامَ انتَشَرَ بقوَتِهِ الذَّاتِيَّةِ حَقَقَتِ الْمُثُلُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْفَرِيدَةُ – بفِطْرَةِ اللهِ الْخَالِقِ سَبَحَانَهُ – وَبَقِيَّ يَمْدُها بِالْحَيَاةِ وَالْحَرْكَةِ ، وَبِذَلِكَ يَرْتَقِيُّ الْإِنْسَانُ حَتَّى يُصْبِعَ « رَبَّانِيَّاً » . فَهُوَ بِهَا غَنِيٌّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَبِغِيرِهَا فَقِيرٌ مُدْقِعٌ وَكَثِيبٌ باشِّسٌ ، مُتَعَرِّضٌ لِلخطُواتِ حَسِيرٌ لِلنَّظَرَاتِ .

* * *

حِينَ وَصَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ الدَّاخِلِيَّ الْأَنْدَلُسِيَّ (Andalusian = ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) كَانَ الْإِسْلَامَ قد تَبَيَّنَ أَرْكَانُهُ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ رِحَابَهُ السُّكَّانُ الْأُولُونَ مِنْ كُلِّ الطَّبَقَاتِ ، لِمَا رَأَوْا مِنْ سَمَّاَةِ الْإِسْلَامِ وَخُلُقِّ أَهْلِهِ وَحُسْنِ مَعْالِمِهِمْ ، وَعَدْلِ حُكَّامِهِمْ^(٢) .

وَبِدَأَتِ الْبَلَادُ تَتَعَشَّشُ وَالْإِنْسَانُ يَسْتَجُو وَيُبْدِعُ ، فِي ظَلِّ الْإِسْلَامِ وَالْآفَاقِ الَّتِي أَنْشَأَهَا . فَهِيَ تَقُومُ عَلَى اعتِبَارِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ وَرَدَهَا إِلَيْهِ وَرَفْعَهُ إِلَيْهَا .

وَنَظَرَ الْأَسْبَانُ وَقَدْ زَالَتْ عَنْهُمُ الظَّالِمُ وَذَهَبَتِ الطَّبَقِيَّةُ ، فَأَقْبَلُوا عَلَى اعْتِنَاقِ هَذَا الدِّينِ الْقَيِّمِ ، وَمَنْ بَقِيَ عَلَى دِينِهِ مِنْهُمْ ارْتَضَى حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَدْ أَشَادَ عَدْدٌ مِنَ الْمُؤْرِخِينَ ، مِنْهُمْ بَعْضُ الْأُورْبِيِّينَ ، بِبَنَاءِنَجَّ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَى إِسْبَانِيَا وَبِالسِّيَاسَةِ الرَّشِيدَةِ الَّتِي اتَّبَعَهَا الْمُسْلِمُونَ ، أَمْثَالُ : دُوزِي وَلِينِ بُولِ وَرِينِيُّو وَأَرْنُولْدِ وَغَيْرِهِمْ^(٣) .

وَسَيِّقَى أَمْرُ انتشارِ الْإِسْلَامِ فِي إِسْبَانِيَا مُثِيرًا لِلْدَّهْشَةِ أَكْثَرَ مَا يُشِيرُهَا انتصارُهُ الْبَاهِرُ فِي فَتْحِهِ لَهَا . تَلَكَ الْفَتْحُ الَّتِي مَثَلَّتْ هَذَا الاتِّجَاهُ وَرَسَّمَتْ لِلنَّاسِ تَلَكَ الصُّورَةَ الْخَلِيلِيَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ مَصْدِرُ الانتِهَارِ قَاصِرًا عَلَى الْإِنْتَصَارِ الْعَسْكَرِيِّ وَلَكِنْ مِنْ تَفْوِيقِ

(١) راجع : أَنْدَلُسِيَّات ، ٥٩ / ٢ ؛ ٥٦ . Andalusian,

(٢) انظر : فَجْرُ الْأَنْدَلُسِ ، ٤٢٤ .

(٣) راجع : دُولَةُ الْإِسْلَامِ ، ٦٢ / ١ وَبَعْدُهَا ؛ تَارِيخُ غَزَوَاتِ الْعَرَبِ ، ١٢١ - ١٢٧ ؛ الدُّعَوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَرْنُولْدُ ، ١٥٤ - ١٦٤ .

الإنسانية - بصورتها الإسلامية - فيها ، واعتلاء الإسلام دفة الأمور وصياغة الأحداث والتصوفات والأخلاق ، وسرعة وضخامة الانجاز في الحياة وفي الإنسان ، فأشرقت حياته على أصواته الساطعة .

أقبل الناس على الدخول فيه ، ليس فقط عن طوعية اختيار ، بل وعن رغبة واجتناب ، لما رأوا من جلال شريعته وجمال عقيدته وسماحة نظرته وتساقط وجهته والأخذ بالانسان لكرامته ، للذكور والإإناث سواء ، منذ الصغر حتى يغدوا كباراً . فشاهدوها مُتمثلة في المسلم : أفراداً وجماعات ، في الدولة والمجتمع ، فيما بينهم ومع الآخرين . وتركت وظهرت هذه المعاني بوضوح ، منذ الفتح الذي تَمَثَّلَ فيه كلُّ صور الكرامة الإنسانية . وهذا الموضوع جدير ببيان أطول وتتبع التصووص وتجول في المصادر ، لتقديم صورة أجمل وأشمل .

ثالثاً: جهاد المسلمين في الأندلس وخلف الربت

لم يكن المد الإسلامي حركة غزو وغنائم وسيطرة سياسية . فهو يخالف غيره في الأساس والمهدف والمنطق والتصور والأسلوب والغاية . بل هو موكب دعوة منيرة وامتداد متصل وجihad دائم ، أفقاً وعمقاً . دعوة ميدانها الأرض كلُّها ، وينتو البشر كافة موضوعها وموضعها - وآفاقها من ذلك أوسع - تسعى إليه وتحنون عليه . تَعْمَرُ نفسه وتُعلّي رأسه ، ليَعْمُلُ نورُ الله المبينُ وشرعُه المكينُ أهلَ الأرض أجمعين ، تدعوهُم إِلَيْهِ بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيُقبلُوا عَلَيْهِ مختارين وبرغبة حُرّة بَرَّة مميزة . فتسارعوا هم للدخول فيه أفواجاً واعتنقه ليُصبحوا من أهله ، العاملين تحت رايته المجاهدين لنشر شريعته ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(١) . وهكذا سَرَّت دعوة الإسلام في الأرض عامرة باهرة ، وفي ذلك يقول العالم المجاهد ابن تيمية (٧٢٨ هـ) :

(١) من الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

« إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام »^(١) .

يحدث هذا دوماً^(٢) ، إذ هو يسير بنفسه ، وحين تناحر أقل فرصة وإمكانية لبيان الإسلام ويتمثله أهلهُ ودعاتهُ ، فكيف لو قام به مجتمع وعاشت في ظله أمة . إنه الوحيد المادي للإنسان المنفرد من كل ضلال والصائن له من الانحراف ، أي انحراف . لأنه شرعُ الله ، العليم الحكيم ، خلق الله ، الملائم لفطرتهم القائم على سعادتهم في الدارين . حتى ليكاد ينتشر بدون دعاء – وفي العصر الحديث كذلك – وهو ما ينشاه أعداؤه ، على تنوع مصالحهم واتجاهاتهم ، رغم امتلاكهم القوى المادية ، وتقوم كذلك لهم دول كبرى قوية ، وهو منها مجرد . وما أنفكوا يعبرون عن ذلك بأكثر من أسلوب وبالعديد من الأشكال^(٣) .

ذلك مالاحظناه خلال كل الفتوحات ، التي كانت حركة انساب في الأرض ، تزرعها خيراً وبركة ، وتيار اكتساح يطوي الظلمات لتشرق الدنيا بنور الله .

استمرت موجة المد الإسلامي هذه في عهد الولاة ، الذي ابتدأ بولادة عبد العزيز ابن موسى بن نصيّر ، وكان لها نشاط وافر ، وبصورة رئيسية وراء جبال البرُّة .

ولانتقال الجهاد وراء جبال البرُّة مدلول . لعله تعبير عن قوة الدفع وجلالته المد التي زادت عن متطلبات الوجود الإسلامي في الأندلس وقتها ، فنفت النشاط من ميدانه أمام البرُّة إلى ما خلفه في الأرض الكبيرة .

وقد شمل جهاد هذا العهد موضعين أو جبهتين :

- ١ - داخل الأندلس ، لاسيما الشمال .
- ٢ - خلف جبال البرُّة ، في فرنسا .

(١) أخبار عمر ، ٩٩ - ١٠٠ . انظر كذلك : فجر الأندلس ، ٤١٧ .

(٢) انظر مثلاً : (تاريخ غزوات العرب ، ٢٨٨) Muslim colonies , 208 .

(٣) انظر مثلاً : الإسلام والغرب والمستقبل ، توينبي ، ٧٣ ؛ التبشير والاستعمار ، مصطفى خالدي وعمر فروخ ، ١٣١ ، ١٨٤ .

١ - الجهاد في الجزيرة الأندلسية

رأينا هذا الجهاد متواصلاً ومستمراً ، حيث شمل الفتحُ السابق كلَّ الجزيرة الأندلسية ؛ غير مواضع قليلة لم تُترك أو تُهمَل مدة الولاة . بل وجَهَتْ لها حِمَلات عَدَة خَلَالَها لِتَأكِيدَ الفتح أو إنجازه .

قام عبد العزيز بن موسى - مدة ولايته : ستَان - ببعض عمليات الفتح ، داخل الجزيرة الأندلسية . وكان قد تولى - قبل ولايته - فتح عَدَة مدن في شرق الأندلس وغربيه ، كما مر^(١) . كانت هذه المهمة واضحة عنده ، بجانب حماية ثُغُورها . وهو ما أكَدَه له والده موسى وكلفه به . ثم إن موسى بن نصَير « قَفَلَ عن الأندلس بعد أن أُنْزِلَ الرابطة والخامة بِثُغُورها ، واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها »^(٢) . وليس لدينا ثبتاً واضحاً عن كل الأماكن التي افتتحها عبد العزيز في ولايته ، لكنَّ بعض مؤرخينا يذكرون - تعميماً أو تخصيصاً - مُدُناً افتتحها عبد العزيز .

يذكر ابن خَلْدون أن عبد العزيز « كان خَيْرًا فاضلاً » ، وافتتح في ولايته مداشر كثيرة .^(٣) ويذكر ابن عِذاري في بيانه أن عبد العزيز في ولايته الأندلس « ضبط سلطانها ، وسدَّ ثُغُورها ، وافتتح مداشر كثيرة .^(٤) »

٢ - نقل العاصمة وتعيين بَلَاطها

استُشهدَ عبد العزيز بن موسى ، مقتولاً (رجب ٩٧ هـ) بيد زِياد بن عُذْرَة البَلَوي وهو يصلٍ في مسجد (رُفَيْنَة) بإشبيلية^(٥) ، واجتمع أهلُ الأندلس على تولية أيوب بن حبيب (رجب ٩٧ - ذو الحجة ٩٧ هـ) ، ابن أخت موسى بن

(١) أعلاه ، ٧٨ - ٨٣ .

(٢) العبر ، ٢٥٥/٤ (= نفح الطيب ، ١/٢٢٤) .

(٣) العبر ، ٢٥٦/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢١ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٦ .

(٤) البيان المغرب ، ٢٤/٢ . كذلك : أعلاه ، ١٣٩ .

(٥) راجع : أعلاه ، ١٥٩ .

نُصِيرٌ^(١) . وفي ولادته أو ولادة **الحرّ** (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠ هـ) - بعده - جُعلَتْ قُرْطُبَةَ عاصمةً للأنْدَلُس ، بديلة إشبيلية . واستمرتْ قُرْطُبَةَ كذلك حتى نهاية عهد الخلافة الأندلسية (أوائل القرن الخامس الهجري) .

« ثم اجتمع أهل الأنْدَلُس على تقديم أيوب هذا ، يؤمّهم لصلاتهم ، وكان رجالاً صالحاً . وأقاموا مدة دون أمير ، ونقلوا دار السلطان إلى قُرْطُبَةَ ، فتقدم **أيوب بن حبيب** ، واحتل بقصر قُرْطُبَةَ ، وكان مُغيث قد اختره لنفسه . »^(٢)

ذلك أن موسى لما استُدعيَ إلى الشام عاد هو وطارق ومُغيث وقادة آخرون ، مع من أراد العودة من الجنيد ، ومرروا بطليطلة ثم بقرطبة . ورأى موسى أن هذا القصر أو الدار تناسب حاكم قُرْطُبَةَ « فأقبل إلى قُرْطُبَةَ فقال لِمُغيث : إن هذا البلاط ليس يصلح لك إنما يصلح لولي قُرْطُبَةَ فاعتراض مكانه ، فاعتراض مُغيث داراً فوق باب الجزيرة وهو باب القنطرة مقابل اللُّؤْلُؤَةَ التي دخل منها أصحابه حين افتتح قُرْطُبَةَ ، وكانت داراً شريقة ذات سقفي وزيتون وثمار يقال لها اليُسَانَةَ ، كان للملك الذي أسره وكان له فيها بلاط متين شريف ، فهي تُسمى بالأندلس بلاط مُغيث . »^(٣)

يقع بلاط مُغيث في غرب قُرْطُبَةَ عند باب العطارين (باب إشبيلية) واستبدلها مُغيث بدار أخرى في شرق قُرْطُبَةَ ، عند مكان دخول الفاتحين إليها ، مع السرية التي قادها مُغيث وقت فتحها ، وعاد مغيث إلى الأنْدَلُس - بعد فتحها - ليقيم فيها « وأنسل بقرطبة البيت المذكور »^(٤) ، بيت « بنو مُغيث » المعروف ، ظهر منه عدة أعلام أنْدَلُسِيَّة^(٥) .

(١) نفح الطيب ، ١٣/٣ (نقل عن ابن حيان) . (٢) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٣) أخبار مجموعة ، ٢١ . الظاهر أن اسم الدار هذه على سميتها مدينة اليسانة (Lucena) من أعمال قرطبة ، وبينهما أربعون ميلاً . راجع : نفح الطيب ، ١٦٥/١ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢٠٠ (= الخلل السندي ، ١٣١/١) ؛ درة الرجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، ٥٩/٣ ؛ التكملة ، ٦٥٧/٢ .

(٤) نفح الطيب ، ١٢/٣ .

(٥) نفح الطيب ، ١٢/٣ ؛ الحلقة السيراء ، ١٣٥/١ ؛ المغرب في حل المغرب ، ١١٧،٤٤/١ ، ١٥٩ ؛ المقتبس (القاهرة) ، ١٦٥/٢ ، ٢٦٤ ؛ أدناه ، ٢٤٤ وبعدها .

يلاحظ غموض بعض النصوص حول معرفة موضع دار مُغيث الأولى أو الثانية ، التي اعتراض بها ، وأيّهما حملت اسم « بَلَاطِ مُغِيثٍ » ؟ في نص أخبار مجموعة السابق غموض وارتباك . فهل أن دار مُغيث الأولى شرق قُرطبة أم غربيها ؟ جاء في *نفح الطيب* ذكر « بَلَاطِ الْحَرَّ » شرق قُرطبة^(١) . فهل هي دار الحر ، والي الأندلس ، أو هي دار أخرى ابنتها ، لأنه لم يسكن بَلَاطِ مُغيث ؟ وهل هو « بَلَاطِ لُدْرِيقٍ » المذكور في *نفح المقرري* كذلك^(٢) .

أعانت عدّة نصوص على معرفة موقع « بَلَاطِ مُغيثٍ » وأنه غربي قُرطبة ، وتحوّل عنه مُغيث ، مُعتاضاً بآخر شرق قُرطبة . وغير واضح تماماً إذا كان « بَلَاطِ مُغيثٍ » دار سكني والي الأندلس أو دار الحكومة أو كليهما .

ورد في *البيان المغربي* أنَّ الوالي أيُوب لما نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة نزل في قصر اختلطه مغيث وتركه « فتقدَّمَ أَيُوبُ بْنُ حَبِيبٍ ، واحتلَّ بِقَصْرِ قُرطبة ، وَكَانَ مُغِيثٌ قَدْ اخْتَطَّهُ لِنَفْسِهِ . ذَكَرَ أَنَّ مُوسَى بْنَ نُصَيْرَ ، حِينَ أَقْلَعَهُ رَسُولُ الْوَلِيدِ ، رَجَعَ فِي قُفُولِهِ عَلَى طَرِيقِ طَارِقِ لِيَخْتَبِرَ الْأَنْدَلُسَ ، فَتَرَلَ قُرطُبَةَ وَقَالَ لِمُغِيثٍ : (إِنَّ هَذَا الْقَصْرَ لَا يَصْلِحُ لِكَ . وَإِنَّمَا يَصْلِحُ لِلْعَامِلِ الَّذِي يَكُونُ بِقُرطُبَةِ) . فَتَسَخَّنَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ . وَنَزَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَيُوبُ بْنُ حَبِيبٍ .»^(٣) .

يتحدَّث ابن بشكوال - في كتاب له مفقود - عن خطط مدينة قُرطبة (وهو موضوع جدير بالجهد العلمي) ، فيذكر عدد أربابها (أحياناً) وأنَّ ربَّض بَلَاطِ مُغيث واحد من تسعه أرباب يحتويها غربي قرطبة : « أَنَّ عَدْدَ أَرْبَابِ قُرطُبَةَ عَنْدَ اِنْتِهَا فِي التَّوْسُعِ وَالْعِمَارَةِ وَاحِدًا وَعِشْرُونَ رَبَّضًا ، مِنْهَا الْقِبْلِيَّةُ بَعْدَوَةِ النَّهَرِ : رَبَّضٌ شَقْنَدَةُ ، وَرَبَّضٌ مُنْيَةُ عَجَبٍ ؛ وَأَمَّا الغَرِيَّةُ فَتَسْعَةُ : رَبَّضٌ حَوَانِيَتُ الرَّيْحَانِ ، وَرَبَّضٌ الرَّقَاقِينِ ، وَرَبَّضٌ مَسْجِدُ الْكَهْفِ ، وَرَبَّضٌ بَلَاطِ مُغيثٍ ، وَرَبَّضٌ مَسْجِدُ الشَّفَاءِ ، وَرَبَّضٌ حَمَّامُ الْإِلَبِيرِيِّ ، وَرَبَّضٌ مَسْجِدُ الْمَسْرُورِ ، وَرَبَّضٌ

(١) *نفح الطيب* ، ٣٤/٣ .

(٢) *نفح الطيب* ، ٢٥٥/١ .

(٣) *البيان المغربي* ، ٢٥/٢ .

مسجد الرَّوْضَة ، وَرَبَضُ السَّجْنِ الْقَدِيم ؛ وَأَمَا الشَّمَالِيَّةُ فَثَلَاثَةٌ : رَبَضُ بَابِ الْيَهُودِ ، وَرَبَضُ مسجد أُمِّ سَلَمَةَ ، وَرَبَضُ الرَّصَافَةِ ؛ وَأَمَا الشَّرْقِيَّةُ فَسَبْعَةٌ : رَبَضُ شَبُّلَارَ ، وَرَبَضُ فُرْنُ بِرِيلَ ، وَرَبَضُ الْبُرْجَ ، وَرَبَضُ مُنْيَةِ عِبْدِ اللَّهِ ، وَرَبَضُ مُنْيَةِ الْمُغْيِرَةِ ، وَرَبَضُ الزَّاهِرَةِ ، وَرَبَضُ الْمَدِينَةِ الْعَتِيقَةِ .»^(١)

لابن حَزَمِ الْأَنْدَلُسِيِّ (قُرْطُبَةَ ، ٣٨٤ - لَبَلَةَ ، ٤٥٦ هـ) نَصَانَ ، يصف حالة قُرْطُبَةَ وانتقال أُسرته من شرقها إلى غربها ، في الفتنة التي تلت انهيار سلطان الخلافة الأندلسية وأورثت انفراط عَقْدَ وَحْدَةِ الْأَنْدَلُسِ ، فكانت الطوائف . ويفيد النصان في بيان وتأكيد مكان «بِلَاطِ مُغِيثٍ» - الذي كان له أولاً - في غرب قُرْطُبَةَ : ثُمَّ اعتاض به مغيث داراً آخر - شرق قُرْطُبَةَ - سكنه لما عاد إلى الأندلس ، وتوارثها أبناؤه . لكن الدار الأولى - غرب قرطبة - بقيت حاملة لاسمها «بِلَاطِ مُغِيثٍ» ، دون الدار الشرقية .

يَذَكُرُ ابن حَزَمُ فِي طَوْقِ الْحَمَامَةِ فِي الْأُلْفَةِ وَالْأَلْافِ : «ثُمَّ انتقل أبِي رَحْمَةَ اللَّهُ - مِنْ دُورِنَا الْمُحْدَثَةِ بِالْحَاجِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ قُرْطُبَةَ فِي رَبَضِ الزَّاهِرَةِ إِلَى دُورِنَا الْقَدِيمَةِ فِي الْحَاجِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ قُرْطُبَةَ بِبِلَاطِ مُغِيثٍ ، فِي الْيَوْمِ الْثَالِثِ مِنْ قِيَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ بِالْخَلَافَةِ . وَانْتَقَلَتْ أَنَا بِاِنْتِقَالِهِ ، وَذَلِكَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ تِسْعَ وَتَسْعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ»^(٢).

ونصه الآخر - يرثي به قُرْطُبَةَ - في صورتين : واحدة دَوَّنَهَا ابنُ حَيَّانَ

(١) نفح الطيب ، ٤٦٥ / ١ - ٤٦٦ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢ / ١٠٣ .

المدينة : هي القصر والدار الكبيرة العاصرة ذات حدائق واسعة . والرصافة : اسم الربض الذي فيه القصر مسميه ، ابنته ابن رزين وأشتراء الداخل منه . أعلاه ، ١٣٨ . عن رصافة قرطبة ، انظر : المقتبس ، ٢٢٧ / ٢ - ٢٢٨ ، ٢٣٤ ؛ الروض المطار ، ٧٨ ؛ نفح الطيب ، ١٨١ / ١ ، ٣٩٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ - ٤٧٠ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٩٠ ؛ البيان المغرب ، ٦٠ / ٢ ؛ الحلقة السيراء ، ٣٧ / ١ ؛ صورة الأرض ، ١٠٨ .

ولمدينه بنسية رصافة كذلك تقع في غربها . انظر : المغرب ، ٢٩٨ / ٢ ، ٣٤٢ ؛ الروض المطار ، ٧٨ ؛ نفح الطيب ، ١٨١ / ١ ، ٢٢١ / ٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٦ (نص ابن الكردبوس) ؛ الذيل والتكميلة ، ٣٧٠ / ١ / ٥ .

(٢) طوق الحمامَة ، ابن حزم ، ١١١ . انظر : نفح الطيب ، ٧٨ / ٢ .

(قرطبة ، ٣٧٧ - قرطبة ، ٤٦٩ هـ) ونقله عنه ابن الخطيب (لوشة ، ٧١٣ - فاس ، ٧٧٦ هـ) في كتابه *أعمال الأعلام* فيما يُوجَع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يَجْرِي ذلك من شجون الكلام^(١). وردت صورة أخرى لهذا النص في طرق الحمامنة وبين الصورتين قليل من الاختلاف غير المخل. يشير ابن حيان إلى تفَجُّع ورثاء الفقيه الأديب (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم) لقرطبة، حين طالعتها الفتنة المضدية إلى الطوائف. وأنه وجد بخطه: «وقفت على أطلال منازلنا، بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية . . .»^(٢). أمّا صورة نص طرق الحمامنة: «ولقد أخبرني بعض الوراد من قرطبة، وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا بسلام مغيث، في الجانب الغربي منها وقد امتحن رسومها . . .»^(٣) كل هذه النصوص تُعيّن لنا موقع بلاط مغيث - الذي كان له أولاً - في غرب قرطبة، ثم اعتاض به آخر في شرقها. فحمل الأول - الذي في غربها - اسمه. وسمى الحي الذي فيه به «ربض بلاط مغيث» في غربي قرطبة.

ب - الجهاد في الأندلس

تابع الولاة الأندلسيون^(٤). وهناك أسباب عدّة أدّت إلى كثرةهم في سنوات قليلة، ولهذه الظاهرة نتائجها. حكم الأندلس عشرون ولياً في أربعين سنة، تولى اثنان منهم الأمر مرتين، هما: عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطآن.

(١) ذكر اسم الكتاب هكذا في: *نفح الطيب* ، ١٠٠/٧ .

(٢) *أعمال الأعلام* ، ١٠٦/٢ ؛ مجلة الأندلس الإسبانية (*AL-ANDALUS*) ، ١٥/١ ، ٣٦١ .

(٣) طرق الحمامنة ، ٩٤ . قارن: طرق الحمامنة ، ١١٨ . انظر كذلك عن بلاط مغيث: الصلة ، ابن بشكوال ، ٢٤/١ ، ٢٥٨ ، ٤٩٦/٢ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١/٥٦ (رقم:

١٨٦ ، ١٠٨) (رقم: ٣٣٥) . قارن: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، سالم ، ١/١٤ ، ٢٦-٢٧ . رثاء قرطبة - نثار أو شرار - يمكن بمحضه ضمن موضوع: «رثاء البلداي في الأندلس» الجدير بالعناية . عن رثاء قرطبة انظر: *نفح الطيب* ، ١/٥٥٧ ، ٥٠٠/١ ، ٦٢٩ .

(٤) انظر: *أعلام* ، ١٣١ .

وهذا التبدل قد يؤدي إلى عدم الاستقرار الدائم الذي يُنبع الاستمرار في الفتح وتنفيذ خطوات الإصلاح ، مع ذلك فقد كانت هناك سنوات من الاستقرار ، خلال هذه المدة ، وكلما ساد الاستقرار تأكّدت وحدة الأندلس وقوّت شوّكته وبرزت عناصر الجهاد وحب نشر العقيدة . لذلك نرى – في مثل تلك الأوقات – استمرار عمليّات الفتح ، لا في الأندلس ولكن أيضاً فيما وراء جبال البرت في فرنسا ، التي اعتاد المؤرخون والجغرافيون المسلمين – لا سيّما الأندلسيون – أن يُسمّوها : « الأرض الكبيرة » ، ولا تعني حدوداً ثابتةً دوماً . فقد تعني كلَّ أو بعض المناطق والبلدان الواقعة خلف جبال البرت ، أي : تشمل عدداً من الدول الأوروبيّة وخاصة فرنسا^(١) .

يتبيّنُ من النصوص المتوفرة أنَّ جُهودَ المسلمين وجِهادَهم – في هذا العهد – كانت كثيرة وفيّة ، تجاه ما تتطلّبه الحياة الجديدة في الجزيرة الأندلسية وما حدثَ مِنْ تَبَدُّلٍ شاملٍ ، نتيجة دُخُولها رحاب الإسلام ، وغَطَّى جزءٌ منها حاجةَ بعض المناطق الشماليّة إلى فتح جديد أو تثبيته وتأكيده أو إعادة له ، وقد ذُكر جهاد عدد من الولاية فيها .

وغير واضحٍ – تماماً – المدن التي فتحها الولاية داخل الجزيرة الأندلسية . وحين يتحدّثُ بعضُ مؤرخينا عن عهد الولاية تقدّمُ أحياناً صورةً مجملةً – على ما يبدُو – لحالة العهد وجهاده ، داخل الأندلس وخارجها . يُشير ابن عذاري إلى جهاد عنْبَسَة – يظهر أنه خلف البرت – فيخبر أنه قاتل الرومَ وحاصرَهم « حتَّى صالحُوهُ »^(٢) . كما يذكر ابن خلدون في عيْره عن الولاية المتابعين أنهم « افتتحوا برشلونة من جهة الشرق وحصونَ قشتالة وبسائطها ، من جهة الجوف »^(٣) . نعرف – مما سبق^(٤) – أنَّ برشلونة وقشتالة وما حولهما من مناطق

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٦٧ ؛

Andalusian diplomatic relations, 102, 272.

(٢) البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

(٣) العبر ، ٢٥٦/٤ (= فتح الطيب ، ٢٣٤/١) .

(٤) أعلاه ، ٩٢ ، ١٠٠ – ١٠٦ .

فُتُحَتْ أَيَّامَ الْفَتْحِ الْأَوَّلِ ، قَبْلَ عُودَةِ مُوسَى وَطَارِقٍ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقِ . فَهَلْ إِنَّ ابْنَ خَلْدُونَ – أَوْ مَنْ نَقَلَ عَنْهُ – أَدْخَلَ عَهْدَ الْفَتْحِ الْأَوَّلِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُخْتَصَرَةِ لِهَذِهِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي أَجْمَلَ عَرَضَهَا مُسْرِعًا ؟ أَوْ أَنَّهُ – فَعَلًا – جَرَى نِشَاطٌ جَهَادِيٌّ – مِنْ أَيِّ لَوْنٍ وَدَرْجَةٍ – فِي هَذِهِ الْمَنَاطِقِ ؟ ذَكَرْتُ بَعْضَ مَصَادِرِنَا الْأَنْدَلُسِيَّةَ – حِينَ أَفْرَدَتِ الْحَدِيثَ عَنْ كُلِّ مَنْ وُلِّهَ الْأَنْدَلُسُ – جَهَادَ نَفْرٍ مِنْهُمْ دَاخِلَ الْأَنْدَلُسُ ، مِثْلَمَا مَرَّ بِنَا عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى^(١) ، وَآخَرِينَ سَيِّدُنَاهُمْ الْحَدِيثَ ، « وَكَانَ مَنْ وَصَفَنَا مِنْ الْوُلَاةِ يُجَاهِدُونَ الْعَدُوَّ وَيَتَوَسَّعُونَ فِي الْبَلَادِ حَتَّى يَلْغَوْا إِفْرَانَجَةَ وَهَنَى افْتُتَحَتْ عَامَةُ الْأَنْدَلُسِ »^(٢) . الْحَقُّ أَنَّ تَلْكَ هِيَ الصَّفَةُ لِلْوُلَاةِ ، لَوْلَا مَا كَدَرَهَا مِنْ تَلَكُؤٌ وَتَمْكِينٌ وَتَفْنِيدٌ لِبَعْضِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ^(٣) .

وَرَدَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ مَيْزَاتِ خَيْرَةِ وَمَؤَهَّلَاتِ كَرِيمَةِ وَجَهُودِ غَيْرِ قَلِيلَةِ لِكُثْرَةِ مِنِ الْوُلَاةِ ، حَتَّى بَعْضُ أُولَئِكَ الَّذِينَ غَاضَتْ عَنْهُمُ الْمَعْلُومَاتُ أَوْ أَقَامُوا فِي الْوُلَايةِ شَهُورًا قَلِيلَةً ، مِثْلَ :

* عُذْرَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفَهْرِيِّ (شَعْبَانُ ١٠٧ هـ : وَلَايَتُهُ شَهْرَانُ) . « ذَكَرَ الْحَجَارِيُّ أَنَّ عُذْرَةَ كَانَ مِنْ صُلَّاحَيْهِمْ وَفُرْسَانَهُمْ »^(٤) .

* مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْجَعِيِّ (١١١ : وَلَايَتُهُ شَهْرَانُ) ، الَّذِي « كَانَ فَاضِلًا فَصَلَّى بَيْنَ شَهْرَيْنِ »^(٥) .

يُذَكِّرُ صَاحِبُ أَخْبَارِ مَجْمُوعَةِ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَبْحَابِ وَالِي « إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ كُلُّهُ »^(٦) (رَبِيعُ الْآخِرَةِ ١١٦ – ١٢٣ هـ) لِمَنْ خَيَرَ عُقُوبَةَ بْنَ الْحَجَاجَ السَّلْوَلِيَّ (شَوَّالُ ١١٦ – ١٢١ هـ) بَيْنَ وِلَايَةِ إِفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ « اخْتَارَ عُقُوبَةَ

(١) أَعْلَاهُ ، ١٧٤ .

(٢) أَخْبَارُ مَجْمُوعَةِ ، ٢٥ .

(٣) انْظُرْ مثلاً : نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١٩/٣ ؛ أَعْلَاهُ ، ١٣٣ .

(٤) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١٧/٣ .

(٥) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١٨/٣ ؛ التَّكْمِلَةُ ، ١/٣٥٤ (كَلَاهُمَا نَقْلًا عَنْ أَبْنِ بَشْكُوَالِ) .

(٦) الْبَيَانُ الْمَغْرِبِ ، ٥١/١ .

الأندلسـ وقال : إني أحبـ الجهاد ، وهي موضعـ جهاد ، فولـاهـ فدخلـ الأنـدلـسـ سنةـ عشرـ وـمـئـةـ ، فأقامـ علىـهاـ سـنـينـ ، وافتـتحـ حـتـىـ بـلـغـ أـربـوـنـةـ ، وافتـتحـ جـلـيـقـيةـ وأـلـبـةـ وبـنـبـلـوـنـةـ ولمـ تـبـقـ جـلـيـقـيةـ قـرـيـةـ لمـ تـفـتـحـ غـيرـ الصـخـرـةـ «^(١) . يـذـكـرـ ابنـ عـذـارـيـ أـنـ عـقـبـةـ «ـ كـانـ يـجـاهـدـ الـمـشـرـكـينـ فـيـ كـلـ عـامـ ، وـيفـتـحـ الـمـدـائـنـ . وـهـوـ الـذـيـ فـتـحـ مـدـيـنـةـ أـرـبـوـنـةـ ، وـافتـتحـ جـلـيـقـيةـ وبـنـبـلـوـنـةـ ، وـأـسـكـنـهـ الـمـسـلـمـونـ . وـعـمـتـ فـتوـحـاتـهـ جـلـيـقـيةـ كـلـهـاـ غـيرـ الصـخـرـةـ . »^(٢)

يـرـوـيـ المـقـرـيـ عنـ اـبـنـ بـشـكـوـالـ بـعـضـ الـذـيـ ذـكـرـ فـيـ النـصـيـنـ السـابـقـيـنـ ثـمـ يـزـيدـ عـلـيـهـمـاـ . ذـلـكـ أـنـ الـوـالـيـ عـقـبـةـ بـنـ الـحـاجـاجـ السـلـوـلـيـ قـدـمـ الـأـنـدلـسـ «ـ فـأـقـامـ بـهـ سـنـينـ مـحـمـودـ السـيـرـةـ ، مـثـابـرـاـ عـلـىـ الـجـهـادـ ، مـفـتـحـاـ لـلـبـلـادـ ، حـتـىـ بـلـغـ سـكـنـىـ الـمـسـلـمـينـ أـرـبـوـنـةـ وـصـارـ رـبـاطـهـ عـلـىـ نـهـرـ رـوـدـنـهـ . فـأـقـامـ عـقـبـةـ بـالـأـنـدلـسـ سـنـةـ إـحـدـىـ وـعـشـرـينـ وـمـئـةـ ، وـكـانـ قـدـ اـتـخـذـ بـأـقـصـىـ ثـغـرـ الـأـنـدلـسـ الـأـعـلـىـ مـدـيـنـةـ يـقـالـ هـاـ أـرـبـوـنـةـ كـانـ يـنـزـلـهـ لـلـجـهـادـ »^(٣) .

يعـنيـ هـذـاـ : أـنـ جـيـوبـاـ صـغـيرـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـنـاطـقـ بـعـدـ الـفـتـحـ الـأـوـلـ – كـانـ الـوـلاـةـ يـفـتـحـوـنـهـاـ ، أـوـ فـلـوـلـاـ تـجـمـعـ لـلـمـقاـوـمـةـ وـتـحـصـنـ فـيـ مـنـاطـقـ نـائـيـةـ فـيـ هـذـهـ الـأـماـكـنـ ، أـوـ كـلـاـ الـأـمـرـيـنـ كـانـ يـتـمـ »^(٤) .

قامـ عـدـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـوـلاـةـ بـجـهـادـ وـفـرـ خـلـفـ الـبـرـتـ ، وـالـظـاهـرـ أـنـ لـوـلـ رـؤـيـةـ الـوـلاـةـ اـسـتـيـابـ الـفـتـحـ فـيـ الـجـزـيـرـةـ الـأـنـدلـسـيـةـ لـمـ أـقـدـمـواـ كـثـيرـاـ عـلـىـ نـقـلـ مـيـدانـ الـجـهـادـ وـرـاءـ الـبـرـتـ ، وـغـيرـ بـعـيدـ أـنـ مـجـمـوعـاتـ كـانـتـ تـرـدـ إـلـىـ شـمـالـيـ الـأـنـدلـسـ – مـنـ أـيـ مـعـبـرـ فـيـ الـبـرـتـ – لـمـاعـونـةـ الـفـلـوـلـ عـلـىـ الـوـقـوفـ وـالـمـحـارـبـةـ . وـقـدـ قـصـدـ الـوـلاـةـ – مـعـ الـفـتـحـ أـيـضاـ ، وـرـاءـ الـبـرـتـ – قـطـعـ مـصـدرـ هـذـاـ الإـمـدادـ .

لـدـيـنـاـ أـخـبـارـ فـرـديـةـ عـنـ مـجـاهـدـيـنـ فـيـ الـأـنـدلـسـ ، لـابـدـ أـنـهـمـ ذـهـبـوـاـ فـيـ أـعـمـالـ جـهـادـ

(١) أـخـبـارـ مـجـمـوعـةـ ، ٢٧ـ ـ ٢٨ـ . كـذـلـكـ : الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ ، ٢٩ـ /ـ ٢ـ ؛ فـنـحـ الـطـيـبـ ، ٢٣ـ /ـ ١ـ ، ١٧ـ /ـ ٣ـ .

(٢) الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ ، ٢٩ـ /ـ ٢ـ .

(٣) فـنـحـ الـطـيـبـ ، ١٩ـ /ـ ٣ـ .

(٤) فـنـحـ الـطـيـبـ ، ٤١ـ /ـ ١ـ ، ٤١٦ـ ، ٤١٤ـ /ـ ١ـ ؛ الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ ، ٢٩ـ /ـ ٢ـ ، ٢٩ـ /ـ ٥ـ .

جماعي . ورود « الأندلس » موضعاً لجهاد بعض الرجال ، يعني : « الأندلس » أو وما فلّاها ، أحياناً . قد تعني « الأندلس » – في تعبير بعض الكتاب الأندلسيين – شبه الجزيرة الأندلسية . إلا أن ذلك ليس دواماً ، وأحياناً مع عدم وجود قرينة . في هذه الحال يكون إدراك القصد أصعب .

ذُكِرَ – في ترجمات عدد من الأشخاص – جهادُهم في الأندلس واستشهادُهم فيها أو وراء البرُّت . حدث ذلك بعد مدة الفتوح الأولى – في عهد الولاة – و كانوا وافياً من تاريخ الاستشهاد .

* التابعي : أبو ثُمَامَة (١٢٨ هـ) ، « قيل إنه غَرِق في بحار الأندلس . »^(١) أو في سِجَارَتها ، كما أورده المقرري^(٢) .

* أبو سعيد عبد الرحمن بن بشير بن الصارم الغافقي ، وهو غير سَمِيَّ ولَقَبِيهِ والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي (صَفَر ١١٢ – رمضان ١١٤ هـ) . لا يذكر ابنُ الفَرَضِي عن جهاد ابن بشير هذا زيادة على أن « قَتَلَهُ الرُّومُ بالأندلس . »^(٣) بعد وفاته عل سليمان . ولعل رغبةَ ابن بشير في الجهاد بالأندلس كانت السبب في وفاته تلك ، وغير واضح تاريخ هذا الجهاد وموضعه ، وكيف قضى صاحبه ومن كانوا معه ، ولا إذا كان ابن بشير قد جَرَّبَ الجهاد فيها قبل ذلك في عهد الفتح الأول . لكن عبارة جَدُّوهُ الْحُمَيْدِي تُفيدَ معنى وتزييد بياناً . أن ابن بشير « رَجَعَ إِلَى الأندلس ، فاستُشهدَ بها في قتال الروم »^(٤) . ذلك أن لأن بشير تجربة جهادية سابقة في الأندلس أيام افتتاحها ، ورجع إليها ليتحقق رغبته في خدمة الإسلام ونفيه في الاستشهاد ، زيادة في الأجر والثواب والقربى من الله تعالى . فذهب قرير العين شهيداً . لكن الوصول إلى معرفة موضع وتاريخ وتفاصيل ذلك ما يزال عسيراً .

* نُعَيْمَ بن عبد الرحمن بن مُعاوِيَة بن حُدَيْجَ السَّكُونِي (يوم عَرَفة ١٠٣ هـ) . جَدُّه مُعاوِيَة بن حُدَيْج (٥٢ هـ) ، صحابي « مَنْ وَقَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

(١) رياض النفوس ، ٧٤/١ . كذلك : أعلاه ، ١٥١ .

(٢) نفح الطيب ، ٥٦/٣ – ٥٧ . (٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٥٦/١ .

(٤) جنة المقتبس ، ٢٧١ (= بغية الملتمس ، ٣٦١) .

عليه وسلم . شَهَدَ فَتْحَ مِصْرَ ، وَكَانَ الْوَارِدَ بِفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ عَلَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، وَذُبِّحَ عَيْنُهُ يَوْمَ دُمْقَلَةَ مِنْ بَلْدِ التُّوبَةِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي سَرْحٍ سَنَةً إِحْدَى وَثَلَاثَيْنَ^(١) . كَانَ نُعَيْمَ إِذْنَ : « مِنْ جَمْلَةِ مَا دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ لِلْجَهَادِ فِيهَا ، قُتِلَ الرُّومُ بِهَا فِي يَوْمِ عَرَفَةَ سَنَةِ ثَلَاثَ وَمِائَةٍ »^(٢) ، وَنَجَّهَ التَّفْصِيلَاتِ الْأُخْرَى .

* النَّعْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النَّعْمَانَ الْخَضْرَمِيُّ مِنْ آلِ الرَّأْسَيْنِ « كَانَ رَجُلًا صَالِحًا زَاهِدًا ، كَثِيرَ الصَّدَقَةِ ، وَكَانَ تَصَدَّقَ بِعِطَائِهِ كُلُّهُ ، وَكَانَ يَسْكُنْ بِرَقَّةَ »^(٣) . حَازَ شَرْفَ الْجَهَادِ فِي فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ الْأَوَّلِ ، دَخَلَهَا مَعَ طَارِقَ أَوْ مُوسَى ، وَلَعِلَّهُ عَادَ مَعَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقَ ، أَوْ بَعْدِ ذَلِكَ . وَفَدَ عَلَى سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ أَخِيهِ مُجَاهِدِهِ آخِرَهُ . وَكَانَ حَتَّىْنِ الْعُودَةِ إِلَى الْجَهَادِ يَمْلَأُ كِيَانَهُ ، وَتَلَكَ أَمْنِيَّةَ ، فَكَانَتْ . اسْتُشْهِدَ فِيهَا فَرِحًا نَّشْوَانًا مَعَ اخْوَانَهُ هُنَاكَ ، « دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ لِلْجَهَادِ ، وَوَفَدَ مِنْهَا إِلَى سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِخَبْرِ فَتْحِ هُنَاكَ ، وَمَعَهُ مُحَمَّدَ بْنَ حَبِيبِ الْمَعَافِرِيِّ ، فَقَالَ لَهُمَا سَلِيمَانُ : أَرْفَعَا حَوَاجِنَكُمَا . فَأَمَّا الْمَعَافِرِيُّ ، فَرَفَعَ حَوَاجِنَهُ فَقُضِيَّتْ ، وَأَمَّا النَّعْمَانُ فَقَالَ : حَاجِيُّ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى تَغْرِيَةِ لَا تَسْأَلِي عَنْ شَيْءٍ ، فَأَذْنَ لَهُ فَرَجَعَ ، وَاسْتُشْهِدَ فِي أَقْصَى الشُّغُورِ بِالْأَنْدَلُسِ »^(٤) .

تَلَكَ بَعْضُ أَمْثَالَةِ جَهَادِيَّةٍ تُسَيِّرُ إِلَى جَهُودِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَوَاصِلَةِ الَّتِي لَا تَعْرُفُ الْكُلُّ ، بَلْ فِيهِ تَجَدُّدُ الْرَّاحَةِ وَالْأَمْنِيَّةِ . وَمَا كَانَ هُؤُلَاءِ يَقُولُونَ بِجَهَادِهِمْ ذَاكَ مُنْفَرِدِينَ بَلْ فِي عَمَليَّاتِ مُشَرَّكَةٍ مُنظَّمةٍ .

يُفْهَمُ — مِنَ النَّصْوصِ الْوَارِدَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا — أَنَّ جَهَادَ هُؤُلَاءِ كَانَ دَاخِلَ الْجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَلَيْسَ فِيمَا وَرَاءَ الْبُرْتُ . لَأَنَّ الْأَنْدَلُسَ كَانَتْ لَهُ ثَغْرٌ أَقَامَهُ وَرَبَّاطٌ جَهَادٌ . لَكِنَّ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مَقْصُورًا عَلَى الْأَنْدَلُسِ : أَمَامُ جَبَالِ الْبُرْتُ . إِذَا وَرَدَتْ أَخْبَارٌ مَمَاثِلَةٌ عَنْ جَهَادِ أَشْخَاصٍ فِي بَلَادِ « الرُّومِ »

(١) جُنُوَّةُ الْمَقْبِسِ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ . كَذَلِكَ : الْإِسْتِيَّابُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَصْحَابِ ، ١٤١٣/٣ .

(٢) جُنُوَّةُ الْمَقْبِسِ ، ٣٥٩ (= بَنْيَةُ الْمَلَقِسِ ، ٤٧٨) .

(٣) جُنُوَّةُ الْمَقْبِسِ ، ٣٥٨ . كَذَلِكَ : تَارِيخُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، ١٥٩/٢ .

(٤) جُنُوَّةُ ، ٣٥٨ (= بَنْيَةُ ، ٤٧٨) . كَذَلِكَ : تَارِيخُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، ١٥٩/٢ .

واستشهادهم في أحد «شُغُور الأندلُس» أو مكان فيها . جَدَّ مَعْلُومُهُمْ فَعَلُوا ذلك واستُشهِدوا في بلاد الفرْتَج وراء الْبُرْتَ من الأرض الكبيرة . إن «الروم» مصطلح عام يُستعمل — أحياناً — لأكثر من أهل بلد أوري ، منهم سكان الجزيرة الإيبيَّة غير الأندلُسيين^(١) . «الأندلُس» في اعتبار هؤلاء الكتاب شَملَت كلَّ أرض افتتحها المسلمون وجاهدوا فيها ، ابتداءً من عبورهم زُقاق الجزيرة ، خلال مدة الفتح المبكر (الفتح الأول والولاة) . بعض الأرض الكبيرة تنضوي تحت جَنَاح مُصطلح «الأندلُس»^(٢) ، أحياناً .

ذكر الحُمَيْدِي (جزيره مَيُورُقَة ، قبل ٤٢٠ — بغداد ، ٤٨٨هـ) في جَذَّوته — حين الحديث عن الوالي الغافقي — أنه «استشهد في قتال الروم بالأندلس»^(٣) . ومثله ابن الفَرَاضِي في تعبيره^(٤) . أما ابن عِذاري فيقول عن الغافقي إنه «استُشهد في أرض العدو في رمضان سنة مئة واربع عشرة .»^(٥) ومعلوم تماماً أن الغافقي استشهد في «بلاط الشهداء» في فرنسا من الأرض الكبيرة ، بين مدينتي : تور (Tours) وبواتيه (Boaties Poitiers)^(٦) . وذُكرَ مثل ذلك عن موضع استشهاد السَّمْخ بن مالك^(٧) ، سهواً .

يَدْكُر ابن خَلَدون دخولَ الغافقي الأندلس وقيامه بجهاد نشيط في بلاد الإفْرَتَج ، حيث كانت معركة «بلاط الشهداء» في رمضان سنة أربع عشرة ومئة^(٨) . المعلومات المقتضبة السابقة عن هؤلاء الذين قَضَوْا شهادة ، تدعنا بتجاهل تفاصيل

(١) نصوص عن الأندلس ، العنري ، ٧؛ جغرافية الأندلس وأوروبا ، البكري ، ٧٢ ، ١٧١، ٨٥ ، ١٧١، ١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ؛ نفح الطيب ، ٣٦٦/١ .

Andalusian diplomatic relations , 159 n. , 189, 196 n. , 207, 245.

(٢) قضاة قرطبة ، ٥٩ ؛ Andalusian, 32 .

(٣) جنوة المقبيس ، ٢٧٤ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٥٦/١ .

(٥) البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٦) انظر : أدناه ، ١٩٤ وبعدها .

(٧) نفح الطيب ، ١٥/٣ (= أدناه ، ١٨٥ - ١٨٦) .

(٨) العبر ، ٤/٢٥٨ (= نفح الطيب ، ٢٣٦/١) . كذلك : نفح الطيب ، ١٦/٣ .

عدة لأمورهم ومتطلقات جهادهم ، وموضع وتاريخ استشهادهم . وغير بعيد كذلك أن يكون بعض هؤلاء وغيرهم — جنداً وقادة — من التابعين .

لم يكن عهد الولاية إذن يخلو من عمليات جهاد — جديدة أو متممة — متفرقة ، داخل الجزيرة . شَغَلتُ عنها — فيما بعد — عدة أمور ، مع ظروف أخرى في الداخل والخارج كان لها أخطر التأثير .

٢ - الجهاد خلف البرْت

بلغت قوة المد الإسلامي وراء البرْت — خلال عهد الولاية — مبلغاً عالياً وحازت سبقاً كبيراً ، كان للمسلمين فيه نشاط واضح ، وقدّم عدد من الولاية كل التضحيات في هذا السبيل ، واستُشهد بعضهم في ميدان الجهاد في سبيل الله من أجل نشر العقيدة الإسلامية وحبها في خدمتها .

بذل السَّمْحُ بن مالك الحَوْلَاني (رمضان ١٠٠ - ذو الحجة ١٠٢ هـ) نشطاً واسعاً في جنوب فرنسا ، وأنفق جهوداً كبيرة في غالطة (Gaule) حتى طرَسْكُونَة (Tarascon) وطُولُوشة (Toulouse) عاصمة أقيطانيا (Aquitania) . وحدثت معارك عديدة هناك ، منها معركة بين المسلمين وبين دوق أقيطانيا ، واشتد القتال ، واستشهد كثرة من المسلمين ، معهم الوالي السَّمْحُ بن مالك الحَوْلَاني ، في يوم التَّرْوِيَة أو عَرَفَة سنة ١٠٢ هـ (١٠ حزيران ٧٢١ م) . ذَكَرَ ابن بَشْكُواه أن السمح « استُشهد بأرض الفِرَجْجَة يوم التَّرْوِيَة سنة الثَّتِين وَمِائَة . »^(١) والظاهر أن قول ابن حيَان الآتي — فيما يرويه المقرري — يتعلّق بهذه المعركة ، ولو أنه يُسمّيها « وقعة البَلَاط » سهواً أو اشارة لغيرها « قال ابن حيَان : كانت ولايته ستين وثمانية أشهر ، وذُكرَ أنه قتل في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلَاط ، وكانت جنود الإِفْرَنجَة قد تکاثرت عليه فأحاطت بال المسلمين ، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد »^(٢) . فهل أن هذا يخص الواقعة التي استُشهد فيها السَّمْحُ (ذو الحجة ١٠٢ هـ) .

(١) نفح الطيب ، ١٥/٣ .

(٢) المصدر نفسه .

أو ينْصُّ وقعة «بَلَاط الشَّهَدَاء» (رمضان ١١٤ هـ)^(١). غير بعيد أن يكون استشهاد السمح هو المقصود ، لأن المقرئ أورده حين الحديث عن استشهاده . ولعله تُعِين قرآن آخر في النص . وقد اختلف في تعين مكان و تاريخ المعركة^(٢) التي استُشهد فيها السمح بن مالك ، وهو بحاجة إلى تجوّل بين المصادر وانتظار مصادر أخرى جديدة . ذكرت مصادر : أن السمح استُشهد في طَرَسُونَة^(٣) (Tarazona) ، في أرض الروم . لكن طَرَسُونَة مدينة في شِمالي شِبه الجزيرة الأندلسية ، افتحها المسلمون مبكرًا ، لعله مدة الفتح الأول . ومصطلح «الروم» يستعمل – أحياناً – لكل الشعوب الأوروبية ، وهو غير مقصور على سكان شِبه الجزيرة الأندلسية ، كما سبقت الإشارة إليه^(٤) .

مصادر أخرى لا تذكُر مدينة ما – مكاناً لاستشهاده – إنما تُشير إلى أن السَّمْح استُشهد بأرض الفِرَنْجَة في ذي الحجة سنة اثنتين ومئة ، كما في نص ابن بشكُوك السابق وآخرين^(٥) . تُعنى الكلمة «الفِرَنْجَة» – عموماً – عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين سكان بلدان وراء البرُّت (الأرض الكبيرة)^(٦) ، لا سيما فرنسا . وتوجد جنوب فرنسا مدينة اسمها قريب من طَرَسُونَة ، هي : طَرَسُوكُونَة . لعل تحريفاً حدث أو سوء نقل جرى أثناء النسخ : من طَرَسُوكُونَة (جنوب فرنسا ، الفِرَنْجَة) إلى طَرَسُونَة (شِمال شَرقي سَرْقُسطَة ، الأندلس) .

كانت طَرَسُونَة قاعدة من قواعد شِمال الجزيرة الأندلسية . وهي مدينة (عاصمة) كُورَة تُطِيلَة^(٧) (Tudela) . ربما كانت أربُونَة تابعة لطَرَسُونَة إدارياً . فطَرَسُونَة «كانت مستقر العُمَال والقواد بالشُّغُور ، وكانت أبو عثمان

(١) لم سقطاً جرى خلال النقل .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ ؛ جنة المقتبس ، ٢٣٧ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ (رقم : ٥٨٦) ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٤) أعلاه ، ١٨٤ .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ (نقل عن الرازى) ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ ؛ العبر ، ٤/٢٥٧ . (= نفح الطيب ، ١/٢٣٥) .

Andalusian, 119 — 20, 272.

(٦)

(٧) نفح الطيب ، ١/٢٦٦ .

عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها مَحَلًاً وَأَثْرَهَا عَلَى مُدُنِ الْغُورِ^(١) متولاً ، وكانت تَرِدُّ عَلَيْهِ عُشْرُ مَدِينَة أَرْبُونَة وَبَرْشَلُونَة^(٢) .

أما تاريخ المعركة – التي استُشهدَ فيها السمح – فراجع أنه ذو الحجة سنة اثنتين ومئة ، في يوم التَّرَوِيَّة^(٣) أو عَرَفَة^(٤) . لذلك مدلوله ، وأيُّ مدلول^(٥) .

ـ ـ حُكُومَة سَبْتَمَانِيَّة إِسْلَامِيَّة

ولاية أو مقاطعة سَبْتَمَانِيَّة (Septimania) جنوب شرق فرنسا ، تَلْوَ جبال البرُّت . تعني : المقاطعة ذات المدن السبع ، منها : أَرْبُونَة وَقَرْقَشُونَة^(٦) . وكانت سَبْتَمَانِيَّة هذه أول ما وصلها مَدُّ الْجَهَادِ إِسْلَامِيٍّ ، منذ أيام السمح بن مالك الْحَوَلَانِي – إن لم يكن قبلها – الذي أشرف على قيام حُكُومَة إِسْلَامِيَّة فيها . نَظَمَ أَحْواهَا ، متخذًا من مدينة أَرْبُونَة (Narbonne) عاصمة لها^(٧) .

ويشير هذا إلى أن المسلمين افتتحوا – منذ هذا الوقت المبكر لعهد الولاية – كُلَّ مابين أَرْبُونَة إلى الجنوب متصلًا بالبرُّت والأندلس ، على طول الشاطئ الشرقي . وغدت منطقة إسلامية ضمن هذه الحُكُومَة ، التي اتَّخِذَت عاصمتها أَرْبُونَة قاعدةً للْجَهَادِ وراء البرُّت .

ليس لدينا تفصيل عن شؤون هذه الحُكُومَة إِسْلَامِيَّة في سَبْتَمَانِيَّة . إلا أن ابن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ) يذكر – نَقْلاً عن كتاب مفقود لأحمد الراري (٢٧٤ - ٣٤٤ هـ) هو : الاستيعاب في الأنساب – حين الحديث عن بيت زيد الغافقي من أهل إشبيلية أنه كان « يأشبِيلية بيتُ زيد الغافقي » ، وهو هناك جماعة كبيرة فرسان ، ولم يشرف قديم ، وقد تصرفا في الخدمة بأَرْبُونَة ثم انتقلوا إلى طُلَيْطُلَة ثم قُرْطُبَة

(١) الروض المختار ، ١٢٣ .

(٢) تفح ١٥/٣ (نَقْلاً عن ابن بشكوال) ؛ جنة ٤ ؛ ٢٣٧ (= بغية ، ٣١٦) .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٤) انظر : أدناه ، ٢١١ - ٢١٢ .

(٥) راجع : دولة الإسلام في الأندلس ، ٧٣/١ ، ٨١ .

(٦) قضاة قرطبة ، ٩ .

ثم غَرْنَاطَة . »^(١) كما ذكر ابن حَزْم في جمهرة أنساب الغرب بني بَجِيلَة فقال : « وَدَارُهُم بِالأنْدَلُس بِجَهَةِ أَرْبُونَة . »^(٢)

وَذُكْر من قادة هذه الحكومة : عبد الرحمن بن عَلْقَمَة الْخَمِي ، الذي وُصِفَ أنه « صاحب أَرْبُونَة . وكان فارس الأندلس في وقته »^(٣) . ثم أنَّ بن عَلْقَمَة هذا هوَى في فتنة المخصوصة العمياء التي قاست منها الأندلس أوَّلَهُ عَهْد الولاة^(٤) ، وثار على آخر ولاته « وَذَكَرَ ابْنُ حَيَّانَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ ثَارِ عَلَى يُوسُف الفَهْرِي عبد الرحمن ابن عَلْقَمَة الْخَمِي فارس الأندلس ، وَوَالِي ثَغْرِ أَرْبُونَة ، وكان ذَا بَأْس شَدِيد وَجَاهَةً عَظِيمَة ، فِيَنِّي هُوَ فِي تَدْبِيرِ غَزْوَيْنِ يُوسُف إِذْ إِغْتَالَهُ أَصْحَابَهِ وَأَقْبَلُوا بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ . »^(٥) وكان — فيما بعد — من نتائج هذه الأحداث ومن أحوالِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ وما حل بالأندلس من الوباء^(٦) والقطط^(٧) وغيرها زعزعة^(٨) كِيانِ المسلمين وراء البُرْتُ ، ثم ذَهَابُه عنها .

لا تقدم مراجينا المتوفرة - بعد ذلك - شيئاً عن حياة السَّمْعِ وَخِلَالِهِ وأحوالِهِ . وَذُكْرِ السَّمْعِ في الأندلس عَقِبَ ، منهم : أبو بحر يُوسُف بن عبد الصمد . أحد الأدباء أيام الطوائف ، وترجمت له بعض المؤلفات الأندلسية ، كالذخيرة لابن بَسَّام الشَّنَّثَرِيَّيْنِي^(٩) والمُغْرِبُ في حُلُّيِّ المَغْرِبِ لابن سعيد الأندلسي وأخري^(١٠) . كما ذكر من عَقِبِهِ : علي بن محمد بن يُوسُف بن علي بن فُتوح بن سعيد بن عبد الله بن أحمد بن زيد بن السمع بن مالك الحَوْلَاني و « كان من أهلِ الْعِلْمِ حَيَّاً سَنَةً عَشْرَ وَسَتَ مَائَةً . »^(١١)

(١) الإحاطة ، ١٣٣/٢ . اسم أربونة وارد في طبعة الإحاطة القديمة (٩٤/٢) دون الجديدة ، حيث وضع بدلها : بلديون .

(٢) جمهرة ، ٣٩٠ . (٣) نفح الطيب ، ٢١/٣ .

(٤) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ١٢٢/١ - ١٢٨ .

(٥) نفح الطيب ، ٢٦/٣ . كذلك : نفح ، ٢٢/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٨/٢ .

(٦) البيان المغرب ، ٣٧/٢ .

(٧) البيان المغرب ، ٣٨/٢ . (٨) المغرب ، ٢٠٣/٢ .

(٩) الذيل والتكميل ، ابن عبد الملك الانصاري ، ٤٠٢/١٥ .

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز – وهو التقى الغيور على الدولة الإسلامية وأهلها، نتيجة حرصه على إسلامه – قلقاً على وجود المسلمين في الأندلس لأنها عن مركز الخلافة ، وأشرف على رعاية الأندلس مباشرة . فاختار السمحَ بن مالك الخولاني ، لمعره بهذه الشخصية التقية المجاهدة الباسلة الممتثلة إيماناً وحماسة ورغبة للعمل الخَيْر والجهاد الفاتح ، وأحسن الخليفة ابن عبد العزيز الاختيار ، « ثم ولَى أمير المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز - رضي الله عنه - السَّمْحَ بن مالك على الأندلس ، وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يَعْدِل بهم عن منهج الرفق ... فَقَدِم السَّمْحُ الأندلسَ ، وامتثل ما أمره به عمر - رضي الله عنه - من القيام بالحق ، واتباع العدل والصدق ، فانفرد السَّمْحُ بولايته ، وعزَّلَها عمر عن ولاية إفريقيا . اعتماداً بأهلها وتهَمَّماً بشأنها . »^(١)

كان عمر بن عبد العزيز نفسه من طراز أولئك الخلفاء – مضرب الأمثال – المتميزين بالقوى والفضل والعكوف على رضى الله تعالى وطاعته والعمل على مرضااته والتقرب إليه بخدمة الإسلام والمسلمين ومن يساكفهم في دولتهم . يرتفع نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب^(٢) . فعمر بن الخطاب أبو جَدِّ عمر بن عبد العزيز لأمه .

قائمة نسب عمر بن عبد العزيز

عمر بن الخطاب + (٧٥) أم عاصم : جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلَّع
(ذوالحجَّة ٢٣ هـ) (أنصارية من الأوس)

عاصِم + الْمَلَالِيَّة
(المدينة المنورة ، ٨ - الْرَّبَّذَة ، ٧٠ أو ٧٣ هـ)

أُمْ عَاصِمِ (ليلي) + عبد العزيز بن مروان بن الحكم
(مصر جاهي الأولى ٨٥ هـ)

عمر بن عبد العزيز
(المدينة المنورة ، ٦٣ : صفر ٩٩ - رجب ١٠١ هـ)

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ابن عبد الحكم ، ٢٢ - ٢٥ ؛ طبقات ابن سعد ، ٢٦٥/٣ ، ٢٣٦/٥ ، ٣٣٠ ؛ البر ، الذهبي ، ٧٨/١ ، ١١٨ ، ١٢٠ - ١٢١ ؛ أخبار عمر ، الأخوان : علي وناجي الططاوين ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ؛ نقط العروس ، ابن حزم ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ٦٩/٢/١٣ .

توَلَّى الأندَلُسَ بعد السَّمْعِ - مَؤْقاً وَلَا شَهْرَ - عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ (ولايته الأولى) حَتَّى قَدِمَهُ عَنْبَسَةُ بْنُ سُحْيَمِ الْكَلَبِيِّ (صَفَرٌ ١٠٣ - شَعْبَانٌ ١٠٧ هـ). فَقَامَ عَنْبَسَةُ بِبَنْشَاطِ جَهَادِيِّ كَبِيرٍ وَرَاءِ الْبُرْتِ ، وَاسْتَمْرَ في تَقْدِيمِهِ نَحْوَ الشَّمَالِ وَالشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ في فَرْنَسَا . وَكَانَ أَبْعَدُ حَدًّا جَاهَدَتْ فِيهِ الْجَيُوشُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، عِنْدَ مَدِينَةِ سَانْسِ (Sens) .

كَانَ عَنْبَسَةُ مِنْ طَرَازِ السَّمْنَحِ : تَقِيًّا وَرِعًا إِدارِيًّا وَعَسْكُريًّا مُجَاهِدًا حَرِيصًا أَمِينًا عَلَى الدُّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلَهَا ، كَمَا يَظْهُرُ مِنْ جَهُودِهِ وَأَعْمَالِهِ وَخِلَالِهِ . قَدِيمٌ عَنْبَسَةُ « فَاسْتَقَامَ أَمْرُ الْأَنْدَلُسِ ، وَغَزَا الْفِرَنْجَةَ ، وَتَوَغَّلَ فِي بَلَادِهِمْ ، وَاسْتُشْهِدَ سَنَةَ سِعْ وَمِئَةَ لِأَرْبَعِ سِنِينَ وَأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ». ^(١) تَحْدِثُ عِبَارَةُ ابْنِ خَلْدُونَ هَذِهِ عَنْ وَصْوَلِ عَنْبَسَةَ إِلَى أَمَّاكنَ بَعِيدَةِ دَاخْلِ فَرْنَسَا ، مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدِ لِلْمَكَانِ ، الَّذِي ذَكَرَتْ مَصَادِرُ أُورَبِيَّةَ ^(٢) أَنَّهُ حَتَّى مَدِينَةِ سَانْسِ . وَمَا تَقْدِيمُهُ مَصَادِرُنَا الْأَنْدَلُسِيَّةُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَلِيلَةٌ مَقْتَضِيَّةٌ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ ابْنَ خَلْدُونَ اعْتَدَ عَلَى ابْنِ حَيَّانَ وَابْنِ بَشْكُوكُوَالِ وَغَيْرِهِمْ ، مِنْ فُقْدَتِ مَؤْلُفَاتِهِمْ ، عَدَا نَقْوِلَ حَفْظَهَا الْمَقْرَرِيِّ وَغَيْرِهِ . وَعِبَارَةُ ابْنِ بَشْكُوكُوَالِ تَمَاثِلُ قَوْلَ ابْنِ خَلْدُونَ السَّابِقِ - فِي أَكْثَرِهِ - وَتَضِيفُ عَلَيْهِ : « قَالَ ابْنُ بَشْكُوكُوَالِ : فَاسْتَقَامَتْ بِهِ الْأَنْدَلُسُ ، وَضَبَطَ أَمْرَهَا ، وَغَزَا بِنَفْسِهِ إِلَى أَرْضِ الْإِفْرَنْجَةِ ، وَتُوفِيَّ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ سِعْ وَمِئَةَ ، فَكَانَتْ لِوَالِيَّهِ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ وَأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَقِيلَ : ثَمَانِيَّةُ أَشْهُرٍ ». ^(٣)

غَيْرُ وَاضْحَى - قَطْعًا - مَتَّ ابْتِداً عَنْبَسَةَ جَهَادِهِ وَرَاءِ الْبُرْتِ وَكَمْ اسْتَغْرَقَ ، وَهُلْ خَرَجَ لِذَلِكَ الْجَهَادِ خَرْجَةً وَاحِدَةً أَوْ أَكْثَرَ ، وَهُلْ قَادَهُ كَلِهِ بِنَفْسِهِ أَوْ أُسِيقَ إِلَيْهِ أَحَدًا بِوَاسْطَةِ الْقَوَافِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَرَابِطَةِ فِي ثَغْرِ أَرْبُونَةِ .

لَكِنَّ ابْنِ عِدَّارِيِّ يُشَيرُ إِلَى هَذَا بِاقْتِصَابِ مَهْمَمَتِهِ ، أَنَّهُ « فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَمِئَةٍ ،

(١) نَفْحٌ ، ٢٣٥/١ (نَقْلاً عَنْ ابْنِ خَلْدُونَ = الْعِبْرُ ، ٢٥٧/٤ ، سَقطَتْ بَعْضُ كَلِمَاتِهِ) .

(٢) Muslim colonies , Reinaud, 14 (التَّرْجِيمَةُ الْعَرَبِيَّةُ : تَارِيخُ غَزْوَاتِ الْعَرَبِ ، ١٠٦) . كَذَلِكَ : فَجَرُ الْأَنْدَلُسِ ، ٢٤٧ ؛ دُوَلَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، ٨٢/١ .

(٣) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ١٦/٣ .

خرج عنَبَسَةٍ غازِيًّا للروم بالأندلس ، وأهْلُها يومندٌ خِيَارٌ ، فضلاً ، أهل نِيَّةٍ في الجهاد وحسبَةٍ في الثواب ، فألحَّ على الروم في القتال والحاصار ، حتى صالحوه . وتُؤْكِي عنَبَسَةٍ في شعبان سنة سبعٍ ومائةٍ^(١) . ويُسْتَدلُّ بهذا — أنه أفق المدة التي سبقت خُروجه للجهاد — حوالي ستين — في رعاية شؤون الأندلس بنفسه ، وحين سار للجهاد لابد أنه ترك في قُرْطُبَةَ نائباً أو أكثر لرعاياه أمور الأندلس ، ولعل هذا كان يَمْ مع كل حالة مشابهة لبقاء الولاية في جهادهم ، لكن لم تظهر تفصيلات عنه ، وهو ميدان للدراسة الناحية الإدارية في الأندلس .

وغير واضح لدينا خطٌّ جهاد عنَبَسَةَ الذي يُذْكَرُ أنه سار من الأندلس نحو سبْتَمْانِيَّةٍ ، متوجهاً شرقاً في فرنسا ثم شمالها ، طالعاً جوار نهر رُودَنُهُ (الرون Rhone) مائلاً غرباً حتى سانس . وعنَبَسَةٍ ليس هو الوحيد من ولاة الأندلس المجاهدين وراء البرُّت الذي سلك هذا الطريق .

وعند بلوغ هذه الغاية ، يعود عنَبَسَةٍ إلى الأندلس ، لسبب أو آخر ، من الأسباب التي حَدَّتْ كثيراً من نشاط المسلمين هناك . ولو لاها لكان له وراء البرُّت صورة أكبر وأكثر أهمية وأبعد أثراً . عاد عنَبَسَةٍ تُجاه الأندلس ، إلا أنه استُشْهِدَ في الطريق إليها قبل أن يُدُركها في شعبان سنة سبعٍ ومائةٍ (كانون الأول ، ديسمبر ٧٢٥ م) في معركة جرت في مكان هناك . عند ذلك ولَى أهلُ الأندلس عُذْرَة بن عبد الله الفِهْرِي لشهرٍ حتى جاءهم تعين الوالي الجديد يحيى بن سَلَمَة (شوال ١٠٧ - آخر ١٠٩ هـ) . ولا بد أن عُذْرَة كان مع الجيش الذي قاده عنَبَسَةٍ كيما يمكنه — على ما يُذْكَرُ^(٢) — من مواصلة الجهاد خلف البرُّت .

تمضي سنوات قليلة لانْسَلَكَ أخباراً عن نشاط جهادي جرى فيها خلف البرُّت ، حتى سنة مائة وإحدى عشرة ولاية الهَيْمَنَةُ عَدِيٍّ (عبيد) الْكِنَانِيٍّ (محرم ١١١ هـ) : ولايته حوالي عشرة أشهر^(٣) .

(١) البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

(٢) انظر : Muslim colonies , 35 (تاريخ غزوات العرب ، ٣٨) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٥/١ . كذلك : الذيل والتكميل ، ٣٢٧/٦ (رقم : ٨٤٤) .

ب - مُنُوسة

تَرِدُ إِشَارَةٌ غَامِضَةٌ فِي بِيَانِ ابْنِ عَذَارِيِّ بَأْنَ وَالِيِّ الْأَنْدَلُسِ الْمُهِيمِ «غَزَا مُنُوْسَةً»^(١). كَمَا وَرَدَ فِي عِبَرَ ابْنِ خَلْدُونَ أَنَّ الْمُهِيمَ «غَزَا أَرْضَ مَقْوُشَةً فَافْتَحَهَا»^(٢). فَهَلْ أَنَّ هَذَا الْاسْمَ - «مُنُوْسَةً» أَوْ «مَقْوُشَةً» - لشَخْصٍ أَوْ مَكَانٍ ، وَمَنْ وَأَنَّ؟ أَشَارَتْ بَعْضُ الْدِرَاسَاتِ الْأُورَبِيَّةِ^(٣) وَالْحَدِيثَةِ^(٤) أَنَّ «مُنُوْسَةً» (Munuza, Manusa) - اعْتَبَرَتْهُ اسْمًا لِأَحَدِ الْقَادِّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبَرْبَرِ - دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مَعَ طَارِقَ بْنَ زَيْدَ ، وَعَيْنَ وَالِيَا لِشَمَالِ الْجُزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ . وَأَدَارُوا نَقَاشًا حَوْلَ شَخْصِهِ وَأَحَدَاثًا تَعْلَقُ بِهِ فِي وَلَايَةِ الْغَافِقِيِّ ، بَلَغَتْ - فِي زَعْمِهِمْ - حَدَّ الْخُصُومَةِ مَعَ الْغَافِقِيِّ وَالْمَصَاهِرَةَ مَعَ أُودُو (Eudes) دُوقَ أَقْيَطِيَّانِيَّةِ (Aquitaine) ، ثُمَّ كَانَ مَصْرِعُهُ بِأَيْدِيِّ فَرْقَةِ مِنَ الْجَنْدِ الْمُسْلِمِينَ .

سَطَرَتِ الرِّوَايَةُ الْأُورَبِيَّةُ - كَنَسِيَّةً^(٥) كَانَتْ أَوْ غَيْرُهَا ، وَتَابَعُهَا آخَرُونَ - حَوْلَ مُنُوْسَةَ أَوْهَاماً ، وَتَوَسَّعَتْ فِي تَفَصِيلَاتِ مَنْحُولَةٍ^(٦) . اسْتَنْجَتْ مِنْهَا أَمْوَارًا لَوْأَقَامَتْ فَوْقَهَا آرَاءً ، اتَّخَذَتْهَا حُجَّاجًا لِبَنَاءِ حَقَائِقٍ مَزْعُومَةٍ مَوْهُومَةٍ ، كَمَا خَلَطَتْ إِيْنَهُ وَبَيْنَ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي نِسْعَةَ الْخَتَّعَمِيِّ^(٧) أَحَدِ الْوُلَّاَتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَمَدْتَهِ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ ابْتَدَأَتْ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ١١٠٥^(٨) ، فَهُمَا - عَنْهَا - شَخْصٌ وَاحِدٌ أَوْ شَخْصَانَ ،

(١) الْبَيَانُ الْمَغْرِبُ ، ٢٨/٢ .

(٢) الْعِبَرُ ، ٢٥٨/٤ (= نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٢٣٥/١) . وَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنَّ «مَقْوُشَةً» تَصْحِيفُ «مُنُوْسَةً» .

(٣) Muslim colonies, 45 ; Histoire de l'Espagne Musulmane, I, 60 n. 1, 67 (Sp. tr., IV, 41, 57 n. 54).

(٤) فَجَرُ الْأَنْدَلُسُ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٣١٥ ؛ دُولَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، ٨٥/١ ؛ تَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ وَآثَارُهُمُ بِالْأَنْدَلُسِ ، ١٣٩ .

(٥) انْظُرْ : Muslim colonies 7, 18 (التَّرْجِيمَةُ الْعَرَبِيَّةُ : تَارِيخُ غَزَوَاتِ الْعَرَبِ ، ٣٨ ، ٦٩) ؛ دُولَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، ٩٩/١ ، ١٠١ .

(٦) انْظُرْ : Muslim colonies 45 (تَارِيخُ غَزَوَاتِ الْعَرَبِ ، ١٢٧) ؛ Los Mozarabes, Isidro de las Cagigas, I, 89.

(٧) انْظُرْ : Muslim colonies, 45 (تَارِيخُ غَزَوَاتِ الْعَرَبِ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨) ؛ History of the dominion of the Arabs in Spain, Conde, I, 107 ؛ ٨٦/١ دُولَةُ الْإِسْلَامِ ، ١٠٧ .

(٨) أَدْنَاهُ ، ٢٠٩ .

إلى غير ذلك من الأفاصيص الوهمية . لكن كل ما صاغته واحتزنته حول شخصية مُنْوَسَةَ الْخِرَافِيَّةِ^(١) يغدو – عند المتابعة – حُطاماً يتعثر الباحث بأنفاسه . فيتبدي أن مُنْوَسَةَ اسم مكان وليس – أصلاً – اسم إنسان .

لا يظهر وجودُ أَسَاسٍ قويًّا لاعتبار صِحَّةِ مثل هذه القصة التي قَبِيلَها عددٌ من الباحثين المحدثين ، أخذًا بالرواية الأوربية .

ولم يتيسر الوصول إلى نص أندلسي يُشير إلى وجود مثل هذه الشخصية أو يشرح أحدهاً قام بها . وحَمِلَ اسْمَ مُنْوَسَةَ (مُقْوِشَةَ) – حسب نصيًّ : ابن عِذَارِي (بعد ٧١٢ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) – على أنه اسم قائد مرجوح ، والعبارات تدلان بشكل أقوى أنها اسم مكان . فهل تكون هي مدينة ماسون (Maçon) الفرنسية ، الواقعة شمال مدينة لُوذون (Lyon) على وادي رُودَنْهُ (نهر الرون Rhone) . فت تكون هذه من المناطق التي وصل إليها الهيثم ، وهي مع غيرها جنوباً وشمالاً – شَمَلَهَا جَهَادُ الْمُسْلِمِينَ وراء الْبُرْتَ لَهَا الْعَهْدَ .

ج - وَقْعَةَ بَلَاطِ الشَّهَدَاءِ

يبلغ الْمَدُّ الْإِسْلَامِيُّ نقطَةً بعيدَةً في أَضْخَمِ حَمْلَةِ وَرَاءِ الْبُرْتِ مَدَّةَ الْوَلَاةِ ، أيام الْوَالِيِّ الْمُجَاهِدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَاتَّافِيِّ (صَفَرَ ١١٢ - رَمَضَانَ ١١٤ هـ = مَai ١٣٣٠ - تَشْرِينُ الْأَوَّلِ ٨٣٢ م) ، حِيثُ جَدَّ نَشَاطُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ . وَتُعْرَفُ هَذِهِ الْمَعرَكَةُ بِاسْمِ « وَقْعَةَ الْبَلَاطِ »^(٢) أَوْ « غَزوَةَ الْبَلَاطِ »^(٣) . كَمَا عُرِفَ الْمَوْضِعُ الَّذِي جَرَتْ فِيهِ بِاسْمِ « بَلَاطِ الشَّهَدَاءِ »^(٤) . جَرَتْ أَحَدَاثُهَا – الَّتِي اسْتَمْرَتْ حَوَالِيْ عَشَرَةَ أَيَّام – فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ١١٤ هـ (تَشْرِينُ الْأَوَّلِ - تَشْرِينُ الثَّانِي = أَكْتوُبْرٍ - نُوْفِمْبِرٍ ٧٣٢ م)^(٥) .

(١) انظر : العرب والإسلام في الحوض الفريقي من البحر الأبيض المتوسط ، عمر فروخ ، ١٢٧ .

(٢) نفح الطيب ، ١٥/٣ (نقل عن ابن حيان : النص المذكور أعلاه ، ١٨٥) .

(٣) نفح الطيب ١٦/٣ (نقل عن ابن بشكوال) .

(٤) نفح الطيب ، ٢٣٦/١ (نقل عن ابن خلدون) ؛ ١٦/٣ (لم ينقل عن ابن حيان) ؛ اليان المغرب ، ٥١/١ .

(٥) قارن : *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, 62 (Sp. tr. , IV, 37).

واستشهد الغافقي نفسه ، في موضع يقع بين مدیني^١ تور (Tours) وبواتييه (Poitiers) ، فوق ٢٠٠ كم جنوب باريس ، وانتهت الواقعة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها .

مكان المعركة

لم يمكن تحديد موقع الميدان الذي دارت فيه أحداث معركة بلاط الشهداء بدقة . فمراجعنا الأندلسية – والإسلامية عموماً – لم تفصّح عن ذلك ، لكنها ذكرت أن المعركة دارت في بلاد الفرْجَةَ وسَمَّت الموضع « بلاط الشهداء » .

تحدث بعض الباحثين الأوروبيين في تحديد المكان ، إلا أنهم اختلفوا في ذلك ، ولم يخرج هذا الاختلاف في التحديد عموماً عن المنطقة الواقعة بين مدیني : تور (Tours) – على نهر اللوار (Loire) – وبواتييه (Poitiers) – على كلين (Clain) – على نهر فيenne (Vienne) أحد فروعه – والمسافة بين المدينتين حوالي ٩٠ كم . لذلك رافقين (Chatellerault) – على نهر فين ، فرع اللوار – وبينهما حوالي ٣٠ كم ، في مكان يبعد حوالي ٢٠ كم شمال شرق بواتييه . يُحتمل في المكان المسمى حالياً موسى^٢ لاباتاي (Fossé – le – Roi) أو شير أخيراً إلى قرية Moussais – la – Bataille (^٣) .

(١) يزعم رينو (٥٠ n. , Muslim colonies , Reinaud, 49 n. , تاريخ غزوات ، ١١٨ ، ١٣١) أن مصدره في ذلك مؤرخون عرب ، ولم يذكر أحداً ، بل يشير إلى كوندي (Conde) وليس هناك شيء . وهو غير موثق (تاريخ غزوات ، ٣٧ ، ٤٢) إذ يقول المشرق الإسباني كوديرا (Codera) عن كوندي (أورده ارسلان : تاريخ غزوات ٣٧ حاشية) « انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندي هذا . » ومن الغريب أن يكفر رينو التقل عنه ويتابعه في غير تمحص ، بل ويشي عليه (Muslim colonies , 6 ، تاريخ غزوات ، ٣٧) ، مع اشارته لعدم ذكر كوندي مراجمه (Muslim colonies , 8 ، تاريخ غزوات ، ٣٨) . فوقع رينو في كثير ما وقع فيه كوندي .

(٢) Muslim colonies , 51 (٢) (تاريخ غزوات ، ١٣١) .

Histoire, I, 61 — 2 (Sp. tr. , IV, 37).

(٣)

(خندق الملك) الواقعة بين مدینتيٰ : تور (طور) و بواتيه (بواتيه) ، « وقد استكشف هناك حديثاً في الحفريات بعض السيف العربية »^(١). فلعل موضع هذه القرية يقع ضمن ميدان معركة بلاط الشهداء ، إلا أنه لم يُحدَّد موقعها .

مصادرها

لأتمنى المصادر الأندلسية - المتوفرة لدينا - بمعلومات واضحة أو تفصيلات شافية عن هذه الواقعة ، ولا تلقي عليها غير ضياء جدّ خافت ، وإن كان أقل خفوتاً حين تتحدث عن الوالي الغافقي وجهوده في الأندلس أمام البرْت وجهاده وراءها . كان ذلك ومعركة « بلاط الشهداء » مهمة في أحداثها ونتائجها واحتواها على التجهيزات الضخمة والإعداد الكبير والتضحيات العالية الغالية ، قدمها المسلمون . وليس بعيداً أن هناك معلومات قيمة دُوِّنت عنها وضاعت مع ماضع من هذه المصادر . سيلقى العثور عليها ضوءاً جديداً يساعد على رؤية صورة أوضح لأحداثها وحقائق مجهولة لنتائجها . أمثال : مؤلفات آل الرازى - لا سيما أحدهم (٢٧٤ - ٣٤٤ هـ) - ومقطبيس ابن حيّان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ) وما كتبه ابن بشكوال (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ) وآخرون .

المصادر الإسلامية

أورد المقرّي - نقاً عن ابن حيّان ، فيما يبدو - أن الغافقي « غزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمّة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومئة ، في موضع يُعرف ببلاط الشهداء ». ^(٢) فإذا كان هذا الكلام ابن حيّان فإننا نجد نصاً لابن خلدون يكاد يتطابقه : « وغزا الإفرنجية وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة [ومئة] ، في موضع يُعرف ببلاط الشهداء ، وبه عُرفت الغزوة »^(٣) . وهذا يشير إلى أن ابن حيّان كان مصدراً - أساسياً مهماً - لابن خلدون في كتابة تاريخ الأندلس في عيّره إلى حد

(١) تعليق الدكتور ، لم يذكر اسمه ، في مجلة (المسلمين) ، ٧٩/٣/٥ .

(٢) نفح الطيب ، ١٦/٣ ، وسبق ايراد قول غيره لابن حيان يتحدث فيه عن « البلاط » . انظر : نفح الطيب ، ١٥/٣ (= أعلاه ، ١٨٥) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٦/١ (نقاً عن ابن خلدون : العبر ، ٤/٢٥٨) .

أنه يكاد ينقل بالنص ، ربما مع اختصار . كذلك أورد ابن عذاري فحوى هذا الخبر – حين الحديث عن الغافقي – بقوله : « فغزا الروم ، واستشهد مع جماعة من عسكره ، سنة ١١٥ ، بموضع يُعرف بـ **بَلَاط الشُّهَدَاء** ». ^(١)

والراجح أن عدد الجيش الفرنجي كان يفوق كثيراً الجيش الإسلامي ^(٢) . ولابد أن شارل مارتل كان يستعد وينتظر مبكراً ، لما كان يرقب من جهاد المسلمين المستمر في الأرض الكبيرة منذ سنوات . هذا بجانب أن العديد من العوامل الأخرى ، كانت في صالح الإفرنجي . من معرفته للموقع وإلتهاته التحرك فيه – طبيعةً ودرباً – في جوه الشاهي المطير وأرضه المولحة ووعورة تلالها ^(٣) ، حيث جرت معركة بـ **بَلَاط الشُّهَدَاء** في النصف الثاني من خريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، إلى قرب المدد من كل نوع . وكلها أمور مهمة وأساسية حُرم منها الجيش الإسلامي ، بعد ما غدا بينه وبين عاصمة أندلسه ما يزيد عن ألف كيلومتر .

أما الغافقي فقد ذكر ابن بشكوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وأنه يروي عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ^(٤) . ووصفه الحميدي بالصلاح وجمال السيرة والعدل وحبه الشديد للجهاد في سبيل الله ^(٥) . وذكر البعض أنه دخل الأندلس عند ولادته الثانية ^(٦) . وقد يكون كذلك ، وليس ضرورياً ، ولعله كان أصلاً في الأندلس .

الرواية الأوربية

تفصُّل الرواية الأوربية كتابةً عن وقعة « **بَلَاط الشُّهَدَاء** » . وكثرةً من

(١) البيان المغرب ، ٥١/١ . كذلك : الكامل في التاريخ ، ١٧٤/٥ - ١٧٥ . قارن : البيان ، ٢/٢٨ .

(٢) انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٩٩ ، ٩٧ ، ١٠٥ . كذلك : فجر الأندلس ، ٢٦٣ .

(٣) راجع : « **العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية من فرنسا** » ، علي المياح ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، ١٢٩/٥ .

(٤) نفح الطيب ، ١٥/٣ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٧٤ ؛ أعلاه ، ١٥٣ .

(٥) جذوة المقتبس ، ٢٧٤ .

(٦) نفح الطيب ، ١٦/٣ (نثلا عن ابن حيان) ؛ العبر ، ٤/٤ ، ٢٥٨ (= نفح الطيب ، ٢٣٦/١) . كذلك : الذيل والتكميل ، ٦/٣٢٧ .

شروحها الحالية مستمدّة أو متأثرة بهذه الرواية التي تنسّم - وأحياناً إلى حد مُوغّل - بالتحامل والكراءة والبعد عن الحقائق أو إهمالها ، ملفوفة برداء أسطوري^(١) . لذا فهي غير مأمونة ، سواء فيما يتعلّق بالواقع التاريخيّ أو بتعلّيلاتها ، ولا بد من التدقيق والتحفظ .

ذَكَرَتِ الرواية الأوربيّة ، ومنَ تابعها من الباحثين والمشغّلين بالتاريخ ، في تعليل خسارة المسلمين في وقعة بلاط الشهداء أسباباً (وهي مرتبطة ب مجرياتها ونتائجها) وركّزت فيها على قضيتين :

الأولى : وجود خلاف بين الجيش الإسلامي (العرب والبربر) .

لكن مع عدم توفر أخبار أو أحداث تتعلّق بهذا الخلاف - بل قاتل الجميع بشجاعة وفاء - فإنه زعم قائم على قصة مُنوّسة المفراة^(٢) .

الثانية : الغنائم التي أنقلت الجيش الإسلامي وكان عليها حريصاً . وكيف جرت بسببها حركة التفاف حولها خلف المعسكر ، فتراجع يعيمها واحتلّ تماسُكه واستُشهد الفاغفي وهزم الجيش .

قصة الغنائم أسطورة لأصلها . وهذا مع مجانته لكل ما عرفناه عن الفتح الإسلامي والتسلّك بأهدافه العليا القائمة على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلامه والحطّط المحكمة المتّبعة فيه ، ولما ألقناه من الفاتحين في فرنسا . بل حتى حسب ما تورّده الرواية الأوربيّة من أمور ، يمكن - بناء على ماذكره - إجراء المناقشة التالية .

١ - تذكر هذه الرواية ترك الجيش الإسلامي خيامه منصوبة والغنائم في مكانها مطروحة^(٣) .

كان لدى الجيش الإسلامي مجال لحملها . بل ولعل انسحابه السريع كان عملية محمودة^(٤) لإنقاذ الجيش وعدم الاستمرار في معركة ظهرت بوادر صعوبته الاستمرار

(١) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ١٠١/٢ ، فجر الأندلس ، ٢٧٣ ؛ أدناه ، ٢٤٣ .

(٢) أدناه ، ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) Muslim colonies , 52 . الترجمة العربيّة : تاريخ غزوّات العرب ، ١٣٢ .

(٤) انظر : « العوامل السوقيّة والتبوّية » ، ١٢٩/٥ .

فيها بظروفها القاسية وبعد استشهاد قائدتها الغافقي ، كان الجيش الإسلامي مستمراً في القتال ونال من الفرج رغم هذه الظروف . ولكن لما زاد استشهاد الغافقي صعوبة الموقف فضلوا الانسحاب ، ولعل تركهم للخيام كان خطأ حماية لم يدركها الفرج إلا صبيحة اليوم التالي وهم يستعدون للهجوم والقتال . وهو أمر يشير إلى أن انسحاب الجيش الإسلامي كان من غير ظهور بوادر انكسار يئنة . وهذا يفتّد التهويل في المبالغة المفرقة بكثرة قتلى الجيش الإسلامي التي تشير إليها الرواية الأوروبية . لكن اهتمام الفرج بهذه المعركة وفرحهم بتسيجتها أنه - بسببها وبغيرها - *توقف المدد الإسلامي* عن الاستمرار في التقدم داخل الأرض الكبيرة الذي كان متوقعاً بادياً . فاعتبروا المعركة حاجزاً أنقذ أوروبا^(١) ، ومن هنا زادوا الحديث عنها والتهويل لأحداثها ونتائجها في جو يخدوه التزوير الفاضح والافتراء المشهود .

على كل حال فإن موضوع جهاد المسلمين وراء البرُّ ، وعلى الخصوص وقعة بِلَاط الشهداء ، بحاجة إلى تناول جديد علمي أمين نزيه ، تقوم به دراسة خاصة . وعندما تظهر حقائق وعوامل أخرى غير التي اعتمدها بعض الباحثين وأطبووا في تفاصيلها على أساس غير سليم أو وجهه ليست صافية ولا متروبة .

٢ - كذلك تذكر الرواية الأوروبية أنه مما كان يهتم الجيش الإسلامي به كثيراً في الفتوحات الحصول على الأسلحة والخيوط الازمة له في عمليات الفتح القادمة^(٢) تلك مسألة واضحة لاحظناها - مثلاً - في معركة وادي برباط^(٣) ، وهي تبطل فريتها الغنية المهللة .

٣ - كيف يحمل الجيش الإسلامي هذه الغنائم الثقيلة المعوقة - وهو أمر لم نألفه منه في حملاته السابقة في الأرض الكبيرة - وهو يعلم مقدماً أنه ذاهب للقاء حاسم يتيغي فيه نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله في تلك البقاع . ولو حدث اجتماع مثل هذه الغنائم لأودعها مدننا سبق له فتحها ، فكيف يجتمع ذلك له وقد مرّ في فتوحه - قبل

(١) انظر كذلك : أدناه ، ١٩٩ .

(٢) Muslim colonies, 24. (تاريخ غزوات ، ٥١) .

(٣) أعلاه ، ٦٢ - ٦٣ .

هذه الحملة – في أراضٍ فقيرة الثروة وأهلها مُعْدِّون^(١) . في حين لم نسمع أو نألف له ذلك الاهتمام والأسلوب في عمليات جهاده – وهي كثيرة – في الأرض الكبيرة قبل الغافقي .

لكن هذا التغلب المحدود للجيش الفرنجي والانسحاب المفاجيء للجيش الإسلامي بعد الذعر الذي أصاب محاربي الفرنج جعلهم يعتبرونه بهذه المثابة ، بعد أن افتعلت الكنيسة تُصَوِّرُه خطراً صدّه هذا التجمع . غذته – وعملاؤها – بمحقدتها وكراهيتها لهذا النور الذي حمله المسلمون إليهم والى أهل الأرض كافة ، ونَوَّهَ به – أملاً بخلاص أوربا وانقادها – بعض كتابها من أهل الانصاف والتَّمَّتع بمقدار من صفاء الرؤية ، فتولوا عن دوافع الصليبية وعصبيتها المدفونة .

حقائق

كثر الكلام حول هذه المعركة ، وأحيطها المؤرخون الأوروبيون بزائد من الاهتمام . المعركة لامِرِيَّة مهمّة ، لكن بعض المؤرخين الأوروبيين اعتبروها فاصلة ، حتى قال بعضهم : إنه لو انتصر المسلمون في هذه المعركة لرأينا القرآن الكريم يتلى ويدرس في جامعات الغرب^(٢) ، أي أن هذه البلدان كانت ستصبح مسلمة . لا شك أنها لو أصبحت كذلك لكانت نهضتها (وعلى أساس فاضلة و آفاق شاملة) أسبق في الزمن الذي بدأت فيه ، ولزالت عنها مبكراً عصورها الوسطى المظلمة ، ولأصحابها من الحضارة والتقدم ما أصاب الأندلس خلال عيشهما في رحاب الإسلام^(٣) .

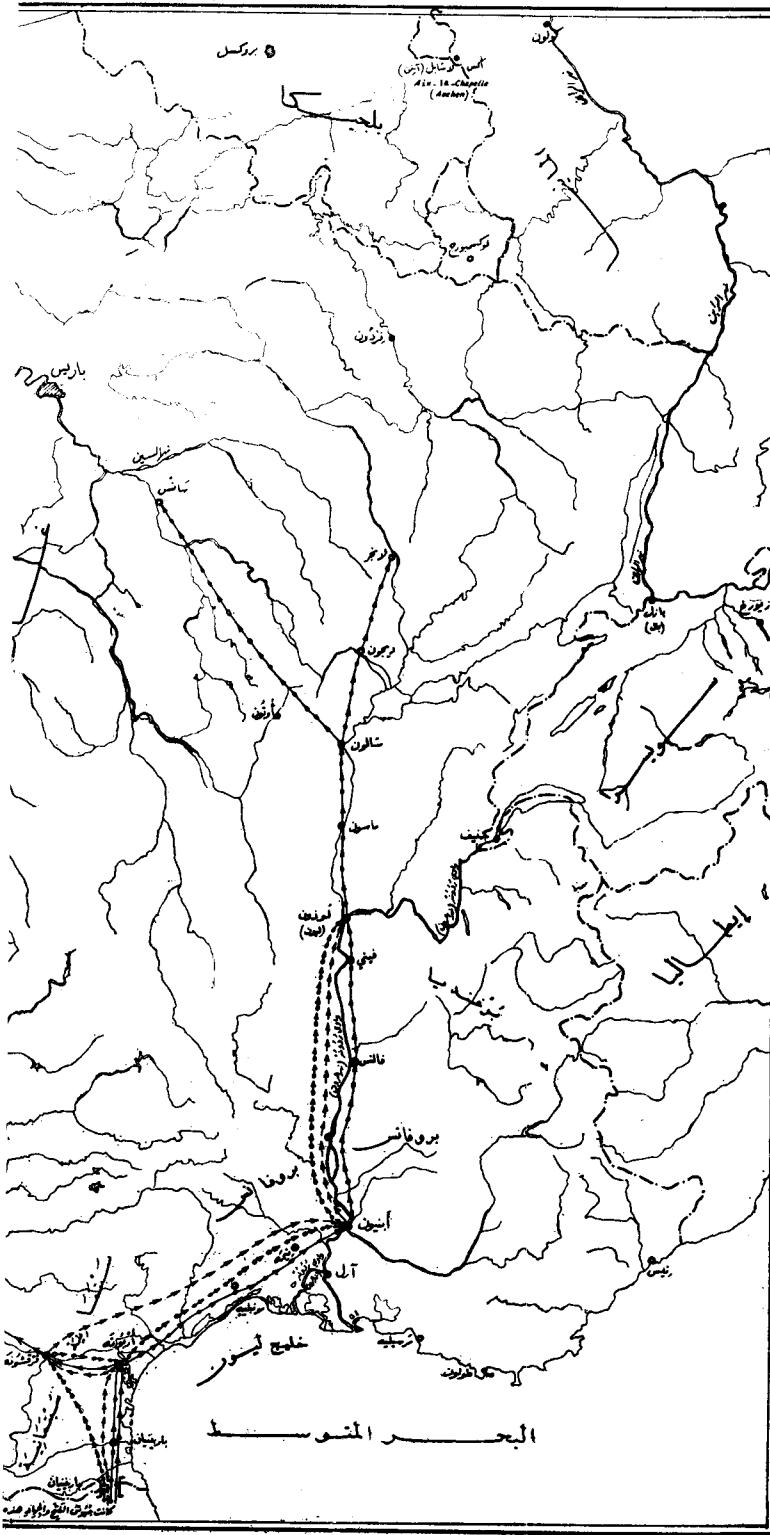
أظهر رأيه في هذه المعركة العديد من الكتاب الغربيين ، الذين ادرّكوا شيئاً من روعة الإسلام وصدق عقيدته ورفعة شريعته وسمو مبادئه وجمال روحه . أوهم – على الأقل – لاحظوا واقع تاريخه ، وقد رأوا ما أثبته وبثه في كل أرض حلّها من الخير والنور وما جلبها من الحضارة وال الإنسانية الكريمة . فاعتبروا نتيجة « بلاط الشهداء » نكبة كبيرة أصابت أوروبا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة

(١) « العوامل السوقية والتبعية » ، ١٢٥/٥ .

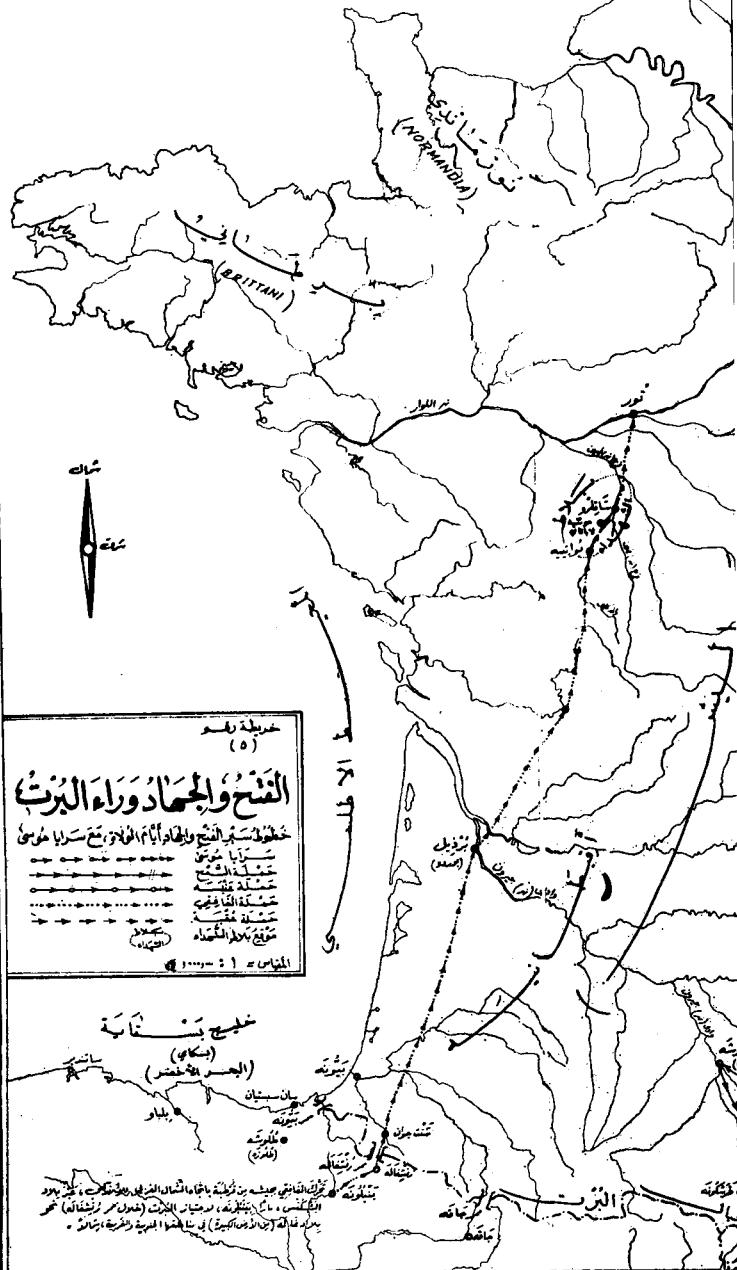
(٢) *The decline and fall of the Roman empire*, Gibbon, III, 223.

كذلك : العرب والاسلام ، ١٣٣ .

(٣) راجع : الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٢٥ .



المقاطع الأطلسية
(الارتفاع)



الفتح والجحاد ورآء البرىء

تحقيق عبد الفتاح والصادق العلوي، وتأريخه سعيد عزيز

الفتح	فتح
الجحاد	جحاد
ورآء البرىء	ورآء البرىء
الخلافة	خلافة
الخلافة	خلافة

المقياس = 1 : 3000000

هذه الخريطة توضح حدود إمبراطورية العباسية في أقصى اتساعها، حيث تمتد من مصر إلى إسبانيا، وتحتاج إلى مراجعة دورية، ففيما يلي بعض التفاصيل:

وكرامة الانسان^(١).

ذلك هو ما أصابها على يد جند الفرنجية بقيادة شارل مارتل (Charles Martel) شارل المطرقة) الذي « حشد جيشاً ضخماً من الفرنج و مختلف العشائر الجرمانية المتوجهة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمترج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجلب جنداً غير نظاميين ، نصف عراة يتضخرون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكتافهم العارية . »^(٢) أساء شارل مارتل بذلك الى أوروبا ومستقبلها الحضاري وكرامتها انسانيتها بمدافعته عنها لما سببها حياتها .

بينما اعتبر آخرون هذا اللقاء انتصاراً كبيراً و « انقاذاً وخلاصاً للدولة الفرنجية من خطر المسلمين ، ولو أنه لم يمنع المسلمين من إعادة الكراهة على غالباً »^(٣).

* * *

بقيت للمسلمين موقع في جنوبي فرنسا ، كما أمكنهم العودة إلى عدد من هذه المناطق في العام التالي لـ « بـَلـَاط الشـَّهـَادـَة » إلى منطقة البروفانس (Provence) فاستعادوا مدينة آرل (Arles) وأبونيون (Avignon)^(٤) ، وهي صخرة أبنيون كما وردت عند المقري في نفح الطيب^(٥).

* * *

لكن – في رأي هؤلاء – مالذي ستخسره أوروبا لو انتصر الاسلام في « بـَلـَاط الشـَّهـَادـَة » وغطى مـَدـَه تلك المناطق ؟

كانت ستختسر الظلمات والجهالة والاستغلال والاستبداد والاضطهاد التي ترفل في نعيمها ، كما ستختسر محاكم التفتيش السوداء – فيما بعد – وغيرها ، « كانت أوروبا ولاسيما فرنسة ، في القرن الحادى عشر [الميلادى = الخامس الهجرى] الذى جردت

(١) انظر : مع الرعيل الأول ، حب الدين الخطيب ، ٩ - ١٠ . كذلك : تاريخ أوروبا (المصور الوسطى) ، فشر ، ٦٩/١ .

(٢) دولة الاسلام في الأندلس ، ٩٩/١ .

(٣) تاريخ أوروبا ، ٧٨/١ .

(٤) أوروبا العصور الوسطى ، عاشر ، ١٨٤/١ ؛ فجر الأندلس ، ٢٧٨ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١١٣/١ - ١١٦ .

(٥) نفح الطيب ، ٢٧٤/١ (أعلاه ، ٩٥ ، ٩٩) .

فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلاماً ، وكان النظام الاقطاعي يأكل فرنسة ، وكانت مملوقة بالخصوص التي كان أصحابها - وهم من أنصار البربرة - يقتلون دائماً ولا يملكون سوى أناس من العبيد الجحّال ، ولم يكن في ذلك الحين نفوذ شامل لسوى البابا ، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له .^(١)

ولعلهم نظروا الى هذه الأحوال فاعتبروها تراثاً ومنجزاتٍ ، ينبغي المحافظة عليها ، فان ذهابها خسارة . أما الانتقال الى النور والمدنية الكريمة الفاضلة فهي كوارث يجب دفعها وحماية الناس منها . هذا ما حاولوه مع اسبانيا لمنع تيار الحضارة الراهنة هناك^(٢) .

د - الجهاد خلف البرْت بعد وقعة البَلَاط

لم تكن معركة «بَلَاط الشهداء» آخر نشاط لجهاد المسلمين وراء البرْت في عهد الولاية ، الذي اتسم بالنشاط العالي في هذا الميدان ، وساهم فيه عدد من ولاة الأندلس . لقد استمر جهاد المسلمين في ميادينه هناك بعد معركة «بَلَاط الشهداء» ، التي كلفتهم كثيراً من الجهد والتضحيات ، وقام بعض الولاية - بعد الغافقي - بحملات إلى تلك المناطق . ومنهم :

* عبد الملك بن قَطَن (حول شوال ١١٤ - رمضان ١١٦ : ولادته الأولى) ، تِلُوَ الغافقي . تحدثت بعض الدراسات^(٣) عن نشاط جهادي له وراء البرْت ، ولم تتوفر أخبارها في المصادر الأندلسية الموجودة ، لكنها ذكرت ذلك معتمدة على الرواية الأوربية^(٤) ، وأخذت منها ، وليس لدينا نص أندلسي يُلمّح لهذا الأمر^(٥) . والراجع الأندلسية المتوفرة بين أيدينا تذكر له نشاطاً في شمال الجزيرة سنة خمس

(١) حضارة العرب ، لوبيون ، ٣٢٠ (كذلك : ٥٦٦ - ٥٦٧) . انظر : الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٢٨ - ٢٩ .

(٢) قارن : حضارة العرب ، ٣١٧ .

(٣) فجر الأندلس ، ١٧٦ .

(٤) 35. Muslim colonies (تاريخ غزوات العرب ، ١٢٠) .

(٥) لعله في نصوص ضائعة ، تظهر يوماً ما .

عشرة ومئة . وتصفه كذلك بالحَوْر ، وأنه عُزِل سنة ست عشرة ومئة ، بعد سنتين من بدء ولايته . وينقل المَقْرِي عن ابن بُشْكُوال – لعله مُعْتَمِد على ابن حيان أو غيره – أن ابن قَطَن « عُزِل عنها ذمياً في شهر رمضان سنة ست عشرة ومئة ، قال : وكان ظلوماً في سيرته ، جائراً في حكومته ، وغزا أرض البَشْكُنْس فأوقع بهم »^(١) . وهنالك احتمال أن يكون ابن قَطَن اشتراك في « بَلَاط الشَّهِداء » ، فتولى قيادة الجيش بعد استشهاد الغافقي . لكن المراجع لا تشير إلى شيء من هذا ، وتذكر أنه قدِم الأندلس في رمضان سنة أربع عشرة ومئة^(٢) أو شوال منها^(٣) . إلا إذا اعتبرنا دخوله الأندلس من الأرض الكبيرة خلف البرْت .

* عُقبَة بن الحَجَاج السَّلُوْي (شوال ١١٦ - ١٢١ أو ١٢٣^٥) ، الذي كان من طراز الغافقي (والسمح وعنبرة) تقوى وجهاً للجهاد وشجاعةً وعزيمةً وحسن سيرةً وعدلاً ، وقد اختار الأندلس لأنها ثَغْرُ جهاد ، كما سبق إيراده^(٤) .

استمرَّ عُقبَة خمس سنواتٍ والياً على الأندلس ، وأنفق قسْطاً غير قليلٍ منها في جهاده وراء البرْت ، ويتبين من النصوص الأندلسية لدينا أنه جال في مناطق متعددة ، لاسيما المقاطعات الفرنسية في الجنوب والشَّمال الشرقي . وهي :

* مقاطعة سَبَتِيَّانِيَّة وعاصمتها أَرْبُونَة ، وقرقشونَة واحدة من مدنهما ، تقع المقاطعة جنوبي فرنسا وشَرقيها على شاطيء المتوسط ، بمُصادقة جبال البرْت .

* مقاطعة البروفانس (Provence) ، شمال سَبَتِيَّانِيَّة إلى الشرق . عاصمتها أَبِنِيُون (Avignon) على وادي رُودَتُهُ (نهر الرون Rhone) .

* مقاطعة بُرْغُنْدِيَا (Purgundia) شمال مقاطعة البروفانس .

جال عُقبَة في هذه المناطق وفي الوجهة التي سلكها عَنْبَسَة قبله ، وإن لم يصل إلى آخر حد وصله ، ولم يشمل جهاد عُقبَة غرب فرنسا ، حيث مقاطعة أقطانية

(١) نفح الطيب ، ١١٩/٣ . كذلك : العبر ، ٤/٢٥٨ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٦) .

(٢) نفح الطيب ، ١١٨/٣ ؛ العبر ، ٤/٢٥٨ .

(٣) البيان المغرب ، ٢/٢٨ .

(٤) أعلاه ، ١٨٠ - ١٨١ .

ذات العاصمة بُرُذيل (بوردو Bordeaux) ^(١). واستشهد عقبة أخيراً في معركة عند مدينة قرقشونة إحدى مدن مقاطعة سبتمانية في صفر سنة ١٢٣ هـ ^(٢). لعله وهو عائد إلى الأندلس أو مجاهد في الأرض الكبيرة، وربما كان ينوي عقبة التوجه إلى غرب فرنسا ، محتازاً أقطانياً متوجهاً إلى الشمال نحو المكان الذي جرت فيه « بلاط الشهداء ». وهذا ما يمكن تبيينه معتمدين على المصادر الأندلسية ومستعينين بغيرها في حدود الدقة المتأنية ، وهو يشير إلى توفر خطة دقيقة مرسومة في الفتح وراء البرُّت تعاون الولاية على تنفيذها ، وهو جاري العادة في الفتوحات الإسلامية في الأندلس وما بعدها وما سبقها .

هذا الجهاد الذي يقوم به عقبة ومن معه ليس سهلاً ولا قليلاً . يدل على القوة الإيمانية والصلابة الجهادية ، حباً في نشر الإسلام وإقامة لشريعة الله تعالى في الأرض ، حياماً كان ^(٣) .

ينقل صاحب نفح الطيب نصاً عن ابن بشكوال بأن عقبة أقام بالأندلس « سنين محمود السيرة ، مثابراً على الجهاد ، مفتتحاً للبلاد ، حتى بلغ سُكُنَ المسلمين أربُونة ، وصار رِباطُهم على نهر رُودُنَه » ، فأقام عقبة بالأندلس إحدى وعشرين ومئة ، وكان قد اتخذ بأقصى ثغر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أربُونة وكان يتر لها للجهاد ^(٤) .

يدرك ابن حيان - فيما ينقله المقري - بياناً معتبراً عن جهاد نشيط للمسلمين وراء البرُّت ، يبدو أنه شرح عام ، ولعله يتعلق - كله أو بعضه - بهذا النشاط الذي قام به عقبة ، وربما غيره من وصل هذا المكان . ثم يصف كيف تأليب القوى الفِرَنْجِيَّة - في هذا الوقت - على جيش المسلمين بقيادة عقبة أو غيره . كل ذلك من غير تحديد لتاريخ هذه الأحداث ، « ولما أوغل المسلمون إلى أربُونة ارتفاع لهم

(١) انظر : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، سالم ، ١٣٧ .

(٢) العبر ، ٢٥٨/٤ (نقل عن الرazi : نفح الطيب ، ٢٣٦/١) .

(٣) انظر : أخبار مجموعة ، ٢٥ ؛ أعلاه ، ١٨٠ - ١٨١ .

(٤) نفح الطيب ، ١٩/٣ . كذلك : العبر ، ٢٥٨/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٦/١) ؛ البيان المغرب ، ٢٩/٢ ؛ أعلاه ، ١٨١ .

قارلُهُ ملكُ الإفرنجِ بالأرضِ الكبيرة ، وانزعجَ لانبساطِهم ، فحشدَ لهم ، وخرجَ عليهم في جمعٍ عظيم ، فلماً انتهى إلى حصنِ لُوذُون ، وعلمتَ العربَ [المسلمون] بكثرةِ جموعهِ زالتَ عن وجهه ، وأقبلَ ، حتى انتهى إلى صخرةِ أَبِنِيُون ، فلم يجدْ بها أحداً ، وقد عسكرَ المسلمون قُدّامهِ فيما بعدَ بينِ الْجَبَلِ المجاورةِ لمدينةِ أربُونَة ، وهم بحالِ غرَّةِ لاعيُونَ لهم ولاطلاع ، فما شعوا حتى أحاطُ بهم عدوُ اللهِ قارلُهُ ، فاقتطعُهم عن اللَّاجِنَّا إلى مدينةِ أربُونَة ، وواضعُهم في الحربِ ، فقاتلوا قتالاً شديداً استشهدَ فيهِ جماعةُ منهم ، وحملَ جمهورُهم على صفوفهم حتى اخْرَقُوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بمحاصنتها ، فنازَلُهم بها أياماً أصيبَ له فيها رجال ، وتعذرَ عليهِ المقام ، وخامرَه ذُعرٌ وخوفٌ مَدَدَ للمسلمين ، فزالَ عنهم راحلاً إلى بلده ، وقد نصبَ في وجوهِ المسلمين حصوناً على واديِ رُودَتُهُ شَكَّها بالرجال ، فصَرَّها ثغراً بينَ بلدهِ والمسلمين ، وذلكَ بالأرضِ الكبيرة خلفَ الأندلس .^(١)

لعلَّ عُقبَةَ خاتمةَ الولاةِ الذين قاموا بالجهادِ وراءَ البرُّت ، وقد جرت بعد ذلكَ في الأندلسِ أحداثٌ شغلتَ المسلمين عن متابعةِ هذا الجهاد ، بل هددتهُ وأتت علىَ كثيرٍ منه إن لم يكن كلَّه فيما بعد ، حيثُ أنَّ عبدَ الملكَ بنَ قَطَنَ (صفر١٢٣ أوائل١٢٤هـ) اشترَكَ في خلافِ حصلَ في الأندلس ، وكانت خصومةُ قُتْلِ فيها ابنَ قَطَنَ . انغمَسَ في هذا - من انغمَس - بعضُ جندِ المسلمين في سَبَّتِمانِيةِ منهم عبدُ الرحمنِ بنِ عَلْقَمَةِ اللَّخْميِ^(٢) في جندهِ له : كانَ نصيبَهِ القتل ، كما مرَّ بنا^(٣) . ومرت هذهِ الأحداثُ في الأندلسِ والدولةُ الأمويةُ في الشرقِ تجتازُ نهايتها التي كانتَ سنةَ ١٣٢هـ .

* * *

هكذا نرى أنَّ السمةَ البارزةَ لعهدِ الولاةِ هي النشاطُ الواضحُ لعملياتِ الجهاد

(١) نفح الطيب ، ٢٧٤/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٢١/٣ - ٢٢ ، ٢٦ .

(٣) أعلاه ، ١٨٨ .

وراء البرَّت رغم ما أصاب ذلك من توقف لظروف خارجية وداخلية ، فإن الأحوال العامة في الشرق وما كان في الأندلس من اختلاف^(١) أدى مثل هذه النتائج .

كان الالتزام بالاسلام دوماً - في الأندلس وفي عموم التاريخ الاسلامي في حِقَبِه المطابلة حتى اليوم ، وهي كذلك للمستقبل - قوام الخير والنصر والسعادة في الدارين . أُصيب المسلمون يوم تخلىوا عن أيِّ جانب أو أمر من أمور الإسلام . ولقد نهى الله - جَلَّتْ قدرته - عن الخصومات ، واعتبرها جاهلية . فالخير في طاعة الله والمجتمع على دينه والأخذ بشرعه * وأطیعوا اللهَ ورَسُولَهَ ولا تنازعوا فتفشلو وتَذَهَّبَ رِحْكُسْ واصبروا إن اللهَ مع الصابرين *^(٢)

جدول بأسماء الولاية

استمر عهد الولاية اثنتين وأربعين سنة ، حكم الأندلسَ خلاطاً عشرون والياً . وهذا ثبت بأسماء هؤلاء الولاية^(٣) ، بعد الفتح الذي قاده موسى وطارق وآخرون .

١ - عبد العزيز بن موسى بن نصیر . تولى الحكم في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م . دامت ولايته سنة عشرة أشهر ، حتى رَجَبَ سنة ٩٧ هـ . استشهد مقتولاً بالأندلس^(٤) . كان مستقره في إشبيلية : العاصمة .

٢ - أَيُوبَ بن حَبِيبِ اللَّخْمِيِّ ، ابن أخت موسى بن نصیر . تولى الحكم سنة ٩٧ هـ ٧١٦ م . ولايته ستة أشهر ، حتى ذي الحجة سنة ٩٧ هـ^(٥) . في أيامه - أو أيام الحر ، بعده - نقلت العاصمة إلى قُرُطْبَة^(٦) .

(١) العبر ، ٢٥٦ / ٤ ، ٢٦٠ ، ٢٥٦ . (= نفح الطيب ، ٢٣٤ / ١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤ / ١) .

(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .

(٣) عن هؤلاء الولاية وتسلسل ولاياتهم ، راجع : العبر ، ٢٥٦ / ٤ - ٢٦١ (= نفح الطيب ، ٢٣٤ / ١ - ٢٣٨) .

. ٧ - ٦ / ٢ .

(٤) جنوة المقبيس ، ٢٨٩ (رقم : ٦٥١) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٢٧٦ / ١ (رقم : ٨٢٥) ؛ بغية

الملتمن ، ٣٨٦ (رقم : ١٠٩٨) ؛ نفح الطيب ، ٢٨١ / ١ ؛ البيان المغرب ، ٢٣ / ٢ ؛ أعلاه ،

. ١٣٢ ، ١٥٩ .

(٥) نفح الطيب ، ١٤ / ٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٥ / ٢ ؛ جنوة المقبيس ، ١٧١ (رقم : ٣١٥) .

(٦) أعلاه ، ١٣٦ .

- ٣ - الحَرْ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّقْفِي . تولى الحكم شهر ذي الحجّة سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م) . ولاليته ستان وثمانية أشهر أو أقل ، حتى رمضان سنة مئة هجرية ^(١) .
- ٤ - السَّمْخُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوَلَانِي . تولى الحكم في شهر رمضان سنة مئة هجرية (٧١٩ م) . ولاليته ستان وثلاثة أشهر ، حتى شهر ذي الحجّة سنة ١٠٢ هـ . استُشهد جنوبي فرنسا ^(٢) .
- ٥ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولاليته الأولى) . تولى الحكم سنة ١٠٢ هـ (٧٢١ م) . ولاليته شهران ^(٣) .
- ٦ - عَنْبَسَةَ بْنَ سُحَيْمِ الْكَلَبِي . تولى الحكم في شهر صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) . ولاليته أربع سنين وستة أشهر ، حتى شعبان سنة سبع ومئة . استُشهد جنوبي فرنسا ^(٤) .
- ٧ - عُذْرَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْفَهْرِي . تولى الحكم سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) . ولاليته شهران ^(٥) .
- ٨ - يحيى بن سَلَمَةَ الْكَلَبِي . تولى الحكم في شهر شوال سنة ١٠٧ هـ (٧٢٦ م) . ولاليته ستان وستة أشهر ^(٦) .
- ٩ - حُذَيْفَةَ بْنَ الْأَحْوَصِ الْقَيْسِيِّ (الأشجعي) . تولى الحكم في شهر ربيع

(١) نفح الطيب ، ١٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٥/٢ ؛ أعلام ، ١٣١ ، ١٣٦ .

(٢) جذوة المقتبس ، ٢٣٦ (رقم : ٤٩٨) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ (رقم : ٥٨٦) ؛ بغية الملتمس ، ٣١٦ (رقم : ٨٣٩) ؛ نفح الطيب ، ١٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلسي ، ٤١٨ ؛ أعلام ، ١٨٥ - ١٨٧ .

(٣) نفح الطيب ، ١٥/٣ - ١٦ - ١٥/٤ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٧٤ (رقم : ٦٠٣) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٢٥٦/١ (رقم : ٧٧٢) ؛ بغية الملتمس ، ٣٦٥ (رقم : ١٠٢١) ؛ التكملة ، ١/٣٥٤ ؛ الذيل والتكملة ، ٣٢٧/٦ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ٣٢٩ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٩٥ ؛ المقتبس ، ١٤٠/٢ ؛ أعلام ، ١٣٢ ، ١٩٣ وبعدها .

(٤) جذوة المقتبس ، ٣١٩ (رقم : ٧٤٠) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١/٣٤٤ (رقم : ١٠١٣) ؛ بغية الملتمس ، ٤٣٢ (رقم : ١٢٥٩) ؛ نفح الطيب ، ١٦/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ ؛ أعلام ، ١٩١ - ١٩٠ .

(٥) نفح الطيب ، ١٧/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ ؛ أعلام ، ١٨٠ .

(٦) نفح الطيب ، ١٧/٣ ، ١٨ ، ١٧/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

- الاول سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) . ولاليته ستة أشهر أو أكثر^(١) .
- ١٠ - عثمان بن أبي نسعة الخثعمي . تولي الحكم في شهر شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) . ولاليته خمسة أشهر^(٢) .
- ١١ - الهيثم بن عدّي (عبد العباس الكلابي (الكتاني) . تولي الحكم في المحرم سنة ١١١ هـ (٧٢٩ م) . ولاليته خمسة أشهر أو أكثر^(٣) .
- ١٢ - محمد بن عبد الله الأشجعي . تولي الحكم سنة ١١١ هـ (٧٣٠ م) . ولاليته شهران^(٤) .
- ١٣ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولاليته الثانية) . تولي الحكم في شهر صفر سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) . ولاليته ستان وثمانية أشهر ، حتى رمضان ١١٤ هـ (تشرين الأول = أكتوبر ٧٣٢ م) . استُشهد في وقعة «بلاط الشهداء»^(٥) .
- ١٤ - عبد الملك بن قَطَن الفهري (ولاليته الأولى) . تولى الحكم حول شهر شوال سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) . ولاليته ستان^(٦) .
- ١٥ - عقبة بن الحجاج السُّلُوْيِي . تولي الحكم في شهر شوال سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) . ولاليته خمس سنوات وشهران أو أكثر ، حتى سنة ١٢١ هـ أو حتى شهر صفر سنة ١٢٣ هـ . استُشهد خلف جبال الْبُرُوت^(٧) .
- ١٦ - عبد الملك بن قَطَن الفهري (ولاليته الثانية) . تولي الحكم في شهر صفر .

(١) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٤) التكملة ، ٣٥٤/١ (رقم : ٩٥٢) ؛ الذيل والتكميلة ، ٣٢٧/٦ ؛ نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٥) الحاشية رقم ٣ في الصفحة السابقة ؛ أعلاه ، ١٩٣ وبعدها .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٢٦٩ (رقم : ٨١٤) ؛ نفح الطيب ، ١٨/٣ ، ١٩ ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ ، ٣٠ ؛ أعلاه ، ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٧) جنوة المقتبس ، ٣١٩ (رقم : ٣٩١) ؛ بقية المقتبس ، ٤٣٢ (رقم : ١٢٥٨) ؛ نفح الطيب ، ١٩/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٩/٢ ؛ أعلاه ، ٢٠٤ - ٢٠٦ .

- سنة ١٢٣ هـ (٧٣٤ م) . ولايته سنة واحدة وشهر واحد^(١) .
- ١٧ - بَلْجَ بنِ بَشْرٍ بنِ عِياضِ الْقُشَيْرِي . تولى الحكم سنة ١٢٤ هـ (٧٤٢ م) . ولايته أحد عشر شهراً أو أقل^(٢) .
- ١٨ - ثَعْلَبَةَ بنَ سَلَامَةَ الْعَامِلِي . تولى الحكم سنة ١٢٤ هـ (٧٤٢ م) . ولايته عشرة أشهر أو أقل^(٣) .
- ١٩ - أَبُو الْحَطَّارِ حُسَامَ بنَ ضِرارِ الْكَلَبِي . تولى الحكم في رجب سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) . ولايته أربع سنوات وستة أشهر أو أقل^(٤) .
- ٢٠ - ثُوابَةَ بنَ سَلَامَةَ الْجَدَّامِي . تولى الحكم في رجب - شعبان سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) . ولايته سنة واحدة أو أكثر^(٥) .
- ٢١ - عبد الرحمن بن كثير اللخمي . تولى الحكم أوائل سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) . ولايته بضعة أشهر . نصبه أهل الأندلس « للأحكام خاصة »^(٦) .
- ٢٢ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري (آخر ولاة الأندلس) . تولى الحكم في ربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ (كانون الثاني سنة ٧٤٧ م) . ولايته تسع سنوات وتسعة أشهر أو أكثر^(٧) ، « جَدُّه عَقْبَةُ بْنُ نَافعٍ صاحبُ إفْرِيقِيَّةٍ وَبَانِي الْقَيْرَوَانَ الْمَجَابِ الدَّعْوَةُ صاحبُ الْغَزَوَاتِ وَالآثارِ الْحَمِيدَةِ ، وَهُذَا الْبَيْتُ فِي السُّلْطَنَةِ الْإِفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ نِيَاهَةٌ . وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ مَوْلَاهُ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَدَخَلَ أَبُوهُ الْأَنْدَلُسَ مِنْ إفْرِيقِيَّةٍ مَعَ حَبِيبَ بْنَ أَبِي عَبْيَدَةَ الْفَهْرِيِّ عِنْدَ افْتَاحِهِمْ »^(٨) . انتهت ولايته بعد وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، حيث مبتدأ عهد الإمارة .

(١) رابع : الحاشية رقم ٦ في الصفحة السابقة .

(٢) نفع الطيب ، ٢٠/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣١/٢ ؛ جنوة المقتبس ، ١٨٠ (رقم : ٣٣٦) .

(٣) نفع الطيب ، ٢٢/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٢/٢ .

(٤) نفع الطيب ، ٢٢/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٣/٢ .

(٥) نفع الطيب ، ٢٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٥/٢ .

(٦) العبر ، ٤/٢٦١ (= نفع الطيب ، ١/٢٢٨) ؛ البيان المغرب ، ٣٥/٢ .

(٧) نفع الطيب ، ٢٥/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٥/٢ . (٨) نفع الطيب ، ٣٥/٣ .

المُخلاصَة

بذل المسلمين جهداً كبيراً في دعوة الناس إلى الإسلام في الأندلس . عملوا له بإخلاص أصيل وعمق بعيد ، في سلوكهم وتعاملهم ودعوتهم . وتغيير بذلك وجه الحياة في جنبات الجزيرة .

غدت الجزيرة الأندلسية رباطاً جهاداً^(١) وممثلاً لحضارتها ومنتباً لإنسانية كريمة . سقت أرضها وأفاضت على من حولها برغبة وديّة وحرص حنون ، تلك لها رسالة هي عبادة . أبت سلطاتُ بلدان إلا رفض هذا النبع ، وغلقت على نفسها وعلى غيرها الأبواب ، وأبقت أهلها مرتعًا للخراب ، وفيما بعد لم تجد إلاه مرجعاً ، فهُرّعت إليه وألقى بكلكلاها التقليل عليه ، لتستب ثمارها مجردة ، وتنقل غرساً ترويه بغير مائه . نقلت علوماً لوحدها دون عناء بأصلها ، خال من طبيعة جوها سُفرَغ من مقومات بنائها . كان جافاً خشناً وعدواً نَسْخِراً ، عرضةً للسقوط في هوة سحيقة تتكسر كالهشيم . مستعدة للاحتراق في أي وقت ، فيحرق أهله ويدهب بمن حوله . كانت غَيْرَةً هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم . فدَوْهُ - وشريعته - بالنفس ، وهي عندهم لرخيصة ، فهو أغلى من حياتهم ، أشرى بتفوُّسهم حُبَّه : غداً تصوّرَهُم وفكّرَهُم ونورَهُم وربّعَ حياتهم . لذلك حرّصوا - بأصلالة - على مصالح العباد والبلاد ووحدتها وإزالة ما فيها من معوقات .

حملوا مَدَهُ الْكَرِيمَ إِلَى أَماكنَ أُخْرَى وراءَ الْبُرْتُ ، ربما لتنفيذ خطة موسى ابن نُصَيْر^(٢) . وبذل المسلمين لكل ذلك جهوداً بَرَّةً ، وقدّموا عملاً دائمًا ملحوظاً فيما وراءَ الْبُرْتُ ، واستشهد عدد من الولاة - وهم من الحِيرَةِ الْبَرَّةِ - وكانوا في جهاد مستمر لسنوات ، ما عَرَفُوا كُلَّاً ولا كُسْلَاً . فالدُّوافعُ ثَرَّةً قويةً لانتهاد ، متولدة جديدة لا تتوقف . استمداد من الإيمان بالله سبحانه : مصدر القوى ، واتصال بالاسلام العامل المُعَمَّر . استشهد غير واحد في أيام التروية أو عرفة ورمضان^(٣) .

(١) انظر : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١٣٠ (= الروض المطار ، ٣) ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢
= أعلاه ، ١٩١-١٩٢) ؛ أعلاه ، ٥٦ ، ١٨٠-١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ .

(٢) انظر : أعلاه ، ١١٣-١١٥ .

(٣) انظر : أعلاه ، ١٨٣-١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٤-١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

هم في الميدان دوماً ، لا يطلبون راحة ، بل راحتهم في هذا الجهد ، وهو لله عبادة والأمره استجابة ولخلقه هداية . يجاهدون حتى في هذا اليوم ، يوم العيد الذي يستريح فيه الإنسان ويَقْيل ، هم ليسوا في الميدان وحسب ، بل في المعمرة الغامرة والمقدمة . أول من يواجه الخطر ويدفع بنفسه عن غيره – لاغيره – من أجل المهدف ، لذلك كان القائد أول من يتعرض له أو ينكشف . يواجه الخطر ملتحماً ويسير نحوه متقدماً . حين تشتد الملحمة تناهم المكرمة ، فيرتفع شهداء العقيدة بالله متسابقين ، يكونون أولى الركب سائرين . تلك سمة مجيدة فريدة ، لكنها في التاريخ الإسلامي كثيرة مديدة . هي بعض ما يُرِى في درب الإيمان بالله ونهج الحق الذي أنزله – جَلَتْ قدرته – على رسوله الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

لم ينحصر الجَهَدُ في الميدان العسكري ، بل شَمَلَ كذلك الميدان الإصلاحي في كل وجوه الحياة . نُظمت الإداراة ، وتمت الإصلاحات المالية والزراعية وال عمرانية ، عرفنا قنطرة قرطبة العجيبة ، كما ضربت العملة الإسلامية .

كان عهْدُ الولاة عهْدَ تأسيس . تمت فيه إنجازات كثيرة من الفتوح المتعدد الألوان ، الشامل لكل ميدان . مَثَلَّ ببداية الوجود الإسلامي في تلك البقعة ، وما صاحب ذلك من مجهودات الإنعاش فيها . كانت أيامه أيام غرْسٍ لم يَحِنْ بعدُ موسم حصاد كبير من إنتاجه الفكري والعماني ، الذي وُضعت أُسسُه وتهيأ مجاله . كان منها بداية لوضع أساس الحياة العلمية وتهيئة المجال لقيامتها ، سليمة متينة ، آتت – غير بعيد – أكْلُها ، يانعة دائنة .

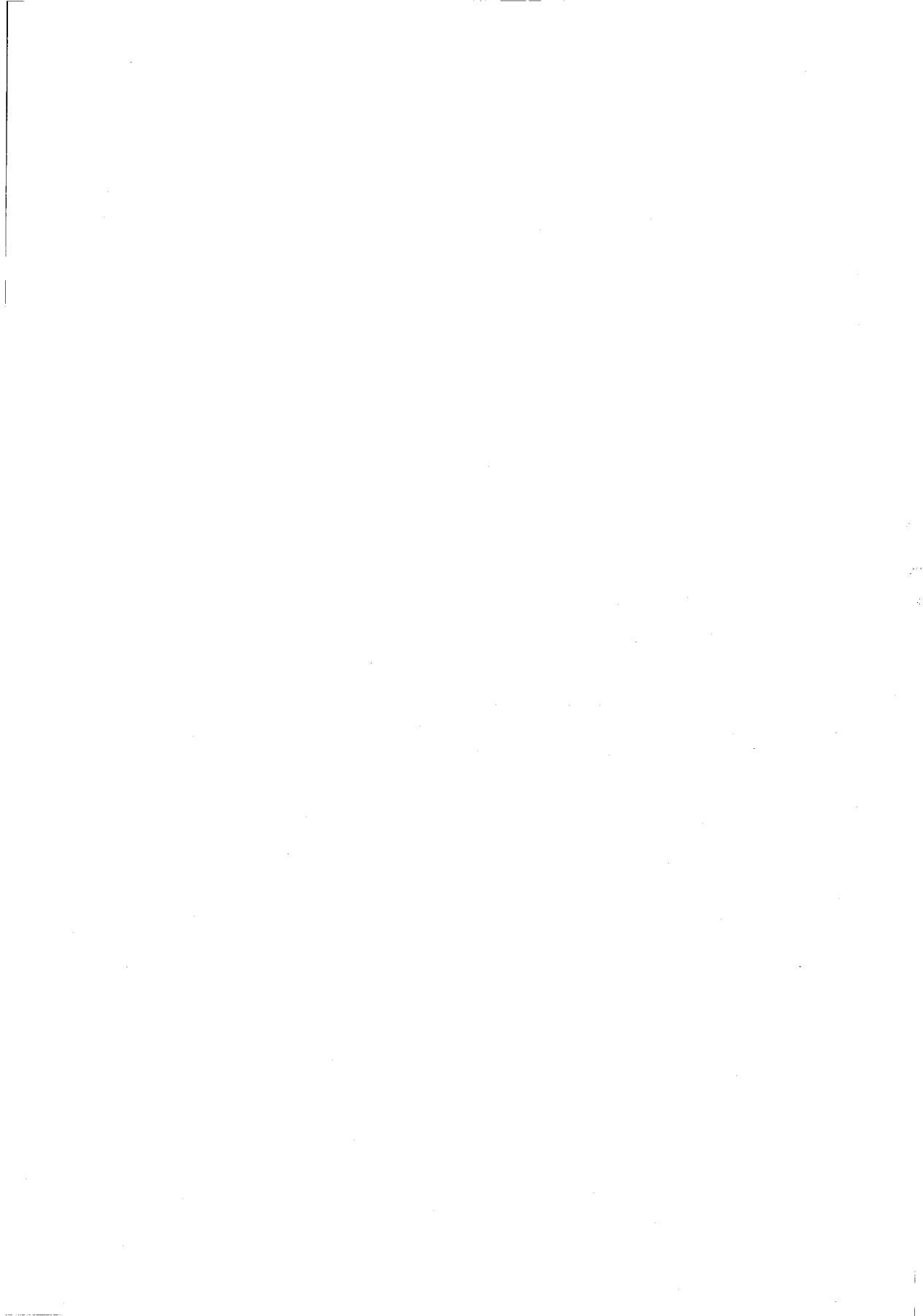
كان أَكْبَرُ الإنجازات : ذلك الذي كَرَّمَ الإنسان وأعلاه وحقق وجوده وهداه . غدا «إنساناً ربَّانياً» ، لأنَّه سار في الطريق المنير الوحد ، في طريق الله القويم الكريم وصراطه المستقيم . أورث الأرضَ – وحده – خيراً وبركة ، هداية ونوراً ، وأشارت بنور الله سُبْحانه وتعالى وجَلَّتْ قدرته .

الفصل الثالث

عُهْدُ الْإِمَارَةِ

(١٣٨ - ٧٥٥ م)

- أولاً : أبرز الأحداث في هذا العهد .
- ثانياً : الجهاد في عهد الإمارة .
- ثالثاً : نشوء الدوليات الإسبانية في شمالي الأندلس وتحرشاتها .
- رابعاً : خصائص عهد الإمارة وأحواله وإنجازاته .
- خامساً : السياسة الخارجية .



عهد الإمارة

تعريف بالعهد

يتضمن عهد الولاة - الذي يليه عهد الإمارة - بمجرد عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، حيث آخر الولاية يوسف الفهري . وذلك بعد سقوط الدولة الأموية في الشام سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) . وقد تعقب العباسيون الأمويين ، وكان من هرب أبو المطرّف عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية . و معاوية هذا ، هو « جد أمراء الأندلس » .^(١) ويكون عبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ = ٧٤٣ - ٧٢٤ م) عاشر الخلفاء الأمويين في الشام .

قائمة نسب الداخل^(٢)

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم

معاوية + راح (نفرية)

أبو المطرّف عبد الرحمن أم الأصيغ
(الداخل بالأندلس)
هشام يحيى (قتل يوم الزاببيين)

لحق ابن معاوية بالأندلس وغدا لها أميراً ، وبه ابتدأت الإمارة فيها ولم تعد الأندلس - منذ الآن - تابعة للخلافة الإسلامية ، كما كانت أيام الولاة .

وصل عبد الرحمن لفريقية (تونس الحالية) متخفيًا ، عن طريق مصر وبرقة . واختفى هناك مدة ، ثم استأنف سيره نحو المغرب الأقصى ، قرب مدينة طنجة ،

(١) البر ، الذهبي ، ١٥١/١ .

(٢) انظر : جمهرة أنساب العرب ، ٩٤ - ٩٢ ؛ الحلقة السيراء ، ٣٥/١ - ٣٧ ؛ البيان المغرب ، ٤٧/٢ .
فتح الطيب ، ٢٧/٣ وبعدها ؛ البر ، الذهبي ، ١٥١/١ .

حيث نزل عند أخواه قبيلة نَفْرَة^(١) . وعند أخواه وفي سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) ،
بدأ عبد الرحمن بن معاوية يُعد العدة لدخوله الأندلس .

كانت السلطة في الأندلس لرجلين ، هما : الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ثم الصَّمِيل بن حاتِم . وأرسل ابن معاوية معاونه بدرأ (وهو رومي الأصل^(٢)) إلى الأندلس ، وبعد أن بلغته الأخبار بأحوالها ووجود عدد من المؤيدين له فيها ، وجَهَ بدرأ إلى الأندلس بكتاب يدعوه إلى تأييده لتولي الأندلس ، وأجرى بدر مفاوضات للموافقة على محبي عبد الرحمن بن معاوية وتَولِيه حكم الأندلس ، واستطاع مع بعض أصحابه أن يجمع المؤيدين الذين كانوا في زيادة مستمرة ، ثم عاد إلى عبد الرحمن في المغرب سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) وأخبره بما رأى وجرى .

لم يكن يوسف الفهري يعرف بذلك . كان مشغولاً بأعمال حربية في الشمال ، وبمعالجة بعض الأحداث . كانت الأندلس - في هذا الوقت - غير هادئة الأوضاع ومشجعة لعبد الرحمن بن معاوية في الحصول إلى الأندلس الذي وصلته أباوه . وجاز عبد الرحمن المصيق سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، وأرسى في مدينة المُنْكَب (Almuñécar) على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة الأندلسية ، على البحر المتوسط ، وحَلَّ بقرية طُرُوش (Torrox) ، « وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة ، دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس في غُرَّةٍ ربيع الأول ، وهو أبو الملوك ، وكان خروجه من المركب بموضع يعرف بالمنكَب ، ثم نزل بقرية طُرُوش من كورة إلبيَّة . »^(٣)

اجتمع الناس حول ابن معاوية وكثير مؤيده ، وببدأ ينظم أموره ويَلْمُ جمعه للوقوف في وجه الذين سيعارضونه ، وسار باتباعه فأيدته عدة مدن . واجتمع معارضوه بقيادة الوالي الفهري يُؤيِّدُه الصَّمِيل ، وبينما كانوا راجعين من سرْقُسطة وَرَدَّ عليهمَا كتاب من قُرْطُبة يُخْبِرُهُمَا بأمر عبد الرحمن بن معاوية . وجرت - بادئ الأمر - مفاوضات معه وأرسلوا إليه المدايا وأخذوه بالتلطف والعرض المغرية ، للتخلِّي عن

(١) العبر ، ابن خلدون ، ٤ / ٢٦٢ (= نفح الطيب ، ١ / ٢٢٨) . كذلك : أخبار مجموعة ، ٦٧ .

(٢) الإحاطة ، ١ / ٤٤ .

(٣) البيان المغرب ، ٢ / ٤٤ . كذلك : نفح ، ٣ / ٣٢ - ٣١ ؛ الروض ، ٣٠ .

الولاية ، كما دعوه برفق إلى المصاورة ، ورفض ابن معاوية ذلك ، وقبل المدية^(١) . انتهت كل هذه المحاولات إلى صدام بين الفريقين ، فسار ابن معاوية بج逐 معه التي كانت في ازدياد إلى قُرطبة ، وعند الوادي الكبير جرت – لتسع أو عشر خلَّونَ من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ^(٢) (٧٥٦ م) – معركة حاسمة عُرفت بمعركة **المصارحة** (**المُسَارَة**) . وتغلب فيها عبد الرحمن على خصومه ، وفر يوسف هارباً ونجا بنفسه ، ودخل عبد الرحمن قُرطبة وبويغ بها أميراً على الأندلس في اليوم التالي^(٣) . وأبقى قُرطبة عاصمة ، وهي من قواعد الأندلس الكبير ، وقام يوسف الفهْري والصَّمِيل بمحاولات يائسة انتهت بموتهما .

لُقْبَ عبدُ الرحمن بن معاوية بـ « الداخِل »^(٤) ، لأنَّه أول من دخل الأندلس من بني أمية حاكماً ، وبه يبدأ عهد آخر في الأندلس ، نسميه « عهد الإمارة » حسب شكل الحكم . فقد كان كُلُّ من حكامه يُسمى أميراً . واستمر « عهد الإمارة » هذا حوالي قرن وثلاثة أرباع القرن ، حتى إعلان الخلافة في الأندلس من قبل عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م)^(٥) . وعرف عبد الرحمن بن معاوية بـ « الأول » لأنَّه أول ثلاثة حكام (أو أكثر) من بني أمية في الأندلس حملوا هذا الاسم : مع عبد الرحمن الثاني ، الأوسط (٢٣٨-٢٠٦ = ٩٢٢-٨٥٢ م) وعبد الرحمن الثالث ، الناصر لدين الله (٣٠٠ - ٩١٢ = ٣٥٠ - ٩٦١ م)^(٦) .

وقد لُقِّبَ أبو جعفر المنصور عبدَ الرحمن الأول بـ « صقر قُرَيشٍ » لبراعته وقوته . نفسه ، وتوليه الحكم في الأندلس بعد أن كان هارباً من أيدي العباسيين^(٧) . ولدينا موضوعات معينة تتنظم هذا العهد ، وهذا عرضُها .

(١) البيان المغرب ، ٤٥/٢ .

(٢) انظر : الحلقة ، ٣٥/١ ؛ البيان ، ٢ ، ٤٦/٢ - ٤٧ ؛ أعمال الأعلام ، ٨/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٠٠/١ (نفلا عن ابن حيان) .

(٤) انظر : نفح الطيب ، ٢٧/٣ .

(٥) أدناه ، الفصل الرابع .

(٦) انظر : نفح الطيب ، ٢٤٧/١ .

(٧) راجع : نفح الطيب ١/٣٢٩ ؛ البيان المغرب ، ٥٩/٢ .

أولاً : أبرز الأحداث في هذا العهد

وقدت في هذا العهد عادةً أحداث في داخل الأندلس وخارجها ، الخارجيّة منها مهمة وخطيرة . وتشمل هذه الأحداث في الأغلب : الأخطار التي داهمت الأندلس من الخارج نتيجة لاعتداءات خارجية ، ورد المسلمين لها وجهادهم فيها وفي مناطق غيرها ، وبعض الأحداث المتنوعة في الداخل التي كان لها ارتباط بالحياة في الأندلس .

١ - الأحداث الخارجية

الأحداث الخارجية متنوعة . كان بعضها أخطاراً هادّت الأندلس من خارج شبه الجزيرة الأندلسية ، وبعضها نشاط أندلسي تمثّل في رد عدوان إسبانيا النصرانية في شمال الجزيرة^(١) أو نشاط أندلسي تمثّل في جهاد المسلمين خارج الجزيرة^(٢) . ويتناول حديث الأخطار الخارجية - لهذا العهد - قضيتين :

آ - هجوم شارلمان على الأندلس .

ب - هجوم النورمان على الأندلس .

آ - هجوم شارلمان على الأندلس

بعد قيام الإمارة في الأندلس انشغل عبد الرحمن الداخل (دمشق، ١١٣ : قرطبة، ذو الحجة سنة ١٣٨ - قرطبة ، ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ أو قبلها^(٣)) - في بداية العهد - بمواجهة مشكلات حلّها ، وأحوالٍ نظمها ، ومعارضة أزاحها وقضى عليها . واستقرت بذلك الأمور له ، وساد المدّوء في الأندلس ، وببدأ عصر الإنتاج والنمو والازدهار . وكان الجو مهيئاً والغرس مستعداً للإثمار مجدداً . بفضل جهود مَن سبقه من الجنود ، من أيّ مستوى واستعداد ومكانة ، في كل ميدان . وهو دوماً بحاجة إلى الرعاية من أكثر من جهة ليستمر نموه .

(١) أدناه ، ٢٦٩ .

(٢) أدناه ، ٢٤٤ وبعدها .

(٣) نفح الطيب ، ٤٨/٣ (نقلً عن ابن حيان) ؛ البيان المغرب ، ٥٨/٢ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١٩٢/١ .

امتاز عبد الرحمن الداخل بصفات القيادة السياسية والعسكرية . وصفه شيخ المؤرخين الأندلسيين ابن حيّان القرطبي (٤٦٩ هـ) بقوله : « كان عبد الرحمن راجعَ الحلم ، فاسحَ العلم ، ثاقبَ الفهم ، كثيرَ الحزم ، نافذَ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصلَّ الحركة ، لا يُخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعَة ، ولا يكملُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيداً الغَور ، شديدَ الحِدة ، قليلَ الطُّمَأنينة ، بل يغدو مُفْوَهاً ، شاعراً مُحْسِناً ، سَمْحاً سَخِيًّا ، طَلْقَ اللسان ، وكان يلْبَس البياضَ ويَعْتَمُ به ويؤثره ، وكان قد أُعْطِيَ هيبة من ولَيَّه وعدوه ، وكان يَحضر الجنائز ، ويصلِّي عليها ، ويصلِّي بالناس إذا كان حاضراً الجمْع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويُعدُّ المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمُشي بينهم »^(١) . بهذا التعامل سار عبد الرحمن الداخل في الأندلس وأخضع الثائرين وثبتَّ أركانَ الدولة ، وكفَّ العادية عنها ، فعادت للأندلس وَحَدَّتُها واستقرَّاًها .

سعى بعض العصاة الأندلسيين – شمالي البلاد – للاقصال عن قرطبة بمقاومة السلطة المركزية الأندلسية والقضاء عليها بأي ثمن . استدعوا شارلمان (١٥١ - ١٩٩ هـ = ٧٦٨ - ٨١٤ م) إمبراطور الدولة الفِرَنجِية إلى الأندلس ، ليعاونهم في تحقيق هذا الهدف الأثيم ، ويكونوا له عليها وكلاء بيئة أمراء : و « ياحبذا الإمارة ولو على الحجارة » .

كان الفِرَنج سلطة قوية قريبة من الأندلس مجاورة له وكانوا يتخوفون من الدولة النامية فيه . لاسيما بعد أن رأوا حاكمه الجديد قضى على كل المقاومة ، وظهرت دولة الأندلس مرة أخرى قوية متماسكة . ومنذ السنوات التي سبقت عبد الرحمن الداخل كانت سياسة الفِرَنج نحو الأندلس غير سلمية . لا ترك فرصة إلا واستغلتها في إضعاف هذه القوة . واتخذت عدة وسائل لمحاجمتها ، وقامت بتحريض العصاة تارة أخرى في الداخل ، أو بتأييدهم وبعدهم بوسائل القوة المكنة . زيادة إلى أنهم أحياناً اتخذوا بعض المراكز في شمال الجزيرة الأندلسية وجعلوها بئراً مستعمرات

(١) نفح الطيب ، ٣/٣ .

قريبة ، ليضايقوا بها الأندلس . بجانب المحاولات لتقليل حكم الإسلام وطرد المسلمين من المناطق الجنوبيّة في غالٍ خلف البرُّت .

كان هجوم شارلمان على الأندلس حدثاً غريباً له أسبابه ، كما له نتائجه . وقد من ورائه الاستيلاء على الأندلس وإلحاقه بالإمبراطورية الكارولنجية وريثة المير وفنجية سابقتها .

استدعى شارلمان لهاجمة الأندلس بعض العصاة فيها : سليمان بن يقطان الأعرابي الكلبي – والي برشلونة أو سرقسطة – والحسين بن يحيى الانصاري – والي سرقسطة – مع آخرين .

كان عصيان الحسين بن يحيى سنة ١٥٧ هـ ، « وفي سنة سبع وخمسين ومئة ثار بسرقسطة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي ، وشاعره سليمان ابن يقطان الأعرابي الكلبي رأس الفتن ، وأل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان ، وقتل الداخل الحسين »^(١) . وابن عذاري يتحدث عن هذا الأمر إلا أنه يضعه سنة خمس وستين ومئة^(٢) .

والظاهر أنه جرت مراسلات بينهم وبين قرطبة . فقد نقل المقرري عن ابن حيّان بأن الداخل كتب إلى سليمان يدعوه إلى الطاعة ولزوم الجماعة : « قال ابن حيّان : ووَقَعَ إِلَى سليمان بن يقطان الأعرابي على كِتابِهِ ، سَلَكَ بِهِ سَبِيلَ الْخَدَاعِ : أَمَا بَعْدَ فَدُعِيَ مِنْ مَعَارِضِ الْمَعَذِيرِ ، وَالْتَّعْسُفِ عَنْ جَادَةِ الْطَّرِيقِ ، لِتَمَدَّنَّ بِدَأْ إِلَى الطَّاغَةِ ، وَالاعْتِصَامِ بِجَبَلِ الْجَمَاعَةِ ، أَوْ لِأَرْوَيَنَ بِنَاهَا عَنْ رَضْفِ الْمَعْصِيَةِ ، نَكَالًاً بِمَا قَدَّمَتْ يَدَكَ ، وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ». ^(٣) ولم تُجِدْ هذه المراسلات واتفاق هؤلاء على دعوة شارلمان لهاجمة الأندلس ، على أن يقوموا به بمساعدته .

تذكر الرواية الفرنجية ذهاب بعض هؤلاء العصاة إلى بلد الإفرنجية لدعوة ملكها قارل^{هـ} . في حين لا تشير الرواية الأندلسية – التي تمتاز بالدقّة – إلا إلى تسليم العصاة قائد الداخل (ثعلبة) إلى قارل^{هـ} (شارلمان) . ذلك حين أرسل الداخل

(١) نفح الطيب ، ٤٨/٣ .

(٢) البيان المغرب ، ٥٦/٢ - ٥٧ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٩/٣ . أوردها ابن عذاري (البيان المغرب ، ٥٨/٢) مع بعض اختلاف : « أو لأنهن بناهما على رضف المعصية » بدلاً .

جيشاً لمحاربة الأعرابي بقيادة ثعلبة ، على مانقله العذراني (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) عن أحمد بن محمد بن موسى الرازي (٢٧٤ هـ - ٣٤٤ هـ)^(١) : « كان سليمان بن يقطان من نازل سرقة . . . فخرج من قرطبة ودخل سرقسطة . وخرج لمحاربته ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومئة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه وأضطرب على باب سرقسطة بمعسكره ، فاقترس سليمان بن يقطان غفلته وافتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسرَّ ثعلبة بن عبيد ، وبعث به إلى ملك الإفرنج . وتأهَّب الإمام عبد الرحمن بن معاوية لغزوه ، فوثب حسين بن يحيى على سليمان بن يقطان فقتله وملك مدينة سرقسطة . »^(٢)

ويُفهم من كلام ابن الأثير (٢٥ شعبان ٦٣٠ هـ) المؤرخ المشرقي ، في كتابه الكامل في التاريخ أن الأعرابي استدعى شارمان وسلمه ثعلبة رهينة في الأندلس . ذلك أنه سنة ١٦٤ هـ « سار عبد الرحمن الأموي إلى سرقسطة بعد أن كان قد سير إليها ثعلبة بن عبيد في عسكر كثيف ، وكان سليمان بن يقطان ، والحسين بن يحيى قد اجتمعوا على خلع طاعة عبد الرحمن كما ذكرنا ، وهما بها ، فقاتلهمَا ثعلبة قتالاً شديداً ، وفي بعض الأيام عاد إلى مخيمه ، فاغتنم سليمان غرته ، فخرج إليه ، وقبض عليه ، وأخذه ، وتفرق عسكره ، واستدعي سليمان قارلُهُ ملك الإفرنج ، ووعله بتسليم البلد وثعلبة إليه ، فلما وصل إليه لم يُصبح بيده غير ثعلبة ، فأخذه وعاد إلى بلاده ، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء ، فأهمله عبد الرحمن مدة ، ثم وضع مَنْ طلبه مِن الإفرنج ، فأطلقوه . »^(٣)

يُلاحظ من خلاصة النصوص السابقة أنها تشير إلى مسألتين ، تذكر الرواية الوربية خلافهما :

١ - أن الأعرابي لم يذهب بنفسه إلى ملك الإفرنج قارلُهُ (شارمان) بل ذهب آخرون ، ولم تُسمّ الرواية الأندلسية أحداً منهم . على حين تذكر الرواية الوربية

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ٤٢/١ (رقم : ١٣٧) .

(٢) نصوص عن الأندلس ، ٢٥ .

(٣) الكامل في التاريخ ، ٦٣/٦ - ٦٤/٦ .

وفدأً برئاسة الأعرابي ذهب إلى شارلمان^(١).

٢ - أن الأعرابي قام بأفعاله تلك في سرقة سُلطنة ، وأنه كانت له عليها ولاية قبل الحسين بن يحيى أو معه ، بإذن قرطبة أو بلونه . ويذكر ابن الأثير أن الأعرابي والحسين اجتمعوا على خلاف عبد الرحمن بن معاوية في سرقة سُلطنة^(٢) ، وحين قُتل الحسين ، الأعرابي انفرد الأول بحكمها^(٣) .

ذكر ابن خلدون أن الأعرابي كان « عاملاً على برشلونة »^(٤) . أما ابن الأثير فيشير تلميحاً إلى أنه كان بـ برشلونة^(٥) من غير تصريح بولايته عليها ، كما فعل ابن خلدون وتذكره الرواية الأوربية بوضوح ، بل وتزيد في ولايته جيرونا (Gerona) إلى جانب بـ برشلونة (Barcelona)^(٦) .

تسند الرواية الأوربية إلى هؤلاء العصاة أدواراً أو أموراً لانجد لها ظلاً في الرواية الأندلسية ، وهي أدق وأوثق . زيادة على أنها أمور حدثت داخل الأندلس ، فهي بها أدرى ولهأوعي . اللهم إلا إذا ضاعت تلك الأصول التي ألمت بهذا الأمر ، فيما ضاع من أصول التاريخ الأندلسي . فالرواية الأوروبية تُضَخِّم وتُجَسِّم دور هؤلاء العصاة المخالفين .

ويجد الباحث اختلافاً تاريخاً هذه الأحداث في الرواية الأندلسية ، ولعل سببه امتداد هذه الأحداث - متقطعة - أكثر من سنة واحدة ، انتهت بعد ذلك في أواسط العقد السابع بعد المئة الهجرية^(٧) . وللتفصيل يمكن تفحص ذلك في المراجع الأندلسية والدراسات الأخرى .

(١) *La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo*, Menéndez Pidal, 179 ; *Andalusian diplomatic relations*, 141 ; دولة الإسلام في الأندلس ، ١٦٩/١ .

(٢) الكامل ، ٦٢/٦ ، ٦٣ .

(٣) الكامل ، ٦٤/٦ .

(٤) العبر ، ٢٦٨/٤ .

(٥) الكامل ، ٥٤/٦ .

(٦) *La Chanson*, 179 ; *Muslim colonies*, 85 ; *Andalusian diplomatic relations*, 140 ; دولة الإسلام ، ١٦٨/١ .

(٧) نصوص عن الأندلس ، ٢٦ .

أرسل الداخل سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥ م) جيشاً إلى العصاة في سرقةسطة بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي ، فلم يظفر الجيش بهم ، بل أسروا ثعلبة ، ثم أرسلاه مع وفد إلى شارلمان - عربوناً ودليلًا - بدعوه لهاجمة الأندلس والاستحواذ عليها بمعاونتهم . لكنهم باهروا بائهم وتفرق شملهم ، وعاد شارلمان بحملته العسكرية على الأندلس بالخيبة المرأة .

ويمكن القول - اعتماداً على الرواية الأندلسية - إن عاصياً أو أكثر دعا شارلمان لهاجمة الأندلس بمعاونتهم ، وكان إرسال ثعلبة رهينة منهم لديه دليل تأكدهم واستمرارهم . وإن لم تتوفر إشارة يُهتدى بها إلى معرفة عدد أعضاء الوفد ، أو أسمائهم ، أو أنه برئاسة الأعرابي . يذكر صاحب أخبار مجموعة ما ذكره العذري في نصه السابق وزاد عليه : « ثم ثار سليمان الأعرابي بسرقةسطة وثار معه حسين ابن يحيى الأنباري من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير ثعلبة بن عبد [عبيد] في جيش ، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أيامًا ، ثم إن الأعرابي طلب الفرصة من العسكر ، فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً لم يشعر الناس حين هجم على ثعلبة فأخذنه في المظلة ، فصار عنده أسيراً وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابي إلى قارلُه . فلما صار عنده طمسم قارلُه في مدينة سرقسطة من أجل ذلك ، فخرج حتى حل بها فقاتلته أهلها ودفعوه أشد الدفع ، فرجع إلى بلده ، وخرج الأمير غازياً إلى سرقسطة ... ومضى في غزاته حتى حل بقرية شنتبرية »^(١) .

وغير معروف - تماماً - عدد وأسماء الأشخاص الذين وافقوا الأعرابي على هذه الوجهة ، ومن منهم قاد أو شارك في الوفد الذاهب لدعوة شارلمان لهاجمة الأندلس وهل كان الأعرابي معهم؟ كان الأنباري شريكَ الأعرابي في موقفه ، إلا أنه لم يكن في وفد شارلمان . فالآحداث تؤكد أن الأنباري لم يفارق مدينة سرقسطة ، حتى الرواية الفرنجية لم تذكر شيئاً عن مصاحبه لأحد في وفد إلى بلاد الفرنجية لدعوة ملكها . فهل كان الأنباري متفقاً مع الأعرابي أو غيره على دعوة ملك

(١) أخبار مجموعة ، ١١٢ - ١١٣ .

الفرِنْج ؟ يذكر آخرون أن دعوة شارلمان لمحاجمة الأندلس لم تأتِ من هؤلاء العصاة^(١) .
النقى الذاهبون إلى بلاد الفِرْنْجَة بشارلمان ملكها ، كما تقوله الرواية الأوربية^(٢) .

وكان يقيم في مدينة بادربورن (Paderborn) في مقاطعة وستفاليا (Westphalia) في إمارة سكسونيا (Saxony) ، شمالي ألمانيا حالياً .

وكان شارلمان قد انتهى – لِتَوَهَّ – من إخضاع السكسونيّين . فسَلَّمَهُ العصاةُ ثَعْلَبَة رهينة ، دليلاً على وجهتهم وجديّتها . وقبيل شارلمان العرض ورحب بالفرصة وجهز جيشاً كبيراً منتخبًا من كافة مقاطعات الدولة الكارولنجية ، ثم قاد هذا الجيش بنفسه إلى الأندلس .

سار شارلمان نحو الجزيرة الأندلسية مختَرِقاً جبال البرُّت بعد أن قسم جيشه إلى قسمين : قسم اجتاز البرُّت من الجانب الشرقي : خلال مر « باربینيان » (Perpignan) ، والقسم الآخر منه بقيادته من مر باب الشِّيزِرُو (الشِّيزِرِي) وهو مر رُنْشِفَالَّة (Roncesvalles) . ليلتقي الجيშان عند سرَّقُسطَة ، حَسَبَ المُحْكَمَة المتفق عليها . وعند وصول شارلمان ، مع العصاة إلى سرَّقُسطَة وجلدوا وإليها الحسين بن يحيى الأنباري قد حصن نفسه فيها – ربما قبل وصولهم بمدة – وامتنع من تسليم المدينة إلى شارلمان ، مخالفًا ما تافق عليه – إن صع ذلك – مع زملائه العصاة . ويشير هذا إلى أن الأنباري لم يكن في جملة الوفد الذي ذهب مقابلة شارلمان واستدعائه ، وحاول الأعرابي – عبثاً – إقناع الأنباري الذي أصر على موقفه . ولا بد أن أسباباً دعته إلى اتخاذ مثل هذا الموقف ، إذا كان قد اتفق – أصلًا – مع الأعرابي أو غيره في ذلك .

قاومت مدينة سرَّقُسطَة الحصار الشديد الذي ضربه حولها شارلمان ، وعندما طال الحصار – دون جدوى – ووصلت أنباء ثورة السكسونيّين إلى شارلمان ، اضطر إلى العودة أدراجها خائباً ، وشك – أمام ذلك – في نوايا الأعرابي ، فأخذنه أسيراً لديه وعاد به إلى بلاده ، ومرَّ – خلال عودته – بمدينة بنبلُونَة (Pamplona) عاصمة

(١) راجع : دولة الاسلام في الأندلس ، ١٦٩/١ .

(٢) . (تاريخ غزوات العرب ، ١٥٧) La Chanson de Roland , 179 ; Muslim colonies , 88

نبَارَةً (نافار) ودَكَّ حصونَها للمرة الثانية ، حيث كان خربها خلال مجئه إلى الأندلس في هذه الحملة .

وحين علم ولدا الأعرابي عَيْشُونَ ومَطْرُوح بمصير أبيهما لـحِقا بشارلمان لإنقاذه . وفي الوقت نفسه تهيا البَشْكُنْس للأخذ بثأرهم . واتفقت مصالح الطرفين : البَشْكُنْس في الشمال والمل絮ون من أبناء الأعرابي ومن الآخرين الذين كانوا يسكنون في مناطق قريبة من البَشْكُنْس . وهاجموا متعاونين جيش شارلمان . وتآزر الطرفان ، ونُظِّمَت خُطَّة القصاص على مؤخرة الجيش ، وهو يعبر البرُّت عائداً إلى بلاده عند مر باب الشِّيزِرِي (الشِّيزِرِو) . وأبادت القوة المتعاونة مؤخرة جيش شارلمان ، حيث كان فيها كبار ضباطه مع الغائم والأسرى ، وذلك سنة ١٦١ هـ (٧٧٨ م) .

كان من قُتل القائد رولان (Roland) ، وفيه كانت الأنشودة المعروفة (أنشودة رولان Chanson de Roland) . واستطاع أولاد الأعرابي إنقاذ أبيهم . فهل حقاً كان هذا بتدمير من السلطات الأندلسية ؟

تدَكَّر الروايات التاريخية أن الداخل جَهَزَ جيشاً لرد شارلمان ، الذي كان قد ترك الأندلس قبل أن يلحق به هذا الجيش . ثم أن هؤلاء العصاة قتَلَ بعضُهم بعضاً وانتهى أمرهم^(١) . وفشلَت هذه المؤامرة الآثمة ومحاولة شارلمان العتيدة .

يُحمل ذلك ابن الأثير فيقول في حوادث سنة ١٥٧ هـ : إنه «أخرج سليمان بن يقطان الكابي قَارُلُه ملك الإفرنج إلى بلاد المسلمين من الأندلس ، ولقيه بالطريق وسار معه إلى سرْقُسطَة ، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنباري من ولد سعد بن عبادة وامتنع بها ، فاتَّهم قَارُلُه ملك الإفرنج سليمانَ فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده ، فلما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم عليه مَطْرُوح وعَيْشُون ابا سليمان في أصحابهما ، فاستنقذوا أباهما ورجعا به إلى سرْقُسطَة ، ودخلوا مع الحسين ووافقوا على خلاف عبد الرحمن»^(٢) .

(١) انظر : أخبار مجموعة ، ١١٤ - ١١٥ ؛ نصوص عن الأندلس ، ٢٦ ؛ نفح الطيب ٤١/٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ١٤/٦ .

ذُكر عبد الرحمن بن حبيب الفهري (الصقلي) و محمد بن يوسف الفهري (ابن آخر ولاة الأندلس) ، حين الحديث عن هذه المسألة^(١) . فهل كانت لهما أية علاقة بها ؟ لا يبدو أن لهما علاقة بهذا الأمر . يذكر ابن عذاري أنه « في سنة إحدى وستين ومئة ، وقيل سنة الثنتين وستين ومئة ، دخل إلى الأندلس عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي ، فنزل كُورَة تُدْمِير ، فاستقر بها ، ولم تبدُ منه في تلك السنة عادية . وإنما لُقِّبَ بالصقلي لأنَّه كان طويلاً ، أشقر أزرق ، أمر . »^(٢) وأن الصقلي خالف سنة ١٦٣ هـ^(٣) . يذكر ابن خلدون ذلك ويزيد عليه : بأن الصقلي عبر إلى الأندلس داعياً للعباسين وكتب إلى سليمان يدعوه لتأييده ، فما أجابه وتحاربا ، فهُزم الصقلي الذي اغتيل سنة ١٦٢ هـ^(٤) . أما أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري (١٧٠ هـ) فلم يكن له دور في هذه الأحداث لأنَّه كان سجينًا خالها وقبلها^(٥) .

كان من نتيجة هذه الحادثة أن تغيرت سياسة دولة الفرَّنج نحو الأندلس ، وبذا شارمان وكانت يؤثر السياسة السلمية تجاهها . يروي المقرري في *فتح الطيب* أنه قامت معاهمدة سلم بين شارمان والداخل ودعوه للمصاهرة ، « وَخَاطَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنْ قَارُولُهُ مَلِكَ الْإِفْرَنجِ - وَكَانَ مِنْ طَعَاتِ الْإِفْرَنجِ - بَعْدَ أَنْ تَمَرَّسَ بِهِ مَدَةً ، فَأَصَابَهُ صُلْبَ الْمَكْسِرِ ، تَامَ الرِّجْوَلِيَّةَ ، فَمَالَ مَعَهُ إِلَى الْمَدَارَةِ ، وَدَعَا إِلَى الْمُصَاهِرَةِ وَالسُّلْطُنِ ، فَأَجَابَهُ لِلْسُّلْطُنِ وَلَمْ تَمِّمِ الْمُصَاهِرَةِ . »^(٦) فمن الذي دعا الآخر إلى المصاهرة والسلم ؟^(٧)

(١) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ١٩٠ ؛ Andalusian diplomatic relations, 142

(٢) البيان المغرب ، ٥٥/٢ . كذلك : نصوص عن الأندلس ، ١١ ؛ الكامل في التاريخ ، ٥٤/٦ .

(٣) البيان المغرب ، ٥٦/٢ .

(٤) العبر ، ٤/٢٦٨ .

(٥) الحلقة السيراء ، ٣٥١-٣٥٢ ؛ Andalusian, 142

(٦) فتح الطيب ، ١/٣٢٠-٣٢١ .

(٧) انظر مناقشة ذلك في : Andalusian, 129 ff

ب - هجوم النورمان على الأندلس

هاجم النورمان - لأول مرة - سواحل الأندلس الغربية فجأة في ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، أيام عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ، وتُسمى مصادرنا الأندلسية هؤلاء النورمان : «المجوس» ، ولا تقصد بهم : عبدة النار في إيران . بل أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمين - لا سيما الأندلسيون - هذا الاصطلاح «المجوس»^(١) على هؤلاء النورمان سكان الدول الإسكندرافية . وتسميهم أحياناً أخرى : «الأُرْدُمَانِيُّون» . وتسعمل الرواية الأندلسية كلا الأسمين «المجوس الأُرْدُمَانِيُّون»^(٢) . ويُعرف هؤلاء النورمان (المجوس أو المجوس الأُرْدُمَانِيُّون) باللغة الانكليزية Vikings أو Norsemen وبالإسبانية Normandos أو Wikingos . وهم الذين تسميهم المصادر الحديثة : النورمان أو النورمانيون .

اشتهر هؤلاء النورمان (المجوس الأُرْدُمَانِيُّون) بنشاطهم البحري التجاري أو الحربي . واتخذت اعتماداتهم شكلاً خطيراً على سواحل الدول الأوروبية في القرن الرابع الميلادي (العاشر الميلادي)^(٣) .

ويرجع هذا الشعب إلى أصل جرماني ، وينقسم إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون . وكان للظروف الجغرافية وغيرها أثر في الوجهة التي قصدتها كل مجموعة من هذه الثلاثة في نشاطها التجاري أو الحربي . ويعيننا منهم الدنماركيون : سكان دنمارك (الدنمارك) . اتجه هجوم هؤلاء إلى هولندا أو بعض سواحل إنجلترا وسواحل الإمبراطورية الفرنسية^(٤) .

(١) المقتبس في أخبار بلد الأندلس (بيروت) ، ابن حيان ، ٢٧ ، ٥٨٢٢٨ ، ٥٨٢٢٨ ، ١١٢ ، ١٤٥ ؛ الحلقة السيراء ، ٣٧٢/٢ ، ٩٨ ، ٧٢ ، ٣١ ، ١٠٠ - ١١٨ ، ١١٩ - ١٢٠ ؛ المغارب في حل المغرب ، ٤٩/١ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ٢٨ ، ٢٠ ، ١٥٠ ، ١٨٣ ، ٧٥ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٦٧ ، ١٦٧/١ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٨٣ ، ٣٥٠ ، ٢٥٧/٢ .

(٢) المقتبس (بيروت) ، ٢٢ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ٧٨ ، ٦٧ ، ٢٢ ، ٤٩/١ ، المغارب ، ٢٤١/٢ ، ٤٩/١ .

(٣) راجع : أوربا المصوّر الوسطى ، ٢١٠/١ .

(٤) أوربا المصوّر الوسطى ، ٢١٣/١ .

هاجم الدنماركيون كذلك سواحل شبه الجزيرة الأندلسية ، وإفريقية أحياناً .
ومهاجمة الدنماركيين لشبه الجزيرة الأندلسية هو الذي يعنينا في البحث الحالي .
المحوم الأول – الذي تعيّن تاريخه – لم يكن الوحيد الذي قاموا به . لكنه
أقوى وأشهر اعتداءاتهم على الأندلس ، وفاجئوه به .

تكرر اعتداء المجروس الأردمانيين (النورمان) الدنماركيين **المُخَرَّب** على
الأندلس ، فقد كانوا مهّرة في ركوب البحر والتحرك فيه ، بل وفي صناعة أنواع
من السفن تعينهم في ذلك . وجاء وصفهم وبيان عوائدهم في المحوم لدى كتاب
الجغرافية – المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهراني – حوالي النصف
الثاني من القرن السادس الهجري أنه كانت تخرج من البحر (المتوسط وكذلك)
الأطلسي) « مراكب عظام كان أهل الأندلس يُسمّونها القرّاقير وهي مراكب كبار
بقولو مربعة ، تجري إلى أمامها وإلى خلفها . وكان يخرج فيها أقوام يُعرفون بالمجوس
كانت لهم شدةٌ وبأسٌ وقوة وجَلَدٌ على ركوب البحر ، وكانوا متى ما خرجوا
خللت منهم سواحل البحر خافة منهم . وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعوام
أو سبعة . وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركباً ، وربما بلغوا المئة مركب ،
ويغلبون كُلَّ من لَقُوهُ في البحر ويَسْبُونَهُمْ ويَأْسُرُونَهُمْ . »^(۱)

المحوم الأول

تذكرة مصادرنا التاريخية ، فيما يتعلق بهجوم المجروس (النورمان) الأول على
الأندلس : أنه في أوائل شهر ذي الحجة ۲۲۹ هـ (آب = أغسطس ۸۴۴ م) ظهر
المجروس الأردمانيون (النورمان) فجأة ، أمام مدينة لِشْبُونَة (أشبونة ،
الأشبونة) في أربع وخمسين مركباً ومثلها أو أكثر قوارب . وانحدروا بعدها إلى
إشبُيلِيَّة ، بعد أن مروا بمهاجمين مدينة لَبْلَة (Niebla) ثم قَادِيس (Cadiz)
ثم شَدَّوْنَة (Sidona) . وغادروا إشبُيلِيَّة ليهاجموا قُرطُبَة برأً على الخيل^(۲) .

(۱) كتاب الجغرافية ، ۲۱۵ (رقم: ۲۴۰) . قرافقير : جمع **قرفة** وور : « السفينة الطويلة العظيمة » .

(۲) تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطة ، ۸۶ . المعجم الوسيط .

ثم عادوا إلى إشبيلية - بعد أحداث ومعارك - فمدينة لبلة وأكسنوبنة (Oesonoba) فجاجة ، ثم لشبونة ليغادروها إلى عرض البحر ويتغيروا فيه منقطعين. وارتکبوا خلال ذلك فظائع وفضائح من القتل والنهب والتخييب .

ويذكر العذري أنه : « في سنة تسع وعشرين ومتين ، ورد كتاب وهب الله ابن حزم عامل الأشبونة ، بذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون قارباً . فخرجت الكتب إلى العمال بالاحتراض ، وفيها نزع إلى الإمام عبد الرحمن غلندار بن ونقة وحضر قتال المجوس . »^(١)

يذكر ابن سعيد الأندلسي خبرهم وظهورهم على شواطئ إشبيلية - مختصرأ - فيقول : « وفي سنة تسع وعشرين ظهرت مراكب الأردمانيين [الأردمانيين] المجوس بسواحل غرب الأندلس . ويوم الأربعاء لأربع عشرة خلت من شهر سنت ثلاثين ومتين حلّت على إشبيلية - وهي عورة - فدخلوها واستباحوها سبعة أيام إلى أن جاء نصر الخصي ، وهزم عنها النصارى المعروفين بالمجوس ، وعاث في مراكبهم : »^(٢) وأورد تفاصيل هذا الهجوم وما تلاه ، عدد آخر من مراجعنا - بعضها مفقود - منها :

* **المقتبس من آباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي** (٤٦٩ هـ) . ما يتعلّق بهذا الهجوم - من الجزء الثاني - كان موجوداً وفقد .

* قطعة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذري (٤٧٨ هـ) المعروفة أيضاً بابن الدلائي . هي الجزء السابع من مؤلفه الجغرافي المسمى : تصريح الأخبار وتتبع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع المالك . نشرت بعنوان : نصوص عن الأندلس .

(١) نصوص عن الأندلس ، ٩٨ . كذلك : البيان المغرب ، ٨٧/٢ .

(٢) المغرب في حل المغرب ، ٤٩/١ .

* بيان ابن عذاري (٧٠٦ هـ) الموسوم : البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمُغْرِب ، الجزء الثاني منه .

* مؤلفات أندلسية أخرى سبقت وتلتها مقتبسات منها أو الإشارة إليها ، وأورادتها باختصار .

ونص البيان المُغْرِب المنشول أدناه أخصر من نصيّ سابقته وأولهما نص المقتبس مفقود . يقول ابن عذاري : « فخرج المجوس في نحو ثمانين مرکباً ، كأنما ملأت البحر طيراً جُوناً ، كما ملأت القلوب شجواً وشجونة . فحلوا بأشبونة ثم أقبلوا إلى قادس ، إلى شَدُونَة ، ثم قدِموا على إشبيلية ، فاحتلوا بها احتلالاً ونالوها نِزَالاً ، إلى أن دخلوها قسراً ، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً . فبقوا سبعة أيام ، يَسْقُون أهلها كأس الحِمام . واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب ، واتصل المسلمون به اتصال العين بالحاجب وتوجه بالخيل عبد الله ابن كُلَيْب وابن رُسْتُم وغيرهما من القواد ، واحتل بالشرف . وكتب إلى عمَّال الكُور في استنفار الناس ، فحلوا بقرطبة ، ونفر بهم نَصْر الفَتَّى . وتوفَت للمجوس مراكب على مراكب ، وجعلوا يقتلون الرجال ، ويَسْبُون النساء ، ويأخذون الصبيان ، وذلك يطُول ثلاثة عشر يوماً . . . وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم . ثم نهضوا إلى قَبْطِيل ، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ودخلوا قَوْرَة ، على اثني عشر ميلاً من إشبيلية ، فقتلوا من المسلمين عدداً كثيراً ، ثم دخلوا إلى طليطلة ، على ميلين من إشبيلية ، فنزلوها ليلاً ، وظهروا بالغداة بموضع يعرف بالفَخَارِين ، ثم مَضَوا بِمَرَاكبِهم ، واعتبروكوا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون ، وقتل منهم ما لا يُحصى . ثم عادوا إلى مراكبِهم . ثم نهضوا إلى شَدُونَة ، ومنها إلى قادس ، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده ، فدافعهم ودفعوه ، ونصبت المجانق عليهم ، وتوفَت الأمداد من قُرطبة إليهم . فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمس مائة عِلْج ، وأصيب لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رُسْتُم بإحراقها وبيع مافيها من الفَتَّى . ثم كانت الواقعة عليهم

بقرية طَلِيَّاطَة يوم الثلاثاء الخامس بَقِينَ من صَفَرِ مِن السَّنَة ، قُتِلَ فِيهَا مِنْهُمْ خَلْكٌ كَثِيرٌ ، وَأُحْرَقَ مِنْ مَرَاكِبِهِمْ ثَلَاثُونَ مَرَاكِبًا . وَعُلِقَّ مِنْ الْمَجْوَسِ بِإِشْبِيلِيَّةِ عَدْدٌ كَثِيرٌ ، وَرُفِعَ مِنْهُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا . وَرَكِبَ سَائِرُهُمْ مَرَاكِبِهِمْ وَسَارُوا إِلَى لَبَلَّة ، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مِنْهَا إِلَى الْأَشْبِيَّونَة ، فَانْقَطَعَ خَبْرُهُمْ .^(١)

قَبْطِيل (قَبْطِيل أو قَبْطَال)^(٢) (Capitel) : جَزِيرَةٌ قَرْبَ مَصْبَحِ الْوَادِي الْكَبِيرِ . وَهِي « إِحْدَى جَزَرِ إِشْبِيلِيَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا »^(٣) . تُسَمَّى الْيَوْمَ بِالْإِسْبَانِيَّةِ La Isla Menor (الْجَزِيرَةُ الصَّغِيرَى) . بِقَرْبِهَا وَأَكْبَرِ مِنْهَا جَزِيرَةٌ أُخْرَى هِيَ : « قَبْطُورٌ » أَوْ « قَبْتُورٌ »^(٤) (Captor) . « وَقَبْطُورٌ وَقَبْطَالٌ قَرِيتَانِ فِي وَسْطِ النَّهْرِ »^(٥) ، يَعْنِي : الْوَادِي الْكَبِيرُ قَرْبَ إِشْبِيلِيَّةِ . وَتُسَمَّى هَذِهِ بِالْإِسْبَانِيَّةِ La Isla Mayor (الْجَزِيرَةُ الْكَبِيرَى) .

طَلِيَّاطَة (Tejada) تَعْلَمُ عَلَى ٣٠ كِمْ شَمَالَ غَربِ إِشْبِيلِيَّة^(٦) . وَلَعِلَّ الْمَصْوَدُ هَنَا طَبَلَاطَة (Tablada) ضَاحِيَّةٌ لِإِشْبِيلِيَّةٍ عَلَى بَعْدِ نَحْوِ ٢٠ كِمْ شَمَالًا ، وَهُوَ مَوْضِعُ مَطَارِهَا حَالِيًّا .

نَجَدَ مُحَمَّلاً مُفِيدًا حَسَنًا هَذِهِ الْأَحْدَاثُ وَبَعْضُ نَتَائِجُهَا لِدِي الْمَقْرِيِّ ، حِينَ الْحَدِيثُ عَنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ :

(١) الْبَيَانُ الْمَغْرِبُ ، ٨٧/٢ - ٨٨ . كَذَلِكَ : نَصْوَصُ عَنِ الْأَنْدَلُسِ ، ٩٨ - ١٠٠ .

(٢) صَفَةُ الْأَنْدَلُسِ (مِنْ نَزَهَةِ الْمُشَاقِ) ، ١٧٧ (= الْحَلْلُ السَّنَدِيَّةُ ، ٨٣/١) ؛ الْمَغْرِبُ ، ٢٩٢/١ . كَذَلِكَ : فَتحُ ، ١٨٢/١ .

(٣) بِرَنَامِجِ شِيُوخِ الرَّعَيْيَ ، أَبُو الْحَسْنِ الرَّعَيْيِ الإِشْبِيلِيِّ ، ٨٧ . اَنْظُرْ : فَتحُ الطَّيِّبِ ، ٣٠٤/٣ . Andalusian diplomatic relations , 168 .

(٤) اَنْظُرْ : الْصَّلَةُ ، ٢١٦/١ (رَقْمُ : ٤٨٦) .

(٥) صَفَةُ الْأَنْدَلُسِ (مِنْ نَزَهَةِ الْمُشَاقِ) ، ١٧٧ .

(٦) اَنْظُرْ : الرَّوْضُ الْمَعْتَارُ ، ١٢٨ ؛ الْصَّلَةُ ، ٥٤/١ (رَقْمُ : ١١٦) ، ٣٥٩/٢ (رَقْمُ : ٧٧١) ؛ التَّكْمِيلَةُ ، ١١٦/١ (رَقْمُ : ٢٩٣) ؛ الْحَلَةُ السَّيِّرَاءُ ، ١٨٣/٢ .

« وفي أيامه ظهر المجرم ، ودخلوا إشبيلية ، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن العساكر من القواد من قُرُطْبَة ، فنزل المجرم من مراكبهم ، وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مُقام صعب ، ثم جاءت العساكر مَدَدَّاً من قُرُطْبَة فقاتلهم المجرم ، فهزمهم المسلمين وغنمُوا بعض مراكبهم وأحرقوها ورحل المجرم إلى شَدُونَة فأقاموا عليها يومين ، وغنمُوا بعض الشيء ، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبيلية فأقلع المجرم إلى لِبْلَة ، وأغاروا وسَبَوا ، ثم إلى بَاجَة ثم أشْبُونَة ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشْبُونَة ، وسكنَت البَلَادُ وذلك سنة ثلاثين ، وتقدَّم عبدُ الرحمن بإصلاح ما خربوه من البلاد ، وأكْثَفَ حاميتها . »^(١)
 م ذلك فجأة ، وأخذوا شواطئ الأندلس ومدنَّه الساحلية على غِرَّة وليس هناك استعداد ، إذ لم يُعرف مثل هذا الخطر ، وما عَرَفُوا لأحد منه اعتداء . واستطاع الأندلسيون جمع شَتَّاهُم ولَمْ شَمَلْهُم وزرلو للمعركة ، وانتهى الأمر برد هؤلاء المجرم المعتدين وطردهم ، بعد أن قُتل منهم مِئُونَ كثيرة ، بينهم قائدُهم^(٢) . ودُمِّرَ من مراكبهم أربعة وثلاثون مركباً . كما قُتل من الأندلسيين الكثير . لكنهم رُدوا بشدة ، وعُرِفَ بهذا الحدث عدد من القادة الأندلسيين^(٣) .

استغرقت هذه العمليات – منذ ظهور المجرم ، أمام لِشْبُونَة في ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ حتى اختفاءِها وانقطاع خبرهم منها – نحو مائة يوم^(٤) .

ذكر^(٥) – من غير مصدر – أنه بقيت منهم جماعة في الأندلس سُكنت في ضواحي إشبيلية ، وأسلمت واحترفت تربية الماشي وصناعة الجبن ، فكانوا يُستَجِونَ أحسن أنواعها . ولم يتوفَّر مصدر أندلسي ذكر هذا الأمر – ، لكن المقرئ

(١) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ - ٣٤٦ . كذلك : العبر ، ابن خلدون ، ٢٨١/٤ - ٢٨٢ ؛ الكامل ، ١٦/٧ - ١٧ . راجع : أعمال الأعلام ، ٢٠/٢ .

(٢) المطربي من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٣٨ (= أدناه ، ٢٣٣) .

(٣) انظر : الحلة السيراء ، ٣٧٢/٢ .

Andalusian diplomatic relations , 168 - 71 .

(٤) راجع : *Histoire de l'Espagne Musulmane* , I , 244 (Sp. tr. , IV , 149 - 150) ; *La Civilisation Arabe en Espagne* , 133 .

يحدثنا — نقلا عن الحجاري ، ولعله من مُسْتَهِبِيه المفقود — عن مدينة شريش (Jerez de la Frontera) بأنها « بَنْتَ إِشْبِيلِيَّة ، وواديهاب ابن واديها ، ... وما اختصت به إحسان الصنعة في المُجَبَّنَات ، وطيب جُبُنَها ، يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المُجَبَّنَات فهو محروم »^(١).

نتائج الهجوم الأول : كان لهذا الهجوم عدة نتائج ، منها :

١ - إرسال ملك دنمارك (الدانمارك) هوريك Horic : ٢٤٠ م = ٨٥٤ م إلى الأندلس وفداً يطلب عقد معاهدة لإحلال السلم مكان العداء ، فوافقت السلطة الأندلسية وأرسل عبد الرحمن الأوسط سفارة جوابية إلى دنمارك مقر المهاجمين ، وكانت هذه السفارة الأندلسية برئاسة الشاعر الحكيم الأندلسي المعروف بـ « الغزال » . وهو يحيى بن حَكَمَ الْبَكْرِيِّ الْحَيَّانِي^(٢) .

سفر الغزال مع وفد المjosوس النورمان العائد مُسْبِحَراً من مدينة شِلْب^(٣) (Silves) في غرب الأندلس على المحيط الأطلسي ، تجاه الشمال « ولما وَفَدَ على السلطان عبد الرحمن رُسُلَ مَلَكِ المjosوس يطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتهن ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك . فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رُسُلِ ملوكهم ؛ لِمَا كان الغزالُ عليه من حِدَّةُ الخاطر وبَدَيْهَ الرأي وحسنِ الجواب والنجدَة والإقدام والدخول والخروج من كل باب ، وصُحبَتْهُ يحيى بن حبيب . فنهض إلى مدينة شِلْب وقد أنهى لهما مركب حسن كامل الآلة ، ورُوَجَ ملك المjosوس على رسالته وكوفىء على هديته ، ومشى رسول ملوكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال .

(١) نفح الطيب ، ١٨٤/١ . والمبينات — كا يشرحها المقربي في نفس الصفحة — « نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينة ، وتقليل بالزيت الطيب ».

(٢) عنه راجع : نفح الطيب ، ٢٥٤/٢ وبعدها . المطروب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، Andalusian diplomatic relations ، 166 - 8 . وبعدها ؟

(٣) انظر : الروض المطار ، ١٠٦ ؛ الحلقة السيراء ، ٦٢/١ ، ١٣١/٢ .

فلما حَادَوا الطَّرَفَ الأَعْظَمَ الدَّاخِلُ فِي الْبَحْرِ – الَّذِي هُوَ حَدٌّ الْأَنْدَلُسِ فِي آخِرِ الْغَرْبِ ، وَهُوَ الْجَبَلُ الْمَعْرُوفُ بِالْأُولَى – هَاجَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ ، وَعَصَفَتْ بِهِمْ رِيحُ شَدِيدَةٍ^(١).

اسْتَمْرَ سَيرُ الْوَفْدِ الْمَرَاقِقِ حَتَّى يَلْغُ الدِّنَارَكَ ، كَمَا وَصَفَ ابْنُ دِحْبَيْهِ فِي مُطْرِبِهِ ، حِيثُ لَاقُوا الْأَهْوَالَ وَتَعَرَّضُوا لِلْأَحْطَارِ ، وَانْفَقُوا الغَزَالَ وَأَعْصَاءَ الْوَفْدِ الْأَنْدَلُسِيِّ هُنَاكَ مَا قَدْ يَزِيدُ عَلَى السَّنَةِ ، كَانَتْ فِيهَا « لِلْغَزَالِ مَعَهُمْ مَجَالِسٌ مَذْكُورَةٌ ، وَمَقَائِمٌ مَشْهُورَةٌ » ، فِي بَعْضِهَا جَادَلُ عَلَمَاءُهُمْ فَبَكَّتْهُمْ ، وَفِي بَعْضِهَا نَاضَلُ شُجَانَهُمْ أَفَاثَتْهُمْ . «^(٢) وَعَادَ الْوَفْدُ الْأَنْدَلُسِيُّ إِلَى قُرْطُبَةَ عَنْ طَرِيقِ جِلِّيَّيَّةٍ ، حِيثُ أَقَامَ فِيهَا « ثُمَّ انْفَصَلَ الغَزَالُ عَنْهُمْ ، وَصَاحِبُهُ الرَّسُلُ إِلَى شَنْتَتْ يَعْقُوبُ بِكَتَابِ مَلِكِ الْمَجَوسِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَأَقَامَ عَنْهُ مُكَرَّمًا شَهْرَيْنِ ، حَتَّى انْفَضَّ حَجَّهُمْ فَصَدَرَ إِلَى قَشْتَالَةَ مَعَ الصَّادِرِينَ ، وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى طُلَيْطُلَةَ حَتَّى لَقِيَ بِهِ بُحْرَةَ السُّلْطَانِ عبدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ انْفَضَاءِ عَشْرِ شَهْرٍ^(٣) ».

٢ - بِنَاءُ سُورٍ إِشْبِيلِيَّةً أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ . يَذَكُرُ ابْنُ حَيَّانَ (٤٦٩ هـ) نَقْلاً عَنْ كِتَابِ مَفْقُودٍ لِمُعاوِيَةَ بْنِ هِشَامِ الشَّبَّيْنِيِّ^(٤) : « كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنَ حَبِيبٍ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكْمَ إِثْرَ مَحْنَةِ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةٍ وَتَحْصِينِهَا ، وَوَافَقَ ذَلِكَ أَيَّامَ شَرُوعِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي بُنْيَانِ زِيَادَتِهِ بِالْجَامِعِ بِقِرْطُبَةِ الْمَشْهُورِ بِهَا ، وَذَكَرَ لَهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّ بُنْيَانَ سُورِ مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ وَتَحْصِينِهَا أُوكِدَ عَلَيْهِ مِنْ بُنْيَانِ الزِّيَادَةِ فِي الْمَسَجِدِ الْجَامِعِ ، فَعَمِلَ بِرَأْيِهِ فِي بُنْيَانِ سُورِ إِشْبِيلِيَّةٍ . وَلَمْ يُشْنُرْ ذَلِكَ عَزْمَهُ عَنِ بُنْيَانِ الزِّيَادَةِ ، فَأَعْطَى كُلَّاً مِنْهُمَا بِقَسْطَةٍ مِنْ إِرْهَاقِ الْعَزِيمَةِ وَالسَّخُونِ بِالنَّفَقَةِ إِلَى أَنْ

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ١٣٨ - ١٣٩ (= مخطوط المتحف البريطاني رقم : OR. 77 ورقات ١٠٤ ب - ١١١ ب) .

(٢) المطرب ، ١٤٢ .

(٣) المطرب ، ١٤٦ .

(٤) انظر : التكملة ، ٦٩٢/٢ (رقم : ١٧٤١) ؛ المقتبس ، ٤٤٣ ، ٢٣/٢ ؛ الحلقة السيراء ، ٤٠/١ .

كَمَلًا مَعًا كَا أَرَادَه .^(١) ويدَكُرُ البَكْرِيُّ أَنَّهُ « كَانَ سُورٌ إِشْبِيلِيَّةً مِنْ بَنَاءِ الْإِمَامِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكْمِ ، بَنَاهُ – بَعْدَ غَلَبةِ الْمُجُوسِ عَلَيْهَا – بِالْحَجَرِ أَحْكَمَ بَنَاءً وَكَذَلِكَ جَامِعُهَا لِيَوْمِ مِنْ بَنَائِهِ ، وَهُوَ مِنْ عَجِيبِ الْمَبَانِي وَجَلِيلِهَا ، وَصَوْمَعْتُهُ بِدِبْعَةٍ الصُّنْعَةِ غَرِيبَةِ الْعَمَلِ ».^(٢)

٣ - نُو الْبَحْرِيَّةُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ بِسُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ بِحِيثُ أَنَّ الْمُجُوسَ لَمْ يَخْتَفِوا شَيْئًا وَخَسَرُوا كَثِيرًا فِي بِدَائِيَّةِ هَجُومِهِمُ الثَّانِي سَنَةَ ٢٤٥ هـ ، بَعْدَ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا مِنَ الْأَوَّلِ . وَقَدْ رُدُّوا عَنْ سُواحِلِ الْأَنْدَلُسِ وَتَكَبَّدُوا الْكَثِيرَ . كَمَا زَادَتْ دُورُ صَنَاعَةِ السُّفُنِ كُثْرَةً وَقُوَّةً وَمَهَارَةً . غَدَّا الأَسْطُولُ الْأَنْدَلُسِيُّ مُسْتَعْدًا دَوْمًا ، وَحَارِسًا لِيُسْ فَقَطَ لِسُواحِلِ الْأَنْدَلُسِ ، بَلْ يَجُولُ مِيَاهَ الْأَطْلَسِيِّ حَتَّى خَلِيجَ بَسْقَيَاةِ (بِسْكَايِ)^(٣) . بَلْ مِنْ شَوَاطِئِ الْفِرَنْجَةِ عَلَى الْمَتوَسِطِ فِي الشَّرْقِ إِلَى شَوَاطِئِهِمْ أَوْ أَعْلَى شَوَاطِئِ جِلَيْقِيَّةِ عَلَى الْأَطْلَسِيِّ فِي الْغَربِ^(٤) . أَيِّ : غَطَّتْ حِرَاسَتَهَا جَمِيعَ السُّواحِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الْأَطْلَسِيَّةِ وَالْمَوْسَطِيَّةِ ، وَزَادَتْ عَلَيْهَا فِي كُلِّيهِمَا .

لَمْ تَتَوَقَّفْ غَزَوَاتُ النُّورِمَانِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ هَذَا الْمَجْوُمُ ، بَلْ كَانَتْ لَهُمْ هَجْمَاتٌ أُخْرَى تَلَتْهُ ، بَعْضُهَا فِي عَهْدِ الْإِمَارَةِ وَغَيْرُهَا أَيَّامَ الْخَلَافَةِ . وَهَذِهِ نَبَذُ عَنْهَا فِي بَقِيَّةِ أَيَّامِ الْإِمَارَةِ .

الْهَجْوُمُ الثَّانِي

انتهَى هَجْوُمُ النُّورِمَانِ الدَّنْمَارِكِيِّينَ الْأَوَّلِ بِقِيَامِ مَعَاهَدَةِ فِي أَيَّامِ مُلَكِهِمْ هُورِيكِ

(١) المقتبس (بيروت) ، ٢٤٤ . كذلك : المغرب ، ٤٩/١ ، ٩٦/٢ ، ٩٦ . عن عبد الملك حبيب (٢٣٨) .

الفقيه العالم المؤلف انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ٢٦٩/١ (رقم : ٨١٦) .

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١١٢ . كذلك : الروض المطار ، ٢٠ .

(٣) انظر : المقتبس ، ٣٠٨/٢ ؛ البيان المغرب ، ٩٦/٢ ؛ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٤٦ ؛ أدناه ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ؛ Andalusian diplomatic relations , 164 — 5.

كذلك : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي ، (الإشارة هنا في القسم الذي كتبه الدكتور سالم) .

(٤) انظر : المقتبس ، ٣٠٨/٢ (= أدناه ، ٢٣٧ ، ٢٣٩) . كذلك : البيان المغرب ، ٩٦/٢ (= أدناه ، ٢٣٨) .

(Horic) . وبعد وفاته (٢٤٠ هـ) أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأسط (٢٣٨ - ٢٠٦ هـ = ٨٥٢ م) - عادوا إلى مهاجمة الأندلس سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) في اثنين وستين مركباً .

وأبحروا في هذا الهجوم عبر خط طويل حول الجزيرة الأندلسية . انحدروا جنوباً حتى الجزيرة الخضراء وأحرقوا مسجدها الجامع ، لعله مسجد الرايات^(١) . ثم دخلوا البحر المتوسط وهاجموا مدينة تكُور في الشمال الإفريقي على المتوسط شرق طنجة « وغزا المjosوس مدينة تكُور سنة أربع وأربعين ومئتين ، فتغلبوا عليها وانتهبوها وسبَّوا من كان فيها ، إلا من خلَّصَه الله بالفرار ، وكان ممَّن سبَّوا أمَّةُ الرحمن وخَتَّعُولَةُ ابْنَتَا واقف بن المعتصم بن صالح فَدَاهِنَ الإمام محمد بن عبد الرحمن . »^(٢) على حين يقول العُدُّري : « وفي سنة خمس وأربعين ومئتين خرجت المjosوس في ساحل الغرب في ثمانين مركباً ، فأبى الأمير محمد بإخراج العساكر وَمِنْ انصوَى إِلَيْهِمْ مِنْ الْمُطْوَعَةِ . . . وتقدمت مراكب المjosوس . . . حتى وصلت ودخلت الجزيرة ، وتغلبت على الحاضرة ، وأحرقت المسجد الجامع ، ثم جازت إلى العُدُّوة ، وحَلَّتْ بِنَاكُور ، وعادت إلى عُدُّوة الأندلس . »^(٣)

عادوا - بعدها - إلى شواطئ الأندلس الشرقية مُصَدِّدين في البحر المتوسط ، فردهم المسلمون وطردوهم^(٤) . ووصلوا حتى إفرنجية (جنوب شرق بلاد غالطة) حيث أسروا ونهبوا ، وشَّتَّوا في مدينة هناك حملت اسمهم ، ثم عادوا إلى الساحل الأندلسي - عبر مضيق جبل طارق ، تُجَاهَ الساحل الغربي - فصعدوا فيه شمالاً حتى وصلوا خليج بِسْقَايَة (بسكاي) ، وهاجموا بِنَبْلُونَة ، عاصمة نَبَارَة (نافار) ، وأسروا ملكها غَرْسِيَّة بن وَنَقْهُ (Garcia Iñiguez) ففدي نفسه منهم .

(١) أعلاه ٧٣، ١٤٦ .

(٢) وصف افريقية ، البكري ، ٩٢ . كذلك : البيان المغرب ، ١٧٦/١ .

(٣) نصوص عن الأندلس ، ١١٨ - ١١٩ .

(٤) راجع : البيان المغرب ، ٧٥/٢ - ٧٧ ؛ جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٤٠ - ١٣٨ ، ٢١٢ ، ٢٤٣/١ - ٢٤٦ ؛ تاريخ المسلمين ، ٢٢٢ - ٢٢٥ .

يُجْمِل ابن حَيَّان ذلك حين سَرَدَ أحداث سنة ٢٤٥هـ : « وفيها خرج المجروس - لعنهم الله - إلى ساحل الغرب من أرض الأندلس ، وهو خروجهم الثاني ، خرجوا في اثنين وستين مركبًا ، فَأَلْفُوا البحار مهروساً ومراكب الأمير محمد فيه جارية ما بين حائط إفرنجية في الشرق إلى أقصى حائط غليسية في الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان تلقتها المراكب النصوبية الجارية من حائط جليقية معاقبة في بعض مراسى كُورَة باجة فغنمتهما بما كان فيهما من مال ومتاع وعدة وسيبى .

« مضت مراكب المجروس في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية وما يليها ، وذهب الرعب بهم كل مذهب ، وبادر الأمير محمد بإخراج الجيش إلى الغرب واستنفار الناس إلى العدو الطارق ، فنفروا من كل أوب ، وكان القائد لجيش السلطان نحوهم عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب ، وتقدمت مراكب الكفرة عن إشبيلية ، فاحتلت بالجزيرة الخضراء ، وتغلبت على الحاضرة ، فاستباحتها وأحرقت المسجد الجامع ، ثم أقلعت عن بر الأندلس تطلب العدوة ، فاحتلت بها واستباحت أريافها ، ثم عادت إلى ريف الأندلس الشرقي وتوافت بساحل تُدْمير ، ثم انتهوا إلى حصن أوريولَة ، ثم تقدموا إلى إفرنجية فَشَتَّوا بها وأصابوا بها الذراري والأموال وتغلبوا بها على مدينة سكتونا فهي منسوبة إليهم إلى اليوم ، حتى انصرفو إلى ريف بحر الأندلس ، وقد ذهب من مراكبهم أكثر منأربعين مركبًا فلقيتهم المراكب التي كان أعدها لهم قرقاشيش بن شكوح وخشنخاش ، ومعهما نِسَم التَّفْط وأصناف العُدَّة البحرية والكثيف من الرماة بأوسع ما يحتاجون إليه من النَّشَاب ، فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شَدُونَة ، فيما أموال كثيرة وأمتعة واسعة ، صدمهم ابن شكوح وخشنخاش صاحبه رئيساً لسطول السلطان ، وقاتلهم حتى غلبهم على مركبين آخرين ، فأحرقاهم جميعاً من كان فيهما ، وحبي المجروس عند ذلك على خشنخاش ، فأحدقوا به وضاربهم في صدر مركبه دراكاً حتى استشهد رحمه الله .

« ثم مضت بقية مراكب المجروس مُصعدة حتى انتهت إلى حائط بنبلونة فاستغاروا على البشكُنس ، وأصابوا منهم ، وأسروا غرسية بن ونقهُ أميرَهم ،

فاقتدي منهم بسبعين ألفاً ارتهنوا منه في بعضها أولاده وخلّوا عنه^(١). لكن العُذرِي يزيد شيئاً في أمر هذه الفدية : « بسبعين ألف دينار دراهم ارتهن في بعضها أولاده . »^(٢) خسر النورمان في هذا الهجوم ما يزيد على أربعين من مراكبهم وكثرة من رجالهم ورُدُوا خائبين ، وكان الأندلسيون قد أخذوا درساً من الهجوم الأول ، فحضرتُوا بعض المدن الساحلية ، وأنشأوا سفناً حربية لحماية شواطئهم في الجزيرة الأندلسية ، فلم يستطع الأُرْدُمانِيون النَّيْلُ من الأندلس مثلاً فعلوا في المرة الأولى ، حسب تقرير ابن حَيَّان في أول نصه المُقتَبَس آفَّاً . وإلى ذلك يشير ابن عذَّاري بأن المjosوس حين خرجوا على ساحل الأندلس الغربي في اثنين وستين مركباً « وجدوا البحر محروساً ، ومراكب المسلمين مُعدَّةً ، تجري من حائط إفرنجية إلى حائط جليقية في الغرب الأقصى . »^(٣)

الهجوم الثالث

يدُكِر العُذرِي أنه بعد ستين من الهجوم السابق قام المjosوس النورمانيون بهاجمة الأندلس فرُدُوا على أعقابهم « وفي سنة سبع وأربعين وستين ظهرت مراكب المjosوس في البحر ، فكتب إلى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ ، فعطيت بعضها في ناحية البُحَيْرَة من الجزيرة ، وكتب بذلك العامل على الجزيرة مُطَرَّفُ بن نُصَيْر إلى الإمام محمد ، ونجا باقي المراكب إلى جهة إفرنجية . »^(٤)

ويقدمُ ابن حَيَّان - حين التعرض لأحداث سنة ٢٤٧ هـ - صورةً واضحةً عن هذا الهجوم الثالث للمjosوس على الأندلس ، الذي لم يجدوا فيه منفذًا وإليه مركباً

(١) المقتبس ، ٢/٣٠٧ - ٣٠٩ . كذلك : مجلة الأندلس (الإسبانية)

AL-ANDALUS, XIX, 308 (1954 , fasc. 2).

منافقة : الأَخْذُ عَلَى غَرَّةً ، نيم : جمع نِيَمة : تعني - لدى الأندلسيين - القنية . المقتبس ، ٢/٥٩٨ .

(٢) نصوص عن الأندلس ، ١١٩ . انظر كذلك : الكامل ، ٧/٩٠ .

(٣) البيان المغرب ، ٢/٩٦ . كذلك : المقتبس ، ٢/٣٠٨ (= أعلاه ، ٢٣٧) . عن هجوم المjosوس

الثاني راجع : *Andalusian*, 151 - 61

(٤) نصوص عن الأندلس ، ١١٩ .

ومعه مغناً ، بقوله : « فيها كان خروج المجروس إلى الأندلس ، فلم يكن لهم في هذه الكرّة من الانيساط في البحر والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولا قوامٌ مع ذلك من البحر هولاً عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبا عن حائط الأندلس واعتلو إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقو ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخليبة ، فلم يكن لهم بعد إلى الأندلس إلى اليوم عودة . وقال معاوية بن هشام :

« خرجت المجروس إلى ساحل الغرب سنة سبع وأربعين وستين في خلافة الأمير محمد في ستين مركباً طالبين فرصة ، فألفُوا البحر محروساً والراكب تجري فيه ما ين حائط إفرنجية ، في الشرق وحائط جليقية في الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان لقياً مراكب المسلمين ، فأصابوهما من فيما ، وأنجوا بهما الكفرة .

« فصار أسطولهم قدماً حتى انتهى إلى مكان مصب نهر إشبيلية في البحر الرومي ، فارتاع أهل الساحل ، وجرد الأمير الجيوش نحوهم ، واستنفر الناس إليهم ، وقدم كليب بن محمد بن ثعلبة القائد في كيفية من الرجال إلى الجزيرة ، وأنخرج أثيره الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة إلى إشبيلية ، وأنخرج عبد السلام بن عبد الله ابن ثعلبة إلى رية ، وأكشف بهم العدد ، وأجلب المجروس بجهة إشبيلية ، فزادهم عنها الحاجب عيسى بن الحسن بن معه في الأسطول »^(١) .

لم يهاجم المجروس النورمان هذه المرة ساحل الأندلس الغربي (على الأطلسي) بل انحدروا نحو الجزيرة الخضراء ورددوا هناك ، فلم يظهروا بعده . ولعلهم عادوا إلى الشمال الإفريقي ، بعيدين عن الساحل الأندلسي .

بعد هذا الهجوم لأنجد للنورمان هجوماً على الأندلس ، وتوقفوا نحو ما يزيد على قرن من الزمان ، حتى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع المجري ، حيث قاموا بأكثر من هجوم أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ھ) بن عبد الرحمن

(١) المقتبس ، ٢/٣١٢-٣١١ . وترد (صار) - عند الأندلسيين - بمعنى (سار) . قارن: أدناه ، الفصل الرابع . فهل هذا كلام منقول عن مؤرخ سابق ، أم ذهب بعضه فبدأ كذلك ؟

الناصر لدين الله (٣٠٠ - ٣٥٥ هـ). هاجموا الأندلس في سنوات : ٣٥٥ هـ و ٣٦١ هـ ، ورد الأندلسيون كل هذه المحاولات الخائبة ، وسوف تجد تفصيل ذلك مسطوراً في حوادث عهد الخليفة .

٢ - الأحداث والقضايا الداخلية

قامت في هذا العهد بعض المخالفات الداخلية . وكانت تنتهي بالصلح أو بالحرب بجهد قليل أو كثير . وكانت إسبانيا الشمالية ودولة الفرنسية كثيرةً ما تم ديد المساعدة للعصابة ، أو تقوم بحشمتهم على الاستمرار أو تحريضهم وإثارتهم ابتداءً^(١) .

٣ - الدعوة للعباسين

ذكر أنه بعد مرور عشرة شهور على تولي الداخل إمارة الأندلس قطع الخطبة للعباسيين^(٢) . وبذلك قُطعت الأندلس عن بقية العالم الإسلامي وخلافته إدارياً وسياسياً ، ولماذا نتائجه وآثاره . لكنها لم تقطع عنه بكافة علاقتها الحياتية الأخرى ، بسبب قيام رابطة وضياعة فريدة بينهم ، هي رابطة العقيدة الإسلامية التي جمعتهم وألفت بينهم ، وليس مثلها رابطة من كافة الوجوه وعلى أية درجة^(٣) * * وألفَ بين قلوبهم لو أنفقوا ما في الأرض جميعاً ما ألفَ بين قلوبهم ولكن الله أَلْفَ بينهم إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٤) * * ، وما جرى من أحداث في غير هذا الاتجاه – كلياً أو جزئياً – كانت بسبب الانحراف عن منهج الله وشرعيته . * * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كتم أعداءَ فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكتم على شفَّا حُفْرَةً من النار فأنقذكم منها كذلك يُبَيِّنَ الله لكم آياته لعلكم تَهَتَّدونَ^(٥) .

(١) انظر : أندلسية ، ١٠٧/٢ - ١٢٧ - ١٣٣ - ٤ . *Muslim colonies* (تاريخ غزوات العرب ، ١٩٣ - ١٩٢) .

(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ١٠/٦ . كذلك : الحلة السيراء ، ٣٥/١ ؛ نفح الطيب ، ٢٣٩/١ ؛ نقط العروس ، ابن حزم ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ٧٥/٢/١٣ .

(٣) انظر : أعلاه ، ١٣٥ .

(٤) الآية ٦٣ من سورة الأنفال . (٥) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

لم تحدث مواجهات مباشرة بين الأندلس والخلافة في المشرق الإسلامي . ولم تتخذ الأندلس أي إجراء وما أبدت نشاطاً ما ضدها ، إلا ما يروى من انتوء الداخل أخذ الشام ، الذي « أشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتراعها من بنى العباس »^(١) ، لكنه أفلج عن هذا الأمر

أما الخلافة العباسية فلم تقم - من جانبها - أو شارك بعمل جاد لإعادة الأندلس إلى سلطان الخلافة ، منذ عهد الإمارة فيها ، إلا أنها لم تمانع من إظهار الرضى عنم يقوم في الأندلس داعياً إليها ، بصدق أو للاحتماء .

١ - قدم الأندلس من شمال إفريقيا العلاء بن المُغيث الجُذامي سنة ١٤٦ هـ داعياً للخلافة العباسية . ونزل مدينة بَاجَة^(٢) ، أو في لقنت من أعمالها ، وبها « نشر الأعلام السود »^(٣) .

ولعله كان ببَاجَةً أصلاً وقام بالمخالفة وراسل أبي جعفر المنصور العاسي ، فأرسل إليه بالتأييد ، أو جاءه التأييد من المنصور بعد ما سمع بعصيائه^(٤) . وربما قام العلاء بالدعوة للعباسيين ابتداءً ، بعد اتفاق معهم أو جاء التأييد تاليًا . كان العلاء « رئيس جند بَاجَةً ، فثار بها ، وقام بها بدعة بنى العباس ولَبِس السَّوَاد ، ورفع راية سوداء ، واجتمع إليه قيام من الناس ، فقاتلته عبد الرحمن بن معاوية في قرية من قُرى لَاشْبِيلِيَّة تُعرف بالكَرْم ، حتى هزمه الإمام وقتله . »^(٥) تجمع حوله الأتباع ودارت بينه وبين الداخل معركة شديدة قرب مدينة قَرْمُونَة ، قتل فيها العلاء وتفرق جمعه .

٢ - دخل الأندلس - سنة ١٦١ هـ أو بعدها - من الشمال الإفريقي عبد الرحمن ابن حبيب الفهْري ، المعروف بالصَّقْلَبِيِّ ولم يكن من الصَّقَالِبَة ولا صلة له معهم ،

(١) نفح الطيب ، ٥٤/٣ . كذلك : الكامل ، ٦٢/٦ .

(٢) البيان المغرب ، ٥٢/٢ ؛ البر ، ٤/٢٦٦ (= نفح الطيب ، ١/٣٣٢) .

(٣) البيان المغرب ، ٥٢/٢ .

(٤) انظر : أعمال الأعلام ، ٩/٢ .

(٥) الروض المطار ، ٣٦ .

لكنه سمي بذلك لشبيه الشكلي بهم^(١) . وحلَّ بِمُرْسِيَة (تُدْمِير) وتراسل مع سليمان بن يقظان الأعرابي . ولم يتتفقا ، وجرى بينهما قتال هُزم فيه الصقلبي الذي قضى عليه فيما بعد وانتهى أمره^(٢) .

ب - وقعة (هيچ) الربض

حدثت سنة ٢٠٢ هـ (٨٠٨ م) في الربض الجنوبي من قُرطبة المسمى : ربض شقندة (Secunda) ، على الضفة الأخرى من الوادي الكبير^(٣) ، أيام الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦ = ٧٩٦ - ٨٢٢ م) . وقضى الحكم الربضي عليها بقسوة وعنف ، وطرد قسماً من قام بها وتبع آخرين ، فسكن بعضهم مدينة فاس في المغرب وارتحل غيرهم إلى الإسكندرية في مصر ثم تركوها إلى جزيرة إقرطيش (كريت Crete) وأسسوا فيها دويلة سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) واستمرت ما يزيد على قرن من الزمان^(٤) . ونَدَمَ الحَكَم أشد الندم على الذي ارتكبه ، « ولما دَنَتْ وفاته عَتَبَ نَفْسَهُ فِيمَا تَقدَّمَ مِنْهُ عَنَاباً ، وَتَابَ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً ، وَرَجَعَ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى ، وَقَالَ : إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْأَبْقَى وَالْأُولَى ، فَتَزَيَّنَ بِالْقَوْى ، وَاعْتَصَمَ بِالْعُرُوهَةِ الْوُثْقَى وَأَقْرَأَ بِذُنُوبِهِ وَاعْتَرَفَ ، وَأَنِسَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : * إِنْ يَتَهْوَى يُغْفَرَ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ *»^(٥) ، « فَمَا تَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَنَدِمَ عَلَى مَا اقْتَرَفَ »^(٦) .

ج - حديث غريب

ذكر عدد من المؤرخين والأوربيين والمحدثين^(٧) ، أنه أيام الأمير عبد الرحمن

(١) انظر : أعلاه ، ٢٢٦ .

(٢) البر ، ٢٦٨/٤ ؛ الكامل في التاريخ ، ٥٤/٦ .

(٣) الحلة السيراء ، ٤٤/١ .

(٤) راجع : الروض المطار ، ٥٧ ؛ وصف إفريقية والمغرب (من المساك والمالك) ، البكري ، ٩٢ ؛ نصوص عن الأندلس ، ١١٨ .

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الأنفال .

(٦) البيان المغرب ، ٨٠/٢ . كذلك : الذيل والتكميل ، ١٥٢/٤ .

(٧) الحلة السيراء ، ٤٦/١ . كذلك : المغرب ، ٤٢/١ ؛ أعمال الأعلام ، ١٥/٢ ؛ نفح الطيب ، ١/٣٩٩ .

(٨) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٢٦٧ - ٢٧٣ .

الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ = ٨٢٢ - ٨٥٣ ،) . كانت حركة قام بها قلة من النصارى في تاريخ غير واضح ، ومارس هذا البعض شتم الإسلام وسب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليناً وعمداً . بل فعلوا ذلك عند أبواب المساجد في أوقات الصلاة ، ووصف لين بول هؤلاء به «المتحرون»^(١) ، وكان الكثير من النصارى المعتدين ضد هذه التصرفات . جرى ذلك في الوقت الذي كانت فيه السياسة الإسلامية في الأندلس – وفي غيره من أنحاء العالم الإسلامي – تقوم على العدل والانصاف ، في معاملة الفئات غير المسلمة وتمتعت هذه الفئات بحرياتها وعدم التدخل مطلقاً في شؤونهم التعبدية وأحوالهم الشخصية ، بشكلٍ ماحدث ولن يحدث بهذه خارج العالم الإسلامي . ودعا عبد الرحمن الأوسط زعماء النصارى لمعالجة هذا الموضوع ، فعقدوا مؤتمراً ، سنة ٢٣٨ هـ (صيف ٨٥٢ م)^(٢) ، وقرروا فيه رفض هذه الأعمال ، ونصّحوا رعياهم بعدم الرضي عنها والاقلاع عن فعلها . وانتهت هذه الحركة ولم تترك غير بقایا من آثارها أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، عالجها بحكمة ، فانتهت تماماً بعد ذلك^(٣) .

والأمر الذي يلفت النظر أن هذه الحركة لم تتحدث عنها – فيما يبدو – مصادرنا الإسلامية ومنها الأندلسية . جُلُّ معلوماتنا أو كُلُّها من المصادر الأوروبية ، التي تسم غالباً بالتعصب والتحامل أو التحيز والمغالاة^(٤) . وذلك يدعوا إلى التحفظ والاحتراض . لكن هل ان المصادر الأندلسية التي ذكرت هذه الحادثة فقدت في طريقها الياناً؟ أو أن الأمر يتطلب إعادة النظر في واقعيتها أو بعض فصوصها؟

د- افتتاح الجزائر الشرقية

تم في هذا العهد فتح الجزائر الشرقية ، وسيفصل هذا الحدث في موضوع الجهاد لهذا العهد^(٥) .

(١) The Moors in Spain, 84, 90. (الترجمة العربية : العرب في إسبانيا ، ٧٣ ، ٨٣) .

(٢) راجع : المقبس ، ٥٤/٢ (تعليق المحقق) .

(٣) راجع : دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٧١/١ .

(٤) انظر : أعلاه ، ١٩٧ . (٥) أدناه ، ٢٦٠ وبعدها .

هـ - بناء مسجد قرطبة الجامع

في بداية هذا العهد كان إنشاء مسجد قُرْطُبَةِ الْكَبِيرِ ، بدأ بناء عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) وأتمَّه من جاء بعده . وأصبح هذا المسجد من أعظم المنشآت العمرانية فناً وروعة وتعبيرًا^(١) .

ثانيًا : الجهاد في عهد الإمارة

لأنجذب في عهد الإمارة ما ألفناه في عهد الولاية من أعمال الجهاد خلف البرْتُ لا القليل ، ولعل عدم الاحتفاظ بمراسيم جهادية في الأرض الكبيرة أوقف جهاد المسلمين هناك وحرمها منه . وهو يعني عدم توفر الدعوة إلى الإسلام فيها ، ليضم أهل تلك البلاد بينما القاعدة الأخرى لهذا العمل . لهذا علاقة بأحوال الأندلس المرتبطة بدورها بما جرى للخلافة الإسلامية في الشرق وما صاحبها من أحداث . هذا مع غيره سبب وارتبط بأوضاع شبه الجزيرة الأندلسية وبنشوء الديوبيلات في إسبانيا الشمالية .

ولا يعني هذا خلو عهد الإمارة من أعمال جهادية ، اهتم بعضها بحماية الأندلس ورد هجمات دولة الفرْنَجَة القوية الواسعة واعتداءات إسبانيا الشمالية المتكررة القاسية المتنكرة التي لم تلتزم بعهد أو تأخذ بعرف ، كما سيتبين . كلتا الدولتين – حين تشعر بقوتها واغتنام فرصة من الأندلس – لا تألوا جهداً في مهاجمتها أو العمل على إياها . وتكتف عنه وتُظهر المسالمة حين ترى قوة الأندلس ومكانتها على المواجهة . هكذا ترددت علاقات هاتين الجبهتين بين الحرب – وكانت سِجالاً – والسلم ، حين تعجز عن المواجهة ، ريشما تستعد أو تهبل غرَّةً من غير عهد ولا ذمة . وحين تُرَدُّ على أعقابها تلجأ إلى السلم احتياءً ، إذ لا قوَّة لها على غيره . في حين كانت الأندلس الإسلامية تلتزم بعهدها وتأخذ بالسلم أصلحة ، في كل الظروف ، وهي قوية متمكنة .

(١) انظر عنه : أندلسيات ، ١٥٧/٢ - ١٦٢ .

أنفقت الأندلس جهوداً كثيرة في رد عدوان إسبانيا الشمالية والفرنجية ، وحماية نفسها وأهلها وكف العادية وتأديب أصحابها . هنا يتبيّن للناظر في خطّة المسلمين في الفتوحات أنه من الأهمية إتمام هذا الفتح وتأمينه وتأصيل قواعده . تلك غايته وهدفه ، وليس الخوف من العدوان الذي يشمل خطره تهديد هذه الأهداف . تلك الخطّة سار عليها الفاتحون دوماً وحاولوه جاهدين ، ولم تقصر بهم وسيلة غير ظروف طرأت حول العالم الإسلامي تكاثفت عليه ، مكتنته كذلك ظروف في داخل العالم الإسلامي والأندلس .

* * *

سارت حملات عدّة نحو الشمال الإسباني لهذا الشأن . كان بعضها ينتهي بعقد صلح أو مُتاركة ، يتفاوت أمدها والشروط . وكم آوت إسبانيا الشمالية — مثل دولة الفرنجية — من عاصٍ معتمد في الأندلس وأعانته بل حرضته ، إن لم تكن دعته لذلك ، إغراً أو دعمته اعتداءً .

كان هذا النوع من المجاهدة غير قليل لهذا العهد مذ بدايته . وتفاوت الأخبار المدونة عنه بين الإيجاز والتفصيل . فذُكر عن عدّة أعمال حربية ، منها مع الجبهتين أو واحدة منهما . وتساق أحياناً بشكل مجمل للحديث عن أعمال جهادية في الشمال الإسباني أو دولة الفرنجية أو دار الحرب عموماً⁽¹⁾ .

وأحياناً تُخص الجبهة . ففي الشمال الإسباني ذُكرت أسماء مناطق كجليّقة وبَنْبُلُونَة وألَبَة والقلاع — أو أماكن ومدن فيها ، مثل : بَرَشَلُونَة ، التي ترددت — لمدة — تبعيّتها بين المسلمين وإسبانيا الشمالية ، ولوِسْن وبرْطَانِيَّة وغيرها . ومثل ذلك بالنسبة للفرنج عامة أو تخص ، لا سيما أربُونَة التي سبق للMuslimين فيها وحولها نشاط وغير ، حتى غدت عاصمة لمنطقة هي حكومة سَبْتِمانِيَّة الإسلامية خلف الْبُرْت في عهد الولادة⁽²⁾ .

(1) نفع الطيب ، ٣٥١/١ .

(2) أعلاه ، ١٨٧ .

وتُذَكِّر — مرات — جهود قائد أو أمير في وصف عام : مثلاً نقل المقرّري عن الأمير هشام الأول (١٧٢ هـ - ١٨٠ هـ) أنه كان «كثير الغزو والجهاد»^(١). كذلك فعل ابن عذاري حين الحديث عن الأمير محمد (٢٣٨ هـ - ٢٧٣ هـ) ، الذي كان «غَزَّاءً لأهل الشرك والاختلاف»^(٢).

١ - الشّمال الإسْبَاني

واجهت السلطات الأندلسية جبهة الشمال بحملات يقوم الأمير بقيادتها بنفسه ، أو يرسل قائداً مجرباً . وتوكّى بعضها ، بالعناية المستمرة ، قادةً هذا النشاط على الجبهتين (الشمالية والفرنجية) . وأخذت بعض هذه الحملات طابع الرد على هجوم سابق ودحر المعتمدي ، يصاحبها أحياناً صور من الانتقام .

لَمَعَ أَحْفَادُ مُغِيثِ الرُّومِيِّ ، فاتَّحَ قُرُطْبَةً ، أَبْنَاءُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُغِيثِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْمِيدَانِ كَمَا فِي غَيْرِهِ . كَانَ ثَلَاثَتُهُمْ مِنْ كُبَارِ رِجَالِ الدُّولَةِ ، سِيَاسَةً وَقِيَادَةً وَكِيَاسَةً وَعِلْمًا . هُمْ : عَبْدُ الْكَرِيمِ (٢٠٩ هـ) وَعَبْدُ الْمُلْكِ وَعَبْدُ الْحَمِيدِ ، الَّذِينَ حَجَبُوا لِعَدَّةِ أَمْرَاءٍ^(٣) : هِشَامُ الْأَوَّلِ (١٧٢ هـ - ١٨٠ هـ) وَابْنُهُ الْحَكَمُ الْأَوَّلُ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وَابْنُهُ مُحَمَّدُ (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) . ذَكَرَ ابْنُ عِذَارِيَ فِي بِيَانِهِ أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدَ - لَعْلَهُ أَكْبَرُهُمْ - حَجَبَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ ، وَلَكِنْ يَجْعَلُهُ ابْنًا لِمُغِيثِ^(٤) . فِي حِينَ يَرِدُ عَنْدَ ابْنِ حَيَّانَ : عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُغِيثِ^(٥) ، وَجَعَلَهُ أَيَّامَ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ . فَهَلْ سَقْطُ اسْمِ «عَبْدُ الْوَاحِدِ» عَنْ ابْنِ عِذَارِيِّ؟

حَجَبَ أَبُوهُمْ عَبْدُ الْوَاحِدِ (١٩٨ هـ)^(٦) لِلْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ وَلَابْنِهِ هِشَامَ الْأَوَّلِ^(٧) .

(١) نفع الطيب ، ١/٣٢٨ . (٢) البيان المغرب ، ٢/١١١ .

(٣) انظر : المقتبس ، ٢/٤٤٤ ؛ الحلقة السيراء ، ١/٣٥ .

(٤) البيان المغرب ، ٢/٤٨ .

(٥) المقتبس ، ٢/١٥٤ .

(٦) المغرب في حل المغرب ، ١/٤٤ . (٧) الحلقة السيراء ، ١/١٣٥ .

أما عبد الكريم الوزير « الحاجب القائد الكاتب »^(١) الوالي فقد حَجَب لهِشَام الأول ولابنه الحكم الأول^(٢). وابنه عبد الرحمن الأوسط^(٣) ، حيث توفي صدر إمارته (٢٠٩ هـ)^(٤) . وال الحاجب عبد الكريم « أكمل من حَمَل هذا الإسم ، وأجمعهم لكل حسنة ، فأقره عليها إلى أن توفي عبد الكريم حميداً فقيداً »^(٥) . وتولى عبد الملك الحِجَابة والولاية^(٦) .

ظهر عبد الكريم - بشكل أكبر - في قيادة النشاط الجهادي شمالي إسبانيا ثم بلاد الفرْنَجَة . في حين ظهر عبد الملك بعده في بلاد الفرْنَجَة ثم الشمال الإسباني . نجد كذلك منهم أيام الأمير محمد : عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث يتولى قيادة أسطول ، في حملة بحرية على ساحل جِلَّيقِيَّة ، شمالاً سنة ٢٦٦ هـ^(٧) .

قائمة نسب بنى مُغيث

مُغيث الرومي

عبد الواحد (١٩٨ هـ)

عبد الحميد

عبد الملك

عبد الكريم (٢٠٩ هـ)

محمد

عبد الله

عبد الملك

(قائد الأسطول سنة ٢٦٦ هـ)

(١) المقتبس ، ٢٨/٢ ، ٧٧ ، ٢٨/٢ . كذلك : ٣١/٢ .

(٢) المغرب ، ٤٤/١ . (٣) المقتبس ، ٣٩/٢ .

(٤) المقتبس ، ٢٧/٢ ، ٧٧ ، ٢٧/٢ ؛ البيان المغرب ، ٨٢/٢ .

(٥) المقتبس ، ٢٥/٢ . كذلك : ٣٠/٢ .

(٦) الحلقة السيراء ، ١٣٥/١ . (٧) انظر : المقتبس ، ٣٩٨/٢ - ٣٩٩ .

تكررت الأخبار عن هذا اللون من النشاط ، قاده أمراء الأندلس بأنفسهم . إلا أنه يندر قيادة أمير لحملة وراء الْبُرْتَه لهذا العهد . لكن نفح الطيب يذكر خبراً عن حملة قادها عبد الرحمن الداخل بنفسه حين « غزا بلاد الإفرنج والبشكتش ومن وراءهم ، ورجع بالظفر »^(١) من غير زيادة عن مكان وزمان وطبيعة هذه الحملة . تلأت ذلك — تتابعاً أو تمهلاً — حملة أخرى إلى الشمال ، أيام هِشام الأول بداية توليه الإمارة (١٧٢هـ) . قاده بنفسه وجال في أكثر من مكان سنة ١٧٥هـ ، ووجه السرايا إلى غيرها .

أ - بَرْشَلُونَة

خرجت بَرْشَلُونَة من أيدي المسلمين سنة ١٨٥هـ ، أيام الحكم الأول . وتوجه جيش بقيادة الحاج عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الرومي إلى بَرْشَلُونَة وما حولها أو وراءها أيام عبد الرحمن الأوسط^(٢) . كذلك سارت نحوها حملة أخرى أيام الأمير محمد الذي « بعث عساكر أخرى إلى نواحي بَرْشَلُونَة وما وراءها ، فاعثروا فيها ، وفتحوا حصوناً من بَرْشَلُونَة ورجعوا . »^(٣)

ب - بَرْبَطَانِيَّة

أوردت بعض مصادرنا نشاطاً عسكرياً في مكان اسمته مرة « بَرْبَطَانِيَّة »^(٤) ومرة أخرى « بَرْبَطَانِيَّة »^(٥) . وظاهر كلام المقرري — في موضعين — أنه يعني بكليهما نفس المكان . مكان في بلاد الفرنجية خلف الْبُرْتَه (جنوب فرنسا) ، ويُطلق عليه صفة « أرض » . ففي سنة ١٧٦هـ أرسل هِشام الأول وزيره عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث الرومي إلى شمالي الأندلس « ثم بعثه في العساكر سنة سبع

(١) نفح الطيب ، ٣٣٣/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٣٩/١ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٤٦/١ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٥٠/١ .

(٥) نفح الطيب ، ٣٣٧/٤ ، ٤٤٩/٤ .

(٦) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .

وبسبعين الى أربُونَة وجرنَدَة فائخن فيها ، وَطِيَّة اَرْض بَرْطَانِيَّة^(١) . وفي سنة ٢٢٦ هـ أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط توجهت «العساكر الى اَرْض الفِرَجَة» ، وانتهوا الى اَرْض بَرْطَانِيَّة ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تُطْيلَه ، ولقيهم العدو ، فصبر حتى هزم الله عدوهم ، وكان لموسى في هذه الغزَّة مقام محمود .^(٢)

وردت «بَرْطَانِيَّة» عند المقرري في أكثر من موضع وقد صد بها الجزر البريطانية^(٣) . أطلق عليها مرة «بلد»^(٤) وأخرى - في ثلاثة مواضع - «جزيرة»^(٥) . في حين ورد ذكر «بَرْطَانِيَّة» بوضوح في شمالي الجزيرة الأندلسية وأنها كُورة من كُورَ الشَّغَر الأعلى الأندلسي^(٦) . ومرة أخرى - مماثلاً - بصفة «بلد بَرْطَانِيَّة»^(٧) . لعل هنالك خلطًا - ربما في النسخ - أو خطأ في النقل بين «بَرْطَانِيَّة» و«بَرْطَانِيَّة» من ناحية اللفظ وفي توقيعها من ناحية أخرى . استعملت «بَرْطَانِيَّة» اسمًا للجزر البريطانية - كما مر - أحياناً . لكن «بَرْطَانِيَّة» (Barbitania) كانت اسم كُورة في شمالي الأندلس^(٨) ، وتُطلَق اليوم على مدينة «بَلْطَانِيَّة» (Boltaña) شمال شرق مدينة وَشْقَة (Huesca)^(٩) ، قرب جبال الْبُرْت الأندلسية . هكذا يُوَقِّعُها الحِمِيرِي ، في موضعين من روضه^(١٠) .

فهل كان إيرادها - مكاناً في جنوبي فرنسا - يعني وجود موضع هنالك يحمل

(١) نفح الطيب ، ٣٢٧/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٣١/١ . كذلك : الروض المطار ، ٣ .

(٤) نفح الطيب ، ١٣١/١ .

(٥) نفح الطيب ، ١٣٢/١ ، ١٦٧ ، ١٩٧ .

(٦) نفح الطيب ، ١٦٦/١ .

(٧) نفح الطيب ، ٤٤٩/٤ .

(٨) انظر : فرحة الأنفس (قطعة منه) ، ابن غالب الأندلسي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٦/٢/١ .

(٩) الحلل السنديسة ، أرسلان ، ١٨٤/٢ ، ١٩٦ ؛ المقتبس ، ٦١٨/٢ .

(١٠) الروض المطار ، ٣٩ ، ١٩٥ .

مثل هذا الأسم ؟ أم قُصِّدَ به نشاط حربى في شِمالِي الأندلس في حدث عام ، حيث مرت بها الجيوش الإسلامية وهي متوجهة إلى بلاد الفِرْنَج ، أم أن مفهوم « الفِرْنَجة » مُحْتَوِي لشِمالِي الأندلس ، أم الوهم في أُرْبُونَة ؟

جالت العساكر الأندلسية في هذا المكان « بِرْبَطَانِيَّةً » وغيره ، خلال حملاتها شِمالِي الجزيرة الأندلسية . مثلما جرى سنة ١٧٧ هـ أيام هِشَام الأول ، حين اتجهت إليها حملة بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مُغيث^(١) . وأخرى سنة ٢٢٦ هـ أيام الأوسط تَوَلَّاها موسى بن موسى القسَوي^(٢) .

ويُفْهَم من إشارة أوردها ابن حِيَان الْقُرْطُبِي في مُقْتَبِسِه – حين الحديث عن قيادة الأمير محمد لحملة عسكرية في الثغر الأعلى سنة ٢٥٩ هـ – أن « بِرْبَطَانِيَّةً » كانت تابعة للأندلس^(٣) . ويبدو أن تبعيتها ترددت بين الأندلس وإسبانيا الشمالية^(٤) .

ج – بَنْبُلُونَة

حين نشأت دويلات في إسبانيا الشُّمَالِيَّة كانت نَبَارَة (بلاد البَشْكُنُس) أحدها ، وعاصمتها بَنْبُلُونَة . وقد الداخِل – الذي اهتم بهذا الأمر – نشاطاً بنفسه إليها ، كما مر . وفي سنة ٢٢٩ هـ أرسل عبد الرحمن الأوسط « ابنه محمدًا بالعساكر ، وتقدم إلى بَنْبُلُونَة ، فأوقع بالمشركين عندَها ، وقتل غَرْسِيَّة صاحبها ، وهو من أكبر ملوك النصارى . »^(٥) ومحمد هذا قام – خلال إمارته – بنشاط مماثل حيث « في سنة سبع وأربعين أغزى محمد إلى نواحي بَنْبُلُونَة ، وصاحبها حِينَذٌ غَرْسِيَّة بن وَنَقْهٌ ، وكان يُظاهِر أَرْدُونَ بن أَذْفُنْش ، فعاد في نواحي بَنْبُلُونَة ، ورَجَع وقد دَوَّخَها وفتح كثيراً من حصونها ، وأسر فُرْتُونَ ابنَ صاحبها ، فبقى أَسِيرًا

(١) نفع الطيب ، ٣٣٧/١ .

(٢) نفع الطيب ، ٣٤٥/١ .

(٣) المقتبس ، ٣٣٢/٢ .

(٤) المقتبس ، ٦١٨/٢ .

(٥) نفع الطيب ، ٣٤٥/١ .

بِقُرْطُبَةِ عَشْرِينَ سَنَةً . »^(١) ، وَأُرْسَلَ - سَنَةُ ٢٦٤ هـ - ابْنَهُ الْمَنْذُرُ إِلَى بَلَادِ بَنْبُلُونَة^(٢) .

د- أَلْبَةُ وَالْقِلَاعُ

تَكَرَّرَتِ الْحَمْلَاتُ إِلَى أَلْبَةَ وَالْقِلَاعَ (قَشْتَالَةُ الْقَدِيمَةُ)^(٣) مِنْذَ أَيَّامِ هِشَامِ الْأَوَّلِ الَّذِي « كَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّالِحِ ، كَثِيرُ الْغَزْوِ وَالْجَهَادِ »^(٤) . قَادَهَا بِنَفْسِهِ أَوْ سَيَّرَهَا بِقِيَادَةِ رِجَالٍ مَهَرَةً ، إِلَيْهَا وَإِلَى غَيْرِهَا . مِنْ ذَلِكَ سَنَةُ ١٧٥ هـ حَمْلَةُ قَادَهَا بِنَفْسِهِ ، وَأُخْرَى فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ بِقِيَادَةِ وَزِيرِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُغِيثِ الرُّومِيِّ^(٥) ، وَثَالِثَةً مَعَ الْحَاجِبِ عَبْدِ الْكَرِيمِ ، أَخِيِ الْوَزِيرِ ، سَنَةُ ١٧٨ هـ .

قَادَ هُؤُلَاءِ الْأُخْوَةِ عَمَلِيَّاتٍ عَسْكَرِيَّةً جَهَادِيَّةً كَثِيرَةً فِي عُمُومِ الشَّمَالِ الْإِسْبَانِيِّ ، مِنْ بَرْشَلُونَةَ إِلَى بَنْبُلُونَةَ إِلَى أَشْتُرْقَةَ فِي جِلِيلِيَّةِ وَبَلَدِ الْفِرَنَجَةِ وَرَاءِ الْبُرُوتِ ، مِنْذَ أَيَّامِ هِشَامِ الْأَوَّلِ . وَتَرَدَّدَتِ السَّرَايَا إِلَى كُلِّ هَذِهِ الْمَنَاطِقِ ، وَكَثِيرَةً مِنْهَا بِقِيَادَةِ هُؤُلَاءِ الْأُخْوَةِ ، مُنْفَرِّدِينَ . وَيُخْمِلُ الْمَقْرِيُّ ذَلِكَ فِي نَفْحَهُ بِقُولَهُ عَنْ هِشَامِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ « قَصَدَ إِلَى بَلَادِ الْحَرْبِ غَازِيًّا ، وَقَصَدَ أَلْبَةَ وَالْقِلَاعَ ، فَلَقِيَ الْعَدُوَّ وَظَفَرَ بِهِمْ ، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَنَةُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ . وَبَعْثَتِ الْعَسَكِرُ إِلَى جِلِيلِيَّةِ مَعَ يَوسُفِ بْنِ بُختٍ فَلَقَيَ مَلْكَهَا بِرْمَنْدَ ، وَهَزَمَهُ ، وَأَثْخَنَ فِي الْعَدُوِّ . »

« وَفِي سَنَةِ سَتِ وَسَبْعِينَ بَعْثَتْ وَزِيرِهِ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنَ مُغِيثِ لِغَزَّةِ الْعَدُوِّ ، فَبَلَغَ أَلْبَةَ وَالْقِلَاعَ ، فَأَثْخَنَ فِي نَوَاحِيهَا ، ثُمَّ بَعْثَهُ فِي الْعَسَكِرِ سَنَةُ سِعَ وَسَبْعِينَ إِلَى أَرْبُونَةِ وَجَرْنِدَةِ فَأَثْخَنَ فِيهَا ، وَوَطَيَّ أَرْضَ بَرْطَانِيَّةَ ، وَتَوَأَّغَ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي بَلَادِ الْكَفَارِ وَهَزَمَهُمْ ، ثُمَّ بَعْثَتِ الْعَسَكِرُ مَعَ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ إِلَى أَلْبَةَ وَالْقِلَاعِ سَنَةُ ثَمَانِ وَسَبْعِينَ ، وَمَعَ أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ إِلَى بَلَادِ

(١) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣٥١/١ . كَذَلِكَ : الْبَيَانُ الْمَنْزُوبُ ٩٧/٢ .

(٢) الْمَقْتَبِسُ ، ٣٨٥/٢ ؛ نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣٥١/١ .

(٣) أَلْبَةُ (Alava) وَالْقِلَاعُ (Castilla la Vieja) = قَشْتَالَةُ الْقَدِيمَةُ) : تَقْعِيدُ بَيْنِ نَبَارَةِ وَلِيُونِ شَمَالِ إِبْرَهِ . اَنْظُرْ : دُولَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، ٢١٦/١ ؛ الْمَلَةُ السِّيَّارَاءُ ، ١٣٥/١ .

(٤) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣٣٨/١ . (٥) نَفْحُ الطَّيْبِ ، ٣٣٧/١ .

جيـلـيـقـيـةـ، فـانـتـهـىـ إـلـىـ أـسـتـرـفـهـ، فـجـمـعـ لـهـ مـلـكـ الـحـلـالـقـةـ وـاسـتـمـدـ بـلـكـ الـبـشـكـنـسـ، ثـمـ خـامـ عـنـ الـلـقـاءـ، وـرـجـعـ أـدـرـاجـهـ، وـاتـبـعـهـ عـبـدـ الـمـلـكـ، وـكـانـ هـشـامـ قدـ بـعـثـ الجـيـوشـ مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرـىـ، فـالـتـقـوـاـ بـعـدـ الـمـلـكـ، فـأـتـخـنـواـ فـيـ الـبـلـادـ، وـاعـتـرـضـتـهـمـ عـسـاـكـرـ الـفـرـنـجـ، فـنـالـوـاـ مـنـهـ بـعـضـ الشـيـءـ، ثـمـ خـرـجـوـاـ سـالـمـينـ ظـافـرـينـ .»^(١)

تـكـرـرـ تـوـكـيـّـيـ عـبـدـ الـكـرـيمـ وـعـبـدـ الـوـاحـدـ بـنـ مـغـيـثـ الـرـوـمـيـ قـيـادـةـ الجـيـوشـ إـلـىـ أـلـبـةـ وـالـقـلـاعـ وـغـيـرـهـ فـيـ نـفـسـ الـحـمـلـةـ، إـلـيـهـ أـوـ فـيـ أـخـرـىـ، كـمـ تـوـلـاـهـ غـيـرـهـ . فـفـيـ سـنـةـ ٢٠٨ـ هـ أـيـامـ الـأـمـيـرـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـأـوـسـطـ، تـوـجـهـ عـبـدـ الـكـرـيمـ بـجـيشـ إـلـىـ أـلـبـةـ وـالـقـلـاعـ فـفـتـحـ الـكـثـيرـ مـنـ حـصـونـهـ «ـ وـصـالـحـ بـعـضـهـاـ عـلـ الـجـزـيـةـ وـإـطـلـاقـ أـسـرـيـ الـمـسـلـمـينـ، وـانـصـرـفـ ظـافـرـاـ .»^(٢) وـفـيـ سـنـةـ ٢٢٤ـ هـ كـانـ تـوـجـيـهـ عـبـيـدـ الـلـهـ بـنـ عـبـدـ الـلـهـ الـبـلـنـسـيـ «ـ صـاحـبـ الصـوـائـفــ»ـ - قـرـبـ الـأـمـيـرـ الـأـوـسـطـ - إـلـىـ أـلـبـةـ وـالـقـلـاعـ^(٣) .

قـائـمـةـ نـسـبـ عـبـيـدـ الـلـهـ الـبـلـنـسـيـ

عـبـدـ الرـحـمـنـ الدـاخـلـ بـنـ مـعـاوـيـةـ (٥ ١٧١)

هـشـامـ الـأـوـلـ (٥ ١٨٠) عـبـدـ الـلـهـ الـبـلـنـسـيـ (٥ ٢٠٨) سـلـيـمانـ (٥ ١٨٤)

الـحـكـمـ الـأـوـلـ (٥ ٢٠٦) عـبـيـدـ الـلـهـ (صـاحـبـ الصـوـائـفـ)

عـبـدـ الرـحـمـنـ الـأـوـسـطـ (٥ ٢٣٨)

قادـ الـأـمـيـرـ مـحـمـدـ سـنـةـ ٢٢٦ـ هـ حـمـلـةـ إـلـىـ أـلـبـةـ وـالـقـلـاعـ^(٤) . وـفـعـلـ مـثـلـ ذـلـكـ بـعـدـ سـنـوـاتـ عـدـيدـةـ فـيـ سـنـةـ ٢٣١ـ هـ «ـ كـتـبـ إـلـىـ مـوـسـىـ بـنـ مـوـسـىـ وـأـهـلـ الـثـغـورـ بـالـإـحـشـادـ إـلـيـهـ

(١) نـفـحـ الطـيـبـ ، ١/ ٣٢٧ـ - ٣٢٨ـ . كـذـلـكـ : الـحـلـةـ السـيـراءـ ، ٣٧٥/٢ـ .

(٢) نـفـحـ الطـيـبـ ، ١/ ٣٤٤ـ - ٣٤٥ـ .

(٣) نـفـحـ الطـيـبـ ، ١/ ٣٤٥ـ ; الـحـلـةـ السـيـراءـ ، ٢/ ٣٦٤ـ ; الـمـغـربـ ، ٤٤/١ـ .

(٤) الـمـقـبـسـ ، ٢/ ١٠٢ـ - ١٠٣ـ .

والدخول معه الى ألبَة والقلاء ، . . . ، وفتح كثيراً من حصونهم .^(١) وفي سنة ٢٤٩ ه تولى عبد الرحمن بن الأمير محمد قيادة حملة الى « بلد ألبَة والقلاء من دار الحرب »^(٢) . وفي سنة ٢٥١ ه قاد أخوه المنذر حَمْلَةً « الى نواحي ألبَة والقلاء »^(٣) .

٥ - جِلِيقِية

شَمَّلتَ الحملات الأندلسية عديداً من مناطق الشَّمال الإسباني ، كان منها جِلِيقِية . ففي سنة ١٧٦ ه سارت حملة أندلسية وجَهُها هِشَامُ الْأَوْلَ بقيادة يوسف بن بُخت - من غير تعين للمكان - داخل جِلِيقِية « وبعث العساكر الى جِلِيقِية مع يوسف بن بُخت فلقي مَلِكَهَا بِرْمُنْدَ ، وهزمه ، وأثخن في العدو .^(٤) » ووجهَ حملة أخرى سنة ١٧٨ ه بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث الرومي ووصل الى أَسْتُرْقَة ، فأنجده هِشَام بحملة أخرى وعادوا جميعاً ظافرين . فقد سار « الى بلاد جِلِيقِية ، فانتهى الى أَسْتُرْقَة ، فجمع له ملك الحَلَالِقَة واستمد بملك البَشْكُنْس ، ثم خام عن اللقاء ، ورجع اُدْرَاجَه ، واتَّبَعَه عبدُ الملك ، وكان هِشَام قد بعث الحيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعد الملك ، وأنجذبوا في البلاد ، واعتراضتهم عساكر الفِرَّاج فنالوا منهم بعضَ الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين .^(٥) » وحوالي سنة ١٨٥ ه « بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكري姆 ابن مغيث الى بلاد الحَلَالِقَة ، فأنجذبوا فيها ، وخالفتهم العدو الى المصايف ، فرجع على التعبية ، وظفر بهم ، وخرج الى بلاد الاسلام ظافراً .^(٦) »

وقامت عمليات نشطة في جِلِيقِية سنة ٢٢٤ ه . فقد وجَهَ اليها الأمير عبد الرحمن الأوسط الجيش ، وقد بعضَ بنفسه . يقول المكري : « ثم خرج لُدُرِيقَة ملكُ الحَلَالِقَة ،

(١) المقتبس ، ٣٠٤/٢ . (٢) المقتبس ، ٣١٨/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٥١/١ . كذلك : المقتبس ، ٣١٩/٢ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ . كذلك : البيان المغرب ، ٦٣/٢ .

(٥) نفح الطيب ، ٣٣٨/١ .

(٦) نفح الطيب ، ٣٣٩/١ .

وأغار على مدينة سالم بالشغر ، فسار اليه فُرْتُون بن موسى ، وقاتلَه ، فهزمه وأكثر القتل والسي في العدو والأسر ، ثم سار الى الحِصْن الذي بناه أهل الْبَة بالشغر نِكَايَةً للMuslimين ، فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبد الرحمن في الجيوش الى بلاد جِلَّيقَة ، دلوخها وافتتح عدة حصون منها ، وجال في أرضهم ، ورجع بعد طول المقام بالسي والغائم ^(١) ثم تحركت حملة أخرى سنة ٢٣١ هـ ، وصلت مدينة ليون ^(٢). وفي سنة ٢٥١ هـ قاد الأمير محمد بن نفسه حملة الى بلاد الحَلَالِقَة ^(٣)

وأجرت صيف سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٧ م) معركة استشهد فيها عدة مئات من المجاهدين المرابطين في الشعور ، والتقي فيها مجاهدو أحد الرُّبُط الشغرية وعددهم سبع مئة فارس يجيش يضم أعداداً كبيرة من جيش أشتُوريش والمخالف عبد الرحمن ابن مروان الْحِلَّيقِي الذي كان لاجئاً عند ملكها آذْفُونْش بن آرْدُون بن رُذْمِير (الفنوس) الثالث بن آردونيو الأول بن راميرو الأول ، ٢٥٢ هـ - ٨٦٦ م). ووجَدَ الْحِلَّيقِي عند آذْفُونْش الترحيب والاهتمام ، كيما يستعمله أداة يُضعف به قوة الأندلس وتشجيعاً مثل هذه الأفعال .

وأرسل الأمير محمد صائفة بقيادة ابنه المنذر نحو ليون ، فالتحقت بهذه الصائفة سرية رابطة شغرية ، تعدادها ٧٠٠ فارس ، كَمَنَ لها الْحِلَّيقِي وحلفاؤه من جند آذْفُونْش ، ودارت معركة عنيفة انتهت بإبادة السرية الشغرية الأندلسية . يقول ابن خلدون : « فخرج عليهم ابن مروان ، ومعه جمع من المشركين استظهر بهم فقتل تلك الطائفة عن آخرهم ^(٤) ». وتُسمى هذه المعركة : « البربرية » (La Polvoraria). ويقدم ابن حيان عنها صورة حسنة ، إذ حين سار المنذر يجيش الصائفة نحو الشمال لحق بعسكره « رابطة من روابط المسلمين ، فجمعت أهل الكُور ، وخرجت مُبْطِنَةً طامعاً في لُحوق الصائفة وهم في نحو سبع مئة فارس ، فخرج عليهم

(١) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٤٦/١ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٥١/١ .

(٤) العبر ، ٢٨٦/٤ .

القاسق عبد الرحمن بن مروان بنن معه من المشركين وهم قد بَعْلُوا عن لِحاق العسكري ، فأوقع بهم في موضع يُعرف بالبربرية ، وصَبَرَ له المجاهدون ، فقاتلوه قتالاً شديداً حتى قاتلوا من المشركين عدّة ، ثم كثُرُّهم أعداءُ الله ، فَفَقَاتُلُوا الرابطة عن آخرهم ، وحَلَّتْ بال المسلمين فيهم مصيبةٌ عظيمة . فهي الوبعة المعروفة هنالك بالبربرية إلى اليوم .^(١)

ذَكَرْ هذه الواقعة كذلك ابنُ الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) في كتابه الكامل في التاريخ ، ولعله نقلها عن ابن حَيَّان أو غيره من كُتاب مراجعنا الأندلسية . إذ حين استظهر ابنُ مروان الحَلَّيقِي بِأَذْفَنْش (الثالث) وجيشه وكَمَنَا للسَّرِيَّة ، فخرجوا لها و«اقتلوه قتالاً كثيراً صبراً فيه ، وقتل من المشركين عدّد كثير ، ثم استظهر ابن الحَلَّيقِي ومنَ معه من المشركين على السبع مئة ، فوضعوا السيفَ فيهم فقتلواهم عن آخرهم ، أَكْرَمُهم الله بالشهادة .^(٢)

وقاد البَرَاءُ بْنُ مَالِكَ في السنة التالية (٢٦٤ هـ) حملةً إلى جَلَّيقِيَّة «فكان هناك وَقِيَّعةٌ ضَرِسَةٌ .^(٣)

هذه الأحداث مثل غيرها تؤكّد قيام المسلمين بالجهاد عقيدةً في الله وحرضاً على الشهادة في سبيله ، وابتغاء مرضاته ورغبةً في جنته وإيثار ما عندَه **﴿وَمَا عَنِ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾**^(٤) وطالما اشتراك فيها العلماء ، وهم في المقدمة . ووجودُ العلماء الأعلام في طبيعة هذه المواجهات وسُطُّ معممة المعرك شاهدٌ على عملية العِلْم والأخذ به إيماناً، وتمر أمثلةً متعددة عن هذا الأمر وهو جدير بالاهتمام وأن يُفرد ببحثٍ مستقلٍ ، ولدى ابن الفَرَّاضِي في تاريخ علماء الأندلس صفحات من هذه الصور الكريمة ، تمتاز بطبيتها وطراحتها كذلك .

(١) المقتبس ، ٣٨٤/٢ . كذلك : قضاة قرطبة ، المثنوي ، ٨٣ .

(٢) الكامل ، ٣١٠/٧ - ٣١١ .

(٣) المقتبس ، ٣٨٥/٢ . كذلك : الكامل ، ٣٢١/٧ .

(٤) من الآية ٦٠ من سورة القصص .

هذا يحيى بن حجاج من أهل طليطلة ، رجل طالباً العلم إلى إفريقيا
(وربما إلى غيرها) وسمى « من مشيخة القيروان »^(١) .

عاد إلى الأندلس يؤدي واجبه عالماً ومتعلمًا وجندياً للإسلام في كل ميدان « وأشهد في المعركة العظيم الذي كان بين المشركين وال المسلمين سنة ثلث وستين وعشرين . »^(٢) وكان لابن حجاج صاحب ، سميه وبليده : يحيى بن القصیر ، شهيداً سوية المعركة المذكور فلم يفزع بالشهادة مثل صاحبه . وظل يبحث عنها حتى ظفر بها في السنة التالية : رزقاً من الله ونعمته . كان ابن القصیر صاحب ابن حجاج « في السمع ، والفضل ، والعمل . وكان كثير الجهاد ، وشهد المعركة سنة ثلث وستين فلم يقتل وقتل أصحابه وكان يرى على نفسه من ذلك غضاضة ، ثم عسكر المسلمون سنة أربع وستين فخرج معهم مستعداً للشهادة ، فلما التقى بالجمنان أبل بلاءً كريماً ورزقه الله الشهادة . »^(٣)

الظاهر بوضوح كبير أن هذين الشهيدين قضيَا الواحدُ بعد الآخر في معركتي سنة ٢٦٣ هـ والتي تليها كل في واحدة متتابعين ، رحمهما الله تعالى وأنعم عليهما . شملت هذه الحملات مدنًا ومناطق متعددة من إسبانيا الشمالية ، ترددت إليها بين حين وآخر ، ولا يبدو أنها كانت دوماً تقصد الفتح المقيم ، بل ظاهرها لرد عدوان أو تأديب وكبح أهله . ولابد أنها وأمثالها كانت نتيجة لتحرشات ابتدأت بها إسبانيا الشمالية ، والاما أخذت هذا الشكل ؛ فقد قامت سياسة حكام إسبانيا الشمالية على التحرش وإثارة وتشجيع إيجاد المتاعب ، بل وإرسال المعونات العسكرية وغيرها . مثل ذلك كانت تفعله دولة الفرنسية ، مما دعا الأندلس إلى أن ترد عليه وتحاط له ، وكانت تقبل صلحًا – لأي أمد – طالما تقوم سلطات الشمال الإسباني بنقضه ، كلما تقوى عليه .

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ٢ / ١٨٤ (رقم : ١٥٦٠) .

(٢) نفس المصدر . أي أن استشهاده كان في معركة البربرية .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٢ / ١٨٢ (رقم : ١٥٠٢) .

٢ - بلد الفِرَنْجَة

لم يخلُ هذا العهدُ من جهاد وراء البرُّت . لكنه لم يكن كله من أجمل عمليات فتح مكين . بل لعله لورد مكيدة وケف عادية وتأديب آثم وتشييت هيبة ، أو محاولة فتح تحت نية جهاد ورغبة فتح واهتبال فرصة . والظاهر أنه منذ الأحداث الداخلية - نهاية عهد الولاية^(١) - خسر المسلمون مواقع وراء البرُّت ، وكانت جديدة . وغير واضح احتفاظهم منها بمقدار .

إذا كانت مناطق في الشمال الإسباني لم يثبت فيها فتح أو هي بحاجة إلى جهاد ، فما جدوى بذل الجهد وراء البرُّت ؟ إلا أن يكون للحفاظ على ما بقي لهم منها ، أو ضرب مراكز قوة فِرَنْجِية لردها . وردت إشارات متفرقة بحملة جهاد المسلمين وراء البرُّت ، بالإشارة إلى الفِرَنْج . ظاهر القصد منها الأرض الكبيرة ، وأشار المقرئي إلى حملات ، للأخوين عبد الكريم وعبد الملك وغيرهما ، ترددت إلى مدينة أربُونَة وما حولها منذ أيام هشام الأول . لكن اسلوب ذكرها مرة ، وموضع الإitan بها أخرى ، يدعو إلى التوقف والتعليق .

الحالة الأولى : كان فتح أربُونَة سنة ١٧٧ هـ ، فعاقب هشام مجموعة من أسرى جلبيَّة بنقل أحمال التراب من سورها إلى قرطبة .

«وفي أيامه فُتحت أربُونَة الشهيرة ، واشترط على المعاهدين من أهل جلبيَّة من صعب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربُونَة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، وبني منه المسجد الذي قدَّم باب الجنان ، وفضلت منه فضلة بقيت مكَّومة .»^(٢) وهو خبر غريب مرئين :

١ - غرابة تعامل : فرض مثل هذا الشرط ، سياسة غير معروفة في سياسة الفتح الإسلامي ، إلا أن يكون إجراءً أو علاجاً لحالة معينة .

٢ - أن يقوم أسرى أو معاهدون (جلالقة) بحمل التراب من أربُونَة (إلى قُرطبة) . كيف تم ذلك ، وأين كان الفتح أولاً ؟ لكن لو حدث مثل هذا فهي

(١) أعلاه ، ١٨٨ ، ٢٠٦ .

(٢) نفح الطيب ، ١ / ٣٣٧ . قارن : البيان المغرب ، ٦٤ / ٢ .

ستُحمل على دواب قد يطلب اليهم توفيرها . ومع أن هذا النص لا يخلو من غموض أو قلق فقد يكون مبتوراً أو وارداً منقطعاً عن تفصيلات سبقته أو لحقته الحالة الثانية : أن هِشَاماً بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مُغيث ^(١) في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أرْبُونَة وجُرُنْدَة فاثخن فيها ، ووطيء أرض بِرْطانِيَّة ^(٢) . لكن لماذا ذُكرت أرْبُونَة (جنوب فرنسا) مع كل من جُرُنْدَة (جيَرُونَه Gerona) وبِرْطانِيَّة (بِرْبَطَانِيَّة Boltaña , Barbitania) ، وهما شمالي الجزيرة الأندلسية ؟ فهل ان أرْبُونَة محفة عن اسم مدينة غيرها شمالي إسبانيا ، وإن جُرُنْدَة هي جِيَرُونَة شمالي الأندلس . أو هي جِيَرُون (Gironde) منطقة جنوب غربي فرنسا ^(٣) ، وكما يفهم من ليراد المقرري لها (جُرُنْدَة) ^(٤) ، أو أن الخبر كله من باب الحديث العام ؟ وهل أن التعين (في الحالتين : الأولى والثانية) متعلق بحادثة واحدة ، كانت أولهما عامة والثانية تخصيصاً .

يورد المقرري بعد ذلك أعملاً عسكرية بين الأندلس والفراتج لكنها غير واضحة ولا كافية لفهم وضعها أو تفاصيلها . ففي أيام الحكم الأول سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) « جمع لُذْرِيق بن قَارَلُهُ ملكُ الفِرَاتج جموعَه ، وسار إلى حصار طَرَسُونَة ، فبعث الحَكَمُ ابْنَه عبدَ الرَّحْمَنَ في العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً ». ^(٥) لُذْرِيق أو رُذْرِيق كما عند ابن عِذاري ^(٦) أو لُذْرِيق لدى ابن حَيَّان ^(٧) هو لويس الأول (عندهم : التقى Ludovico Pio Louis le Pieux) . لكن لويس بن شارلمان لم يكن في ذلك الوقت ملك الفِرَاتج ، لأن أبوه شارلمان توفي سنة ١٩٨ هـ (٨١٤ م) . إلا أن يكون قد تَوَكَّى هذه الحملة في حياة أبيه ،

(١) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ .

(٢) انظر :

(٣) نفح الطيب ، ٣٤٦/١ (— أدناه ، ٢٥٩ — النص المشار إليه) .

(٤) نفح الطيب ، ٣٤٠/١ . كذلك : البر ، ٤/٢٧٦ ؛ المغرب ، ٤٠/١ .

(٥) البيان المغرب ، ٧٢/٢ .

(٦) المقتبس ، ٢/٢ .

وهو أمر ممكن ، فـُوصِفَ بأنه ملكُ الفِرْنَجْ تَجْوِزاً أو في غير معرفة دقيقة له ، أو ربما وصفُ ملك الفِرْنَجْ يعود إلى قارلُهُ (شارلمان) لا على ابنه لُذْرِيق (لويس) وهذا احتمال قليل الورود .

تلت ذلك عدة اعتداءات قام بها الفِرْنَجْ ، ردها الأندلسيون . ففي سنة ١٩٦ هـ قاد الحكم بنفسه حملة « لَمَّا كَثُرَ عَيْثُ الْفِرْنَجْ فِي الشَّغُور »^(١) ، وفي سنة ٢٠٠ هـ وجهَ الحكم حملة بقيادة عبد الكري姆 بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفِرْنَجْ مخترقاً الشمال الإسباني نحو الأرض الكبيرة وقتل ظافر أظاهراً^(٢) . وجرى مثله سنة ٢٢٦ هـ أيام الأوسط الذي وجهَ « العساكر إلى أرض الفِرْنَجَة ، وانتهوا إلى أرض بـِرْبَطَانِيَّة »^(٣) .

وفي سنة ٢٣١ هـ أرسل الأوسط حاجبه عبد الكريم « وأجاز الدروب التي تُسْمَى الْبُرُوتُ إلى بلاد الفِرْنَجَة فدوخها قتلاً وأسرًا وسبياً ، وحاصر مدینتها العظمى جُرُنْدَة ، وعادت في نواحيها ، ووقف . »^(٤) ظاهر هذه الأحداث يدل أنها كانت ردًا على اعتداء وتخريب في الأندلس قام به حكام الفِرْنَجَة ، كما فعلوا في طَرَسُونَة وغيرها من تلك الأعمال التي لم يَجْزِي في هذا البحث ايرادها واستقصاؤها . ولعل أحداً مماثلة — قلت أو كُرِت — جرَّت تِلْوَ ذلك ، إلا أن النصوص المتعلقة مختصرة وغير كافية .

بيَّنت النصوص السابقة أن هذا النوع من الأحداث بين إسبانيا الشمالية ودولة الفِرْنَجَة لم تكن هي المسيطرة على ذلك الجُوْن وإن تعددت . بل جرى نشاط مماثل في حسن العلاقات وإقامة الصلات وعقد المعاهدات . ولدينا ثروة لا بأس بها حول هذا الجانِب ، ينظر فيها حين الحديث عن سياسة الأندلس الخارجية مع العالم غير الإسلامي^(٥) .

(١) نفع الطيب ، ٣٤٠/١ . كذلك : العبر ، ٤/٢٧٦ .

(٢) نفع الطيب ، ٣٤٠/١ ؛ العبر ، ٤/٤ - ٢٧٦ . كذلك : البيان المغرب ، ٢/٧٥ .

(٣) نفع الطيب ، ٣٤٥/١ . كذلك : العبر ، ٤/٤ .

(٤) نفع الطيب ، ٣٤٦/١ . كذلك : العبر ، ٤/٤ .

(٥) أدناه ، ٢٨٩ ، الفصل الرابع .

٣ - افتتاح الجزائر الشرقية

جرى ذكر الجزائر الشرقية (مَيُورْقَة وَمَنْتُورْقَة وَالْيَابِسَة) حين الحديث عن فتح الأندلس والتمهيد له^(١). إذ قد عرفتها الحيوش الإسلامية الفاتحة في تاريخ مبكر، منذ سنة ٨٩ هـ ، قبل البدء بفتح الأندلس . ولعلها كانت حملة استطلاعية ، ثم جاء فتح الأندلس ، جهاداً وفيراً للMuslimين في الجزيرة الأندلسية والأرض الكبيرة ، سبق الوقوف عنده عن كثب .

أمر يُلْفِت نظر الباحث ألاً يجد في مراجعنا الأندلسية المتوفرة أخباراً عن فتح هذه الجزر أو محاولات له . واعتبرها ابن سعيد الأندلسي (تونس، ٦٨٥ هـ) « مضافة إلى الأندلس »^(٢) . فهل كانت هناك أخبار فقدناها ؟ إن الأخبار المتعلقة بافتتاحها الذي تم في وقت جَدِّ متأخر عن فتح الأندلس – كما سيتبين بعد – تُقْوَى عدم توفر نشاط جهادي جديد واضح ، قبل افتتاحها سنة ٢٣٤ هـ – أيام الأوسط – أو بعدها، سنة ٢٩٠ هـ . لو أمكن التثبت من عدم توفر مثل هذا الجهاد فلا أقل من أن تكون محاولات فتح لها ، لم تم لأي سبب . وقد ذُكر – من غير مرجع – أن الحكم الأول (٢٠٦ هـ) وجَّه حملتين إلى الجزائر الشرقية : سنة ١٨٢ هـ وسنة ٢٠٠ هـ^(٣) . وكلا الحالين يجلب الانتباه ويدعو إلى التعليل ، حتى توفر نصوص تقطع بأمر . أليس مستغرباً أن تكون أول تَجْرِيَة للMuslimين مع الجزائر الشرقية سنة ٨٩ هـ – قبل فتح الأندلس – ويتوقف كل نشاط لهم معها طوال قرن ونصف القرن ؟ فلا نكاد نسمع شيئاً عن ذلك حتى سنة ٢٣٤ هـ ، وهو أمر يتفق عليه عدد من مؤرخيينا الأندلسين . يذكر ابن حَيَّان (٤٦٩ هـ) في مُقْتَبِسِه أن الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) سَيَرَ « أَسْطُولَاً من ثلاثة مئة مركب إلى أهل جزيرتي مَيُورْقَة وَمَنْتُورْقَة ، لنقضهم العهد وإضرارهم بنـ يـمـرـ الـيـهـمـ منـ مـرـاكـبـ الـمـسـلـمـينـ ، فـفـتـحـ

(١) أعلاه ، ٤٤ - ٤٥ .

(٢) المغرب ، ٤٦٥/٢ .

(٣) المسلمين في أوربا في العصور الوسطى ، لـ إبراهيم علي طرخان ، ١٠٣ .

الله لل المسلمين عليهم ، وأظفرهم بهم فأصابوا سبباً لهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم .»^(١)
 ويورد الخبر باختلاف ابن عذاري (بعد ٧١٢ هـ) في بيانه فيقول إنه «في سنة ٢٣٤ ، أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة مَيُورُقَة ، لنكباتهم ، وإذلامهم ، ومجاهرتهم بتنقضهم العهد ، وإضرارهم بمن مرّ عليهم من مراكب المسلمين . فغزتهم ثلاث مئة مركب ، فصنع الله لل المسلمين جميلاً . وأظفرهم بهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم .»^(٢)
 كما أورده - مع اختصار - آخرون كأبن سعيد (٦٨٥ هـ) الذي يقول في حوادث سنة ٢٣٤ هـ : « جَهَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَسْطُولًا مِنْ ثَلَاثْ مَائَةِ مَرْكَبٍ إِلَى جَزِيرَتِي مَيُورُقَةَ وَمَنْتُورُقَةَ لِإِضْرَارِ أَهْلِهَا بَنْ يَمْرُ بَهْمًا مِنْ مَرَاكِبِ الْاسْلَامِ فَفَتَحُوهُمَا .»^(٣)
 وابن الخطيب يذكر أنه في أيام الأوسط « انقض المعايدة بجزيرة مَيُورُقَةَ فغزاهما في ثلاث مئة مركب ، فافتتحها ثانية »^(٤) .

يمكن ملاحظة ما يأتي من هذه النصوص السابقة :

- ١ - أن الأمير الأوسط سيَرَ أَسْطُولًا من ثلاث مئة مركب إلى الجزائر الشرقية .
- ٢ - سار الأسطول نحو مَيُورُقَةَ وَمَنْتُورُقَةَ ، كبريا الجزائر الشرقية قاطبة .
 لم تذكر اليابسة ثالثهما وأقربها إلى الشاطيء الأندلسي تجاه دَانِيَةَ (Denia) .
- ٣ - هناك جزر أخرى صغيرة افتتح الأسطول بعضها .
- ٤ - كانت لل المسلمين في الأندلس صِلات مع أهل بعض هذه الجزر ، لا سيما مَيُورُقَةَ وَمَنْتُورُقَةَ . وتقوم هذه العهود على تأمين أمور المسلمين والجزيرة . وهذا يعني أنه جرت اتصالات بين أهل هذه الجزر والأندلس .
- ٥ - لم تكن أي من هذه الجزر قد فتحت أو انضمت تحت سلطان الأندلس قبل ذلك .
- ٦ - أن أهل الحريزتين (مَيُورُقَةَ وَمَنْتُورُقَةَ) تعرضوا لسفن المسلمين التجارية

(١) المقتبس ، ٢/٢ - ٣ .

(٢) البيان المغرب ، ٨٩/٢ .

(٣) المغرب في حل المغرب ، ٤٩ / ١ .

(٤) أعمال الأعلام ، ١٨/٢ .

أو الجهادية ، ناقضين هذا العهد . وقد تكون عبارة « مراكب المسلمين » عامة وليست مقصورة على أهل الأندلس . قد يشير هذا إلى أن أهل هذه الجزر لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد ، ربما بمقدار . ويرجع عدم فتحها .

٧ - وَصَفَت النصوص السابقة هذا العمل بالفتح ، فهل تعني به الفتح الدائم ؟ أم إخضاعهم وإجبارهم على الالتزام بالعهد والكف عن اعتدائهم بعد ردّه ؟ الأقرب لهم عبارة ابن الخطيب « فافتتحها ثانية » على المعنى الأخير من قيام العهد بين أهل تلك الجزر والأندلس ، سوية أو منفردة .

لُكِنَّ لِمَاذَا لَمْ يُمْكِنْ افتتاح هذه الجزر أو بعضها حتى الآن (سنة ٢٣٤ هـ) ؟

- * أَلِعَدَمْ استطاعة الأندلس ، الذي بذل جهداً يزيد عما تتحمله لاسيما أيام الولاية الذي توفر فيه الجهاد وامتد لمسافات بعيدة تجاوزت الجزر ، وهي عليها أسهل ؟
- * أَلِبُعدُها عن الجزيرة الأندلسية ، وعدم مقاربتها كلاًً من المغرب والأندلس ، والمسافة عنها ليست كبيرة جداً ولا عسيرة ؟
- * أَمْ لأوضاع الأندلس الداخلية ؟
- * أَمْ لضعف الأسطول الأندلسي ؟
- * أَلِتَعَدَدُ سلطات الأندلس والمغرب ، كل خاضع لسلطة ؟ وذلك من مخاطر محاذير انقطاع السلطة في الأندلس عن سلطة العالم الإسلامي وعدم الارتباط بخلافته ودولته^(١) .

تُؤكِدُ الأحداث التالية أنَّ الأعمال الخرية السالفة تجاه الجزر لم تكن فتحاً ولا مستقراً . يذكر ابن حيَّان أنه سنة ٢٣٥ هـ « ورد كتاب أهل ميَّورقة على الأمير عبد الرحمن بن الحكم مستغيثين مما دهمهم من سخطه ، مستقiliين لغزائهم لديه ، راغبين في صفحه وإقالته ، فعطف عليهم ، وأفالم زلتهم ، وأجابهم إلى مسألتهم ، وأعطاهم ذمتَه وجَدَّ لهم عهده . »^(٢) وما أورده ابن عذاري عن

(١) انظر : أعلاه ، ١٣٥ ، ٢٤٠ .

(٢) المقتبس ، ٤/٢ .

هذه الحادثة أوف : « في سنة ٢٣٥ هـ ، ورد كتاب أهل مَيْسُورَقَةَ وَمَتُورَقَةَ إلى الأمير عبد الرحمن ، يذكرون ما نالهم من نِكَايَة المسلمين لهم ، فكتب إليهم كتاباً أَذْكُرُهَا فصولاًً منه وهو : أَمَّا بَعْدُ ، فقد بلغنا كتابكم ، تذكرون فيه أمركم ، وإغارة المسلمين الذين وجَّهُنَاهُم اليكم بجهادكم وأصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم ، والمبلغ الذي بلغوه منكم ، وما أشفيتم عليه من الهاляك . وسائلم التدارك لأمركم ، وقبول الجزية منكم ، وتجديد عهدم على الملازمنة للطاعة ، والنصيحة للمسلمين ، والكف عن مكرورهم ، والوفاء بما وتحملونه عن أنفسكم . ورجونا أن يكون فيما عُوقبتم به صلاحكم ، وقعكم عن العَوْد إلى مثل الذي كنتم عليه . وقد أعطيناكم عهداً الله وذِمَّته . »^(١)

تُسَجِّلُ المراجعُ أخبارَ الفتح الإسلامي الدائم للجزائر الشرقية – أو بعضها – وتؤرخ حدوثه سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) أيام الأمير عبدالله (٣٠٠ هـ) . فيذكر الحِمْيَري في رَوْضِيه – حين الحديث عن جزيرة مَيْسُورَقَةَ : كبراهما – أن المسلمين افتتحوها سنة ٢٩٠ هـ^(٢) ، ويقدم ابن خَلَدون في عِبَره معلومات أكثر عن فتح جزيرة مَيْسُورَقَةَ ، فيقولُ : « كانَ فَتَحُ مَيْسُورَقَةَ سَنَةَ تَسْعِينَ وَمَتَّيْنَ عَلَى يَدِ عِصَامِ الْخَوَلَانِي »^(٣) ، وبِفَصْلِ الْكِيفِيَّةِ التي فُتِّحت بها هذه الجزيرة . ولم يتوفَّرْ خبر فتح الجزيرتين الأخْرِيَّن (مَتُورَقَةَ وَالْيَابِسَةَ) لكن لا بد أن يكون ذلك تلا افتتاح مَيْسُورَقَةَ .

غدت هذه الجزر الشرقية إسلاميةً، لا بفتحها فقط بل بحياة سكانها وكافة أحواها . وهو أمر مأثور في البلدان التي فُتِّحت ، حيث يدخل أهلُ الْبَلَدِ الإِسْلَامَ طوعية . يُحبُّونَ الإِسْلَامَ ويدافعون عنه ويحمونه بأنفسهم ، مثلما رأينا في الأندلس وغيرها .

(١) البيان المغرب ، ٨٩/٢ . لعلَّ هناك خطأً أو سقطاً بين كلمتي : « بما » و « تحملونه » .

(٢) الروض المطار ، ١٨٨ .

(٣) البر ، ٣٥٣/٤ .

وهو أمر ليس مقصوراً على أحد ، جرى عليه المسلمين الأوائل ومن تلهم في مختلف الأعصار والأمسكار .

تعمرت هذه الجزر في كل جانب وغمرها الخير من كل نوع ، وظهر فيها العلماء وسادها العلم والمعرفة ، وأنارت شعابها قناديل الإيمان ، وأقام طرقاتها ، نيرة ودروبها خيرة ، دين الله وشرعه ، وغدت موطنًا لأهل العلم والفضل في كل ميدان ، واتخذت موئلاً للعديد من الأعلام .

فإن أحمد بن رحيم بن إبراهيم بن حارث بن خلف بن راشد السُّمَانِي « ولَيْ قضاء الجزائر الشرقية ، بعد ابن أخيه نافع بن محمد بن رَحِيق في سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثة . فلم يزل قاضياً بها إلى أن تُوفى لعشر خلَوْنَ من رمضان سنة ثلاثة وأربعين وثلاثة غريقاً في البحر مع رشيق عامل الجزائر مولى الناصر . ذكر ذلك : ابن حارث . وذكر ابن حَيَّان : أن جعفر بن عثمان المصحفي خرج في يوم الخميس لثلاث بقين من جمادي الأخيرة سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثة قادماً إلى الجزائر الشرقية مَيُورْقَة وذَوَاتِه ، ولَيْ أحمد بن رَحِيق القضاء بها .^(١) ومن علماء جزيرة مَيُورْقَة الْحُمَيْدِي^(٢) صاحب جَذْوَةِ الْمُقْتَبِس وغيرها . المُحدَّث الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الْحُمَيْدِي الأنديسي المَيُورْقِي (ميورقة) ، قبل سنة ٤٢٠ - بغداد ، ٤٨٨ هـ . مستوطن بغداد الموصوف « بالنباهة والمعرفة والإتقان والدين والورع ، وكانت له نعمة حسنة في قراءة الحديث .^(٣) » وكان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه ونقته وصدقه ونبأه وديانته وورعه ونزااته .^(٤) ويروي المقرئ أن الحجاري ذكره

(١) التكملة ، ابن البار ، ١٣/١ (رقم : ١٦) . كذلك : الدليل والتكميلة ، ابن عبد الملك المراكشي ، ١١٦/١ (رقم : ١٥٤) ؛ الخلقة السيراء ، ١/٢٥٧ .

(٢) الصلة ، ابن بشكوال ، ٥٠٦/٢ (رقم : ١٢٣٠) ؛ وفيات الأعيان ، ابن خلkan ، ٤/٢٨٢ . (رقم : ٦١٦) . قارن : نفع الطيب ، ١/١١٣ .

(٣) وفيات الأعيان ، ٤/٢٨٢ .

(٤) نفع الطيب ، ٢/١١٣ .

« في المُسْهِب وقال عنه : إنه طرق مَيُورْقَةً بعدها كانت عُطْلًا من هذا الشأن ، وترك لها فخرًا تُباري به خواص البلدان ، وهو من علماء أئمَّة الحديث ، ولازمَ أبا محمد بن حَزْمَ في الأندلس واستفاد منه ، ورحل إلى بغداد ، وبها ألف كتاب الحَذْوَة »^(١).

رحل إلى ميورقة بعض علماء وأدباء الجزيرة الأندلسية ، منهم : ابن حَزْمَ الأندلسي (٤٥٦ هـ) الذي كان له فيها نشاط ملحوظ ، وناظر أبا الوليد الباقي (٤٧٤ هـ) الوارد إليها^(٢) ، في مجلس إليها أحمد بن رَشيق^(٣) ، التالي ذكره . استقدمه إليها أحد فقهائها الأصولي : أبو عبد الله محمد بن سعيد ، من أهل مَيُورْقَةٍ .^(٤)

حلَّ بمَيُورْقَةٍ وبها تُوفَّى الشاعر أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللَّبَّانَة (٥٠٧ هـ) . من أهل دَانِيَةِ الْذِي « كان مِنْ جِلَّةِ الْأَدْبَاءِ ، وفَحُولُ الشُّعُراءِ ، مَعَيْنُ الطَّبِيعِ واسعُ الدَّرْعِ ، غَزِيرُ الْأَدْبِ ، قَوِيُّ الْعَارِضَةِ ، مَتَصْرِفٌ فِي الْبَلَاغَةِ وَلِهِ تَوَالِيفٌ »^(٥) .

وأبو العباس أحمد بن رَشيق الكاتب والعالم الأديب ، الذي ولَّه أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري (٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م) ولَا يَهُ جَزِيرَةٌ مَيُورْقَةٌ « فَكَانَ يَنْتَظِرُ فِي أُمُورِ الْجَهَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا نَظَرُ الْعَدْلِ وَالسِّيَاسَةِ ، وَيَشْتَغِلُ بِالْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ ، وَيَجْمِعُ الْعُلَمَاءَ وَالصَّالِحِينَ ، وَيُؤْثِرُهُمْ ، وَيُصْلِحُ الْأُمُورَ جَهْدُهِ ... مَاتَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَارْبَعَ مِائَةٍ عَنْ سِنٍّ عَالِيَّةً »^(٦) . وَلَهُ عَدَةٌ تَصَانِيفٌ ذُكِرَ بَعْضُهَا الْحُمَيْدِيُّ فِي جَذْوَتِهِ . وَهَنَالِكَ أَعْلَامُ آخَرُونَ فِي مَيُورْقَةٍ وَآخَرُونَ مِنَ الْجَزَائِرِ

(١) نفح الطيب ، ١١٤/٢ . كذلك : المغرب في حل المغرب ، ٤٦٧/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٦٨/٢ ، ٧٧ . كذلك : الذيل والتكميلة ، ٢١٦/٦ .

(٣) الخلة السيراء ، ابن الأبار ، ١٢٨/٢ .

(٤) التكميلة ، ابن الأبار ، ٣٩١/١ (رقم : ١٠٩٤) .

(٥) التكميلة ، ٤١٠/١ (رقم : ١١٦٢) . كذلك : المعجب ، ٢١٢ ؛ المغرب ، ٤٦٦ ، ٤٠٩/٢ ؛

فتح الطيب ، ١٦٩/١ ؛ المطروب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٧٨ .

(٦) جنة المقتبس ، ١٢٢ - ١٢٣ (رقم : ٢٠٨) . انظر عنه كذلك : المغرب ، ٤١٦ - ٤٠٩/٢ .

الشرقية^(١) . كذلك كان صاحبها (مع دَائِنَيْهِ) أيام الطوائف مجاهد العامري (٥٤٣٦)^(٢) عالماً كريماً اهتم بالعلماء والفضلاء ورعى العلم وأهله وكرّمَهم^(٣) .

ثم أصاب الجزائر الشرقية ما أصاب جزيرة الأندلس قبلها من سوء العاقبة . فنُكِبَتْ بنكبتها ، حين أحاط بها ما أحاط الأندلس ، مع الذي كان من صنع يدها وسيء فعلها . فذهبت بذَهَابِها^(٤) ونالت مثل عقابها . وتلك حُكْمُ سُنَّةَ الله في الذين خلَوْا مِنْ قَبْلٍ ولن تَجِدَ لِسَنَةً إِلَّا تَبَدِيلًا^{*} . فَهِيَ كذلك فيما تَلَوْا أو بَقَوْا مِنْ بَعْدِهَا^(٥) .

فهل كل تلك تعود : تُخْضِرُ وَتُزْهِرُ ، تُشِيرُ وَتُنْهِرُ ، تَفْيِضُ خَيْرًا وَبِرًا ، نِعْمَةً وَبِرَكَةً؟ مَنْ يَدْرِي ، لِعْلَ الله جَلَّتْ قَدْرُهُ^(٦) حُكْمِهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا^{*} .
وهو العلي القدير ، سبحانك إنك أنت عَلَامُ الغُيُوبِ .

ثالثاً : نشر التوبيخات الإسبانية في شمال الأندلس وحراساتها

يُهُمْ دارسُ التاريخ الأندلسي التعرف على تاريخ إسبانيا الشمالية (النصرانية) وبقية التاريخ الأوروبي . وهو ذو صلة بالأندلس في عدة أمور ، مثلما يُهُمْ دارسُ تاريخ إسبانيا الشمالية وأوربا التعرف على التاريخ الأندلسي . الهدف من ذلك أن تكون صورة الأحداث - عموماً ، وما له منها علاقة ، من أي نوع - بين الطرفين واضحة .

(١) انظر : المغرب ، ٤٦٧/٢ - ٤٧٠ ؛ نفح الطيب ، ٤٧١/٣ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٧٥/٢ - ٢٧٧ ؛ الذيل والتكميل ، ٧/٦ ، ٥٨ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٥٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٤٥٥ ، ٤٥٥/١ ، ١٩٦/١ (رقم : ٥٢٠) ، ١٢٩٧/١ (رقم : ٨٠٩) ؛ الصلة ، ابن بشكتوال ، ٤٢٢/٢ (رقم : ٩٠٦) .

(٢) العبر ، ٣٥٤/٤ ؛ دول الطوائف ، محمد عبد الله عنان ، ١٩٨ .

(٣) المين (مفقود) ، ابن حيان . راجع : البيان المغرب ، ١٥٦/٣ ؛ أعمال الاعلام ، ٢١٧/٢ - ٢١٨ ؛ المغرب في حل المغرب ، ٤٠١/٢ ، ٤٦٦ .

(٤) انظر : نفح الطيب ، ٤٦٩/٤ - ٤٧٢ ؛ المغرب ، ٤٠٢/٢ ؛ أدناه ، الفصلان السادس والسابع .

(٥) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ١ من سورة الطلاق .

وفي مؤرخونا الأندلسيون هذا الأمر كثيراً من حقه ، وليس فقط في ثناباً حديثهم عن التأريخ الأندلسي وعرض مُجرياته . أمثال : **مُقتبس ابن حيَّان** وأخبار مجموعة وبيان ابن عذاري و**حُلَّة ابن الأبَار** وإحاطة ابن الخطيب ، وكذلك ابن الكربوس في كتابه **الاكتفاء**^(١) ، كما يتبيّن في الحواشي لهذا الفصل وأمثاله . بل إن بعض مؤرخينا أفردوا فصولاً عن تاريخ إسبانيا النصرانية . مثل : ابن سعيد في **المُغْرِب في حُلَّة المَغْرِب**^(٢) ، وابن الخطيب في **أعمال الأعلام**^(٣) ، وابن خلدون في **العِبَر**^(٤) .

وغير بعيد أن يكون ابن حيَّان (٤٦٩ هـ) قد كتب فصلاً أو أكثر عن هذا التاريخ ، ولكنه لم يصلنا ؛ فإن المنشولات عنه وما تبقى لنا من **مُقتبسه والنَّزَر** من غيره يلاحظ فيها الاهتمام الواضح بتاريخ إسبانيا النصرانية وبقية أوربا وأنه كان على معرفة جيدة بذلك . والمطلع على كتابات ابن حيَّان يلحظ اهتمامه بأمور كثيرة جليلة أو مهمة في كتاباته التاريخية . يشار – بهذه المناسبة – إلى عدة أمور منها :

- ١ - تاريخ إسبانيا النصرانية وأوربا^(٥) .
- ٢ - النشاط الدبلوماسي ، ومع دوبيالت إسبانيا الشمالية والأوربية^(٦) .
- ٣ - **الخطط الأندلسية** : الإدارية (التنظيمات) والعمارية (المعمارية)^(٧) والظواهر الحضارية الأخرى ، مع العناية بأعلام هذه الميادين وغيرها ، لاسيما القضاة

(١) تاريخ الأندلس ، ٧٣ - ٧٧ (نص ابن الكربوس) .

(٢) المغرب ، ٤٧٣/٢ . (٣) أعمال الأعلام ، ٣٢٢/٢ - ٣٢٨ .

(٤) العبر ، ٣٨٥/٤ - ٣٩٧ .

(٥) انظر مثلاً : المقتبس ، ٢٤٠/٢ - ٢٤٠ ، ٢٤٥٠ ، ٢٤٨٠ ، ٢٤٨٠ ، ٢٥٦٠ ، ٢٤٨٠ ، المقتبس (بيروت) ، ٢٤ - ٢٣ ، ١٦٨ ، ٢١٨ ، ١٦٩ ، مجلة الأندلس (الإسبانية AL-ANDALUS) ، ٢٩٦/٢/١٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٠ - ٢٩٦/٢/١٩ ، كذلك : العبر ، ٣٠٧/٤ .

(٦) المقتبس ، ٧٩/٢ ، المقتبس (بيروت) ، ٢٠ ، ٢٣ - ٢٧ ، ٢٣ ، ٣٢ - ٢٧ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٦ ، ٧١ ، ١٣٨ ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٤٨ - ١٤٨ ، ١٦٨ ، ١٦٩ - ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨٢ - ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٨٩ - ١٨٨ ، ٢٤١ ، ٢٤١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٠ - ٣٠٤ ، ٣٠٠/٢ .

(٧) انظر : المقتبس ، ٢٥٩/٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٥ ، المقتبس (بيروت) ، ٢٥ - ٢٦ ، ١٦٩ ، ١٦٩ ، ٢١٦ ، ٢١٦ ، ١٧١ .

والْحُجَّابُ والوزراء والعلماء ، وكذلك الأمراء ، مع ذكر أعمالهم وما قدّموه من إسهام عام^(١) ، وفي خاصة أحوالهم وبيتهم .

٤ - الاهتمام بالوثائق الرسمية وإثباتها بنصوصها^(٢) .

كل ذلك مزود بالإحصائيات ، ما أمكن .

لضرورة التعرف على تاريخ إسبانيا النصرانية يفرد هذا الفصل لإعطاء صورة أفضل وتقديم رؤية أوضح للأحداث ، لاسيما المشتركة منها .

* * *

تعَشَّرت خطوات المد الإسلامي في الأندلس والأرض الكبيرة ، ولاح ذلك – بخلود ومواضع متفرقة – منذ نهاية عهد الولاية ، وشاركت فيه أسباب ، منها : بُعد الأندلس عن مركز الخلافة وسرعة تغير الوالي أو مقتله ، مما يسبب القلق ويتيح المجال لهذا الاستقرار الداخلي وتأخر الإصلاح . ولتغير الولاية أثر على مجرى تلك الأمور ، فلا يمكن بعضهم في منصبه غير شهور . وما يكاد يأخذ مكانه ويدرس الأحوال ويضع خططه للإصلاح حتى يتغير أو يُسْتَشْهَد ، فيأتي والجديد . هذا التبدل – بجانب ما يؤدي من تأخر الإصلاح – يضع الأندلس بمواجهة بعض الأخطار . ولعله كان سبباً مهماً ساعد فلول القوط المنهزمة أمام جيش الفتح أن تُعيد صفوتها وتبداً المحاربة .

افتَّتحَتِ القوَاتُ الإِسْلَامِيَّةُ شِبَهَ الْجَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِيَّةَ بِقِيَادَةِ فَاتِحِ الْأَنْدَلُسِ طَارِقَ بْنَ زِيَادَ وَالوَالِيِّ الْمَهْنَكِ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ ، لَكِنَّهَا لَمْ تُفْتَحْهَا كُلُّهَا ، وَلَمْ تَتَابَعْ الْفَلَولُ الْمَهْزُومَةُ أَمَّا مِنْ بَقِيَا الْجَيْشِ الْقَوْطِيِّ ، حِينَ بَلَّأَتِ إِلَى الشَّمَالِ فِي الْجِبَالِ ، لِتُحْمَى نَفْسَهَا مِنْ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَظْفَرِ .

لم تسبب هذه الأحوال في الأندلس اطمئنان الفلول وتجميع نفسها فقط ، بل

(١) انظر : المقتبس (بيروت) ، ٦٤ .

(٢) انظر : المقتبس (بيروت) ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٩٧ ، ١٠٠ – ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٩ – ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٧٨ ، ١٨٢ – ٢٠٧ ، ٢٠٨ – ٢٠٩ .

كذلك على النمو ومتنازله القوات الفاتحة أحياناً ، حيث كان ما يسمى بحركة الاسترداد (La Reconquista) .

ولعل الأفضل لو اتجه ولاة الأندلس الى تطهير أرض الجزيرة ، قبل - أو مع - الاتجاه الى مأواه البرُّت .

تجمَّع بعض تلك الفلول في شمال شرق الجزيرة في نَبَارَة (Navarra) أو بلاد البِشْكُنْس ، تحت قيادة بُطْرُه (Pedro) . وهذا التجمع قليل الأهمية ، إذ كان هدفاً للقوات الإسلامية الذاهبة إلى بلاد الفِرَنْج ، وراء جبال البرُّت . أما التجمع الآخر فقد التجأ إلى المرتفعات الشمالية الغربية . هناك في شمالي الجزيرة الأندلسية في مكان يُعرف - لدى المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، لاسيما الأندلسيون - « الصخرة »^(١) أو صخرة بِلاي (Peña de Pelayo) ، بقيادة زعيم قُوطي يسمى بِلاي^(٢) أو بِلايُه^(٣) (Pelayo) . بدأ بِلاي وأتباعه تجمعهم - على ما يذكر - حوالى سنة ٩٨٥ (٧١٨ م) أو بعدها . وليس من الضروري اعتبار هذه السنة أو غيرها تاريخاً لحركة أو حادثة معينة ، لكنها بداية تجمعتها ، وإن كان هذا يبدو بكل وضوحٍ مبكراً تماماً .

يدرك المؤرخون المسلمون قلة من القُوط التجأوا إلى الصخرة التي تعرف في المراجع الإسبانية : كهف أونكا (Covadonga , Cova de Onga) . يقع في جبال قَنْتَبِرِيَة (كانتبرية) في أشْتُورِيَش (Asturias) إلى الجنوب الشرقي من خِيخون على ساحل خليج بَسْقَايَة (بسكاي)^(٤) . كان هذا الملاجأ بعيداً عن طريق الجيوش الإسلامية ، بجانب مناعة مكانه وقلة العدد في بادئ الأمر ، على ما يذكر . مما ساعد على ترکها ونحوها ، وفيما بعد ، وبمساعدة جيوش أو إمدادات أنت من خارج إسبانيا . بل يشير ابن خَلْدون إلى أن « أَرَزَ الْحَلَالِقَةُ وَمَنْ بَقَيَ مِنْ أُمَّمِ الْعَجْمِ إِلَى جَبَالِ قَسْتَالَةِ وَأَرْبُونَةِ وَأَفْوَاهِ الدُّرُوبِ فَتَحَصَّنُوا بِهَا »^(٥) .

(١) نفح الطيب ، ١٧/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٨ . (٢) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٧/٣ ، ٣٥٠/٤ ، ٣٥١ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٨ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٣٢٢/٢ . (٥) انظر : أعماله ، ١٠٣ - ١٠٧ ، ١١٢ .

(٦) العبر ، ٢٩٦/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) . ٣٨٦ .

الظاهر أن التجمع لم يعتمد على فُلول جيش القُوط بل كان يتلقى المَدَد من خلف جبال البرُّت . ولعل استدعاء موسى وطارق إلى دمشق - من قبل الخليفة الوليد - كان من الأسباب الكبيرة في نمو هذه القوة القوطية .

ثم كان للأحداث الداخلية في الأندلس بعدها ، وما صاحبها من تنازع ، لوقتَما ، أثرو علاقة بوجود هذه الدوليات وتوسعها . بجانب ارتباط الأندلس بمحاربات الأمور في المشرق الإسلامي - صاحبت نهاية الدولة الأموية وابتداء العباسية - تلاماً انتقطاع الأندلس إدارياً عن سلطة الخلافة الإسلامية^(١) وقيام الإمارة في الأندلس سنة ١٣٨ هـ . يذكر ابن خلدون في العِبَر : أنه « عندما شُغِلَ المسلمون بعبد الرحمن وتَهْبِطَ أمره قويًّا أمر بالحَلَالِقَة ، واستفحَلَ سلطانهم ، وعمَدَ فَرُوِيَّلهُ بنَ الأَذْفُونَشَ ملِكَهُمْ إِلَى ثُغُورِ الْبَلَاد ، فَأَخْرَجَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ، وَمَلَكَهُمْ ، فَمَلَكَ مَدِينَةَ لُكَّ وَبِرْتُقَالَ وَسَمُورَةَ وَشَلَمِنَقَةَ وَقَشْتَالَةَ وَشَقْوَبَيَّةَ ، وَصَارَتْ لِلْجَلَالِقَةَ حَتَّى افْتَحَهَا الْمُنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ آخِرَ الدُّولَةِ »^(٢) .

هكذا بدأت المماربة ، التي انتهت بعد ثمانية قرون - وبمعاونة الإمدادات الصليبية الأوروبيَّة المستمرة - إلى إبادة سلطان المسلمين السياسي في شبه الجزيرة الأندلسية ، بقيادة الملكين الكاثوليكيين : فِرَانْدَة أو فِرْذَلَنْد (Fernando) (Castilla) ملك أرَاغُون (Aragon) وايزابيل (Isabel) ملكة قَشْتَالَة (Castilla) وليون (León) .

يبدو من التزاعات الداخلية^(٣) - من أي نوع كانت - وتعكير الاستقرار في الأندلس ، وعدم القضاء على هذه الفلو - ربما مع غيرها من الأسباب - هي التي أدت مجتمعة (وإن اختفت في الأهمية) إلى هذه الحالة . أكثر من قيام هذه الفلو على قوتها الذاتية ، متعاونة مع بقية الإمدادات المستمرة من خلف البرُّت .

ليون

توفي بِلَاي سنة ١١٩ هـ (٧٣٧ م) فور شهابه فَافِيلَه (Fafila) الذي استمر ستين و توفي من غير أن يترك عَقِبًا . ولما توفي بُطْرُهُ ، ورثه ابنه أَذْفُونْش

(١) انظر : أعلاه ، ١٣٥ . (٢) العِبَر ، ٤/٢٨٦ (= نفح الطيب ، ١/٣٢٠) .

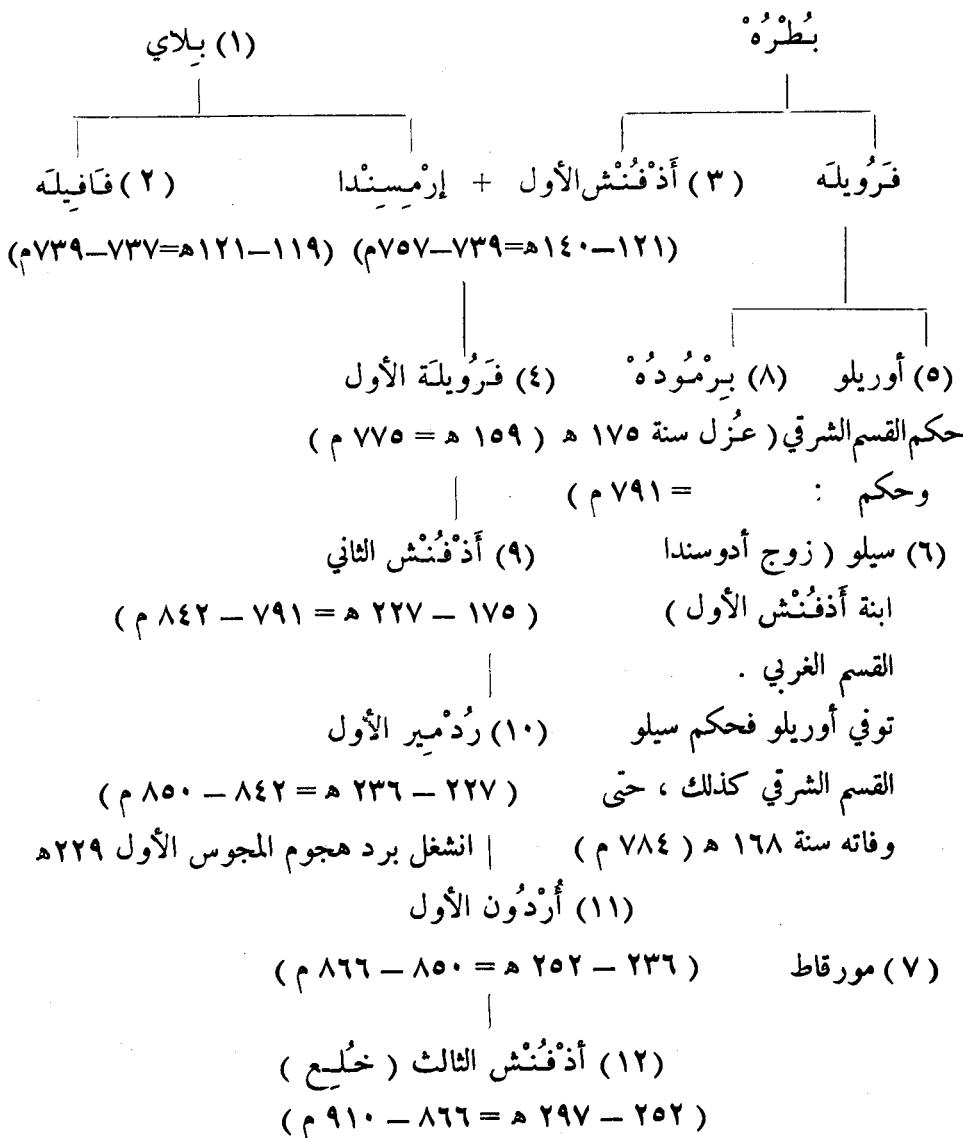
(٣) انظر : العِبَر ، ٤/٢٥٦ .

(الفونسو الأول Alfonso, Alphonso I) ، الملقب عندهم بالكاثوليكي ، وتزوج هذا من إرمستدا Ermesinda) ابنة بلاي ، وبذلك توحدت جبهة الحرب واعتُبر الفونش (الأول) مؤسس المملكة النصرانية في الشمال . وقد انتفع هذا بما كان من أحداث داخلية في الأندلس والشمال وانشغل آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري . وورث فرُويَّة (Fruela) أباه الفونش (الأول) واستولى على بعض المناطق المجاورة هناك .

بقي بعض المسلمين يعيشون في تلك المناطق ، لكن — بمرور الزمن — كانوا يخرجون منها ، وجرت الحرب سِجالاً بين الداخل وفَرُويَّة ، الذي قام ضد هذه ثورات داخلية لطغيانه ، مما ساعد المسلمين على استرداد بعض المناطق ، واغتيل فَرُويَّة . وبعد أحداث عُيْن ابنه الفونش حاكماً باسم الفونش (الثاني) (Alfonso II) ، الملقب في المصادر الإسبانية بالغبيف ، ودام حكمه حوالي خمسين سنة ، وقامت عده مواجهات عسكرية مع الأندلس . فقد وجَّه عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٠٦ هـ) ، جيشاً بقيادة وزيره عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث إلى ألبَة والقلاع (١) في الشمال ، وانتهت إلى عَقْد معايدة سلام بين الطرفين . وحين توفي الفونش (الثاني) خلفه ابنه رُدْمِير أوَّرَمِير (Ramiro I) ، الذي قمع عدة ثورات داخلية قامت ضده . ولعدة سنوات توقفت هجوماته على الأراضي الأندلسية ، لأنشغاله برد عادية المجوس الأَرْدُمَانِيُّن (النورمان) (٢) . واستغل أَرْدُون (Ordoño I) — ابن رُدْمِير (الأول) ووريثه — انشغال الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) بن عبد الرحمن الأوسط مع بعض العصاة ، فهاجم الأندلس ، لكنَّ الأمير رَدَّه في عدة معارك . توَّلى السلطة من بعده ابنه أَذْفُنْش (Alfonso III) ، الملقب في المصادر الإسبانية أحياناً : الكبير ، ٢٥٢ - ٢٩٧ = ٨٦٦ - ٩١٠ م) . وواجه هذا عدة ثورات ومؤامرات عائلية نجح في قمعها ، وفرض على عامة الشعب ضرائب أشدت إلى استيائه ، فَخَلَّع بمحاولة عائلية لصالح ابنه غَرْسِيَّة (García) . ثم نُقلت العاصمة من أوَّبِيت (Oviedo) إلى ليون (León) عاصمة « مملكة ليون » ، الأَسْمَانِيُّ أَطْلَقَ عليها مِنْذِنَ ، بدلًا من « مملكة غاليسيا واسترياس » .

(١) انظر : أعلاه ، ١٠٦ ، ٢٥١ . (٢) أعلاه ، ٢٢٧ وبعدها .

قائمة حكام مملكة ليون (حتى نهاية ق ٤ هـ)



(١٥) فَرُوْيَلَهُ الثَّانِي حُكْمُ سَنَةِ بَعْدِ أَخِيهِ أَرْدُونَ الثَّانِي	(١٤) أَرْدُونَ الثَّانِي (أَكْبَرُهُمْ) = ٣١٢ - ٣٠١ (٩٢٤ - ٩١٤ م)	(١٣) غَرْسِيَّهُ الْأَوَّلُ (أَكْبَرُهُمْ) = ٣٠١ - ٢٩٧ (٩١٤ - ٩١٠ م) نَقلُ الْعَاصِمَةِ مِنْ أَيْطَالِي لِيُونَ وَسُمِّيَتِ الْمُمْلَكَةُ بِهَا
(١٧) رُدْمِيرُ الثَّانِي (م ٩٥٠ - ٩٣٢ = ٥٣٣٩ - ٣٢٠) الْخَنْدَقُ سَنَةِ ٣٢٧ هـ	(١٦) أَذْفَنْشُ الرَّابِعُ (اعْتَزَلَ) (م ٩٣٢ - ٩٢٥ = ٥٣٢٠ - ٣١٣)	
		(٢٠) أَرْدُونَ الرَّابِعُ (خُلُعَ) (م ٩٦٠ - ٩٥٨ = ٥٣٣٩ - ٣٤٧)
(١٩) شَانْجَهُ الْأَوَّلُ (م ٩٦٦ - ٩٥٦ = ٥٣٥٥ - ٣٤٥) خُلُعٌ وَأَعْيُدُ وَمَاتَ مَسْمُومًا	(١٨) أَرْدُونَ الثَّالِثُ (أَكْبَرُهُما) = ٣٤٥ - ٩٥٠ = ٥٣٤٥ - ٩٥٠ م	
(٢١) رُدْمِيرُ الثَّالِثُ (خُلُعَ) (م ٩٨٥ - ٩٦٦ = ٥٣٧٥ - ٣٥٥)	(٢٢) بِرْمُودُهُ الثَّانِي = ٣٨٩ - ٩٨٢ = ٥٣٧٢ - ٩٩٩ م	
		(٢٣) أَذْفَنْشُ الْخَامِسُ (م ١٠٢٧ - ٩٩٩ = ٥٤١٨ - ٣٨٩)

كانت تقوم الى جانب « مملكة ليون » مملكتان اخرتان اصغر منها . ترددت علاقتهما - مع ليون ، وفيما بينها - من حرب وخصومة الى صفاء وتعاون . هاتان المملكتان ، هما : قشتالة ونافارا . وكانت هذه الممالك تقوم - على انفراد أو

متجمعة — بتحرشات ضد الأندلس ، بلغت أحياناً حداً كبيراً . ففي حُكْم أَرْدُون (الثاني *Ordoño II*) حدث مثل ذلك . ثم كان صراع في الإسرة المالكة في ليون ، انتهى بفوز أَذْفُنْش (الرابع) بن أَرْدُون (الثاني) وخلف أَذْفُنْش أخيه رُدْمِير (الثاني *Ramero II*) الذي وُصف بالقوة والشجاعة وقد حارب المسلمين بكل الوسائل ، وكانت معركة الخندق (٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م) أعلى صور هذا الصراع ، إذ أُصيب فيها المسلمون . ولدى وفاة رُدْمِير (الثاني) سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) قامت حرب أهلية بين ولديه : أَرْدُون (أَكْبَرُهُما) وشَانِجَهُ الذي اعتمد على عون أخواله البشَاكِسَة وجَدَّه الملكة طُوطَة (*Toda*) ، وصبة عرش نَبَارَة ، وملك قَشَّالَة . وهُزم شَانِجَهُ أمام أخيه أَرْدُون (الثالث) ، وخلف شَانِجَهُ (الأول) أخاه أَرْدُون (الثالث) عند وفاته سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) . وجرت أحداث بين شَانِجَهُ (الأول) وبين ابن عمه أَرْدُون (الرابع) المعروف بالرديء بن أَذْفُنْش (الرابع) ، انتهت بوفاة أَرْدُون . واستمر شَانِجَهُ (المعروف بالسمين) في الحكم حتى وفاته ، فخلفه ابنه رُدْمِير (الثالث) (٣٥٥ – ٣٧٥ هـ = ٩٦٦ – ٩٨٥ م) .
 تحرش رُدْمِير (الثالث) بالأندلس ، مُتَحِدًا مع قوات الشمال الإسباني . لكن المنصور بن أبي عامر (٣٧١ – ٣٩٢ هـ) واجهه وهزمه في موقعة شَنْت منكِش (*Simancas*) سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) . وخلع رُدْمِير (الثالث) عن الحكم وانفرد به ابن عمه بِرْمُودَه (الثاني *Vermudo II*)^(١) . وعند وفاته خلفه ابنه أَذْفُنْش (الخامس *Alfonso V*) الذي كان طفلاً فوضع تحت وصاية الأمير الجليلي مِنِينْدُو جِئْنَالَث (*Menendo Gonzalez*)^(٢) .

Historia de Espana, VI, Espana Cristiana, F. J. Perez de Urdel, 156.

(١)

(٢) انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٥٦٤/٢ ، ٥٩٨ – ٥٩٩ ؛ دول الطوائف ، ٣٧٧ ؟

Manual de historia de Espana, P. A. Bleye, I, 489.

قَسْتَالَة

تقع قَسْتَالَة بين : ليون ونَبَارَة . يحكمها زعيم محلي مقره بُرْغُش (Burgos) العاصمة ، خاضع لملك ليون . حصلت قَسْتَالَة على استقلالها منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . على يد فَرَّان غُنْصَالِص (Fernán Gonzalez ، ٩٧٠ م = ٣٥٩ هـ) ، خلفه ابنه غَرْسِيَّه (García Fernandez) ، وحكم حتى سنة ٩٩٥ (٣٨٩ هـ) . وورث هذا ابنه شَانْجَهُ غَرْسِيَّه (Samcho García) ، حاكماً حتى سنة ٤١٢ (١٠٢١ م) .

حُكَّام قَسْتَالَة

(١) فَرَّان غُنْصَالِص بن غُنْصَالِص نُونِيه (٩٧٠ م = ٣٥٩ هـ) حكم ٣٩ سنة ، عمل على استقلال قَسْتَالَة حوالي منتصف ق ٤ (١٠٢١ م)

(٢) غَرْسِيَّه فَرَّاندِس (٩٩٥ م = ٣٨٩ هـ)

(٣) شَانْجَهُ (٤١٢ م = ١٠٢١ هـ)

نَبَارَة (نافار)

تقع مملكة نَبَارَة في بلاد البِشْكُنْس ، وقادتها بِنْبُلُونَة ، وفي نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، بدأت محاولات الاستقلال عن أمراء ليون . من أمراء نَبَارَة المستقلين شَانْجَهُ ، الذي خلعه غَرْسِيَّه بن وَتَقْهُ (Garcia Iñiguez) أحد زعماء البِشْكُنْس . وخلف غَرْسِيَّه ابنه فُرْتُون (Fortun Garces) المعروف بالأنقر . وعُزُل وجاء مكانه شَانْجَهُ غَرْسِيَّه (الأول) (Sancho Garcés I ، ٩٢٦ م = ٣١٤ هـ) . وكان أول من تلقّب ملكاً من أمراء نَبَارَة ، وخاص مع المسلمين – في تحرشاته – عدة معارك ، وخلفه ابنه غَرْسِيَّه شَانْجَهُ (الأول) (Garcia Sanchez I) الذي حكم تحت وصاية أمه الملكة طُوطَه (Toda) ، ولعلها عمة الخليفة عبد الرحمن الناصر عن طريق الأمومة^(١) . توفي غَرْسِيَّه سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) ،

(١) راجع : أندلييات ، ١/٨٤ - ٨٦ .

فَخَلَفَهُ ابْنُهُ شَانِجُهُ غَرْسِيَّهُ (الثَّانِي) (أَبْرَكَهُ) (Sancho Garcés II, Abarca) الَّذِي تُوْفِيَ سَنَةُ ٣٨٥ هـ (٩٩٤ م). خَلَفَ شَانِجُهُ ابْنُهُ غَرْسِيَّهُ شَانِجُهُ (الثَّانِي) (García Sanchez II) . وَخَلَفَهُ عَنْدَ وَفَاتَهُ سَنَةُ ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) ابْنُهُ شَانِجُهُ غَرْسِيَّهُ (الثَّالِث) (Sancho Garcés III) ، الْمَلْقُوبُ بِهِ (الْكَبِيرُ) (El Mayor) ^(١).

حُكَّامُ نَبَارَةَ

(١) شَانِجُهُ (خَلُع) (حَوَالَ ٢٢١ = ٨٣٦ م)

مِنْ قِبَلِ :

(٢) غَرْسِيَّهُ بْنُ وَنَقْهُ أَرِيْسَتَا (قُتُلَ) (٢٤٨ هـ = ٨٦٢ م)

(٣) فَرْتُونُ الْأَنْقَرُ ، خَلَفَهُ :

(٤) شَانِجُهُ غَرْسِيَّهُ (الْأَوَّل) (٣١٤ هـ = ٩٠٥ م - ٢٩٣ هـ = ٩٢٦ م)

أُولُو حَاكم نَبَارَى حَمَلَ لِقَبَ « مَلِكٌ »

(٥) غَرْسِيَّهُ بْنُ شَانِجُهُ (الْأَوَّل) (٣١٤ هـ = ٩٢٦ م - ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م)

حَكْمٌ تَحْتَ وِصَايَةِ أُمِّهِ طُوْطَه

(٦) شَانِجُهُ غَرْسِيَّهُ (الثَّانِي) (أَبْرَكَهُ) (٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م - ٣٨٥ هـ = ٩٩٤ م)

(٧) غَرْسِيَّهُ شَانِجُهُ (الثَّانِي) (٣٨٥ هـ = ٩٩٤ م - ٣٩١ هـ = ١٠٠٠ م)

(٨) شَانِجُهُ غَرْسِيَّهُ (الثَّالِث) (الْكَبِيرُ) (٣٩١ هـ = ١٠٠٠ م - ٤٢٧ هـ = ١٠٣٥ م)
خَلْاصَةُ الْعَرْضِ السَّابِقِ لِلدوِيلَاتِ إِسْبَانِيَا الشَّمَالِيَّةِ - وَكَانَ وَجُودُهَا قَلِيقاً مَهْدِداً خَلَالَ عَهْدِيِّ الْإِمَارَةِ وَالْخَلَافَةِ - إِنَّهُ يَعْطِينَا فِكْرَةً عَنْهَا وَعَنْ عَلَاقَتِهَا فِيمَا بَيْنَهَا وَمَعَ الْأَنْدَلُسِ^(٢).

(١) انظر: *Manual de historia de Espana*, I, 499 ; *Historia de Espana*, VI, *Espana Cristiana*, 313

تَارِيخُ الْأَنْدَلُسِ ، ٧٥ (نَسَى بْنُ الْكَرْدِبُوس) ؛ الْبَيَانُ الْمَغْرِبِيُّ ، ٤/٤٥٠

(٢) راجِعُ تَفَاصِيلِ ذَلِكَ فِي : أَنْدَلُسِيَّاتِ ، ٣٩/٢ - ٥٦ ؛ دُوَلَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، ٢٠٧/١ - ٢٢٢ . ٣٥٣ - ٣٦٣

وكان تقويم الخصومة بين هذه التوبيفات وثورات المتنفذين فيها ، حماولين الاستقلال بمقاطعتهم .

وحين يشعر هؤلاء الحكام – أحياناً – بالقوة أو يظنون ضعف السلطة في الأندلس يقومون بتحرشاتهم^(١) ، ويقطعون المواثيق والمعاهدات السلمية مع الأندلس التي – عموماً – لم تنقض عهودها . وهكذا بقيت الأندلس تصدّ هذه المجموعات ، لكن الأحوال الداخلية للأندلس – مع غيرها – مكنت هذه الدول من مضايقة الأندلس واقطاع أراضيها . حتى انتهى الأمر أيام غرناطة بالقضاء عليها . ثم إبادة المسلمين بعد ذلك قمعاً ونقيراً وقتلاً وإفقاءً ، وكذلك الحكم بالإعدام على أهم ما باقى من إنتاجهم وما تأثراً لهم وأثارهم^(٢) .

رابعاً : خصائص عهد الإمارة وأحواله وأنجازاته

١ - خصائصه

يمثل عهد الولاة عهد انتقال إلى حال آخر في حياة جديدة قائمة على أسس إسلامية ، وقد بذل العديد من الولاة والملوك الجهود لتوفير هذه الحياة ومد رحابها وتهيئة الجو الملائم لها . وبذل زاد دخول الكثير من أبناء البلاد في الإسلام ، الذي به بدأت تسير في طريق التحضر الحقيقي الرفيع والخط الإنساني الكريم . ونتيجة للاستمرار في هذا الاتجاه وتعزيزه جعل الغرس يوثق ثماره مع تقدم الزمن ، وبذل كثير من هذه المظاهر تبرز في مدة الإمارة التي استمرت قرابة من قرنين ، وستنمس كثيراً من هذه الجوانب في دراستنا هذه .

خصائص هذا المجتمع المسلم بدأت تظهر تدريجياً ، واضحة جلية . لذا بدأ هذا المجتمع في عصره الإسلامي مُختلفاً تماماً عما قبله ، مع اشتراك العهود الأندلسية الإسلامية بالصفات المميزة لها عما قبل الفتح الإسلامي . ونجده في بعضها

(١) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ٥٩٨/٢ .

(٢) أندلسيات ، ١٦٨/٢ ، الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٣١ .

أموراً وينتخص بأمور معينة ، قد يكون عدد منها متعددة الجنور إلى ماسبقه أو لتحققه من العهود الإسلامية . وقد بدأ عهد الإمارة يعني ما غُرس أثناء عهد الولاة ، في جوانب التبدل الذي تمَّ نتيجةً للدخول هذا البلد رحابَ الإسلام . وهو ما شمل الجوانب الحضارية المتعددة والأنسانية كافة^(١) .

بدأ انتشار الإسلام واستمرار الانصواء تحت لوائه منذ دخول المسلمين هذه البلاد . كذلك كان نمو التنظيمات وتعميقها وشمولها ، بدا أكثر من ذي قبل واستمر . لكن الأندلس أصبح بلداً إسلامياً مستقلاً عن الخلافة الإسلامية^(٢) – بعد أن كان خاضعًا لمركز هذه الخلافة الإسلامية – مع بقائه أحدَ بلدان العالم الإسلامي . ذلك بعد قيام الدولة العباسية ، التي لم تتحاول جدياً إعادته . لأن استقلاله سباسياً بهذا الشكل – على ما يبدو – لا يمثل خطراً على الكيان الإسلامي . بل بقي يحمل رسالة الإسلام في الداخل والخارج ، ولا يدعو ذلك بالضرورة للخصومة والمواجهة . ويدرك المؤرخون محاولة عابرة – أو أكثر – لاعادة الأندلس إلى الخلافة الإسلامية ، لكنها لم تأت بشيء^(٣) . ومنذ توقي الداخلي حُكْمَ الأندلس سُمِّيَ حاكُمُها : أميراً ، وبه بدأ عهد الإمارة . وببدأت فيه دوبيالت إسبانيا الشمالية (النصرانية) تظهر تدريجياً ، وكان لها أثر في عدد من أحداث الأندلس . واستمر نموها حتى انتهى – لظروف معينة – إلى إزالة الحكم الإسلامي من الأندلس ، ثم بذل الجهد في القضاء على كل ما يتعلق بوجودهم .

نَمَت التنظيمات المختلفة – التي سبقت ملاحظتها – في عهد الولاة . لكن الرسوم والتنظيمات – رغم نموها – كانت تتبسيط . ووُجد منصب الحِجاجَة والوزارة ، كما ظهرت القوة الحربية البحرية وتقدمت التنظيمات العسكرية ، مع العناية بالشغور والأساطيل . وظهر في مختلف هذه الميادين التنظيمية رجالات اشتهروا بمقدرتهم^(٤) .

(١) انظر مثلاً : (العرب في إسبانيا ، ٣٨٠، وبعدها) *The Moors in Spain*, Lane-Poole, 44 ff

(٢) راجع : أعلاه ، ١٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٦٢ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٤) راجع : دولة الإسلام في الأندلس ، ١٩٧/١ ، ١٩٨ – ٢٧٤ ، ٣١١ .

تميز هذا العهد – وما تلاه – بالإنتاج في مختلف التواحي العلمية . ونمت العلوم وازدهر الميدان الثقافي وكثير الإنتاج فيه واتسع نطاق التعليم ، وزاد الاهتمام بالكتب والمكتبات في أنحاء الأندلس كافة ، وشَمَلَتْ كلا الجنسين ، وغدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي .

وكان العمران أحد الجوانب الحضارية التي أُولِّتها النهضة العامة في الأندلس عنايتها . فوصلت الأندلس – فيه وفي غيره ، لهذا العهد – قمةً عالية . وقام العمران على أساس هندسية وفنية غاية في الدقة والنوع والأناقة . ولم يشمل هذا المنشآت العامة والطرق فقط بل كثيراً من المنشآت الخاصة ، كالدور والقصور والحمامات وغيرها . كانت العناية ^١ موجهةً إلى المرافق كافة ، فشَمَلَتْ بعض المدن ، على منافذ أو ثغور ، ونلاحظ ذلك بعد غزو المجروس الأول للأندلس سنة ٢٣٠ هـ ٨٤٥ م^(١) . كذلك أنشأت مدن وأقيمت تخصيصات دور لصناعة السفن . كما أنشأت مراافق عامة في داخل المدن وحدائق ومساجد .

أنشأ عبد الرحمن الداخل في قُرطُبة داراً للسُكَّة ، تُضرب فيها النقود . وكان موسى أول من سَكَّ النقود الإسلامية في الأندلس^(٢) . لكن بمرور الزمن تقدمت أنظمة السُكَّة .

أما قنطرة قُرطُبة الشهيرة التي بناها السَّمْعُونِي مالك الحَوْلَاني على الوادي الكبير^(٣) فقد جددَها هِشَامُ الأول الذي قام بإنشاءات أخرى ، وكان هِشَام يُشرف على إصلاح هذه القنطرة بنفسه^(٤) .

من أبرز المنشآت العمرانية العامة مسجدُ قُرطُبة الجامع . ابتدأ بناءه عبدُ الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (٨٧٦ م) . وقد وسَعَه وأتمَّه من جاء بعده^(٥) .

(١) أعلاه ، ٢٣٤-٢٣٥ .

(٢) أعلاه ، ٨٥ .

(٣) أعلاه ، ١٤٢-١٤٣ .

(٤) البيان المغرب ، ٦٦/٢ . كذلك : نفح الطيب ، ٣٣٨/١ ؛ أدناه ، ٢٨٥ .

(٥) راجع : دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٢٧٨ ، ٢٢٨ ، ٢٠٠ ؛ أندلسيات ، ١٥٧/٢-١٦٢ .

وتتوفر في هذه المدة الأمان والرخاء ، لولا ما يعكر ذلك من الاحاديث الداخلية التي كانت محلية محدودة – كانت مرهقة للأندلس ، أحياناً – وكذلك تحرشات إسبانيا الشمالية والفرنجة .

قامت – طوال هذا العهد – علاقات دبلوماسية مع عدد من الدول ، في أوروبا وغيرها . بعد أن ظهرت هيبة الدولة في الأندلس ووضحت قوتها وعلّت مكانتها ، وحرّقت هذه الدول ، شديد الحرص ، على صداقة الأندلس وإقامة علاقات ودية معها ؛ لذلك وجّهت إلى الأندلس سفارات كثيرة^(١) .

ووُجِدَ تبادل ثقافي ، سواء في المؤلفات أو في العلماء ، بين الأندلس والبلدان الإسلامية . كما كانت الأندلسُ المنبع الدائم للتراث والمجتمع الواسع المقصود ، يمنحك القائم فيه الشمس الدائمة والظل الممدود ، ويُكسب الإنسانية والعلم النافع في أروقه الفسيحة المنيرة . كان على استعداد لاستقبال القادمين الراغبين في خيره من كل مكان ، وهو للأئحة أوسع وأرحب وأبر وأكرم ، لهذا اتجه الكثير من العلماء المشارقة إلى الأندلس كما اتجه عدد من الأندلسيين إلى الشرق الإسلامي . ويتنازع هذا العصر – بعد نمو وتطور العلوم – بالإبتكارات في مختلف الميادين ، ومائل غيره من موقع وبقاع العالم الإسلامي المتبد المديد .

٢ - أحواله

رأينا كيف استمرت الأندلس – خلال هذا العهد – في تقدمها وتحسين أحوالها ، على أسس جديدة تسجم بالشريعة الإسلامية في العمق والشمول ، عموماً . ونمّت الجوانب كافة وأثمرت تلك الجهود في إيجاد مجتمع جديد زالت فيه الأحوال السيئة التي كانت قبل الفتح الإسلامي للأندلس ، وعيقَ الإسلامُ عِطْرَاً بحياة هذا البلد ، وتدارس الناس هذا الدين ، ونمّت دراسته وعلومه وزادَ الاهتمامُ بها .

كان أهل الأندلس – بادئ الأمر – على مذهب الإمام الأوزاعي . والأوزاعي هو : أبو عمّرو عبد الرحمن بن عَمْرُونَ بن يُحْمِدَ الأوزاعي الفقيه (بَعْلَبَكُ ، ٨٨)

(١) راجع : أندلسيات ، ٤٥/١ .

بيروت ، صفر ١٥٧ هـ^(١) ، « كان رأساً في العلم والعمل ، جمّ المناقب . ومع علمه كان بارعاً في الكتابة والترسل . »^(٢)

وظهر عدة علماء في الأندلس على نهج الأوزاعي في الفقه . منهم أبو عبد الله صعصعة بن سلام الشامي الأندلسي (١٩٢ هـ^(٣) أو ٢٠٢ هـ^(٤)) ، تلميذ الأوزاعي ، الذي « كانت الفتيا دائرة عليه بالأندلس أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصدرأ من أيام هشام بن عبد الرحمن . وولى الصلاة بقرطبة ، وفي أيامه غرست الشجر في المسجد الجامع . »^(٥)

انتفع بعمله وتتلمذَ على يديه عِدَّة ، وروى عنه الكثير ، أمثال : عبد الملك ابن حبيب السُّلْمَيِّ (٢٣٨ هـ^(٦)) وعثمان بن أبيوب (٢٤٦ هـ^(٧)) وأبو مروان عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق بن عبيدة الله بن رافع بن أبي رافع مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف زونان (٢٣٢ هـ^(٨)) و« كان مُفْتِيَّا في أيام هشام بن عبد الرحمن وأيام عبد الرحمن بن الحكم ، وله رحلة »^(٩) .

ثم أخذ أهل الأندلس يتفقّهون على مذهب الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس الاصبّحِي المدائني بن مالك (٩٥ - المدينة المنورة ، ١٧٩ هـ^(١٠)) ، « إمام دار الهجرة وفقه الأمة »^(١١) منذ أيام الأمير هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ^(١٢)) بن عبد الرحمن الداخل .

يذكر المقرئ في نفح الطيب أن أبي عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي (٢٠٤ هـ أو قبلها) ، المعروف بـ « شَبَّاطُون » « كان فقيه الأندلس

(١) وفيات الأعيان ، ١٢٧/٣ .

(٢) العبر ، النهبي ، ٢٢٧/١ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١ ٢٠٤/١ (رقم : ٦١٠) ; العبر ، النهبي ، ٣٠٩/١ .

(٤) المغرب ، ٤٤/١ .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٠٣/١ (رقم : ٦١٠) . كذلك : جنوة المقتبس ، ٢٤٤ (رقم : ٥١٠) .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٠٣/١ (رقم : ٦١٠) ، ٢٦٩/١ (رقم : ٨١٦) .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٠٣/١ ، ٢٠٢ ، ٣٠٢ (رقم : ٨٨٩) .

(٨) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٦٩/١ (رقم : ٨١٥) .

(٩) العبر ، النهبي ، ٢٧٢/١ ؛ وفيات الأعيان ، ١٣٥/٤ .

على مذهب مالك ، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس ، وكان قبله يتفقون على مذهب الأوزاعي^(١) ، « وهو أول من أدخل موطناً مالك إلى الأندلس مُكملًا مُتلقنًا ، فأخذته عنه يحيى بن يحيى^(٢) ». ويحيى بن يحيى البيسي (قرطبة ، ٢٣٤ هـ) هو الفقيه المحدث الواسع الشهرة . ولقد ذكر عن محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (٣٣٠ هـ) أنه كان يقول : « عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيى بن يحيى عاقلها ، وعيسي بن دينار فقيهها ». (٣) وكان ابن لبابة هذا « حافظاً لفقهه على مذهب مالك وأصحابه ، عالماً بعقد الشروط ، بصيراً بعلمه واستقضاء الإمام الناصر على السيرة ، ثم عزّله وولاه في آخر عمره الوثائق ». (٤)

رحل أيام هشام بعض الأندلسيين ، من أنظار شبطون ، إلى الحج والعقوبة بالإمام مالك « فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلاة قدره ما عظم به صيته بالأندلس ، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس ، وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون ». (٥) واعتبر ابن الفراتي (٤٠٣ هـ) عبد الله بن محمد ابن خالد بن مرتبيل (٢٥٦ هـ) « رئيس المالكية بالأندلس والقائم بها الذاب عنها ». (٦)

ولما خلف الحكم^(٧) (٢٠٦ هـ) أبا هشاما (١٨٠ هـ) غدا المكان الأول لفقهه في الأندلس على مذهب الإمام مالك . وحتى الآن ما تزال بلدان الشمال الإفريقي كذلك . « واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي ، وأهل الشام منذ أول الفتح ، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل – وهو ثالث الولاية بالأندلس من الأميين – انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً ، بل والمغرب ، وذلك

(١) نفح الطيب ، ٤٥/٢ . (٢) نفح الطيب ، ٤٦/٢ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٧١/١ (رقم : ٨١٦) ، كذلك : ١٨٠/٢ (رقم : ١٥٥٦) ؛
نفح الطيب ، ٧/٢ ، ٩ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٥١/٢ (رقم : ١٢٢١) . كذلك : أعلاه ، ١٦٨ .

(٥) نفح الطيب ، ٤٦/٢ . راجع كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ٣٤٥/١ (رقم : ١٠١٥) .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ٢١٣/١ (رقم : ٦٣٥) .

برأي الحكم و اختياره ^(١) . كانت لذلك أسباب ^(٢) .

وتتوفر ترَاجِمُ الكثير من علماء المالكية في الكتب المعنية بذلك ، وللقاضي عياض (٥٤٤) كتاب كبير في هذا الموضوع ، وهو : ترتيب المدارك و تقويب المسالك معرفة أعلام مذهب مالك .

ووجِد كذلك في الأندلس مَنْ أخذ بالفقه الشافعي ، وأيضاً الفقه الظاهري ، الذي يُعتبر ابن حَزْمَ القرطبي (٤٥٦) مِنْ كبار علمائه . وآخرون ، جَمَعوا وانتفعوا بالفقه عموماً .

يذكر المَقْرَرِي في نفح الطيب ، حين الحديث عن تَدَيْنِ أهل الأندلس ، فيصفهم بأن « الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان » ^(٣) . ويُسرد بعد ذلك أموراً كثيرة تتعلق بأحوال أهل الأندلس . ويتحدث عما يتعلّق بالعلم ، وتجيد الرغبة الأصلية في طلب العلم وشغفهم به . ويتحدث عن أمور أخرى طريقة ، فيذكر مثلاً امتناع التسُؤل في الأندلس ، وعن أزياء أهله وأسلحتهم وعنايّتهم بالنظافة فيما يلبّسون وبِفَرُشُونَ وغير ذلك من العادات والمظاهر ^(٤) .

عناصر المجتمع

لعلَّ من المناسب هنا التحدث عن عناصر المجتمع الأندلسي . فهم بصورة رئيسية : المسلمين وغير المسلمين . فالمسلمون منهم : المسلمين الأوائل الفاتحون أو من جاء خلال عمليات الفتح ، وهم من المسلمين ، العرب والبربر وغيرهم . ثم الذين دخلوا الإسلام مِنْ أهل البلاد الأصليين ويمثلون أكثرية المسلمين . وقد أطلق

(١) نفح الطيب ، ٢٣٠/٣ . كذلك : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، ١٣٤/١ . قارن : نفح ، ٥٥٦/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٢٠/٣ ، ١٠/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٢٠/١ .

(٤) انظر : كذلك الإحاطة ، ١٣٤/١ .

بعدها المؤرخون على الذين دخلوا الإسلام من الإسبان : «**الاسالمة**»^(١) أو «**المسلمة**»^(٢) وعلى أبنائهم «**المولدون**»^(٣). ولعل بعضها استعمالات غير مبكرة ، جَدَّت فيما بعد . ثم الصقالبة وهم الذين كان يُؤْتَى بهم من مختلف البلاد الإفرنجية أطفالاً ، ذكوراً وإناثاً . فتعهدت الدولة برعايتهم ، وينشأون نشأة إسلامية برعاية الدولة . وقد كان لهم دور في بعض الأحداث . والحاكم الأول الرَّبَّضي (٤) أول من أكثر استعمالهم^(٥)

أما غير المسلمين : منهم الأقلية التي تتكون من اليهود والنصارى بصورة كليلة أو غالبة ، وأطلق عليهم : **المعاهدون** (**المعاهدة**) أو **أهل الدّمّة**^(٦) . اخترط هؤلاء بالمجتمع الأندلسي . وبعضهم الذين قبلوا اللغة العربية لغةً لهم وتبنوا بعض العادات الإسلامية عادةً سُمُّوا بـ «**المُسْتَعِرِّبون**» (Los Mozarabes) . كان غير المسلمين يتمتعون بنعمة الإنصاف والسياسة العادلة ، وكُفِّلت حقوقهم ، وضمنت حرياتهم . وقد تحدث عن هذا الأمر المؤرخون الأوروبيون ومن كان منهم متحالماً^(٧) . والعدل والإنصاف لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي واضح من التعاليم والوصايا الإسلامية وثبت من الأحداث التاريخية . لا ينكرها إلا جانب للصواب مهملاً للثابت من التاريخ ، مبتعد عن الروح العلمية ، رافض للأسلوب المنهجي السليم ، والمصادر متوافة^(٨) .

(١) انظر : المقبس ، ١٥/٢ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ٩٦ ؛ نقط العروس ، ٢/١٣٠ ، ٧٣/٢ ؛ أعلاه ، ١٦٣ .

(٢) انظر : ترتيب المدارك ، ٣-٤/٦٤٢ ، ١٤٩/١ ؛ الحلة السيراء ، ١٤٩/١ ؛ التكملة ، ١٣٨/١ (رقم :

٥٢٣) ٧٣١/٢ (رقم : ١٨٤٨) ؛ أعلاه ، ١٦٣ ، ١٦٦ .

(٣) أعلاه ، ١٦٣ .

(٤) دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ ؛ الصقالبة في إسبانيا ، أحمد مختار العبادي ، ٨ وبعدها .

(٥) انظر : الاحاطة ، ١٠٦/١ ، ١٠٨ ؛ أدناه ، الفصل السادس . كذلك :

Muslim colonies , 216 (٢٩٢-٢٩١) . (تاريخ غزوات ، ٢٩١-٢٩٢) .

(٦) انظر مثلاً : (تاريخ غزوات ، ١٥٦ ، ٢٨٨ - ٢٩١) (Muslim colonies , 87 , 208 ff) . *Histoire* , I , 232 - 3 , III , 224 (Sp. tr. , IV , 153 , V , 124-5) .

(٧) راجع : الاحاطة ، ١٠٦/١ ؛ دولة الإسلام ، ٩٨/١ ، ٢٣٨ ، ٢٦٩ ، ٣١٥ ؛ أندلسيات ، =

٣ - إنجازاته

تُمَكِّنَت إنجازات كثيرة في هذا العهد أولها هذه الحياة الجديدة ، والاستمرار فيها ، التي كانت نتيجة لوصول المد الإسلامي لهذا البلد ودخول أهله فيه . وفيما ذُكر من التنظيمات والأساليب الجديدة بيان لبعضها ، ويُشير إلى ما قامت به الدولة والمسؤولون ، والاستمرار بكلفة التنظيمات والتربيات والحياة الإنسانية ومظاهر الحضارة ، كل ذلك إنجاز رائع ، بقي مستمراً ، بعد هذه المدة . شارك فيه المجتمع بكليته ، حاكم ومحكوم ، عالم ومتعلم ، قائد وسائر في الطريق يرجو هدفه ويخدم أمته ومجتمعه.

شَمَلَتِ الإنجازاتُ والأعمالُ النواحيَ كافة . في العمران ذُكر ما تمَّ من إنشاء المساجد ، لا سيما مسجد قُرطُبة الجامع والمساجد الأخرى في مدن عديدة . ثم الإنشاءات المتعلقة بالقوة العسكرية كالأساطيل وإقامة دور صناعة السفن ، التي كان يَعْمَلُ فيها العمال والفنانون والمهنَّة ، وقد خُصصَت لهم الرواتب العالية ، وجُلِّبَ لصناعة السفن أجود أنواع الخشب كخشب الصنوبر الطُّرْطُوشِي الشهور ، نسبة إلى مدينة طُرْطُوشة^(١) . كما انشأت الحصون والأسوار^(٢) ، وارتقت التنظيمات العسكرية . وعمرت المدن بما تمَّ فيها من رصف الشوارع وإناراتها ، وبما قامت فيها من إنشاءات غير رسمية ، وتحمَّلت بالخدائق الفناء وجلَّبت إليها الأزهار والنباتات المختلفة ، لا سيما العاصمة .

واستمرت العناية بقُنطرة قُرطُبة العظيمة ، التي بناها السَّمِّعُونَ بن مالك الخَوَلَاني^(٣) فأصلحَتْ ورمَّمتْ مرات^(٤) . ومن طريف ما يُروى في ذلك أنه لما جَدَّدَ الأميرُ

= ١٩٢ - ٣٦ ؛ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٢٤ ؛ أعلاه ، ١٣٨ ؛ الحاشية السابقة ؛
Andalusian, 55 - 60 ; The Moors in Spain, 83 . (العرب في إسبانيا ، ٧٢)

(١) أدناه ، ٢٥٣ . كذلك ، 165 . Andalusian , 165 .

(٢) أعلاه ، ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) فتح الطيب ، ٢٣٥/١ ، ٣٣٨ ، ٤٨٠ ، ١٥/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ ، أعلاه ، ١٤٢ - ١٤٣ .

(٤) فتح الطيب ، ٣٣٨/١ ، ٤٠٨ ، ٤٦٠ ، ٥٥٩ ؛ البيان المغرب ، ٦٦/٢ ، ٢٨٨ ؛ المتبين

(بيروت) ، ٦٥ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ١٩٧/١ - ٢٠١ .

هِشَام (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بن عبد الرحمن الداخل القنطري وأشرف على العمل بنفسه سمع تقول البعض : إنه بناها لأموره الخاصة ، فأقسم الأمير هِشَام ألا يَعْبُرَ عليها إلا للجهاد أو لمصلحة عامة^(١) .

وفي ميدان الزراعة : جُلِّبت إلى الأندلس الغُرُوس والبُنُور المتنوعة^(٢) ، وتقدمت وسائل الري ، وأجريت المياه بواسطة طرق فنية وبالقنوات وكذلك بالنسبة لمياه الشرب^(٣) .

وفي النواحي العلمية والثقافية كان نشأة العلوم وانتعاشها مبكراً ، وقد ذكر المقرري في نفح الطيب شغف الأندلسيين واهتمامهم بالنواحي العلمية والثقافية^(٤) . ونجد في رسالة ابن حزم القرطبي (٤٥٦ هـ) وتذيل ابن سعيد الأندلسي (٦٨٠ هـ) عليها ذكراً لكثير من المؤلفين ومؤلفاتهم^(٥) .

ويذكر عباس بن فرناس المعروف باختراعاته وإلمامه بالعلوم والمشهور بمحاولة الطيران التي ذهب صحيحتها . عاش في القرن الثاني - الثالث الهجري (الثامن - التاسع الميلادي)^(٦) . وكان أولَ من استنبط بالأندلس صناعة الرجاج من الحجارة « وَعَمِيلَ الْمِيقَاتَ لِعِرْفَةِ الْأَوْقَاتِ »^(٧) .

وشاع التعليم في هذا العهد وما بعده في أنحاء الأندلس ، وأصبح عاماً ، وشمل الذكور والإإناث ، كما شمل كافة النواحي ، وعممت المدارس أو معاهد التعليم ومؤسساته الأندلسية . منها ما كان تقوم به الدولة وتنفق عليه ومنه التعليم الحر . كانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتفاهم عند المسلمين ، بصورة رئيسية .

(١) نفح الطيب ، ١/٣٣٨ ؛ البيان المغرب ، ٦٦/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٢/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١/١ ، ٤٦٩ - ٥٤٦ ، ٥٤/٣ ، ٦٠/٢ ؛ البيان المغرب ، ٦٦٩ - ٦٧٠ ؛ الحلقة السيراء ، ٣٧/١ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٩ - ٦٧٠ .

(٣) العبر ، ٤/٣١٢ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٢٠٠ .

(٤) نفح الطيب ، ١/٢٢٠ - ٢٢٢ ، ٣٧٣/٣ . كذلك : الحلقة السنديدة ، ١/٢٥٤ - ٢٥٦ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/١٥٦ - ١٨٦ .

(٦) راجع : نفح الطيب ، ٣/٣٧٤ ؛ الخصارة الإسلامية في الأندلس ، ٥٢ .

(٧) المغرب في حل المغرب ، ١/٣٣٣ .

ويُذكر أن هشاماً الأول (١٨٠ هـ) اتخذ إجراءً مهماً «إذ جعلت اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود. وكان لذلك الأجراء، بالرغم من بساطته، أثر عميق في التقرير بين أصحاب المذاهب المختلفة. وفي بث روح التفاهم والوئام بينها، ولا سيما بين المسلمين والنصارى وكان من أثره أيضاً أن كثراً اعتنوا النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أحواله وتفاصيله»^(١).

كانت هذه الإنجازات وغيرها نتيجة لدخول هذا البلد رحاب الإسلام. وكان خيراً إنجاز هو تحرير الإنسان من العبودية، تحرير نفسه وتحرير رأسه وتعزيزه لله رب العالمين.

مع شمول الرقي في الميادين الحياتية المختلفة، ونخص جانباً آخر هو تحقيق كرامة الإنسان، وهذا يتمثل في خلق المجتمع وعاداته ومعاملاته. كذلك في القضاء الذي يَقْرِيءَ مستقلاً نزيهاً، وتلك سُنة القضاء في تاريخ الإسلام الطويل^(٢). وكان للقضاء في الأندلس موافق - حتى مع الحكام - تدل على تمسكهم بالحق، وعدم خوفهم في الله لومة لام. وظهر في هذا الميدان قضاة كثيرون^(٣).

وظهر أعلام في كل الميادين العلمية والسياسية والإدارية والعسكرية. ستذكر أمثلة منها في موضوعات تالية، وسيلحوظ كيف غدت الأندلس مصدر إشعاع أساسي للبلدان المجاورة التي كانت تستظل رُكام دُجنةٍ تَنَعَّمُ بها في تيهٍ وحرمانٍ تام.

اتبعَت السلطة الأندلسية سياسةً رشيدةً مع الرعية، قائمةً على أصول إسلامية عموماً. من سياسة العدل والرفق بالرعية واتباع الإنصاف مع غير المسلمين. وكان الحكام يَخْضَعون لهذا التشريع، وقد ذكر المؤرخون لذلك الأمثلة^(٤).

(١) دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٢٩/١ .

(٢) انظر : بحث «القضاء ودراسته في الأندلس» ، مجلة كلية الإمام الأعظم ، ١٨٩/١ وبعدها.

(٣) نفح الطيب ، ٥٧٠/١ . وموضوع القضاء في الأندلس بحاجة إلى بحث مستقل وعميق.

(٤) نفح الطيب ، ٢١٩/١ - ٢٢٠ .

ومع ذلك كانت هناك بعض الأحداث وقامت بعض المخالفات المحلية ، أثّرت في برامج الإصلاح وربما في نمو دول الشمال . هذه وتلك كان لها أثر في إيقاف وتعويق أعمال الجهاد فيما وراء الْبُرْت .

خامسًا: السياسة الخارجية

كانت السياسة الخارجية العامة — لهذا العهد ، وما يليه — سياسة عدم اعتداء والالتزام بالعقود والمواثيق ، وهي من صبغة السياسة الإسلامية دَوْمًا ، إلا أن نشاط الفتح والجهاد غنِّدًا ضئيلاً في هذه المدة . وكانت أعمال الجهاد وراء الْبُرْت — لأكثر من سبب — قليلة في هذا العهد . لكن بعض مصادرنا التاريخية تذكّر مثالاً أو أكثر بحاجة إلى تمحیص^(١) . قام هِشَامُ الأوَّل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) وأمراء آخرون بعمليات جهادية غير قليلة في أكثر من مكان^(٢) . ويبدو أنَّ كثيراً منها كان لرد هجوم أو عمليات تأديب ، وليس جهاداً لفتح جديد مُقْبِل ، وكانت تنتهي بابرام اتفاق مُعيَّن مع دوليات إسبانيا النصرانية التي طالما كانت على استعداد لفضله . هذا فيما يتعلق بدول مجاورة مثل إسبانيا الشمالية والفرنّج . وقد اتّبَعَت الأنْدَلُسُ — مع هذه الدول وغيرها ، البعيدة أيضاً — سياسة قَبُول عُروض الصداقة وإبداء التعاون والمعاونة والمحافظة على ذلك والوفاء به . وهو أمر يُلحظ بوضوح حين الحديث عن الجانب السياسي والدبلوماسي في الخضارة .

كثُرت الوفود السفّارِيَّة — في هذا العهد ، وما يليه — من الدول المختلفة . وبعضها كانت برئاسة حاكم البلد أو رئيس الدولة المُرسِّلة . وكان دَيْدَانُ أهل الأنْدَلُس إكرام هذه الوفود وإحسان الاستجابة لمطالباتها .

وبالإمكان تقسيم السياسة الخارجية للأندلس قسمين : مع العالم الإسلامي ، ومع العالم غير الإسلامي .

(١) أعلاه ، ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) أعلاه ، ٢٤٤ وبعدها .

١ - مع العالم الإسلامي

قامت السياسةُ الخارجية للأندلس على أساس الارتباط بهذا العالم ؛ رغم ما كان من الحفوة بين السلطة الأندلسية وغيرها من السلطة (أو السلطات) الإسلامية. واستمرت الصلات الأخرى والسفر من وإلى تلك البلدان قائمةً دائمًا. وقد سبق ذكرًا انقطاع الأندلس سياسياً عن الخلافة الإسلامية (العباسية)، منذ وصول الداخل إليه^(١). ولم تقم محاولات جادة لإيجابية مِن قِبَل الخلافة لإعادة الأندلس لسلطانها^(٢). ذلك بسبب خضوع كليهما وارتباطه بعقيدة الإسلام الواحدة. ولعل بعد الأندلس علاقةً مَّا، وأن ذلك سيكلف أحدهما وخسارة للطرفين مما لا داعي لها.

لا يجد وجود "معاهدة ثنائية مُزدوجة" : بين الدولة العباسية ودولة الفتنجية من جهة ضد الدولة الأندلسية والبيزنطية من جهة أخرى^(٣). لكن هذا لا يعني قيام نوع مَا من العلاقات بين بعض من هذه الدول ، كتلك التي كانت بين الأندلس ودولة بيزنطية^(٤).

كما لم يَقُمْ نشاطٌ سياسي ملحوظ في العلاقات الودية بين هذه السلطات الإسلامية ، كذلك لم نجد بينها مواجهات ، إلا ما ندر. كذلك المحاولة التي قام بها العلاء بن المغيث البصري (الحدامي) ، بتأييد أبي جعفر المنصور بالعصيان في الأندلس ضد الداخل سنة ١٤٦ هـ^(٥). في حين قامت أحياناً علاقات طيبة مع سلطة الشمال الإفريقي في دول استقلت ، كالدولة الرستمية^(٦).

(١) أعلاه ، ١٣٥ - ٢٤٠ . ٢٧٨٦٢٦٢٦٢٤٠ .

(٢) أعلاه ، ٢٤٠ - ٢٤١ . ٢٤١ - ٢٤٠ .

(٣) راجع : « المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٥٧/١٤ .

(٤) راجع بحثاً لكاتب هذه السطور تحت الطبع : « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطية حتى نهاية القرن الرابع الهجري ». مجلة المهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد التاسع عشر ، ١٩٧٦ . كذلك : الإسلام في المغرب والأندلس ، ليغى بروفنسال ، ٩٢ .

(٥) أعلاه ، ٢٤١ .

(٦) راجع : « دولة الرستميين أصحاب تأهرت » ، محمد بن تاويت التطوانى ، صحيفـة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١١٦/٥ .

وقد رَحَبَتْ السلطة الأندلسية بكل ذلك وبكل قادِمٍ من الشمال الإفريقي ومن الشرق الإسلامي ، واحتفلت بالأعلام القادمين من هناك ، في استقبالهم وإكرامهم . كما حدث مع زرِّياب الذي قدم من بغداد إلى قُرطُبة أيام عبد الرحمن الأول (١) .

٢ - مع العالم غير الإسلامي

رَحَبَتْ الأندلس بكل حُسْنٍ علَاقَة ، سياسةً عامَّةً نحو هذه الدول : المجاورة منها والبعيدة . لكن حدَثَ مع الدول المجاورة مواجهاتٌ عسكرية ، لاسيما مع دوليات إسبانيا الشمالية ، التي إذ اتبَعَتْ سياسة الاعتداء والتعرُش كلما وجَدَتْ بذلك مجالاً ، حتى حين تقوم معاهدةٌ وبين الطرفين . بل كانوا يُثِرونَ (٢) ويُشَجِّعونَ كلَّ عاصٍ أو مخالف ، أو يُؤْونَه (٣) . قامت الأندلسُ أحياناً بتأييد ثائر أو مساعدته ، ربما ردَّاً على هذا أو حين تكون حالة حربٍ . وللأندلس أحداثٌ قليلة في فعلها ، لكن إسبانيا الشمالية أمثلةً عليها كثيرة (٤) .

كان كثير من النصارى : خارج نطاق السلطات النصرانية في الشمال ، يرتادون الأندلس ويَسْكُنُونَ أماكن منه . عدا النصارى الذين يَسْكُنُونَ في المجتمع الأندلسي . في حين نَفَّت السلطات الإسبانية – في الشمال – المسلمين الساكِنِين هناك أو قَمَعَتْهُمْ وفتحت الأندلس أبوابها للقادمين من إسبانيا النصرانية . طلباً للعلم والخير والسلم ، ولاقوُوا منها الترحيب (٥) . بل إن السلطات الأندلسية لم تمانع من المصاهرات مع إسبانيا الشمالية نفسها ، حتى الحكام (٦) . وقد أصرَّتْ – أحياناً – مثلُ هذه الخطوة . وكانت سياسةً دولة الفِرَنْجَة عدائِيةً – وأحياناً ، لضرورة أو خطورة – ودَيَّة . وهي شبيهة من بعض التواهي بسياسة إسبانيا النصرانية .

(١) نفح الطيب ، ١٢٥/٣ ؛ تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ٢٩ .

(٢) راجع : 113 Muslim colonies , Reinaud, (تاريخ غزوات العرب ، ١٩٢) .

(٣) انظر : أندلسيات ، ١٠٨/٢ ؛ ١٠٨/٢ ، ١٠٠ Andalusian diplomatic relations .

(٤) انظر : أندلسيات ، ٢ ، ٤٥/٢ .

(٥) الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٣٥ - ٤٩ ، ٣٥ - ٥٠ .

(٦) أندلسيات ، ٧٥/١ ، ٨٦ - ٧٥ .

وَمَرَّتْ مُدَّدْ تَبَادَلَتْ فِيهَا دُولَةُ الْفَرَنْجَةِ وَإِسْبَانِيَا الشَّمَالِيَّةُ مَعَ الْأَنْدَلُسِ السَّفَارَاتِ وَالزَّيَارَاتِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقُودُ رَئِيسُ الدُّولَةِ وَفَدَّهَا الْقَادِمَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَلَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ مَعَ الْأَنْدَلُسِ .

لَمْ تَمْ مَعَ الدُّولَ الْبَعِيْدَةِ مُواجهَةً مُباشِرَةً ، وَأَتَتْ مِنْهَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ – فِي الْمَنَاسِبَاتِ أَوِ الضرُورَاتِ – سَفَارَاتٌ ، حِيثُ تَعُودَتْ أَخْذَ زِمَامَ الْمُبَادَرَةِ ، وَتَمَهَّدَتْ طُرُقُ الْأَنْدَلُسِ وَتَعْبَدَتْ دُورُبُهَا وَاتَّسَعَتْ بَسَائِطُهَا لِهُؤُلَاءِ الْقَادِمِينَ ، تُكْرِمُهُمْ غَايَةً إِلَكَرَامِ وَتُلَبِّيَ الْمُكِيْنَ مِنْ مَطَالِبِهِمْ ، وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ^(١) .

هَكَذَا كَانَتْ سِيَاسَةُ الْأَنْدَلُسِ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ : اتَّسَمَّتْ – مَعَ قَلَةِ نَشَاطِ الْفَتْحِ – بِاعْتِمَادِ دُلُومِ الْاعْتِدَاءِ ، بَلْ وَاحْتِرَامِ لِلْعَهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ وَالصَّدَاقَاتِ ، مَعَ إِكْرَامِهِمْ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى التَّزَامَاتِ . وَذَلِكَ غَيْرِ مَا أَلْفَنَاهُ عَمَوْمًا لِدِي الْآخَرِينَ فِي الْقَارَةِ الْأُورَوبِيَّةِ ،



(١) أَنْدَلُسِيَّاتِ ، ٦٥/١ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٢٦/٢ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ٢٢٦/١ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ - ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٤ .

قائمة لأمراء وخلفاء الأندلس

هذه قائمة بأسماء حكام الأندلس في عهْدَي الإمارة والخِلافة ، مع سنوات حكم كل منهم :

(١) عبد الرحمن الأول (الداخل) بن معاوية بن هشام بن عبد الملك

حُكْمُهُ : ثلث وثلاثون سنة وأربعة أشهر ونصف

(١٣٨ - ١٧٢ هـ = ٧٥٥ - ٧٨٨ م)

(٢) هشام الأول (المُرْتَضَى)

حُكْمُهُ : سبع سنين وتسعة أشهر وأيام

(١٧٢ - ١٨٠ هـ = ٧٩٦ - ٨٨٨ م)

(٣) الحكم الأول (الرَّبَّضِي)

حُكْمُهُ : ست وعشرون سنة وأحد عشر شهراً

(١٨٠ - ٢٠٦ هـ = ٨٢٢ - ٩٦٢ م)

(٤) عبد الرحمن الثاني (الأوسط)

حُكْمُهُ : إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وأيام

(٢٠٦ - ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ - ١٠٦ م)

(٥) محمد الأول

حُكْمُهُ : أربع وثلاثون سنة وعشرة أشهر وأيام

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ م)

(٦) المنذر عبد الله

حُكْمُهُ : ستان غير أيام حُكْمُهُ : خمس وعشرون سنة ونصف شهر

(٢٧٣ - ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م) (٩١٢ - ٨٨٨ هـ = ٣٠٠ م)

تولى الحُكمَ بعدَ حُفيَدٍ ، إذ لم يحكم ابنه :

محمد (والد الناصر ، حفيض الأمير عبد الله)

(٨) عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

حُكْمُهُ : نصف قرن ونصف سنة وأيام

(٣٠٠ - ٩١٢ هـ = ٣٥٠ م)

(٩) الحَكَمُ الثاني (المُسْتَنْصَر بِالله)

حُكْمُهُ : خمس عشرة سنة وسبعة أشهر

(٣٥٠ - ٩٦١ هـ = ٣٦٦ م)

(١٠) هِشَامُ الثاني (المُؤْيَدُ بِالله)

(تُوفِيَ حوالي سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م)



الفصل الرابع

سُكْنَى الْخِلَافَةِ

(١٠٠٩ - ٩٢٩ هـ)

أولاً : أبرز أحداث وقضايا هذا العهد .

ثانياً : الأحوال العامة لعهد الخلافة وإنجازاته .

ثالثاً : السياسة الخارجية للأندلس في عهد الخلافة .



عبد الحفيظ

تمهيد

كان الأمير عبد الله بن محمد الأول آخر الأمراء . تتمتع بالصفات الحسنة والقابليات الحديدة . وكان ورعاً متواضعاً محباً للخير كثير العناية بشؤون الحكم وتوطيده ونشر العدل ورفع الظلم ، وكان ينظر المظالم بنفسه^(١) .

قامت في أيامه عدة مخالفات ، بعضها كان عنيفاً ، استندت كثيرةً من الطاقات ، وقد عين - قبل وفاته - حفيده عبد الرحمن (الناصر) بن محمد بن الأمير عبد الله ، ليترئس في الحكم . ذلك أن أبا الناصر محمد بن الأمير عبد الله ، الذي كان مرشحاً لولاية العهد بعد أبيه الأمير عبد الله ، قتله أخيه المطرّف حسداً - حسب إحدى الروايات - سنة ٢٧٧ هـ (٨٩١ م) حين بلغ السابعة والعشرين من عمره ، وكان عمر عبد الرحمن الناصر ثلاثة أسابيع . وقد أولى الأمير عبد الله حفيده عبد الرحمن بن محمد عناية خاصة وجعله أميناً على بعض أعماله ، وكان يُسند إليه بعض المهام ليترئس في حكم الأندلس من بعده . ولم ينجب ظن جده به ، فقد حقق آماله وآمال الناس فيه .

تلقي عبد الرحمن الناصر من جده الأمير عبد الله العناية وولاية العهد من بعده . وربما كان ذلك - أو هو اعتبره - تعويضاً لفقدان ابنه محمد . فما أن شب عبد الرحمن الناصر حتى ظهرت عليه علامات النجابة والذكاء ، وكان عند حسن ظن جده الذي توسم فيه الخير .

لما توفي الأمير عبد الله تولى حفيده الناصر الحكم . وكانت الأندلس يومها تحتاج

(١) راجع : البيان المغرب ، ١٥٣/٢ . كذلك : دولة الإسلام ، ٣٤٦/١ وبعدها ؛ تاريخ المسلمين ، ٢٥٢ وبعدها . لكن ابن حزم (٤٥٦ هـ) يحمل عليه، ملوّماً إياه ومنتقصاً منه . كذلك : أعمال الأعلام ،

إلى الهمة العالية والسياسة الحكيمة لحل مشاكلها وتوفير الاستقرار المطلوب والاستمرار في دفع موكب الحضارة الحية والانتاج الفكري المترعرع في ربوعها.

كانت الأندلس - يوم تولى عبد الرحمن الناصر الحكم - قد أزعجها القلق بسبب بعض المخالفات الكائنة فيها . كانت مهمته خطيرة وصعبة . وكان سنه يوم تولى الحكم ثلاثة وعشرين سنة ، لذلك بايعه كل أصحاب المكانة ولم ينافسه أحد . لخطورة الهمة التي كانت ستواجهه من يتولى الحكم في الأندلس في ذلك الحين^(١) .

كان الناصر أميراً حازماً ، وذكياً عادلاً ، وعاقلاً شجاعاً ، محباً للإصلاح وحريصاً عليه . قاد الجيوش بنفسه ، فأنزل العصابة من حضورهم ، لشجاعته وسياساته الحكيمة ، بالسيف أو بالسياسة الرشيدة التي اتبعها . عفا عنمن طلب الأمان وعاد إلى الطاعة . حتى إنه عيّن بعض المخالفين - بعد عودتهم إلى الطاعة - في مناصب مهمة ، إذ كانوا من أصحاب الكفاءات . أحبه الشعب وأخلص له ، وكان هو قدوة له . لذلك استطاع أن يقضي على العصابة ويعيد للأندلس وحدتها وقوتها ومكانتها^(٢) .

أدب المتمردين من حكام الشمال الإسباني وجعلهم يدركون قوة الأندلس ، حتى انقلب تحريشهم إلى خضوع تام لرغباته . رضخوا للشروط التي يضعها لهم ويليهما عليهم . بلغت الأندلس - أيامه ، في هذه المدة - من القوة بحيث أن حكام إسبانيا الشمالية طلبوا أحياناً إلى السلطات الأندلسية التدخل في حل مشاكلهم .

وتؤكد القوة الأندلس - مع أسباب أخرى - أعلن عبد الرحمن الثالث الخلافة الأندلسية ، فأنهى بذلك عهد الإمارة ، سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) . واستمر حكمه نصف قرن من الزمان (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ = ٩١٢ - ٩٦١ م) . يروي المقري في نفح الطيب : « أنه وُجد بخط الناصر - رحمة الله - : أيام السرور التي صفت له دون تكدير ، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا ، وعدّت تلك

(١) راجع : نفح الطيب ، ٣٥٣/١ ؛ دولة الاسلام ، ٣٧٢/٢ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٢٤/٢ - ٢٢٢/٤ ؛ العبر ، ٢٩٨/٤ (= نفح الطيب ، ٣٥٣/٤) ؛ أعمال الأعلام ، ٢٩٢ . كذلك : دولة الاسلام في الأندلس ، ٣٤٩/١ ، ٣٧٥/٢ ، ٣٧٦ - ٣٧٧ .

الأيام فكانت أربعة عشر يوماً^(١).

حين توفي الناصر تولى الخلافة ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ = ٩٦١ - ٩٧٦ م). كانت الأندلس مستقرة على أساس ثابتة موحدة، حدودها آمنة ومتمنعة بالتقدم والعمان الباهر. كان الحكم قد أعده أبوه لِمُلْكِ هذا المنصب، فأسنده إليه أموراً مهمة في حياته، واستمر الحكم راعياً لهذا الموكب، أكمل مشاريعاً بدأها قبله وأنشأ غيرها. عُرِفَ بصفات كثيرة، ييرز منها حبه للعلم، وزادت العلوم ازدهاراً وزهرت الأندلس بمحالس العلم والجامعات والمكتبات العامة، وكان الحكم نفسه عالماً كبيراً، جلب الكتب من البلاد الإسلامية كافة وبنذر فيها الأموال الكثيرة.

كان الحكم ميلاً إلى السلم مما جعل بعض حكام الشمال الإسباني يتتصورونه ضعيفاً، فبدأوا ببعض الهجمومات. جهز جيشاً لتأديبهم، وقاده بنفسه. رد المعذين وأمن حدود بلاده. ولما توفي – بعد حُكم دام ست عشرة سنة – تولى ولديه البالغ من العمر إحدى عشرة سنة، وهو هشام (المؤيد بالله)، الحكم. وبموت الحكم تتبدل الأحوال في الأندلس وتأخذ الأمور والأحداث مجرى جديداً. إذ لم يكن باستطاعة هذا الوليد التهوض بأمور الأمة، وهو غير قادر لصغر سنّه على رعاية شؤون الدولة. ونهض بعض الرجال لتولية غيره، كما رغب آخرون أن يبقى هو. ارتأت جماعة الصقابية تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر (أخو الحكم المستنصر). كان عمره يومها سبعاً وعشرين سنة، وانتهى الأمر بقتل المغيرة والإبقاء على هشام (المؤيد بالله).

كان الرجل القوي وراء هذه الأحداث: محمد بن أبي عامر. عُرِفَ بالحاجب المنصور، حيث استطاع أن يأخذ السلطة لنفسه ويحكم باسم هشام. ولما توفي ابن أبي عامر، حكم بعده ابنه عبد الملك (المظفر) ثم ابنه الآخر عبد الرحمن (شنجول) وبمقتل الأخير تنتهي الخلافة في الأندلس.

يرى بعض المؤرخين أن الخلافة تنتهي بموت الحكم المستنصر^(٢). لكنني اعتبرت

(١) نفح الطيب، ٣٧٩/١. كذلك: البيان المغرب، ٢٢٢/٢.

(٢) راجع: البيان المغرب، ٢٥٣/٢؛ أعمال الأعلام، ٤٨/٢، ٩٨؛ دولة الإسلام، ٥٣٣/٢. كذلك: *Andalusian diplomatic relations*, 30.

الدولة العاشرية – في هذا البحث – امتداداً للخلافة ، إذ كانت تحكم باسمها وتحمي بظلها . وقد تمت في عهد الخلافة أحداث وجرت أمرر وقضايا ، هذا بعضها .

أولاً : أبرز أحداث وقضايا لهذا العهد

وقد وقعت في هذا العهد أحداث ، اختلفت في الأهمية والنوعية . كان بعضها من الخارج ، وبعضها في الداخل .

١ - الداخلية

أ - إعلان الخلافة

أعلنت الخلافة في الأندلس بعد مجيء عبد الرحمن الناصر إلى الحكم وإقراره للأوضاع وظهور السلطان الأندلسي بعده القوة ، ثم ضعف الخلافة العباسية وقيام الخلافة الفاطمية في الشمال الأفريقي التي أصبحت تهدد سلطة الأندلس . ربما مع أسباب أخرى ، أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة في الأندلس وتلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله^(١) . نفذ ذلك بأمر أصدره في ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) . وهذه وثيقته مع مقدمة لها من نص مؤلف مجهول يتعلق بعبد الرحمن الناصر .

«أمر الناصر ل الدين الله بأن تكون الدعوة في مخاطباته والدعاء له على المنابر بأمير المؤمنين ؛ لما استحقه من هذا الاسم الذي هو له بالحقيقة ولغيره بالاتصال والاستعارة . فلبس هذا الاسم في هذا الوقت حالة لائقة بمنصبه وتراثاً . . ونفذ كتابه في ذلك إلى عماله في النواحي على نسخة واحدة يوم السبت لليلتين خلتا من ذي الحجة من هذه السنة وهذه نسخة الكتاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم ، أما بعد فإنَّ أَحَقَّ مَنْ أَسْتَوْفِيْ حَقَّهُ وَأَجْدَرُ مَنْ أَسْتَكْمَلَ حَظَّهُ ، وَلَبِسَ مِنْ كَرَامَةَ اللهِ تَعَالَى مَا أَلْبَسَهُ . فَنَحْنُ لِلَّذِي فَضَلَّنَا اللَّهَ بِهِ ، وَأَظْهَرَ أَثْرَتَنَا فِيهِ ، وَرَفَعَ سُلْطَانَنَا إِلَيْهِ ، وَيُسَرِّ عَلَى أَيْدِينَا

(١) انظر : جلوة المقتبس ، ١٣ ؛ المقرب في حل المغرب ، ١٨٢/٢ ؛ مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٠/٢ ؛ البر ، ٢٩٨/٤ ؛ نفح الطيب ٣٣٠/١ ، ٣٥٣ ؛ الحلة السيراء ، ١٩٨/١ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٤٢٩/٢ – ٤٢٠ ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٣١٩ ؛ « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، أحمد مختار العبادي ، صحفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٢٠٧/٥ .

دَرَكَهُ ، وَسَهَّلَ بِدُولَتِنَا مِرَامَهُ ، وَلِلَّذِي أَشَادَ فِي الْآفَاقِ مِنْ ذَكْرِنَا وَأَعْلَى فِي الْبَلَادِ مِنْ أُمْرَنَا ، وَأَعْلَنَ مِنْ رِجَاءِ الْعَالَمِينَ بَنَا وَأَعْدَادَ مِنْ اخْرَافِهِمْ إِلَيْنَا وَاسْتَبْشَارَهُمْ بِمَا أَظْلَمُهُمْ مِنْ دُولَتِنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيَ الْإِنْعَامُ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ وَأَهْلُ الْفَضْلِ بِمَا تَفْضُلُ عَلَيْنَا فِيهِ . وَقَدْ رأَيْنَا أَنْ تَكُونُ الدُّعَوَةُ لَنَا بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخُرُوجُ الْكِتَبِ عَنَا وَوُرُودُهَا عَلَيْنَا كَذَلِكَ ، إِذْ كُلُّ مَدْعُوٍّ بِهَذَا الْاسْمِ غَيْرُنَا مُتَحَلِّلٌ لَهُ وَدُخُولُهُ فِي وَمُتَسَمٍّ بِمَا لَا يَسْتَحْقُهُ مِنْهُ ، وَعَلِمْنَا أَنَّ التَّمَادِي عَلَى تَرْكِ الْوَاجِبِ لَنَا مِنْ ذَلِكَ حَقٍّ أَصْعَنَاهُ وَاسْمُ ثَابِتِ أَسْقَطَنَا ، فَمَرَّ الْخَطِيبُ بِمَوْضِعِكَ أَنْ يَقُولُ بِهِ وَأَجْرُ مَخَاطِبِكَ لَنَا عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَ . وَكَتَبَ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِلْلِّيَتِينَ خَلَّتَا مِنْ ذِي الْحِجَةِ سَنَةُ ٣١٦ .^(١)

ب - أحداث متنوعة

إخضاع العصابة

قام عده عصابة بموجبهات أيام الأمير عبد الله أو قبله ، استمر بعضها حتى أيام الناصر ، الذي استطاع - بحسن سياسته - القضاء عليها . ومن هؤلاء العصابة ، الذي استمر مدة طويلة في مد وجزر ، عمر بن حفصون ، الذي اتخذ مركزه في جبل بُشْتُرُ (Bobastro) قرب مدينة مالقة (Malaga) في جنوب الأندلس^(٢) . ولما لم يجد النجاح تَنَصَّرَ ، ظنًا منه أن ذلك يجلب له التأييد ، فكان العكس ، واستطاع الناصر القضاء على عصيائه نهائياً خلال سني حكمه الأولى .

وقوع الماجاعة

أصحاب الأندلس سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) قحط شديد . وخف للممحة المسؤولون - وعلى رأسهم الناصر - بالعون ، مما كان له أثره الكبير في تحفيتها . وبعد مضي

(١) Una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman III. Al-Nasir, 78

انظر كذلك : البيان المغرب ، ١٩٨/٢ . مخطوطة السفر الخامس من مقتبس ابن حيان المحفوظة في المزانة الملكية في الرباط رقم ٨٧ ، الورقة ٩٩ ب .

(٢) المقتبس ، ٣٠٣ ، ٥٠٥ ب (مخطوطة الرباط) ; البيان المغرب ، ١٠٥/٢ - ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٧١ ؛ أعمال الأعلام ، ٣١/٢ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٣٨٠/٢ .

حوالي خمسين سنة من هذا التاريخ ، سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ، حلّت بقبرطية مجاعة عظيمة ساهم الحكم ورجال الدولة في التخفيف من آثارها ، وسرعان ما تمَ التغلب عليها^(١) .

ح — قرطبة مركز التوجيه

منذ العهد السابق (الإمارة) بدأت الأندلس تنمو وتظهر قوّةً سياسية وحضارية ، وغدت مركزاً ترنو إليه الأنظار . ويجد حكام الدول الأخرى – لا سيما الأوروبيّة – أنّها بحاجة إليها : أو تسعى للكسب ودّها وصادقها ، كما يجد طالبو العلم والمعارف أنفسهم مشلودين نحوها . وردت وفود الدول المجاورة إلى قُرطبة ، طالبة العون ومتّمسة الصدقة ومقدمة الطاعة . أورد ابن خلدون في العبر والمقرّي في نفح الطيب نصوصاً قيمةً في بيان المكانة السياسيّة التي وصلتها الأندلس أيام الخلافة ، والأكثر أيام الخليفة الناصر لدين الله . يقول ابن خلدون – لعله معتمداً على ابن حيّان – في ذلك : « ومَدَّتْ إِلَيْهِ أُمُّ الْنَّصَارَى مِنْ وَرَاءِ الدُّرُوبِ يَدَ الإِذْعَانِ . وَأَوْفَلُوا عَلَيْهِ رَسُلَّهُمْ وَهَا يَا هُمْ مِنْ رُؤْمَةِ الْقَسْطَنْطِنْطِينِيَّةِ فِي سَبِيلِ الْمَهَادِنَةِ وَالسَّلْمِ وَالاعْتِمَالِ فِيمَا يَعْنِيُ فِي مَرْضَاهُ . وَوَصَلَ إِلَى سُلْطَانِهِ الْمَلُوكُ مِنْ أَهْلِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ الْمَتَاحِمِينَ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِجَهَاتِ قَشْتَالَةِ وَبِسَبِيلُونَةِ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنَ الشَّغُورِ الْجُوفِيَّةِ . فَقَبَّلُوا يَدَهُ وَتَمْسَوْا رِضاَهُ وَاحْتَبَّوا جَوَائزَهُ وَامْتَطَّلُوا مِرَاكِبَهُ^(٢) . وَيَقُولُ المقرّي في نفحه : « ذَكَرَ إِبْرَاهِيمُ حَيَّانٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ مُلْكَ النَّاصِرِ بِالْأَنْدَلُسِ كَانَ فِي غَایَةِ الضَّخَامَةِ وَرَفْعَةِ الشَّأنِ ، وَهَادِهِ الرُّومُ وَازْدَلَّتْ إِلَيْهِ تَطَلُّبُ مَهَادِنَهُ وَمَتَاحِفَتِهِ بِعَظِيمِ الْمَخَائِرِ ، وَلَمْ تَبْقِ أُمَّةٌ سَمِعَتْ بِهِ مِنْ مَلُوكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنجِ وَالْمَجُوسِ وَسَائرِ الْأَمَمِ إِلَّا وَفَدَتْ عَلَيْهِ خَاصَّةً رَاغِبَةً وَانْصَرَفَتْ عَنْهُ رَاضِيَّةً^(٣) . وَيَرْوِيَ المقرّي – خَلالَ ذَلِكَ – أَخْبَارَ وَفَوْدَ كَثِيرَةٍ مِنْ مُخْتَلِفِ الْمَنَاطِقِ^(٤) . ذُكْرُ أَنَّ هَذِهِ الْوَفَوْدَ كَثِيرًا مَا رَأَسَهَا

(١) راجع : البيان المغرب ، ٢٣٦/٢ ؛ دولة الإسلام ، ٣٧٨/٢ ، ٤٨٧ .

(٢) العبر ، ٤/٢٩٩ (= نفح الطيب ، ١/٥٤) .

(٣) نفح الطيب ، ١/٣٦٦ .

(٤) نفح الطيب ، ١/٣٦٣ - ٣٦٩ ، ٣٨٣ - ٣٩٣ .

حكام الدول ، واسبانيا النصرانية بالذات تماماً^(١) . ويذكر ابن الأبار في كتابه الحلقة السيراء أنه : « أذعن له ملوك الروم ورغوا في مُصاهرته »^(٢) .

تقدمت القوة الحضارية للأندلس إلى قيمة عالية ، يبلو معها الفرق وأصبحاً بينها وبين الدول الأوربية المجاورة والبعيدة . حتى إن أذفونش (الفونسو الثالث) ملك أشتوتوريش وجليقية (ليون) ، المخلوع سنة ٢٩٧ هـ ، لم يجد إلا أن يعهد بتربيته ابنه إلى مربين قرطبيين^(٣) .

أصبحت قرطبة منتجعاً ، وسبيلها الكريم الواسع مهنيعاً ، لطلاب العلم والمعرفة من كل مكان . قَصَدَها عدد من علماء الشرق الإسلامي كأبي علي القالي (اسماعيل بن القاسم البغدادي) صاحب كتاب الأمالي ، الذي ترك بغداد إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) أيام الخليفة الناصر . ووجد هؤلاء جميعاً فيها كل ترحيب وتقدير وعلى كل المستويات .

د - إنشاءات عمرانية

تمت في عهد الخلافة (وعهد الإمارة قبله) إنشاءات عمرانية كثيرة ، اشتهر بعضها بفخامتها وجماله وفنيتها .

مسجد قرطبة الجامع

ابنناه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . وتتابع الأمراء والخلفاء في العناية به وتوسيعه . وكان الناصر المستنصر وابن أبي عامر من أسهموا في هذا الأمر^(٤) .

مدينة الزهراء

بدأ الناصر ابتناء الزهراء - المدينة الخليفة - سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) . تقع

(١) راجع : دولة الإسلام ، ٤٨٤/٢ ، ٤٨٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٩٧ ، ٥٨٣ ، ٥٦١ - ٥٩٨ - ٦١١ .

(٢) الحلقة السيراء ، ٢٦٩/١ .

(٣) راجع : أندلسيا ، ٥٨/٢ ؛ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٢٥ - ٣١ .

(٤) البيان المقرب ، ٢٢٩/٢ .

(٥) البيان المقرب ، ٢٢٠/٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٧ ؛ نفح الطيب ، ٢٤٧/١ ، ٥٤٥ - ٥٥٦ ، ٥٥٨ - ٥٥٩ ؛ أعمال الأعلام ، ٣٨/٢ ، ٤٢ ، ٤٢ ، ٧٦ . كذلك : أندلسيا ، ١٥٩/٢ . وبعدها : دولة الإسلام ، ٤٤٥/٢ ، ٤٨٣ ، ٤٤٥ .

على بعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة ، عند أقدام جبل العروس ، اكتمل نموّها في مدى أربعين سنة . لم يبق منها — بعد ذلك — إلا القليل . بدأ التنقيب عنها أوائل القرن العشرين ، وأعيد ترميم بعض أقسامها^(١) .

مدينة الراحلة

أنشأها محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) ، في شرق قرطبة سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، على الوادي الكبير . تم بناؤها في حوالي عامين ، لتحولَ محلَّ مدينة الزهراء أو تنافسها . احتوت — مثل الزهراء — على دواوين الدولة وبعض مراافقها الأخرى^(٢) .

مدينة سالم

شمال شرق مديريد ١٣٥ كم . ابنتها سنة ٣٣٥ هـ ، أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله « وفي سنة ٣٣٥ ، كان ابتداء بناء مدينة سالم بالشغر الأوسط »^(٣) . ولعلها بنيت قبل هذا التاريخ الذي يمثل تعميرها للمرة الثانية^(٤) .

مدينة المرية

بناتها الخليفة الناصر سنة ٣٤٤ هـ^(٥) . غدت — فيما بعد — قاعدة الأسطول الأندلسي في جنوبيه الشرقي ، على البحر المتوسط . كما أصبحت مدينة تجارية صناعية مهمة . فهي من أكبر موانئ الأندلس ومراسمه البحرية ، يقيم فيها أسطول أندلسي كبير . إذ كانت مرفقاً لاحظ والإقلاع^(٦) .

(١) راجع : نفح الطيب ، ١/٥٢٦ ، ٥٧٧ ، ٤٦٦ ؛ البيان المغرب ، ٢٠٩/٢ ، ٢٣١ . كذلك : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ٣٥ وبعدها ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٤٣٥/٢ وبعدها ؛ قرطبة حاضرة الخلافة ، ٢٢٩/١ وبعدها ؛

Andalusian diplomatic relations , 222 – 3 ; *Arte Hispanomusulman* , L.Torres Balbas 424 ff.

(٢) راجع : نفح الطيب ، ١/٤٦٦ ، ٤٧٨ ، ٥٧٨ ؛ البيان المغرب ، ٢٧٥/٢ وبعدها ؛ كذلك : دولة الإسلام في الأندلس ، ٣٥/٢ وبعدها ، ٥٣٥ . قرطبة حاضرة الخلافة ، ٢٠٨/١ وبعدها ؛ *Andalusian* , 30

(٣) البيان المغرب ، ٢١٣/٢ . (٤) المقتبس ، ١٣٢/٢ . (= أدناه ، ٣٠٥) .

(٥) الروض المطار ، ١٨٣ ؛ تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، السيد عبد العزيز سالم ، ١٨ .

(٦) الآثار الأندلسية الباقية ، ٢٦٥ ؛ *Andalusian* , 164 . كذلك : الخريطة رقم (٢) ، مقابل صفحة ٣٣ من هذا الكتاب .

مدن أخرى

أُنشئت مدن متعددة في هذا العصر وسابقه ، مثل : مدینه مُرْسِيَّة سنة ٢١٠ هـ ايام عبد الرحمن الأوسيط^(١) . ومدینه بَطَلْيُوس (Badajoz) « حديثة الاتخاذ ، بناتها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالحلبيقي بإذن الأمير محمد»^(٢) .

وأقيمت عدّة حصون ، غدت فيما بعد مدنًا . يذكر ابن حيّان أسماء حصون أنشأها الأمير محمد : « ولمحمد في سلطانه الآثار الحميّلة والآيات الجزيّلة ، والفتح العظيمة ، والعناية التامة بمصالح المسلمين ، والتهمّم بثغورهم ، والحفظ لفروعهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم ، وهو الذي أمرَ ببنيان حصن إستيرش لغلال مدينة سالم ، وهو منها بين الحَوْف والغرب ، وهو الذي بني لأهل ثغر طَلْيَطَلْة حَصْن طَلْمَنَكَة وحصن مَجْرِيط وحصن بِنَه فُرَاطَة »^(٣) .

كان لعديد من هذه الحصون - بجانب أهميته الحربية والسكانية - إسهام ثقافي ونشاط علمي ظاهر ، ومَجْرِيط مثال واضح لهذا^(٤) . وصف الحَمِيَّري مَجْرِيط في الروض المطار بأُنْهَا « مدینة صغيرة ، وقلعة منيعة ، وكان لها - في زمان الإسلام - مسجد جامع وخطبة قائلة »^(٥) .

غدا حصن مَجْرِيط عاصمة إسبانيا حتى اليوم . فليس مَجْرِيط غيرَ ملوك

(١) نصوص عن الأندلس ، العذري ، ٦ ؛ البيان المغرب ، ٨٢/٢ ؛ الروض المطار ، ١٨١ ؛ المغرب في حل المغرب ، ٢٤٥/٢ . كذلك : أعلاه ، ٦٤ ، ٧٨ .

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك) ، أبو عبيد البكري ، ١٢١ ؛ الروض ، ٤٦ ؛ المغرب ، ٣٦٣/١ ، ٣٦٤ .

(٣) المقتبس ، ١٣٢/٢ . انظر : التكملة ١٢/١ (رقم : ١١) . حصن إستيرش (Esteras d Medina) ، لعله هو القرية التي تقع الآن على بعد ٩ كم جنوب مدينة سالم ، باتجاه مدريد (مجريط) . حصن طلمتكة (Talamanca) يقع على بعد ٥٠ كم شمال شرق مدريد ، على نهر شرنبه (Jarama) إحدى فروع وادي تاجه . حصن بنه فراطه (Peñahorra, Peña Forata) الصخرة المحفورة) ، كان على بعد ٣٠ كم شمال مدينة وادي الحجارة عند ملتقى نهري سورب (Sorpe) وهنارس (Henares) فرعين تاجه . انظر : المحرّطة رقم ٢) ، مقابل صفحة ٣٣ من هذا الكتاب . كذلك : أعلاه ، ٦٥ .

(٤) انظر : الحلل السنديّة ، شكيب ارسلان ، ١/٣٤٣ - ٣٤٥ .

(٥) الروض المطار ، ١٨٠ .

الحالية ، المُنْذَهَا فِيلِيْپُ الثَّانِي (Felipe Philip,II) عاصمة إسپانيا سنة ٩٦٩ هـ (١٥٦١ م). فمدريد هي العاصمة الأوربية التي بناها المسلمون الأندلسيون ، وينسب إليها عديد من أهلها العلماء الأندلسيين^(١).

أقام الخليفة الحكم المستنصر بالله مدينة حوالى طليطلة سنة ٣٥٣ هـ ، إذ أقىند «أحمد بن نصر لبنيان مدينة بثغر طليطلة ، وتشييدها ، وتوثيق أمورها ، وجعل بين يديه أحمال أموال .»^(٢)

هـ الحاجب المنصور

توفي الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م). وخلفه ابنه الصبي هشام المؤيد بالله في الخلافة ، وجرت أحداث أدت إلى الإبقاء عليه وعلى الأحوال . ظهر فيها رجل قوي هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المعافري . وجده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق الفاتح المجاهد ، «في أول الداخلين من المغرب»^(٣). تلقب محمد بن أبي عامر «الحاجب المنصور» ، وغدا الحاكم الحقيقي للأندلس . وورث الحكم أولاده من بعده؛ لذلك يعتبر البعض زعامة محمد بن أبي عامر بدايةً لعهد جديد . فغدا هو الخليفة ، ولو أنه لم يحمل لقب الخليفة .

نجد كثيراً من المصادر ثنائياً عاطراً على محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور ، وتشيد بقوته الإدارية والعسكرية ، وأن هيبة الأندلس وقوتها بدت أكثر ظهوراً^(٤) . في حين وجه إليه البعض المأخذ وأنه كان سبباً في الحالة التي أصابت الأندلس وانتهت بقيام الطوائف ، بعد القرن الرابع الهجري^(٥) .

(١) انظر : التكملة ، ٨٨٣/٢ ؛ الإحاطة ، ٥٠٤/١ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٣٦/٢ .

(٣) قال ابن حيان . انظر : النخيرة ، ٣٩/١/٤ - ٤٠ ؛ الحلقة ، ٢٧٥/١ ؛ البيان ، ٢٥٦/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٥٩/٢ ؛ المغرب ، ١٩٩/١ .

(٤) عنه راجع : المغرب ، ١٩٩/١ ؛ النخيرة ، ٣٩/١/٤ وبعدها ؛ الحلقة السيراء ، ٢٦٨/١ ؛ البيان المغرب ، ٢٥٦/٢ وبعدها ؛ أعمال الأعلام ، ٥٩/٢ ؛ نفح الطيب ، ٣٩٦/١ - ٤٢٣ ، ٧٦/٣ ، ٤٢٣ - ٣٩٦/١ ، ٥٣١ ، ٥١٩ ، ٥٠٠ وبعدها . كذلك : دولة الاسلام ، ٤٨٣/٢ - ٤٨٩ ، ٣١ ، ١٨٩ .

(٥) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٣١ ؛ رحلة الأندلس ، ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ - ١٠٤/١ ؛ اندلسيات ، ٨٠/١ .

٢ - الأحداث والقضايا الخارجية

أ - أحداث النشاط الحربي الخارجي

وُجِدَ في هذا العهد نشاط حربي لمواجهة الأخطار الخارجية في أكثر من ميدان. ولاشك أن هذه المواجهات لها تأثير على الأندلس ، فقد استهلكت كثيراً من جهوده، لكنها أعطت للأندلس القوة والمقدرة والنمو في بعض الميادين . منها النشاط البحري ، الذي بدأ منذ عهد الإمارة . حيث وصل المسلمون في الأندلس إلى الجزر الشرقية (مَسْيُورْقَة وَمَنْوُرْقَة وَالْيَابِسَة) سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ثم كان فتحها أيام الأمير عبد الله سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م)^(١).

هجوم المجروس على الأندلس

الظاهر في هجمات المجروس الأَرْدُمَانِيُّون (النورمان) المتقاربة المتالية : إما أنَّهُم اختلقوا إلى تكرار تحرشاتهم واعتذارهم على مناطق أندلسية متعددة ، أو أنَّهُم عادوا في بعضها إلى المهاجمة بعد وصولهم إلى مكانتهم . غالباً مكان بعضهم - أو أوسط عهد الخلافة - ليس الدنمارك ، أو عموم اسكندنافية ، بل منطقة نورماندي (Normandy) شمال غربي فرنسا .

استمر المجروس الأَرْدُمَانِيُّون (النورمان ، الفايكنك) في هجومهم على شواطئ فرنسا الشمالية والغربية ، منذ أواسط القرن الثالث المجري (التاسع الميلادي). لاسيما الركن الشمالي منها ، الذي عرف - فيما بعد - باسمهم لاستقرارهم فيه ، في أوائل القرن الرابع المجري (العاشر الميلادي) ، حيث عقدت معااهدة بين ملك فرنسا شارل (الثالث) البسيط أو الأبله (Charles le Simple) وملك النورمان رولو (Rollo) . واستقروا بموجبها في نورماندي^(٢).

يطلق على النورمان الذين سكنا نورماندي اسم : « النورمانديون » (Normans)^(٣)

(١) أعلاه ، ٢٦٣ .

(٢) أوربا المصوَّر الوسطى ، عاشر ، ٢٣٠/١ - ٢٣١ ؛ المسلمين في جزيرة صقلية وجنوب إيطالية ، محمد توفيق المدني ، ٣٠ .

(٣) انظر : *Andalsuian diplomatic relations*, 157.

ثم أقاموا في جنوب إيطاليا . رحبـت البابـوية بهـم لـتستـعملـهـم فـي حـربـ المـسـلمـين^(١) ، وـنـصـحـتـهـم بـمـهاـجـمـةـ الأـنـدـلـسـ ، فـاستـبـاحـوـ مـدـيـنـةـ بـرـبـشـتـرـ (Barbastro) ، شـمـالـ شـرـقـ سـرـقـسـطـةـ ، سـنـةـ ٤٥٦ـ هـ (١٠٦٤ـ مـ) . وـهـاجـمـوـاـ بـعـدـئـذـ صـقـلـيـةـ سـنـةـ ٤٦٤ـ هـ (١٠٧٢ـ مـ) وـاحـتـلـوـهـاـ . ثـمـ طـرـدـواـ المـسـلـمـينـ مـنـهـاـ ، مـرـتـكـبـيـنـ : أـفـطـعـ الـجـرـأـمـ . غـيرـ وـأـضـحـ هـجـومـهـمـ التـالـيـةـ ، هـلـ صـدـرـتـ مـنـ دـنـمـارـكـةـ (دانـمـرـشـةـ^(٢)) ، أـمـ مـنـ نـورـمـانـيـ ، أـوـ مـنـ كـلـيـهـمـاـ ؟ لـكـنـ مـرـاجـعـنـاـ الأـنـدـلـسـيـةـ تـتـحـدـثـ عـنـهـاـ وـكـائـنـاـ مـنـ الدـنـمـارـكـ .

المجوم الرابع^(٤)

وـصـلـتـ قـرـطـبـةـ — أـيـامـ الـخـلـيـفةـ الـمـسـتـنـصـرـ بـالـلـهـ (٣٥٠ـ هـ ٣٦٦ـ مـ) — بـدـاـيـةـ رـجـبـ سـنـةـ ٣٥٥ـ هـ (٢٢ـ حـزـيرـانـ = يـونـيـوـ ٩٦٦ـ مـ) رـسـالـةـ مـنـ قـصـرـ أـبـيـ دـانـسـ (Alcacer do Sal)، جـنـوبـ أـشـبـوـنـةـ (أـلـشـبـوـنـةـ ، لـشـبـوـنـةـ) تـذـكـرـ هـذـاـ الـمـجـوـمـ .

جرـتـ أحـدـاثـ اـعـتـرـكـتـ فـيـهاـ الـبـحـرـيـةـ الـأـنـدـلـسـيـةـ — الـيـ نـمـتـ وـقـوـيـتـ مـنـذـ زـمـنـ^(٥) — بـقـيـادـةـ أـمـيـرـ الـبـحـرـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ رـمـاحـسـ ، فـرـدـوـاـ وـقـدـ أـعـطـيـتـ بـعـضـ مـرـاكـبـهـمـ . «ـوـفـيـ أـوـلـ رـجـبـ مـنـهـاـ ، وـرـدـ كـتـابـ مـنـ قـصـرـ أـبـيـ دـانـسـ عـلـىـ الـمـسـتـنـصـرـ بـالـلـهـ ، يـذـكـرـ فـيـهـ ظـهـورـ أـسـطـوـلـ الـمـجـوـسـ بـبـحـرـ الـغـرـبـ بـقـرـبـ مـنـ هـذـاـ الـمـكـانـ ، وـاـضـطـرـابـ أـهـلـ ذـلـكـ السـاحـلـ كـلـهـ لـذـلـكـ ، لـتـقـدـمـ عـادـهـمـ بـطـرـوـقـ الـأـنـدـلـسـ مـنـ قـبـلـهـ فـيـماـ سـلـفـ ؛ وـكـانـوـاـ فـيـ ثـمـانـيـةـ وـعـشـرـيـنـ مـرـكـبـاـ ؛ ثـمـ تـرـادـفـتـ الـكـتـبـ مـنـ تـلـكـ السـواـحـلـ بـأـخـبـارـهـمـ ، وـأـهـمـ قـدـ أـضـرـواـ بـهـاـ وـوـصـلـوـاـ إـلـىـ بـسـيـطـ أـشـبـوـنـةـ . فـخـرـجـ إـلـيـهـمـ الـمـسـلـمـونـ ، وـدارـتـ بـيـنـهـمـ حـربـ ، اـسـتـشـهـدـ فـيـهـاـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ وـقـتـلـ فـيـهـاـ مـنـ الـكـافـرـينـ . وـخـرـجـتـ أـسـطـوـلـ إـشـبـيـلـيـةـ ؛ فـاقـتـحـمـوـاـ عـلـيـهـمـ بـوـادـيـ شـلـبـ ، وـحـطـمـوـاـ عـدـدـةـ مـنـ مـرـاكـبـهـمـ ،

(١) أورـبـاـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ ، ٣٢٧ـ / ١ـ - ٣٢٩ـ ; الـمـسـلـمـونـ فـيـ جـزـيـرـةـ صـقـلـيـةـ ، ٣١ـ .

(٢) جـفـرـافـيـةـ الـأـنـدـلـسـ أـوـرـبـاـ ، ٩٢ـ ؛ أـدـنـاهـ ، ٣٥٩ـ وـبـعـدـهـاـ .

(٣) هـكـذـاـ وـرـدـتـ عـنـ الـأـدـرـيـسيـ فـيـ «ـنـرـهـ الـمـشـاعـ»ـ (الـقـسـمـ الـأـوـرـبـيـ)ـ ، ١٧٦ـ ، وـفـيـ مـخـلـوطـةـ بـارـيسـ (الـمـكـتبـ الـوـطـنـيـةـ)ـ ، رـقـمـ : ٢٢٢١ـ ، ٣٤١ـ بـ .

(٤) سـيـقـ الـحـدـيـثـ عـنـ هـجـومـهـمـ الـلـاـثـةـ السـابـقـةـ فـيـ عـهـدـ الـإـمـارـةـ : أـعـلـاهـ ، ٢٢٧ـ - ٢٤٠ـ .

(٥) أـعـلـاهـ ، ٢٣٥ـ .

واستنقوا منَ كان فيها من المسلمين ، وقتلوا جملةً من المشركين ، وانهزموا إثر ذلك خسرين . ولم تزل أخبار المjosos تصل إلى قُرطبة في كل وقت من ساحل الغرب ، لِمَّا أن صرفهم الله تعالى .^(١)

يظهر من كلام ابن الخطيب في أعمال الأعلام أن المjosos النورمان ظهروا عند مدينة المريّة التي أنشأها الناصر سنة ٣٤٤ هـ . « وفي أيامه ظهرت المjosos المجلبنة على المسلمين من بحر البَحْرَف ، فتحرك إلى المريّة ، وقد حاصروا حصن القبطة من حصونها ، فأوقع بهم ، وأنشأ الأسطول لغزوهم ، فكان عدده ست مئة جَنْفَنْ بين غَزَّوي وغيره .^(٢) لكن ابن الخطيب لا يُعْيِّنْ سنة هذه الحادثة ، إِلَّا أنه يجعل – في كتابه : الإحاطة – ذهاب الحكم إلى المريّة سنة ٣٥٣ هـ « فاحتسب شُخُوصه بنفسه إلى المريّة في رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، في جحمل لجُب من نجدة الأولياء وأهل المراتب .^(٣) فهل أن المjosos ظهروا في هذه السنة أيضاً ، قبلها ؛ أو أن الحكم ذهب في هذه السنة وكذلك في التي عنها الحديث (٣٥٥ هـ) أو أن هنالك اختلافاً في تاريخ ذهابه بين سنتي : ٣٥٣ و ٣٥٥ هـ ؟

لكن ابن عذاري يذكر في بيانه سبباً آخر لتوجه الحكم إلى المريّة سنة ٣٥٣ : « وفيها تحرك الحكم من قُرطبة إلى المريّة توقعاً لما يَصْدُر من صاحب إفريقيَة المحادَّ لأهل الأندلس ، ولما يَعْيَّنْ ما استكمله بها من الحصانة ومطالعة حال رابطة القبطة ومشاركة حال الرعايا بتلك الجهة .^(٤)

أما ابن خلدون فيجعل ظهور المjosos سنة ٣٥٤ : « وظهرت في هذه السنة مراكب المjosos في البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط أشبُونَة وناشبيهم الناسُ القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائدَ البحر عبدَ الرحمن بن رُمَاحِيس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر

(١) البيان المغرب ، ٢٣٩ - ٢٣٨/٢ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٤١/٢ - ٤٢ .

(٣) الإحاطة ، ٤٧٨/١ - ٤٧٩ .

(٤) البيان المغرب ، ٢٣٦/٢ .

نالت منهم في كل جهة من السواحل . «^(١)

يلاحظ الاختلاف في تاريخ ظهور المجروس النورمان بين ٣٥٣ - ٣٥٥ هـ . فهل
أنهم ظهروا في كل هذه السنوات أم أن ظهورهم استمر منذ نهايات ٣٥٣ هـ حتى
بدايات سنة ٣٥٥ هـ ، أم أن هنالك اختلافاً في التاريخ ؟

المجوم الخامس

ظهرت راكب المجروس الأردمانيين مرة أخرى على ساحل الأندلس الغربي
في بداية رمضان سنة ٣٦٠ هـ (أول صيف سنة ٩٧١ م) . صدر أمر الخليفة الحكم
إلى أمير البحر ، قائد أسطول المرية في مياه البحر المتوسط ، ليبحر بأسطولها نحو
إسبانيا ، وإلى أمراء البحر الآخرين كذلك ، لرد غائلة هؤلاء المجروس ، تم ذلك
وعاد المجروس خائبين . « وفي صدر رمضان منها وقع الإرجاف بتحرك المجروس
الأردمانيين - لعنهم الله - وظهورهم في البحر الشمالي ورؤومهم سواحل الأندلس
الغربية على عادتهم ، فانزعج السلطان لما سبق إليه خبرُهم ، وعهد إلى عبد الرحمن
ابن رمحاس قائد البحر وهو حاضر بقرطبة بالخروج إلى المرية والتأهب للركوب
إلى ناحية الغرب ، فنفذ بأمره يوم الاثنين لست خلوات من شهر رمضان المؤرخ »^(٢) .
وفي عودتهم هاجموا مناطق في جليقية ، لعل منها شنت ياقب (Santiago de
Compostela) في الركن الشمالي للجزيرة الأندلسية . يذكر ابن حيان في مقتبسه
أنهم هاجموا الساحل الشمالي الغربي للجزيرة الأندلسية ، داخلين من نهر دويره
على الأطلسي ، مهاجمين بعض المناطق ، لكنهم ردوا وفروا . « وفي يوم السبت
الخمسين بقين منه دخل قرطبة سلّس رسول القويمى غند شلب بن مسرا
بكتابه من مدينة لستانة من أداني جليقية بتاريخ يوم الأحد لاثني عشرة خلت
من شهر رمضان يذكر دخول المجروس - أهلükهم الله - يوم السبت قبله وادي
دويره ، وذلك شطر النهار ، وأنهم خرجوا في الغارة إلى شنطبرية وبسيطها ،
وأنهم انصرفوا خائبين . »^(٣)

(١) العبر ، ٤/٤ (= نفح الطيب ، ١/٣٨٣ - ٣٨٤) .

(٢) المقتبس (بيروت) ، ٢٤ - ٢٢ . قارن : البيان المغرب ، ٢٤١/٢ .

(٣) المقتبس (بيروت) ، ٢٧ . كذلك : ٨٥ . Andalusian diplomatic relations .

الهجوم السادس

عاد المجرم الأرْدُمانيون لِهاجمة سواحل الأندلس الغربية ، بداية سنة ٣٦١ هـ (نهاية سنة ٩٧١ م) فردهم الأسطول الأندلسي بقيادة أمير البحر غالب بن عبد الرحمن الناصري الذي عاد متّصراً إلى قرطبة من مدافعته ورده لهم لينهي خبر ذلك إلى الخليفة الحكيم المستنصر ويداوله في مهماته . « وفي ليلة الجمعة لليلتين خلتَان من صفر منها احتل الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بمحلة فَحْص السُّرَادق قافلاً من غزّاته إلى [ساحل] الغرب التي تحوّل فيها وأشرف على المجرم الأرْدُمانيون الحائسين في هذه السنة . فاستركب إليه الجيوشَ يوم السبت بعده ، من قصر قرطبة في التعبئة المنظمة بالعُدد الفَخْمَة ، فيها الشطرنج والألوية ، فتقادم مِن محلته وبين يديه المراكب على أَجَلٍ هيئة وأَتَمَّ أَهْبَة ، إلى أن وصل قصر قرطبة والخليفة يومئذ مقيم به ، فتوصل إليه وقد بين يديه ملِيئاً مفاؤضاً له ومسائلاً عن حر كاته وتقلبه في غزّاته التي كفى الله فيها المسلمين القتال وكان الله قويَاً عزيزاً . فخلع عليه وانطلق إلى داره ، محموداً سعيه . »^(١) لعل المجرم هاجموا شَنْت ياقِب في قاصية جليلية ، كما يُشير إليه ابنُ حِيَّان في مُقتَبِسِه هذا ، إذ يقول : « وفي يوم الثلاثاء خَلَوْنَ مِن ذي القعدة منها احتل مدينة الزهراء صاحب الليل زياد بن أفلح وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد قائد الصائفة ، قَافِلَيْنَ من غزّاتِهما إلى ساحل الغرب لتبّع أخبار المجرم الأرْدُمانيون – أهلكم الله – المتَّوَقِعَين بالناحية ، فتوصلوا إلى أمير المؤمنين وأنباه بما قصيا في وجههما وحيث بلغا من قصدهما وأنهما انتهىا إلى مدينة شَنْتَرِين ، قاصية ذلك الصُّقْعُ ، وظاهرت لديهمما الأنْبَاء الصَّحِيحَةُ بآنَّ الأرْدُمانِين – لعنهم الله – نَكَصُوا عن الإقدام على المسلمين عند تَسْمِعِهم بخبر الدُّلُوف إليهم والاستعداد لهم ، برأً وبحرأً ، فانقلبوا على وجوههم وجَدُوا في نُكُوصِهم وأن الجوايسِ الذين أرسلوا لامتحان أخبارهم عادوا إليها بعد بلوغهم شَنْت ياقِب من قاصية بلد العدو ولم يختلف عليهم في فرارهم بفضل الله تعالى ومتنه . »^(٢)

(١) المقتبس (بيروت) ، ٦٦ - ٦٧ . فيه اقتباس من القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، من الآية رقم : ٢٥ .

(٢) المقتبس (بيروت) ، ٩٢ - ٩٣ . كذلك : دولة الإسلام في الأندلس ، ٦٨٧/٢ .

ورد في كتاب *الجغرافية* المنسب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (بعد ٥٤٥ هـ)^(١) أنهم ظهروا على ساحل الأندلس بعد عام ٥٤٥ هـ في مركبين أصياباً في الساحل الجنوبي الغربي عند طرف الأغار^(٢) (Trafalgar) .

كان لنمو البحريّة وقوتها الضاربة أثر كبير في رد الأسطول الأندلسي لهجمات المجروس الأردمانيين (النورمان) الذين هاجموا السواحل الأندلسية ثلاث مرات أيام الحكم الثاني المستنصر بالله : ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) و ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) و ٣٦١ هـ (٩٧١ م) . لكنهم في هذه المرات رُدوا بقوة وقتُل الكثير من رجالهم ودُمرت وأحرقت عدة من سفنهم . استفادت الأندلس من تجاربها الماضية في طريقة حربهم وتقدّمت صناعة السفن ورعاها الأمراء والخلفاء . حتى إنَّ ابن الخطيب يذكر في الإحاطة أنَّ الحكم المستنصر ذهب في رجب سنة ٣٥٣ هـ إلى المريَّة « وأشرف على أمورها ، ونظر إلى أسطولها وجدَّه ، وعُدْته يومئذ ثلاث مئة قطعة »^(٣) .

* * *

كانت هناك مواجهات برية بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، لا سيما أيام المنصور بن أبي عامر . وصل بها إلى مناطق بعيدة في جليقية ، وأخضع مدينة برشلونة .

تمت أيام الناصر للدين الله مواجهة قوية بين الأندلس ودولات إسبانيا النصرانية التي تحالفت ضد الأندلس . تلك هي معركة الخندق عند مدينة شنت منكش (Simancas سيمانقة) ، شمال نهر دُويرو ، وذلك يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (آب = أغسطس ٩٣٩ م) ، وبعد عدة أيام من القتال ، سِجالاً . خسر الأندلسيون هذه المعركة التي قادها الناصر بنفسه . بيد أنه نجا من القتل بجهد كبير . كان الخائن أمية بن إسحاق في هذه المعركة إلى جانب رُدمير (الثاني

(١) انظر : *تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس* ، مؤنس ، ٣٥٨ ؛ أعلاه ، ٢٢٨ .

(٢) كتاب *الجغرافية* ، ٢١٥ (رقم ٢٤٠) .

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة ، ٤٧٩/١ . كذلك : دولة الإسلام ، ٤٨٨/٢ - ٤٨٩ .
Andalusian diplomatic relations , 164 - 5.

() ملك ليون ، يحارب معه ويدله على عورات المسلمين^(١) . واستشهد في هذه المعركة بعض العلماء^(٢) ، واشتراك العلماء في المعارك – كما في أحداث المجتمع وحياته – واستشهادهم فيها أمر سلحوظه بوضوح ، فيما يأتي إن شاء الله .

ب - قيام دويلة جبل القِلال (فراكسينيوم) وآثارها

يذكر بعض المؤرخين أنه حوالي سنة ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) رست سفينة تحمل بعض البخاراء الأندلسية في جنوب شرق فرنسا في منطقة البروفانس (Provence) واستقروا في شمال مرسيليا في أحد الواقع الجبلية المتيبة . بدأوا بفتح بعض المناطق ، ونظرآ لنجاحهم فقد توارد إليهم المؤيدون من الأندلس وشمال إفريقيا .

عرفت قاعدتهم في المصادر اللاتينية : باسم فراكسينيوم (Fraxinetum , Fnaximete) في حين تعرف في الرواية الإسلامية جبل القِلال . استمرت هذه الدويلة حتى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) . شملت سلطة هذه الدويلة مناطق في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا .

قامت هناك محاولات لكتبتهم ، منها التبادل السفاري بين الأندلس والأمبراطورية الرومانية (المقاسة) ، أيام الامبراطور أوتو الأول (Otto I) .

وردت إلى بلاط قرطبة سفارة ألمانية سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) للتوسط لدى قرطبة في معالجة الوضع . لكن الأندلس لم تكن مسؤولة عن الأمر فعادت السفارة دون تحقيق هذا الهدف^(٣) .

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ،

Andalusian, 114 - ٧٦ - ٧٨ ؛ أعمال الأعلام ، ٣٦ - ٣٧ / ٢ ؛ دولة الإسلام ٤٢٣ - ٤١٣ / ٢

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ٤٦ / ٢ - ٤٧ .

(٣) راجع : دولة الإسلام في الأندلس ، ٤٦٧ / ٢ ؛ وبعدها ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٢٠٧ وبعدها ؛
أندلسيات ، ٤٦ - ٥٣ / ١ . *Andalusian*, 207 - 27 .

ثانيًا : الأحوال العامة لعهد الخلافة وانحسارها

تمت الأندلس خلال هذا العهد بالقوة والرخاء والاستقرار . لكن ، هل إنَّ الأندلس لم تمر بمشاكل ولم تحفها المخاطر ، أم أنها كانت تتغلب عليها ؟ كانت أكثر هذه المشاكل والمخاطر خارجية ، ليست من صنع الأندلس .

ومن ناحية أخرى فقد عم النمو والتقدم كافة المرافق والجوانب . فزحت الأندلس بعمرانها الخاص والعام . قامت فيها المنشآت الكثيرة التي ذكرنا بعضها ، المدني منها أو الحربي . غدت قرطبة دُرَّةً في جبين الحضارة يومها ، فكانت تزهو بالشوارع المرصوفة التي تمتد أميالاً كثيرة ، مضاءة بالصابيح العامة^(١) . تتمايل حدائقها مزهراً ويفوح شذاها طيباً . جلبت إلى قرطبة (ويبلو في غيرها) المياه من المناطق المختلفة ، في أنابيب الرصاص المحفوظة داخل قنوات حجرية متغنة^(٢) . فكثر العمران واتسع . ونمَّت الزراعة والتجارة والصناعة ، وتقدَّمت العلوم والفنون وكثُرت المدارس والجامعات وعمُرت التور بالكتب وأنشئت المكتبات الكثيرة . وُصفت قرطبة بأنها جوهرة العالم^(٣) . أشاد العديد من كتاب الأندلس بمكانتها وأحوالها ، مع باقي المدن الأندلسية الأخرى ، في كثير من هذه النواحي وغيرها .

« وقرطبة أعظم علمًا وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من المالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها . »^(٤)

ينقل المقرري أيضًا وصفاً للأندلس عن ابن سعيد الأندلسي « قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحذقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمَنْ سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحاري فيها معلومة ، وما اختصت به أنَّ قراها

(١) انظر : نفح ٤٥٦/١ ، ٤٥٦/٢ ، المعجب ، ٤٥٧ . كذلك : الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٦٩ .

(٢) راجع : أندلسيات ، ١٦١/٢ .

La Civilisation Arabe en Espagne , Levi-Provencal, al, 114 .

(٣) نفح الطيب ، ٤٥٦/١ .

في نهاية من الحمال لتصنّع أهلها في أو ضماعها وتبسيضها ، لثلا تنبو العيون ^(١) . ذُكرت أيضًا — لكل مدينة — صفات وتميزات وأحوال معينة . مثلاً عن إشبيلية يورد صاحب نفح الطيب : « وقال بعضهم في إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرها ، ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهي على ضفاف النهر الكبير ، عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد ، والبحر الساكن ، والوادي العظيم ، وهي قريبة من البحر المتوسط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف إلا موضع الشرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير المتدا فراسخ في فراسخ لكفي ، وبها منارة في جامعها بناها يعقوب المنصور ، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناءً منها . وعَسَل الشرف يبقى حيًّا لا يتدمّل ولا يتبدل ، وكذلك الزيت والتين . » وقال ابن مفلح : إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس ، لأنّ تاجها الشرف ، وفي عنقها سوط النهر الأعظم ، وليس في الأرض أتم حسنة من هذا النهر ، يُضاهي دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للتزهّة والسير والصيد تحت ظلال الشمار ، وتغريد الأطياف ، أربعة وعشرين ميلًا ، ويتغاطى الناس السرُّج من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى . وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر ، والزرع والضرع ، وكثرة التumar من كلّ جنس ، وقصب السكر ، ويجمع منها القرمز الذي هو أجيَل من اللَّك الشندي ، وزيتها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يُعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري ^(٢) . سبق ذكر كثير من الأحوال الثقافية والسياسية ، حين الحديث عن قرطبة ، مركزاً للتجويم ^(٣) .

أما الإدارة فقد سادت ، وأحدث فيها الجديد ، أحدث في الشغور إمارة مستقلة ، هي : إمارة الشغور ، ومقرها سرقسطة . وتوجد في الأندلس ثلاثة ثغور ^(٤) . كما

(١) نفح الطيب ، ٢٠٥/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٠٨/١ .

(٣) راجع : الخسارة الإسلامية في الأندلس ، ٢٥ وبعدها ؛ أعلاه ، ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) أعلاه ، ٣٨ .

أحدثت إمارة البحر ، ومقرها : المرية . كانت للبحرية تنظيمات خاصة ، وبرز
كيانها^(١) . معلوم أيضاً أن القضاء كان مستقلاً ، وبقي كذلك دوماً . الظاهر أن
استقلاله أكثر مما كان في الشرق الإسلامي ، حيث لم يكن قضاة الأقاليم في الأندلس
مستقلين عن الإدارة أو السلطة فقط بل عن سلطة قاضي الجماعة بقرطبة^(٢) . هكذا
كانت التنظيمات المختلفة .

كان البلد يتقدم نحو الرقي والرفاه رغم دفع ضريبة الحفاظ على هذا كله .
سادت بين الناس العلاقات الحسنة ، وبين الحاكم والشعب كذلك في العموم .

أما الانجازات فقد ذكرت أمور كثيرة ، أطلعت على ثمرات من جهود أهل
الأندلس في كل ميدان . أنشئت المساجد ، وتمت التوسعات في مسجد قرطبة الجامع ،
الذي جلبَ له الحكمُ المستنصرُ الماء من عينِ بجبل قُرطُبَة^(٣) . كما بني معهداً
للفقراء والضعفاء واليتامي وأقام مدارس لتعليمهم . جدد المنصور قنطرة قرطبة ،

(١) راجع : الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٤٦ .

(٢) انظر : « القضاء ودراسته في الأندلس » ، بحث للمؤلف منشور في مجلة كلية الإمام الأعظم ، ٢١١/١ (بغداد ، ١٣٩٢ = ١٩٧٢ م) .

(٣) انظر أعلاه ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

زاد الحكم المستنصر (٣ رمضان - ٣٥٠ - ٣٦٦ صفر ٥٥١ - ٥٥٠/١ ، ٥٥٥ - ٥٦١،٥٥٦) بناء المسجد الجامع زيادته الشهيرة الكبيرة
(فتح الطيب ، ٢٤١) فربطة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ٣٣٨/١ وبعدها) ، حيث « افتتح خلافه بالنظر في
الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة ، وهو أول عهد أتفذه ». البيان المغرب ، ٢٣٣/٢ . وقد « وجد
بغط الخليفة المستنصر بأنه : (ابتدئ ببنيان الجامع - صانه الله - يوم الأحد لأربع خلون من جمادى
الآخرة سنة ٣٥١ وكل سنة ٣٥٥ ...) ». البيان المغرب ، ٢٤١/٢ .

ومن طرائف ما يروى في ذلك ما « حكى أبو مروان بن حيان - رحمة الله - في أخبار قرطبة ، أن
الحكم لما زاد زيادته الشهيرة في الجامع اجتنب الناس الصلاة فيها أيامًا ، فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن
علمه ، فقيل له إنهم يقولون : ما نdry هذه الدرارهم التي أنفقها في هذا البناء من أين اكتسبها ،
فاستحضر الشهود والقاضي أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطي - المتقدم الذكر في قضائه - واستقبل القبلة
وحلف باليدين الشرعية التي جرت العادة بها أنه ما أفقق فيه درهماً إلا من خمس المئم . وحيثند صل
الناس فيه لما علموا بيته ». الموجب ، ٤٥٧ .

وأقام قنطرة إسْتِجَّة على نهر شَنَّيل (فرع الوادي الكبير) ^(١). تم بناء ملينيتي : الزهراء والزاهرة ^(٢) ، الأولى أيام الناصر والثانية أيام المنصور .

أنشئت حصون وأسوار ، لاسيما المدن الساحلية . ابنتي مدينة المرية التي كانت أكبر مرفأ للأسطول الأندلسى الذي نما وزاد قوة وفنية . أعلنت الخلافة وظهرت هيبة الأندلس أمام الدول المجاورة وغيرها فـطُلبَ ودُها . امتد سلطان الأندلس إلى بعض الشمال الإفريقي .

انتشرت الثقافة وكثير الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة ، حتى فشا العلم وعم . تشهد على ذلك المؤلفات الكثيرة والمكتبات العامة والخاصة ^(٣) .

تفتضي الكتب ازدهار صناعة الورق التي ارتفعت في الأندلس ، كما ارتفت الصناعات الأخرى المعروفة . كانت مكتبة الحكَّامِ تضمُّ حوالي أربع مائة ألف مجلد . عدَّت مكتبات الأندلس العامة حوالي سبعين . مكتبة في البيت لأبي أحد غدت الاهتمام العام والهواية المفضلة ، وضرورة لازمة تباري بها الناس وتباهوا ^(٤) .

تم إنتهاء المخالفات ، التي ألحقت بأحوال الأندلسضرر ، لاسيما أيام الناصر . كان من نتيجة ذلك قلة مجالات الدول الخارجية للتدخل ، نتيجة لعدم وجود من يستند إليه أو يعتمد عليه .

ثالثاً : السياسة الخارجية للأندلس في عهد الخلافة

١ - مع العالم الإسلامي

كانت العلاقات مع العالم الإسلامي - عموماً - علاقات عادلة مع الجهات الرسمية . فليس بالإمكان أن يُقبل بسهولة قيام معاهدة بين الأندلس أيام الناصر وبين

(١) دولة الإسلام ، ٥٧٧/٢ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٣) انظر : « الكتب والمكتبات في الأندلس » ، بحث المؤلف ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية ، ٣٧٠/٤ (بغداد ، ١٣٩٢ = ١٩٧٢ م) .

(٤) راجع : دولة الإسلام ، ٥٠٤/٢ .

هو جو البروفانسي (Hugue de Provence) ملك إيطاليا ، لمقاومة الفوضى الفاطمي . وذلك بعد مهاجمة الفاطميين لميناء جنوة سنة ٣٣٤ هـ (٩٢٥ م)^(١) . وذلك لأنعدام الأدلة الكافية على قيام مثل هذه المعاهدة . لعلها أثبتت أختها ، تلك المعاهدة الثنائية المزدوجة بين الدولة البيزنطية والأندلس من جهة ضد تحالف بين الدولة الفرنسية والعباسية . فالعلاقة – عموماً – كانت حسنة وودية مع الشمال الإفريقي . ولدى ظهور الخطر الفاطمي على الأندلس وضع الأندلس بعض مناطق الشمال الإفريقي تحت نفوذه ، مثل ثغر سبستانة ، كذلك خضعت مناطق أخرى من المغرب الأقصى . كانت العلاقة مع بقية العالم الإسلامي ، في الشرق – من الناحية العامة – علاقة ود ومحبة . الناس في الأندلس والشرق على صلة ، يرتادون بلدان كل منها للسفر والحج والسياحة والتلقى والدراسة . كم استقبل بالترحيب علماء الشرق ورجالهم في الأندلس ووجلوا فيها الأهل والشجاع .

لم يحدث – على المستوى الرسمي – صدام أو مواجهة بينهما . بل حدث – فيما بعد – تعاون يدل على الصلة الحسنة . لا غرابة فالعقيدة تجمع بين هذه الأطراف . كان لذلك أثر في ألا تتخذ العداوة شكلاً عنيفاً ، بين الجهات الرسمية . وكما استقبلت الأندلس العلماء من الشرق كذلك نقلت إليه الكتب في مختلف الفنون .

هكذا كانت الصلة بين غرب العالم الإسلامي وشرقه في العموم حسنة ، بصورة رئيسية على المستوى العام . توفر في نفح الطيب الكثير من الأخبار المتعلقة بذلك ، مع أسماء من سافر من الأندلس إلى الشرق وبالعكس .

٢ – العالم غير الإسلامي

يتوفر شبهه كبير في عديد من القضايا ، بين ما ذكر^(٢) – حين الحديث عن مثل هذا الموضوع في عهد الإمارة – مع هذا العهد (الخلافة) . قامت السياسة الخارجية

(١) راجع : « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، بحث أحمد مختار العبادي ، صحيفة مهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٢٠٧/٥ .

(٢) أعلاه ، ٢٨٩-٢٩١ .

على عدم الاعتداء عموماً ، والاستعداد لعرض الصداقة . كانت الأندلس - في عهد الخليفة ، لا سيما أيام الناصر - موجهة لسياسة شبه الجذيرة الأندلسية .

وردت أحياناً من دولة الفِرَجَة سفارات ودية . كذلك الحال مع الدول الأخرى في العالم غير الإسلامي . خطبت تلك الدول *وِدَّ قُرْطبة* وأرسلت إليها السفارات والمدابا . تسخو في ذلك وتقدم ماتراه قائداً إلى تأكيد المودة والرضا .

توسعت بعض الدول - كالمانيا - لدى الأندلس لتعاونها في حل بعض المشاكل ، كذلك السفارة الألمانية التي أرسلها أوتو الأول (Otto I) إلى عبد الرحمن الناصر ، لكيح جماع الأندلسيين في دولة جبل القلال (فراكسنيتوم^(١)) ، جنوب فرنسا . كما طلب البعض الآخر كثول إسبانيا الشمالية - من السلطة الأندلسية التدخل في خاصة قضائها وارتكبوا الاحتكام إليها فيما يعن من المشاكل حوطها^(٢) .

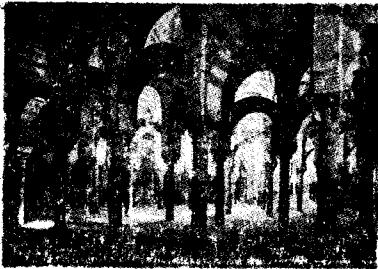
أنشأت علاقات ودية مع العديد من الدول غير الإسلامية : مثل الأوربية ، وبيزנטية كذلك . رحبت الأندلس بالسفراء القادمين إليها أجمل ترحيب واستجابت لكثير من مطالعهم . تم استقبالهم في قُرْطبة ، في قصرها الخليفي أو في الجنان المخصص لذلك من مدينة الزهراء . والجنان الذي يستقر فيه الوفد القادم هو « دار الملك » في مدينة الزهراء والبهو الذي يستقبل فيه الخليفة القادمين هو « المجلس المؤنس » الجميل الذي يطل على حدائقه غناء فيها ، في حين خصص « المجلس الزاهر »^(٣) بهؤلاء لـ هذه الاحتفالات في قصر قرطبة الخليفي ، على نهرها الوادي الكبير وقرب قنطرته وغير بعيد من مسجدها الجامع . ترك مؤرخون صوراً من هذه الاستقبالات والمشاهد المشهورة . احتفظ المقرري في نفحه وأزهاره بكثير منها . اعتاد حكام الأندلس الاحتفاء بهذه الوفود وإكرامهم وتقديم المدابا لكافه الأعضاء ولشخص المرسل . من ذلك ما يذكره ابن خلدون في كتاب العبر وصفاً طريفاً لسفارة أرسلها أحد حكام

(١) راجع : *أندلسيات* ، ٤٢/١ وبعدها ؛ دولة الإسلام ٤٦٤/٢ وبعدها ؛ *أعلاه* ، ٣١٣ .

(٢) انظر : *بيان المغرب* ، ١٠/٣ ؛ *أعمال الأعلام* ، ٨٧/٢ ؛ Andalusian 69 .

(٣) انظر : *نفح الطيب* ، ٣٦٧/١ ، ٥٧٧ - ٥٧٨ (= العبر ، ابن خلدون ، ٤/٣١٢) .

اسبانيا الشمالية إلى بلاط قُرطبة أيام الحكم المستنصر . رأست أمّ هذا الحاكم الوفدَ القادر إلى قُرطبة ، فأكرمتها الحكم غابة الإكرام ، وذلك سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) . « وفي سنة خمس وستين وثلاث مئة وردت أم للذریق بن بلاکش القومنس بالغرب من جِلِيقيَة وهو القومنس الأكبر فأخرج الحكم لتكلَّفيها واحتفل لقلومها في يوم مشهود ، فوصلها وأسعفها وعقد السلم لابنها كما رغبت وأحببت ، ودفع لها مالاً تقسمه بين وفدها ، وحملت على بغلة فارهة بسرج وبلام مُثقلين بالذهب وملحفة دياج . ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت . »^(١) ولذریق ابن بلاکش (Rodrigo Velazquez) هذا ، هو : أحد الحكام في غرب جِلِيقيَة^(٢) .



الفصل الخامس

سُلْطَانُ الظُّرُوفِ

(١٠٩١ - ٤٨٤ هـ)

- أولاً : دول الطوائف والصراع مع إسبانيا النصرانية.
- ثانياً : الدعوة إلى التوحد.
- ثالثاً : ذكر أهم دول الطوائف والحدث عن بعضها.



عمره الطوّاف

نظرة عامة

عاشت الأندلس - بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بنى عامر - سنوات صعبة من الفرقـة والتنافـس . حاول عدد من المسؤولـين المخلصـين - حتى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) - استمرار وحدته وإعادة خلافـه ، وبدلـوا في ذلك الجهود الكبـيرة ، دون جـلوـى . فانتـابت الأنـدلـس حـالـة مـريـعة تـبعـث على الأـسى . عنـدـها يـبدأ قـيـام الطـوـافـ، حين تـصـدـع بـنـيـان ذـلـك الصـرـح الشـامـخـ . أـعـلن أـهـل قـرـطـبة ، وـعـلـى رـأـسـهـم أـبـوـالـحـزـمـ جـهـوـرـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ جـهـوـرـ ، إـلـغـاءـ الـخـلـافـةـ^(١) . أـسـنـدـ القـرـطـيـبـيـوـنـ أـمـرـهـمـ إـلـىـ «ـشـيـخـ الـجـمـاعـةـ»ـ الـوـزـيرـ أـبـيـ الـحـزـمـ بـنـ جـهـوـرـ مـنـتـصـفـ ذـيـ الـحـجـةـ سـنـةـ ٤٢٢ هــ . فـأـعـطـواـ مـنـهـ قـوـسـ السـيـاسـةـ بـارـيـهاـ ، وـوـلـوـاـ مـنـ الـجـمـاعـةـ أـمـيـنـهـاـ ، فـاخـتـرـعـ لـهـمـ لـأـوـلـ وـقـتـهــ . نـوـعـاـ مـنـ التـدـبـيرـ حـمـلـهـمـ عـلـيـهـ فـاقـتـرـنـ صـلـاحـهـمـ بـهـ ، وـأـجـادـ السـيـاسـةـ فـانـسـدـلـ بـهـ السـتـرـ عـلـىـ أـهـلـ قـرـطـبةـ مـدـتـهـ^(٢)ـ .

أدار أبو الحزم بن جهور حـكـومـةـ قـرـطـبةـ بـبرـاعـةـ وـنبـاهـةـ أـنـىـ عـلـيـهـاـ الـمـؤـرـخـونـ^(٣)ـ ، عـاـونـهـ فـيـ ذـلـكـ صـفـوـةـ مـنـ الرـجـالـ ، كـذـلـكـ كـانـ اـبـنـهـ أـبـوـ الـوـلـيدـ بـنـ جـهـوـرـ^(٤)ـ . ضـمـتـ هـذـهـ حـكـومـةـ عـدـدـ مـنـ مـدـنـ «ـمـتوـسـطـةـ الـأـنـدلـسـ»ـ ، مـثـلـ : جـيـآنـ وـبـيـاسـةـ ، مـنـ جـبـلـ الشـارـاتـ (ـSierra Morenaـ)ـ شـمـالـ قـرـطـبةـ حـتـىـ حـدـودـ وـلـاـيـةـ غـرـناـطةــ .

(١) انظر : البيان المغرب ، ١٥٠/٣ - ١٥٢ ؛ دول الطوائف ، محمد عبد الله عنان ، ١٢٠ ؛ أعمال الأعلام ، ١٣٩/٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ؛ تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، ٣٦٣ .

(٢) النـخـيرـةـ فـيـ مـحـاسـنـ أـهـلـ الـبـرـيـةـ ، اـبـنـ بـاسـ الشـتـرـيـ ، ١١٥/٢/١ (ـنـقـلاـًـ عـنـ اـبـنـ حـيـانــ)ـ . انـظـرـ كـذـلـكـ : أـدـنـاهـ ، ٣٤٥ .

(٣) النـخـيرـةـ ، ١١٥/٢/١ - ١١٧ ؛ الـحـلـةـ السـيـراءـ ، ٢٥١-٢٤٥/١ ، ٢٥١-٢٤٥/٢ ، ٣٢-٣٠/٢ ، ٣٤٣/٤ .

(٤) النـخـيرـةـ ، ١١٧/٢/١ - ١١٨ ؛ الـحـلـةـ السـيـراءـ ، ١٨١/٢ ؛ البيان المغرب ، ٢١٠ ، ١٨٧/٣ ، ٢١٣ ، ٢٣٤ ؛ أعمال الأعلام ، ١٤٨/٢ ؛ البر ، ٣٤٣/٤ .

بعدها قامت - في عدد من مناطق الأندلس - ممالك أو دوبيالت مستقلة ، يحكم كلًا منها أمير مستقل عن غيره من الأمراء . قُسّمت الأندلس إلى ست مناطق رئيسية تضم كل منها إمارة أو أكثر ، حتى بلغت جملة عددها - أحياناً - عشرين إمارة .

قائمة نسببني جَهْوَرَ (الجهاوزة)

محمد بن الغَمْرُ بن يَحْيَى بن عبد الغافر بن أبي عبدة حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر (أبو عبدة حسان ، الداَخِلُ إِلَى الْأَنْدَلُسَ سَنَةَ ١١٣ هـ)

عُبَيْدُ اللَّهِ (قرطبة ، ٥٢٩٦ هـ)

محمد أبو الحَزَمِ جَهْوَرَ

أبو الْوَلِيدِ مُحَمَّدٌ (٥٣٧٣ هـ)

(١) أبو الحَزَمِ جَهْوَرَ (رئيس قرطبة)

(١) محرم ٣٦٤ : متصرف ذي الحجة ٤٢٢ - ٦ محرم ٤٣٥ هـ

(٢) أبو الْوَلِيدِ مُحَمَّدٌ

(٢) ٦ محرم ٤٣٥ - ٤٥٦ : شَلَطِيش ،

اقتضا الحكم ثم استبد به عبد الملك

(٤) عبد الملك (تولى أمر الجند) (٣) عبد الرحمن (كبيرهما)

(٤) ٤٥٦ - ٤٧٢ (تولى أمر الجباية) (٣) ٤٦٢ شعبان ٤٦٢ هـ

سعى حكام عدد من هذه الدوبيالت لضم إلى ملكه ما تحت يد غيره^(١). استمرت حكومة قرطبة لنشر الأمن والطمأنينة لسنوات كثيرة . كانت تستند

(١) راجع : البيان المغرب ، ١٥٢/٣ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢١٣ ، ٢١٥ - ٢١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ؛ الحلقة السيراء ، ٢٠١/٢ ؛ فتح الطيب ، ٢١٣/١ ، ٤٣٨ ، ٤٨٢ ؛ الموجب ، ١٠٩ ؛ الحلقة السنديّة ، ١٠١ ، ٣٨١ ؛ دول الطوائف ، ١١٧ ، ٣٨١ .

في ذلك إلى مجلس استشاري مكون من خيرة الرجال . من خدم هذه الحكومة : مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيّان القرطبي^(١) (أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان بن محمد بن حيّان ، ٣٧٧ - ٩٨٧ هـ = ٤٦٩ م) والكاتب الشاعر الوزير (ذو الوزارتين) أبو الوليد ابن زيدون^(٢) (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٧١ م).

تختفي حكومة الجهاورة حين تُضم قُرطبة إلى بني عبَّاد في إشبيلية سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م).

هكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء ، اتصف عدد منهم - في بعض تصرفاته - بصفات الأثرة والغدر ، هانت لديهم معه مصالح الأمة وتركـت دون مصالحهم الذاتية . باعوا خلقهم (وبلادهم) للعدو المتربيـص ، ثمناً لبقاءـهم في السلطة . أصابـ الأمـة الضـيـاع بـقدر ما ضـيـعوا من الخطـ الخـلـقي المـسـلم . انحرـف هـؤـلاء المسـؤـلوـن عن النـهجـ الحـنـيفـ الذيـ بهـ كـانـتـ الأـنـدـلـسـ وـحـضـارـتـهـ . فيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ ظـهـرـ الـعـصـبـيـةـ وـالـتـرـاعـاتـ الـتـيـ تـوـدـيـ إـلـىـ التـشـتـتـ وـالـضـيـاعـ «ـ فـتـمـخـضـتـ عـنـ الـفـاقـرـةـ الـكـبـرـىـ ،ـ وـآلـتـ بـمـنـ أـتـىـ بـعـدـهـ إـلـىـ مـاـكـانـ أـعـضـلـ وـأـدـنـىـ ،ـ مـاـ طـوـيـ بـسـاطـ الدـنـيـاـ ،ـ وـعـفـىـ رـسـمـهـ ،ـ وـأـهـلـكـ أـهـلـهــ .ـ »^(٣)

لكنـ هـذـهـ الـحـالـ لمـ تـكـنـ تـخلـوـ مـنـ إـشـرـاقـاتـ وـضـاءـ ،ـ حينـ تـلـقـيـ عـوـافـلـ الـخـيرـ الـأـصـيلـةـ الـكـامـنةـ فـيـ النـفـوسـ وـتـدـعـوـ إـلـىـ الـجـهـادـ لـمـصـلـحةـ الـاسـلـامـ .ـ فـتـلـقـيـ بـعـوـافـلـ الـفـرـقةـ وـالـآـفـاقـ الـضـيـقةـ جـانـبـاـ ،ـ كـمـاـ سـيـتـيـنـ منـ سـرـ الـحـوـادـثـ^(٤) .ـ لـوـ وـضـعـ هـؤـلـاءـ الـأـمـرـاءـ الـمـهـازـيلـ .ـ رـغـمـ اـخـتـلـافـهـمـ مـصـلـحةـ الـأـمـةـ أـوـلـاـ ،ـ وـوـجـدـ بـيـنـهـمـ نـوـعـ مـنـ الـعـهـودـ الـتـيـ تـقـومـ عـلـىـ

(١) النـخـيرـةـ ،ـ ١١٨/٢/١ ،ـ نـفـعـ الطـيـبـ ،ـ ٥٦٦/١ ،ـ رـاجـعـ :ـ الـمـقـبـسـ ،ـ ٤٣/٢ - ٤٥ (ـ مـقـدـمةـ الـحـقـقـ)ـ .ـ

(٢) النـخـيرـةـ ،ـ ٣٥٤/١/١ - ٣٥٧ ،ـ (ـ نـفـلـاـ عنـ اـبـنـ حـيـانـ)ـ ؛ـ الـمـطـربـ مـنـ أـشـعـارـ أـهـلـ الـمـغـرـبـ ،ـ اـبـنـ دـحـيـةـ ،ـ ١٦٧ـ ؛ـ قـلـائـلـ الـعـقـيـانـ ،ـ اـبـنـ خـاقـانـ ،ـ ٧٩ـ (ـ =ـ الـمـغـرـبـ ،ـ ٦٣/١ـ)ـ ؛ـ إـعـتـابـ الـكـتـابـ ،ـ ٢١٣-٢١٢ـ .ـ الـمـؤـلـفـ بـحـثـ عـنـ «ـ اـبـنـ زـيـدونـ ،ـ السـفـيرـ الـوـسـيـطـ»ـ يـنـشـرـ فـيـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـىـ .ـ

(٣) النـخـيرـةـ فـيـ مـحـاسـنـ أـهـلـ الـجـزـيـرـةـ ،ـ ٢٥/١/١ ،ـ اـنـظـرـ كـذـلـكـ :ـ الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ ،ـ ٢٥٠/٣ـ .ـ

(٤) اـنـظـرـ مـثـلاـ :ـ أـدـنـاهـ ،ـ ٣٦١ـ ،ـ ٣٦٦ـ ،ـ ٣٦٨ـ .ـ

المُسالمة والتعاون ضد كل خطر خارجي ، لكان الأمر مختلفاً . لكنهم راحوا يستعينون بعلوّ أمتهم المتربيّ - الذي يتمنى هلاكَهم جميعاً - ضدّ بعضهم البعض ، ولقاء دفع إلهاوة وتنازل عن حصون ومدن . ولعل ما أصاب الأندلس بسوء فعائم وسقّم خلقهم كان أكثر مما أصيب به بقوه عدوهم . فالاستعانت بالعلو سُنّة سيئة وجدناها تتكرر لدى آخرين من بعض الحكام .

سقطت - نتيجة لذلك ، في هذه الفترة - بعض المدن والقواعد الأندلسية بيد دولة أو دول إسبانيا النصرانية ، التي بدأ توسعها في هذا الوقت بمعاهدة وأخذ الأرضي الإسلامية^(١) . ولو لا أن قيَض الله - جلت قدرته - للأندلس دولة إسلامية قوية ، في الشاطئ الآخر من المضيق ، في عدوة المغرب تقدمت لحماية الأندلس وإنقاذهما من سوء الحال ، وكانت الكارثة أكبر . تلك هي دولة المرابطين التي أعانت الأندلس في محنتها . ثم التحقت الأندلس بسلطانها سنة ٤٨٤ھ (١٠٩١ م) ، فشهدت الطوائف نهايتها .

أولاً : دُول الطوائف والصراع مع إسبانيا النصرانية

سادت الأندلس - بعد سقوط الخلافة - حالة من الارتكاك والمحير ، تبيّنت خيوطها السوداء بقيام دول متعددة فيه ، عُرفت بدول الطوائف (دوبيلات أو ملوك أو أمراء الطوائف) . هذه التسمية واضحة المدلول في وصف حالة الأندلس الذي توزّعته عدة مالك ، وإن تفاوتت قوتها وأهميتها ومساحتها ودورها في أحداث الأندلس . كان بعضها يترَبَّصُ ليَحْوِزُ ما يَبْيَدُ غيره من الأمراء . مثلما كانت سلطات إسبانيا النصرانية تترَبَّصُ بهم جميعاً ، لأنَّميَز حتى من كانت له معها صداقة أو عهد . ذلك ديدن سلطات إسبانيا النصرانية ، وقبل هذه الظروف ، يوم كانت تتمتع الأندلس بالقوة^(٢) ؛ فكيف الآن وقد تغير ميزان القوى في الجزيرة الأندلسية ، وغدت هذه السلطات هي الأقوى ؟

(١) انظر : المغرب في حل المغرب ، ٤٧٣/٢ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٢٧٧ .

١ - إسبانيا النصرانية (الشمالية)

رأينا كيف أن مملكة ليون كانت أقوى وأكبر ممالك إسبانيا النصرانية الثلاث في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ^(١). لكن في هذه الفترة نرى الوضع يتغير ، حيث غدت نَبَارَةً أكبرها ، في نهاية القرن المذكور .

توفي سنة ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) حاكم نَبَارَةَ غَرْسِيَّةَ شَانْجَهُ الثَّانِي (Garcia Shanches II) بن شَانْجَهُ غَرْسِيَّةَ الثَّانِي (Sancho Garces II) الملقب أَبْرَكَه (Abarca) ^(٢). خَلَفَه ابنه شَانْجَهُ غَرْسِيَّةَ (الثالث ، الكبير) ، الذي كان متزوجاً من إلْبِيرَة (Elvira) أخت غَرْسِيَّةَ حاكم قَشْتَالَةَ .

اغتيل حاكم قَشْتَالَةَ غَرْسِيَّةَ بن شَانْجَهُ (Garcia Sanchez) ، سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، في كنيسة بمدينة ليون ، أثناء تأدية مراسيم زواجه ، من شانجا (Doña Sancha) أخت ملكها بِرْمُودُه (الثالث ، Vermudo III) ^(٣) .

عندما ورث شَانْجَهُ غَرْسِيَّةَ (الثالث ، الكبير) مُلْكَ قَشْتَالَةَ وعيَّنَ على عرشه ابنه فِرْدِلَنْد (Fernando I) ولقبه ملكاً ، فكان أول ملوك قَشْتَالَةَ . في حين تلقب شَانْجَهُ غَرْسِيَّةَ (الثالث ، الكبير) - الذي احتل ليون - ملك إسبانيا . يشير هذا إلى اتحاد ممالك إسبانيا النصرانية في الشمال ، في عصر تنازع الطوائف وفرقتها في الأندلس . سرى عراقاً حاداً مريضاً ، تجاوزت فيه إسبانيا النصرانية حدود القسوة المتناهية .

حين توفي شَانْجَهُ (الثالث) سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) أخضع ابنه فِرْدِلَنْد مملكة ليون ، فتوحدت بذلك قَشْتَالَةَ وليون في مملكة واحدة . كان شَانْجَهُ قبيل وفاته قد قسم المملكة بين أولاده الأربعة : أبقى فِرْدِلَنْد - أكبرهم - كما هو على

(١) أعلاه ، ٢٧٠ - ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ .

(٢) أعلاه ، ٢٧٦ ؛ تاريخ الأندلس ، ٧٥ (نص ابن الكردبوس) ؛

Historia de Espana , VI , *Espana Cristiana* 313 ff.

(٣) راجع : دول الطوائف ، ٣٢٧ ؛

Manual de historia de Espana , P. Aguado Bleye , I , 490.

حكم قشتالة ، واحتضن غرسية بنباره ، وردمير أرغون ، وغNBCالو (Gozalo) بأواسط البرتات . أدى هذا الوضع إلى قيام الحرب الأهلية بين الأخوة ، كان من نتائجها اغتيال الأخير – الذي ضمت منطقتنه إلى أخيه ردمير – ومقتل غرسية الذي خلفه ابنه شانجه ملكاً على نباره .

كان لفرد لند ملك قشتالة وليون ، جهاد في مهاجمة الأراضي الأندلسية في هذه الفترة . استولى على بعض المناطق في قاصية الأندلس من الشمال الغربي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وحاصر مدينة بازو (Vizeu, Viseo) جنوب نهر دويزه . ثبت أهلها المسلمين ودافعوا عنها دفاعاً مجيداً ، وكان للرمادة جهاد بارع في ذلك ، كما فعلوا قبل ثلاثين سنة يوم حاصرها الفونش (الخامس) ملك ليون وقتله أحد الرماة المسلمين^(١) . لكن فرد لند زاد من استعداداته واقتصرت المدينة بصورة عنيفة قتلاً وأسراً . كان بين الأسرى ذلك الرامي الماهر الذي أصاب الفونش (الخامس) . فأمر فرد لند بسميل عينيه وقطع يديه ورجليه وعدّب حتى الوفاة . كما احتلت مناطق أخرى من مملكة بطاليوس الخاضعة لبني الأفطس . وفي سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) عاث فرد لند في الأنحاء الشمالية لمملكة طليطلة – وحكامها بني ذي النون – وفي بعض مناطق إشبيلية ، حيث بنو عباد . وفي سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) سقطت بيده مدينة قلمرية (Coimbra) ، لكن فرد لند (الأول) ملك قشتالة وليون توفي في العام التالي (٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م)^(٢) .

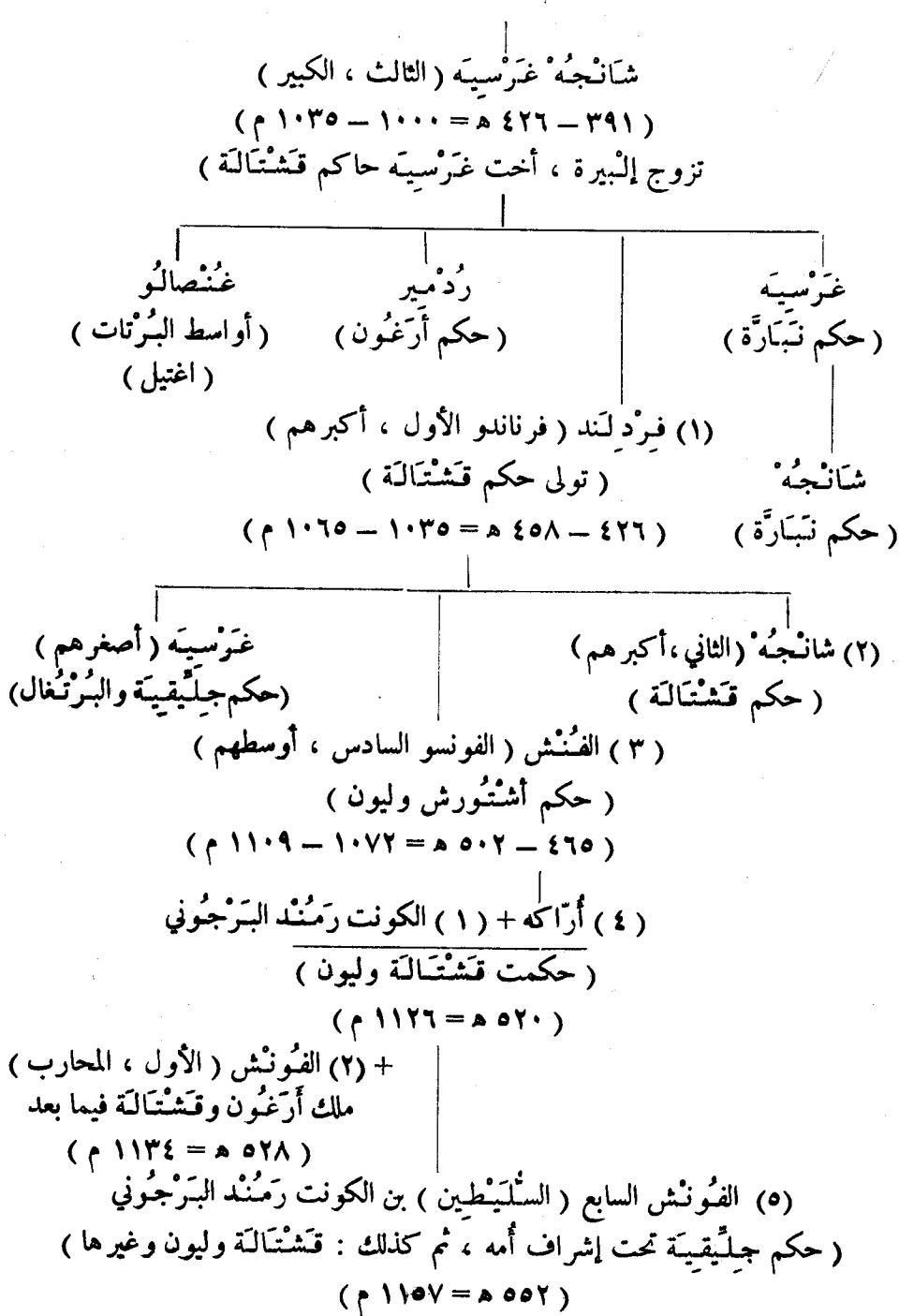
حكام إسبانيا النصرانية في الشمال أيام الطوائف

شانجه غرسية (الثاني ، أبيركه)
(٣٥٩ - ٩٧٠ = ٣٨٥ هـ)

غرسيه شانجه (الثاني)
(٣٩١ - ٩٩٤ = ٣٨٥ هـ)

(١) انظر : دول الطوائف ، VI Espana Cristiana ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٣ ؛ 320؛ Manual de historia de Espana, I, 489.
Manual de historia, I, 595.

(٢)



قسم فردىند – قبل وفاته – المملكة بين أولاده الثلاثة . وضع شانجُهْ – ولده الكبير – بقشتالة ، والفوُنُش بليون وأشتوُريش ، وغرسيه بجيلىقيه والبرتغال . ثارت الحرب بين الأُخْوَة . وجرت معارك بين شانجُهْ وأخيه الفوُنُش (السادس ، فيما بعد) . انتصر فيها شانجُهْ الذي قبض على الفوُنُش ، فأقام في دير ساهاجون حيث هرب منه إلى طلبيطلة ، لاجئاً عند ملكها يحيى بن اسماعيل بن ذي النون الملقب بالمؤمن . رحب هذا به غایة الترحاَب وبالغ في إكرامه وأنزله داراً مجاوراً لقصره ، وجعل له داراً آخر خارج المدينة ذات حدائق ، تكون متراً له ولمرافقه . قضى الفوُنُش في منفاه بطيءاً طويلاً تسعه شهور . درس فيها أحوال المدينة ، تنفيذاً لاستيلائه عليها ، جزاءً حسن المعاملة والبالغة فيها ، الذي يعتبر نوعاً من الغفلة . ثم إن شانجُهْ بعد أن ضم إليه ليون انتصر على غرسِيه وضم إليه جيليقيه والبرتغال . بحث غرسِيه إلى إشبيلية عندبني عباد . وحينما ذهب شانجُهْ سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) للاستيلاء على سُمُورَة ، التي كانت تحت إدارة أخيه أوراكه (Urraca) ، اغتاله أحد الفرسان ، ربما بتدبير من أخيه .

هنا يُستدعي الفوُنُش – لاجئ طليطلة – لتولي الحكم مكان أخيه شانجُهْ الذي لقبوه بالقوى بحرأته وشجاعته . فرحل عن طليطلة بالغبطه لما ناله ، وبالتكريم . لم يطلب المؤمن منه إلا الصداقة . وقطع الفوُنُش له ما شاء من العهود ، ولم يكن – كما يُظهر مسلكه ، فيما بعد – ينوي الوفاء بها . أصبح الفونش ملكاً لقشتالة وليون وجليقيه^(١) . هكذا أصبحت إسبانيا النصرانية موحدة . ثم إن الفوُنُش قبض على أخيه غرسِيه ، الذي دُعِي على أساس التفاهم ، وقضى بقية عمره في السجن لمدة سبعة عشر عاماً .

٢ – سقوط طليطلة

لما توفي المؤمن بن ذي النون (دون) سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) خلفه حفيدهُ الملقب بالقادر في حكم طليطلة^(٢) .

(١) انظر : تاريخ الأندلس ، ٧٥ - ٧٦ (نص ابن الكردبوس) ؛ البيان المغرب ، ٣/٢٢٢ .

(٢) أعمال الأعلام ، ١٧٩/٢ - ١٧٩ ؛ تاريخ الأندلس ، ٧٨ - ٧٩ (نص ابن الكردبوس) .

حكام طُلَيْطُلَة الطوائف : بنو دنون

(١) اسماعيل بن ذي النون

(٢) يحيى ، المأمون^(١)

(قرطبة ، ١١ ذو القعده ٤٦٧ هـ^(٢))

اسماعيل

(٣) يحيى ، القادر^(٣)

(حكم طُلَيْطُلَة : ٤٦٧ - ٤٧٨ هـ)

(حكم بَلَنْسِيَّة حتى يوم الجمعة ٢٣ رمضان ٤٨٥ هـ)

أصبح الاستيلاء على طليطلة شغل الفُونش (ال السادس) الشاغل . بدأ منذ سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٨ م) يعمل لتنفيذ هذا الأمر بالإغارة على أراضي مملكة طُلَيْطُلَة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ويتصرف مزارعها . استمر على ذلك سنوات ، ليneath قواها ، حتى سقطت طُلَيْطُلَة في شهر محرم سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، مع اختلاف في اليوم^(٤) . ينقل المقرئ في نفح الطيب قول « بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش طُلَيْطُلَة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذها لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ هـ »^(٥)

كان إيواء طُلَيْطُلَة للأذفونش (الفونسو السادس بن فردناند) – أيام نفيه – نفحة عليها وسبباً للتعجيل بسقوط المدينة ، أو البدء بشن الحرب عليها وإسقاطها . يشير إلى ذلك ابن الخطيب بقوله : « وسكناه بطُلَيْطُلَة واطلاعه على عوراتها هو

(١) الحلقة السيراء ، ١٢٩/٢ . (٢) الحلقة ، ١٧٧/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٧٨/٢ .

(٣) الحلقة ، ١٧٧/٢ .

(٤) راجع : نفح الطيب ، ٤٤١/١ ، ٤٤٧ ، ٣٥٢/٤ ، ٣٥٤ - ٣٥٢/٤ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٥ (نص ابن الكرديوس) ؛ الذخيرة ، ١٣٠/١٤ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٤٢/٢ - ٢٤٣ .

(٥) نفح الطيب ، ٣٥٢/٤ ، ٣٥٤ . كذلك : الذخيرة ، ١٥٨/٢ (خطوطة المتحف العراقي) ؛ العبر ، الذبيبي ، ٢٨٩/٣ .

الذي أوجب تملك النصارى بها ^(١) . بل إنه فضلاً عن انتفاعه – حين إقامته في طُلَيْطُلَة – من معرفة دروبها وخطوطها ، تذكر بعض الروايات « أن الفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه ، في كيفية الدفاع عن طُلَيْطُلَة ، واحتمال هاجمة النصارى لها ، واستيلائهم عليها ، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، في تخريب أحوازها وانتساف مؤنها » ^(٢) .

العجب أن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدتهم طُلَيْطُلَة ، وكان الأمر لا يخصهم ، فاغربين أفواههم جبناً وغفلة وتفاهة . بل إن عدداً منهم كان يرتمي على أعتاب الفونش (أدولفونش ، الفونسو السادس Alfonso VI) ، طالباً عونه أو عارضاً له الخصوص ، بذلة تأباهَا النفس المسلمة . تغافلوا عن أن أدولفونش لا يفرق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية ^(٣) . لكن العجب يزول إذا تذكروا نزعتهم الأنانية والعنصريّة .

قام حاكم بَطَلِيُّوس (Badajoz) عمر بن محمد بن الأفطس ، الملقب بـ « المتوكّل على الله » ببعض واجبه تجاه طُلَيْطُلَة في محنته ، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يحب عليهم لما لاقت هنا المصير ، وحرموا أنفسهم . كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته . يتصرف أحياناً وكان الأندلس وجدت لمنفعته وليربع على كرسي حكم ، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد . انحلوا الأوّاصاف و« اقسّموا ألقاب الخلافة وتوزعواها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها ، فتلقيبوا بالناصر والمتصور والمعتمد والمظفر وأمثالها » ^(٤) (٥) وساروا بأمّتهم نحو الخراب . وقال في ذلك الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق القيرولي

(١) أعمال الأعلام ، ٢/٣٣٠ . (٢) دول الطوائف ، عنان ، ٣٩١ .

(٣) انظر : تاريخ الأندلس ، ٨٢ (نفس ابن الكرديبوس) .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ٧٥١/٢ - ٧٥٢ .

(٥) انظر : الفخيرة ، ١٤٤/١/٤ ؛ فتح الطيب ، ٢١٤/١ ، ٢٠٥/٤ . رأيات البرزین ، ابن سعيد الأندلسي ، ١٠١ .

(٣٩٠ - ٤٦٣ هـ) أو غيره^(١) :

ما يُزَهِّدُني في أرضِ أندلسٍ أسماءً معتمدة فيها ومتضادٍ
ألقابٌ مملكة في غير موضعها كاهرٌ يحكي اتفاخاً صورةَ الأسدِ
وإن كان لا اتفاق مع الشاعر في هذا النوع من الزهد ، فإن هذا الأمر يزهد في
التخلُّف عن نصرتها . فهم كما وصف آخر :
وتفرقوا شيئاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومبرٌ
وما وصفهم به أبو الحسن بن الجد^(٢) :

أرى الملوك أصابتهم بأندلسٍ دوائرُ السوء لا تُبْقِي ولا تُنْزِلُ
كان الم توكل بن الأفطس شهماً شجاعاً وله مواقف محمودة ، نلمس فيها النفحات
الإسلامية من العيرة والتجدة . كما كان « ملكاً علي القدر مشهور الفضل » ، مثلاً في
الحلالة والسرور ، من أهل الرأي والحزم والبلاغة . وكانت مدينة بَطَلْيُوس في
مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم . «^(٣) »

حكام بَطَلْيُوس الطوائف : بنو الأفطس

مسلمة بن الأفطس

|
محمد

(١) أبو محمد عبد الله (المنصور)

٤١٣ - ١٩ جمادى الأولى هـ ٤٣٧ (١٠٢٢ - ١٠٤٥ م)

(٢) سيف الدولة أبو بكر محمد (المظفر) ، ٤٣٧ - ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ - ١٠٤٥ م)

(٣) يحيى (المنصور)

٤٤٦٠ - ٤٥٦

(٤) أبو محمد عمر (المتوكل على الله)

٤٨٧ - ٤٦٠ هـ (١٠٩٤ - ١٠٦٧ م)

حكم طُلَيْطُلَة سنة ٤٧٢ هـ لمدة عشرة شهور

(١) وفيات الأعيان ، ٤ / ٤٢٨ ؛ مقدمة ابن خلدون ، ٢ / ٧٥٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٢ / ١٤٤ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢ / ٢٤٢ . ولعل البيت السابق له كذلك ومن نفس القصيدة .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢ / ١٨٥ . كذلك : الحلقة السيراء ، ٢ / ٩٦ - ٩٨ . انظر : أدناه ، ٣٣٦ - ٣٣٧ .

لكن الطاقة كانت أقل والدفع أضعف لرد قوة الفونش (ال السادس) والقضاء على محاولته وإنقاذ المدينة . فحُوصرت المدينة وضيق عليها الخناق حتى سقطت . وارتكتبت - خلال ذلك وبعده - بها وأهلها الأفاعيل وأنزلت الآلام . يذكر البعض أن الطابع الصليبي كان ظاهراً في هذه الأحداث ، حيث كان مع قوات قشتالة وليون جنود من أراغون ومتطوعون مغامرون من فرنسا وغيرها^(١) .

دخل القونسو السادس طليطلة بعد أن أعطى أهلها الأمان ، بضمانته حرياتهم واحترام شعائر دينهم وحقوقهم وحرمة مساجدهم . لكن بعد شهرين فقط نقض هذه العهود وحوَّل مسجد مدينة طليطلة الجامع إلى كنيسة ، بقوة السلاح ، وحطمت المحراب ليقام الهيكل مكانه . علماً أنه قد نص في شروط تسليم المدينة إلى الفونش بـ «أن يحتفظ المسلمون ، إلى الأبد ، بمساجدهم الجامع»^(٢) . بعد شهرين فقط «شرع لوقيه في تغيير المسجد الجامع بها ، خاتمة النواب ، ونكبة الشاهد والغائب . فقال له شيشنند : إنك إن فعلت أوغرت الصدور ، وأبطلت التدبير ، وسكنَت من نشط ، وقبضت من انبسط ، فشمع أدق فونش - لعنه الله - بأنفه ، وثنى من عطفه ، وأصغى إلى طنانة جنونه وسخنه ، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم [

[٣]

لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربعين مائة . وحدَّثني من شهد طواغيته بتذرره ، في يوم أعمى البصائر والأبصار منظره ، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه ، واعتمده في ذلك اليوم ليتزوج منه ، وقد أطاف به مردة عفاريته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلَّما قالوا له عَجَّل ، وأشار هو إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تَبَيَّب ، فسجد به واقرب ، ويبكي عليه مليئاً وانتحب ، والنصارى يعظّمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تتمدد إليه يد ، ولا عرض له بمكره أحد .»^(٤)

(١) انظر : دول الطوائف ، ٣٩٦ .

(٢) دول الطوائف ، ١١٣ . راجع : الذخيرة ، ١٤/١ - ١٣٢ ؛ نفح الطيب ، ٤٤٧/٤ .

(٣) لم يذكر في الذخيرة اسم هذا اليوم .

(٤) الذخيرة ، ٤/١ - ١٣٢ . كذلك : الحلل السنديمة ، ١/٣٧٧ - ٤٢٧ ، ٣٨٠ - ٤٢٨ .

أصلح التاريخ (ستة ٤٩٨) الوارد في الذخيرة .

سقط يَدْ أَدْفُونْش وجشه بعد ذلك عدد من أعمال طُلَيْطُلَة ، غير قليل . إذ « لما حصل الطاغية الفشن - لعنه الله - بِطُلَيْطُلَة ، شمخ بأنفه ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي التون واستتصالها ، وذلك ثمانون منبراً سوى البنيات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة وفَحْص اللَّجْ وأعمال شنتمرية كلها »^(١) .

بعد نزول النكبة بالأندلس الإسلامية بسقوط طُلَيْطُلَة وما حولها ، تَصَوَّر ملائِقَةَ أَنْ أَمْرَاءَ الطَّوَافِفَ كَافَةَ غَلَوْرَهْنَ إِشَارَتِهِ وَطَوْعَ بَنَانَهْ ، وَأَنَّهُ سِيقَضِي عَلَيْهِمُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخِرِ . لِذَلِكَ عَلِتَ مَكَانَتِهِ بَيْنَ مَلُوكَ النَّصَارَاءِ وَتَسْمِيَ بِـ« الْإِمْپَراَطُورُ » أَوْ بِـ« الْإِمْپَراَطُورُ ذِي الْمَلَتَيْنِ »^(٢) (الإِسْلَامِيَّةُ وَالنَّصَارَاءِ) . بَدَأَ يَسْعِي لِأَخْذِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ . نَشَرَ عُتُوهَ فِي الْأَرْجَاءِ دُونَ التَّزَامِ بِعَهْدِهِ أَوْ صِيَانَةِ الْخَلْقِ أَوْ رِعَايَةِ الْإِنْسَانِ « وَعَنَا الطَّاغِيَةِ أَدْفُونْش - قَصْمَهُ اللَّهُ - لَحِينَ اسْتَقْرَارِهِ بِطُلَيْطُلَةِ وَاسْتَكْبَرَ ، وَأَخْلَلَ بِمَلُوكَ الطَّوَافِفِ فِي الْجَزِيرَةِ وَقَصْرَ ، وَأَخْذَ يَتَجَنَّبَ وَيَتَعَسَّبَ ، وَطَفِيقَ يَتَشَوَّفَ إِلَى اِنْتَرَاعِ سُلْطَانِهِمْ وَالْفَرَاغِ مِنْ شَأْنِهِمْ وَيَتَسَبَّبَ ، وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ وَقَوْا دُونَ مَدَاهِ ، وَدَخَلُوا بِأَجْمَعِهِمْ تَحْتَ عَصَاهِ »^(٣) .

لَكِنَّ الْأَمْرُ لَمْ تَجُرِ عَلَى هَوَاهِ لَا عَصَفَتْ بِهِ رِيَاحُ الْأَخْوَةِ فِي الْمَغْرِبِ ، كَاسِحةً أَئْمَهُ وَمَطَارِدَةً جَيْشِهِ . فَكَمَا يَقُولُ ابْنُ بَسَّامَ فِي الدَّخِيرَةِ : « فَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُؤْهِنِ أَيْدِيهِ ، وَمُبْطِلِ كَيْدِهِ ، وَجَزِيَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَاصِرَ الدِّينِ ، أَبَا يَعْقُوبَ يُوسُفَ ابْنَ تَاشْفِينَ ، أَفْضَلَ جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ ، بِمَا بَلَّ مِنْ رِمَاقَ ، وَنَفَسَ مِنْ خِنَاقَ ، وَوَصَلَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ مِنْ حَبْلٍ ، وَتَجَحَّمَ إِلَى تَلِيَّةِ دِعَاهَا وَاسْتَقَادَ مَا بِهَا ، مِنْ حَزَنٍ وَسَهْلٍ ، حَتَّى ثَلَّ عَرْوَشَ الْمُشْرِكِينَ ، وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »^(٤) .

(١) تاريخ الأندلس ، ٨٧ (نص ابن الكرديوس) .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٨٩ (نص ابن الكرديوس) ؛ أعمال الأعلام ، ٢٣٠/٢ ؛ دول الطوائف ، ١١٦ ؛ الإسلام في المغرب والأندلس ، ١٤٩ .

(٣) الدخيرة ، ١٣١ - ١٣٠/٤ . (٤) الدخيرة ، ١٣٢/٤ .

ثانيًا : الدّعوة إلى التّوحيد

ارتفعت - في الأندلس ، لهذا الوقت - دعوة جمع الشمل ، كان على رأس مَن تولاها العلامة القاضي الفقيه أبو الوليد الباقي^(١) (٤٠٣ - ٤٧٤ هـ) ، الذي سأقى الحديث عن جهاده لها ، وجهوده فيها^(٢) . عاونه في ذلك حاكم بَطْلِيُوسْ عمر الموكِل (٤٦٠ - ٤٨٤ هـ) بن المظفر بن الأفطَس . طاف أبو الوليد الباقي في مدن الأندلس وقواعده ، يبحث على جمع الكلمة ووحدة الصف . كان هذا قبل سقوط طُليطُلة ، سين عديدة استمرت بعد سقوطها مدة ، تخللت بالخير في الزَّلَاقَة (٤٧٩ هـ) ، ثم استمر .

هذه الدّعوة التي حمت ونمّت ونضجت وأتت أكلها بعد سقوط طُليطُلة فكانت وقعة (معركة) الزَّلَاقَة الفاصلة .

ثار أهل طُليطُلة سنة ٤٧٢ هـ ضد حاكمها الضعيف (القادر) وخلعوه . بقيت المدينة دون أمير ، فاستدعي الموكِل صاحب بَطْلِيُوسْ ليتولى حكمها ويقوم بواجب حمايتها ، قبِيل ذلك مكرهاً « فدخل طُليطُلة عقب سنة اثنين وسبعين ، وأقام عندهم نحوًا من عشرة أشهر ، أصلَّى مِنْ يَدِهِ في رَحِيم ، وأذلَّ مِنْ لَحْمَهِ وضم . »^(٣) لكنه عاد إلى بَطْلِيُوسْ حين علم باستعانا القادر بأدفوُنْش ومقدمهما نحو طُليطُلة^(٤) .

أرسل أدفوُنْش إلى الموكِل بن الأفطَس حاكم بَطْلِيُوسْ طالبًا تسلیم بعض قلاعه وحصونه وتقديم أموال معينة ، ويتوعده بشر العاقب إذا هو لم يفعل . رغم صعوبة الموقف رفض الموكِل التهديد وردَّ على ملك قشتالة برسالة قوية تدل على الشجاعة والإباء . وهذا نصها :

(١) انظر : دول الطوائف ، ١١١ .

(٢) أدناه ، ٣٣٨ وبعدها .

(٣) النَّذِيرَة ، ١٢٤/١٤ . كذلك : أعمال الأعلام ، ١٨٠/٢ . أي : عاجز ضعيف .

(٤) انظر : دول الطوائف ، ١٠٨ . كذلك : أعلاه ، ٣٣٢ .

« وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ثم يفرق ، ويلدد بجنوده الوافرة وأحواله المتظافرة ، ولو علِمَ أنَّ الله جنوداً أعزَّ بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزَّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون . بالتفوى يُعرفون وفي التوبة يتضرعون . ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فبإذن الله ولعلم المؤمنين وليميز الله الحبيب من الطيب ويعلم المنافقين .

« أمّا تعيرك لل المسلمين فيما وَهِيَ مِنْ أحواهم فالذنب المركبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملأ علمت أي مصاب أذنك كما كانت آباءك تتجرعه فلم تزل تنيقها من الحمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه وإذا المال تورعه ، وبالآمس كانت قطبيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع النخائر التي كانت تفدى كل عام عليه ، وأمّا نحن إن قلَّتْ أعدادنا وعدم من المخلوقين استمدادنا فما بيننا وبينك بحرٌ نخوضه ولا صعبٌ نروضه إلاَّ السيف تشهد بحدّها رقاب قومك وجلاّد تبصره في ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين نقويَّ عليك ونستعين ، ليس لنا سوى الله مطلب ولا لنا إلى غيره مهرب ، وما تربصون بنا إلاَّ إحدى الحسينين ، نصر عليكم فيها من نعمة ومنة ، أو شهادة في سبيل الله فيها من جنة ، وفي الله العوض بما به هدَّتْ وفرج يفتر بما مددتْ ويقطع فيما أعددتْ . »^(١)

لعل المتكلِّم أيضًا أرسل القاضي العلامة الفقيه الحليل سليمان بن خلف ، شهرته أبو الوليد الباقي (بَطَلْيُوس ، ذو القعدة ٤٠٣ - المريّة ، رجب ٤٧٤ هـ) ، إلى حواضر الأندلس ، داعيًا إلى توحيد الصنوف^(٢) . يشير ابن الأبار إلى ذلك في الحلة السيراء بقوله : « ولما عَظُمَ عَيْثُ الطاغية أَذْفُونْش بنِ فِرْدِلَنْد ، وتطاول إلى الشغور ، ولم يقنع بضرائب المال انتدب للتطوّف على أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباقي ، ينذهب إلى كم الشعت ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحداً واحداً ، وكلّهم يصغي إلى وعظه . »^(٣)

(١) الحلل المروية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجهول المؤلف ، ٢٠ - ٢٣ . كذلك : دول الطوائف ، ٩٠ - ٩١ .

(٢) انظر : دول الطوائف ، ٩١ . (٣) الحلة السيراء ، ٩٨/٢ .

وأبو الوليد الباقي فقيه كبير معروف ، له مصنفات كثيرة^(١) . تولى – في عدة مدن أندلسية ، وكذلك في المشرق الإسلامي – القضاء والتدريس^(٢) . إنه أديب وشاعر . جمع شعره ابنه أبو القاسم^(٣) . وأبو الوليد الباقي هو الذي ناقش ابن حزم في جزيرة ميورقة^(٤) ، كبرى الجزر في المشرقية (البليار) . وحين أقام الباقي في سرقةسطة أيام حُكم المقتدر أحمد بن هود (حكمه : ٤٣٨ – ٤٧٤ هـ) تولى الرد على رسالة راهب فرنسي ، مفنداً فيها مزاعمه وداعياً إيهامه للإسلام^(٥) .

١ - الباقي والدعوة إلى توحيد الأندلس

في تَجَوُّل الباقي لدعوة ملوك الطوائف إلى التَّوَحُّد قضيتان بحاجة إلى عرض وبيان : أولاهما : هل أن الباقي قام بهذه الدعوة من تلقاء نفسه أو بتکليف من الم وكل صاحب بَطْلِيوس أو من غيره ؟ ثانيةهما : متى كان ذلك وكم استغرقت هذه المهمة ؟

القضية الأولى : يُفهم – من عدد النصوص – أن الباقي قام بهذا التطاويف من تلقاء نفسه . وذلك بعد عودته من رحلته إلى المشرق الإسلامي التي استمرت ثلاثة عشر عاماً (٤٢٦ – ٤٤٠)^(٦) « ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جم حَصَّله مع الفقر والتعفف . »^(٧) يقول صاحب الذخيرة في محسن أهل الجزيرة

(١) نفح الطيب ، ٦٩/٢ .

(٢) ترجمته في : نفح الطيب ، ٦٧/٢ ؛ الذخيرة ، ٦٢/٢ (خطوطة المتحف العراقي – بغداد) ؛ الصلة ، ٢٠٠/١ (رقم : ٤٥٤) ؛ المقرب ، ٤٠٤/١ ؛ المرقبة العليا ، ٩٥ ؛ بغية المتنس ، ٣٠٢ (رقم : ٧٧٧) ؛ الدياج المذهب ، ١٢٠ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٣٠٢/٤ ؛ خريدة القصر وجريدة مصر ، الماء الأصفهاني ، ٤٩٩/٢/٤ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٠٨/٢ ؛ العبر ، النهيبي ، ٢٨٠/٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٦ (نص ابن الشباط) ؛ الروض المطار ، ٣٦ .

(٣) نفح الطيب ، ٦٧/٢ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٧/٤ .

(٤) نفح الطيب ، ٦٧/٢ – ٦٨ ؛ التكلمة ، ابن الأبار ، ٣٩١/١ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٥/٤ .

(٥) راجع : دول الطوائف ، ٢٨٢ . نشر النص العربي للرسالتين في مجلة « الأندلس » الإسبانية : *AL-ANDALUS* , XVII , 2 (1952) , 287-310.

(٦) نفح الطيب ، ٧٦/٢ ؛ الصلة ، ٢٠١/١ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٤ – ٨٠٢/٤ – ٨٠٣ ؛ الدياج المذهب ، ١٢٠ ؛ المرقبة العليا ، ٩٥ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٠٨/٢ ؛ العبر ، النهيبي ، ٢٨٠/٣ .

(٧) نفح الطيب ، ٧١/٢ .

عن هذه المهمة بأن الباقي بعد عودته من المشرق : « لأول قدمه رفع صوته بالاحتساب
ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبتَ من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن آل
فرعون لو صادف أسماعاً واعية، بل نفح في عظام ناخرة وعطف على أطلال دائرة،
بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه في التأنس
والتقريب وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستقل طلعته، وما كان أقطن الفقيه رحمه
الله بأمرهم وأعلمهم بتدبرهم لكنه كان يرجو حالاً تثوب ومذنبًا يتوب . »^(١) يشير
المقرّي إلى هذا الأمر بقوله : « لما قدِم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر
عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً مفترقة ، فمشى بينهم في الصلح ، وهم يجِلُونه
في الظاهر ، ويستقلونه في الباطن ، ويستبردون نزعته ، ولم يف شيتاً ، فالله تعالى
يجازيه عن نيته »^(٢) . أما « مؤمن آل فرعون » – الوارد في نص ابن بسام هذا –
 فهو الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم : * وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتُمُ
إيمانه أنتللون رجلاً أن يقول ربَّ الله وقد جاءكم بالبيانات من ربِّكم وإن يكُ كاذباً
فعَلَيْهِ كذبُه وإنْ يكُ صادقاً يُصِيبُكم بعضُ الذي يَعِدُكم إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ
هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ *^(٣)

يدل هذا على أن الباقي هو الذي ابتدأ الأمر بالتطاوف على ملوك الطوائف ،
بحانب ما يفهم منه أنه ابتدأ بهذه الدعوة بعد عودته من المشرق الإسلامي إلى الأندلس
التي كانت سنة ٤٤٠ هـ . ولدينا إشارة واضحة بأن أبو الوليد الباقي سافر لأكثر من
ملك من هؤلاء الطوائف إلى الآخرين منهم ، كما يذكر المقرّي وغيره : « وكان
لما رجع إلى الأندلس فشا علمُه ، وتهيأت الدنيا له ، وعظم جاهه ، وأجزلت له
الصلات ، فمات عن مال وافر ، وترَسَّلَ للملوك ، وولي القضاء بعدة مواضع
رحمه الله تعالى . »^(٤) ورد مثله في موضع آخر ، إذ « كان يستعمله الأعيان في
ترَسُّلِهم »^(٥) . يذكر صاحب *الديباج المذهب* أنه « كان يستعمله الرؤساء في الرسل

(١) النخيرة ، ابن بسام ، ٦٣/٢ (مخطوطة المتحف العراقي) .

(٢) نفح الطيب ، ٧٧/٢ .

(٣) الآية ٢٨ من سورة غافر « المؤمن » .

(٤) نفح الطيب ، ٧٢/٢ . (٥) نفح الطيب ، ٧٧/٢ .

بینهم^(١) . أورد القاضي عياض أنه : « كان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم ويقبل جوائزهم ، وهم له على غاية البر^(٢) ». يفهم من هذه النصوص الأخيرة أنه كُلِّف بهذه المهمة وربما غيرها من قبل واحد أو أكثر من ملوك الطوائف . أما ملِيفُهم من نص الحلقة للسيرة^(٣) فهو أكثر وضوحاً حيث يبادر إلى ذكر انتداب المتوكل بن الأفطس له في هذا الأمر . انفق الباقي جُلَّ أو كل وقته خدمة الإسلام ، سواء في تدریسه الإسلام ، لاسيما الحديث الشريف ، أو التجول في دعوته إلى التوحيد الذي لم يكن يفتر عنه حتى خلال تطوفه الواسع . بل كان غرامه في التدریس - مثل غيره من العلماء - يجعله يدرس في كل أحواله ، فلقد قال أحد أصحاب أو تلامذة أبي الوليد الباقي « كان يخرج إلينا للإقراء ، وفي يده أثر المطرقة^(٤) » ، أي : من عمله اليدوي الذي كان يمتهنه .

سمت بالباقي تقواه وهمته لهذا الواجب ، فقام بهذه الدعوة - لعله من تلقاء نفسه - منذ وقت مبكر ، ولو على أي إطار . زار أكثر من مملكة للطوائف ، يقيم في كل منها مدة ليست بالقليلة . ثم زاد نشاطه اشتداداً حال الأندلس سوءاً منذ حادثة بَرْبَشْتُرُ (Barbastro) سنة ٤٥٦ هـ^(٥) . وما من شك أن هذه الحادثة أثارت الغيari من الناس ونبهتهم أكثر إلى الخطر الكامن وراء هذه الأحداث فحركتهم بازدياد .

من المالك التي زارها الباقي في غرب الأندلس - بعد تجواله في شرقها - مملكة بَطَلْيَوس (حيث بنو الأفطس) ، المدينة التي ولد فيها . لعله تولى هناك بعض المهام وقام بالتدریس . غير بعيد أن دعوته لم تُوجَّه إلى ملوك الطوائف فحسب بل كانت موجهة أيضاً إلى عموم الناس ، يدعو إلى ذلك في تدریسه وصلاته الأخرى ، وكان تولى قضاء بَطَلْيَوس وغيرها . ارتأى المتوكل - أمام سوء الحالة - أن يرعى هذه القضية ، فدعَّم الباقي في مجده وشدَّ من عضده ، فكلَّفه أو وجهه إلى

(١) الدياج المذهب ، ابن فرحون ، ١٢٠ .

(٢) ترتيب المدارك ، ٣ - ٨٠٥/٤ .

(٣) الحلقة للسيرة ، ٩٨/٢ (= أعلاه ، ٣٣٧) .

(٤) نفح الطيب ، ٧٧/٢ . (٥) انظر : أدناه ، ٣٥٩ وبعدها .

الجهاد ، فأخذت هذه الدعوة طريقها الرسمي بعد ذلك .

القضية الثانية : توفرت معرفة عدة مدن وقواعد أندلسية زارها الباقي ، فيذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك حين ترجمته لأبي الوليد الباقي : « وكان أكثر تردد أبي الوليد بشرق الأندلس ما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية »^(١) . يشير هذا أنه زار غير هذه المدن وأقام فيها ، سواء في شرق الأندلس أو في غربيها ، لاسيما بطالبيوس . كما أنه زار جزيرة ميسورقة ، حيث ناقش ابن حزم هناك^(٢) . ويؤخذ من بعض المعلومات والنصوص أنه أقام في بعض المدن الأندلسية مُدداً ليست قليلة ، مما قد يؤكّد أن مهمته وما انتَدَبَ إليه نفسه لم تقتصر على ملوك الطوائف بل يمكن أن يكلّم عموم أهل الأندلس خلال إقراهه وتدریسه في المساجد وغيرها . لعله أقام في سرقسطة مدة طويلة ، وربما تردد إليها أكثر من مرة وعمل في محاكمها واتصل بمحاكمها كما يتضح من كتابة رسالته التي تولى فيها الرد على رسالة الراهب الفرنسي^(٣) . إن أحد ابنيه (أبو القاسم خلف وأبو الحسن محمد) أبو الحسن محمد « توفي في حياة أبيه بسرقسطة ، وكان نبيلاً ذكيًا مرجوًا ، فرثاه أبوه بمráي شجّية »^(٤) .

إلا أنه لم تتوفر معرفة كل المدن التي زارها وتاريخ ومدة تلك الزيارة أو نوع نشاطه واتصالاته أو نصوص مما خاطب به هؤلاء وأولئك أو أسلوب دعوته .

جلّ المصادر التي ترجمت له وذكرت تطوافه هذا ، على مدن الأندلس وقواعدها ، لم تُعيّن مدتّه أو تاريخ بدئه . لكن الظاهر أنه لم يبدأ بها تواً بعد عودته من المشرق (نحو سنة ٤٤٠ هـ) . لايمعن هذا أنه كان مهتماً بالدعوة إلى التوحيد في إطار محدود؛ لم يأخذ بعد شكل المهمة الرئيسية ، التي هي العنصر البارز المهم من زياراته وتجواله في الحواضر الأندلسية . إن نص ابن بسام في ذخирته والمقرئي في نفحه – الذي يبدو

(١) ترتيب المدارك ، ٣ - ٤/٨٠٣ .

(٢) نفح الطيب ، ٦٨/٢ ، ٧٧ . كذلك : أعلاه ، ٢٩٥ .

(٣) أعلاه ، ٣٣٨ .

(٤) ترتيب المدارك ، ٣ - ٤/٨٠٨ .

مقتبساً من الذخيرة - يشير إلى أن الباقي ابتدأ الدعوة - أو اهتم بأمرها - بعد عودته من المشرق . يَظْهُرُ هذا التوجيه السابق مناسباً ، لأن ابن بَسَّامَ (٥٤٢ هـ) كان قريباً العهد من هذه الأحداث ولابد أنه انتفع بشهاد عيَانَ ، رأى أو التقى بالباقي .

لعل الباقي تَوَلَّ الدعوة إلى التوحيد مُطْوِفاً في المدن الأندلسية ، بعد أن تولى مهام القضاء في أكثر من مدينة واشتغل بالتدريس وعُرِفَ مكانُه وذاع صيته العلمي . وكان خلال توليه هذه الأمور مهتماً بتلك الأحداث . بالإمكان القول إن حادثة بَرْبَشْتُرُ (٤٥٦ هـ) أَرَتْ حقيقة الحال وأوجبت المروع للقيام بعمل . إنها كانت محركاً آخر قوياً لأبي الوليد الباقي وغيره . فهل على ذلك يحسن تقدير تواجده أو إقامة أبي الوليد الباقي في سَرْقُسطَةَ - عاصمة مملكتها ، التي تقع فيها بَرْبَشْتُرُ - بعد هذه النكبة - من الممكن أن يكون قد تولى الدعوة إلى الجهاد ، التي أمرت استعادة بَرْبَشْتُرُ في السنة التالية . لعل الباقي أقام في سَرْقُسطَةَ - مدة سنوات - قبل هذه الأحداث أو بعدها . لاسيما وأن مملكة سَرْقُسطَةَ - التي يحكمها بنو هُود - كانت الثغر الأعلى المواجه لاسبانيا الشمالية وما يأتي من وراء البرُّت من هجمات.

جرى استقصاء - دون جدوى - لمعرفة تاريخ بدء تطوف الباقي ، بشكله الواضح أو الرسمي . لعدم توفر النصوص الكافية المتعلقة بهذا الموضوع المهم ، قَصَرَتْ المعرفة عن الإحاطة به . ثم كان الاطلاع على ترجمة عبد العزيز بن عبد الله ابن هُذَيْل العَبَدَرِيِّ - التي ينقلها صاحب الحلل السنديسيَّةَ^(١) عن تكملة ابن الأبار - التي ألقى بصيصاً على جانب من هذا الموضوع . تنص على أن ابن هُذَيْل من أهل قلعة أَيُوب يكفي أبا يونس . يَرَوِي عن أبي الوليد الباقي سمع منه صحيح البخاري بِسَرْقُسطَةَ في جيشه رسولاً إِلَيْهَا في رجب سنة ٣٧٠ هـ^(٢) . الظاهر من هذا أن ذَهابه إلى سَرْقُسطَةَ - هذه المدة - كان خلال تطوفه الرسمي ، وجرى بعد معرفته لسَرْقُسطَةَ قبلها وذَهابه وإقامته فيها قبل ذلك . ثم وجدت عبارة في ترتيب المدارك تُلْقِي ضوءاً زائداً على هذا الأمر ، أورها القاضي عياض

(١) الحلل السنديسي ، شكيب أرسلان ، ٩٧/٢ .

(٢) التكملة ، ٦٢٣/٢ (رقم : ١٧٤١ ، نشر كوديرا) .

في آخر ترجمته للباجي . ينتهي قول أبي علي الجياني عن الباجي بأن « ولده في ذي القعدة سنة ثلث وأربع مئة ، وتوفي بالمرية سنة أربع وسبعين لسبعين عشرة خلت من رجب وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفُهم على نصرة الإسلام ، ويَرِوم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين على ذلك ، فتوفي قبل تمام غرضه رحمة الله . »^(١) يُلقي هذا النص ضياءً على مسألة أخرى قادمة ، هي أن دعوة المرابطين لنصرة الأندلس كانت مبكرة ، سبقت سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) بعده سنوات . إن نصيّي ابن الأبار والقاضي عياض يشيران إلى أن الباجي كان سفيراً تَجَوَّل في مالك الطوائف ، داعياً أمراءها إلى الوقوف صفاً واحداً وتبذل منازعاتهم وخلافاتهم التي تُودي بهم جميعاً . هو أمر لا ينسجم مع الإسلام الذي يرفضه ويقرنه بالكفر . إنه يؤدي إلى الضياع ~~*~~ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ~~*~~^(٢)

وُجد - خلال المتابعة المستمرة - أن أبي الوليد الباجي كان في بلنسية سنة ٤٦٨ هـ يُدرّس صحيح البخاري كما كان يفعل في سرقسطة . يُشير هذا إلى أنه كان يدرس العلوم التي مهر فيها وأنه بها يُذكّر الناس ويدعوهـم إلى التمسك وتجهيز النبع الصافي في قلوبـهم . كان يفعل ذلك في تدرسيـه أو يعمد للحاديـث عنه ، كلاماً يقوم على متابـعـة الشريـعة الإسلامية ، من : القرآن الكريم والـسنة النبوـية الشـريـفة المـطـهـرة . ورد عند ابن الأبار - في تكمـله ، حين ترجمـ أبو مروـان ابن السـمـاد المـقـري - أنه : « من أهل بلنسـية وصـاحـبـ الصـلاـةـ والـخطـبةـ بـهـ بـعـدـ تـغلـبـ الرـومـ عـلـيـهـ . سـمعـ منـ أبيـ الـولـيدـ البـاجـيـ صـحـيقـ البـخـارـيـ سـنةـ ٤٦٨ـ هـ . »^(٣)

ثم كان التعرف على ما ذكره ابن الأبار حين ترجم لأبي الحسن ذيـالـ بن عبد الرحمن بن عمر الشـريـوني - من أن « له سـمـاعـ بـسـرقـسطـةـ منـ أبيـ الـولـيدـ البـاجـيـ ، معـ أبيـ دـاـوـدـ المـقـريـ وـأـبـيـ مـحـمـدـ الرـكـلـيـ وـغـيرـهـماـ فيـ سـنةـ ثـلـاثـ وـسـتـيـنـ وـأـرـبـعـ مـئـةـ . »^(٤)

(١) ترتيب المدارك ، ٣ - ٤ / ٨٠٨ . كذلك : كتاب الوفيات ، ابن قنـدـ القـسـطـنـطـيـ ، ٢٥٥ .

(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .

(٣) التكملة ، ٢ / ٦٩٧ (رقم : ١٧٧٧) . كذلك : التكملة ، ١ / ٢٩٨ (رقم : ٨١٣) .

(٤) التكملة ، ١ / ٣٢٠ (رقم : ٨٦٤) .

يتبين — مما سبق — أن دعوة الباقي استمرت عدة سنوات ، تحول خلالها في مدن وقواعد أندلسية كثيرة ، في مختلف جهات الأندلس^(١) . كان حامل هذه الرأي قبل أن يُكلَّف بها رسمياً . لعل همته وجهده ومسعاه هي التي حولت هذه المهمة إلى شكلها الرسمي بالنسبة له . ليس من الشطط أو البعد عن الصواب اعتبار قيامه بها منذ وقت مبكر ، يسبق سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) بعدين من السنين أو يزيد ، وتوسّم أو نوّه بدعة المرابطين بحوال العقد قبل هذا التاريخ . إن تحول اضطلاعه بهذا الأمر بشكل رسمي كان — حسب النصوص المتوفرة — ليس بعد سنة ٤٧٠ هـ بل قبلها . أنفق سنوات قبل ذلك بشكل تطوعي . إن هذا التنبه والوجهة وأخذ هذه المهمة استثيرت عنده ، بعد عودته من المشرق ، حين عاد ورأى سوء الحال . استمر في ذلك يشتد ويقوى . أثارته حادثة بِرْبَشْتُرُ (٤٥٦ هـ) بشكل قوي وهزته عنيفاً فقام بين مدن الأندلس وملوك الطوائف كمؤمن آل فرعون ، كما عَبَرَ عنه ابن بسام^(٢) . وما زال البحث بانتظار نصوص أخرى تجلّي هذا الأمر .

٢ — دعاة آخرون

لم يكن الباقي هو الوحيد الذي دعا إلى لَمَّ الشعث . بل إن عدداً من العلماء الأعلام والحكام المسؤولين قاموا بذلك^(٣) .

كانت أحوال الأندلس في مثل هذه الظروف منذرة بخطر ، جعل عدداً من العلماء الأعلام أمثال الباقي وبعض حكام الطوائف كالمتوكل بن الأفطس يتخدّن تنبئه هذا الشكل العملي ، دعوة بدورها جَسَّمت الخطر . اطلع المتوكل على حال طليطلة عن قرب ، خلال حكمه لها سنة ٤٧٣ هـ ، لعشرة شهور تقريباً بدعة من أهلها^(٤) . بدت هذه الأخطار بآبعادها محبّسة أمام ناظريه . لعل الذي قدح الزناد وأبان النار المتوقعة من تحت الرماد في الإفصاح عن الخطر ما كان من أحداث وقعت

(١) انظر كذلك : الصلة ، ٤٢٢ (رقم : ٩٠٤) .

(٢) أعلاه ، ٣٣٨ – ٣٣٩ .

(٣) انظر : المغرب ، ٢٣٩/١ . كذلك : المرقبة العليا ، ٨٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٣١/٢ .

(٤) الذخيرة ، ١٢٤/٤ . كذلك : الحلقة السيراء ، ٩٨/٢ ؛ دول الطوائف ، ١٠٨ ؛ الحلل السنديمية ، ١٩٥/٢ ؛ أعلاه ، ٣٣٦ .

على التغور وما قام به الأدْفُونش (الفونسو السادس) من عمليات التناوش لإنهاك طُلَيْطُلَة وإضعاف مقاومتها وإهلاك محاصلتها لتخريب حصانتها^(١).

الظاهر أن هذه الأمور وأمثالها تخللت تطوف الباقي في الأندلس ودعوته لأمرائها، وأنها التي هيأت مثل هذه الخطوة قبل سقوط طُلَيْطُلَة بربع قرن أو دونه . وتحرك غيره مثل هذا الأمر .

أعطى عدد من العلماء والأمراء اهتمامه بهذا الأمر ، على تفاوت في همتهم وجهدهم ، سرعة ومقداراً . تردّدت استجاباتهم بالكلام المبorth في : رسالة موجهة أو كلمة للبيان الوصفي للحال أو الحزن عليهم والشكوى منهم أو الدعوة لجمع الصدف ونبذ التفرق ، وصفاً للداء وبياناً للعلاج ؛ أو يكون في دعوة عملية آخذة بالتنفيذ وبذل الجهد والمجهود . كانت دعوة الباقي مثلاً عملياً كاملاً واضحاً ، وتأييد المتوكل بن الأفطس له يأتي في المقدمة لهذه الظاهرة . وباستعراض الأحداث نجد الأمثلة المتعددة المتفاوتة .

كان أبو الحَزْم جَهُورَ بن محمد بن جَهُورَ (٣٦٤ : ٤٢٢ - ٤٣٥)^٥ أحد الأفضل الداعين للوحدة ، منذ ملامح عصر الطوائف . سعي لها – مدة – حشيشاً ، فما أفلح ؛ فأعلن إلغاءها سنة ٤٢٢ هـ ، وتولى هو رياسة حكومة قُرُطبة . تولى أبناؤه – بعده – حكمها^(٢) ، حتى ضمت لحكومة اشبيلية سنة ٤٦١ هـ . بذل ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) العالم الفقيه في هذا الأمر محاولات عدّة^(٣) ، لم تسفر عن طائل . كما وجه النقد اللاذع للملوك الطوائف لهذه الحال^(٤) . فعل مثله

(١) انظر : أعلاه ، ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) عنه وعن الدولة المبوريّة انظر : الذخيرة ، ١١٤/٢/١ - ١٢٦ ؛ جنوة المقتبس ، ٢٧ - ٢٩ ، ١٨٨ (رقم : ٣٥٨) ؛ الصلة ، ابن بشكوال ، ١٣١ (رقم : ٣٠٠) ، ٥٤٦ (رقم : ١١٩٥) ؛ المغرب ، ٥٦/١ ، ١١٧ ؛ الحلقة السيراء ، ٣٠/٢ - ٣٤ ؛ البيان المغرب ، ١٨٥/٣ - ١٨٧ ، ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٦١ - ٢٥٥ ؛ العبر ، ٣٤٤ - ٣٤٢/٤ ؛ أعمال الأعلام ، ١٤٧/٢ - ١٥١ ؛ أعلاه ، ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٢٦٥ ؛ اندلسيات ، ١١٧/١ - ١١٨ . كذلك : طوق الحلة ، ٨٥ - ٨٦ ، ١١٨ .

(٤) أدناه ، ٣٦٥ .

ابن حيّان في تخليلاته حين تحدث عن الطوائف وعن نكبة بَرْبَشْتُر^(١) (٤٥٦ هـ) ، التي بكأها بشعره الشاعر الفقيه الزاهد أبو محمد عبد الله بن العسّال الطُّلَيْطُلِي (٤٨٧ هـ)^(٢) . شارك ابن العسّال بشعره في الحث للإنقاذ واستئارة الهمم للالتزام ، وفي إصلاح النفس وأخذها بتقوى الله وطاعته والجهاد في سبيله . ماثله قرينه الشاعر الغرناطي أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري (٤٦٠ هـ)^(٣) ، الذي كان « من أهل العلم والعمل ، شاعرًا مُجوَّدًا ، وشعره مدون ، وكله في الحِكم والمواعظ والأزهار ؛ ومسلكه سلك أبو محمد العسّال الطُّلَيْطُلِي وكانت فرسى رهان في ذلك الزمان صلاحًا وعبادة ». ^(٤) وهذا التوجّه يصلح مناسبة للقول :

إن الدراسات الأدبية الحالية قَصْرٌ باعُها ، وضاق مداها ، عن استيعاب هذا اللون من الإنتاج الأدبي النظيف – عمداً أو زهداً – وهو جدّ كثير في الأندلس وغيره . لكن « هذه الدراسات » تفتحت في فنون جانبية سطحية ، ضخمتها ، لإعطاء صورة مشوهة للحياة . دراسة الإنتاج الأدبي الأصيل النظيف – شعره ونثره – هو اليوم خصب المجال للدارسين . تجمعت خلال المتابعة منه قدر كبير من المادة العلمية الأصيلة صالح لبناء صرح منهجية جديدة ذات قواعد علمية ومقومات جديّة تقدم نوعية قوية من الإنتاج والدراسة الواقعية على أساس منهج واضح أmin ، غير ما هو شائع ومتّلوف . أُعطي اسم لشعراء هذا اللون من الإنتاج النظيف « صالح الشعراء ». هو غزير المادة العلمية كثير النماذج واضح الطبيعة قوي المعاني رقيق العاطفة عميق الإحساس سلس الأسلوب منسجم التعبير سليم التفكير عفيف المعنى بعيد المرمي رراق الوجه ومصدق النفس مطوع الإنشاد مكين العبارة . يرسم صورة دافقة صادقة : سواء وهي مشعرة مضيئة أو باكية بالحزن والشكوى مليئة تسعى للبناء وتدعوا للصفاء في درب خير أmin تَحْفَهُ الطلال ويغمّره من الله نور وكتاب مبين * * *^(٥) . ترى اليوم بواكيর

(١) أدناه ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ .

(٢) الروض المطار ، ٤٠ - ٤١ . انظر ترجمته ؛ الصلة ، ٢٨٥ (رقم : ٦٢٩) ؛ المغرب ، ٢١/٢ .

(٣) انظر ترجمته : المغرب ، ١٣٢/٢ ؛ التكملة ، ١٣٦/١ - ١٣٧ (رقم : ٢٥٢) ؛ أعمال الأعلام ،

٢٢١/٢ - ٢٢٣ .

(٤) التكملة ، ١٣٦/١ . (٥) من الآية ١٥ من سورة المائدة .

إنما ينادي هذا الاتجاه العلمي الرشيد ونرجو لها من الله تعالى السداد ومزيد .
كان ما سطره أبو عمر يوسف بن عبد البر^(١) (قرطبة ، ٣٦٨) – شاطبة ،
٤٦٣ هـ) وابنه أبو محمد عبد الله (٤٥٨ هـ)^(٢) حول ذات النكبة^(٣) يقوى ويبني
هذا الاتجاه .

تقلب أبو عمر بن عبد البر في عديد من مدن الأندلس ، يُدرّس ويقرئ
ويؤلف . أقرأ في بلنسية سنة ٤٥٣^(٤) ، وكان قد « فارق قرطبة وجال في غرب
الأندلس مدة ، ثم تحول إلى شرق الأندلس وسكن دانية من بلادها ، وبَلَنْسِيَة
وشَاطِيَة ، في أوقات مختلفة . وتولى قضاء الأشْبُونَة وشَنْتَرِين في أيام ملكها
المظفر بن الأفْطَس »^(٥) .

كان رحيله عن مدنه قُرْطُبَة في الفتنة فكان بغرب الأندلس ، ثم تحول منها إلى
شرق الأندلس فتردد فيه ما بين دَانِيَة وَبَلَنْسِيَة وشَاطِيَة^(٦) . لابد أن لقاءً تم
بين الباقي وابن عبد البر الذي « ذكره القاضي أبو الوليد الباقي في كتاب الفرق ولم
يكن الذي بينهما بالحسن لتجاوزهما سُودَ العِلْم في وقتهم »^(٧) كذلك كان ابن عبد
البر في بَلَنْسِيَة سنة ٤٥١ هـ^(٨) . لعله كذلك اهتم بالدعوة إلى جمع الشمل ، خلال
تنقله وتدریسه .

توفر في الأدب – شعره ونثره – إنتاجُ النكبات هذه ، سواء الباكي لها أو
الداعي للتبني على مواطن الخطر لأخذ الحيطه وتجنب المثليل أو استعادة ما ضمر من

(١) انظر ترجمته : الصلة ، ٦٧٧ (رقم : ١٥٠١) ؛ المغرب ، ٤٠٧/٢ ؛ الديباج المذهب ، ٣٥٧ ؛
ترتيب المدارك ، ٣ – ٤٠٨/٤ .

(٢) انظر ترجمته : الصلة ، ٢٧٩ (رقم : ٦١١) ؛ المغرب ، ٤٠٢/٢ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٦٨
(رقم : ٥٥٦) ؛ نفح الطيب ، ٥٩٧/١ ؛ اعتاب الكتاب ، ٢٢٠ .

(٣) انظر : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، إحسان عباس ، ١٧٧ .
(٤) فهرسة ابن خير ، ٨٥ .

(٥) وفيات الأعيان ، ٦٧/٧ .

(٦) ترتيب المدارك ، ٣ – ٤٠٨/٤ .

(٧) ترتيب المدارك ، ٣ – ٤٠٩/٤ .

(٨) التكملة ، ١٣٧/١ .

الأوطان وسقط من المحبة وإزالة بؤس النكبة . ممكن أن يسمى هذا النوع « رثاء المدن (أو : البلدان) أو « الرثاء البلدي » أو « الرثاء السياسي ». مرت منه أمثلة وتلوه أخرى^(١) .

من العلماء الذين خاضوا في ذلك الأديب المحدث أبو حفص عمر بن حسن الموزي (٣٩٢ - ٤٦٠ هـ)^(٢) ، من أهل إشبيلية . لقى الموزي - أثناء سكناه بشرق الأندلس - أبي الوليد الباقي^(٣) . هو الذي كتب إلى أبي عمرو عبَّاد المُعْتَضِد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) بعد نكبة بَرْبَشْتُر^(٤) (٤٥٦ هـ) - رسالة يحثه على الجهاد ، لكنه قتل فيما بعد بيد المعتصد نفسه^(٥) .

ترجم ابن الأبار في التكملة أبا المعالي إدريس بن يحيى بن يوسف الوعظ (من أهل إشبيلية) ، قال : إنه « كان يجول في البلاد يعظ الناس وينذّرهم . »^(٦) سمع منه بالمرية أبو علي الصدّاف (٥١٢ هـ) سنة ٥٠٦ هـ . غير بعيد أن يكون في وعظه نصيب واضح في الدعوة إلى الالتزام . ولا بدّ أنه أفق طويلاً في تجوّله ودعوته ، إذ سمع ينشد في مسجد رَحْبَة القاضي من يلنسية أبياتاً منها^(٧) :

أنا في الغربة أبكي ما بكت عينُ غريب
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيّب
عجبًا لي ولتركي وطني فيه حبيبي

كان المسجد في هذا النشاط وغيره ميدانًا رحباً ومحلاً مألفاً عذباً ، قبل غيره ؟

(١) انظر : تاريخ الأدب الأندلسي ، ١٧٧ - ١٨٧ ؛ أدناه ، الفصل الثامن .

(٢) انظر : المغرب ، ٢٣٩/١ - ٢٤٠ ؛ نفح الطيب ، ٩٣/٢ ؛ الصلة ، ٤٠٢ (رقم : ٨٦٥) . كذلك : تاريخ الأدب الأندلسي ، ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) ترتيب المدارك ، ٣ - ٤/٨٢٥ .

(٤) راجع : المصدر السابق . كذلك : الحلقة السيراء ، ٤١/٢ . توفر مثال آخر ، انظر : البيان المغرب ، ٢٣٩/٣ . قارن : التكملة ، ٤١٩/١ (رقم : ١١٩١) .

(٥) التكملة ، ١٩٥/١ (رقم : ٥١٩) .

(٦) التكملة ، ١٩٦/١ .

فهو محسن كل عمل خير وألهه ودعاته .

الظاهر أنَّ أبا بكر محمد بن أحمد بن حسن بن إسحاق بن عبد الله بن إسحاق بن مهلب بن جعفر (نحو ٤٥٠ هـ)، من أهل قرطبة، تطوع في إزالة خلافات بين ملوك الطوائف وسعى بينهم بجمع كلمتهم ، فـ « هو من بيت وزارة وجلاله . »^(١) مما نال به مكانة عند ملوك الطوائف ، « وكانت له عند ملوك الأندلس في عصره حُظْوة ومكانة يَسْفِر لأجلها بينهم في تسكين ما ينبعث لبعضهم مع بعض أيام الفتنة . »^(٢) كان من تلامذة أبي بكر هذا ، الذي سلك سبيله في الوعظ والتذكرة ، أبو عبد الله محمد بن سفيان بن أبي إسحاق الواعظ ، من أهل بلَّنسِيَّة . هو الذي سمع أبي المعالي يشيد أبياته السابقة في مسجد رَحْبَة القاضي . كان أبو عبد الله « يعظ بمسجد المشهور بمسجد الغَلَبَة . »^(٣) في بلَّنسِيَّة .

وذُكر عن أبي عبد الله محمد بن حسين بن عُرِيب الأنصاري (بعد ٥٠٨ هـ) من أهل طُرْطُوشَة أنه « سكن سرقسطة وتجولَ كثيراً في بلاد الأندلس والعلوَّة ... وكان وجهاً عند الملوك متربداً عليهم . »^(٤) فعله قام بما يجب عليه من المساهمة في الدعوة إلى للتوحيد .

باستطاعة دارس هذا الموضوع « الدعوة إلى توحيد الأندلس أيام الطوائف » - الذي يستحق أن تكتب فيه رسالة جامعية - أن يجد كثيراً من أخبار الأحداث والأشخاص الذين عملوا في هذا الشأن . غير بعيد أن يكون أبو الوليد الْوَقَشِي^(٥) (وقش ، ٤٠٨ - دانيَّة ، ٤٨٩ هـ) قد شارك بهذه المهمة^(٦) . الظاهر أنه كان في طُلَيْطُلَة أواسط القرن الخامس^(٧) ولم يتوفَّر تاريخ رحيله إلى بلَّنسِيَّة ، إلا أنه - في خبر -

(١) للتكلمة ، ٣٩٠/١ (رقم : ١٠٩٠) . (٢) للتكلمة ، ٣٩٠/١ .

(٣) للتكلمة ، ٤١٤/١ (رقم : ١١٧٤) .

(٤) التكلمة ، ٤١١/١ (رقم : ١١٦٤) .

(٥) الصلة ، ٦٥٣ (رقم : ١٤٣٧) ؛ معجم البلدان ، ٤/٩٣٥ - ٩٣٦ ؛ المطربي ، ٢٢٤ ؛ الروض المطار ، ١٩٦ .

(٦) قارن : البيان المغربي ، ٤/٣٩ .

(٧) التكلمة ، ١٣٦/١ (رقم : ٣٥١) .

كان موجوداً بها في رجب سنة ٤٧٧ هـ^(١).

وقد تكون مشاركة في هذا الميدان للفقيه الزاهد ابن أبي رندقة أبي بكر محمد ابن الوليد الطرطوشى (طرطوشة ، ٤٥١ - الإسكندرية ، ٥٢٠ هـ) الذي « صاحب القاضي أبا الوليد الباقي رحمه الله تعالى بسرقسطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجازه ، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بمدينة إسبانيا ، ثم رحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعين ، ودخل بغداد والبصرة ، فتفقه عند أبي بكر الشاشي ، وأبي محمد الحرجاني ، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري ، وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان راضياً باليسير .»^(٢) ، « وكان رحمه الله تعالى زاهداً ، متورعاً ، متقللاً من الدنيا ، قوّالاً للحق .»^(٣)

آخرون ممكّن أنهم خاضوا هذا الميدان ، على أي إطار . أمثال : القاضي الفقيه أبو الوليد محمد بن رشد (٤٥٠ - ٥٢٠ هـ) قاضي الجماعة بقرطبة . هو ابن رشد الأكبر والحدّاب ابن رشد الأصغر الفيلسوف^(٤) (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) . كان الحدّاب « من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمّت ، والمهدى الصالح . . . وكان الناس يلتجأون إليه ، ويُعوّلون في مهماتهم عليه وكان حسناً الخلق ، سهل اللقاء كثیر النفع خاصته وأصحابه ، جميل العشرة لهم حافظاً لعهدهم كثيراً لبرهم .»^(٥)

كذلك أبو مروان عبيد الله بن مالك الذي « كان كثير الجهاد والرباط مذكراً للعامة يقرأ عليها كتب التفسير والرقائق .»^(٦)

(١) التكملة ، ٨٢٢/٢ (رقم : ٤٠١٠) . كذلك : التكملة ، ٤٢٣/١ - ٤٢٤ (رقم : ١٢٠٤) .

(٢) نفح الطيب ، ٨٨/٢ . كذلك : الصلة ، ٥٧٥/٢ (رقم : ١٢٦٩) ؛ وفيات الأعيان ، ٤/٤ . ٢٦٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٨٧/٢ .

(٤) التكملة ، ٥٥٣/٢ (رقم : ١٤٩٧) ؛ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاة والفتيا، أبو الحسن الباهي . ١١١ .

(٥) الصلة ، ٥٧٦/٢ - ٥٧٧ . كذلك : المرقبة العليا ، ٩٩-٩٨ . قارن : المغرب ، ١٦٢/١ ؛ الذيل

والتكملة ، ٢٨/١ (رقم : ١١) .

(٦) ترتيب المدارك ، ٣ - ٤/٨١٤ .

لكن مع هذه الأحوال وتلك الصيحات فإنَّ أغلب ملوك الطوائف بقوا في
غيَّهم سادرين ، ففوتوا فرصة التَّامِ أحْلَتْ بهم مصيبة وأوقعت الكارثة فسقطت
طُليْطُلَةً ، إحدى قواعد الأندلس ومراكز القوة فيه .

لا شكَّ أنَّ سقوط طُليْطُلَةً أكَدَ مثل هذا الموقف الرهيب ، لأنَّه أشار إلى
المخاطر المحيطة بالأندلس . الأمر لا يتوقف عند سقوط طُليْطُلَةً ، بل هو
سقوط أول حجر من الصرح ، ولا بدَّ من تدارك الحال . تخوفاً من هذا المصير
قال عبد الله بن فرج البَحْصُي المشهور بابن العَسَّال^(١) :

حُشُوا رَوَاحْلَكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
السَّلْكُ يُنْشَرُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى سَلَكَ الْجَزِيرَةِ مُنْثَرَّاً مِنَ الْوَسْطِ
مَنْ جَاءَ الشَّرَّ لَا يَأْمَنُ عَوَاقِبَهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَاةِ فِي سَفَطِ
لَكَنَّ أَلِيسَ الرَّحِيلُ هُوَ الْغَلَطُ بِعِينِهِ ، بَلْ هُوَ الْجَنْ الشَّدِيدُ وَالْأَنَانِيَةُ ؟

لم تسقط مدينة طُليْطُلَةً وحدها – في هذه الأحداث – بل سقط أيضاً عدد
من المدن والخصون حولها ، بلغت – فيما يذكر بعض المؤرخين – ثمانين منبراً ،
بين مدن وقرى^(٢) . كان لسقوطها وقع أليم مُرْبِيع لا في الأندلس وحدها بل في
سائر أنحاء العالم الإسلامي الواحد المتوحد . كما أنها أظهرت تقصير ملوك الطوائف
ومسؤوليتهم عنها ، نتيجة لسياساتهم المنحرفة . نُظِّمت في سقوط طُليْطُلَةَ
القصائد ، منها :

لَكُلُّكَ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الشُّعُورُ
لَقَدْ قُصِّمَتْ ظَهُورُ حِينَ قَالُوا
طُليْطُلَةً أَبَاحَ الْكُفُرُ مِنْهَا
مَسَاجِدُهَا كَنَائِسٌ أَئِ قَلْبٌ
سَرُورًا بَعْدَ مَا سُبِّيَتْ ثَغُورُ
أَمِيرُ الْكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورٌ
حِمَاهَا إِنَّ ذَا نَبَأً كَبِيرٌ
عَلَى هَذَا يَقْرَرُ وَلَا يَطِيرُ
يُكَرِّرُ مَا تَكَرَّرَتِ الدَّهَورُ

(١) نفح الطيب ، ٤/٣٥٢ ؛ رأيات المبرزين ، ابن سعيد الأندلسي ، ٥٠ . كذلك : الذخيرة ، ٢/١٥٩ .

(٢) (خطوطة المتحف العراقي) . عنه انظر : أعلاه ، ٣٤٦ .

(٢) أعلاه ، ٣٤٥ .

يَطُولُ لَهُوَلِهِ اللَّيْلُ الْقَصِيرُ
 طُلَيْطُلَةً تَمَلَّكَهَا الْكَفُورُ
 عَسَى أَنْ يُجْبِرَ الْعَظِيمُ الْكَسِيرُ
 وَنَرْجُو أَنْ يُتَبَعِّثَ اللَّهُ نَصَارَأُ
 وَهِيَ ٧٢ يَبِينَ أَوْرَدَهَا الْمَقْرِيُّ فِي نَفْحِ الطَّيْبِ^(١) ، لِمَجْهُولٍ .

يبدو أن بعض ملوك الطوائف هؤلاء كان فيهم شيء من معانٍ الخير - مهما هزَّتْ - يمكن أن تستجيب لنداءً كريم وتنكأْنَتْ لدفع البلاء وتُبْدِي ضرورةً من الشُّجَابَة والفاء ، وقد رأينا جهدَ المُتَوَكِّلِ بْنَ الْأَفْطَسِ^(٢) . كان من استجاب للدعوة التوحيد والالئام وقام بها المُعَتمِدُ بْنُ عَبَادَ أمير إشبيلية . سُرِّيَّ كيف يَقُوِّي هذا الاتجاه ويتوَجَّ باستدعاء المرابطين . يقف الجميع صفاً واحداً ليُسطِّروا مائرةَ الزَّلَاقَةِ^(٣) ؛ التي كانت واحدةً من النتائج السريعة لسقوط طُلَيْطُلَةِ إحدى القواعد الأندلسية الكبرى .

على أثر استدعاء المرابطين للأندلس تغير الأحوال . تدور معارك عديدة بين المسلمين (المرابطين والأندلسين) وبين قوات قشتالة التي تصاب بخسائر كبيرة ، أو لها معركة الزَّلَاقَةِ سنة ٤٧٩ هـ . آخر معركة يخوضها جيش أَدْفُونْش (السادس) هي معركة أَقْلِيش . تقع مدينة أَقْلِيش (Ucles) شمال جبال طُلَيْطُلَةِ إلى الشرق ، وذلك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . انتصر فيها المسلمين انتصاراً عظيماً أعاد ذكريات وقعة الزَّلَاقَةِ . لا يفوتنا أن الأندلس دخلت - بعد الزَّلَاقَةِ - سلطان المرابطين ، الذين استمروا مجاهدين في الأندلس ، حيث بدأهُ أميرهم يُوسُفُ بن تَاشِفِين (٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م) . حمله مَنْ جاءَ بعده ، مواصلين العمل من المغرب ، أو بالعبور إلى الأندلس مرات ، قصدَ الجهاد .

نتيجةً معركة أَقْلِيش أَثْرٌ بالغ السوء لأَدْفُونْش ملك قشتالة ، ليس فقط

(١) نفح الطيب ، ٤/٤٨٣ - ٤٨٦ .

(٢) أعلاه ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ .

(٣) أدناه ، ٣٤٥ وبعدها .

للحسارة الكبيرة التي أُصيب بها جيشه ، رغم تفوقه في العدد ، لكن لمقتل ابنه الوحيد شانجه في المعركة . وهو من زوجته (أو حظيته) زائدة (أو سيدة) ، المسلمة التي تنصرت فيما يذكر . وربما أُجبرت أو حُملت على ذلك . وهي كنَّة المعتمد بن عباد . إذ كانت زوجة ابنه أبي نصر الفتح الملقب بالمؤمن ، حاكم قرطبة الذي قتل أثناء عمليات المرابطين لدخولها سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)^(١) . أشاع بعض كتبة التاريخ الأوروبيين أنها ابنة المعتمد قدمها إلى أدفونش (القونسو السادس) خليلة ، بل تم في اتفاق على بين الطرفين^(٢) .

لم يحضر أدفونش هذه المعركة ، فتأثر لهذا المصاب وتوفي في العام التالي (٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م) ، بعد أن حكم سبعاً وثلاثين سنة .

كان أدفونش (السادس) قبل وفاته - حيث لم يكن له ولد غير شانجه - الذي قُتل في معركة أقليش - قد جعل ابنته أراكه (Urraca) وريثة لعرش مملكة قشتالة وليون وإشتوريش . وأن يجعل ابنها القونش (السابع) بن رمُند^(٣) (Alfonso Raimundez) ، بن الكونت المتوفى رمُند البرجوني الفرنسي (Raimundo de Borgoña) ، حاكم جليقية وتحت إشراف أمها أراكه . تزوجت أراكه زوجها الثاني من القونش (الأول) ملك أرغون (الملقب عندهم بالمحارب) في السنة التالية لوفاة أبيها . ولما انفصلت أراكه بنت القونش (السادس) عن زوجها الثاني القونش (الأول ، المحارب) ملك أرغون استمر هذا الملك على أرغون وقشتالة ، وأراكه ملكة على ليون وجليقية . لما توفيت أراكه سنة ٥٢٠ هـ (١١٦٦ م) أُعلن ابنها القونش بن رمُند نفسه ملكاً باسم القونش (السابع) على قشتالة وليون

(١) الحلقة السيراء ، ٦٢/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٦٣/٢ ؛ المغرب ، ٥٧/١ ؛ البيان المغرب ، ٥٠/٤ . عن موضوع زائدة راجع : أنسى التاجر في بيان أحکام من غالب على وطنه النصارى ولم يهجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريسي ، صحيفة مهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٨٩٥/٥ ؛ دول الطوائف ، ٣٤٨ - ٣٤٥ ؛ الإسلام في المغرب والأندلس ، ١٥٢ - ١٦٤ .

Munual de historia de Espana, I, 604.

(٢) أنظر :

(٣) أدناه ، ٣٥٧ - ٣٥٨ .

والمُناطِقُ الأخْرى التي حكَمَهَا جَدُّهُ الفُونُشُ (السادس) ^(١) . جَرِتْ بَيْنَ الفُونُشِ (السادس) وَبَيْنَ مَلِكَ أَرْغُونَ الفُونُشِ (المحارب) حروُبٌ حَتَّى وفَاتَ الْأَخِيرَ سَنَةً ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) فِي معرِكة إِفراغَه شَرْقَ مَدِينَةِ سَرْقُسْطَةَ ^(٢) . حَارَبَ مَلِكُ أَرْغُونَ الأَنْدَلُسَ فِي عَدَةِ مَعَارِكَ .

أَفْرَهُ الفُونُشُ (السادس) الْأَوْضَاعُ فِي مَلِكَتِهِ ، بَدَأْ بِحُربِهِ ضَدَّ الأَنْدَلُسَ وَاشْتَبَكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ (الأَنْدَلُسِيِّينَ وَالْمَرَابِطِيِّينَ) فِي عَدَةِ مَعَارِكَ . تَوَفَّ فِي سَنَةِ ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) . لِقَبُّ الفُونُشِ (السادس) بِالْأَمْبَرِ طُورَ ^(٣) . تَسْمِيهِ مَصَادِرُنَا الإِسْلَامِيَّةُ : أَدْفُونُشُ ابْنُ رَمَضَانُ الدُّمُودُ الْمُعْرُوفُ بِالسُّلَيْطِيِّينَ .

ثالثاً : ذِكْرُ أَهْمَمِ دُولِ الطَّوَافِ وَالْمَحَدِيثِ عَنْ بَعْضِهَا

قَامَتْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ فِي الأَنْدَلُسَ عَدَةُ دُوَيْلَاتٍ تَفاوتَتْ فِي الْمَسَاحَةِ وَالْقُوَّةِ ، كَمَا تَفاوتَتْ أَعْمَارُهَا . تَوزَّعَتْ الأَنْدَلُسُ وَحُكِّمَ كُلُّ مِنْهَا – فِي الْأَغْلِبِ – أَسْرَةً مَا ، يَتَوَارِثُهَا أَبْناؤُهَا . يَسْتَعِينُونَ بِعِيْرِهِمْ – أَحْيَاً – أَوْ يَكُونُ هُنْكَ مَجْلِسُ شُورِيٍّ . لِكُلِّ حَاكِمٍ وَزَرَاؤِهِ وَكُتَّابِهِ وَقَضَائِهِ وَقَوَادِهِ وَرِجَالِ مَلِكَتِهِ وَعَصْبَتِهِ . كَانَ لِلْعَصْبَيَّةِ – فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ – آثارٌ مُشْتَقَّةٌ . لِكُلِّ مَلِكَةٍ عَاصِمَةٌ ، هِيَ إِحْدَى الْقَوَاعِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ . تَبَعُّهَا مَنَاطِقٌ أُخْرَى حَوْلَهَا مِنَ الْمَدِنِ وَالْقُرَى وَالْحَصُونِ . تَرَدَّدَتْ حَدُودُ عَدَدِ مِنْهَا بَيْنَ مَدِ وَجَزْرٍ ، سَوَاءَ فِي نَزَاعِهَا فَيْمَا بَيْنَهَا أَوْ مَعَ اسْبَانِيَا النَّصْرَانِيَّةِ . وَالْعُسْبِيَّةِ مِنْهَا – أَحْيَاً – تَحْتَوِيهَا الْقَوْيَةِ . خَضَعَتْ دُوَيْلَاتٍ (أَوْ إِمَارَاتٍ) : الْبَكَرِيِّينَ فِي وَلْبَةِ (Huelva) وَشَلَاطِيشِ (Saltes) وَالْعَامِرِيِّينَ فِي مُرْسِيَّةِ (Murcia) وَبَنِيِّ مُزَيْنِ فِي باجَهَ (Beja) وَشِلَبِ (Silves) لِبَنِيِّ عَبَادِ حَكَامِ مَلِكَةِ إِشْبِيلِيَّةِ فِي غَرْبِيِّ الأَنْدَلُسِ ^(٤) .

قَدْ تَوَالَى أَسْرَتَانِ حُكْمِ إِمَارَةِ وَاحِدَةٍ بَعْدِ إِخْضَاعِ التَّالِيَّةِ لِسَابِقِهَا ، كَمَا حَدَثَ لِمَلِكَةِ بَلْنِسِيَّةِ الَّتِي حَكَمَهَا بَنُو ذِيِّ التُّونِ بَعْدَ الْعَامِرِيِّينَ . وَقَدْ يَقُولُ شَخْصٌ مَا

(١) عَصْرُ الْمَرَابِطِيِّينَ وَالْمَوْهَدِينَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ ، مُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ عَنَّانٌ ، ٤٧٨/١ وَبَعْدَهَا .

(٢) انْظُرْ : الرُّوضُ الْمَطَارُ ، ٢٤ ؛ عَصْرُ الْمَرَابِطِيِّينَ وَالْمَوْهَدِينَ ، ١٢٦ - ١٢٠/١ .

(٣) Manual de historia de España, I, 635. (٤) الْحَلَةُ السِّيرَاءُ ، ١٨١/٢ - ١٨٢ .

السلطة لفشل آخر في المهمة ، كما حدث لابن حَجَّافَ في بَلَنْسِيَّة . وحينما يخلع الناس الحاكم ويُستدعي غيره ، كما حدث لطُلَيْطُلَةَ حين خُلع القادر واستدعي أعيانُها الم وكل بن الأفْطَس صاحب بَطَلْبَيُوس^(١) . بل حدث أن تنازع بعضهم وترك الإمارة – أمام المضائقات – لغيره ، كما فعل عبد العزيز البكري (والد الحغراني أبي عبيد البكري صاحب كتاب المسالك والممالك) ، حاكم إمارة ولبة وجزيرة شَلْطِيش ، حيث تخلى عن حكمها إلى المُعْتَضِد بن عَبَادَ نتيجةً للضغط الذي واجهه . ومنهم من كان يحاول الإصلاح بين المتنازعين ويأوي اللاجيء ، كأبي الوليد محمد بن جَهْوَرَ حاكم إمارة قُرْطُبَة « سادَ الْحَلَةَ وَمَأْوَى الظَّرِيدِ » ، كما عبر عنه ابن حِيَّان^(٢) . وإلى أبي الوليد بن جهور جاء عبد العزيز البكري وآخرون . وكان أبوه أبو الحَزَّم جهور سابقاً لابن في هذه المهمة^(٣) .

لم تقم هذه الديوبليات في وقت واحد ، وأن نهايات التي استمر منها ، على يد المرابطين ، كانت متفاوتة وإن تقاربت .

هذه بعض دوبيات أو ممالك الطوائف المهمة ، هي :

- ١ - مملكة سَرَقُسْطَةَ ، الثغر الأعلى : بنو هُودَ .
- ٢ - إمارة قُرْطُبَةَ ، وسط الأندلس : بنو جَهْوَرَ .
- ٣ - مملكة طُلَيْطُلَةَ ، الثغر الأوسط : بنو ذي النون (دنون = ذنون) .
- ٤ - مملكة بَطَلْبَيُوسَ ، الثغر الأدنى : بنو الأفْطَسَ .
- ٥ - مملكة إشْبِيلِيَّةَ ، غرب الأندلس : بنو عَبَادَ .
- ٦ - مملكة بَلَنْسِيَّةَ ، شرق الأندلس : تداولها عدد .
- ٧ - مملكة غَرْنَاطَةَ ، جنوب الأندلس : بنوزيري .

يتناول الحديث ثلث ممالك ، هي : سَرَقُسْطَةَ وبَلَنْسِيَّةَ وإشْبِيلِيَّةَ .

١ - مملكة سَرَقُسْطَةَ

كانت هذه المملكة من أعظم ممالك الطوائف ، من حيث سَعَةُ رُقعتها وموقعها

(١) أعلاه ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ . (٢) الحلة ، ١٨١/٢ . (٣) انظر : أعلاه ، ٣٢٥ - ٣٢٣ .

بين دول إسبانيا النصرانية في الشمال ، وعُرفت بولاية الثغر الأعلى ، وعاصمتها مدينة سَرْقُسْطَةَ التي بقيت عاصمة المملكة أيضاً .

حكمت بقية أسرة بنى تُجِيب هذه المملكة ، لدى أول وقوع الفتنة المؤدية إلى قيام الطوائف ، ثم انتقل الأمر إلى أسرة بنى هُود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هُود الجُذامي الملقب **المُسْتَعِنُ بِاللَّهِ** (٤٣١ - ٤٣٨ هـ = ١٠٣١ م - ١٠٤٦ م) ^(١) .

قسم المستعين المملكة - قبل وفاته - بين أبنائه الخمسة ، وسبب هذا التصرف السيء قيام صراع بين بعض الأخوة . وكان أشدهم طموحاً أبو جعفر أحمد الملقب **المُفْتَدِرُ بِاللَّهِ** ، الذي استطاع بوسائله الغاشمة أن يحقق الكثير مما أراد .

وقعت أيام المفتدر مأساة مدينة بَرْبَاشْتُرُ (Barbastro) - الآتي ذكرها - سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) . وتوفي المفتدر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، بعد أن حكم خمساً وثلاثين سنة ، وقسم المملكة بين ولديه : أبو عامر يوسف الملقب **المُؤْتَمِنُ** وأخيه المنذر . وجرت بين الأخرين أحداث وحروب ، استعان كل منهما بملوك إسبانيا النصرانية ، لقاء ما يدفع لهم من أموال أو تقدم من حصون أو يعطون من الامتيازات . وواضح ما يحدوه ذلك في النهاية من إضعاف الجبهة الإسلامية . فذا أمر مهم تسعى إليه سلطات إسبانيا النصرانية حيثاً ، فكيف به يتحقق دون بذلك بل يبذل له ؟ فأي تغافل هذا ، أم أي هبوط ؟

حارب لُذْرِيق (رُذْرِيق = Rُذْرِيق) ، القَمْبِيطُور (الكمبيطور) ، المغامر القشتالي - سيدرك في أحداث بلنسية - إلى جانب المؤمن ، الذي توفي سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، بعد حكم أربعة أعوام . ثم خلفه ابنه أبو جعفر أحمد الملقب **المُسْتَعِنُ بِاللَّهِ** (المستعين الأصغر) .

حاول أَدْفُونْش - (الفونسو السادس) بن فِرْدِلَند ، حفيد حاكم نَبَارَة شانجُهُ غَرْسِيَّة (الثالث ، ٤٢٧ هـ) ، الملقب عندهم بالكبير ^(٢) - بعد سقوط

(١) انظر : الخلقة السيراء ، ٢٤٥/٢ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٢٧٦ ،

طليطلة ، الاستيلاء على سرقسطة ، فحاصرها ، ولم ينفدها غير عبور المرابطين إلى الأندلس ، في السنة التالية (٤٧٩ هـ) ، لشهود وقعة الزلاقة ، سوية مع أهل الأندلس ، الأمر الذي جعل أذفونش يفك حصاره لسرقسطة ، كيما يعد عدته للاقاء المرابطين .

جرت لهذا المستعين أحداث ، آخرها معركة شديدة — بينه وبين قوات الرئيْس البرتغالي (Enrique de Borgoña) وقوات أذفونش بن رُدمير (الفونسو الأول ابن راميرو) ملك أرغون الملقب بالمحارب (El Batallador) — قرب تُطْلِيَّة (Tudela) عند بلْتِيرَة (Valtierra) ، في يوم الاثنين أول رجب سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ، واستُشهد فيها المستعين^(١) . وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب عماد الدولة ، ثم خضعت سرقسطة للمرابطين حوالي هذا التاريخ وفي نفس السنة .

ملكة سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تدخل طاعة المرابطين ، آخر سنة ٥٠٣ هـ ، وترتبط بتاريخهم . يرتحل عندها عبد الملك ليتحقق مستقراً في حصن رُوطة (Rueda de Jalon) ، أو رُوطة اليهود كما يسميها ابن الأبار^(٢) ، أحد معاقل سرقسطة المنيعة على نهر شَلُون (Jalon) أحد فروع نهر إبره الجنوبي . لكن سرقسطة تسقط بيد ابن رُدمير ملك أرغون سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، إذ « جرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الروم على سرقسطة في يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة الثاني عشرة »^(٣) .

عند وفاة عماد الدولة ، في شعبان سنة ٥٢٤ هـ^(٤) ، خلفه ابنه أبو جعفر أحمد الملقب سيف الدولة والمستنصر بالله والمستعين بالله ، آخر حكام بني هُود فيها . ولما لم يستطع الاحتفاظ بروطة سلمها إلى ملك قشتالة « فقام بروطة إلى أن تخلي عنها للطاغية أذفونش

(١) تاريخ الأندلس ، ١١٧ (نص ابن الكرديوس) ؛ البيان المغرب ، ٥٣/٤ ، ٥٥ هـ . كذلك : الحلقة السيراء ، ٢٤٨/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٧٤/٢ .

(٢) الحلقة ، ٢٤٦/٢ . كذلك : الإحاطة ، ٤٠٥/٢ .

(٣) الحلقة ، ٢٤٨/٢ . راجع : دول الطوائف ، ٢٨٤ وبعدها .

(٤) الحلقة السيراء ، ٢٤٩/٢ ؛ المغرب في حل المغرب ، ٤٣٨/٢ .

ابن رَمْنُد المعروف بالسَّلَيْطِين^(١) . افعوْضه عنها أَمْلاكًا ، في تُطِيلَة^(٢) أو طُلَيْطُلَة^(٣) ، سنة ٥٢٩ هـ^(٤) أو سنة ٥٣٤ هـ^(٥) ، وبقي في حمايته . لكنه قتل سنة ٥٤٠ هـ^(٦) ، في معركة شديدة قادها سيف الدولة وغيره في جيش أندلسية ضد جيوش قشتالة النصرانية^(٧) في موضع يعرف باللُّجَّ والبَسِيط (Albacete) قرب جنْجَالَة (Chinchilla de Monte de Aragon) في شرق الأندلس عند « بلنسية في اتباع الروم المغيرين على نواحِيهَا أَصْحَابُ الطَّاغِيَةِ أَذْفُونُشُ » ، فاستُشهدَ ابن هود وابن سعد لما التقى بالجمعان، ونجا ابن عياض . وكانت هذه الواقعة الكبيرة على المسلمين بالموقع المعروف باللُّجَّ وبالبَسِيط – على مقربة من جنْجَالَة – يوم الجمعة الموفي عشرين لشعبان من سنة أربعين ، وقيل يوم السبت بعده .^(٨)

قائمة نسب بنى هُود حكام سَرَقُسطَة

(١) أبو أيوب سليمان بن محمد بن هُود الجُذامي المستعين بالله (المستعين الأكبر)
 (٤٣١ - ٤٣٨ هـ)

(٢) أبو جعفر أحمد ، المُقْتَدِر بالله (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) أبو عامر يوسف المظفر حسام الدولة
 استرجع مدينة برْبَشْتُر^(٩) سنة ٤٥٧ هـ (حكم مَارِدَةٍ وَبَرْبَشْتُر^(١٠) ، مدة)

(٣) أبو عامر يوسف ، المُؤْتَمَن (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ) المثغر

(١) الحلة ، ٢٤٩/٢ . كذلك : أعمال الأعلام ، ١٧٦/٢ . عن السليطين ، انظر : أعماله ، ٣٢٩ ، ٣٥٤ - ٣٥٣ .

(٢) أعمال الأعلام ، ١٧٦/٢ . قارن : تاريخ الأندلس ، ١٢١ (نص ابن الكرديوس) .

(٣) الحلة ، ٢٤٩/٢ - ٢٥٠ ؛ العبر ، ٣٥٢/٤ ؛ نفح الطيب ، ٤٤١/١ .

(٤) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ٣٣/١١ . (٥) الحلة ، ٢٥٠/٢ .

(٦) المغرب ، ٤٣٨/٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٢٠ (نص ابن الكرديوس) ؛ أعمال الأعلام ، ١٧٦/٢ . كذلك : نظم الجمان ، ابن القطان ، ٦/٢٠٠ .

(٧) الحلة ، ٢٥١/٢ - ٢٥٢ . كذلك : الحلة ، ٢٢٣/٢ ؛ بغية الملتمس ، الضبي ، ٤٣ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٣٦١ .

(٤) أبو جعفر أحمد ، المستعين بالله (المستعين الأصغر)
٤٧٨ - ٥٠٣ هـ) استشهاد قرب تطيلة ، رجب ٥٠٣ هـ

(٥) أبو مروان عبد الملك ، عماد الدولة
انتقل إلى رُوطة سنة ٥٠٣ هـ ، توفي ٥٢٤ هـ

أبو جعفر أحمد ، سيف الدولة والمستنصر بالله والمستعين بالله
آخر حكام بني هُود ، قتل سنة ٥٤٠ هـ

المأساة البربشتيرية

بربشتير (Barbastro) إحدى مدن الثغر الأعلى ، تقع على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة . واحدة من القواعد الأندلسية المنيعة ، من أعمال كوراء بريطانية^(١) ، وحيث اعتبرها ابن حيان مديتها « وفي سنة ست وخمسين وأربع مئة تغلب العدو على مدينة بربشتير قصبة بلد بريطانية الواسط مما بين بلادي لاردة وسرقسطة ركني الشغور العليا »^(٢) . ثم كانت من مدن مملكة سرقسطة الطوائف ، حكمها بنو هُود أيام الطوائف . غدت من أعمال أبي عامر يوسف حسام الدولة الملقب المظفر ، الذي شارك أخاه أبي جعفر أحمد المقدير بالله (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) . حكم المقدير ، إمارة سرقسطة ، بعد وفاة أبيهما أبي أيوب سليمان المستعين بالله (٤٣١ - ٤٣٨ هـ) ، المستعين الأكبر .

وقوع المأساة : حلّت مدينة بربشتير - أيام يوسف المظفر - نكبة اهتزت لها الأندلس ، اعتبرت من أشد وأفظع ما حدث فيها ، لما ارتكبت معها من أعمال وحشية مبررة وجرائم مذهلة مثيرة ولم ينجدها المظفر ولا أخيه المقدير . هذه الحادثة مهاجمة النورمانيين أو النورمانديين للمدينة وقتهم بأهلها . اتصفت هذه الحملة

(١) عنها راجع : أعلاه ، ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٢) النخيرة في محسن أهل الجزيرة (خطوطة) ، ابن بسام الشنريني ، ٩٦/٣ . اصلاحت « بريطانية » في النص إلى « بريطانيا » .

بطابعها الصليبي ، فأعظمت في المسلمين التكاثف .

احتلت جماعة من النورمان الوثنيين ، الذين دخلوا النصرانية ، منطقة في شمالي غرب فرنسا ، سكنوها في بداية القرن الرابع المجري (العاشر الميلادي) . حملت اسمهم (نورماندي Normandie, Normandy) حصلوا عليها من شارل (الثالث) الملقب البسيط أو الأبله (Charles, III, le Simple : ٢٨٠ - ٣١١ هـ) بعد حروب و مفاوضات سنة ٩٩٩ هـ (٩١١ م)^(١) . و قائد هذه الحملة جيوم دي مونترى (Guillaume de Montreuil) « من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا في أواسط القرن الحادى عشر [الخامس المجري] ، و خدم الكرسي الرسولي حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . »^(٢) لدينا بعض المصادر - منها الأوروبية - تؤيد أن البابا اسكندر الثاني (Alexander II) هو الذي أشار على النورمان بحرب المسلمين في الأندلس^(٣) .

احتشدت القوات في ولاية نورماندي لهذا الغرض ، مكونة من النورمانديين و جموع كبيرة من الفرنسيين بقيادة جيوم المذكور أو روبرت كرسبن (Robert Crespin) . تسمى الرواية الإسلامية قائد الحملة بأسماء : « البيطبين » و « البيطين » و « البيطش »^(٤) أو « قائد حملة روما » كبيرهم ، في وصف ابن حيان القادم . سارت الحملة إلى جنوب فرنسا ، متوجهة نحو الأندلس . حاصروا أولاد مدينة وَسْقَة ، إحدى مدن مملكة سرقسطة والشغر الأعلى ، ولما فشلو في اقتحامها تركوها متوجهين إلى مدينة بَرْبَشْتُر ، من القواعد الأندلسية المتبعة ، فحاصروها سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) ، لعله في شهر جمادى الآخرة منها . ويُقدّر عدد أفراد هذه

(١) راجع : أوربا العصور الوسطى ، ١ / ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ الحلقة السيراء ، ٢ / ٢٤٧ (الحاشية) .

(٢) دول الطوائف ، ٢٧٤ .

(٣) راجع : تاريخ الأندلس ، ٦٩ - ٧١ (نص ابن الكردوس) ؟

Los Mozarabes, I. de las Cagigas, II, 453.

(٤) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٩٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ٦٩ (نص ابن الكردوس) ؛ الروض المطار ، ٤٠ .

الحملة بأربعين ألفاً أو يزيدون ، واستمر الحصار أربعين يوماً وجرت معارك عديدة خارج المدينة . لما قلت الأقوات واشتد الضيق بالمدينة استطاع النورمانديون – بعد قتال عنيف – اقتحام المدينة الخارجية . وجرت معارك أخرى وتحصن المسلمون بالقصبة والمدينة الداخلية ، مصممين على الثبات حتى آخر رقم . لكن حدث أن تعرض المهاجمون إلى مكان مجرى الماء الأرضي – أو دلّهم عليه خائن – فقطعوا ، واشتد بالمدافعين العطش ، فعرضوا على النورمانديين التسليم بشروط ، فرفضوا . ثم دخلوا المدينة ، ربعاً في شهر شعبان من العام عنْتُو ، واستباحوا المدينة الباسلة بكل ما فيها ومن فيها ، وقدر عدد القتلى والأسرى بين أربعين ومئة ألف ! ثم أعطى قائد الحملة الأمان ، لكنه – حين رأى كثرة أهل المدينة – أمر جنده أن تقلل أعدادهم ، حصاداً بالسيف . فأطيخ أرضًا بستة آلاف من الرؤوس ! ثم إنهم انتهوا المدينة واحتلوا دورها لأنفسهم وارتکبوا أبشع الجرائم قتلاً وهتكاً للأعراض . وكان الخطيب « أعظم من أن يُوصف أو يُقصى . » كما يقول ابن حيَّان^(١) .

استرجاع بِرْبِشْتُر^٢ : كان هذه النكبة أثر كبير وصدى عميق ، في أنحاء الأندلس كافة . قام تيار الدعوة إلى الجهاد في أنحاء البلاد الأندلسية واهتز لها الأمراء . والمقتدر بن هود – الذي يتحمل الكثير من وزرها – في مقدمتهم . ولبي الدعوة كثير ، وسار المتطوعون من الجهات إلى التغر ، جهاداً في سبيل الله تعالى . فأشرقت النfos بمعاني الإسلام حين استثيرت ، وعلت الهمم حين تنادت بدعة الإسلام ، فاستجابت لندائهم الحالد : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وهُتفَ الماجد « الله أكبر » . وقامت الأمة المسلمة في وحدتها الإيمانية تسير برسالتها السماوية ، تستظل معاني الإسلام تستمدُّها من كتاب الله تعالى : القرآن الكريم ؛ ومن سُنة رسوله الأمين ﷺ ، قادِها وإمامها أبو الابدين ، متوجهين إلى الله وحده . حين استثيرت النفس بهذه المعاني وساد الجلوّ هذه الدعوة استجابت بقوة أزرت بكثرة النورمان المعذبين فردمتهم على أعقابهم يبحثون عن نجاتهم .

(١) النخيرة (خطوطة) ، ٩٨/٣ .

يذكر ابن عذاري في البيان المغرب أن عدد المجاهدين بلغ ستة آلاف^(١)، حاصروا مدينة بَرْبَشْتُرَ ونجحوا في اقتحامها وجرت معركة شديدة مُزّق فيها المعتدون . وتم اسر داد بَرْبَشْتُرَ في جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) ، بعد أن دام احتلالها والعيش فيها وإتها كها تسعة شهور^(٢) . وعلى أثر هذا الانتصار تسمى أحمد بن هود «المقدار بالله» .

تقدّم مصادرنا التاريخية شرحاً مفصلاً حول هذه الحادثة بمراحلها المختلفة ، لاسيما ابن حيان (٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) المؤرخ المعاصر لها ، حيث كان يقيم في قرطبة . سجلها — بعد استقصاء — بما فاضت به قريحته الخصبة في تحليلاته ونظراته الثاقبة — خلال عرضه — بأسلوبه الرصين لتضاعيف مجرایات هذه النكبة وما أسفرت عنه — فيما بعد — من نصر الله المبين .

هاهي بعض ما حفظ من كتابات المؤرخين في دواوينهم أو نقولات عنهم حول المأساة البربشتيرية :

« وقد غزواها ، على غيرة وقلة عدد من أهلها وعدده ، أهل غاليش والروذمانيون . وكان عليهم رئيس يسمى البَيْطَبِين ، وكان في عسكره نحو أربعين ألف فارس ، فحضرها أربعين يوماً حتى افتحها وذلك سنة ست وخمسين وأربعين مئة ، فقتلوا عامدة رجالها وسبوا فيها من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة .»^(٣)
يفصل ذلك ابن حيان ، فيما ينقله عنه ابن بسام في ذخирته ، فيقول :

« إن جيش الأُرْدُمانين طلبوا عليها ووالوا حصرها وجدوا في قتالها طامعين فيها ، وقد أسلمهم أميرهم يوسف بن سليمان بن هود لخطبهم ووكلهم إلى أنفسهم وقد عن التفير نحوهم ، فأقام عليها العدو منازلاً لأربعين يوماً ، ووقع بين أهلها تنازع على القوت لقتله ، ولما علم العدو بذلك جدًّا في القتال فدخل الكفرة المدينة البرانية في

(١) البيان المغرب ، ٢٢٧/٣ . كذلك : أعمال الأعلام ، ١٧١/٢ .

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا ، أبو عبيد البكري ، ٩٥ ؛ الروض المطار ، ٤١ .

(٣) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٩٢ - ٩٤ . كذلك : الروض المطار ، ٤٠ . غالش : غالة ، جنوبى فرنسا . الروذمانيون : التورمانديون .

نحو خمسة آلاف دارع ، فبعثت الناس وتحصنت بعديتهم الداخلة ودارت بينهم حرب شديدة قُتِل فيها من النصارى خمس مئة ، ثم اتفق - من قدر الله - أن قناعة من عمل الأوائل سرّبا تحت الأرض بتقدير موزون إلى أن أفضت إلى شط النهر فانهارت في نفس ذلك السرب صخرة عظيمة الجرم من حجارة بناء الأول سدت السرب بأسره ، فعدموا الماء وأيسوا من الحياة ودعوا إلى تأمينهم على التزول بأنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم أعداء الله ذلك ، فلما خرجوا نكثوا بهم وقتلوا معًا ، ولم يطلقوا منهم غير قائدتهم ابن الطويل وقاضيهم ابن عيسى في نفر من الوجوه قليل عددهم . فحصلوا من غنائم بَرْبَشْتُرُ على مالا يقدر كثرة زعموا أنه صار لأكبر رؤسائهم قائد خيل رومة في حصته نحو ألفاً وخمس مئة جارية أبكراً كلهم ، ومن أوقار الأمة من الخل والكسوة والوطاء خمس مئة حمل ، ويحدث أيضًا أنه أصيب في هذا القتل والسيبي مئة ألف نسمة . وشد الكفار أيدهم بمدينة بَرْبَشْتُرُ واستوطنوها وهلك من نساء بَرْبَشْتُرُ جملة يكثر عددها عند إفلاطهن من عطش القصبة لطارحهن على الماء يكرعن فيه بغير مهل ، فكبهم للأذقان موتى ، وكان الخطب في هذه النازلة أعظم من أن يوصف أو يُقصى .^(١) ثم يذكر ابن حيَّان كيف أخذ النورمان الناس بالقتل حصداً ، بعد إعطائهم الأمان لهم عهداً ، فيقول :
 « ولما بَرَزَ جميع من بقي من أهل المدينة عنها إلى فِناء بابها بعد من خفَّفَ منهم بالقتل وهلك في الرحمة ؛ ظلوا قياماً ذاهلين متظرين لنزول القضاء بهم ، نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار منهم إلى داره ووطنه بأهله وولده ، وأزعجوه لذلك فنالم من الإزدحام قريباً مما نالم في خروجهم عنها ، فلما استقروا فيها اقتسمهم المشركون بأمر سلطانهم قسمة قررُوها بينهم . فكل من صارت في حصته دار حازها وحاز ما فيها من أهل وولد ومال ، يحكم كل علّج منهم فيما سُلِّطَ عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به ، يأخذ كلما أظهره عليه من نَشَّاب ، ويقرره على ما أخفاه عنه ، يعذبه أنواعاً من العذاب حتى يبلغ نفسه عندها فيه ، فربما زَهَقت نفس المسلم

(١) النخيرة (مخطوطة) ، ٩٧/٣ - ٩٨ (نقلًا عن ابن حيَّان) . كذلك : نفح الطيب ، ٤٤٩/٤ - ٤٥٠ ؛ البيان المغرب ، ٢٢٥/٣ - ٢٢٦ .

دون ذلك فاستراح ، وربما أنظره أَجْلُه إلى أسوأ من ذلك ، فإن عدّة الله كانوا يومئذ يتولعون بهتك حُرُم أسرارهم وبنיהם بحضورهم وعلى أعينهم إِبْلَاغاً في تعذيب قلوبهم ، يغشون الشّيْب ويقتضون البكّر ، وزوج تلك وأبو هذه موئق بقيـد أسره ناظر إلى محنته ، عينه بعينه ، فعينه تدمـع ونفسه تُقطـع ، ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله في خادم أو ماهـته أو وخـش أعـطاـهـن خـولـهـ وـعـلـمـانـهـ يـعـبـوـنـ بـهـ ، فـبـلـغـ الـكـفـرـةـ فـيـهـ مـالـاـ تـلـحـقـهـ الصـفـةـ عـلـىـ الـحـقـيقـةـ : ولـمـ كـانـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ مـنـ اـسـتـيـلاءـ الـكـفـرـةـ عـلـيـهـمـ نـهـلـواـ لـمـ كـانـ بـقـيـتـ مـنـ الـمـتـحـصـنـ بـنـدـرـوـةـ الـقـصـبـةـ وـأـحـاطـوـ بـهـمـ فـنـزـلـواـ عـلـىـ أـمـانـ ، وـقـدـ شـهـمـتـ وـجـوهـهـمـ وـتـغـيـرـتـ خـلـقـهـمـ مـنـ عـبـثـ الـعـطـشـ ، فـتـخـفـيـ الـكـفـرـةـ عـنـهـمـ وـخـرـجـواـ يـرـيـلـوـنـ مـدـيـنـةـ مـُنـتـشـرـونـ أـقـرـبـ مـدـنـ الـاسـلـامـ إـلـيـهـمـ ، فـقـضـىـ أـنـ لـقـواـ سـرـيـةـ مـنـ خـيلـ النـصـارـىـ لـمـ يـشـهـدـواـ فـتـحـ بـرـبـشـتـرـ لـاـ عـلـمـواـ خـبـرـ هـؤـلـاءـ الـمـسـرـحـيـنـ الـمـكـرـوـبـيـنـ ، فـقـتـلـوـهـمـ جـمـلـةـ إـلـاـ مـنـ نـجـاـ بـهـ أـجـلـهـ مـنـهـ وـقـلـيلـ مـاـ هـمـ ، فـمضـواـ عـلـىـ هـذـهـ السـبـيلـ تـامـاًـ بـحـكـمـ اللهـ فـيـهـ . وـلـمـ عـزـمـ مـلـكـ الـرـوـمـ عـلـىـ القـفـولـ مـنـ بـرـبـشـتـرـ إـلـىـ بـلـدـهـ تـخـيرـ مـنـ بـنـاتـ الـمـسـلـمـيـنـ الـجـوـارـيـ الـأـبـكـارـ وـالـشـيـاتـ ذـوـاتـ الـجـمـالـ وـمـنـ صـبـانـهـمـ الـأـيـقـاعـ وـالـمـرـدـ الـحـسـانـ عـلـةـ ، حـمـلـهـمـ مـعـهـ لـيـهـيـمـ إـلـىـ مـنـ فـوـقـهـ ، وـتـرـكـ بـرـبـشـتـرـ مـنـ رـابـطـةـ خـيـلـهـ أـلـفـاـ وـخـمـسـ مـائـةـ وـمـنـ الرـجـالـ أـلـفـيـنـ ^(١) .

يدرك أبو عبيد البكري في المسالك والممالك أن التورمانديين المعذبين الوحش الكاسرة المت الوحشة « اختاروا من أبكار جواري المسلمين وأهل الحسن منهـنـ خمسـةـ آلاف جارية وأهدوهـنـ إـلـىـ صـاحـبـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ »^(٢) . وليس من شك أن دين الله عز وجل ليبرأ من هذا الشـيـئـنـ وـسـوءـ الفـعـالـ .

علق ابن حـيـانـ عـلـىـ هـذـهـ الأـحـدـاثـ وـعـلـلـ أـسـبـابـهاـ ، وـأـنـحـيـ بالـلـائـمةـ عـلـىـ النـاسـ وـالـحـكـامـ بـمـاـ اـرـتـكـبـواـ فـيـ جـنـبـ اللهـ مـنـ ذـنـوبـ فـيـ إـهـمـاـلـهـ ، بـتـقـصـيرـهـمـ فـيـ الـأـخـذـ بـالـشـرـيـعـةـ وـتـهـاـونـهـمـ فـيـ تـنـفـيـذـ أـوـامـرـهـ ، مـاـ جـرـهـمـ إـلـىـ حـالـةـ الـفـرـقـةـ الـتـيـ أـذـهـبـتـ قـوـهـمـ . فـقـدـ

(١) الذخيرة (مخليطة) ٩٨/٣ - ٩٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٢٢٦/٣ ؛ فتح الطيب ، ٤٥٠/٤ - ٤٥١ ؛ دول الطوائف ، ٢٧٦ - ٢٧٧ . « مـلـكـ الـرـوـمـ » : قـائـدـ الـحـمـلـةـ . وـرـدـ فـيـ الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ أـنـ عـدـ الـرـابـطـةـ الـتـورـمـانـيـةـ الـتـيـ تـرـكـتـ بـرـبـشـتـرـ خـمـسـةـ آـلـافـ .

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٩٤ . كذلك : البيان ، ٢٥٣/٣ .

« أركستهم الذنوب ووصتمهم العيوب . فليسوا في سبيل الرشد باتفاق ، ولا على معاني الغي بأقوياء . نَشْءُونَ من الناس هامل ، يعللون نفوسهم بالباطل . من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم وبعادهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام ، وهو وهم عن النظر في عاقبة أمرهم وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى لظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبعج عراض ديارهم ويستقرى بسائط بقاعهم . يقطع كل يوم طرقاً منهم وسراة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم ، لعثاتٌ عن بثهم ، ما أن يسمع عندهنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكر بهم أو داع لهم فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم ، حتى كأن ليسوا منا وكأن فتقهم ليس بعفاض إلينا . قد بخلنا عليهم بالدعاء بخُلُّنا بالفتاء ، عجائب مغربة فاتت التقدير وعرضت للتغيير ، والله عاقبة الأمور وإليه المصير . »^(١)

ويُوقع ابن حَيَّان نصيباً كبيراً لهذه الأحوال على أمراء السوء في دول الطوائف وحكامها البشرين الحشعين ، الذين انحرفا عن النهج الإسلامي ، ملوماً الناس لركونهم إلى أمثال هؤلاء الأمراء ، فكانت هذه نتيجة « الاغترار بالأمل والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمل ، الذين هم منهم مابين فشل ووكل ، يصدونهم عن سوء السبيل ويلبسون عليهم وضوح الدليل »^(٢) .

فعل ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) – معاصر الطوائف – مثل ابن حَيَّان في تعرية حال الطوائف وبيان استهتار ملوكهم وما أورثوا الأمة من الوهن والانحدار^(٣) . ولولا دعوة العلماء الأفضل إلى توحيد الأندلس ونجدة الأخوة المسلمين في دولة المرابطين بُعدُّوا المغرب والعمل على استئثاره الروح الإسلامية والإيواء إلى ظلال

(١) الذخيرة (مخطوط) ، ١٠١/٣ . كذلك : البيان المقرب ، ٢٥٥/٣ ؛ نفح الطيب ، ٤٥٣-٤٥٢/٤ .

(٢) الذخيرة (مخطوط) ، ٩٦/٣ . كذلك : البيان المقرب ، ٢٥٤/٣ ؛ نفح الطيب ، ٤٥٣/٤ .

(٣) راجع : رسالة ابن حزم « التلخيص لوجوه التظيف » المنشورة مع رسائل له أخرى بعنوان : الرد على ابن التغريلة اليهودي ورسائل أخرى ، ١٧٣ - ١٧٧ . كذلك : نقط العروس ، ابن حزم، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ١٢/٢ - ٨٣ ، ٨٤ - ٨٩ . انظر : دول الطوائف ، ٤٢٣ - ٤٢٠ .

لإسلام ، لضاعت الأندلس قبل ضياعها بقرون .

قامت إذاً دعوة إلى الجهاد ورفعت راية الإسلام بنداهه الحال ، فهب الناس مستجيين مجاهدين نحو بربشتُر فحازوا في جهادهم من الله النصر .

يحدثنا ابن حيَّان عن ذلك فيقول : « فلما كان عَقِب جُمَادَى الْأُولَى من سنة سبع وخمسين شاع الخبر بقروطية بارتفاع المسلمين لبَرْبَشْتُر ، وذلك ان أَحْمَدَ بْنَ هُودَ الْمَلْكَ بِالْمَقْتَدِرِ الْمُفْرَطِ فِيهَا وَالْمُتَهَمُ عَلَى أَهْلِهَا لَا يَخْرُفُهُمْ إِلَى أَخْيَهُ ، صَمَدَ لَهَا مَعَ مَدْ عَبَادِ حَلِيفَهُ ، وَسَعَى لِإِصْمَاتِ سَوْءِ الْقَالَةِ عَنْهُ . وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا مَا لَا يَحْوِه إِلَّا عَفْوُهُ ، فَتَأَهَّبَ لِقَصْدِ بَرْبَشْتُر . فَسَارَ نَحْوَهَا وَرَجَالُ ابْنِ عَبَادِ نَحْوَهُ مِنْ خَمْسِ مِائَةِ فَارِسٍ مَقْدَمَتِهِ مِنْ سُرَّةِ الْبَرَابِرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَبْطَالِ الْأَنْدَلُسِ ، فَتَرَلَ عَلَيْهَا بِجَمْعِهِ ، فَجَالَلُوْا الْمُسْلِمِينَ بِبَابِ الْمَدِينَةِ جَلَادًا ارْتَابَ مِنْهُ كُلُّ جَبَانٍ ، وَأَعْزَزَ اللَّهُ أَهْلَ الْحَفِيظَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، حَمَيَ الْوَطِيسَ بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ نَصَرَ اللَّهُ أَوْلَيَاءَهُ وَزَلَّ أَعْدَاءُهُ وَلَوْا أَدْبَارَ مَقْتَحِمِيْنَ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ ، فَاقْتَحَمُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ وَمَلَكُوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا مَنْ فَرَّ مِنْ مَكَانِ الْوَقْعَةِ وَلَمْ يَأْتِ الْمَدِينَةَ ، فَأَجْيَلُوا فِي الْكَافِرِينَ وَاسْتَؤْصَلُوا أَجْمَعِينَ ، إِلَّا مِنْ أَسْرَقَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ وَانْتَقَوْا لِلْفَدَاءِ مِنْ أَعْظَمِهِمْ ، وَسَبَبُوا جَمِيعَ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ عِيَالِهِمْ وَبَنَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَمَلَكُوا الْمَدِينَةَ بِقُدرَةِ الْخَالِقِ الْبَارِعِ ، وَأَصَبَّ عَلَى مَنْحَةِ النَّصْرِ الْمَتَاحَ طَائِفَةً مِنْ حَمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْجَاهِدِينَ فِي نَصْرِ الدِّينِ نَحْوَ الْخَمْسِينِ ، كَتَبَ اللَّهُ شَهَادَتِهِمْ وَقُتِلَ فِيهَا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَافِرِينَ نَحْوَ أَلْفِ فَارِسٍ وَخَمْسِ مِائَةِ رَاجِلٍ ، فَاستَولَى الْمُسْلِمُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَيْهَا وَغَسَلُوهَا مِنْ رَجْسِ الشَّرِكَ وَجَلَّوْهَا مِنْ صَدَأِ الْإِلْفَكِ . ثَبَّتَ اللَّهُ فِيهَا قَدْمَ الْإِسْلَامِ وَجَبَرَ صَدْعَ مَنْ تَوَلَّ مِنْ إِخْرَانِهِمْ بِمَنْهُ . »^(١)

٢ - مملكة بلنسية

تقع مملكة بلنسية شرق الأندلس . تجاور من طرفها الشمالي مملكة سرقسطة

(١) النخيرة (مخطوط) ، ١٠١/٣ - ١٠٢ . كذلك : نفح الطيب ، ٤٥٤/٤ . ورد عدد قتل التورمانديين « نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل » عند المقربي (نفح الطيب ، ٤٥٤/٤) وابن عذاري (البيان المغرب ، ٢٢٧/٣) وكلها ينقل عن ابن حيان . جرى تقويم بعض الكلمات في النص أعلاه على نفح الطيب .

المحكومة لبني هود في التغر الأعلى . عاصمتها مدينة « بلنسية » ، من حواضر الأندلس ، و « شَاطِيْبَةً » من مدن هذه المملكة المهمة .

أ – حكمها أيام الطوائف

حكم الصقالبة – بعد الفتن العظمى ، التي انتشرت بها وحدة الأندلس – هذه المملكة مدة من الزمان . ثم حكمها بنو عامر (أبناء الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر) ، حين بايع الصقالبة لحكمها عبد العزيز بن عبد الرحمن^(١) بن المنصور سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، ولُقب بالمنصور . توفي عبد العزيز سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ، فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالظفر ، الذي تزوج ابنة المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة . وجرت بينهما أحداث انتهت بضم بلنسية وأعمالها إلى مملكة طليطلة ، وعَاهَدَ المأمون بأمور بلنسية إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز (ابن رويس) ، وجعله وزيراً ونائباً عنه في حكمها . فأحسن إدارتها وضبط أمورها وسار سيرة حسنة ، عدلاً ورفقاً .

ب – حكمتها الذئنية

تُوفى المأمون حاكم طليطلة سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ، وخلفه حفيده القادر . استقل أبو بكر في حكم بلنسية وجرت محاولات من قبل المؤمن بن هُود صاحب سرقسطة لضم بلنسية إليه ، كيما تغدو مع سرقسطة مملكة قوية . وكانت بينهما صلات ومصاهرة ، إذ تزوج أحمد المستعين بن المؤمن من ابنة أبي بكر الذي لم يلبث أن توفي سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، بعد عشرة أعوام من حكم بلنسية ، وخلفه في حكم بلنسية وأعمالها ابنه أبو عمرو عثمان .

جرى سقوط طليطلة – عاصمة بني ذي النون – سنة ٤٧٨ هـ ، أمام جيش أدفُونش (السادس) ملك قشتالة الذي وعد القادر حاكم طليطلة – بعد إخراجه منها – أن يعاونه في الاستيلاء على بلنسية ، وسار القادر وجماعته صوب بلنسية ، برقة سَرِيَّة قوية من الجنود القشتاليين ، أمدده بها أدفُونش بقيادة البارهانش أو

(١) عبد الرحمن هو المعروف بـ (شَجَول) .

البرهانس^(١) (Alvar Háñez) ، ابن أخي رُذْرِيق^(٢) الكنسيطور أو القُمْبِيطور . أليس عجباً أن إدْفُونْش (الفُنْش) – الذي ارتكب الجرائم في تخريب طليطلة وإنهاكها لسنوات ، ثم إسقاطها وطرد القادر منها – هو الذي يمده بالقوة للاستيلاء على بلنسية ؟ لكن الفُنْش كان يعرف أن تمكين القادر من الاستيلاء على بلنسية سيجعلها وتوايَّعَها واقعة تحت حمايته .

وصلت هذه القوة بلنسية لإخضاعها ، وجرت مراسلات مع أهلها ووعود من القادر لهم . انتهى الأمر بالموافقة على مطالب القادر واستبعاد مطالب أحمد المستعين ابن هود ، منافس القادر ، وخَلَع أبو عمرو عثمان ، ودخل القادر وجند قشتالة المدينة .

ساعت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثُر عيُّثُهم وغدت لهم السيادة الحقيقة على المدينة ، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه ، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتهاص البلد وإرهاق الناس ، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر .

كان هذا وأمثاله – من ملوك الطوائف – يسلمون أعداءهم ، فيركبون إلى حمايتهم لقاء : أموال يحبونها من الإرهاق وحصون يتنازلون له عنها طوعاً ، حمتها فيما مضى سواعد الفرسان الأشداء ، الذين تحلووا بالشهامة وحسن البلاء . وعدوهم – في كل ذلك – يزداد ويَضْعُفُون ، ويمد الأطراف المتنازعة فيقتلون .

ولولا وجود براعم أخرى أنبتها الأجواء الطيبة ، استمرت في العطاء ؛ وعَوْنَ الأخوة من عُدُوَّة المغرب ، تشد الأزر وتحمي الغرس – مُشيرًا إلى أصله النبت وبعد العمق – لما أفلتت جزيرة الأندلس من المصير القريب ، الذي ساقه إليها العديد من ملوك الطوائف المتأخرین ، بسوء فعاظهم وضلال سعيهم : فكأنوا كالذين قال الله

(١) نظم الجمان ، ابن القطان ، ٦/٦ ، ٧ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٦ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) *Manual de historia de Espana*, I, 607.

— سبحانه — فيهم في سورة الكهف : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَيِّثُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * ﴾^(١). كانت الأندلس — في هذا التاريخ — تُقبل على أحداث جديدة . تلك هي استثناء المرابطين . ثم كانت وقعة (معركة) الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، حيث كتب الله تعالى النصر الباهر للجيش الإسلامي^(٢) . بذلك أنجدت بلنسية واطمأن أهلها وتحطم قوى ملك قشتالة .

لكن بلنسية مازالت مُقبلة على أيام أخرى شديدة . يرتبط هذا بتاريخ فارس قشتالي مُغامر يبحث عن طالعه ويُسعى لمغنته . تُشير إليه مصادرنا التاريخية باسم : القنبيطور أو الكنبيطور أو الكبيطور^(٣) (El Cid Campiador) . اسمه رودريجو (رُدْرِيق) ديات دي فيغار (الفيقاري) ، (Rodrigo Diaz de Vivar) . من مواليد قرية فيغار ، قرب مدينة بُرغُش (Burgos) عاصمة قشتالة . كان من جنود شانجه ، أخي الفُنس (الفونسو السادس) ملك قشتالة وليون . تُكبت مدينة بلنسية الإسلامية بتخريب رُدْرِيق نكبتها الكنبيطورية ، وذلك « أيام تغلب رُدْرِيق المعروف بالكنبيطور على بلنسية وإحرافه لرئيسها أبي أحمد بن جحاف »^(٤) .

ج - حصار بلنسية

تشغل همجية رُدْرِيق وأعماله الوحشية من تاريخ بلنسية — في هذه الفترة — جزءاً كبيراً وخطيراً . وقد اعتبر التاريخ الإسباني رُدْرِيق هذا فارساً من أبطاله الوطنيين والقوميين^(٥) . صيغت حوله القصص والأساطير . لكنه لم يزد عن كونه مغامراً جشعآً بشعاً ، سفاكاً فتاكاً ، يسير حيث الغائم والأسلام ، دون اعتبار لأية مُثل دينية أو غيرها . ويتبين هذا جلياً من نظر الحوادث التالية^(٦) . ولا يُغير

(١) الآيات ١٠٣ - ١٠٤ من سورة الكهف . (٢) عن وقعة الزلاقة ، راجع : أدناه ، ٤٠٣ - ٤٠٩ .

(٣) كان أتباعه ينادونه « السيد » بالنطق الدارج لكلمة « السيد » . انظر : الحلة ، ١٢٥/٢ (الحاشية) ؛ « السيد القنبيطور وعلاقته بالمسلمين » ، حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ، ٧١/١/٣ .

(٤) الحلة السيراء ، ١٦٨/٢ .

(٥) انظر : دول الطوائف ، ٢٤٩ . قارن : دول الطوائف ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ .

(٦) أدناه ، ٣٧٢ وبعدها .

من الأمر حبة من خردل كونه فارساً مشهوراً . ساعدت أوضاع الأندلس - يوم ذاك - على ظهوره في الميدان . يشير ابن بَسَّام في الذخيرة إلى هذا المعنى ، فيقول : « ولما أحسنَّ أَحْمَدَ بْنَ يُوسُفَ بْنَ هُودَ ، الْمُتَزَّرِّي - إِلَى وَقْتِنَا هَذَا - عَلَى ثَغْرِ سَرْقَسْطَةَ ، بَعْسَاكَرَ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ تُقْبَلُ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ وَتُطَلَّعُ عَلَى أَطْرَافِهِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبٍ ، آسَدَ كَلِبَّ الْحَلَالِقَةِ يُسَمَّى بِهِ (رُذْرِيق) وَيُدْعَى بِالْكَنْبِيَطُورِ . وَكَانَ عَقَالاً وَدَاءً عُضَالاً ، لَهُ فِي الْجَزِيرَةِ وَقَائِعٌ ، عَلَى طَوَافَهَا بِضْرُوبِ الْمَكْرُوهِ إِطْلَاعَاتٍ وَظَالِعَ . وَكَانَ بْنُو هُودَ قَدِيمًا هُمُ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْخَمْولِ مُسْتَظْهِرِينَ بِهِ عَلَى بَعْيَهُمُ الطَّوِيلِ وَسَعِيهِمُ الْمَذْمُومُ الْمَخْنُولُ ، وَسَلَطَوْهُ عَلَى أَقْطَارِ الْجَزِيرَةِ يَضْعُ قَدْمَهُ عَلَى صَفَحَاتِ أَنْجَادِهَا . وَيُرَكِّزُ عِلْمَهُ فِي أَفْلَادِ أَكْبَادِهَا ، حَتَّى غَلَظَ أَمْرُهُ وَعَمَّ أَفَاصِيهَا وَأَدَانِيهَا شَرِهٌ »^(١) .

لما توفي شَانِجُهُ ، وَوَرَثَهُ أَخُوهُ الْفُنْشُ (الفونسو السادس) ، انتقل رُذْرِيق إلى خدمته . بدأ الْفُنْشُ عملياته ضد ملوك الطوائف ، معتمداً رُذْرِيق في بعضها . لم يكن الْفُنْشُ مرتاحاً إِلَيْهِ ، فقضى بإبعاده . وببدأ رُذْرِيق يُؤْجِرُ نفسيه للأمراء المسلمين أو النصارى . التحق أولاً بخدمة المقتصد بن هُود صاحب سَرْقَسْطَةِ . حين توفي المقتصد سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) وَقَسَمَ الْمُلْكَةَ بَيْنَ وَلَدِيهِ : المؤْتَمِنَ وَالْمُنْذَرِ ، التحق رُوذريقو بالمؤْتَمِنَ مع جنوده المرتزقة . وَعَنْدَ وَفَاتَهُ الْمُؤْتَمِنَ - سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) - استمر في خدمة ابنه أَحْمَدَ الْمُسْتَعِنِ .

عندما طلب القادر التجدة من المستعين لدفع خطر المنذر سار المستعين ورُذْرِيق صوب بلنسية لنجدته القادر . كان المستعين يطبع بالاستيلاء عليها . كانت قوة هذا الجيش بيد الطاغية القنبيطور ، حيث له ثلاثة آلاف فارس وللمستعين أربع مئة فارس . جرت مفاوضات بين هذه القوة - التي وصلت ظاهراً بلنسية - وبين القادر ، الذي بعث - خِفْيَةً - إلى رُذْرِيق يطلب إليه عقد التحالف سراً دون علم المستعين ، وبعث إليه بالتحف والمهدايا . لما كانت خدمات رذريقي تُبَاع وَتُسْتَأْجَرُ ، فإن المستعين دفع له المبالغ الكبيرة . حين طلب المستعين من رُذْرِيق معاونته في الاستيلاء على بلنسية ،

(١) الذخيرة (مخطوط) ، ٤٦ - ٤٧ (= الحلل السنديسة ، ٧٥/٣) .

ماطله في ذلك بحجة حماية أحفونش القادر ، ولا بدّ في هذا من استئذانه . أخذ رُذريق ينصح القادر سراً بعدم تسليم المدينة ، ويَعِدُ القادر والمستعين — كلاماً بمغزٍ — أن سوف يعاونه . في نفس الوقت يرسل إلى المتنز — عم المستعين وخصمه — ليعقد معه المودة والتحالف ، ثم يبعث إلى الفتن بأنه « تابع له ، وأنه أولئك الفرسان الذين يقردهم في أراضي المسلمين ، دون أية نفقة من الملك إنما هم تحت تصرف الملك ، يتزلون ضرباتهم بـ (الكفرة) ، وفي وسعهم أن يحصلوا على شرق الأندلس بسهولة» .^(١) وافقه الفُتن وأطلق له الإذن للتجول أني شاء من مناطق الأندلس . ثم ذهب رُذريق بنفسه لمقابلة الفُتن في قشتالة وحصل منه على وثيقة يؤكد له فيها بأنَّ المناطق التي ينتزعها من المسلمين تكون ملكاً له ولأولاده من بعده ، ميراثاً شرعياً .

عاد من قشتالة يقود سبعة آلاف مقاتل ، مرتزقة . وغدا زعيم عصابة يفرض بالقوة ما يريد من الأموال والمطالب ، واتجه صوب بلنسية ، وفرض أموال طائلة تدفع له سنوياً من صاحب شَتَّمِرِيَّةِ الشَّرْقِ (Santa Maria de Albarracin) التابعية إلى أبي مروان عبد الملك بن هذيل بن رَزِين^(٢) ومن أبي عيسى بن لَبُون صاحب مُرْبِيطَر^(٣) (Murviedro) وغيرهما . ونزل في الكُدُّيَّةِ شمال بلنسية ، فأرسل إليه القادر بالأموال ، واضعاً نفسه تحت حماية رُذريق ، ويدفع له أموال طائلة سنوياً .

ثم تغيّر الفُتن على هذا الفارس ، فأمر « بإخلاءسائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبالقبض على زوجه وأولاده الصغار ، وذلك لأنَّ القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة في الأمور الجنائية ، ولا يسمح بذرءة من التهاون أو الرأفة في تهمة الخيانة» .^(٤)

(١) دول الطوائف ، ٢٣٦ .

(٢) انظر : أعلاه ، ١٣٧ .

(٣) انظر : الحلقة السيراء ، ١٦٧/٢ ؛ المغرب ، ٢٧٥/٢ .

(٤) دول الطوائف ، ٢٣٩ . ذلك في دول إسبانيا الشمالية وما يماثلها .

عقد المستعين حلفاً مع رُذْريق ، المتحالف مع ملكي أَرْغُون وَبِسَارَة . وأراد الفونش – انتقاماً من رُذْريق – الاستيلاء على بلنسية . فعقد حلفاً مع جمهوريتي جنوة وبِيزَة في إيطاليا ، لتعاونه بالأساطيل في تحقيق ذلك . وسار الفونش بقواته إلى بلنسية ، وتهأ رُذْريق لمقابلة الفونش بالقوة ، وأرسل إليه بذلك . أدرك الفونش صعوبة موقفه ، فرفع الحصار عن بلنسية راجعاً إلى قَشَّالة . وانتقم رُذْريق لنفسه ، بالعيث في أراضي قَشَّالة وأمعن فيها قتلاً . مما حمل الفونش على إصدار عفوه عن رُذْريق ، وكتب إليه بذلك ، فشكراً . ذلك سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

سَرَّت في بلنسية رغبة شديدة للتخلص من النَّيْر المُرهق الذي فرضه رُذْريق على المدينة ، وترعم هذا الاتجاه قاضي بلنسية أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جَحَّاف بن يَمْنُ . يَنْصَبُ هذا الاتجاه ضد رُذْريق والقشتاليين ، مثلما هو ضد القادر . فاوض ابن جَحَّاف ابن عائشة قائدَ المرابطين (داود بن عائشة أحد كبار قادة ابن تاشفين) ليعينه في ذلك ويسلمه المدينة . وبعث إليه سَرِيرَة من جند المرابطين . قاد ابن جَحَّاف الثورة وقبض على القادر ، الذي وُجد مختفياً في حمام القصر ومعه صندوق من الخل والجواهر (!!!) ، فكانت نهاية .

اختير القاضي ابن جَحَّاف رئيساً للجماعة ، وتولى زمام السلطة سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وأخذ ينظم الأمور ويستعد لحماية المدينة والدفاع عنها . لعل أهل بلنسية فعلوا ذلك تخوفاً من القادر على بلنسية « أَنْ يُمْلِكُهَا لِفُونْشَ كَمَا مَلَكَ طُلُبِيْطُلَة » ، على حد تعبير ابن عِذاري في البيان المغرب^(١) .

أبو أحمد جعفر بن جَحَّاف من أسرة بَلَنْسِيَّة . تقلد عدد من أفرادها القضاء ، فيها أو في غيرها ، كان هو آخرهم . فهو « من أهل بلنسية وقاضيها ورئيسها في الفتنة وهو المحرق . . . وامتحن بالقنبيطور المتغلب على بلنسية إذ ذاك ، فاستتصفى ماله ، ثم أحرقه بالنار في جُمَادِي الأولى سنة ثمان وثمانين وأربعين مئة . »^(٢) يذكر ابن عَمِيرَة الضَّبَّي في كتابه بغية الملتمس أنه « قاضي بلنسية ورئيسها وآخر

(١) البيان المغرب ، ٣٠٥/٣ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٠٣/٢ .

(٢) التكلمة ، ١/٢٣٩ - ٢٤٠ (رقم : ٦٣٣) .

القضاة من بني جَحَّافٍ بها ، أحرقه القنبيطور لعنه الله ستة ثمان وثمانين وأربعين مئة .^(١) سار رذيق نحو بلنسية – إثر ما جرى فيها – بقواته وضرب حولها الحصار ، بعد إحراق ما حولها من المروج والزرع ، فاستولى على المناطق المجاورة . وأعدَّ ابنُ جَحَّافٍ – مع المرابطين – قوة من ثلاثة مائة فارس لمقاومة الحملات المخربة التي يقوم بها رذيق في أحواز المدينة :

كتب رُذريق إلى ابن جَحَّافٍ أن يترك بلنسية له بعد إخراج المرابطين منها ، وكانت تلك خديعة يقصد من ورائها إضعاف المدينة حين يعود لمحاصرتها . جرت مفاوضات انتهت بأن تدفع للطاغية رُذريق الأموال السنوية وتخرج قوة المرابطين ويترك الجيشُ القشتالي المدينة . لكن رذيق – وتلك طبيعة فيه – نقض العهد بعد مدة قليلة ، وبدأ عيشه خارج بلنسية وإرهاق ابن جَحَّافٍ بمطالبه المالية . كما طلب أن يتزل هو وجشه في مناطق حول بلنسية ، شمال شرقها وجنوب غربها ، ليحكم الطوق حول المدينة . ثم زاد فطلب إلى ابن جَحَّافٍ أن يسلِّمه موارد المدينة ويُقدِّم ابنه رهينة . عند ذلك رفض ابن جَحَّافٍ المطالب ، وأغلق أبواب المدينة ، وبعث إلى ابن عائشة قائد المرابطين وإلى المستعين صاحب سرْقُسطة طالباً المعونة ، كما كتب إلى آدُفونُش . لم يستطع المرابطون تلبية النداء بسرعة ، وبعد الشُّقَّةَ وانشغالهم ، وشدَّدَ الطاغية الحصار حول المدينة الباسلة وكثُرَّ عيشه حولها وقطع الأقوات عنها ، حتى لا يطول ثباتها . لكن ابن جَحَّافٍ قرر المقاومة حتى النهاية . لم يصل للمدينة أي مدد خارجي ، استمر الحصار عشرين شهراً . « فطمع في أخذ بلنسية ، فضايقها مضائقَةً شديدةً وحصارَها حصاراً عظيماً ، وقطع عنها المرافق ونصب الم giàنiques ، ونَقَبَ الأسوار ، وعَدَمَ الناس الطعام وأكلوا الفيران والكلاب والحياف إلى أن أكلَّ الناسُ الناسَ – ومن مات منهم أكلوه ، فبلغ الناس من الجهد ما لا يُطِيقون . وقد أَلْفَ ابْنُ عَلْقَمَةَ كتاباً في أمرها وحصارها يبكي القارئ »

(١) بُنْيَةُ المُلتَمِسِ ، ٢٥٧ (رقم : ٦١٥) . كذلك : الحلل السنديبة في الآثار والأخبار الأندلسية ، ٨٧/٣ - ٨٨ -

ويذهل العاقل . »^(١)

لقيت بلنسية من الكثيّب طور المغامر الأمراء ، حتى « هلك أكثر الناس جوعاً ، وأكلت الجلود والدواوب وغير ذلك ، ومن فر إلى المحلة فُقِيت عيناه ، أو قُطعت يداه ، أو دُقت ساقاه ، أو قُتلت . »^(٢)

فوق ذلك كله عامل الطاغية الصليبي رُذريق وجندُه أهلَ بلنسية أقصى معاملة وأكثرها تطرفاً في الإيهاك والتنكيل وأعرقها وحشية وهمجية . لكن هذا ديدنه^(٣) وأمثاله ، كما سنلاحظ ذلك في اطلاعنا السريع على أحداث « الحروب الصليبية في الغرب الإسلامي » ، وهو موضع جلديز بعنابة الدارسين^(٤) .

فأعجب - ما شئت - أن يُتَّخَذ هذا الفارس المغامر والمتوحش الكاسر ، مستودع رذائل العصر^(٥) ، وأصنافه ، بطلاً ، ويجعل منه مثلاً . بل إن بعض المستشرقين وكتبة التاريخ الأوروبيين أصتصوا السوء بالقاضي ابن حَحَاف واعتبروه أهلاً لِما لقيه^(٦) : فما فعله رُذريق كان واجباً وحقاً . منهم من زاد شططاً فدافع عن فعال رُذريق واعتبرها قانوناً ودستوراً ، لا مذمة فيه ولا لوم عليه . بل اعتبره مفخرة ومؤثرة^(٧) تفتت بها .

شيء من الإنصاف والأماتة العلمية وحسن النظر ونراة البحث والمتابعة والاطلاع ، تَظَهَر حقيقة هذا الأمر وشيكًا . يقول في ذلك مؤرخ الجليزي :

(١) البيان المغرب ، ٣٠٥ / ٣ = ١٤٧ / ٤) . الظاهر أن مادَّته ابن عذاري في « البيان المغرب » المقبس منه هنا - عن أحداث بلنسية المروعة والأساة المفزعة ، نقله ابن عذاري - جله أو كله - عن كتاب ابن علقة « البيان الواضح في الملم الفادح » المفقود ، مؤرخ فاجعة بلنسية . انظر : أدناه ، ٣٧٨ ، ٣٧٥ .

(٢) البيان المغرب ، ٣٢ / ٤ .

(٣) راجع : دول الطوائف ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ .

(٤) انظر : أعلاه : ١٣٦ .

(٥) انظر : دول الطوائف ، ٢٥٠ .

(٦) الإسلام في المغرب والأندلس ، ليفي بروفنسال ، ١٦٧ ؛ الحلل السنيسية ، ٦٥ / ٣ .

(٧) راجع : دول الطوائف ، ٢٤٩ ؛ الحللة السيراء ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٤٧ ؛ الحللة التاريخية المصرية ، ٧٧ / ١ .

« نخطيء خطأً فاحشاً إذا اعتبرنا محاربي ليون وقشتالة شيئاً ما يداني مثالية شرف الفروسية والبطولة ، كما نرتكب خطأً حين نتخيلهم رجالاً نبلاء مهذبين . فنصارى الشمال (الإسباني) يكونون أتعجب مغايير ممكناً لأقرانهم الأندلسيين . »^(١)

مقارنة جدية ، خفيفة سريعة – مع ما رأينا في الفتح الإسلامي للأندلس وفي غيره من الفتوحات الإسلامية الأخرى ، وعموم التعامل مع الآخرين – تظهر حقيقة الفارق ومقداره المترامي مع غيره كله ، وهو طبيعي . كلهم بشر ، لكن الفعل فعل العقيدة الربانية التي اختارها الله للإنسان وارتضتها لأهل الأرض شرعاً ومنهاجاً . وبأي شيء غيره ، لا ولن يكون .

حلّت بأهل بلنسية أنواع المحن وامتحنوا بأفانين البلاء ، أنهكتهم الألواء . كان منها أبغض ألوان البلاء التي تساوى فيها الفقراء والأغنياء .

استسلمت بلنسية سنة ٤٨٧ هـ ، في جُمادى الأولى منها ، بعد أن عاث رذيق فيما حولها عيث الأعداء الحاقدين . لا عجب : من يعمد إلى إفساد الإنسان ، هل يبالي بغيره ، أم يعبأ حি�ثما وكيفما يصب وبال شره ؟

نقل ابن الأبار (٦٥٨ هـ) وابن عِذاري (بعد ٧١٢ هـ) وغيرهما عن ابن عَلْقَمَة البَلَتَسِي الأحداث بالشهور – لا سيما التي سبقت احتلاله بلنسية – وصفاً دقيقاً ، يعتبر وثيقة ناطقة ذات قيمة عالية . واحتوت تكملة ابن الأبار العديد من الأخبار المتعلقة بلنسية ، نقلها عن ابن عَلْقَمَة ، منها – حين ترجم أبو أحمد ابن جَحَافَ المحرق – : « وامتحن بالقُنْبِيطُور المُتَغلِّب على بلنسية إذ ذاك فاستصفي أمواله ، ثم أحرقه بالنار في جُمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . فيه عن ابن عَلْقَمَة والرُّشَاطِي وغيرهما . »^(٢) أما ابن عِذاري فيذكر أحداث سنة ٤٨٧ هـ ، قبيل استسلام بلنسية ، أنه « مما امتحن به أهل بلنسية في هذه السنة المؤرخة الغلاء ، قال محمد بن عَلْقَمَة : بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال ونصف ، ورطل الشعير

(١) *The Moors in Spain*, S. Lane-Poole, 189.

راجع : الترجمة العربية : العرب في إسبانيا ، ١٦٤ . كذلك : الحلل السندي ، ٦٦/٣ .

(٢) التكملة ، ١/٢٤٠ (رقم : ٦٣٣) (أعلاه ، ٣٧٢) . كذلك : التكملة ، ١/٢٨٦ (رقم : ٧٧٠) .

بنقال ، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وببيضة دجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ، ورطل الجلد البقرى بخمسة دراهم .

« وفي ربيع الثاني ، عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جَحَّاف اقتحام الدور فحصل عن القوت

« وانسلخ هذا الشهر ، ورطل التممع بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل إلى إدراك شيء من الموجود إلاًّ أهل الجاه ، وترمى سائر الناس بالحلود والأصماغ . وعروق المسوس ، ومن دون هؤلاء بالفترة والقطاط وجيفبني آدم . وهجم على نصريني وقع في الحفيير ، فأخذ باليد ، ووزع لحمه .

« وجدَ الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لثلاً يخرج الصعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم في صوامع الأرض وبواسق الأشجار .

« ودخل جُمادى الأولى ، وعدمت الأقوات بالحملة ، وهلك الناس . ولم يبق من ذلك الجم إلاً نذر يسير . وتوالي اليبس ، واستحكم الوباء ، وبينما الرجل يشي ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلاً ثنان لابن جَحَّاف وابنه واثنان لابن ربير . وباع ابن ربير فرسه من الجزأرين بمائةي مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال ، فبيع الرطل منه أوله عشرة دنانير ، وآخره باثني عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالاً .^(١) هكذا ارتكب الطاغية وجنده الأفاعيل البشرة ، وقد لا يكون الاستمتاع بالقتل أرذلها .

د - استسلام بلنسية وسقوطها

تبعاً لهذه الحالة طلب أعيان المدينة - والناس من ورائهم - إلى ابن جَحَّاف الموافقة على المفاوضة والتسليم ، حيث لم تبق مقدرة للبقاء في هذه الحال ، فضلاً عن الثبات والمقاومة . اضطرب القاضي ابن جَحَّاف للإذعان وترك لهم المفاوضة . سار وفد لمفاوضة الطاغية ، وسلمت بلنسية له على الشروط التالية : « أن يبقى ابن جَحَّاف

(١) البيان المغرب ، ٤/٣٨ - ٣٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٤/١٤٨ . انظر : دول العوائف ، ٢٤٣ .

قاضياً للمدينة وحاكمها ، وأن يؤمن في نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تختلي المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين ، وأن يرابط السيد بجيشه في جباله . وألاَّ يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها .^(١)

فتحت أبواب المدينة للطاغية وجنده يوم الخميس منسلخ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (حزيران سنة ١٠٩٤ م) ، بعد حصاره لها عشرين شهراً^(٢) ، منذ آخر رمضان ٤٨٥ هـ . واحتلوا – لتوهم ، وخلافاً للشروط – أبراج المدينة ، ونزل الطاغية في القصر . ثم ألقى خطاباً ، وعد أهلها بالعدل وإعادة الحقوق إلى أصحابها ورفع الظلم . لكن احتلت أكثر دور المدينة وضياعها ، ولم ينصف أحد أو يعاد إليه حقه^(٣) .

لنستمع إلى ما كتبه بعض مؤرخينا حول هذا الموضوع . يذكر ابن عذاري في البيان المغرب أنه سنة ٤٨٧ هـ « لما بلغ بأهل بلنسية الماء الزبي ، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ، ولا نصر ولا غوث ، ألحأهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار ، لا بحكم الاختيار . فتجمعوا إلى قاضيهم أبي المطرّف بن جحاف ، وسافروا إلى الطاغية الكتبنيبور – لعنه الله – من يتوسط لهم معهأخذ الأمان . فأجاب في هذا الشأن ، وعقد نيته على الخير ، ونقض العهد ، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس . فخرج إليه القاضي ، وعقد عليه العقود ، وأخذ المواثيق والعقود ، وحزم في كل ذلك ، وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية ، ولا وراءها مجتهد نهاية ، فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب ، ودخل المدينة بحملته ، وذلك في جُمادى الأولى من هذه السنة »^(٤) .

(١) انظر : دول الطوائف ، ٢٤٤ . النصارى المعاهدون : المستعربون . جباله : إحدى ضواحي بلنسية .

(٢) التكملة ، ٤٠٤/١ (رقم: ١١٣٦) ، ٨٠٦/٢ - ٨٠٧ (رقم: ١٩٦٨) . كذلك : الذيل والتكميل ، ٣٣٣/٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٠٤/٢ ، ٤٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٤٨ ، ٤٤/٣ . كذلك : دول الطوائف ، ٢٤٤ . انظر : الذخيرة (مخطوطة) ، ١٤٨/٤ . كذلك : دول الطوائف ، ٢٤٤ .

(٣) التكملة ، ٢٩٨/١ ، ٤٠٤ ، ٢٩٨/٢ ، ٤٠٤ . (٤) دول الطوائف ، ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٥) البيان المغرب ، ٣٤/٤ . كذلك : البيان المغرب ، ٣٩/٤ .

يحدثنا عن ذلك أيضاً أبو الحسن علي بن بسّام الشنتراني (٥٤٢ هـ) في معجمه التاريني والأدي الذخيرة في محسن أهل الجزيرة الذي كتبه في قُرطبة وأتمَّ فيها سنة ٥٠٣ هـ^(١). ويُعتبر هذا الكتاب الضخم مرجعاً مهماً عن عصر الطوائف ، حيث كان المؤلف معاصرًا لها . فيعطيها صوراً ناطقة مذهلة عما جرى للMuslimين في بلنسية على يد الطاغية وجده المرتزقة ، مما يؤكّد الذي ذكر أعلاه من أنَّ هذا «القنيطرة» يبيع كل شيء ليسد شره ، حتى الناس ، غير مبال بمثل أو عهود يقطعها^(٢).

ولدينا على وجه الخصوص وثيقة ذات أهمية أساسية كتبها لنا مؤرخ وأديب بلنسى ، شاهد عيان لهذه الحوادث اشترك في بعضها ، كما يشير ابن عِذَّاري : « وقال أبو العباس أحمد بن عَلْقَمَة في تاريخه ، وهو من شهد الوطن ، وكان في الحصار »^(٣) . هو أبو عبد الله محمد بن خَلَف الصَّدَّاف المعروف بابن عَلْقَمَة (٤٢٨ - ٥٠٩ هـ) . سجل تاريخ بلنسية ، وهذه الأحداث المروعة بالذات ، في كتابه البيان الواضح في المُلِمِ الفادح . يذكر ابن الأبار أنَّ ابن عَلْقَمَة «أَلَّفَ تارِيخاً في تغلُّبِ الرُّوم على بلنسية قبل الخامس مئة سماه بالبيان الواضح في المُلِمِ الفادح»^(٤) ، أي ربما بعد دخولها في طاعة المرابطين سنة ٤٩٥ هـ . ليس بعيداً أنه أهْمَّ أيضاً – ولو على نطاق ضيق – بتدوين أحداثأندلسية أخرى كسقوط طُليطلة^(٥) ، مع الاهتمام بأحداث بلنسية . أشار إليه ابن عِذَّاري ، كما مرَّ بنا . لكن ضاع أصل هذا الكتاب ، ووجدت ترجمة إسبانية غير أمينة لكثير من نصوصه ، كما نقل عنه عدد من مؤرخي الأندلس . وأخيراً عُثِرَ على قطعة من البيان المهروب لابن عِذَّاري وفيه فقرات – لعلها كاملة – من تاريخ ابن عَلْقَمَة^(٦) .

(١) انظر : تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية ، محمد عبد الله عنان ، ٣٠١ .

(٢) راجع : دول الطوائف ، ٢٤٩ - ٢٥١ - ٤ حضارة العرب ، ٢٨٠ .

(٣) البيان المقرب ، ٤/٤٤٨ . لعل خطأً ما وقع في هذه الصورة من اسمه، فهو أبو عبد الله محمد ، كما يتبيّن بعد.

(٤) التكملة ، ٤/١٢ (رقم: ١١٦٥) . كذلك : التكملة ، ١ ، ٤٠٤ ، ٢٨٦/١ ، ٤ التزيل والتكميلة ٦/١٨٤ . البيان المقرب ، ٣٠٥ ، ٢٨٩/٣ وبعدها .

(٥) انظر : التكملة ، ١/٢٣ (رقم: ٥٤) ؛ نفح الطيب ، ٤/٣٥٤ .

(٦) البيان المقرب ، ٤/٥ ، ٣١ - ٤١ .

هـ - أخذة بلنسية واحتلالها

نَكَلَ الطاغية بأهل بلنسية تنكيلاً أثار فيهم العوبل ، لكنه لم يسمع كلمة من قائل ، فليس من وراء ذلك طائل . انساق مع هواه لثيماً ، يفتاك بهم فتكاً أثيمًا . احتل المدينة وجلس في قصرها حاكماً وأصدر أوامره قبوداً ونقمة . أصدر أمراً في شهر شعبان من العام (٤٨٧هـ) «مشى بريحه : (من وجد عنده شيء من آلات الحديد ، فماله ودمه حلال !) فبرى الناس منه حتى من الإبر والمسامير ، ووضعوا ذلك بباب القصر ، وقد تضاعف الجزع والخوف . ثم مشى بريحه من الغد بالخروج إلى البحر لجر القطع التي فيه إلى البر ، فلما تكامل الناس ، لحق بهم المترجم مع زعماء الروم ، فميزهم ، فمن كان من أهل اليسار صُرِفَ إلى المدينة ، ومن كان من أهل النجدة جُردَ ونُفيَ ، وغلب على الظن أنهم قُتلو ، فكان الحزن في دورهم . واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان »^(١) . نفي من أراد نفيه وفتاك بالكثير مدة شهرين أو تزيد . إذ في الثامن من شوال أصدر أمره أو «مشى بريحه باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثم خرج عليهم ونظر إليهم وعرَّض بذكر المرابطين وكثريتهم وأنَّ ذلك ما أغنَى عنهم ، وجعل ينظر في عطفه ، ويسمع بأنه . ثم قال : (انظروا إلَيَّ في سبع مئة ألف مثقال ، وإلَّا هلكتم ، وأحلْت السيوف عليكم) ثم خرج وبقي المسلمون في القصر ، وأغلق عليهم الباب ، فصاروا في سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخَرَست الألسنة »^(٢) .

حَوَّلَ الطاغية مسجدَ بلنسية الجامع إلى كنيسة^(٣) . يتبيَّن ذلك مما يذكره ابن الأبار حين ترجم أبي بكر بن المعلم حمدون بن محمد من أهل بلنسية أنه : « تولى الصلاة والخطبة بمسجد رَحْبَة القاضي مِنْ بلنسية بعد تغلب الروم عليها واحتيازهم المسجد الجامع بها . وذلك سنة تسع وثمانين وأربعين مئة ، ثم خرج منها مع جماعة من أهلها فراراً

(١) البيان المغرب ، ٤٠/٤ . مشى بريحه : أصدر أمره .

(٢) البيان المغرب ، ٤٠/٤ . ٤١ .

(٣) الإسلام في المغرب والأندلس ، ١٩٣ .

بدينهم في شهر ربيع الآخر سنة تسعين وأربعين مئة ، بعضه من تاريخ ابن علقة .^(١)
 شرح أحداث بلنسية هذه مؤرخون آخرون ، أمثال ابن الأبار^(٢) وابن الخطيب
 في أعمال الأعلام والإحاطة^(٣) . ونقل هؤلاء وغيرهم من ابن علقة^(٤) أو من غيره
 شنوراً مهمة ، وسبق ذكر شواهد مما دونه هؤلاء المؤرخون عن المأساة البلنسية
 وسرد شواهد أخرى .

تسلم رذريق أموال القادر من القاضي ابن جَحَّاف ، الذي بقي في متصرفه
 قاضياً للمدينة ، لكنه أخذ يشدد عليه في السؤال عما إذا كان لديه بقية من هذه الأموال .
 ثم طلب إليه أن يُقسم على ذلك وأنه إن وجد شيئاً منها فيما بعد فسيسفلك دمه . أقسم
 القاضي على ذلك أمام شهود من المسلمين والنصارى ، ثم أتهمه رذريق بإخفاء
 بعض المال فأصدر حكمه بإعدام القاضي ابن جَحَّاف حرقاً في ساحة المدينة . لعلها
 الموضع يعرف اليوم باسم : « رَحْبَة القاضي » (Rahbatalcadi) أمام كنيسة
 (Santa Catalina) ، أصلها مسجد لعله « مسجد رَحْبَة القاضي » . ورد ذكرها
 عند ابن الأبار^(٥) وقد تكون هذه الرحبة هي ساحة السوق (La Plaza Mercado)
 الحالية في بلنسية^(٦) .

ولنستمع إلى وصف مؤرخينا لهذا الحادث البخل .

يقول ابن الأبار في الحلقة السيراء بقصد الحديث عن ابن جَحَّاف : « فقضى
 الله أن تسَلَّطَ عليه الطاغية الكَبِيْطُور ، بعد أن أَمْنَهَ في نفسه وماله عند دخوله
 بلنسية صلحاً ، وتركه على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله وأهلَّ بيته وقرابته وجعل

(١) التكملة ، ٢٨٦/١ (رقم : ٧٧٠) . كذلك : المعجم ، ابن الأبار ، ١٩٦ (رقم : ١٦٧) .

(٢) التكملة ، ٤١٢/١ (رقم : ١١٦٥) ؛ الحلقة السيراء ، ١٢٥/٢ - ١٢٦ ، ١٦٨ . مواضع أخرى
 وردت الإشارة إليها في الحواشى .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢٠٣/٢ - ٢٠٥ ؛ الإحاطة ، ١/٨٣ .

(٤) انظر : دول الطوائف ، ٢٥١ - ٢٥٢ ؛ « السيد القبيطور وعلاقته بال المسلمين » ، المجلة التاريخية
 المصرية ، ٥٧/١/٣ .

(٥) التكملة ، ١٩٥/١ (رقم : ٥١٩) ، ٢٨٦ (رقم : ٧٧٠) .

(٦) البخل السندينية ، ٨٥/٣ .

يطلبهم بمال القادر بن ذي النون : ولم يزل يستخرج ما عندهم بالضرب والإهانة وغليظ العذاب ، ثم أمر بإضرام نار عظيمة كانت تلفح الوجه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضي أبي أحمد يرسف في قيوده ، وأهله وبنوه حوله ، فأمر بإحرافهم جميعاً . فضج المسلمون والروم ، وقد اجتمعوا ، ورغبوا في ترك الأطفال والعياط ، فأسعفهم بعد جهد شديد . واحتفر للقاضي حفرة – وذلك بولجة بلنسية – وأدخل فيها إلى حُجزَته ، وسوّي التراب حوله ، وضمّت النار نحوه . فلما دنت منه ولفتح وجهه ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقبّض على أقباسها وضمها إلى جسده يستعجل المنية ، فاحترق رحمة الله ، وذلك في جُمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . ويوم الخميس من سلخ جُمادى الأولى من السنة قبلها كان دخول الكبيطور المذكور بلنسية .^(١)

يذكر ابن بَسَّامَ (٥٤٢ هـ) ، معاصر هذه الأحداث ، نصاً آخر فيه زيادة
نافعة تلقي ضياءً على الحادثة ، ذلك أنه لما «تم للطاغية لُذُرِيقَ مراذه الذميم من دخوله
بلنسية سنة ثمان وثمانين على وجهه من وجوه غَدَرِه . وبعده إذعان من القاضي
المذكور بسطوة كبره ودخوله طائعاً في أمره على وسائل اتخاذها ، وعهود ومواثيق بزعمه
أخذها ، لم يمتد لها أمد ولا كثر لأيامها عدد ، وبقى معه مُدَيْدَة يضجر من
صحبته ويلتمس السبيل إلى نكبه ، حتى أمكتنه ، زعموا بسبب ذخيرة نفيسة من
ذخائر ابن ذي النون ، كان لُذُرِيقَ لأول دخوله قد سأله عنها واستحلله بمحضر
جماعة من أهل الملتين على البراءة منها ، فأقسم بالله جهد أيمانه غافلاً عماني العيب من
بالاته وامتحانه ، وجعل لُذُرِيقَ بينه وبين القاضي المذكور عهداً أحضره الطائفتين وأشهد
عليه أعلام الملتين ، إن هو انتهى [بعد] إليها وغَرَ عنده عليها ، ليستحلن إختفار
ذمه وسفك دمه . فلم ينشب لذریق أن ظهر على الذخیرة المذکورة لدیه لما کان قدر
الله [حُمَّ] من إجراء محنته على يدیه ، ولعلها كانت منه حيلة أدارها وداهیة من دواهیه
أسداتها وأثارها ، فانحنى على أمواله بالنهاب وعليه وعلى أهله وولده بأنواع العذاب ،

(١) الحلقة السابعة ، ١٢٦/٢ . راجع كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٠٤/٢ ؛ البيان المغرب ، ٣٠٦/٣ ، ٣٧/٤ ، ١٤٨ ؛ الحلقة السادسة ، ٨٥/٣ .

حتى بلغ جهده وينس مما عنده ، فأضرم له ناراً أتلفت ذماعه وحرقت أسلاءه . حديثي من رأه في ذلك المقام وقد حُفر له حفيـر إلى رُفـقـيـه وأضرـمتـ النـارـ حـوـالـيهـ وهو يضم ما بـعـدـ منـ الحـطـبـ حـوـالـيهـ [بـيـديـهـ] ليـكـونـ أـسـرعـ لـذـهـابـهـ وأـقـصـرـ مـدـدـهـ عـذـابـهـ ، كـتـبـهاـ اللـهـ لـهـ فـيـ صـحـيفـةـ حـسـنـاتـهـ ، وـمـحـابـهاـ سـالـفـ سـيـئـاتـهـ ، وـكـفـانـاـ بـعـدـ الـيـوـمـ نـقـماتـهـ ، وـيـسـرـنـاـ إـلـىـ مـاـيـزـلـفـ إـلـىـ مـرـضـاتـهـ . وـهـمـ يـوـمـئـدـ [الـطـاغـيـةـ] – لـعـنـهـ اللـهـ – بـتـحـرـيقـ زـوـجـتـهـ وـبـنـاتـهـ ، فـكـلـمـهـ فـيـهـنـ بـعـضـ طـغـاتـهـ . فـبـعـدـ لـأـيـ مـالـفـتـهـ عـنـ رـأـيـهـ وـتـخـلـصـهـنـ مـنـ يـدـيـ نـكـدـائـهـ . »^(١)

هـكـذاـ فـعـلـ وـيـفـعـلـ الطـاغـيـةـ لـيـزـيلـ كـلـ أـحـدـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـفـ فـيـ وـجـهـهـ ، وـلـهـ الـكـلـمـةـ فـيـ حـيـةـ وـالـاسـتـجـابـةـ لـلـتـفـيرـ وـبـنـقـادـ إـلـىـ الـجـمـ الغـفـيرـ . فـكـانـ اـبـنـ جـحـافـ رـأـسـاـ فـيـهـ يـقـومـ لـرـدـ الـأـذـىـ عـنـهـمـ ، لـذـاـ أـطـاحـ بـهـ الـقـمـبـيـطـورـ لـيـشـنـيـ عـلـىـ أـمـثـالـهـ بـالـحـرـقـ وـالـتـهـجـيرـ «ـ وـلـمـ يـكـنـ غـضـبـ الطـاغـيـةـ عـلـيـهـ إـلـىـ لـشـدـةـ صـبـرـهـ عـلـىـ تـلـكـ الـأـزـمـةـ ، وـاجـهـاـدـهـ فـيـ طـلـبـ النـصـرةـ ، وـدـفـعـهـ إـلـيـاهـ بـالـمـطاـولـةـ ، رـجـاءـ فـيـ اـسـتـمـساـكـ الـبـلـدـ وـابـقـاءـ الـكـلـمـةـ . »^(٢) فـهـوـ لـاـيـكـفـ وـلـاـيـشـعـ ، فـيـحـرـثـ الـأـرـضـ طـغـيـانـاـ وـيـرـعـ . حـتـىـ تـأـتـيـهـ كـفـ مـؤـمـنـ ، تـلـطـيمـ – باـسـمـ اللـهـ – رـأـسـهـ المـغـرـورـ وـتـمـعـنـ ، فـتـذـرـهـ حـصـيدـاـ ، وـلـرـيـاحـ الإـيمـانـ طـرـيـداـ »^(٣) وـكـانـ اللـهـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ مـقـنـدـراـ »^(٤).

قام رـُذـرـيقـ بـكـلـ ذـلـكـ رـغـمـ مـعـاـيشـتـهـ لـلـمـسـلـمـينـ ، وـكـانـ يـحـظـىـ بـجـسـنـ الـعـامـلـةـ وـالـتـقـدـيرـ ، وـرـأـيـ الـإـنـصـافـ الـذـيـ غـمـرـ أـبـنـاءـ مـلـتـهـ ، مـتـمـتـعـنـ بـهـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـإـسـلـامـيـ . لـيـسـ ذـلـكـ فـقـطـ بـلـ أـحـرـقـ رـُذـرـيقـ أـيـضاـ مـجـمـوعـةـ مـنـ أـهـلـ بـلـنـسـيـةـ وـأـعـيـانـهـ ، نـعـرـفـ أـسـماءـ الـمـشـهـورـينـ مـنـهـمـ^(٤) : أـمـثالـ الشـاهـيـدـ وـالـأـدـيـبـ الـلـبـيـبـ أـبـيـ جـعـفـرـ أـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـليـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـليـ الـبـلـنـسـيـ الـمـلـقـبـ الـبـتـيـيـ ، نـسـبـةـ إـلـىـ قـرـيـةـ بـتـتـةـ مـنـ قـرـىـ

(١) النـخـيـرـةـ (مـخـطـوـطـةـ) ، ٤٩ - ٤٨/٣ = الـحـلـلـ الـسـنـدـيـةـ ، ٧٧ - ٧٨/٣ . كذلك : الـحـلـةـ التـارـيـخـيةـ ، ٧٣/١/٣ . اـنـتـفـعـ بـالـحـلـلـ فـيـ قـرـاءـتـهـ وـزـيـادـةـ مـاـ بـيـنـ الـأـقـواـسـ مـنـهـ . الـذـمـاءـ : بـقـيـةـ الرـوـحـ . الرـفـغـ : أـصـلـ الـفـخـذـ . وـرـدـ اـسـمـ لـذـرـيقـ فـيـ الـمـخـطـوـطـةـ رـُذـرـيقـ .

(٢) الـبـيـانـ الـمـرـبـ ، ٣٨/٤ . كذلك : أـعـمـالـ الـأـعـلـامـ ، ٢٠٤/٢ - ٢٠٥ .

(٣) مـنـ الـآـيـةـ ٤ـ مـنـ سـوـرـةـ الـكـهـفـ .

(٤) انـظـرـ : الـحـلـلـ الـسـنـدـيـةـ ، ٧٨/٣ .

بلنسية . نقل عدد من المؤرخين خبر استشهاده حرقاً على يد الكبيطور عن أبي محمد عبد الله الرشاطي الأندلسي المري (٤٦٦ - ٥٤٢ هـ) من كتابه اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواية الآثار^(١) ، أو من غيره . نقل ابن الأبار أنه « كان ربما كتب لبعض الوزراء ولم يكن من يعلم . أحرقه الكَبِيْطُور - لعنه الله - حين تقبيله بالروم على بلنسية ، وذلك في سنة ثمانين وأربع مائة . »^(٢) وذكر « أن إحراقه كان سنة تسعين وأربع مائة . »^(٣)

لدى ابن عذاري وغيره خلاصة معتبرة عما جرى لابن جحاف وأمثاله ولغيرهم من أهل بلنسية على يد الطاغية الكبيطور وما أذيقه المدينة من ال威يلات وتجرعها كؤوس النكبات . طال - كما بعده - إرهاق الناس بالمطالب الحشعة ، المملوعة بالحقد الناقع والجحود البارع ، وإنها كتهم بضغوطه المتنمرة ومحنها المكشّرة ، قضت انسفهم وأتلتفت جنسهم . بعدها ساقهم إلى الموت جراحاً ، فألقى بهم في شعلة النار ذفافاً . حين تمكن الطاغية من المدينة واستترف خيرها واستصفي أمواها وأحکم أقفالها .

ساق رذريق قاضي بلنسية ابن جحاف أبا المطرّف وهو في قيوده يرسف . دافعاً به إلى الموت حرقاً في ساحة رحبة القاضي البلنسية . أضرم هنالك النار واحتفر له حفرة ، حاشداً الناس للمشاهدة والعبرة . أحضر أهله وبنيه حوله وقرر عليهم الحرق مثله ، في جمادى الأولى سنة ٤٨٨ هـ . فاجتليه على هذه الحال « وأمر به

(١) انظر ترجمة الرشاطي : الصلة ، ٢٩٧ (رقم : ٦٥٣) ؛ المعجم ، ابن الأبار ، ٢٢٧ (رقم : ٢٠٠) ؛ وفيات الأعيان ، ١٠٦/٣ ؛ نفح الطيب ، ٤/٤٦٢ . استشهد في سقوط مدينة المرية الأولى سنة ٥٤٢ هـ .

(٢) التكملة ، ٢٤/١ (رقم : ٥٦) . كذلك : الحلقة السيراء ، ١٢٧/٢ ، ١٦٨ ؛ البيان المغرب ، ٤/٣٨ ؛ المطروب من أشعار أهل المغرب ، ١٩٥ ؛ نفح الطيب ، ٤/٢١ ، ٤٥٦ ؛ الراوي بالوفيات ، الصفدي ، ١٦٠/٧ ؛ الذيل والتكميلة ، ابن عبد الملك المراكشي الانصاري ، ١/٢٧٣ ، ٢٧٦ - ٢٧٣/١ (رقم : ٣٥٣) ، ٥٩٠/٢/٥ (حاشية) ؛ خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الاصفهاني ، ٤/٣٥٥ ؛ بنية الوعاة في طبقات اللعنون والنهاة ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ١/٢٣٢ (رقم : ٦٢٩) ؛ الحلقة السنديّة ، ٣/٧٨ ، ٨٦ ؛ دول الطوائف ، ٢٤٦ .

(٣) التكملة ، ٢٤/١ . كذلك : الذيل والتكميلة ، ١/٢٧٦ .

وبحمله إلى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم [النصارى] ، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعياط ، إذ لاذب لهم ، ولاعلم بتلك الأمور عندهم ، فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة ، وترك النساء والصبية . وحرق القاضي حفرة وأدخل فيها إلى حُجْرَتِه ، وسُوئي التراب حوله ، وضمت النار إليه فلما دنت منه ولحت وجهه ، قال : (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم ضمها إلى جسده فاحترق ، رحمه الله تعالى .

« ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده في طلب النصرة ، ودفعه إياه بالطاولة ، رجاء في استمساك البلد [للإسلام] وإبقاء الكلمة [فيها] .

« وعمد الطاغية - لعنه الله - بعد إحراق القاضي - رحمه الله - إلى الجلّة من أهل بلنسية ، فشقّفهم [بحال تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء ، يتجلّبون صراخهم أمام المحنة] وأغرّتهم حتى استأصل جميع ما عندهم ، وجعل الناس في المحنة أسوة ، يأخذهم على طبقاتهم ، حتى عتمتهم المحنة ، وهلك في ذلك التفاف كثير منهم ، رحّهم الله وجعلها كفاراً لهم ». (١)

التحق برذيق بعض الأشرار ، وقاموا بأعمال الأذى ضدّ المسلمين وأخنوه أسرى « إلى أن انتهى بيعهم لل المسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يقد نفسه قطع لسانه وفقت أ jelفانه ، وسلطت عليه الكلاب الضاربة ، فأخذته أخذةً رابية ». (٢) بعد كل هذا وجدنا من يشي على رذيق ، بل - وكذلك - من يبرر جرأته (٣) .

صورة الشعر الأندلسية هذه المأساة . يقول فيها الشاعر اللبناني المعاصر أبو إسحاق ابن خفاجة (٤) (٤٥٠ - ٥٣٣) .

(١) البيان المغرب ، ٣٧/٤ - ٣٨ . ما بين الأقواس المقوقة من : « أعمال الأعلام » ، ابن الخطيب ، ٢٠٤ - ٢٠٥ . كذلك : الحلة السيراء ، ١٢٦/٢ (= أعلاه ، ٣٨٠ - ٣٨١) ؛ الذخيرة (خطوطة) ، ٤٨/٣ - ٤٩ (= أعلاه ، ٣٨١ - ٣٨٢) . الثقاف : التأديب والامتحان والأذى .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٠٣ - ١٠٤ (نص ابن الكردبوس) .

(٣) انظر : أعلاه ، ٣٧٤ . (٤) راجع : نفح الطيب ، ٤٥٥/٤ .

وَمَا مَحَاسِنُكَ الْبَلِي وَالنَّارِ
طَالَ اعْتِبَارُكَ فِيكَ وَاسْتِعْبَارُ
وَتَمْخِضَتْ بِخَرَابِهَا الْأَقْدَارُ
لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الْدِيَارُ دِيَارٌ

عاثَتْ بِسَاحِنَاتِ الظَّبَابِ يَا دَارُ
فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِكَ نَاظِرُ
أَرْضٍ تَقَادَفَتْ الْخَطُوبُ بِأَهْلِهَا
كَتَبَتْ يَدُ الْحَدِيثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا

و — استعادة بلنسية

اهترت الأندلس لسقوط بلنسية ، كما كان بالنسبة لطليطلة . فلما وصلت أخبارها إلى يوسف بن تاشفين سير جيشاً نحو الأندلس ، وعند وصوله سبته تولى قيادته ابن أخيه محمد بن تاشفين^(١) الذي توجه نحو بلنسية وضرب الحصار حولها ، وجرت مناورات أصيب فيها المسلمين .

كانت الجيوش المرابطية تخوض في ذات الوقت معارك أخرى غربي الأندلس قرب طليطلة ، مع جيوش الفونش (السادس) الذي هُزم في هذه المعركة . وفي أحدها قتل دييجو (Diego) — ابن رُذْرِيقَ الْوَحِيدِ — سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م)^(٢) . كما دارت معركة هزم فيها القشتاليون وقتل قائدتهم البارهانش (Alvar Hañez) قائد الفونش الشهير قرب قُونْقَه (Cuenca) . جرت معركة أخرى مع فرقة من جيش رذربيق قرب جزيرة شُقُر أُبْيَدَتْ فيها هذه الفرقة .

كان قائد هذه الواقع أو أغلبها أبو عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين^(٣) . أصدر يوسف أمراً إلى ابنه بالتوجه نحو هذه الأماكن ، من قرطبة أو مرسية ، وكان أمير المسلمين في الأندلس ، لثالث جواز له إليه ، « أَنْفَذْ جَمْلَةً مِنْ جَيْشِهِ إِلَى كُنْكَهُ ، وَقَدَّمَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَائِشَةَ فَالْتَّقَوْا مَعَ الْبَرْهَانِسِ — لَعْنَهُ اللَّهُ — فَانْهَزَمُوا ، وَاسْتَأْصَلُوا مَحْلَتَهُ ، وَانْصَرَفُوا فَرَحِينَ ، بِالظَّفَرِ مُسْتَبِشِينَ .

« ثُمَّ نَهَضَ [أَيْ مُحَمَّدُ بْنُ عَائِشَةَ] إِلَى نَاحِيَةِ جَزِيرَةِ شُقُرَ ، وَذُكِرَ أَنَّهُ يَؤْمِنُ بِعِصْدِهَا . فَالْتَّقَى بِجَمْلَةٍ مِنْ جَنْدِ الْقَنْبِيطُورِ ، فَأَوْقَعَ بَهُمْ وَقْتَهُمْ أَشَرْ قَتْلَةً . وَلَمْ يَفْلِتْ

(١) انظر : جدول أمراء المرابطين : ص ٤٤٢ .

(٢)

Manual de historia de Espana, I, 614.

(٣) عنه انظر : الحلقة السيرية ، ٢١٢/٢ ؛ نظم المجان ، ٨/٦ .

إلا يسير من تلك الجملة ، فلما وصل الفُلُّ إليه ، مات همّاً وغمّاً لا رحمة الله .^(١)
كل ذلك أثر في نفس رذيق الطاغية ، فتوفي سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م)^(٢) .

توجهت قوات مرابطية لخسار بلنسية بقيادة الأمير أبي محمد مزدلي
- (استشهد ٥٠٨ هـ)^(٣) - ابن عم يوسف بن تاشفين ، سنة ٤٩٥ هـ^(٤) . لكن الفونش
كان قد عجل بدخولها استجابة لطلب جيش رُذريق ومن معهم « فأقام الأذفونش
ببلنسية نحو شهر الروم [النصارى] تروره على التمسك بها ويرغبونه فيها ويرونون
عليه أمر جيوش المسلمين »^(٥) . نصوح الفونش شيمانه (Jimena) برُوك المدينة ،
وكان تحاول الدفاع عنها . اضطروا جميعاً لترك المدينة وخرجت شيمانه ومعها
رفاة زوجها القنبيطور والأموال التي انبهها . ثم خرج الفونش من بلنسية ، بعد
حرق المدينة التي غدت أطلالاً دارسة . دخل المرابطون بلنسية بعد استرجاعها في
متتصف رجب سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م)^(٦) .

ترك الفونش وجيشه بلنسية « وجد في إخلاصها وخرج جميع من كان فيها من
الروم ، وأضرمت النار في الجامع والقصر وبعض الدور ، وصدر الأمير مزدلي إلى
بلنسية في شهر رجب فأنقذ الله بلنسية من يد الشرك وملكة الروم وطهرها وصرف
إليها نور الإسلام ودين محمد عليه [الصلوة] والسلام بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف ،
وبعد نفوذ القدر السابق في علم الله تعالى ، ... ، وهلك من هلك بها ، جعل الله ذلك

(١) تاريخ الأندلس ، ١٠٨ - ١٠٩ (نص ابن الكرديوس) .

Manual, I, 615.

(٢)

(٣) البيان المغرب ، ٤/٦٠ ؛ نظم الجان ، ٦/١٩ .

(٤) البيان المغرب ، ٤/٤ .

(٥) البيان المغرب ، ٤/٤٢ .

(٦) الكلمة ، ١/٤٢ (رقم : ١١٩٨) .

أشار ابن الأبار (الكلمة ، ٢١٤/٢ ، رقم : ٢١٤٣) إلى هذا الخبر كذلك حين ترجم أبو محمد عبد الله بن سعيد الوجدي (بلنسية ، قبل ٥١٠ هـ) ، من أنه « ولِي قضاء بلنسية - لأول فتحها في الدولة المتنوية ، واسترجاعها من الروم - في رجب سنة ٤٩٥ . وعلى يديه وتحت نظره تم بناء الحراب بالمسجد الجامع منها في سنة ثمان وتسعين . وفي جانبه ، كان اسمه مخطوطاً إلى أن ملكها الروم ثانية في آخر صفر

سنة ٦٣٦ » .

تمحیصاً لهم وتطهیراً بعترته .^(١) بذلك عاد «فر بلنسية للإسلام» ، بعد العیث والخراب والإلھاك الذي بعده الطاغیة للزريق تحت حماية الفونش ، بروح صلیبیة غادرۃ ماکرة لاتریعی حرمة ولا تعرف خلقنا .

وباختفاء الطاغیة ورحیل أتباعه وأعوانه رأت تلك الربوع وجه الطمأنينة يطل عليها وریح الهدوء تهب فرقها^(٢) .

٣ - مملکة إشبیلیة

تأتی مملکة إشبیلیة في مقدمة دول الطوائف ، من حيث سعتها وتفوقها السياسي . وكان لها شأن في أحداث هذه الفترة ، لا سيما في غرب الأندلس ، حيث تقوم هذه المملکة . كما كان لها شأن وافر أيضاً في النشاط العلمي . وقد حکم بنو عبَّاد هذه المملکة وحاولوا إلحاق مناطق أو مالک آخر إلى ملکتهم ، وخضعت قُرطبة - لوقت مَا - لهذه المملکة^(٣) .

حکمت أسرة بنی عباد إشبیلیة موطنها حتى انتزعها المرابطون ، وظهر نجم هذه الأسرة ، عقب ذهاب الخلافة ، على يد كبيرها القاضی أبي الولید اسماعیل بن محمد بن عبَّاد اللَّخْمِی . وشغل أفراد من هذه الأسرة مناصب للحكم المستنصر وابنه هشام المؤید والمنصور بن أبي عامر . توی جدهم أبو الولید الشرطة لهشام المؤید وخُطبة الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم .

يقول ابن حیان عن هذه الأسرة : « ثم انقلوا إلى إشبیلیة فنموا ، وتصدّروا للوجاهة والباھة في دولة الحکم المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجبه المنصور . وقد كان نشأ فيهم صدر بيتهم ومؤسس مجدهم اسماعیل بن عبَّاد ؛ فقد تمّه المنصور على خُطبة القضاء بها ؛ فاتصل استعماله إلى زمن انفراض الإمامة الأموية .^(٤) ولما انقضت دولة الإمامة من قرطبة ونزول الفتنة المبررة فأقام على خُطبة القضاء والأمانة

(١) البيان المترتب ، ٤٢/٤ .

(٢) راجع : دول الطوائف ، ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٣) انظر : المعجم في تلخیص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ١٨٩ ؛ دول الطوائف ، ٣١ ، ٦١ ، ٧١ ؛ أعلاه ، ٣٢٥ ، ٣٤٥ .

(٤) أعمال الأعلام ، ١٥٢/٢ .

بإشبيلية » على حد تعبير ابن حيّان^(١) . ثم إنَّه نظر « في صلاح القطر ، وحمله على الطريقة المثلث من السياسة إلى أن نزل في عينيه الماء سنة ٤١٤ ؛ وقدح ؛ فعاد بعض بصره ؛ فلم يستجزر الحكم بين الناس ؛ فولَّ ولده أبا القاسم القضاة ، واقتصر هو على رئاسة البلد وتولي رأي المشيخة . »^(٢) كان اسماعيل عميد هذه الأسرة ومؤسس ملكتها في إشبيلية . يبدو أنَّ الذين تواليوا بعده من أسرته في الحكم تقضيهم عدد من صفاتَه ، والمعتمد لديه شيء منها . وهم : ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن إسماعيل ابن عباد ، ثم ابنه أبو عمرو عبَّاد بن محمد الملقب بالمعتصد ، ثم ابنه القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد وهو آخرهم .

أثني مؤرخ الأندلس ابن حيّان القرطبي على اسماعيل فقال :

« اسماعيل بن عبَّاد قاضيهم القديم الولاية ، ورجل الغرب قاطبة المتصل الرئاسة في الجماعة والفتنة . وكان أيسر منَّا بالأندلس وقتَه : ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ، ولا خدَّمه . وكان واسع اليد بالمشاركة . آوى صنوف الحالية من قرطبة عند احتدام الفتنة . وكان معلوماً بُوفور العقل وسيُوغ العلم والزَّكارة ، مع الدهاء وبعد النظر وإصابة القرطسة . »^(٣) ثم إنَّ اسماعيل وفاه أجله ستة أربع عشرة وأربعين مائة . فيها خرجت إشبيلية عن طاعة الحمويين . إذ لما خرج القاسم بن حمود الملقب بالمستعلي (الخليفة الحموي) من قرطبة توجه إلى إشبيلية ، فأغلقت أبوابها دونه ، وأستدروا أمرهم إلى ثلاثة من رجالهم الأعيان : أحدهم وأقوامِه محمد بن اسماعيل بن عباد ، ثم الفقيه أبو عبد الله الزبيدي ، والوزير أبو محمد عبد الله بن يَرِيم ، سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) . وكانوا سوية يشتَرِكون في إدارة شؤون المدينة ، ثم انفرد ابن عبَّاد بالأمر ورضي به الناس^(٤) .

(١) البيان المغرب ، ١٩٤/٣ . (٢) أعمال الأعلام ، ١٥٢/٢ .

(٣) الخلة السيراء ، ٣٥/٢ - ٣٦ . كذلك : ترتيب المدارك ، ٤-٣ / ٧٤٩ ؛ المرقبة العليا ، ٩٤ . الغرب : غرب الأندلس . الزَّكارة : الفراسة ، صواب الظن وصدقه . القرطسة : هدف يوضع ليتدرُّب الرماة على إصابته .

(٤) الخلة السيراء ، ٣٧/٢ ؛ البيان المغرب ، ٣١٤/٣ - ٣١٥ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٦٦٢/٢ - ٦٦٤ ؛ دول الطوائف ، ٣٤ .

جرت بعض أحداث بين مملكة إشبيلية وغيرها من دول الطوائف المجاورة ، حتى وفاة القاضي محمد بن اسماعيل بن عبَّاد سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) ، ويعتبر هذا القاضي مؤسساً لملك بني عباد ، بقوته وحزمه ، وكانت هذه المملكة قوية بين ملوك الطوائف ، وورثه ابنه أبو عمرو عبَّاد الملقب بالمعتضدي بالله . وبذل هذا جهوداً كبيرة في ضم إمارات غرب الأندلس إلى إشبيلية وتحقق له بعضها . وفي أيامه تخلى أبو زيد عبد العزيز البكري (والد أبي عبيد البكري ، الجغرافي) عن إمارته في ولبة وجزيرة شلطيش ، ولجأ إلى قُرطبة ، كما سبق ذكره^(١) . وصف ابن بَسَّام المعتضدي بن عباد أنه « قُطب رحى الفتنة ، ومتنهى غاية المحنّة »^(٢) .

صرف المعتضدي جهوداً عسكرية كبيرة لهذا الشأن ، وكان أولى بها أن تصرف في تقوية مملكته وفي مصلحة الأندلس العامة ضد الأخطار الخارجية ، وتکاثر الأعداء وكثبِّهم ، ويبدو أن هؤلاء الملوك أهملوا حسابهم في بادئ الأمر ، ومهدوا بفعلهم لظهورهم عليهم بهذا الشكل بل وأطعموه فيهم^(٣) .

أما كان أفضل لو استعمل المعتضدي حزمه وجرأته وقوة مجالدته في التفاهم مع جيرانه للوقوف ضد قوى ملك قشتالة فِرْدِلَنْد (الأول ، Fernando I) ، الذي تسميه الرواية الإسلامية أيضاً فِرْدِلَنْد^(٤) . وهو والد أدونيش (السادس)^(٥) الذي استولى على طليطلة (٤٧٨ هـ)^(٦) ، والمنهزم في معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ)^(٧) . في حين نجد المعتضدي بن عباد يخضع لفِرْدِلَنْد ويدهب بنفسه إلى معسكر الملك القشتالي ليطلب إليه الصلح ويتعهد بدفع المال وتنفيذ مطالبه^(٨) . أما كان الأجرد به

(١) أعلاه ، ٣٥٥ .

(٢) الذخيرة ، ١١/٢ - ١٢ (خطية مكتبة المتحف العراقي) (= الحلقة السيراء ، ٣٩/٢) .

(٣) راجع : نفح الطيب ، ٣٥٦/٤ ؛ دول الطوائف ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٧٤ .

(٤) البيان المغرب ، ٥٠/٤ ؛ أعمال الأعلام ، ٣٣٠/٢ .

(٥) انظر : الحلقة السيراء ، ١٤٢/٢ .

(٦) أعلاه ، ٣٣٠ وبعدها .

(٧) أدناه ، ٤٠٣ وبعدها .

(٨) انظر : دول الطوائف ، ٤٨ .

أن يقف هذا الموقف الأخير مع إخوانه أمراء الطوائف ويشحد الهمة للوقوف ضد القوى المتربصة الفادرة في الشمال؟ وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس وأهله وللإسلام وقوته . فلم الاستشهاد هنا والاستحسان هناك؟ لكن ملوك الطوائف هؤلاء ذاقوا وبالأمر لهم وجئنوا مازرعته أيديهم ، وإنك لاتجني من الشوك العنبر . لم تفرق القوى المعادية بينهم ، بل ربما كانت الصداقة والمواصلة سبباً في التعجيل بال المصير الذي أعد للجميع ، وفيما حدث لطليطلة – التي آوى ملكها المؤمن الفونش (ال السادس) – يكمن المثل . لكن الله – سبحانه – قيَضَ للأندلس من يدفع عنها الغائلة ويعينها على الحماية والصيانة .

توفي المعتضد سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) ، بعد ولادة ثمانية وعشرين عاماً ، وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد على الله ، الذي يبدو – رغم ما يؤخذ عليه – أقرب أمراء هذه الأسرة شبهها بمؤسسها القاضي أبي الوليد اسماعيل بن عباد المذكور بحسن السيرة والعفة عن القسوة . وصف ابن الأبار المعتمد بن عباد بأنه « من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجود الأسيخياء المؤمنين . عفيف السيف والدليل »^(١) .

كانت أيامه نهاية بنى جهور ، فضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية . واستمر المعتمد على سياسة سلفه في بذل الجهود لتوسيع رقعة هذه المملكة ، حتى كان استيلاء أذفونش بن فرداند (الفونسو السادس) على طليطلة في حرم سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وأيقظ هذا الحادث – وأمثاله قبلاً – المعتمد ، وبقية أمراء الطوائف ، من أحلامهم وخطورة أطماعهم وآثارها السيئة على دينهم وأمتهم . وجرت أحداث خلال السنوات العصيبة التي رافقت سقوط طليطلة ومضائقات من قبل الفونش (السادس) لابن عباد جعلته يندم ويدرك « فداحة الأخطار التي تردد في بها بمصانعة الفونش ومحالفته واستعداده على زملائه أمراء الطوائف ، ولاحت له طوال المصير المروع الذي سوف ينحدر إليه ، إذا لم تداركه يد العناية بعون أو نجدة غير متطرفة »^(٢) .

(١) الحلة السيراء ، ٥٤/٢ . كذلك : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ١٥٨ ؛ أعمال الأعلام ، ١٥٧/٢ . عنه وعن أولاده ، راجع : الحلة السيراء ، ٦٢/٢ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ .

(٢) دول الطوائف ، ٧٤ .

قائمة نسب بنى عباد^(١)

القاضي أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عبَّاد اللَّخْمي (٤١٤ هـ)

(١) ذو الوزارتين أبو القاسم محمد (٤٣٣ هـ)

اسماعيل	(٢) أبو عمرو عباد ، المعتصد بالله
(قتل أوائل المحرم ٤٣١ هـ)	(٤٠٧ : الاثنين غُرّة جُمادى الآخرة ٤٣٣ - الأحد ٦ جُمادى الآخرة ٤٦١ هـ)

أبو القاسم محمد ، المعتمد على الله (الظافر ، المؤيد)	(٣) (٤٣٢ : ٤٨٤ - ٤٦١ هـ)
--	--------------------------

أبو عمرو عباد ، سراج الدولة (الظافر) ، (توفي قرطبة حتى مقتله: ٦ شوال ٤٦٢ - ٤٦٧ هـ)	أبو بكر عبد الله ، أبو سليمان الربيع ، المعتمد تاج الدولة	أبو الحسين عبيد الله (أكبرهم) ، الرشيد (ولي عهد أبيه ، ولاه قضاء إشبيلية)
أبو هاشم المعلى ، زين الدولة حتى مقتله ٢٧ ذي القعدة ٤٦٧ - ٤٨٤ هـ)	أبو نصر الفتح ، المأمون (توفي قرطبة ٤٦٧ - ٤٨٤ هـ)	

١ - استدعاء المرابطين للأندلس

بين أحداث هذه الظروف ظهرت فكرة وشاعت ، كانت وليدة لها جذور ، ترددت قبل ذلك . هي الاستعانة بالأئمة المرابطين في العُدُوّة المغربية ، حيث أقاموا فيها دولة مجاهدة . وكان يُوسُف بن تاشفين أميرها - في ذلك الوقت - مشهوراً بتقواه وجهاده وقوته وحسن إدارته وسياساته .

(١) انظر كذلك : الحلقة السيراء ، ٣٤/٢ - ٧٥ ، ١٧٧ ؛ نفح الطيب ، ٤/٢٥٦ .

مضت سنوات عدة على فكرة الاستعانتة بالمرابطين ، نمت خلالها . لكنها ظهرت قوية ، أثناء وبعد سقوط طليطلة . عُقد في قرطبة اجتماع حضره الزعماء والفقهاء وكثير من الناس ، منهم المعتَمِد بن عبَّاد ، اتُّخذَ فيه قرار الموافقة على استدعاء المرابطين إلى الأندلس للنصرة . وأشار — خالله — إلى التحُفُّ من نتائج ذلك ، فأجاب المعتمد « بكلمته السائرة مثلاً : (رَعِيَ الْجِمَالُ خَيْرٌ مِنْ رَعِيِ الْحَازِرِ) أي أن كونه مأكولاً لابن تاشُفِين أَسِيرًا يرعى جماله في الصحراء ، خير من كونه مزقاً لابن فِرْدِ لَنْدَ أَسِيرًا يرعى خنازيره في قشْتَالَة »^(١) .

عندما دعا المعتمد غيره من ملوك الطوائف إلى هذا الأمر ، اجتمعوا لاتخاذ ترتيبات عبور الوفد إلى العُدوة ودعوة أمير المسلمين ابن تاشُفِين ، الذي استجاب : عقيدة في الله وجهاداً في سبيله وإعلانه لرأيه وإنقاذًا لأنحاء الدين . فكانت معركة الزَّلَاقَة سنة ٤٧٩ هـ . « فلما عزم خاطب جارِيه المتوكِّل عمر بن محمد صاحب بَطَلْيُوس ، وعبد الله بن حَبَّوْس بن ماكسن الصَّنْهاجي صاحب إغْرَنَاطَة يأمرهما أن يبعثا إليه كل واحد منهما قاضي حضرته ، ففعلاً ؛ ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان أعلم أهل زمانه ؛ فلما اجتمع القضاة عنده بإشبيلية ، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وعرفهم أربعة منهم رسُلُه إلى يوسف بن تاشُفِين ، وأُسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف ، وترغيبه في الجهاد ، وأُسند إلى ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارَة ، من إبرام العقود السلطانية . وكان يوسف ابن تاشُفِين لا تزال تفتَّح عليه وفود ثور الأندلس ، مستعطفين ، مجاهدين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصفي لقولهم ، وترقّ نفسه لهم ، فما عبرت رسُل ابن عبَّاد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد ؛ وقد آذن صاحب سنته بقصدِه الغزو ، وتشوّقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس ، وسألَه أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز ، فتعذر عليه ، فشكاه يوسف إلى الفقهاء ، فأفتوّا أجمعين بما لا يسرّ صاحب سنته . »^(٢)

(١) الروض المطار ، ٨٥ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٤٥/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ١١٥/٧ (= البيان المغرب ، ١١٤/٤) .

(٢) الروض المطار ، ٨٦ . كذلك : الحلة السيراء ، ٩٨/٢ - ٩٩ (= أدناه ، ٣٩٦) .

الظاهر أن فكرة استدعاء المرابطين سبّقت سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) حوالي عقد من السنين^(١). ولدينا – في هذه الأحداث – مسألتان بحاجة إلى تجاهله وبيان ومناقشة ، ثانيتهما أقل وضوحاً .

أولاً : عدم وضوح تسلسل بعض الأحداث .

ثانيةً : من الآخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين ؟

المسألة الأولى : يذكر بعض المؤرخين – خلال حديثهم عن استدعاء المرابطين – أموراً بعضها غير واضح موضعها في التسلسل وزمن الحدوث ، ذلك :

١ – إن الفنش (السادس) أرسل سفارة إلى المعتمد بن عباد عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م)، غرضها تسلم الأموال التي تعهّد المعتمد بتوريتها إلى ملك قشتالة^(٢) . أو أنه كانت لسفارة مهمة أخرى ، زيادة على استحصلال الضريبة التي يدفعها المعتمد للفنش . إذ أن السفارة سألت المعتمد السماح لزوجة الفنش أن تلد في مسجد قرطبة الجامع ، حسب إشارة القسيسين والأساقفة ؛ كما سألوا أن تنزل الزوجة في مدينة الزهراء ، حسب إشارة الأطباء^(٣) . وكان ابن شاليب اليهودي – وزير الفنش – رئيس هذه السفارة ، وبصحبته عدد من الفرسان القشتاليين^(٤) .

جرت المفاوضات مع المعتمد مباشرة في إشبيلية ، وأرسل ممثليه وفي مقدمتهم وزيره أبو بكر بن زيدون (ابن الشاعر المشهور أبي الوليد ابن زيدون ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م) ، إلى ظاهر إشبيلية حيث يعسكر الوفد القشتالي . لكن السفير القشتالي شطّ في مطالبه ، كما في أسلوبه المملوء بالتهذيد ، وانتهى الأمر بقتل هذا السفير واعتقال بقية الوفد . تطورت الأمور ، وأقسم الفنش أن يتقدم بشدة ، فجهز جيشاً ضخماً من مناطق إسبانيا النصرانية كافة ، وأرسل سراياها تعيث في أراضي غرب الأندلس : باتجاه ولبله وإشبيلية ، وسار هو في جيش آخر صوب إشبيلية ، يحرق في طريقة

(١) انظر : أعلاه ، ٣٤٣ . كذلك : دول الطوائف ، ٩٢ ، ٣١٥ – ٣١٦ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢٤٤/٢ ؛ دول الطوائف ، ٧٣ .

(٣) الروض المطار ، ٨٤ ؛ نفح الطيب ، ٣٥٧/٤ – ٣٥٨ .

(٤) أعمال الأعلام ، ١٥٩/٢ .

العمران وينسف الزروع . محاصرة إشبيلية لأيام ، ثم انحدر جنوباً حتى وصل مدينة طريف . لكن هل عاد إلى محاصرة إشبيلية – بعد ذلك – أم عاد إلى طليطلة ؟

٢ – تذكر بعض مراجعنا أن الفونش كتب – أثناء محاصرته لإشبيلية – رسالة إلى المعتمد بن عباد ، وأجابه المعتمد عليها . هل كان ذلك قبل وصول الفونش إلى طريف أم بعده ؟ إليك نصاً يتضمن هذه المراسلة ويتعلق أوله بالفقرة السابقة . بعد ذكر السرايا التي سبقت الفونش بن فردلند يقول الحميري : « ثم زحف ابن فردلند بنفسه في جيش آخر عمر مرم ، فسلك طريقاً غير طريق صاحبه ، وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرب ودمّر ، حتى اجتمعوا لموعدهما بضفة النهر الأعظم ، قبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه : (كثير بطول مقامي في مجلسى الذبان ، واشتدّ على الحرّ ، فألقني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي ، وأطرب بها الذباب عنى) فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقة : (قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك واعجابك ، وسانظر لك في مرواح من الجلود المطيبة ، في أيدي الجيوش المرابطية ، تروح منك ، لا تروح عليك إن شاء الله) فلما ترجم لابن فردلند توقيع ابن عباد في الجواب ، أطرق إطراف من لم يخطر له ذلك ببال .»^(١) يشير هذا إلى أن الفونش فهم إشارة ابن عباد ، فكان استدعاء المعتمد على الله للمرابطين^(٢) .

ترتيب هذه الأحداث غير واضح ، بالنسبة لوقت حدوثها مع تاريخ سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) ، ويبدو أنها هكذا متتابعة في الزمن .

المسألة الثانية : معروف أن المعتمد بن عباد هو الذي أخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين ، « وما يؤثر من فضائله ، ويعد في زهر مناقبه ، استعانته على الروم بملك المغرب حينئذ – وهو يوسف بن تاشفين – وسعيه في استقدامه ، وجده

(١) الروض المعطار ، ٨٥ = نفح الطيب ، ٤/٣٥٨ . الجلود المطيبة : نسبة إلى مدينة لملطة بالغرب « بلدة عند السوس الأقصى » . البيان المغرب ، ٤/١١٤ . وهي « معدن الدرق المطيبة » . صورة الأرض ، ابن حوقل ، ٩١ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢/١٥٩ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٤٥ .

في ملاقة الطاغية ملك النصارى ، والإيقاع به بالوضع المعروف بالزلالقة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعين مئة . «^(١) وتم هذا الاستدعاء بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ)^(٢) . إذ بعدها كثُرت رسائل الأندلس على يوسف بن تاشفين تحمل إليه صريح أهلها وتحته على إنقاذهم ، وهو مما يقتضيه واجبه الإسلامي نحو إخوانه^(٣) .

لكن ترتيب هذه الأحداث لا يبدو أنه وقع بهذا الشكل دون غيره ، ولا كان المعتمد بن عباد آخذًا زمام المبادرة في دعوة المرابطين لإنقاذ الأندلس . ذلك :

١ - يذكر ابن الخطيب أن المعتمد بن عباد خطاب « يوسف بن تاشفين غرّة جمادى الأولى من سنة ٤٧٨ » ، يستأذنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الأندلس . «^(٤) يعني هذا أن الاستدعاء تم بعد ثلاثة شهور من سقوط طليطلة الذي وقع في محرم نفس العام ، ٤٧٨ هـ (مايو = مايس ١٠٨٥ م) .

في حين مرّ بنا^(٥) أن فكرة استدعاء المرابطين كانت لدى المعتمد بن عباد وغيره قبل سقوط طليطلة بعده ، فأخر جها سقوط طليطلة للتنفيذ . حيث أرسل المعتمد على الله وفداً – مع وفود أخرى لأمراء الطوائف – إلى يوسف بن تاشفين في العدوة المغربية . وتزيد بعض المصادر أن المعتمد ذهب بنفسه إلى المغرب والتلى بأمير المسلمين المرابطي في سبتة أو فاس^(٦) .

٢ - لكن نجد صريحة أهل الأندلس ووفوداً منهم سبقت هذه السفارة إلى يوسف

(١) الحلقة السابعة ، ٥٤ - ٥٥ . كذلك : الموجب ، ١٩٠ - ١٩١ ؛ أعمال الأعلام ، ١٥٩/٢ ، ٢٤٥ (و ٢٤٣) .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢٤٥/٢ .

(٣) راجع : تاريخ الأندلس ، ٨٩ - ٩٠ (نص ابن الكردبوس) .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢٤٥/٢ .

(٥) أعلىه ٣٤٣ ، ٣٩٣ .

(٦) راجع : الموجب في تلخيص أخبار المغرب ، ١٩٠ ؛ نفح الطيب ، ٤/٣٥٩ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٤٦/٢ ؛ الحلقة السابعة ، ١٨٦/٢ ؛ التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) ، ١٠٢ ، عبد الله بن بُلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (ثالث وآخر أمير لملكة غرناطة الطوائف) ؛ دول الطوائف ، ٧٧ .

ابن تاشفين . يذكر صاحب الروض المطار : « وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفديه وفود ثغور الأندلس ، مستعطفين ، مجھشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، وزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصغي لقوفهم وترق نفسه لهم »^(١) .

معنى ذلك : كانت وفود وراسلات من الأندلس إلى يوسف بن تاشفين ، قبل سفارة المعتمد إليه . ويبدو أنه يوم وصلت رسول المعتمد — برفقة آخرین — كان ابن تاشفين يعد العدة للعبور إلى الأندلس لنجدۃ أهلها . ونص ابن الأبار التالي يعنی على فهم هذا الأمر : « واذلک خلال ذلك إلى سبتة أمير المغرب حينئذ — أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني — حسینة ورغبة في الجهاد ، وقد دانت له بلاد العادوة ، وسأل من سقّوت بن محمد صاحب سبته أن يُبيح له فرض الإجازة إلى الأندلس ، فأبى وتعنّ من ذلك ، فأفتقى الفقهاء بقتاله لصدّه عن سبيل الله ، فقتل هو وابنه في خبر طويل . وفتح الله على ابن تاشفين سبته ، وأمكّنه الحصول على مراده بذلك .

« وعلم المعتمد محمد بن عباد تصميمه على نيته ، فخاطب جاريه : صاحب بطليوس وصاحب غرناطة ، في تحريك قاضييها إلى حضرته للاجتماع بقاضي الجماعة بقرطبة . فوصل من بطليوس قاضييها أبو إسحاق بن مقانا ، ومن غرناطة قاضييها القليعي ، واجتمعوا في إشبيلية بالقاضي أبي بكر بن أدهم ، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر محمد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون . وتوجهوا جميعاً إلى ابن تاشفين ، على شروط لا تُتعدي إلى غيرها . ووصلوا إلى الجزيرة الخضراء — وعليها يزيد بن المعتمد ، الملقب بالراضي — ثم أجازوا البحر منها ، واجتمعوا بابن تاشفين مرةً بعد مرة . وتفاوضوا في مكان تنزّله العساكر ، فأشار ابن زيدون بجبل طارق »^(٢) .

(١) الروض المطار (= أعلاه ، ٣٩٢) . كذلك : نفح الطيب ، ٣٥٩/٤ - ٣٦٠ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٤٣/٢ .

(٢) الحلقة السيراء ، ٩٨/٢ - ٩٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٢٥٠/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ١١٣/٧ - ١١٦ (= البيان المغرب ، ١١٢/٤ - ١١٥) ؛ الحلقة السيراء (مخطوط) ، ١٥٢ - ١٥١/٢ (إعتاب الكتاب ، ٢٢٣) .

٣ - يتبيّن - من النصوص الواردة في الفقرة السابقة - أن استعداد أمير المرابطين لعبور الأندلس كان قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) ، الذي تلته سفارة المعتمد إلى ابن تاشفين . ذلك أن مقتل سَقُوتَ - الذي ذكره ابن الأبار في نصه السابق - كان سنة ٤٧٦ هـ . ويشير هذا إلى أن أخذ المبادرة في دعوة المرابطين لم تكن من المعتمد أمير إشبيلية ، وأن دعوتهما كانت قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) بعدة سنوات.

٤ - يبدو - على ذلك - أن دعوة المرابطين جاءت من عدد من الأندلسيين ، من المسؤولين فيها ومشايخها^(١) . وكانت لدعوة الفقيه أبي الوليد الباقي المبكرة وأمثاله بداية الوجهة . يظهر في موقف الموكِل عمر بن الأفطس بداية الدعوة ، كثير من المبادرة . أدرك الموكِل بن الأفطس (عمربن محمد) - صاحب بَطَلْيُوس^(٢) - منذ وقت سابق ، ضرورة عمل شيء ضد قوى إسبانيا النصرانية وحملات الفتش (ال السادس) .

تولى ابن الأفطس حُكْمَ بطليوس سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) . أراد أن يكون صفاً واحداً من ملوك الطوائف في وجه الخطر المتزايد . سبق ذكر إرساله القاضي أبي الوليد الباقي إلى أمراء الطوائف يدعوهُم لذلك^(٣) . وليس واضحاً تاريخ إرسال الباقي لهذه الدعوة ، لكن إذا علمنا أن وفاة الباقي كانت سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، نجد من الصواب أن نضع محاولات الموكِل هذه قبل سقوط طليطلة بعقد من السنوات - على الأقل - كما مرت مناقشته^(٤) . لكن لما لم يجد الموكِل نجاحاً مُرضياً ولم تلْقَ دعوته استجابة كافية أو تقوُد إلى عمل جاد مفيد في هذا الشأن ، اتجه بتفكيره ثم بفعله نحو المرابطين في عدوة المغرب ، فكاتب أميرهم ابن تاشفين^(٥) . كانت مبادرة الموكِل بن الأفطس مبكرة في استدعاء المرابطين لنجد الأندلس ، مع أنه ليس بالإمكان اعتبار الموكِل الآخذ أولًا بهذا الاستدعاء لأنحمة العدوة - من

(١) انظر : أعمال الأعلام ، ٢٤٥/٢ .

(٢) عنه راجع : الحلقة السيراء ، ٩٦/٢ وبعدها .

(٣) أعلىه ، ٣٣٨ - ٣٤١ .

(٤) أعلىه ، ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ - ٣٩٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ - ٣٩٥ .

(٥) انظر : الحلقة السيراء ، ٩٩/٢ (حاشية) ؛ دول الطوائف ، ٩٢ .

الأمراء ، أو مطلقاً – إلاً أن اتجاهه في هذا كان قبل قيام المعتمد العبّادي بها بعده سنوات ، ويُفهم هذا من محایات الأحداث السابقة . ومعقول كذلك أن يكون المتوكل مسؤولاً في ذلك بأحد الأمراء أو العلماء أو غيرهم بمبادرة استدعاء المرابطين .

أورد صاحب *الخلل المُوشِيَّة* في ذكر *الأخبار المَرَّاكُشِيَّة* مؤلف مجہول ، حين الحديث عن دولة المرابطين وأميرها يوسف بن تاشفين ، أنه « في سنة أربع وسبعين وأربع مئة . وفدى عليه جماعة من الأندلس شكوا إليه ماحل بهم من أعدائهم فوعدهم بمرادهم وأعانهم . وكان من كتب إليه حين ذلك المتوكل على الله بن الأفطس »^(١) ٤٧٤ هـ – تاريخ كتابة المتوكل إلى أمير المرابطين – هي سنة وفاة أبي الوليد الباقي ، من عرفا بجهده وطول جهاده في الدعوة إلى التوحد ، مثلما تحمل الدعوة إلى الاستعانة بالمرابطين . وسبق لإبراد قول القاضي عياض في ترتيب المدارك عن الباقي أنه « توفي بالمرية سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلت من رجب ، وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس ، يؤلّفُهم على نصرة الإسلام ، ويرُوم جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين على ذلك ، فتوفي قبل تمام غرضه رحمة الله »^(٢) .

تبني المتوكل بن الأفطس دعوة الباقي إلى القضيتين المهمتين :

- ١ – الدعوة إلى توحيد الأندلس وجمع كلمة ملوكها .
- ٢ – الاستعانة بالمرابطين لنصرة الإسلام في الأندلس .

وأخذ المتوكل لها إجراءات ، منها : الكتابة إلى المرابطين . فدعوه الباقي سابقة لكتابه المتوكل إلى ابن تاشفين . ثمَّ كان الاستمرار في الدعوة منتصحة^(٣) ، حتى جاء سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) الطاهي السريع والنار الفوارة لإيذاع الفكرة بسرعة واقتضاف الشمرة الطيبة بقوه .

(١) *الخلل المُوشِيَّة* ، ٢٠ . كذلك : *الخلل المُوشِيَّة* ، ٢٢ ؛ *الروض المطار* ، ٨٦ (= أعلاه ، ٣٩٥ – ٣٩٦ ، الفقرة ٢) .

(٢) *ترتيب المدارك* ، ٣ – ٤ / ٨٠٨ (= أعلاه ، ٣٤٢ – ٣٤٣) .

(٣) انظر : *أعمال الأعلام* ، ٢٤٣ / ٢ ، ٢٤٥ .

انتشرت فكرة استدعاء المرابطين في الأندلس ، حتى جَعَل سقوط طليطلة منها ضربة لازب ، فتَّ كل اعتراف وأطارت أي تحفُ . ثمَّ كان المؤتمر الذي دعا إليه المعتمد وأفضى إلى إرسال وفد إلى المغرب ، مستصرخًا أمير المرابطين . هذا ما أُشير إليه في الفقرة قبل السابقة^(١) ، حيث كان ابن تاشفين يتهيأ للأندلس بعد أن وصلته الرسائل والوفود .

لعل سير الحوادث المتعلقة بهذه المسألة وتطوراتها تتم بالشكل المذكور أعلاه ، أو قريباً منه . ومهمما يكن من أمر فإن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين تجهز للعبور إلى الأندلس لنجددة إخوانه ، فكانت وقعة الزلاقة الشهيرة .

الخلاصة

يعطي العرض السابق صورةً لعصر الطوائف ، إن كانت مقتضبة فهي موضحة
بجوانب كثيرة منه . تُطلع على حالة التفكك الذي أصاب الأندلس ، نتيجة النكوص
عن ترسم الخط الإسلامي وعدم العض عليه بالتواجذ ، حين « زالت من الفوسـ
الألفة الإسلامية »^(٢) . جنت الأندلس – بسيأتها – من المبوط والضعف بقدر
ما أصابها من الانحراف ، الذي سارت به عن المنهج الإسلامي . خذلت الفرقـة أهـلـها ،
حتـىـ الـخـيـرـيـنـ مـنـهـمـ * وـاتـقـواـ فـتـنـةـ لـاـ تـصـيـنـ الـذـينـ ظـلـمـوـاـ مـنـكـُـمـ خـاصـةـ
وـأـعـلـمـوـاـ أـنـ اللـهـ شـدـيـدـ الـعـقـابـ * ^(٣) ثـمـ قـولـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ «ـلـتـأـمـرـنـ
بـالـمـعـرـوفـ وـلـتـنـهـوـنـ عـنـ الـمـنـكـرـ ، أوـ لـيـسـلـطـنـ اللـهـ عـلـيـكـمـ شـرـارـكـمـ ثـمـ يـدـعـوـ خـيـارـكـمـ
فـلاـ يـسـتـجـابـ لـهـمـ . »^(٤) أـشـارـ إـلـىـ هـذـاـ عـدـدـ مـنـ الـكـتـابـ وـالـمـؤـرـخـيـنـ الـأـنـدـلـسـيـنـ ،
أـمـثالـ : اـبـنـ حـزـمـ (٤٥٦ـھـ) وـابـنـ حـيـانـ (٤٦٩ـھـ) وـابـنـ بـسـامـ (٥٤٢ـھـ) .

^٢) أعلاه ، ٣٩٥ - ٣٩٦ (الفقرة ٢) .

^{٢)} تاريخ الأندلس ، ٧٧ (نص ابن الكردوس) .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

(٤) جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ١ / ٣٣٢ (حاشية ٢) . كذلك : تفسير الطبرى ، ١٠ / ٤٩٤ ، ١١ / ١٥٠ .

لا يُقْيمُ الإنسانُ وَيَقُومُهُ غَيْرُ عِقِيدَةِ رَبَانِيَّةٍ – وَهِيَ مِنْ مَفْتُضَيَاتِ وَجُودِهِ –
تَقْوِدُهُ نَحْوُ الْخَيْرِ وَتَسْلُكُهُ سَوَاءَ السَّبِيلِ ، بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَدَوْمِ مِرَاقبَتِهِ . يَعْمَرُ دُنْيَا وَآخِرَتِهِ
حِينَ يَحْوزُ رَضَاهُ وَيَفْوَزُ بِجَنَّتِهِ « إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبَرِّ ، وَإِنَّ الْبَرِّ يَهْدِي إِلَى
الْجَنَّةِ »^(١) .

نجد هذه الحقيقة متوفرة خلال أقصى التاريخ الإسلامي الشامخ الرائع ،
ترسم صورتها بريشة الواقع ، بأحوالها رفعهً وعبوطةً . يصح رسم خط بياني بلونين ،
يتطابقان تماماً . يكون فيما التناسب طردياً بين التمسك بالإسلام وبين ازدهار
الحياة في المجتمع المسلم (وغيره ، عموماً) وإنمار حضارته وقوته الإنسانية لا السياسية
فحسب وبين التمسك بالإسلام والسير على شرعه المبين في قرآنٍ ، ومقابله صحيح .
كان المسلمون أقوباء بإسلامهم وإن قلوا ، كما مرت الأمثلة وهي متکاثرة ،
ضعفاء بدونه ولو كثروا ، مثل الطوائف . « يوشك الأئمَّ أن تداعي عليكم كما
تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : مَنْ قَلَةٌ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ
يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكُنُوكُمْ غُثَاءٌ كَغْثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَزَعْنَ اللَّهُ مِنْ صَدُورِ عَدُوكُمُ الْمَهَابَةُ
مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ ، قَيْلٌ : وَمَا الْوَهْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : حُبُّ
الْدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ . »^(٢) .

مهما أصاب الأمة المسلمة من التخلف الإيماني – المتجلّ لـ كل أنواع التخلف –
يظهر قوة إيمانهم ، رغم السيئات أو ما يصيبها من الآفات ، إذا أتيحت لها العوامل
تنمو بسرعة وتظهر ساطعة وتسيير مشرقة . تعود إلى المنهج بغيره وندرم على مافاتها ،
أكالام إلى طفلها . بدمع يغسل الخطايا ويحدد التوابيا . رأينا حين ترتفع راية الإسلام
ويعلو نداوته تهب بسرعة إليه . وهو ما لمسناه في : بَرْبَشْتُرُ وَالْزَّلَاقَةُ وأحداث
بَلَنْسِيَّةِ .

إن الحكماء ، وحكام الطوائف ، مهما عاونوا أو أقاموا عوامل الانحراف فعملهم
سيأتي عليهم قبل غيرهم ، وقد يتبع ذلك عودة حميدة جديدة إلى المنهج .

(١) جامع الأصول ، ٤٤٢ / ٦ .

(٢) جامع الأصول ، ٢٨ / ١ .

يكون صدق العودة والاعتبار بقدر ما يستطيعونه من الحفاظ على عقيدتهم . من هنا ، فأخطر حرب تلك التي تهدف هدم العقيدة واقتلاع جذورها في النفس المسلمة .

حافظت الأمة الإسلامية - خلال العصور الماضية - على العقيدة ، فكانت درعها الواقعية ، وارتد محاربها : المحليون من أهلها أو الدخلاء عليها ، متذمرين بأى قناع ؛ وخارجيون ، أعداءً وأصحاب . فإذا أصيّبت الأمة الإسلامية في قوة تمسكها بالعقيدة فهو الخطر ، لأنه أيضاً قد يتولى حربها من كان متسبباً إليها^(١) .

كانت عودة المسلمين إلى دينهم في أيام الإسلام السالفة ، وفي ظروفهم الصعبة أيام الطوائف ، أيام الفرقة المريدة إذ « كانت أيامهم تسمى أيام الفرق . »^(٢) أو « الفتنة المبررة »^(٣) ، بسرعة . لم يستطع حكام الطوائف هؤلاء حجب الناس دوماً .

يَظْهُرُ أَنَّ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ كَانُوا أَسْرَعَ اسْتِجَاّةً إِلَى التَّوْحِيدِ وَأَكْثَرَ اهْتِمَامًا بِهِ مِنْ حُكَّامِهِمْ . أَخَذَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ زَمَانَ الْمَبَادِرَةِ فِي التَّوْجِهِ إِلَى اسْتِدَاعِ الْمَرَابِطِينَ وَإِبْلَاغِهِمُ الْاسْتِغَاثَةِ^(٤) . كَانَ هَذَا تَقوِيَّةً وَدُفْعَةً لِلْحَاكِمِينَ فِي اتِّجَاهِ التَّوْحِيدِ ، رَاغِبِينَ أَوْ مُضطَرِّبِينَ . كَانُ عَلَمَاءُ الْأَمَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ - وَهُمْ حَمَاتُهَا الْأَمَنَاءُ - أَوْلَادُ الدَّاعِينَ . اتجهوا بدعوتهم للناس وللحكام^(٥) .

غدا هذا الاتجاه عند الأمة في الأندلس تياراً جارفاً ، كان من نتائجه إزالة ملوك الطوائف ذاتهم ، الذين استمر بعضهم في خط الخيانة والاستعانة بالعدو المتربيص . حتى إنه حين استشهاد حاكم سرّ قُسْطَطَة أبو جعفر أحمد المستعين بالله (المستعين الأصغر) سنة ٥٠٣ هـ^(٦) وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك عماد الدولة « بايعه الناس

(١) انظر : الغارة على العالم الإسلامي ، أ. ل شاتليه ، ١٦ وبعدها ، ٨٠ ؛ الإسلام والغرب والمستقبل ، آرنولد توينبي ، ١٠ ، ١٨ ، ٢١ ، ٤٧ ، ٢١ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٠ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٧٨ (نص ابن الكرديوس) .

(٣) البيان المغرب ، ١٩٤/٣ (الكلام لابن حيان = أعلاه ، ٣٨٧) .

(٤) الروض المعطار ، ٨٦ (أعلاه ، ٣٩١ ، ٣٩٢-٣٩٤) ؛ الحلل الموثبة ، ٢٠ (= أعلاه ، ٣٩٨) .

(٥) قارن : الحلل السنديّة ، ١٩٤/٢ .

(٦) أعلاه ، ٣٥٧ .

بسرقسطة بعد ما اشتراطوا عليه أن لا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم^(١).
 ظلت الأمة - كما سترى - تقوى كلما عادت إلى دينها واتجهت نحو ربه .
 لكن وجود الأخطاء - الكبيرة أو الصغيرة ، العامة أو المحدودة - التي ارتكبتها في جنب الله جعلت تنحدر بالأمة : تصحو وتقوى حين تعود إلى ربه ، تنفرط وتهبط حين تتحلل ، حتى كانت نهاية الأندلس . مع ذلك ، فمهما أصيّبت الأمة كانت تتجدد السلام في دينها الذي تتحصن به . يمكن أن تعود إليه وتسير في طريق الخير وتدفع الاعتداء وتقيم البناء والأمثلة كثيرة ، كما هو أيام الحروب الصليبية في الشرق .

لكن يوم تمسّس الحرب العقيدة في النفس المعتقدة وتنال منها ، تكون الخطورة بمقدار ما يتم لها ، وتجب دون ذلك . بِذَلِكَ تحوّلت الحرب الصليبية إلى هذا اللون واستهدفت الأمر ، فنالت من المسلمين هذا النيل . لم تُصبِّ الأمة الإسلامية وتهوي مثلما أصابها في القرن الحالي - بعد ذهاب حصنها الحامي ، الدولة المسلمة - حين أصيّبت في مقدار تمسّكها ، ولو أن المتسبيّن للإسلام كثير لا غُنَاءَ فيهم^(٢) .
 لكن القوة التي تحملها العقيدة الإسلامية باقية فيها ، لأنها من عند الله . قوتها ذاتية وليس لغيرها من هنا نصيب . الفوز لمن يسلك طريق الله والمالك الجانبي من يجتبّنه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ هُمْ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(٣) .

على ذلك كانت الحرب موجهة إليها . فإذا انتزعت الغصن من أرض ، فالأرض بمواصفاتها باقية . تنبت - بفضل الله ونعمته - أخضرًا وتزهر مثمرًا . ذلك عند الله كائن ومقدر . ﴿* وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِئُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ *﴾^(٤) .

(١) البيان المغرب ، ٤/٥٣ . كذلك : الحلقة السيراء ، ٢٤٨/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/١٧٥ .

(٢) أعلاه ، ٤٠٠ .

(٣) من الآية ٣٨ من سورة محمد .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

إِنَّ الْخُطُوَّ الصَّغِيرَ وَالْتَّقْصِيرَ الْقَلِيلَ قَدْ يَنْحُدِرُ بِالْأُمَّةِ إِلَى هَاوِيَةٍ سُجْنِيَّةٍ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ . وَإِنَّ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ مِمَّا أَصَابَهَا فِي سَبِيلِ دِينِهَا فَلَهَا فِي ذَلِكَ الْأَجْرُ وَالْعِبْرَةُ وَالْقُوَّةُ وَالنَّصْرَةُ ، كَمَا حَدَثَ فِي مَعْرِكَةِ أَحُدٍ (٣ هـ) * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَخْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *)^(١)

وَفِيمَا حَدَثَ فِي التَّارِيَخِ الْإِسْلَامِيِّ ، فِي كُلِّ عَصُورِهِ ، الْمَرْدُهَرَةُ مِنْهَا وَالْمَكْفُورَةُ - فِي الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهَا الطَّوَائِفُ ؛ وَغَيْرُهُ ؛ حَتَّى الْيَوْمِ - التَّدَلِيلُ الْمُؤْكَدُ وَالْبَيَانُ الْوَاضِعُ وَالصُّورَةُ النَّاطِقَةُ ، وَفِيهِ كَفَافِيَةٌ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَتَسْكُنِي وَمَحْسَنِي وَمَمَّاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *)^(٢).

ب - وَقْعَةُ الزَّلَاقَةِ

عَلَى إِثْرِ الْأَحْدَاثِ السَّابِقَةِ وَالْقَرَارِ الَّذِي اتَّخَذَهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ - بَعْدَ اسْتِشَارَةِ الْفَقَهَاءِ وَالْأَعْيَانِ - فِي نَجْدَةِ الْأَنْدَلُسِ ، بَدَأَ عَبُورَ الْجَيُوشِ الْمَرَابِطِيَّةِ الْمَجَازَ (مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقِ) مِنْ سَبَتَةِ إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ، مُسْتَنْفِرًا قَوَاتِهِ لِلْجَهَادِ . «فَاجْتَمَعَ لَهُ نَحْوُ مِنْ سَبْعَةِ آلَافٍ فَارِسٍ فِي عَدْدٍ كَثِيرٍ مِنِ الرَّجُلِ»^(٣) . عَبَرَتُ الْجَيُوشُ تَبَاعًا : أَوْلَاهَا قَوْةً مِنَ الْفَرَسَانِ بِقِيَادَةِ دَاؤِدَ بْنِ عَائِشَةَ ، وَآخِرُهَا مُوكَبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ ، فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ مُنْتَصِفِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ٤٧٩ هـ (٣٠ حَزِيرَانَ = يُونِيَّه ١٠٨٦ م)^(٤) . يُذَكَّرُ أَنَّهُ - خَلَالَ ذَلِكَ - هَبَتْ رِيحُ عَاصِفٍ أَثَارَتْ أَمْوَاجًا عَالِيَّةً ، فَرَفَعَ الْأَمِيرُ يُوسُفَ يَدِيهِ إِلَى السَّمَاءِ يَدْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ : «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ فِي جَوَازِنَا هَذَا خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَسَهَّلْ عَلَيْنَا جَوَازَ هَذَا الْبَحْرِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ فَصَعِيبٌ حَتَّى لا أَجُوزُهُ»^(٥) . اسْتِجَابَ اللَّهُ الْقَدِيرُ بِسُبْحَانِهِ دُعَاءً «حَتَّى سَهَّلَ اللَّهُ الْمَرْكَبُ ، وَوَرَّقَ الْمَطَلَبُ»^(٦) .

(١) الآية ١٢٩ مِنْ سُورَةِ آلِ عَمَرَانَ .

(٢) الآية ١٦٢ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامَ .

(٣) الْمَجَبُ ، ١٩١ .

(٤) دُولُ الطَّوَائِفُ ، ٣١٩ .

(٥) دُولُ الطَّوَائِفُ ، ٣١٩ ، ٤٤٧ . (٦) نَفْسُ الْمُصْدَرِ .

« واطردت الإجازة ، ثم تحركت العساكر إلى إشبيلية ، وَرَدَفَهُمْ ابن تاشفين وزمل بظاهرها . وبلغه على إثر ذلك موت ابنه أبي بكر ، فحيّره حتى هم بالانصراف عن وجهه ، ثم آثر الجهاد ، وأنفذ مزدلي إلى ميراكش . »^(١)

سررت في الأندلس - خلال ذلك وقبله - روح جديدة ، ذكرت الناس أيام النصر التي رأوا بعضًا منها وسمعوا عن أمثلها الكبير ، يوم كان الخط الإسلامي واضحًا في حياتهم يوج بالسالكين .

سارع أمراء الطوائف للاشتراك بقوتهم . أعدوا ما أمكن للمشاركة في البذل والتضحية ، فرحبين بشهود هذا اليوم الجليل . يقول عبد الله بن بلقيس - أمير غرناطة - عن تلك الأحداث ، في كتابه التبيان : « وأمرنا بضرب الطبل وما يُستبعد به للفرح ، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة . وظننا أن إقباله إلى الأندلس منة من الله عظمت لدينا ، لا سيما خاصةً من أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحكمهم بالحق ؛ فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام ، فمن عاش منا كان عزيزاً ، تحت ستر وحماية ، ومن مات كان شهيداً . والعجب في تلك السفرة من حُسن النيات وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جُمعت على ذلك .

« ولقيتنا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجربة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً على أموالنا . ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلاً بعسكره : كل يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطئ على الموت نفسه . »^(٢)

لما اقترب يوسف بن تاشفين والجيش المرابطي من إشبيلية خرج المعتمد وجماعته من الفرسان لتلقيه وتعانقاً ودعوا الله تعالى أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه . استقرَّ الجيش أيامًا في إشبيلية ، ثم اتجه إلى بطليوس . كانت قوات عدد من

(١) الحلقة السابعة ، ١٠٠/٢ . راجع : دول الطوائف ، ٣١٩ ، ٤٤٧ .

(٢) التبيان ، ١٠٤ .

ملوك الطوائف تلحق بهم ، وتلقاهم الموكل أمير بطليوس . بعد أيام انتظمت القوات الأندلسية لوحدها – في المقدمة – بقيادة المعتمد بن عباد . في حين جُعلت الجيوش المرابطية في المؤخرة .

سار هذا الموكب من الجيش الإسلامي إلى موضع سهل من عمل بطليوس (Badajoz) وأحوازها^(١) ، يقع على بعداثني عشر كيلومتراً شمالاً الشرقي ، في العُدوة الشمالية لوادي يانه (Guadiana) . يُسمى هذا السهل في المصادر الإسلامية الزَّلَاقَة (Sagradas) . بقيت العساكر بظاهر بطليوس « في المضارب أيامًا ، إلى أن قصدتهم أذْفونش وتلاقوا بالزَّلَاقَة ، على مقربة من بطليوس ، يوم الجمعة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعين مائة ، فكان الظهور لل المسلمين »^(٢) .

حينما سمع الفونش (السادس) أنباء هذا الجيش ترك فك حصار سرقسطة وبدأ يستعد . كاتب ملك أرغون شانجيه بن رُدمير (Sancho Ramirez) وأمراء ما وراء الْبُرْت يطلب نجدة . تجمعت جيوش من جليليقيَّة وأشتوريش وتبَارَة مع جيوش قشتالة . تَحْقِيقَ لهم سيل من الفرسان المتطوعين من جنوب فرنسا وإيطاليا . سار الفونش بجيشه ، مزهوًا بتفوقة في العادة والعدد والإمكانيات الفنية لقواته^(٣) . وجعل على مقدمة جيشه قائده البرهانش (Alvar Háñez) .

تحتفل المصادر في تقدير عدد جيش كل من الفريقين . قد يكون عدد الجيش النصراوي خمسين ألفاً أو يزيد . دون شك فإنَّ الجيش الإسلامي أقل من ذلك وقد يصل إلى النصف^(٤) .

يدرك صاحب الروض المعطار أن الفونش قال حين نظر إلى جيشه : « بهؤلاء أقاتل الجن والأنس وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء المختارون من

(١) انظر : أعمال الأعلام ، ٢٤٦/٢ ، ٢٤٦/٣ .

(٢) الحلة السيراء ، ١٠٠/٢ - ١٠١ . كذلك : وفيات الأعيان ، ١١٦/٧ .

(٣) راجع : دول الطوائف ، ٣٢٢ ؛ ٥٨٦ . *Manual de historia de España* , I , 586 .

كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٤٦/٣ .

(٤) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ١٥٣/١٠ .

أجناده أربعين ألف دارع ، ولا بدّ من هذه صفة أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأمّا النصارى فيتعجبون من يزعم ذلك ويقوله . واتفق الكل أنّ عدّة المسلمين كانت أقلّ من عدّة المشركين .^(١)

جرت مراسلات بين الطرفين . أرسل ابن تاشفين – عملاً بأحكام السنة – إلى الفونش يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الخزية أو الحرب . مما جاء في الرسالة : « وبَلَغَنَا يَا أَذْفُونْشَ أَنَّكَ دَعَوْتَ فِي الْجَمَاعَةِ بِكَ ، وَتَبَيَّنَتْ أَنْ تَكُونُ لَكَ فُلْكَ تَبَرُّ الْبَحْرِ عَلَيْهَا إِلَيْنَا ، فَقَدْ أَجْزَنَاهُ إِلَيْكَ ، وَجَمِيعُ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْعَرْصَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَسْتَرَى عَاقِبَةَ دُعَائِكَ **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾**^(٢) . أَغْضَبَ الْفُونْشَ هَذِهِ الرَّسَالَةَ وَرَدَ بِكِتَابٍ عَنِّيْنَ مَلْوَعٍ بِالْوَعِيدِ . اكتفى ابن تاشفين أن يكتب في ظهر الرسالة : « الَّذِي يَكُونُ سَرَّاهُ »^(٤) .

جرت الاستعدادات في المعسكرين بكل أشكالها وبالحث على الحرب والصبر فيها « وَقَامَتِ الْأَسَاقِفَةُ وَالرَّهْبَانُ فَرَفَعُوا صَلَبَيْهِمْ ، وَنَشَرُوا أَنَجِيلَهُمْ ، وَخَرَجُوا يَتَبَاهَوْنَ عَلَى الْمَوْتِ ؛ وَوَعَظَ يُوسُفَ وَابْنَ عِبَادَ أَصْحَابَهُمَا ، وَقَامَ الْفَقَهَاءُ وَالْعُبَادُ يَعْظُّونَ النَّاسَ وَيَخْصُّونَهُمْ عَلَى الصَّبَرِ ؛ وَيَخْذِرُونَهُمْ الْفَرَارَ ؛ وَجَاءُهُمُ الظَّلَائِعُ بِخَبْرِ أَنَّ الْعُدُوَّ مُشْرِفٌ عَلَيْهِمْ صَبِيحةً يَوْمَهُمْ ، وَهُوَ يَوْمُ الْأَرْبَاعَةِ ، فَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَخْذُوا مَصَافِهِمْ ، فَكَعَّابُنْ فَرْدُلْنَدُ وَرَجَعَ إِلَى إِعْمَالِ الْخَدِيْعَةِ ، وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى مَحْلَّهُمْ ، وَبَاتُوا لِيَلَتِهِمْ »^(٥) .

أراد الفونش خديعة المسلمين . كتب إليهم يوم الخميس (الحادي عشر من رجب) يخبرهم أن تكون المعركة يوم الاثنين ، بعده . لكن ابن عباد وابن تاشفين أدركوا هذه الخديعة ، وأكذّلت ذلك أخبار استعداد معسكر النصارى فانخذل المسلمين

(١) الروض المطار ، ٨٨ (فتح الطيب ، ٣٦٣/٤) . (٢) من الآية ٥٠ من سورة غافر .

(٣) وفيات الأعيان ، ١١٦/٧ (فتح الطيب ، ٣٦١/٤ - ٣٦٢) . كذلك : الروض المطار ، ٩٠ .

(٤) فتح الطيب ، ٣٦١/٤ .

(٥) الروض المطار ، ٩٠ (فتح الطيب ، ٤/٣٦٤ - ٣٦٥) . كمع : جبن وصفف .

الخذر « وبات الناس ليتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات ، خائفين من كيد العدو ، وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رُميْلَة القرطبي (وكان في محلة ابن عباد) فرحاً مسروراً ، يقول إنه رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد . وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب . وانتهى ذلك إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر ابن فردلند ، فحدروا أجمعين ، ولم ينفع ابن فردلند ما حاوله من الغدر . »^(١) فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ^(٢) (٢٣ تشرين الأول سنة ١٠٨٦ م) زحف الفونش بجيشه على المسلمين . كان أمير المسلمين قد جلب مع جيشه إلى الأندلس الجمال فكانت ذات نفع . دارت المعركة حامية الوطيس ، عنيفة الحركة ، شديدة الضراب ، ظهرت فيها براعة الجيش الإسلامي والقائدين ابن عباد وابن تاشفين . بدا فيها أمير المسلمين ليس فقط فارساً صوالاً جوالاً بل ذا مقدرة عسكرية يبتكر الخطط المناسبة أثناء المعركة . مما أن اشتدت المعركة واحتلَّ المعسكر الإسلامي حتى دفع ابن تاشفين إلى قلب معسكر العدو بمجموعة ، ثمَّ حمل نفسه بالقوَّة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي ، هاجمه بشدة . ثمَّ اتجه صوب مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار ، وهو على فرسه يرغلب في الاستشهاد ، وقرعُ الطبول يدوِي في الآفاق . قاتل المرابطون في صفوف متراصة ثابتة ، مثل بقية أجنحة المعركة .

(١) الروض المطار ، ٩٠ - ٩١ . كذلك : نفح الطيب ، ٣٦٥/٤ - ٣٦٩ . ترجم ابن بشكوال ابن رمilla في الصلة (٦٨) ، رقم : ١٤٤) فوصفه بأنه « كان معتنباً بالعلم ، وصحبة الشيخ وله شعر حسن في الزهد . وكان كثير الصدقة و فعل المعروف . قال لي شيخنا أبو محمد بن عتاب رحمة الله : كان أبو العباس هذا من العلم والورع والفضل والدين ، واستشهد بالزلقة مقبلاً غير مدبر سنة تسع وسبعين وأربعين مئة . »

(٢) ورد هذا التاريخ في رسالة كتب بها يوسف بن تاشفين بعد المعركة . انظر : دول الطوائف ، ٣٢٣ ، ٤٤٨ . كذلك : الذخيرة (مخطوطة) ، ١٥٢/٢ ، ١٦٢ ، ١١٩ . الروض المطار ، ٨٣ ؛ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١١٩ . جعله بعضهم في متصرف رجب من العام . انظر : أعمال الأعلام ، ٢٤٢/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٣ ، ٢٩٥/٥ ، ٢٩٧/٧ ، ١١٧ . كذلك : الحلة السيراء ، ٥٥/٢ ، ١٠١ . في حين وضعها آخرون في رمضان . انظر : العبر ، النهبي ، ٢٩٣/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ٢٩٥/٥ .

ما أن حلَّ المغرب حتى اضطرب الفونش ، وقد أصيب هو نفسه ، إلى الانسحاب حفظاً لحياة من بقى . طورد الفارون في كل مكان حتى دخل الظلام فأمر ابن تاشفين بالكف . استمرت المعركة يوماً واحداً لا غير « وقد حطم الله شوكة العدو الكافر ، ونصر المسلمين وأجلز لديهم نعمه . وأظهر بهم عنايته ، وأجمل لديهم صنعه . »^(١) تسلل في الظلام مع الفونسو حوالي خمس مئة فارس - مشكين جراحًا - متوجهين إلى طليطلة حيث توفي أكثرهم في الطريق ولم يدخل معه طليطلة إلاً حوالي مئة فارس^(٢) .

هكذا ردَّ الفونش وجيشه بالخيبة والخسران « فالحمد لله مُوهِن أيْدِيه ، ومُبْطِل كيده ، وجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل جزاء المحسنين . بما بلَّ من رِماق ، ونَفَسَ من خناق ، ووصل هذه الخزيرة من جبل ، وتجثمَ إلى تلبية دعائهما واستنقاذ ما بها ، من حَرَّان وسَهْل ، حتى ثُلَّ عروش المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، والحمد لله ربُّ العالمين ». ^(٣) على كل حال فقد كانت خسائر المعسكر القشتالي عالية ، أقل منها بكثير خسائر المعسكر الإسلامي . استشهد عدد من العلماء ، كان منهم ابن رُميَلة - المار الذكر - وأبو مروان عبد الملك المتصودي قاضي مراكش^(٤) . كذلك منهم : الفقيه أبو رافع الفضل ولد الحافظ العالم الأندلسي الفقيه الأديب أبي محمد بن حزم (٤٥٦ هـ) . قضى في معركة الزلاقة هذه شهيداً ، رحمه الله تعالى^(٥) .

سرت أبناء هذا النصر المبين إلى القواعد الأندلسية وكتب به ابن تاشفين إلى المغرب فأستبشر به الناس وسرروا أيَّما سرور . ثمَّ لأسباب عجل أمير المسلمين بالعودة

(١) أعمال الأعلام ، ٢٤٤/٣ .

(٢) الروض المطار ، ٩٣ .

(٣) اللذخيرة ، ١٣٢/١٤ (= أعلاه ، ٣٣٥) .

(٤) الروض المطار ، ٩٤ - ٩٥ .

(٥) الصلة ، ابن بشكوال ، ٤٦٤ (رقم : ٩٩٧) ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٣ . عنه انظر كذلك : الذيل والتكميلة ، ٥/٤٠ ، ٨٣ ، ٧٨/٢ .

إلى المغرب مما فوّت الإفادة من هذا النصر المؤزر في تتبع الجيش القشتالي ومهاجمته في عقر داره أو على الأقل استعادة طليطلة .

كانت الزلقة يوماً مشهوداً من أيام الإسلام ، وهي لاتعني فقط كف عدوان الفونش (السادس) وردَ جيشه خاسراً أو انتصاراً في معركة . فهي فضلاً عن أنها أُعشت التفوس وقوَت الآمال ، كما مهدت لإيواء الأندلس وانضمماها إلى سلطان المرابطين ، لكنها أعادت في مد عمر إسلامية شبه الجزيرة الأندلسية لأربعة قرون أخرى (١) .

رأينا هذه الفترة التي عاشت في كثير من الانحدار – لأحياناً – كانت لا تخلو من إشارات وضاءة ساطعة . رأينا في تاريخ كل مملكة ليس أقل من مأثرة خالدة في ظل عقidiتها . لو أن المسلمين انتفعوا بهذه الدروس واستمرروا بالروح الإسلامية العالية التي عاشتها الأندلس في أحداث الزلقة والأيام المشهودة المماثلة لها قبل ذلك ، واتخذوا العبرة منها وتجنبوا الفتن والتزاعات وابتعدوا عن العصبيات – وهو أمر يتناهى مع الإسلام ويعتبره من شيم الجاهلية – لاستمررت الأندلس المسلمة دائماً ولو جدنا مساجدها قائمة والآن ساقطة حتى اليوم في سماء الجزيرة الأندلسية ، تنادي بالحق وترفع رايته وتدعى للخير وتبدل نفعه ، وهي تعلو على كل صوت وتسمو فوق أية دعوى : ندية منعشة ، جديدة مفعمة بالقوة الخيرية والحياة النيرة .

رابعاً : الحركة العالمية

رأينا أحوال عهد الطوائف وما أصاب الأندلس خلاله من ضعف واستكانة وتفرق وتمزق ، نتيجة لضعف الخط الخلقي المسلم ، تعاونت عليه عوامل خارجية وداخلية . أنتج ذلك من السياسات السيئة التي اتبعها الكثير من ملوك الطوائف ، لا سيما نحو دينهم وإخوانهم ، وتقصيремهم تجاه بلدتهم ومما لاتهم أو محالفتهم – رغبة أو رهبة – لعدوهم المترbus . تعرض للحديث عنهم وإدانتهم عدد من العلماء الأعلام المعاصرين

(١) قارن : الحلال السندي ، ١٩٥/٢ .

لهم - مرّ ذكر بعضهم ، في غير ما موضع^(١) - وأنحوا عليهم باللامنة الشديدة وحملوهم أوزار كثير من سوء أحوال ذلك العصر .

نلاحظ أيام الطوائف هذا الضعف السياسي الذي شاع في أغلب الفترة ، فاست فيه الأندلس النكبات ، وذلك التفكك الذي أصاب البناء الاجتماعي والخيرية والارتباك . بجانب الحسرة القاتلة والأسى العميق ، خلقت هذه الأوضاع في النفوس . بل يبدو أنَّ ذلك كان سبب الأوضاع السياسية والمخاطر المترسبة ، مما قد لا يستطيع القضاء على كثير من الصفات النفسية والخلقية التي انزوت في داخل النفس ، لإيمانها وإغباه هذه الأمور عليها . لذلك رأينا أنه ما تكاد تصبح الفرصة لظهور هذه الصفات ، التي تجد طريقها خلال الجو الموحد والالتزام بالمثل ، إلَّا وتنطلق من أكمامها ويزهو نموها . فيتم تسجيل صفحة جديدة ، أو تدعى الجماعة إلى وقفات مجيدة حتى لو كانت التضحية بالنفس ثمناً لذلك من غير مصلحة أو مجد إلَّا خدمة الدين ومن أجل حياة الأمة المسلمة . والعقيدة الإسلامية وشرعيتها أرادها الله - سبحانه وتعالى - أن تكون خالدة دائمة - كما أنزلاه الله - والتکلیف بها قائم ومستمر . فالأخذ بها نصر والبعد عنها خسر .

الأمة التي فيها مَنْ يجد الحياة في الفداء تتسابق له عقيدة ، هي أمة تحمل عوامل الاستمرار مهما ضمرت أو أحذقت بها ظروف سيئة ولفائفي قاتمة . قد يؤدي دوام هذه الأحوال وإنهاك هذه الصفات إلى خسائر لا تتعوض ، لكن من كبرى الدوافع الطامة هو الارتماء أمام العدو المتربي الغادر الذي اتبع سياسة الإضعاف والإنهاك ثمَّ الإفباء . تلك جريمة ملوك الطوائف التي يستحقون بها أشد النكير وأقسى النعوت . مهما يكن في أيدي الأمة بعقيدتها والحفاظ على مقوماتها يكون باعثاً لروح جديدة وحياة مشرقة . من هنا رأينا عدم خلو حياة كل مملكة من ممالك الطوائف التي درسناها من صفحة وضاءة سجلتها تلك الصفات . كان ضدَّ العدو في بلنسية تحمل وثبات وفي سرَّ قُسْطَنْطَة (برَبَشْتُر) جهاد وبلاء ، وفي الزلاقة تضحيه وانتصار . ففي هذه

(١) أعلاه ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ - ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ - ٣٦٦ .

الأحداث - وفي غيرها مما سبأ في العهود التالية ، محلية أو في عموم الأندلس - رأينا غلبة هذه الصفات النفسية والاجتماعية . بقي بعض هذه الصفات المتعددة آليواناً مستمراً في النساء ويجذب الجو المناسب للعمل والانتاج ، مع توفر شيء من الرعاية والعناية .

ما كان المجتمع الأندلسي أيام الطوائف مجتمعاً منقطعاً أو نشأ في أيامهم ، إذَا لم تتوفر له مستوى علمي رفيع . فالمجتمع الأندلسي ، مجتمع مسلم ، نشأ محباً للعلم وأهله ، وفطري أبناؤه على ذلك . لأنَّ العلم فرض في العقيدة الإسلامية على كل مسلم ومسلمة ، ولا يمكن أن يكون المسلم غير متعلم أو مثقف . لذلك كان العلم منتشرًا في الأندلس انتشاراً تفتقره كثيرة من البلدان المعاصرة لنا ، ولها حظ في التعليم كبير . والعلم والمعرفة بكل أوجهها (الدرس والتدريس والتعلم والتأليف) كانت مزدهرة وعامة ، مصدر فخر وعوامل تقدير . مع التزام بخط معلوم وشروط معروفة واهتمام بكل الوسائل والأسباب المؤدية لهذا . من هنا غدت الأندلس سوقاً للكتب كبيرة راجت بصناعتها وازدهرت صناعتها ، حتى الخلفاء والأمراء وأصحاب المراكز الأخرى كانوا بذلك يفتخرن . كيف لا وإن العلم شرط لمركزهم ، بل وضع الكثير منهم في مصاف العلماء الكبار الذين لهم مؤلفات أو يقيم العلماء لرأيهم وزناً ، وذلك في كل ميدان . كان في هذا العهد امتدادات لمعالم وصفات العهود الماضية في الأندلس ، بعضها فيه ضمر والآخر بقى واستمر ، رعته عوامل إنباته ولازمه أجواء نموه رغم نقصها . ليس بعيداً عن الصواب القول أنه لو استمر عهد الخلافة الأندلسية لوجدنا الحضارة والإنتاج العلمي في القرن الخامس الهجري (عصر الطوائف) أسمى وأقوى في الإنتاج والأصالة والشمول والإبداع . يعتبر العلم في هذا العهد (الطوائف) امتداداً للuhود السابقة وثمرة وضع أصولها رجال على كل مستوى^(١) .

من خير ما يُقدم عصر الطوائف ، إلى جانب صفحات الجهاد المشرقة التي ذُكرت بعضها ، إنتاجاً غزيراً وفيراً ومشرقاً مبدعاً في مختلف الميادين . فهو زاخر

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا (المقدمة) ، أبو عبيد البكري ، ٣١ - ٣٢ .

بالمؤلفات الأمهات والأصول الضخمة التي وصلنا بعضها . قسم كبير من هذا ما يزال مخطوطاً بانتظار يد المحققين .

فلتكن للباحثين المجددين والدارسين المتابعين حصة في هذا الميدان يُسهمون في نشر إنتاج سلف أمتنا المسلمة ، ويكون حافزاً ليس فقط لإنشاء إنتاج جديد مجيد ، بل لحياة يكونُ مثلـ هـذا العلمـ والإنتاجـ إحدى ثمارـهاـ . كـيفـ إـذـاـ ، فـإـنـ هـذاـ الإـنـتـاجـ أـحـدـ مـوـالـيـدـ تـلـكـ الـحـيـاةـ الطـاهـرـةـ الـقـيـةـ ، ليـكـونـ بـدـورـهـ كـذـلـكـ . وـالـجـمـيعـ مـعـهـمـونـ لـتـقـدـمـ بـجـهـودـهـمـ وـالـتـعـلـمـ وـالـتـبـيـعـ وـلـكـيـ يـسـهـمـواـ . فالـعـلـمـ شـرـطـ لـذـلـكـ وـالـجـدـدـ الـمـخـلـصـ أـسـاسـ فـيـهـ . لـذـلـكـ أـيـضـاـ وـجـدـنـاـ أـسـماءـ لـامـعـةـ فـيـ كـلـ لـوـنـ مـنـ أـلـوـانـ الـعـرـفـ ، رـغـمـ أـنـاـ لـاـ نـعـرـفـ عـنـ بـعـضـهـمـ إـلـاـ أـسـماءـ ، وـقـدـ نـجـهـلـهـاـ .

الجو الفكري والروح العلمية ، التي اتسمت بالخلق العلمي وآدابه ، والرغبة في التحصيل والأخذ بأسبابه والبذل فيه والسعاد في تقديره ، محبة واستجابة ، هذا كله مهم في تعليل هذه الظاهرة لعصر الطوائف . وهي : علو الحركة العلمية ووفرة إنتاجها ، رغم سوء الأحوال السياسية والاجتماعية ، مما لا ينتظر معه وجود مثل هذه الظاهرة بجزءة عن تلك الأسباب وبدون تلك الأصول .

⁽¹⁾ يُذكر عادةً من أسباب هذه الظاهرة اهتمام أمراء الطوائف بالأدب والعلم

^{١)} انظر نفح الطيب ، ٤٣٨/١ - ٤٤٠ .

وتشجعهم للعلماء وتقربيهم . حتى إنَّ قصور الكثير منهم غدت منتديات أدبية وعلمية . مع أنَّ الأدب كان غالباً ، لأكثر من سبب .

أشار أبو الوليد الشقنقندي (٦٢٩هـ) إلى ذلك في رسالته في فضل الأندلس « ولما ثار بعد انتشار هذا النظام ملوكُ الطوائف وتفرّقوا في البلاد ، كان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، إذ نفقوا سوقَ العلوم ، وتباروا في المثوبة على المثور والمنظوم ، فما كان أعظمَ مباهاتهم إلَّا قول : العالم الفلاياني عند الملك الفلاياني ، والشاعر الفلاياني مختص بالملك الفلاياني ، وليس منهم إلَّا مَنْ بذل وسعه في المكارم ، ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم »^(١) .

بل إنَّ عدداً من رجالهم ومستشارיהם وزرائهم كان من العلماء والأدباء . يحاجب أنَّ بعضهم كانوا في عداد العلماء والأدباء والشعراء ، ومنهم المؤلفون . لكن هذا بدوره مرتبط إلى حد كبير بالأمور التي سبق ذكرها . إنَّ محبة العلم كانت عامة يقدرها الناس ويحيثون عليه ، والعلم سبب للرقة والتقدير ، واللهُ تعالى يقول في القرآن الكريم : * يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *^(٢)

أمراء الطوائف الذين عُرِفوا بالمكانة العلمية هي أيضاً بقية نتاج هذا الج هو الاجتماعي ، فضلاً عن تعلق الناس بالعلم ، مما جعلهم يتفاخرون به ويتنافسون فيه ، رعايةً للعلم وإيواءً للعلماء وأهل المواهب ، بل وتوسيعهم المناصب . لأنَّ العالم أولى بهذه المناصب من غيره . ليملأها ويعطيها حقها وفيها بمسؤوليتها ، وليس من سطا عليها من أهل الجهل والادعاء ، يمسخون الحقائق ويروجون أباطيلًا .

بني عباد في إشبيلية ، حيث عرفت هذه الأسرة بعلمها وأدبها ، منهم القضاة ، كمؤسس الأسرة إسماعيل وابنه محمد . منهم الأدباء والشعراء ، كعبَاد المعتصد وابنه محمد المعتمد . جمعوا في بلاطهم كثيراً من رجالات العصر وكتابه وشعرائه ،

(١) نفح الطيب ، ١٨٩/٣ - ١٩٠ .

(٢) من الآية ١١ من سورة المجادلة

أمثال ابن زيدون (٤٦٣ هـ) وابن وهبون وابن اللسانة (ميورقة ، ٥٥٧ هـ) وابن عمّار (٤٧٧ هـ). اشتهرت مع ابن زيدون الشاعرة الأديبة ولادة (٤٨٤ هـ) بنت الخليفة المستكفي (٤١٦ هـ) في قرطبة.

بنو الأقطس ببَطْلِيُوس كانوا حماة الأدب . وضع المظفر - أحد أمرائهم - كتاباً عرف باسمه (المظفري) يقع في مائة مجلد أو أقل ، لكن لم يصلنا منه شيء . كان من رجالهم ابن عَبْدُون وبنو القَبَطُرْنة^(١).

بنو صُمادح^(٢) في المرية الذين ضم بلاطهم الواشاح ابن الفزار ، كانوا أيضاً من الأدباء ، كالمعتصم ولداه رفيع الدولة ورشيد الدولة وابنته أم الكرام . من عاش في المرية الحغرافي الكبير أبو عبيد البكري (٤٠٥ - ٤٨٧ هـ) . هو نفسه ابن أحد أمراء الطوائف . أبوه عبد العزيز صاحب ولبة (Huelva) وشَلَطِيش (Saltés) التي مر ذكرها^(٣). درس البكري على يد كبار علماء هذا العصر ، أمثال المؤرخ ابن حيان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ) والحافظ ابن عبد البر (٣٦٨ - ٥٤٦ هـ) والجغرافي العُذْري (٣٩٣ - ٤٧٨ هـ) . وصف ابن الأبار أبا عبيد البكري أنه «من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتوليفه قلائد في أجياد الأيام»^(٤). بلاط طُلَيْطُلة أيضاً اشتهر فيه علماء في الفلك والزراعة . الزَّرْقَالِيُّ القرطبي صاحب الخداوين الفلكية أصله من طليطلة ، ومنها صاعد الأندلسي الطليطلي صاحب كتاب طبقات الأمم . كان لطليطلة أهمية في نقل العلوم إلى الغرب إذ غدت مركزاً مهماً لترجمة الكثير من هذا الإنتاج .

في إمارة سرقسطة عاش الشاعر ابن دَرَاج القَسْطَلِي (٤٢١ هـ) ، كان في شبابه من كتاب المنصور بن أبي عامر . عَدَ المقتدر بن هود وابنه المؤمن من العلماء^(٥) في الفلسفة والرياضيات والفلك .

(١) انظر : أعلاه ، ١٧٠ . (٢) انظر : نفح الطيب ، ٣٦٦/٣ وبعدها .

(٣) أعلاه ، ٣٥٤ ، ٣٨٩ . (٤) الخلاة السيراء ، ١٨٥/٢ .

(٥) نفح الطيب ، ٤٤١/١ .

كانت قواعد الأندلس وحواره مركزاً للعلم والمعرفة . فقرطبة وإشبيلية والمرية وطليطلة وبطليوس وبلنسية وغيرها عاشت عواصم ثقافية ، ضمت العلماء والمعاهد ، كما كانت هي وعوم مدن الأندلس مليئة بالمكتبات الخاصة وال العامة . وكانت لعديد من الأمهات مكتبات ضخمة ، وعناياتهم بها كبيرة .

برز في هذه الفترة علماء أفذاذ وصلوا القمة ، وكذا شعراء وأدباء وكتاب ، ولكن للأسباب التي ذكر بعضها . عاش بعض هؤلاء شبابهم قبل الفتنة ، ترکوا المؤلفات الكثيرة التي تحتل المكانة الرفيعة ، من أمثال : ابن حزم صاحب المؤلفات الغنية . هو ، كابن حيان وابن بسام وآخرين ، أرخوا العصر لهم أيضاً .

امتاز عدد من هؤلاء العلماء بصفة الموسوعية ، إنهم من كتاب الموسوعات . أمثال : ابن حزم وأبي عبيد البكري ، كتبوا في عدة فنون وميادين ، وإنما تاجهم في ذلك يمتاز بالدقّة والعمق والأصالة .

توفرت أعداد كبيرة من أعلام بهذه النوعية الفريدة ، مع البناء العلمي للمجتمع الأندلسي ، ألغى توقع وقف عملية طلب العلم أو تعويق نموه .

يختلف المستوى العلمي الذي كانت عليه الأندلس خلال الطوائف عن الحالة السياسية . سمت نهضته فوق هذه الحالة ، وبرزت قوية وضاعة^(١) .

كان هذا المستوى الفكري والنهضة العلمية نتيجة لما غرسه الإسلام في المجتمع الأندلسي ، من حب العلم والتعلق به وأنه مصدر فخر . لذلك ، فمع سوء الأحوال في هذه الفترة ، بقيت تلك الروح وحب العلم مبثوثة لدى الناس .

اقتات عصر الطوائف - أحياناً - على ما غرسه الأوائل : بقي مستمراً في النماء والعطاء ، لبقاء روح ذلك الجو ، وهو دليل عميق لهذا الانبعاث .

أما بعض جوانب الصفات التي أصابها الانزواء فقد وجدها ثار حين تستثار ، أو تجد الجو المؤهل والعامل الممكن . أو ذلت هذه لأن عوامل الفتنة أول ما أصابتها . وجدنا عصر الطوائف غنياً بالأحداث ، كما وجدناه ، رغم تردّيه والتمزق

(١) انظر : دول الطوائف ، ٤٢٤ و بعدها .

الذى ساده في الجانب السياسي والاجتماعي ، ما إن تلوح المناسبة حتى تظهر الصفات التي عانت الويلات ، مشرقة مضيئة مرة أخرى . تعتبر الطوائف من أسوأ ما مر بالأندلس ، وأنها ربما التي قادتها إلى الأذى والضياع . ولو لا أن هبأ الله المرابطين ينجدون إخوانهم في عدوة الأندلس لكان الأمر أسوأ ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١)



(١) من الآية ٢١ من سورة يوسف .

الفصل السادس

شِهَدَ الْمُرْبَطِينَ

الاستعاضة الأولى

(٤٨٤ - ١٠٩٢ م) (١١٣٤ - ٥٥٢٠)

أولاً : المرابطون وجهادهم في الأندلس .

ثانياً : نتائج التعاون بين المرابطين وأهل الأندلس .

ثالثاً : الأحوال العامة .



أولاً : المرابطون وجهادهم في الأندلس

١ - المرابطون

قام المرابطون في المغرب الأقصى بدعون إلى تأكيد التمسك بالإسلام ، وتجديده جريان الحياة في تياره وإشباعها بروحه واتخاذه دستوراً شاملـاً يحكم حياة الإنسان في كل أحواهـا . وامتدـت حركتهم حتى أقامت دولة شملـت مناطقـ كثيرة في المغرب الكبير ، وانضـوت الأندلس تحت جناحـها ، وعمـرت دولـتهم نحو مـئة عام .

يرجـع تأسـيس الدعـوة والدولـة المرابـطـية إـلى قـبيلـة لـمـتـونـة ، إـحدـى بطـونـ صـنـهـاجـةـ منـ البرـانـسـ ، وـاحـدـةـ كـبـرـىـ قـبـيلـتـينـ (ـالـبرـانـسـ وـالـبـسـترـ)ـ الـتـيـنـ يـتـكـونـ مـنـهـماـ البرـبرـ ، وـعـومـ سـكـانـ الشـمـالـ الإـفـرـيقـيـ .ـ لـذـاـ تـسـمـىـ الـدـوـلـةـ المـرـابـطـيـةـ أـيـضاـ بـالـدـوـلـةـ الـلـمـتـونـيـةـ وـالـمـتوـنـيـنـ .ـ وـلـاخـذـ لـمـتـونـةـ اللـثـامـ سـمـواـ بـالـمـلـثـمـينـ (ـ١ـ)ـ ،ـ أوـ الـلـثـمـةـ (ـ٢ـ)ـ وـالـلـثـمـ ،ـ إـشـارـةـ لـأـحـدـ حـكـامـهـ (ـ٣ـ)ـ .ـ

تعود أوليتها إلى يحيى بن إبراهيم الجداـليـ أمـيرـ جـدـالـةـ (ـ كـدـالـةـ ،ـ شـقـيقـةـ لـمـتـونـةـ وـبـطـنـ آخرـىـ لـصـنـهـاجـةـ)ـ .ـ تـوـجـهـ يـحـيـىـ فـيـ جـمـاعـةـ إـلـىـ الحـجـ ،ـ مـسـتـخـلـفـاـ اـبـنـهـ إـبـرـاهـيمـ (ـ٤ـ)ـ .ـ وـعـرـجـوـاـ فـيـ عـوـدـهـمـ عـلـىـ الـقـيـرـوـانـ لـلـاسـتـمـاعـ إـلـىـ بـعـضـ عـلـمـائـهـ سـنـةـ ٤٤٠ـ هـ (ـ٥ـ)ـ ،ـ وـاتـصـلـوـاـ هـنـاكـ بـأـبـيـ عـمـرـانـ مـوـسـىـ الـفـاسـيـ :ـ مـوـسـىـ بـنـ عـيـسىـ بـنـ أـبـيـ حاجـ (ـ ٣٦٨ـ هـ ٤٣٠ـ)ـ ،ـ شـيـخـ الـمـذـهـبـ الـمـالـكـيـ (ـ٦ـ)ـ ،ـ وـطـلـبـوـاـ مـنـهـ أـنـ يـرـسـلـ مـعـهـمـ عـالـمـاـ يـفـقـهـمـ فـيـ

(١) الحلـةـ السـيـراءـ ،ـ ٢٥٠ـ /ـ ٢ـ ؛ـ الـمـرـبـ فيـ حـلـيـ الـمـغـربـ ،ـ ٤٦٧ـ /ـ ٢ـ ؛ـ دـوـلـ الطـوـافـ ،ـ ٢٩٩ـ .ـ

(٢) التـكـلـةـ ،ـ اـبـنـ الـأـبـارـ ،ـ ٤٣٩ـ /ـ ١ـ ،ـ ٤٤٧ـ .ـ

(٣) صـفـةـ الـأـنـدـلـسـ (ـ مـنـ نـزـفـةـ الـمـشـاقـ ،ـ ١٩٧ـ =ـ الـحـلـلـ الـسـنـدـيـةـ ،ـ ١١٨ـ /ـ ١ـ)ـ .ـ

(٤) الـإـسـقـصـاـ لـأـخـبـارـ دـوـلـ الـمـغـربـ الـأـقـصـيـ ،ـ أـبـوـ الـبـاسـ أـحـمـدـ الـنـاصـرـيـ ،ـ ٦ـ /ـ ٢ـ .ـ

(٥) الـبـيـانـ الـمـغـربـ ،ـ ٢٤٢ـ /ـ ٣ـ ،ـ ٢٤٢ـ /ـ ٤ـ ،ـ ٧ـ /ـ ٧ـ -ـ ٩ـ .ـ

(٦) انـظـرـ :ـ الـصـلـةـ ،ـ ٦١١ـ -ـ ٦١٢ـ (ـ رـقـمـ :ـ ١٣٣٧ـ)ـ ؛ـ تـرـتـيـبـ الـمـارـدـكـ ،ـ ٣ـ -ـ ٧٠٢ـ /ـ ٤ـ ؛ـ الـعـبـرـ ،ـ اـبـنـ خـلـدونـ ،ـ ٣٧٣ـ /ـ ٦ـ -ـ ٣٧٤ـ .ـ

الدين ، لانقطاعهم في الصحراء . فأرسل معهم عبد الله بن ياسين الجَزولي (٤٥٠ أو ٤٥١ هـ)^(١) . وصحبهم إلى بلادهم وبدأ يفقه الناس في دينهم ويعلّمهم شريعة ربهم . أقام ابن ياسين رِباطاً ، والتَّفَ حوله جماعة انقادت له ، مستوّبة هذا الفهم وملخصة له ، وبلغ عددهم حوالي ألف رجل ، فأطلق عليهم اسم « المُرَابطُون » . كان مِنَ التَّفَ حول عبد الله بن ياسين زعيم قبيلة لَمْتُونَة يحيى بن عمر بن إبراهيم ، خلف يحيى — بعد وفاته (٤٤٦ أو ٤٤٧ هـ)^(٢) — أخوه أبو بكر بن عمر في السنة الثانية ، وكان — كأبيه — مثال الإخلاص والتضحية^(٣) .

حين بدأ العقبات في وجه هذه الدعوة ، دافعوا عنها ضد من وقف في طريقها بهددها . وانطلق مِنْ رِباط ابن ياسين تيارها فتياً قوياً ، ثُمَّ أقام تلك الدولة^(٤) لما حدث خلاف بين بعض قبائل صَنْهاجَة سنة ٤٦٣ هـ أو ٤٥٣ هـ^(٥) ، دعي أبو بكر عمر للتوجّه من أجل حسمه ، وأوكل إدارة الدولة خلال غيابه لابن عمّه يوسف بن تاشفين^(٦) . فأدارها بقدرة ومهارة ، الأمر الذي أكسبه مكانة عالية ، وعرف كرجل دولة ، بجانب شهرته العسكرية التي ظهرت في مهام كلفه أبو بكر ابن عمر بها^(٧) .

وحين عاد أبو بكر بن عمر ورأى حال الدولة وما يتمتع به يوسف من مكانة ، وحازه من توفيق ؛ تنازل ليوسف^(٨) ، الذي استمر حكمه حتى وفاته سنة ٥٠٠ هـ^(٩) . تلك بادرة ذات مدلول ، جد كبير .

(١) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ، ابن أبي دينار ، ١٠٤ - ١٠٥ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٢٧/٣ . ترتيب المدارك ، ٣ - ٧٨٠/٤ - ٧٨٢ .

(٢) الاستقصا ، ١٣/٢ .

(٣) راجع نسبتهم في : البيان المغرب ، ٧/٤ وبعدها . كذلك : الحلة السيراء ، ٢١٢/٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٠٦ (نص ابن الكربلاوس) .

(٤) البيان المغرب ، ٤/٩ - ١٧ .

(٥) العبر ، ٣٧٧/٦ ؛ الاستقصا ، ٢١/٢ . (٦) البيان المغرب ، ٢٠/٤ - ٢١ .

(٧) البيان المغرب ، ٢٤٣/٣ . (٨) البيان المغرب . ٢٤/٤ .

(٩) راجع : دول الطوائف ، ٢٩٩ وبعدها ؛ عصر المُرَابطين والموحدين ، ١/١ . ٣٨ - ٣٧ .

٢ - جهادهم في الأندلس

قامت دولة المرابطين في البلاد المغربية على أساس إسلامية والحكم بما أنزل الله . وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أبرز أمراء هذه الدولة . عاصمتها أغمات التي تقع على بعد خمس وثلاثين كيلو متراً جنوب شرق مدينة مراكش . ثم احتض يوسف مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، أو بعدها (٢) ، متخدًا إياها عاصمة الدولة ، وأسس قصبةً ومسجدًا ، وكان يشاركُ العمال بنفسه في بناء المسجد (٣) .

رأينا أوضاع الأندلس وما صارت إليه — خلال الطوائف — من التفكك وإلحاح إسبانيا النصرانية في إنهاكها واستنزاف قواها ، حتى سقطت طليطلة في محرم سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، واتجهت الأنظار صوب عدوة المغرب مستنجلة بإخوانهم المرابطين . ولبى أميرهم النداء . فعبر الجيش المرابطي إلى الأندلس مجاهدًا في سبيل الله . كانت معركة الزلاقة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) . رُدَّ الجيش القشتالي على أعقابه خاسرًا مزفًا ، وكان نصرًا عزيزًا اهترأ له التفوس في الأندلس والمغرب وبقاع العالم الإسلامي . قبل عودة أمير المرابطين إلى المغرب جمع رؤساء الأندلس — كما يخبرنا أحدهم — فنصحهم ووعظهم : « وأمرنا بالاتفاق والاتفاق ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأنَّ النصارى لم تفتر صنَا إلَّا لِلذِّي كَانَ مِنْ تَشْتَتِنَا وَاسْتَعْانَةِ الْبَعْضِ بِالْبَعْضِ . فَأَجَابَهُ الْكُلُّ أَنْ وَصِيتَهُ مَقْبُولَةً وَأَنَّ ظُهُورَهُ مَا يَجْمِعُ الْكُلُّ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْجَرِيِّ إِلَى الْحَقِيقَةِ . » (٤) عاد الجيش المرابطي إلى المغرب

(١) البر ، ٣٧٧ / ٦ ؛ الاستقصا ، ٢٤ / ٢ .

(٢) كتاب الاستبصر في عجائب الأنصار ، مجھول المؤلف ، ٢٠٨ .

(٣) دول الطوائف ، ٣١٠ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، عنان ، ٣٨ / ١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٣٤ / ٣ .

(٤) نشر بعنوان : تاريخ المغرب العربي ، وهو القسم الثالث من أعمال الأعلام) ؛ البيان المغرب ،

١٢٣ / ٤ .

(٥) البيان ، ١٠٦ ؛ تأليف عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (٤٤٧ - بعد ٤٨٣ هـ) ،

من صنهاجة . وهو ثالث وأخر أمير (٤٦٩ - ٤٨٣ هـ) للدولة غرناطة أيام الطوائف . البيان ،

٧ (المقدمة) .

في شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، ولقب يوسف بن تاشفين « أمير المسلمين » بعد وقعة الزلاقة الشهيرة^(١) .

أرسل الفونش (السادس) – عقب استيلائه على طليطلة – قوات للإغارة على بعض مناطق شرق الأندلس . ثم ابْتَى قرب مُرْسِيَّة حِصْنًا ضخماً ليكون قاعدة للإغارة على تلك المناطق ، في مكان اسمه ليبط (Aledo) . شحنه بالمقاتلة ، حتى بلغت حاميته ثلاثة عشر ألف مقاتل ، فيهم ألف فارس . وجد المعتمد بن عباد أنه لا بد من الاستعانة بالمرابطين مرة أخرى لإنقاذ شرق الأندلس من هذا العيث . فعبر بنفسه إلى المغرب والتقي بأمير المسلمين وعرض عليه الأمر ، فوعده يوسف بن تاشفين خيراً ووْقَى يوسف بوعده ، فجاز إلى الأندلس – جوازه الثاني – سنة ٤٨١ هـ^(٢) ، وتوجه بقوته إلى حصن ليبط ولحق به عدد من ملوك الطوائف بقوائمهم وضربوا الحصار حول الحصن ، لكن لم يتمكنا من فتحه . ثم آثر يوسف الانسحاب ، حين علم مجيء الفونش بجيشه . وفضل هذا الأخير إخلاء الحصن بعد تهديمه وذلك سنة ٤٨٢ هـ . وعاد يوسف إلى المغرب وترك في الأندلس حامية ، كما فعل بعد معركة الزلاقة .

ساعت أحوال الطوائف – مرَّةً أخرى – وعادوا إلى خلافتهم . ترددت الكتب والفتاوی إلى أمير المسلمين بإنجاد الأندلس وإنقاذه ، من ملوك الطوائف هذه المرة . كما وردت الفتاوی من بعض فقهاء المشرق وعلمائه ، أمثال : أبي حامد الغزالی (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) وأبی بکر الطڑٹوشي (٤٥١ - ٥٢٠ هـ)^(٣) . أمام ظروف الأندلس وأحوالها استجاب يوسف لذلك . وجهز جيشاً وعبر الأندلس – للمرة الثالثة – في أوائل سنة ٤٨٣ هـ^(٤) ، واتجه لتوه إلى طليطلة التي أصبحت عاصمة قشتالة ، وفيها أَدْفُونْش بن فِرْدِلَنْد (الفونسو السادس) ، خليفة شانجة .

(١) أعمال الأعلام ، ٢٥١/٣ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢٤٩/٣ .

(٣) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ٤١/١ - ٤٤ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢٥٠/٣ .

ابن رَدْمِير ملَك أَرْغُون . وَحِين شَاهَد ابْن تَاشْفِين مَنَاعَتَهَا ، تَرَكَهَا عَائِدًا إِلَى جَنُوبِيَّ الْأَنْدَلُس مَتَوَجِّهًا صَوب غَرْنَاطَة حَيْثَ اسْتَسْلَمَ لَهُ أَمِيرُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْن بُلْقِينَ فِي رَجَبِ سَنَة ٤٨٣ هـ (أَيْلُول ١٠٩٠ م) . وَفَرَحَ أَهْل الْأَنْدَلُس بِهَذَا .

عَادَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِين إِلَى الْمَغْرِب وَتَرَكَ عَدْدًا مِنْ قَادِتِهِ لِيَتَمُوا خَلْعُ مَلُوكِ الطَّوَافِ . وَخَضَعَتْ قُرْطَبَة – وَكَانَتْ تَابِعَةً لِبَنِي عَبَاد – لِلْمَرَابِطِين سَنَة ٤٨٤ هـ ، وَقُتِلَ حَاكِمُهَا الفَتَحُ بْنُ الْمَعْتَمِدِ الْمُكْبَرِ بِالْمَلْقَبِ بِالْمَأْمُونِ . وَقَدْ مَرَتْ الإِشَارَة إِلَى زَوْجِهِ زَائِدَةَ الَّتِي بَلَّأَتْ إِلَى مَلَكِ قَشْتَالَة^(١) .

لَا عِلْمُ الْفَوْنِشِ (الْسَّادِس) بِاتِّجَاهِ الْجَيْشِ الْمَرَابِطِيِّ صَوبِ إِشْبِيلِيَّة – بَعْدِ إِخْضَاعِ قُرْطَبَة – بِقِيَادَةِ سِيرِبْنِ أَبِي بَكْرٍ ، أُرْسَلَ إِلَيْهِمْ حَمْلَةً بِقِيَادَةِ الْبَرْهَانِشِ مُؤْلَفَةً مِنْ عَدَّةَ آلَافٍ ، مِنْ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ . دَارَتْ فِي أَحْوَازِ إِشْبِيلِيَّةِ مُعرَكَةٌ عَنِيفَةٌ انتَهَتْ بِاِنْتِصَارِ الْمَرَابِطِينِ . بَعْدَ مَا أَنْخَنَ الْقَائِدَ الْقَشْتَالِيَّ بِالْجَرْوَحِ^(٢) . اسْتَسْلَمَتْ إِشْبِيلِيَّةُ لِلْمَرَابِطِينِ – فِي رَجَبِ سَنَةِ الْمَذَكُورَةِ – بَعْدِ مَقاُومَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ الْمَعْتَمِدِ ، الَّذِي أُسْرَ وَنَفِيَ إِلَى أَعْمَاتِ الْمَغْرِبِ ، وَتَوَفَّى هَنَاكَ فِي شَوَّالِ سَنَة ٤٨٨ هـ (تَشْرِينِ الْأَوَّلِ = أَكْتوُبَر ١٠٩٥ م) . وَأَخْذَتِ الْمَرِيَّةُ مِنْ حَاكِمَهَا مَعْزَ الدُّولَةِ أَحْمَدَ بْنَ الْمَعْتَمِدِ بْنَ صُمَادِحَ فِي رَمَضَانَ سَنَة ٤٨٤ هـ ، مَرْسِيَّةً فِي شَوَّالٍ ، وَكَذَلِكَ شَاطِيَّةً وَمَدَنَ أُخْرَى سَنَة ٤٨٥ هـ .

تَائِيَ صَفَحةٌ أُخْرَى مِنْ جَهَادِ الْمَرَابِطِينِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، حَيْثَ أَنْفَقُوا جَهُودَهُمْ كَبِيرَةً لِإِنْقَاذِ بَلْنِسِيَّةِ مِنَ الطَّاغِيَةِ الْقَمْبِيْطُورِ وَالْقَشْتَالِيَّينِ . دَخَلَ الْمَرَابِطُونَ بَلْنِسِيَّةَ ، مَعِيدِينَ فَتْحَهَا فِي رَجَبِ سَنَةِ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ لِلْهِجَرَةِ^(٣) ، وَحَدَّثَتْ مَوْقَعَةُ أَقْلِيشِ بَيْنِ الْمَرَابِطِينَ وَالْجَيْشِ الْقَشْتَالِيِّ ، الَّذِي تَزَّقَّ وَقُتِلَ فِيهِ الْابْنُ الْوَحِيدُ لِلْفَوْنِشِ (الْسَّادِس) ، سَنَة ٥٠١ هـ كَمَا سَبَقَ بِيَانَهُ^(٤) . بَعْدَهَا دَخَلَتْ سَرْقَسْطَةُ وَالثَّغْرُ الْأَعْلَى تَحْتَ سُلْطَانِ الْمَرَابِطِينِ .

(١) أَعْلَاهُ ، ٣٥٣ . (٢) أَعْمَالُ الْأَعْلَامِ ، ١٦٣ ؛ دُولَ الطَّوَافِ ، ٣٥١ .

(٣) التَّكْلِفَةُ ، ١٨١/١ ؛ أَعْلَاهُ ، ٣٨٦ .

(٤) أَعْلَاهُ ، ٣٥٢ - ٣٥٣ .

دخلت سلطان المرابطين - سنة ٤٨٨ هـ - مملكة بَطَلْيُوس ، في غرب الأندلس ، التي كان يحكمها بنو الأفطس . وأرسلت - بعد ذلك - حملة مرابطية إلى أشبيلية (لشبونة) ، حيث كانت تحتلها الجيوش القشتالية وفيها حامية من جيشهم . واستطاع المرابطون إخضاعها .

عبر - سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، أو بعدها - يوسف بن تاشفين إلى الأندلس - عبوره الرابع^(١) - وكان قد عَهِدَ بأمور الأندلس إلى كبير قادته سير بن أبي بكر . ووجهَ جيشاً بقيادة محمد بن الحاج صوب طليطلة ، إذ غدت عاصمة قشتالة . والتلى بالقشتاليين بقيادة الفونش (ال السادس) قرب كنثرة (Consuegra) ، فأنهزم الجيش القشتالي متkickداً خسائر كبيرة سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م)^(٢) .

توجه يوسف إلى قرطبة سنة ٤٩٥ هـ لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي^(٣) . وكان بصحبته هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم . اشترط في هذه البيعة لعلي أن ينشئ في الأندلس جيشاً مرابطيًا ثابتاً يوزعه على سائر القواعد^(٤) . عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش ، حيث توفي أول محرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ ليلول = سبتمبر ١١٠٦ م) . أوصى ابن تاشفين ولـي عهده بأمور تتعلق بحسن السياسة والرفق والعناية بالأندلس . هكذا انتهت حياة هذا البطل بعد عمر يقارب المائة سنة ، قضى أكثر من نصفها في جهاد دائم وأحرز انتصارات باهرة ، وخلد فعلاً حميداً . رحمة الله وجزاه خيراً^(٥) . خلف علي أباه يوم وفاته وأخذت له البيعة ، واختار يوسف علياً ليخلفه ، لما يتمتع به من النباهة والخزم والتقوى ، وكان مقتفيأً سيرة والده^(٦) . وعبر - في

(١) قارن : تاريخ الأندلس ، ١٠٧ ، ١١٢ (نص ابن الكرديوس) ؛ الخلل الموشية ، ٥٥ ؛ دول الطوائف ، ٣٧١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٠٧ - ١٠٨ (نص ابن الكرديوس) . كذلك : الروض المطار ، ١٣٤ .

(٣) انظر : الخلل الموشية ، ٥٦ . لكن ابن الخطيب يذكر في الإحاطة (٥٢١/٢) أن البيعة كانت « في ذي الحجة سنة ست وتسعين واربع مئة » .

(٤) انظر : الخلل الموشية ، ٥٧ .

(٥) راجع : دول الطوائف ، ٣٧٠ - ٣٧٤ .

(٦) البيان المغرب ، ٤٤/٤ . كذلك : الخلل الموشية ، ٦١ .

السنة الأولى من حكمه – إلى الأندلس مجاهداً ، وأجرى بعض التغييرات الإدارية ، فعين أخاه أبا الطاهر تيمياً قائداً أعلى للجيوش في الأندلس ، ثم عاد إلى المغرب .

آ – وقعة أقليش

كتب علي بن يوسف بن تاشفين إلى أخيه تميم ، أوائل سنة ٥٠١ هـ ، باستئناف الجماد ، فاتجهوا صوب مدينة أقليش (Ucles) ، قاعدة كورة شنتبرية (Santaver) الواقعة شرق مدينة طليطلة ، ففتحوها ، وتركها الجيش القشتالي ، ليتحصن في قصبة أقليش المنيعة . أمدَّ أدْفُونْش بن فِرْدِلَنْد (الفونسو السادس) حاميتها عشرة آلاف فارس ، بقيادة ولی العهد ابنه الوحيد : شانجُهُ (Sancho) ، البالغ إحدى عشرة سنة ، مع قائده الكبير البرهانش وقادته آخرين . سميت معركة الأقماط السبعة (Batalla de los Siete Condes) ، أي : الأمراء السبعة الذين رافقوا شانجُهُ^(١) . وكان عدد الجيش القشتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي . جرت وقعة أقليش (أقلبيج) الشهيرة هذه في ١٦ شوال سنة ٥٠١ هـ (٢٩ مايis = مايو ١١٠٨ م) وكانت هزيمة ساحقة للجيش القشتالي ، قُتل فيها شانجُهُ ، كما سبق ذكره^(٢) . وكان نصرآرائعاً أعاد ذكريات الزلاقة .

من استشهد في وقعة أقليش « الإمام الحَزُولِي ، وكان رجل صدق . وجماعة من الأعيان »^(٣) . تبع ذلك بعام^(٤) أو أقل^(٥) وفاة أدْفُونْش أواخر سنة ٥٠٢ هـ (٣٠ حزيران = يونيو ١١٠٩ م) .

(١) نظم الحمان ، ٥/٦ - ٧ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٥ (نص ابن الكردبوس) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٦٥ ، كذلك : *Manual de historia de Espana*, I, 604.

(٢) أعلاه ، ٣٥٢ - ٣٥٣ ، ٤٢٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٤ (نص ابن الكردبوس) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٦٠ - ٦٧ .

(٣) نظم الحمان ، ابن القطان ، ٩/٦ .

(٤) البيان المغرب ، ٤/٥٠ .

(٥) البيان المغرب ، ٤/٥٠ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٥ (نص ابن الكردبوس) .

ب - مواجهات أخرى

في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) عبر علي إلى الأندلس للمرة الثانية « برسم الجهاد ونصر الله وإعزاز الكلمة »^(١).

سار أمير المسلمين بجيش ضخم صوب طليطلة فاتحاً عدّة مدن وحصون مثل طلبيرة ومجيريط (مدريد) ووادي الحجارة ، وحدثت معركة شديدة عند إعادة فتح طلبيرة سنة ٥٠٣ هـ^(٢) ، وكان من اشترك في هذه الحملة قاضي الجزيرة الخضراء ثم قاضي غرناطة عبد الله بن علي بن عبد الملك بن سَمْجُون الواطي (طنجة ، ٤٤٤ - تلمسان ، ٥٢٤ هـ)^(٣).

لسنوات عدّة حدثت معارك بين المرابطين ، ومعهم جيش الأندلس ، ضدّ قوات قشتالة ، وانتصر المرابطون في أكثرها ، وفي مناطق عديدة ، منها في غرب الأندلس . ثم انتقلت أعمال المرابطين في قلب قشتالة واشتبك الفريقيان في موقع خسر المرابطون بعضها .

ج - جهادهم في الجزاير الشرقية

للمرابطين مأثرة أخرى في هذا الجهاد هو استردادهم للجزائر الشرقية في البحر المتوسط (ميورقة وستانورقة واليابسة) . ذلك سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) ، بعد ما يزيد على سنة لغزوها من قبل قوات الحلف الثلاثي المكون من جمهوريتي بيشهة (بيزَّة Pisa) وجنة (Genoa) وإمارة برشلونة^(٤) .

يورد ابن الكرديوس في كتابه الاكتفاء معلومات مهمة عن هذا الموضوع ، فيقول : « وفي سنة ثمان وخمس مائة، اجتمع أهل بيشهة وجنة ، وعمرّوا ثلاثة مركب ، وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقة ، فغلبواها وسبوها وانتهواها ،

(١) الحلل الموشية ، ٦٢ .

(٢) نظم الحسان ، ١٣/٦ .

(٣) التكملة ، ابن الآبار ، ٩١٥/٢ - ٩١٦ (ترجمة رقم : ٢١٤٦) .

(٤) الروض المطار ، ١٨٨ ؛ دول الطوائف ، ٢١١ - ٢١٣ ؛ عصر المرابطين ، ١/٧٦ - ٧٧ .

ثم انتقلوا إلى جزيرة مَيُورْقَة^(١) . أوصى حاكماً عبد الله المرتضى وأهله نداءهم الذي أنقذه البحار أبو عبد الله بن ميمون حين حمل صريح الجزيرة إلى أمير المسلمين علي بن تاشفين . وأرسل أسطولاً من ثلاث مائة سفينة بقيادة أمير البحر تاقرطاس . ولما علم المهاجمون تركوا حصار الجزيرة (ميورقة) ورحلوا ، بعد أن خربوها منها وحرقاً ، فعاد الفارون من سكانها . في طريق قوة العدو - مرتدة عائدة - ألقى العواصف بأربع سفن منها إلى شفر دانية ، فطاردها قائد البحر أبو السداد ، فغرقت واحدة وأُسرت الثلاث .

« وفي خلال ذلك الحصار ، كان ناصر الدولة (أي : مبشر الخصي) كتب إلى أمير المسلمين يستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وكان إذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه . فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمراً ليلاً من دار الصناعة عليه ، فانطلق في الليل يقفوا أثراه ، واتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره ، فلما قطع يأسه في الظفر به ، رجع خاسئاً على عقبه ، فوصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين ، فأمر في الليل ، بتعمير ثلاث مائة قطعة ، وأن تلقى بعد شهر دفعه . فامتثل أمره في ذلك ، واندفعت بحملتها من هنالك ، وإن ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المسلمين .

« فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول ، أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعيّنه بما احتمل من السيي والأموال قريرة . فلما وصل الأسطول وجد المدينة خاوية على عروشها محقة سوداء مظلمة منطبقه . فعمّرها قائد الأسطول ابن تاقرطاس ، بن من معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب إليها من كان قد فر عنها إلى الجبال فاستوطنوا وعمروا وسكنوا . وانصرف الأسطول إلى مكانه ، وعاد إلى موضع مقره واستيطانه .

« وفي انصراف العدو إلى أوطانه ، هبت عليه ريح بیحار طامية ، فحملت منه أربع قطاعات إلى ناحية دانية . فعمد إليها قائد البحر أبو السداد ، ففرت أمامه ، وغرقت واحدة منها قدامه ، وعكس الثلاث . »^(٢)

(١) تاريخ الأندلس ، ١٢٢ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٢٣ - ١٢٤ . كذلك : البيان المغرب ، ٤/٦٦؛ العبر ، ابن خلدون ، ٤/٣٥٥ .

د - سقوط سرقة سُطَّة

في سنة ٥١١هـ (١١١٧م) يعبر أمير المسلمين - للمرة الثالثة - ويقوم بنشاط عسكري رافر ويفتح مناطق عديدة منها قُلْمُرِيَّة (Coimbra) ، عاصمة البرتغال يومها .

جرت أحداث خسر فيها المسلمون بعض الواقع والمدن ، ثم استولى ملك أراغون أدفونش بن رودمير (الفونسو الأول الملقب بالمحارب El Batallador) على مدينة سرقسطة سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، بعد حصار شهور اشتهرت فيه قوات من مختلف إسبانيا النصرانية ومن فرنسا ، وساروا في حملة تتسم بالصلبيةية^(١) .

سارت الحملة الصليبية وقوامها جيوش، بلغت أعدادها خمسين ألف راكب^(٢). فِرَّجْيَة من إسبانيا الشمالية وفرنسا . بقيادة ابن رُدْهير ملك أرغون ، متوجهة إلى شمالي الأندلس ، وحاصرت سرقسطة في صفر ٥١٢ هـ (مايو = مايس ١١١٨ م)^(٣) سبعة أو تسعه شهور^(٤) . بعد إنهاك المدينة ، وذاق أهلها ألوان الصعب ، فنيت فيها الأقوات ، وهلك الناس ، ونال الجوع منهم مأرباً ، فاضطررت المدينة للاستسلام^(٥) . في يوم الأربعاء لأربع خلون من رمضان سنة اثنى عشرة وخمس مئة للهجرة^(٦) (كانون الأول = ديسمبر ١١١٨ م) دخلوا المدينة صلحاً أو عنوة واعثروا فيها^(٧) . كان من أسباب سقوطها عدم إحسان الجيش المرابطي الدفاع عنها^(٨) « وجرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الروم على سرقسطة في يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة اثنى عشرة . »^(٩)

(١) انظر : أعلاه ، ٣٥٧ .

(٢) الروض المعطار ، ٩٨ .

٩٧ . (٣) الروض المعطار ،

(٤) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١٠٥ / ١ - ١٠٦ .

(٥) التكملة ، ٢٠٠/١ ، ٣٠١ .

(٦) تاريخ الأندلس ، ١١٧ - ١٢٠ (نص ابن الكرديوس) .

(٧) الذيل والتكميل ، ابن عبد الملك المراكشي ، ٤٨٠/٥ .

^(٨) الحلة السيراء ، ٢٤٨ / ٢ . راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١ / ٩٠ - ١٠٢ .

٥ - وقعة قُتَنْدَة

جرت وقعة قُتَنْدَة (كُتَنْدَة) يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٥١٤ هـ (أواخر حزيران = يونيو ١١٢٠ مـ) ، بقيادة أبي إسحاق ابراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخي الأمير المرابطي علي بن يوسف^(١) . وتقع مدينة قُتَنْدَة (Cutanda) ، التي جرت المعركة بظاهرها ، في حيز دروقة (Daroca) ، من أعمال سرقسطة .

دارت المعركة شديدة على المسلمين^(٢) واستشهد منهم الآلاف ، بينهم العديد من الفقهاء والعلماء ، منهم :

* القاضي الشهير الشهيد العالمة أبو علي الصَّدَّافِي (٤٥٢ - ٥١٤ هـ) . وهو حسين ابن محمد بن فِيره بن حَيَّون ، يُعرف «ابن سُكَّرَة الصَّدَّافِي» ، من أهل سرقسطة وسكن مرسية^(٣) .

* قرین الصدفی في الفضل : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكرياء ، قاضی المربیة ، المعروف بابن الفرَاءَ^(٤) «وَحَضَرَ اِيَّامَ كُتَنْدَةَ الْمُشْهُورَ بِالثَّغْرِ الْأَعْلَى يَوْمَ الْخَمِيسِ لَسْتَ بِقَيْنَ منْ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنَ السَّنَةِ ، وَحَقَّتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْهَزِيمَةُ ، وَكَانَا فِيهِنَّ قَدْ رَحْمَهُمَا اللَّهُ .»^(٥) من حضر المعركة القاضي الإشبيلي أبو بكر بن العربي^(٦) (إشبيلية ، ٤٦٨ - فاس ، ٥٤٣ هـ) .

هؤلاء العلماء قدوة في كل أمر ، يعلمون الناس الفقه والعلم والخلق بدر وسهم وسيرتهم . فهم موجودون مع الناس في معرك الحياة ، يَعْتَلُونَ قممها ويَمْطُون

(١) المجمع في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفی ، ابن الأبار ، ٥٤ - ٥٥ (ترجمة رقم : ٤٠) .

(٢) نفح الطيب ، ٤٦١ - ٤٦٠/٤ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٠٣/١ . كذلك : التکملة ، ٤٨٠/٢ - ٤٨١ ؛ الذيل والتکملة ، ٢١٩/٦ (رقم : ٦٤٠) .

(٣) انظر : الصلة ، ١٤٤ (رقم : ٣٣٠) ؛ نفح الطيب ، ٩٠/٢ - ٩٣ . هو غير خلف بن أحمد بن داود الصدفی (٤٨٦ هـ) من أهل بلنسية ومن ثغرها رُكَّاتَة . التکملة ، ٢٩٨/١ .

(٤) الصلة ، ٥٧٢ (رقم : ١٢٦١) .

(٥) المجمع ، ٤ (رقم : ٣) . كذلك : أزهار الرياض ، المقری ، ١٥٣/٣ - ١٥٤ .

(٦) نفح الطيب ، ٤٦١/٤ ؛ أزهار الرياض ، المقری ، ١٥٤/٣ .

معامها ، يخونون على الناس ، وهم يأوون إليهم ويلتفتون حولهم . كانوا يسرون مثل هذه المعارك ، يقفون في المقدمة ويرفون الرأبة ليكونوا أول المتقدمين ، يبتغون الشهادة للدين الله، وإعلاءً لكلمته في ، الأرض وتبنياً لشريعته في الحياة . هؤلاء جد كثيرون وموكبهم وفير . يذكر ابن عبد الملك المراكشي (٦٣٤ - تلميذان ، ٧٠٣) في كتابه *الذيل والكلمة* عن العالم أبي الحسن بن سمراء علي بن عبد الله الأنصاري بأنه اشتراك في معارك « كثيرة على قدره ابتعاد الأجر »^(١) .

وحين توجه الصديق إلى معركة قُشتَنْدَة رتب أمره كمن لا يعود ، وأوصى إلى صهره (والد زوجته) أبي عمران موسى بن سعادة « وكان أحد الأفضلين الصالحةين ، والأجواد السمحاء ، يوم الناس في صلاة الفريضة ، ويتولى القيام بمئون صهره أبي علي وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها ، وإليه أوصى عند توجهه إلى غزوة كُشتَنْدَة التي فقد فيها سنة أربع عشرة وخمس مئة . »^(٢)

يحسن هنا إيراد طرفة رائعة ، ذات صلة وصفة علمية . تبيّن عمقَ ووضاعةَ ورسومَ وأعراضَ الحانب العلمي في الحضارة الإسلامية وطبيعةَ الحياة في المجتمع المسلم . وهذا - مع أمثاله - جدير بالإفراد بالعناية .

ذهب أبو علي الصديق إلى معركة قُشتَنْدَة ، صادراً إليها من مرسيه ، مرّةً بعدة مدن ، منها شاطبة (Jativa) ، جنوب بلنسية . توقف الجيش فيها للمرور ومتارب أخرى . ألقى فيها الصدّيق - وربما في غيرها من مدن الطريق ، وحتى في مدينة المعركة « قُشتَنْدَة » أو قربها^(٣) - عدة دروس^(٤) .

تلقي عليه العديد من العلماء وسمع منه الناس . كما كان يفعل أيام الإقامة في مرسيه وغيرها ، حيث لا انشغال بالحرب أو سواها ، مهياً للتدرّيس ومعداً نفسه له ، فهو في جهاد وتدرّيس متصل . كان التلقي عليه في شاطبة ، متوجهًا إلى الحرب

(١) *الذيل والكلمة* ، ٥/٢٢٢ (رقم : ٤٥٣) .

(٢) *نفح الطيب* ، ٢/٢٢١ . كذلك : *المجمع* ، ١٩٦ - ١٩٧ (رقم : ١٦٧) .

(٣) *المجمع* في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديق ، ابن الأبار ، ١٧٢ (رقم : ١٤٩) .

(٤) *المجمع* ، ١٩٦ (رقم : ٩٩) ، ١٧٦ (رقم : ١٥٣) ، ١٩٥ - ١٩٦ (رقم : ١٦٦) (رقم : ١٦٩) .

في صفر سنة ٥١٤ هـ^(١) . تلقى الناس عليه ، في المحرم من نفس السنة^(٢) ، في مرسية مقامه ، حتى كان رحيله عنها .

لم ينقطع قيامه بالتدريس وهو سائر للحرب ، مستعداً لها - تطوعاً - موعداً ،
كم لا يعود . أعد نفسه للشهادة ووطئها على المقاتلة .

تولى التدريس في حالة انشغال وإعداد للحرب واتجاه إلى ميدانه . إنه يفترض
الوقت - وكل وقت - وبهبل الساعات ليقدم ما عنده للمجتمع طوعاً وتقرباً
إلى الله ، وفي النفس لذلك متسع ، فالحرب والعلم عنده في نفس المُتجَهَ وعين
المبتغي . فهما عبادة وإن اختلافاً في الصورة . لعلها للناس فرصة : تتلقى عنه ويُلْقِي
هو إليهم الدرس ، ممثلاً إياه . فهو الصورة العملية لدروسه . أدّها دون قلق وهو
متوجه إلى الحرب ، وفي النفس متسع لكتلتها : مقتنيْن ومنفردٍ ، فكلاهما جهاد .
العلمُ نوع من الجihad : «الجهاد العلمي» . و«الجهاد الحربي» ، علم ومعرفة بحق
الله ودعوه وواجبات المسلم . فهو ثمرة العلم ، وإلا فالعلم عقيم .

كان العلماء على المقدمة في الميادين كافة ، فمن مواصفات وطبيعة العلم في
الإسلام أنه نافع وعملي ، قائم في الخط سائر في المنهج . العالم في جهاد مستمر
وإن تعددت ميادينه ، ينتقل فيه من واحد إلى آخر . لذا قام من مجلس الدرس ،
حيث يقيم . ليتسلّم مقبض السيف ، حيث يجول : نوع آخر من الدراس ، وكله في
سبيل الله الواحد سبحانه وتعالى . وهو في الأول ، اختار الثاني - طوعاً ورغباً - وسار
له فيه . لم يكن أقل رغبة واستعداداً له وفيه من الأول . لذلك سار إليه كمن لا يعود إلى
الدنيا ولا يريد ، بنية الاستشهاد ، يذهب إلى الله ، فوصى لصهره . إذَا فلا قلق ولا
تغير . هو في الأول يؤدي الثاني ، وفي الثاني يؤدي الأول ، بأكثر من شكل ، بالبيان
المؤمن الصدق أو بالستان المهيمن المحبوك . كلام العلماء ، هم قدوة فيه . يتظرون
وفي المقدمة ، من غير توظيف أو تكليف ، بل هو تشريف .

هكذا كان علماء الأمة : حصونها وقادتها ومثالها . هم قدوة ليس للإنسان

(١) المعجم ، ١١٦ ، ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) المعجم ، ١٧٩ (رقم : ١٥٥) .

فحسب — فذلك شيء يسير — بل قدوة للمسلمين المؤمنين والأتقياء العارفين . مثلاً صافياً نقياً دائمًا . لأنهم اتجهوا إلى الله وأخذوا بشرعه ، وبغير هذا لاشيء يكون .

فما يعطيه الإسلام — حتى لغير المؤمنين به — مفاخر ، لو لاها لما قدم الإنسان دليلاً على إنسانيته أو امتلك مثلاً خلقية : ممثلاً غزيرة ثرّة نقاء وعزيمة برّة علية .

لو أنصف غير المسلمين — مع بعدهم عنه — لأحبوا الإسلام ، لا أن يقاتلونه أو يعادونه ، فقتالهم له هو الدليل على هبوب لهم وسبب في عقهم . فهم يستمتعون بكثير من خيره مع بعدهم عنه ، في هذه الصورة أو بغيرها ، من : البر وحسن المعاملة والإنصاف والرعاية والتكريم ، من حيث الإنسانية ، وبما ورثه أهل الأرض من مقومات أو ثبته فيه من مثل عملية ، تمثلت وتتمثل في إنسان ، من كل مستوى ونوع ، أو قدّم لهم من معرفة وانتاج أو وفر لهم من نور وضياء . لولاه لحرام الإنسان من شيء يراه مثلاً يترجم فيقتديه . كذلك كانت قبلًاً أديان الله في صفاتها ، وهكذا الاتّباع الأصفياء ، لكل رسول الله وأنبيائه (صلوات الله وسلامه عليهم) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) سيدهم وخاتمهم . فدين الله واحد ، آخر صورة له هو الإسلام الذي ارتضاه الله [﴿]اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتمتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديننا ^(١) ولا يرضى لأحد من عباده سواه [﴿]* ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين * ^(٢)

لم يدع أبو علي الصدفي فرصة تمر دون عطاء للمجتمع . بل هنا قصد الناس ليعطيهم ، وفي الإقامة يقصد الناس ليأخذوا منه ، فهو لهم ومعهم دوماً ، عقيدة وعبادة . وفي ذلك رضى الله تعالى ، الذي لا يبتغي غير وجهه ولا يعمل لغيره .

و — المعااهدون

جاز الأمير علي في أوائل سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) إلى الأندلس — للمرة الرابعة والأخيرة — وذلك على إثر أحداث جرت في قرطبة ، واستطاع تهدئة الحال . استدعي النصارى المعااهدون في غرناطة ابن رُدْ مير (الفونسو الأول ، المحارب)

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

ملك أرْغُون للاستيلاء على غرْناتة ، يتعهدون هم له بكل مساعدة وكذلك برجالم المسلمين . كان هؤلاء ينعمون بحسن المعاملة وسياسة العدل والإنصاف التي تمتّعوا بها خلال القرون في المجتمع الإسلامي وفي ظل حكمه^(١) .

استجاب ابن رُدْمِير لهذا الاعتداء ، فجهز جيشاً ضخماً بلغ خمسين ألفاً أو يزيد ، بعد انضمام آلاف النصارى المعاهدين إليه . تحرك من سرقسطة نحو الأندلس أول شعبان سنة ٥١٩ هـ (أيلول = سبتمبر ١١٢٥ م) متقدماً شرقاً في الأندلس نحو الجنوب فاتكاً وهابيكاً ، وخرب في طريقه الزروع وعاد في الأحواز ، حاصر بعض المدن وفشل في اقتحامها أو إخضاعها . حاصر مدينة غرناطة مدة ، سنة ٥٢٠ هـ ، لكنه فشل في النيل منها أو تحقيق شيء من ذلك . استمر في تخريبه حتى وصل مدينة بلش (Velez Malaga) قرب مدينة مالقة (Malaga) على شاطئ الأندلس الجنوبي المتوسطي . رجع إلى أرْغُون وقد أنفق أكثر من سنة . عاد أدراجه بعد ما أصابه الإعياء وعصف به الوباء .

قام المعاهدون النصارى في الكتابة إلى ابن رُدْمِير لمحاجمة الأندلس والتمهيد لحملته والتعاون معه ضد الأندلس ، بالمال والسلاح والرجال والمعلومات . فعلوا ذلك رغم عيشهم فيه وتوفّر كل ما يرغّبون من أمن وحربيّة في أمورهم كافة ، ناقضين للهود البرمة معهم وبهذا الشكل الواضح الفاضح العنيف المكشوف . لذلك تكفل قاضي الجماعة الفقيه أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد (الحد)، الأكبر : قرطبة ، ٤٥٠ - قرطبة ، الحادي عشر من ذي القعدة ٥٢٠ هـ) بالعبور إلى العدوة المغربية ولقاء أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين للتحدث معه في هذا الشأن . أقى القاضي بتغريب النصارى المعاهدين . أشار هناك على الأمير ببناء سور مدينة مراكش « وقدم أبوالوليد بن رشد إلى مراكش على علي بن يوسف ، وأشار عليه ببناء سور مراكش ، وقال له لا يدخل لك سكني هذه المدينة دون سور فبناء وأنفاق في

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ١٠٥/١ - ١٠٦ .

في بنائه نحو سبعين ألف هيكل . «^(١) طلب القاضي كذلك من الأمير علي بن يوسف عزل أخيه أبي الطاهر تميم عن ولاية الأندلس ليتولاها غيره . هذان هما المدفان (التغريب والعزل) من ذهب ابن رشد للمغرب^(٢) .

عاد ابن رشد إلى المغرب حيث توفي بعد أشهر ، وتم أمر التغريب إلى المغرب في رمضان سنة ٥٢٠ هـ . ثم في نفس السنة عُزل أبو الطاهر تميم أو توفي فيها قبل عزله ، ثم تعين تاشفين بن الأمير علي والياً على الأندلس ، نفس السنة أو بعدها ، حسبما يذكر بعد^(٣) .

بيَّن ابن الخطيب (ابن غرناطة مؤرخها وأديبها وزيرها) في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة هذا كله ناقلاً عن عدد من المؤرخين . تحدث فيه عن غير المسلمين في كورة غرناطة ، فيقول : «أَمَلَتِ الْمُعاِدَةُ مِنَ النَّصَارَى لَهُنَّ الْكُورَةَ إِدْرَاكَ الشَّرَّةَ وَأَطْمَعَتِ فِي الْمُلْكَةِ ، فَخَاطَبُوا ابْنَ رُدْمِيرَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْطَارِ ، وَتَوَالَّتْ عَلَيْهِ كُتُبُهُمْ وَتَوَاتَّرَتْ رَسْلُهُمْ ، مُلْمِسَةً بِالْاسْتِدَاعِ ، مُطْسِمَةً فِي دُخُولِ غَرَنَاطَةِ . فَلَمَّا أَبْطَأَ عَنْهُمْ ، وَجَهُوا إِلَيْهِ زِيَادًا يَشْتَمِلُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ الْفَأَلْفَ مِنْ أَنْجَادِ مُقَاتَلِيهِمْ ، لَمْ يَعْدُوا فِيهَا شَيْخًا وَلَا غَرِيرًا ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ مِنْ سَمَوَهُ ، مِنْ شَهْرِ أَعْيُنِهِمْ لِقَرْبِ مَوَاضِعِهِمْ ، وَبِالْبَعْدِ مِنْ يَخْفِي أَمْرُهُ ، وَيَظْهَرُ عِنْدِ وَرَوْدِ شَخْصِهِ ، فَاسْتَأْثَرُوا طَمَعَهُ ، وَابْتَعُثُوا جَشَعَهُ وَاسْتَفْزُوهُ بِأَوْصَافِ غَرَنَاطَةِ ، وَمَا لَهُ مِنِ الْفَضَائِلِ عَلَى سَائِرِ الْبَلَادِ ، وَبِفَحْصِهَا الْأَفْيَحَ ، وَكُثُرَةُ فَوَائِدِهَا مِنِ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالْكَتَانِ ، وَكُثُرَةُ الْمَرَاقِقِ مِنِ الْخَرِيرِ وَالْكَرُومِ وَالْزَيْتُونِ ، وَأَنْوَاعُ الْفَوَاكِهِ ، وَكُثُرَةُ الْعَيْنَ وَالْأَنْهَارِ ، وَمِنْعَةُ قُبْتَهَا وَانْطِبَاعُ رَعِيَّتِهَا ، وَتَأْتِيَ أَهْلُ حَاضِرِهَا ، وَجَمَالُ إِشْرَافِهَا وَإِطْلَاهُهَا ، وَأَنْهَا الْمِبَارَكَةُ الَّتِي يَمْتَلِكُ مِنْهَا غَيْرُهَا ، الْمُسَمَّةُ سَيِّنَامُ الْأَنْدَلُسِ عَنِ الْمُلُوكِ فِي تَوَارِيخِهَا . فَرَمَسُوا حَتَّى أَصَابُوا غَرْبَهُ ، فَانْتَخَبُوا وَاحْشَدُ ، وَتَحرَّكَ أَوْلُ شَعْبَانِ

(١) نظم الجمان ، ١٠٦/٦ - ١٠٧ . كذلك : الحلل الموثبة ، ٧٠ - ٧١ .

(٢) الحلل الموثبة ، ٧١ .

(٣) انظر : أدناه ، ٤٣٦ .

من عام [تسعة^(١)] عشر وخمس مئة ، وقد أخفى مذهبه ، وكتم أربه ، فوافى بلنسية ، ثم إلى مرسيه ، ثم إلى بيرة ، ثم اجتاز بالمنصورة ثم انحدر إلى بُرْشانة ، ثم تلَّوم إلى وادي ناطلة ، ثم تحرك إلى بسْطة ، ثم إلى وادي آش ، فنزل بالقرية المعروفة بالقصر ، وصافح المدينة بالحرب ، ولم يحل بطائل ، فأقام عليها شهراً .

« قال صاحب كتاب الأنوار الجليلة : فبدأ ببحث المعااهدة بغرنطة في استدعائه ، فافتضح تدبيرهم باحتلاله ، وهم أميرها يستخفون بهم ، فأعياهم ذلك ، وجعلوا يتسللون إلى محلته على كل طريق ، وقد أحذقت جيوش المسلمين من أهل العدو والأندلس بغرنطة ، حتى صارت كالدائرة ، وهي في وسطها كالنقطة ، لما أندروا بغرقه . وتحرك من وادي آش فنزل بقرية دِجمة ؛ وصل الناس بغرنطة صلاة الخوف ، يوم عيد النحر من هذه السنة في الأسلحة والأبهة ؛ وبعيد الظهر من غدته ، ظهرت أخيبة الروم بالقِيْل شرق المدينة ، وتولى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجل السواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتولى الجليد ، وأظللت الأمطار . وأقام العدو بمحلته ، بضع عشرة ليلة ، لم تسرح له سارحة ، إلا أن المعااهدة تجلب له الآقواء ؛ ثم ألقع وقد ارتفع طمَّعه عن المدينة ، لأربعينَ من ذي الحجة عام عشرين ، بعد أن تفرَّغ مستدعيه إليها ، وكثيره يُعرف بابن القلاس ، فاحتلوا ببيش وتلَّومه حتى تلاحت قلعة الحيوش ، وأنهم قد وقعوا مع المسلمين في الملة . فرحل عن قرية مُرْسَانة إلى بيش ، ومن الغد إلى السكة من أحواز قلعة يَحْصُب ، ثم اتصل إلى لِدُويانه ، ونَكَبَ إلى قَبْرَة واللَّسانَة ، والجيوش المُسْلِمَة في أذياله . وأقام بقَبْرَة أيامًا ، ثم تحرك إلى بلاد العساكر في أذياله ، وشِيجَة في فَحْض الرَّئِيسُول ، مكافحةً في أثناها ، مناوشةً ، وظهوراً عليه :

« ولما جَنَ الليل ، أمر أميرهم برفع خبائه من وهنَّة كان فيها إلى نَجْدَة ، فساعَت الظُّنُون ، وانْخَلَّ الأمر ، ففرَّ الناس وأسْلَمُوا ، وتهَيَّبَ العدو المَحَلَّة ،

(١) عند ابن الخطيب « خمسة » ، فاملحت .

فلم يدخلها إلا بعد هدأة من الليل واستولى عليها . وتحرك بعد الغد منها إلى جهة الساحل فشق العمامة الآمنة من الإقليم والشّارات . فيقول بعض شيوخ تلك الجهة ، إنه اجتاز بوادي شلُوبانِيَة المُطلَّ الحافَات ، والمُتَحَصَّن المجاز ، وقال بلغته : أيْ قَبْرٍ هذا لو أَفْيَسْنا مَن يَصْبُّ علينا التَّرَاب ، ثُم عَرَج يَمْنَة حَتَّى انتهى إِلَى بَلَشْ ، وأَنْشَأَ بَهَا جَفْنًا صَغِيرًا ، يَصِيدُ لَهْ حَوْنًا ، أَكَلَ مِنْهُ كَأْنَه نَذْرٌ كَانَ عَلَيْهِ ، وَفَى بَهُ ، أَوْ حَدِيثُ أَرَادَ أَنْ يُخْلِدَ عَنْهُ . ثُم عَادَ إِلَى غَرَنَاطَة ، فاضطرب بَهَا مَحْلَتُه بِقَرِيَةِ ذُكَر ، عَلَى ثَلَاثَة فَرَاسِخٍ مِنْهَا قِبْلَةً ، ثُم انتَقَلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمَيْنِ إِلَى قَرِيَةِ هَمْدَان ، وَبَرَزَ بِالْكِتَبِ جَاعِرَ سَطْهَةَ مِنَ الْمَدِينَة ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَسَكِرِ الْمُسْلِمِينَ مُوَاقِعَةً عَظِيمَةً . . .

« . . . وَانْتَقَلَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ إِلَى الْمَرْجَ ، مُضِيَّفًا عَلَيْهِ ، وَالْخَلِيلُ تَحْرِجُهُ ، فَتَرَلْ بَعْنَ أَطْسَةَ ، وَالْجَيْوِشَ مُحْدِقَةَ بَهُ ، وَهُوَ فِي نَهَايَةِ مِنْ كَمالِ التَّعْبَيَةِ ، وَأَخْدَى الْحَذَرِ ، بِحِيثِ لَا تُصَابُ فِيهِ فَرْصَة ؟ ثُم تَحْرَكَ عَلَى الْبَرَاجِيلَاتِ ، إِلَى الْلَّقُوقِ ، إِلَى وَادِي آشَ ، وَقَدْ أَصَيبَ كَثِيرًا مِنْ حَامِيَتِهِ . وَطَوَى الْمَرَاحلَ إِلَى الشَّرْقِ ؛ فَاجْتَازَ إِلَى مُرْسِيَةَ ، إِلَى جَوْفِ شَاطِيَةِ ، وَالْعَسَكِرُ فِي ذَلِكَ نَطَأًا أَذِيَالَهُ ، وَالتَّنَاوِشُ يَسْتَخْطَرُ بَهُ ، وَالْوَبَاءُ يُسْرِعُ إِلَيْهِ ، حَتَّى تَلْقَى بِلَادَهُ ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ إِلَى قَفَاهُ ، مُخْتَرَمًا ، مَفْلُولًا مِنْ غَيْرِ حَرْبِ ، يَكَادُ الْمَوْتُ يَسْتَأْصلُ مَحَلَّتَهُ وَجَمْلَتَهُ .

« وَلَا بَانَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكِيَّةِ جِبَرِانِهِمُ الْمُعَاهِدِينَ ، مَا أَجْلَتْ عَنْهُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ ، أَخْذَهُمُ الْإِرْجَافُ ، وَوَغَرَّتْ لَهُمُ الصَّدُورُ . وَوُجْهُهُ إِلَى مَكَانِهِمُ الْحَزْمُ ، وَوَجْهُ الْقَاضِيِّ أَبُو الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدَ الْأَجْرُ ، وَتَجْشُّمُ الْمَجَازِ ، وَلَحْقُ الْأَمْيَرِ عَلَيِّ بْنِ يُوسُفِ بْنِ تَاشْفِينِ بَحْرَأَكُشِّ ، فَبَيْنَ لَهُ أَمْرُ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا مُنِيتَ بَهُ مِنْ مُعَاهِدَهَا ، وَمَا جَنَّوْهُ عَلَيْهَا مِنْ اسْتِدَاعِ الرُّومِ ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ ، وَالْخَرُوجُ عَنِ الدَّمَّةِ ، وَأَفْتَى بِتَغْرِيبِهِمْ ، وَإِجْلَامِهِمْ عَنِ أُوطَانِهِمْ ، وَهُوَ أَخْفَى مَا يُؤْخَذُ بَهُ مِنْ عَقَابِهِ ؛ وَأَخْذَ بِقَوْلِهِ ، وَنُفِّذَ بِذَلِكَ عَهْدُهُ ، . . . »^(١)

(١) الإحاطة ، ١٠٨/١ . كذلك : البيان المغربي ، ٤/٦٩ - ٧٣ ؛ الحلل الموثبة ، ٦٥-٧١ ؛ « وثائق تاريخية جديدة » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٢٣/٨ - ٧ - ١٢٦ ، ١٦٧ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٠٧/١ - ١١٤ .

ز - وقعة إفراغة

استعد أدقونش (المحارب) ابن رُدمير الأرغوني لحملة جديدة في الأراضي الإسلامية انتهت بهزيمته وتمزيق جيشه حول مدينة إفراغة (Fraga) جنوب غرب لاردة ، في رمضان سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م)^(١).

كانت هذه المعركة من المعارك المهمة ، والجيش الإسلامي مكوناً من الأندلسيين والمرابطين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية ، ويُعتبر من أعظم قادة المرابطين لتلك المدة . وكان جيشه بمجموعه أقل من جيش ابن رُدمير الذي حلّت به وبجيشه الهزيمة بعد قتال عنيف . وعلى إثر هذه المعركة هلك ابن رُدمير ، وساررت أنباؤها في الأندلس والمغرب لتبعث الأمل والسرور وتذكر بأخواتها أمثال الزلاقة وأقليش السابق ذكرهما^(٢).

= الثرة : السعة . زمام : سجل . أنجاد : شجاعان . فحصها الأفيح (لغة) : غراسها الواسع ، وهنا علم : مرج غرانادا المطلة عليه (La Vega Granada) . تلوم : التثبت والتثكك . ثقيفهم : تأديبهم ، أو اعتقالهم . القيل : متصرف النهار . جفن : مركب (أو حربي) . حوت : سلك ، مازالت مستعملة في المغرب بهذا المعنى . تجمّع المجاز : تكلف العبور (عبر مضيق جبل طارق) . كتاب « الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية » تأليف الأديب الكاتب : أبي بكر بن الصيرفي يحيى بن محمد بن يوسف الانصاري (٥٧٠ هـ) . انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١١٠/١ ، ٤٤٣ - ٤٤٤ ؛ أدناه ، ٤٤٧ .

تقع أكثر الأعلام الجغرافية الواردة في النص جنوبي الأندلس ، لا سيما قرب غرانادا والساحل المتوسطي الجنوبي . هذه مقابليها الأسباني: بيرة : Vera . المنصورة : Cuevas de Almanzora . برشانة : Alcazar . Purchena . وادي بسطة : Baza . وادي آش : Guadix . ٥٥٨ ، أدناه ، ٥٥٨ . التصر : Diezma . مرسانة : Maracena . بيش : Beas . قلعة يحصب : Alcala la Real . قبرة : Cabra . اللسانة : Lucena . بلاي : حدائق أجيلار Aguilar . شيبة : Espejo . فحص الرئيسلون : Arinsol . الشارات : الجبال (Sierras) ، ولعلها الشارات (موقع) : Alpujarras . ٥٥٤ ، أدناه ، ٥٥٤ . وادي شلوبانية : Salobreña . هدان : Alhendin .

(١) انظر : نظم الجمان ، ٢٠٧/٦ ، ٢١٨ ؛ بنية الملتمس ، الضبي ، ١٠٥ (رقم : ٢٠٥) ، ٤١٩ (رقم : ١٢٠٦) ؛ أعمال الأعلام ، ٢٥٤/٣ .

(٢) راجع : الروض المطار ، ٢٤ ؛ البيان المغرب ، ٩١/٤ ؛ نظم الجمان ، ٢٠٧/٦ - ٢٢٣ ، ٢١٨ ، ٤٢٥ ، ٤٠٣ ، ١٢٤ - ١٢٠/١ .

ح - إجراءات وأحداث متنوعة

عَيْنَ عَلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ - سَنَةِ ٥٢٢ هـ أَوَّلَتِي بَعْدَهَا^(١) - ابْنَهُ تَاشْفِينَ وَالْيَا
لِلأندلس «فولاه مدينة غرناطة ، والمرية ثم قرطبة مضافة إلى ما بيده .»^(٢) تمت
ولايته قرطبة في نفس السنة أو بعدها بستين^(٣) . وقامت الجيوش المرابطية خلال ذلك
وبعده بنشاط حربي وافر ، خاضوا عدة معارك في مناطق مختلفة من قشتالة وأراغون
وحققوا في كل ذلك نصراً ملحوظاً^(٤) .

في سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) جَهَّزَ مَلِكُ قَشْتَالَةَ جِيشاً ضخماً . وهو
الفونش بن رَمُندْ (ريمونديث) (Alfonso Raimundez) أو الفونسو السابع
(Alfonso VII) ، وتسميه الرواية الأندرسية «الطاغية أذْفُونش بن رَمُندْ
المعروف بالسلطيين»^(٥) ، أي : الملك الصغير . اتجه به صوب بَطْلِيُوسْ ،
وتقدم تاشفين بن علي على رأس قوة عسكرية للقائه . جرت معركة عنيفة قرب سهل
الزلقة الشهير هزم فيها القشتاليون هزيمة منكرة . وفي ذي الحجة من السنة المذكورة
(٥٢٨ هـ) ، اتجه تاشفين بجيشه إلى شمال قرطبة . وضع القشتاليون خطة لاستدراج
المرابطين فانتخبوا مجموعة من فرسانهم فاجأوا المرابطين وقت الظلام فتخلخل
معسكرهم وثبت تاشفين رغم نصيحة البعض له بالنجاة . لكنه أبى قاتلاً : «لَا أُسْلِمُ
وأُسْلِمُ الْأُمَّةَ وَلَا أُبْرِحُ أَوْ تَنْجِلِي عَمَّا اجْلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكُرْبَةَ ، فَأَحْدَقَ بِهِ رَجَالُ مِنْ
أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَفْنَادُهُ مِنْ الْمَرَابِطِينَ ، لَمْ يَلْتَمِ الْجَمْعُ أَرْبَعِينَ ، فَاعْتَرَضُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

(١) البيان المغرب ، ٤/٨٠ ، الإحاطة ، ٤٤٩/١ .

(٢) الإحاطة ، ٤٤٦/١ .

(٣) البيان المغرب ، ٧٩/٤ ، ٨٧ .

(٤) البيان المغرب ، ٧٩/٤ ، ٨٣ - ٨٥ ، ٨٨ - ٤٤٦/١ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ - ٤٥٤ ، عصر
المرابطين والموحدين ، ١٣٢/١ - ١٣٦ .

(٥) الخلة السيراء ، ٢٤٩/٢ . كذلك : نظم الجمان ، ١١٣/٦ ؛ تاريخ المن بالإمامية على المستضفين
بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، عبد الملك بن صاحب الصلاة ، ٣٦٩/٢ ، ٣٧٠ ، ١٢٠ ، ١١٦ ،
الأندلس ، ٣٩٢/٤ ؛ نفح الطيب ، ٨٦/٤ ، ٤٦٣/٤ .

الروم فوق الضرب واشتد الحرب وعظم الخطب ، والأمير تاشفين في درعه متسلحاً بسيفه ، ودرقه بيده ، يشد حملته ، ويبني صفحته ، فلم يُرْ أربط جائماً ولا أشم نفساً^(١) . قُتِلَ قائد القشتاليين ، وانتهت المعركة بهزيمتهم . حدثت هذه الواقعة في مكان يعرف بالبكار (Albacar) على بعد عشرين كم شمال قرطبة^(٢) . كان حلوها عين السنة التي وقعت فيها معركة إفراغة وهزم فيها أدفونش ابن رُدمير (الفونسو الأول المحارب) ملك أرغون ، وبعد ثلاثة شهور منها .

ثم التقى تاشفين بالقشتاليين في عدة مواقع وهزمهم فيها .

في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) عبر تاشفين إلى المغرب حسب أمر والده علي ، حيث عقد له البيعة بولالية العهد سنة ٥٣٣ هـ^(٣) .

٣ - نهاية المرابطين في الأندلس

خلال ذلك ضعف سلطان المرابطين في الأندلس « وفي سنة تسع وثلاثين أخذت دولة الم almshin في الانفاض والانعراض ، فخرج سيف الدولة هذا ثائراً بالشعار الحوفي ، ومنها ورد على قرطبة »^(٤) . جرت أحداث ألحقت بالأندلس الفرار ، منها « الواقعية الكبرى على المسلمين بالموضع المعروف باللّيج وبالبسط – على مقربة من جِنْجَالَة – يوم الجمعة الموافق عشرين لشعبان من سنة أربعين ، وقيل يوم السبت بعده »^(٥) .

انتفعت إسبانيا الشمالية بهذه الحالة ، وتلقت الأندلس عدة هجمات ، كان منها سقوط مدينة المرية – ثغر الأندلس الشرقي وإحدى قواعد أساطيله الكبرى – على يد

(١) البيان المغرب ، ٤ / ٩٠ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٣ / ٢٥٩ .

(٢) انظر كذلك : نظم الجمان ، ٦ / ٢١٥ .

(٣) راجع : الإحاطة ، ١ / ٤٥٣ . عصر المرابطين والموحدين ، ١ / ١٤٦ .

(٤) الحلة السيراء ، ٢ / ٢٥٠ . كذلك : الحلة ، ٢ / ٩٢ – ٩٣ ، ١١٢ ، الذيل والتكملا ، ٥ / ٧١ . أعلاه ، ٣٥٧ – ٣٥٨ .

(٥) الحلة السيراء ، ٢ / ٢٥١ – ٢٥٢ . منطقة أو أقليم البسيط (Albacete) تقع شمال شرق كورة مرسية مع جزء من أقليم المنجي أو المنشا (La Mancha) . منها حصنون مثل : اللّيج وجنجالة (Chinchilla de Monte de Aragon) . الحلة السيراء ، ٢ / ٢٢٣ .

جيوش إسبانيا الشمالية (قشتالة ونَبَارَةٌ وأرْغُونْ وقطلوبية) مع قوات من جنوه وبيزة ومن خلف جبال البرُّت^(١). نظم هذه الحملة ملك قشتالة أدولفونش بن رِمِنْد المُعْرُوف بالسلطانيين (الفنوسو السابع)^(٢).

تقدّمت هذه الجيوش نحو المرية وضربت حواجزها الحصار من البر والبحر لمدة ثلاثة شهور حتّى نفد الطعام وشح الرّاد وتم الاستيلاء عليها فسقطت بأيديهم ودخلوها « يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين وخمس مئة عنزة ». ^(٣) استُشهدَ كثرةً من المسلمين خلال دخولهم كان منهم عالم المرية الرشاطي الإمام المشهور^(٤) (أوريولة ، من أعمال مرسيّة ، ٤٦٦ - المرية ، ٥٤٢ هـ). هو أبو محمد عبد الله الرشاطي^(٥) ، كما أسرّوا الكثير « وأحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً ». ^(٦) بيد أنَّ الموحدين استعادوها بعد عشر سنين ، سنة ٥٥٢ هـ^(٧).

تابعت الحملات الصليبية مدن الثغر الأعلى ، بعد أن سقطت سرقسطة سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، من حصار شهور بجيوش كثيفة قادها أدولفونش بن رُدمير (الفنوسو الأول ، المحارب) ملك أرْغُونْ ، ثم سقوط المرية سنة ٥٤٢ هـ^(٨) . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ٥٤٣ هـ^(٩) (١١٤٨ م) سقطت مدينة طُرطُوشة (Tortosa)

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٣٧١/١ ، ٥٠٨ ؛ تاريخ البحريّة الإسلاميّة في المغرب والأندلس ، ٢٤٩.

(٢) أعلاه ، ٣٥٧ - ٤٣٨ ، ٣٥٨ .

(٣) نفح الطيب ، ٤٦١/٤ . كذلك : التكملة ، ٥٢/١ (رقم : ١٤٧) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٧١/١ .

(٤) المعجم ، ٢٢٨ (رقم : ٢٠٠) ؛ التكملة ، ٥٢/١ ، ١٠٧/٣ .

(٥) نفح الطيب ، ٤٦٢/٤ ؛ تاريخ مدينة المرية الإسلاميّة ، السيد عبد العزيز سالم ، ٩٤ .

(٦) نفح الطيب ، ٤٦٣/٤ .

(٧) البيان المغربي (تطوان) ، ٣٣ ؛ نفح الطيب ، ٤٦٣/٤ ؛ الإحاطة ، ٢٧١ ، ٢٦٥/١ ، ٤ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٧١ ، ٢٤٦/١ ، ٥٠٨ ، ٣٧١ .

(٨) نفح الطيب ، ٤٦٢/٤ ؛ تعليق متقدّم من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، محمد بن أيوب بن غال الأنديسي ، مجلة مهد المخطوطات المرية ، ٢٨٤/٢/١ .

(٩) التكملة ، ٦٤/١ .

بيد قومِس بَرْشَلُونَة رَأَيْ مُنْدَ بْنَ بَلَنْقِيرِ (رامون برنجيير الرابع Ramon Templarios, Templiers, Berenguer IV Templars) وحلفائه الداوية من فرسان الهيكل أو المعبد (Templarios, Templiers) وغيرهم^(١). وذلك بعد دفاع أهلها الباسل للحصار البري والبحري مدة أربعين يوماً.

سقطت لارِدة ، في العام التالي ، وغيرها بخيانة محمد بن سعد بن مَرْدَنِيش^(٢) (رجب ٥٦٧ هـ = ١١٧٢ م) ، المتغلب على بلنسية ومرسية ومناطق شرق الأندلس وغيرها^(٣) ، وصهره إبراهيم بن هَمَشْك^(٤) (بعد ٥٧١ هـ). قبل هذا التاريخ بدأت بوادر الدعوة الموحدية بزعامة محمد بن تُوْمَرْت .

بعد رحيل تاشفين حديث عدة صدامات مع القشتاليين انتصر المرابطون في بعضها . قام كل من القائدين عبد الله بن أبي بكر والي قرطبة ويحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية بقيادة الجيوش . كان محمد بن غانية (أخو يحيى) واليًا على الجزائر الشرقية سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . لبث موالي للمرابطين رغم ظهور دعوة الموحدين . ولما توفي علي بن يوسف بن تاشفين في رجب سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) ، وتولى ابنه تاشفين حكم الدولة المرابطية ، تولى يحيى بن غانية — من قبل تاشفين — قرطبة وما إليها في السنة التالية . بقي يحيى يقود الأعمال الخيرية حتى وفاته سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) . وذهب كثير من جهود المرابطين في المغرب في مقاومة الموحدين .

توفي الأمير المرابطي تاشفين ، أو «أهوى به فرسه من شاهق» كما يقول ابن الخطيب^(٥) ، في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) . تولى الحكم بعده

(١) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ٤٩٤/١ ، ٤٩٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ - ٥٢٠ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٠٠ (الخاشية) . كذلك : الإحاطة ، ١٢٦/٢ ؛ جغرافية الأندلس أوربا ، ٩٦ - ٩٧ .

(٢) الملة السيراء ، ٢٣٢/٢ - ٢٣٣ ؛ التكملة ، ٧٦/١ ؛ الإحاطة ، ١٢١/٢ - ١٢٧ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٥٩/٢ - ٢٦٣ . (٣) عصر المرابطين والموحدين ، ٣٦٥/١ ، ٣٧٠ ، ٥٠٨ ، ٢٦٤ - ٢٦٣/٢ .

(٤) الملة السيراء ، ٢٥٨/٢ ؛ الإحاطة ، ٣٠٣ - ٢٩٦/١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٦٣/٢ - ٢٦٤ .

(٥) البيان المغرب ، ١٠٠/٤ ؛ الإحاطة ، ٤٤٧/١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٥٦/٣ .

(٦) أعمال الأعلام ، ٢٦٤/٣ .

(٧) البيان المغرب ، ٤٠٤/٤ ؛ الإحاطة ، ٤٠٤/١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٦٤/٣ ؛ الملة السيراء ،

ابنه أبو إسحاق إبراهيم ، صغيراً ، وبعد عامين من هذا التاريخ في شوال ٥٤١ هـ (١٤٤٧ م) ، يقتل إبراهيم^(١) . بعد أن ينتهي حكم المرابطين ، ليمر ثة الموحدون في المغرب والأندلس سواء .

يجعل ابن عذاري اسم أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين : إسحاق ، بديلاً^(٢) . لعله وهم الناسخ . لكن رواية تذكر أن إسحاق أخا تاشفين خرج على ابن أخيه إبراهيم بن تاشفين^(٣) ، أو أنهم بايعوا له^(٤) . لذلك فإن الصنفدي يجعل إسحاق (٥٤٢ هـ) آخر أمراء المرابطين^(٥) .

جدول أمراء المرابطين

اصطحب يحيى بن إبراهيم الحدادي

عبد الله بن ياسين الجزوئي من القير وان سنة ٤٤٠ هـ أو بعدها .

فكانت الدعوة ، وانضم إليها :

(١) يحيى بن عمر . تولى الأمر بعده سنة ٤٤٦ (أو بعدها) أخوه :

(٢) أبو بكر بن عمر . فأوكل هذا الأمر إلى :

(٣) يوسف بن تاشفين (٤٦٣ - محرم ٥٠٠ هـ)

أبو بكر سير ، ولد العهد ، أبو إسحاق إبراهيم بن تعيشت ^(٤) (٤٦٣ - محرم ٥٠٠ هـ)	أبو الطاهر تميم قائد	أبو عبد الله
توفي بسبعين اثناء أحداث	قائد وقمة قتندة	محمد بن عائشة
(٥١٤ هـ)	- رجب	أقليش ^(٥)
تولى الأندلس	وقمة	الزلقة (٤٧٩ هـ)
(٥٣٧ هـ)		

أبو محمد سير	(٥) تاشفين (رمضان ٥٣٧ - ٢٦٤/١ هـ)	(٦) إسحاق (٥٤٢ هـ)
--------------	-----------------------------------	--------------------

(٦) أبو إسحاق إبراهيم (شوال ٥٤١ هـ)

(١) أعمال الأعلام ، ٢٦٥/٣ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢٦٤/١ - ٢٦٥ .

(٢) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٢ - ٢٣ . راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ٢٦٤/١ - ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ، ١٠٥/٤ . (٤) أعمال الأعلام ، ٢٦٥/٣ .

(٥) الباقي بالوفيات ، ٤١٨/٨ .

ثانيًا : نتائج التعاون بين المرابطين وأهل الأندلس

يمكن التعرف - من الفقرة الأولى السابقة ، المتعلقة بجهاد المرابطين في الأندلس - على نتائج وأهمية هذا الجهاد في معاونة المرابطين لإخوانهم الأندلسيين ، وقد استغرق هذا التعاون كثيراً من طاقة الدولة المرابطية . دعواها لبذل الجهود المتوافرة المتتابعة ، في الرجال والمال وإمكانيات الدولة الأخرى ، بكل صدق وإخلاص واهتمام . تسببت هذه التضحيات والبذل والجهد تكليف الدولة وتقديم طاقتها وإنفاق قوتها . مما أدى - وبسبب عوامل أخرى - إلى عدم استطاعتها النهوض بالعبء والاستمرار في أداء الواجب ، فدلت^(١) . كان ضعفها ثم سقوطها سبباً واضح الأثر في إلحاق الضرر بالأندلس وضياع العديد من مدنه ، حتى قيس الله دولة الموحدين ل تقوم بنفس المكان : الدافع في كل ذلك حماية الإسلام وأهله ودولته في الأندلس ، قاموا به جهاداً في سبيل الله من غير ابتغاء لسلطان أو استحصال رقاع من الأرض أو ذكر عليها ، بل استجابة لواجب الدين ونصرة لإخوانهم .

الأحداث التي خاض المرابطون غمارها بكل صدق وجدية وبذل خلال أيام أمرائهم كافة ، تدل بكفاية على سلامه هذا الكلام وتؤكده . يستوي في ذلك تعاونهم مع الأندلسيين قبل انضواء الأندلس تحت سلطانهم ، كما في الزلاقة ، أو بعده . تم هذا الانضواء بدعة من الأندلسيين وإلحاحهم ومن كافة المستويات ، وبعد فشل ملوك الطوائف المهزول في حماية الأندلس من الأخطر الخارجية ، كان انضواء الأندلس تحت سلطانهم نتيجة لجهودهم وجهادهم في حمايتها ، واستمرت الأندلس منصوبة تحت سلطان المرابطين حوالي نصف قرن ، بذلوا خلاله كل ما وسعته طاقتهم وملكته أيديهم .

أظهر جهادهم في الأندلس متانة بنائهم وصدق وجه دعوتهم التي قامت عليها دولتهم ، « وأنها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس بفقهه » على حد تعبير ابن الخطيب

(١) قارن : تاريخ مدينة المريدة الإسلامية ، ٩٠ .

في كتابه **أعمال الأعلام**^(١). هكذا « كانت دولتهم دولة خير وجهاد وعافية ، وأكثر الدول جريأاً على السنة ، رحمة الله عليهم . »^(٢)

ظهرت للمرابطين في الأندلس بطولات ومواقف باهرة . استعملوا خلال
جهادهم خير قادتهم ورجالاتهم الذين أبلوا أحسن البلاء . كانت الأندلس ميدانًا
ظهرت فيه طاقاتهم ، جنوداً وقادة وولاة وأمراء . أزالوا العصبيات وزعاماتها المحلية
المتصارعة التي توزعت الأندلس ، وكانت ربما ستودي بها . أبانت خطورة مثل
هذه الفرقـة - ذات الجذور الجاهلية - وما للاتفاق من ضرورة يصيب الأمة بغيبته
أشد الأضرار وتحدق بها الأخطار ، وقد ينادي بها نكير الزوال . اراد الله تعالى ، حماية
لتلك الأمة ورعايتها لما يكمن في نفسها من صفات الخير والولاء للإسلام ، أن يهياً منَّ
يصون الدين ويحمي بيضته ، فكان المرابطون . وَجَدَتِ الأندلس في المرابطين المنقذ
المخلص وعنوان الأخوة الصادقة في الدين ، وسيضطلع بإتمام هذا الواجب من بعدهم
الْمُوَحَّدُونَ ثُمَّ بُنُوْمَرَّيْنَ .

لكن استمرار أسباب الضعف ، وصلت بمرور الزمن ، إلى مرحلة عجزت الأندلس عن حماية نفسها . استطاع إليها الوهن ، فقضى الله سبحانه وتعالى بذلك . فهل ستبقى «الفردوس المفقود» ، أم ستعود وتكون الفردوس المردود؟

كان الذي مرّ بعض نتائج هذا التعاون ، كما كان منه رد العدو المترصد وكفّأه
أذاه بعد المعارك العنيفة التي خاضوها معه وكتبّدوه فيها الخسائر ، وحموا الأندلس
من شروره . تبيّنت – خلال هذا الصراع – صفات وخلق لدى المسلمين الأندلسيين ،
من النجدة والنخوة ، كانت قد ضمرت بفعل بعض العوامل . ساعد المرابطون – في
هذا الجو – في إظهاره أو ظهوره ، مشيرًا متسمًا بصفحة علوّة وضاعة .

كانت الأحوال التي سبقت هذا التعاون — منذ الزلاقة — منذرة بالهلاك وبالفقدان الذي لاحت ببرادره مروعة بسقوط مدينة طبلطة سنة ٤٧٨ هـ « وحسْنِكَ هَا فجعةً »

(١) أعمال الأعلام ، ٢٤٣/٢ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٤٥/٢ .

٢) أعمال الأعلام ، ٢٦٥/٣

وأعظم بها مصيبة ^(١) . توجهت أنظار الأندلس إلى إخوانهم في الضفة الأخرى للغرب الإسلامي في عدوة المغرب « فحذقت إلى سمتِه العيون ، وصرفت إليه الوجه ، ثم ارتفع إليه الصراخ ، ثم أعملت الإشارات ، ثم مدت الأيدي ، إلى أن كان من تنفس المحن بمجاورة ملك لم تُمْتَنَّة ما كان ، فانتعشت ببرهة وأقامت مدة . فسبحان من يقول : * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا نُرْجِعُونَ * ^(٢) » ^(٣) كان تعاون المرابطين بداية المهمة في بذل الجهد لحفظ الأندلس – قرornaً أربعة أخرى – والتي ورثَ الاضطلاع بها بعدهم إخوانهم المؤدون وبنو مرين .

ثالثاً : الأحوال العامة

حرص الأمراء المرابطون ورجال دولتهم على التزام خط الدعوة الإسلامية ، والقيم التي قامت عليها دولتهم ، وعلى أخذ الناس بالحق والعدل . اتسم الحكم المرابطي بالصدق والولاء للإسلام ، وحملهم هذا على نصرة إخوانهم الأندلسيين وتتكلفوا من أجله الكثير . بذلوه برضى وسرور ، يعملون لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ، وابتغاء مرضاته . ملئت أيام المرابطين بأعمال الجهاد في الميدان العسكري في الأندلس ، وفي الميادين الأخرى . دينهم هذا الصدق في الإيمان بالإسلام والبذل لخدمته والسعى وراء تطبيقه وإشاعته ، ليس فقط في سُوح الحرب بل في جوانب الحياة الأخرى . ظهرت هذه المعاني في المجتمع بصورة أكثر وأوسع ، ترعاها الدولة وتحميها . عمَّ الأمان والطمأنينة وكثُرَ الخير والنعمـة وساد العدل وانتشر العلم ونمـت الدراسات المتنوعة . فالعلم والمعرفة ثمرة لابد منها لكل أرض يحل فيها الإسلام .

يحدثنا عن المرابطين القاضي أبو بكر بن العربي الشيبيلي (اشبيلية ، ٤٦٨ – فاس ، ٥٤٣) فيقول : « المرابطون قاموا بدعاوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين

(١) أعمال الأعلام ، ٢٤٢/٢ .

(٢) الآية ٤٠ من سورة مرث .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢٤٣/٢ .

الذابون والمجاهدون دونهم^(١) . جاء في روض القرطاس لابن أبي زرع : « كانت ملتوة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصححة مذهب ، ملکوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العُدوة ، إلى جبال الذهب من بلاد السودان . لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه ، معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضره ، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر . وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، . . . ، كان ذلك مصطحبًا بطول أيامهم ، ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقيس ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية ، حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الحيرات في دولتهم ، وعمرت البلد ، ووقدت الغبطة ، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمس مئة^(٢) . هذا الوصف — دون شك — يشمل الأندلس كذلك . يقول صاحب الحلل الموثبة حين الحديث عن يوسف بن تاشفين : « أقامت بلاد الأندلس في مده سعيدة جميلة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال^(٣) » وكان من أهل الخبر والاقتداء^(٤) .

من طريف الأمثلة المشرقة ما ذكره المقري في فتح الطيب أنه لما كتب الأمير يوسف بن تاشفين إلى أهل المرية المساهمة في معونة الجihad رفض قاضيها الفقيه أبو عبد الله بن الفراء (المستشهد في موقعة قُتندة سنة ٥١٤ هـ)^(٥) . ذلك في كتابه إلى الأمير ، ما لم يخلف أمام الناس في جامع مرَاكُش أن ليس لديه في بيت المال درهم ينفقه ، أسوة بما فعل الخليفة عمر بن الخطاب « ولما كتب أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين إلى أهل المرية يطلب منهم المعونة جاوبه بكتابه المشهور الذي يقول فيه :

(١) الحلل الموثبة ، ١٠٥ .

(٢) نقل عن : عصر المرابطين والموحدين ، ٤٢٥/١ . كذلك : الاستقصا ، ٧٣/٢ .

(٣) الحلل الموثبة ، ٥٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٢/٢ .

(٥) أعلاه ، ٤٢٩ .

فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء الموعنة وتأخره عن ذلك ، وأن الباقي وجميع القضاة والفقهاء بالعُدُوَّة والأندلس أفتواً بأن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصريحه في قبره ، ولا يُشك في عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بتصريحه في قبره ، ولامن لا يُشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمتراته في العدل فالله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر رضي الله تعالى عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحدٍ في بيت مال المسلمين يُنفعه عليهم ، فتدخل المسجد الجامع هنالك بمحضهٍ من أهل العلم وتحلّف أن ليس عنده درهم واحدٍ ولا في بيت مال المسلمين ، وحيثند تستوجب ذلك ، والسلام^(١) .

هذا الوصف لا يختص به يوسف بن تاشفين ، بل يذكر المؤرخون أمثلة لأمراء المرابطين الآخرين ، سواء ابنه علي أو تاشفين بن علي . تحدث عنهم ابن الصيرفي أحد كتاب الدولة المرابطية المتوفى بغرناطة سنة ٥٧٠ هـ . وله كتاب عن الدولة المرابطية فُقِدَ ، هو : *الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية* . ينقل ابن الخطيب ما قاله ابن الصيرفي عن تاشفين في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة فيقول بأنه « كان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيبة ، سالكاً ناموس الشريعة ، مائلاً إلى طريقة المستقيمين ، . . . ، أحبي الناس ، خواصهم وعوامهم ، وحسن سياسته فيهم ، وسدَّ الشُّغور ، وأذكى على العدو العيون ، وآثر الجندي ، ولم يكن منه إلا الجد ، ولم تزل عنده الحُظُوة إلا بالعناء والتجدة . وبذلك حمل على الجندي ، وقد الأسلحة ، وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة ، وأركبهم ، وأقام همتهم للاعتناء بالغور ومبادرة الحرب ، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو ولم ينهض إلا ظاهراً ولا صدر إلا ظافراً . وملك الملك ومهد بالحزم . وتملك نفوس الرعية بالعدل ، وقلوب الجندي بالصفة ، . . . ، وما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار ، وقيام

(١) نفح الطيب ، ٣٨٦ / ٣ - ٣٨٧ . كذلك : وفيات الأعيان ، ١١٩ / ٧ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٢ / ١ ؛ تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ٩٠ .

الليل ، وتلاوة القرآن وإخفاء الصدقة ، وإنشاء العدل ، وإثارة الحق . »^(١) وما نقل ابن الخطيب عن آخرين – حين الحديث عن ولاية تاشفين للأندلس – قوله : « فقوى الحصون وسدّ الثغور وأذكى العيون ، وعمد إلى رحبة القصر ، فأقام بها السقائف والبيوت ، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال ، وضرب السهام ؛ وأنشأ السقى ، وعمل التراس ، ونسج الدُّورع ، وصقل البيضات والسيوف ، وارتبط الخيل ، وأقام المساجد في الثغور ، وبني لنفسه مسجدًا بالقصر ، وواصل الجلوس ، للنظر في الظُّلَامات ، وقراءة الرِّقَاع ، وردَّ الجواب ؛ وكتب التوقعات ، وأكرم الفقهاء والطلبة ، وكان له يوم كل جمعة ، يتفرغ فيه للمناظرة . »^(٢)

أخذت خدمات المصلحة العامة – في مثل هذا الجو – مكانها الواضح ، فلا يصح مجتمع مسلم إلا بذلك . وهل الجهاد في سبيل الله ولنصرة دينه وحماية أتباعه إلا صورة رائعة وإشارة ساطعة لهذا ؟ والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

كان للأندلس قائد أعلى ، وهو – غالباً – الحاكم العام ، وللمدن قادة آخرون خاضعون للقائد الأعلى . هؤلاء جميعاً يضطلعون بمهام العسكرية والإدارية والاهتمام بجوانب الإصلاح الأخرى^(٣) .

كانت سياستهم العادلة تدعوي إلى أن يعاقب الوالي ويُعزل إذا قصر أو أهمل أو أساء السيرة ، ولدينا على ذلك أمثلة . من ذلك أن وانور بن بكر والي الجزائر الشرقية أيام علي بن يوسف أراد إجبار الناس على ترك ثغر ميورقة وإنشاء مدينة داخل الجزيرة بعيدة عن البحر . الظاهر لغرض عسكري بعد ما أصاب الجزيرة من هجوم أسطبل من جنوة وبizza . لكن أهل الجزيرة رفضوا ذلك ، وربما أساء الوالي السيرة بعده ، فثار به الناس ، وقبضوا عليه وصفدوه بالأغلال وبعثوا للأمير علي يخبرونه بذلك ، فاستجاب علي ، وعيّن محمد بن غانية (وهو أخو يحيى بن غانية والي الأندلس)

(١) الإحاطة ، ٤٤٩ - ٤٤٨/١ . كذلك : البيان المغرب ، ٧٩/٤ - ٨٠ .

(٢) الإحاطة ، ٤٥٠ - ٤٤٩/١ .

(٣) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ٤١٨ ، ٧٢/١ ، ٤٣١ .

والياً جديداً على الجزائر الشرقية سنة ٥٢٠ هـ . أقر الوالي الجديد أهل الجزيرة على ذلك وبعث الوالي السابق إلى مراكش ، لينظر في أمره^(١) .

كان اختيار الوالي على أساس مكانته وتقواه وعدالته وعلمه وفهمه لهمته . إذا أظهر تقصيره أو عدم كفايته ، غير أو نقل إلى مكان آخر يصلح له ، أو يعزل . كان التأكيد والتوصية بحسن السيرة والرفق بالناس أمراً أساسياً ، سواء بالنسبة لحاكم الدولة المرابطية أو للولاة والحكام المحليين . وهو ما أوصى به يوسف ابنه علياً^(٢) . على ذلك أيضاً يكون اختياراً ولـيـ العـهـدـ ، كما فعل على حين تعيـنـ ابنـهـ تـاشـفـينـ لـوـلـاـيـةـ العـهـدـ^(٣) .

كانت الأندلس أيام المرابطين مقسّمة إلى ست ولايات هي : إشبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وبلننسية ، ومُرسِية ، وسرقسطة التي سقطت سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) . كانت قرطبة هي العاصمة في باديء الأمر ، ثم انتقلت - في أوائل عهد علي بن يوسف - إلى غرناطة ، ثم في أواخر أيامه عادت إلى قرطبة^(٤) . كان هؤلاء الولاية والقادة من المرابطين بصورة رئيسية . بقي القضاء مستقلاً يتولى الأندلسيون مناصبه ، وكان للقضاء مكانتهم عند الناس وعند الدولة ، يستشارون ويُؤخذ برأهم ، وحين ذهب القاضي أبو الوليد بن رشد الجد (الأكبر) إلى مراكش يعرض على الأمير علي رأياً أخذ به^(٥) .

ونظراً لتلك الظروف كان الطابع العسكري واضحاً في تنظيمات الدولة ، وفي كثير من إجراءاتها . استندت الناحية العسكرية والحماية والدفاع المجهود الكبير . لم تبخل الدولة المرابطية عليها بشيء من الرجال والمال ، وتمثل الأمراء في الاهتمام بذلك . عُرف المرابطون بشدة بأسمهم في الحرب وثباتهم في ميادينه ، لهم نظام

(١) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١٥٣/١ . كذلك : ١١٥/١ .

(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ٥٨/١ .

(٣) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١٤٧/١ .

(٤) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ٦٠/١ ، ١٤٤ ، ٤١٥ .

(٥) أعلاه ، ٤٣٤ - ٤٣٣ .

خاص في الحروب ، كما اهتموا بالأساطيل^(١) وتحصين المدن^(٢) . استمرت صناعة الأندلس أيام المرابطين في كل ميدان ، سواء في الصناعات الحربية أو المدنية المتنوعة والعمارية . يذكر الإدريسي حين الحديث عن المرية : « ومدينة المرية كانت في أيام المُلْكَمْ مدينة الإسلام ، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة ، وذلك أنه كان بها من طُرُزِ الحرير ٨٠٠ طراز ، يعمل بها الخلل والديباج والسلالطن والأصبغاني والحرجاني ، والستور المكملة والثياب المعينة ، والخُمُر والعَتَابي ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير ، وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد ، إلى سائر الصناعات ، ما لا يحده ولا يُكَيِّفَ »^(٣) .

هكذا في كل ميدان وضعوا خير الرجال الأكفاء . نجد في الأندلس أيام الدولة المرابطية حشدًا من الأفداد . كان بعض رجال الدولة في بلاط مراكش هم أيضًا من الأندلسيين ، أمثال : عبد الرحمن بن أسباط ، وهو أندلسي من مدينة المريدة ، وقد عمل كاتبًا ليوسف بن تاشفين قبل عبوره الأول إلى الأندلس وخوض الزلاقة ؛ وأبو بكر بن القصيرة ؛ وأبو بكر عبد العزيز البطليوسي ، المعروف بابن القبيطورة ؛ وابن عبَّادُون ؛ وأبو عبد الله بن أبي الخصال^(٤) .

أما الناحية الفكرية والإنتاج العلمي فقد نما العلم في المغرب ، ومن المنشآت العلمية
جامع ابن يوسف بمراكش الذي بناه الأمير علي بن يوسف وغدا جامعة كبيرة .
شارك الأمير علي نفسه في البناء ، «يحمل الأحجار بيده إلى البناء وكان صائعاً في
تلك المدة كلها »

استمرت الحركة العلمية في الأندلس نحو مسيرةٍ إلى حدٍ كبيرٍ . ظهر العلماء في كل فن من الرجال والنساء . إلى جانب من ذكر فيما سبق يشار إلى : ابن بسام

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٤١٧/١ - ٤٢٠ .

(٢) تاريخ مدينة المريّة ، ٩١ ، ١٤٣ .

(٣) صفة الأندلس، (من نزهة المشتاق)، ١٩٧ (= الحلل السنديّة، ١/١١٨). كذلك: فتح الطيب،

١٨٤ / ١٦٣ ؛ الروض المعطار ،

(٤) الاحاطة ، ٣٨٨ / ٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/ ٢٤٣ - ٢٤٤ ، ٤١٧ .

الشتربي (٥٤٢ هـ) ، صاحب كتاب *الذخيرة في محسن أهل الجزيرة* . منهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحِجَاري صاحب كتاب *المُسْهِب في فضائل المَغْرِب* ، وأصله من وادي الحِجَارة ؛ والعلامة أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال (٥٧٨ هـ) صاحب كتاب *الصلة* ، وبلغت تصانيفه حوالي الخمسين ؛ وأبو الحسن بن أصْحَى (المرية ، ٤٧٢ - غرناطة ، ٥٣٩ هـ) القاضي الفقيه الأديب^(١) ؛ وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد من أسرةبني سعيد ، أمراء قلعة يَحْصُب التابعة لغرناطة ، ومنهم مؤلفو كتاب *المُغْرِب في حُلَّى المَغْرِب* ؛ وأبوبكر بن قُزْمَان أمير الزجل الأندلسي ؛ وأبوعلي الصَّدَّاقِي الحافظ العلامة والقاضي ؛ وأبوبكر بن العربي ؛ والقاضي أبوالوليد محمد بن أحمد بن رُشد (الحدّ) ، قاضي الجماعة بقرطبة ؛ وأبوبكر محمد بن يحيى بن الصائغ المشهور بابن باجه ، الذي نبغ في الرياضيات والفلك والفلسفة ؛ وعلى بن عبد الرحمن الخزرجي من طليطلة ، وهو من أشهر الأطباء . كذلك العلامة الطبيب والفلكي أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ؛ وبعض أفراد بني زُهْر ، الذين ظهروا في الأدب والطب^(٢) .

هكذا كانت الأحوال العامة للأندلس أيام المرابطين في مختلف نواحيها ، وفي المصادر التي أشير إليها تفصيلات ومناقشات حول هذا الموضوع .

(١) المغرب في حل المغرب ، ١٠٨/٢ ؛ الخلقة السيراء ، ٢١١/٢ ؛ الذيل والتكملة ، ٢٧٠/٥ .

(٢) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١ ، ٤٤٨/١ - ٤٧٣ .



الفصل السابع

رَسْكُهُ دُلْمُوكُوكُوكِين
الاستعاض الثاني

(١١٤٥ هـ - ١٢٣٠ م)

- أولاً : الموحّدون وجهادهم في الأندلس .
- ثانياً : توحيد الأندلس وأهم الأحداث .
- ثالثاً : السمات العامة .

أولاً : المُوحِّدون وَجَهَـاـدُـهـمـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ

١ - المُوحِّدون

ظهر الضعف في الدولة المرابطية أواخر أيامها ، نتيجة لأكثر من عامل . كان منها طول وعنف الصراع لدفع عدوان إسبانيا الشمالية ومن عاونها من الدول الأوروبية ، فكلفها ذلك الكثير ، في حين بدت آثار العوامل الأخرى . رغم هذا ، ومهما اعتبرنا أهميته ، فلا يبدو أنه السبب الوحيد . لو كانت أمور الدولة والمجتمع تقوم كافتها بنفس القوة على الاستمداد من الإسلام ، لتغيرت نتائج هذا الجهاد إلى عوامل صفاء وبهاء وتجليلة وتقوية .

كان ظهور القوى الموحدية الجديدة في المغرب وما جرى بينهما قد حَمَلَ المرابطين الكثير واستهلك من قواهم ، ومثل هذا سبب لهم في الأندلس قيام بعض المواجهات^(١) ضدّ المرابطين ، ونكوص نفر منهم عن التعاون معهم وفيما بينهم . مهما يكن فإن الدولة المرابطية لم تكن قوية في هذا الوقت كما كانت لأسباب .

كان ضعف الروح الإسلامية العالية عند البعض عاماً كبيراً ، بدأ أثراً . وبسبب انتصاف عدد من العلماء في المغرب بدراساتهم إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبى وفروعه . قاد ذلك إلى شيء من قلة العناية بمصادر الشريعة الإسلامية : القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة (قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فعله وتقريره) . ظهرت بعض الأفكار مُعْتَمَدة النقاء ، تُكَدَّرُ صفاء العقيدة الإسلامية ، وتخالف الفهم الإسلامي السليم . هذه الوجهة تثير العلماء المخلصين وتدعوهم إلى التصحّح .

(١) راجع : الحلقة السيراء ، ١٩٧/٢ - ٢٣٣ - ٢٥٠ ، ٢٥٢ - ٢٥٤ ، ٢٤٨/٢ ، ٢٦٥ ، ٣٤١ ؛ البيان المغرب ، ١٠٥/٤ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٢٤ (نص ابن الكردبوس) ؛ المعجب ، ٩٥ - ٩٠ . تاريخ مدينة المدية الإسلامية ،

قامت جماعة تدافع عن هذا الفهم الواضح وتدعى إلى الصفاء بياز الله كل ما يشوبه مما لا ينسجم بالإسلام . اعتبرت القائلين بهذه الشوائب مخالفة للإسلام وبعيدة عن صفاء التوحيد . دعت هذه الجماعة إلى الفهم النقي والتوحيد الخالص وصفاء العقيدة ، أطلقت على نفسها اسم « **المُوحِّدون** » ، يرفضون كل ما يسيء إلى عقيدة التوحيد . كل هذه الأمور دعت الموحدين إلى تصحيح في الفهم الإسلامي والعودة بال المسلمين إلى القرآن والسنّة ، وتجديده قوى الأمة على هذه الأساس^(١) . لكن هل كان من الضروري – بسبب ذلك – اللجوء إلى حرب المرابطين وإنهاء دولتهم وتشتيت جماعتهم ؟

الرَّعِيمُ الْأَوَّلُ لِلْمُوَحِّدِينَ هو أبو عبد الله المهدي محمد بن تُومَرْت (٤٨٥ - ٥٢٤ هـ) . ينتمي إلى قبيلة هَرَغَةٍ مِنْ مَضْمُودَةٍ (البرانس) ، التي تسكن منطقة السوس ، جنوب المغرب .

يظهر أن ولادة ابن تُومَرْت سبقت هذا التاريخ (٤٨٥ هـ) عدة أعوام لاسيما وقد رحل في طلب العلم إلى الأندلس قبل تمام القرن الخامس ، إذ « جاز البحر إلى الأندلس طالباً للعلم ، ووصل قرطبة . ثم مشى من قُرطبة إلى المريّة ، فدخل منها في مركب إلى المشرق ، وغاب في رحلته في طلب العلم خمسة عشر عاماً . »^(٣) ورحلته المشرقة في بداية القرن السادس الهجري « كانت في السنة الأولى من المائة السادسة أو في التي قبلها »^(٤) .

رحل ابن تُومَرْت إلى الشرق الإسلامي بداية القرن السادس الهجري . التقى بالعلماء وتلقى عنهم^(٥) . ذُكر منهم كذلك : أبو حامد الغزالى^(٦) (طوس ،

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٣/٢ .

(٢) وفيات الأعيان ، ٥٣/٥ .

(٣) نظم الجان ، ٤/٦ .

(٤) نفس المصدر . راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١٥٨/١ .

(٥) المعجب ، ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ الحلل الموثقة ، ٧٥ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٦/٥ .

(٦) أعمال الأعلام ، ٢٦٦/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ٥/٤٦ ؛ البر ، الذهبي ، ٤/٤٨٥ . قارن : عصر المرابطين ، ١٦١/١ - ١٦٤ .

٤٥٠ - طوس ، ٥٠٥ هـ) . منذ عاد إلى الشمال الافريقي بدأ دعوة الناس إلى التمسك بالدين وتطبيقه ونبذ كل فهم لا يرتضيه الإسلام . كان قد التحق به عبد المؤمن بن علي الكومي ، بنواحي تلمسان (الجزائر) ، الذي غدا من رجاله المعتمدين . نشأت الدولة الموحدية في المغرب بعد أن امتلكت مكان الدولة المرابطية . كانت الدولة الموحدية ثمرة الدعوة التي بدأها ابن تومرت في إقليم السوس سنة ٥١٥ هـ أو قبلها^(١) . ثم وقعت الحرب بينه وبين المرابطين اتخذت الشكل المسلح . حين توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ^(٢) أوصى بالأمر من بعده لعبد المؤمن ، الذي أتفق سنوات في حرب المرابطين . دخل الموحدون مدينة فاس سنة ٥٤٠ هـ ومدينة مراكش في السنة التالية ، حيث اتخذوها أياً عاصمة لهم .

٢ - جهادهم في الأندلس

ورث الموحدون دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، ووصلت دولتهم مستوى عالياً من القوة . وشيدت للفضائل صرحاً وأسهمت في الاستمرار بالعلم والثقافة . وحرست الحضارة الإسلامية في بقاعها وحمت كيان الإسلام في الأندلس .

لما تناول أمر المرابطين في الأندلس أقبلت الوفود الأندلسية المتعددة إلى المغرب تدعو عبد المؤمن إلى الأندلس وتستنصره للجهاد فيه . من وفد على عبد المؤمن (وهو بمراكنش) القاضي أبو بكر ابن العربي محمد بن عبد الله بن محمد الأشبيلي (ashbili) ، ثمان بقين من شعبان ٤٦٨ - فاس ، ربيع الآخر ٥٤٣ هـ) ، على رأس مجموعة كبيرة من علماء إشبيلية لتقديم بيعتها إلى الموحدين ، سنة ٥٤٢ هـ^(٣) . ومن مآثر هذا القاضي الكثيرة أنه هو الذي شارك بماله لإصلاح سور إشبيلية^(٤) ، حين

(١) أعمال الأعلام ، ٣/٣ - ٢٦٩ ؛ وفيات الأعيان ، ٥/٥ - ٤ العبر ، النهبي ، ٤/٣٢ ، ٦١ .

(٢) نظم الجان ، ٦/١٢٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٣/٢٧٠ - ٢٧٠ العبر ، النهبي ، ٤/٥٧ .

(٣) راجع : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أبو الحسن الباهي ، ١٠٦ ؛ نفح الطيب ، ٢/٣٠ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٢٦٧ ، ٣٢٥ ، ٤٥٦ . راجع في ترجمته كذلك : الصلة ، ٥٩٠ (رقم : ١٢٩٧) ؛ العبر ، النهبي ، ٤/١٢٥ ؛ مقدمة ابن خلدون ، ٢/٧٥٢ ؛ وفيات الأعيان ، ٤/٢٩٦ .

(٤) نظم الجان ، ٦/٢٠٧ ؛ نفح الطيب ، ٢/٢٧ ؛ العواسم من القواسم ، ٢٦ - ٢٧ (المقدمة) ، =

توليه قضاءها^(١) (٥٢٨ هـ) .

كان أول جيش أرسله الموحدون إلى الأندلس سنة ٥٤١ هـ ، لإزالة ما بقي فيها للمرابطين من سلطان^(٢) . ثم خضعت مناطق أخرى للموحدين . لما استقر الأمر لهم في المغرب ، أولى عبد المؤمن اهتماماً أكثر بالأندلس . عزم على العبور إليها ليشارك بنفسه في ترتيب أمورها . كتب إلى الأندلس ليستروا مدينة في جبل طارق . تم ذلك ، بعد أن حشد ابنه أبو يعقوب يوسف الامكانيات اللازمة من المهندسين والعمال . كمل بناء المدينة في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، بعد أن استمر العمل بها شهوراً . في نفس هذا الشهر عبر عبد المؤمن إلى جبل طارق . كان يوم عبوره مشهوداً يصفه لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة في كتابه : *المن*^٣ بالإمامية على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين^(٣) . أطلق على الجبل اسم « جبل الفتح »^(٤) .

عاد عبد المؤمن إلى المغرب ، بعد أن أمضى مدة يرعى أحوال الأندلس وينظم شؤونها ، ووفر حامية قوية من الموحدين والأندلسيين . من الأمور التي اهتم بها الموحدون توفير قوة دفاعية كافية للأندلس . جعلت غرناطة مرتكزاً دفاعياً قوياً حشدت لها الامكانيات ، كما نقلت العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة سنة ٥٥٧ هـ ، التي اعتبرت مستقرأً للجيوش الموحدية . ثم بدأ الخليفة عبد المؤمن يتجهز لرد عدو ان إسبانيا الشمالية على الأندلس . جهز جيشاً ضخماً وسار به من مرَاكُش العاصمة إلى مدينة الربّاط (رباط الفتح) ، حيث بدأ إنشاؤها سنة ٥٤٥ هـ^(٥) . بنيت مدينة كبيرة

= ١٣٧ - ١٣٨ ؛ تاريخ المغاربة والجغرافيين في الأندلس ، ٤٠٢-٤٠١ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٤٠ ، ١١٥/١ .

(١) نظم الجمآن ، ٢٠٧/٦ ؛ البيان المغرب ، ٥٨/٤ ، ٩٤-٩٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٩/٢ ؛ أزهار الرياض ، ٦٤/٣ ؛ العواصم من القواسم ، ٢٥ (المقدمة) ، ١٣٨-١٣٧ . قارن : المربقة المليا ، ١٠٦ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٥٦/١ .

(٢) الحلة السيراء ، ١٩٩/٢ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٢٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٢٧/١ .

(٣) *المن* بالإمامية ، ١٤٧/٢ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٣٨٠/١ - ٣٨٢ ؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ٢٩٣ .

(٤) الروض المطار ، ١٢١ ؛ أعلاه ، ٤٩ . (٥) *المن* بالإمامية ، ٤٤٩-٤٤٦/٢ ؛ المعجب ، ٣٤١ .

أيام الخليفة أبي يعقوب يوسف وأتمها ابنه المنصور . لكن عبد المؤمن مرض المرض الذي توفي فيه ، اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو = مايو ١١٦٣ م) ، بعد حكم دام أكثر من ٣٣ سنة ، حيث تولى الحكم بعد وفاة ابن تُوْمَرَتْ في ٢٥ رمضان ٥٢٤ هـ^(١) .

أنى المؤرخون على عبد المؤمن وأشاروا بصفاته وباهر أعماله وعالياً ما ثرّه واهتمامه بالجهاد . يقول الحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه العبر إنه « كان ملكاً عادلاً سائساً عظيم الهمة علي الهمة كثير المحسن متين الديانة قليل المثل . كان يقرأ كل يوم سبعاً ، ويختبئ لبس الحرير ، ويصوم يوم الاثنين والخميس ، وبهتم بالجهاد والنظر في الأمور كأنما خلق للملك ». ^(٢)

بويع لابنه أبي يعقوب يوسف ، وهو في مدينة سلا (قرب الرباط) ، فأصدر أمراً إلى الجيوش بالانصراف إلى بلادها حتى يتخذ قراراً جديداً . عاد هو والخاشية والأشياخ وأصحاب الشأن إلى العاصمة مراكش .

في سنة ٥٦٠ هـ عبرت حملة عسكرية إلى الأندلس لتعزيز دفاعات بعض المناطق الأندلسية ضد إسبانيا الشمالية . كما حدث صدام مع محمد بن سعد بن مردّنيش - ومركيه مُرسِيَّة - الذي كان له صلات مودة مع عدد من ملوك إسبانيا الشمالية . بلغ عدد المرتزقة النصارى في جيشه - في لقائه مع الموحدين - ما يقرب من ١٣ ألف مقاتل . حارب الموحدون ، بعد أن تعاهدوا على الثبات والاستشهاد في سبيل الله .

يعتبر ابن مردّنيش هذا من الشخصيات التي تتصف بشيء من القلق . من هذا الطراز معاونه وصهره ابراهيم بن هَمْشُنك الذي كانت صفات القلق أظهرت عليه .

تم النصر للموحدين في هذه المعركة التي عرفت بـ (فحْص الحلَّاب) على بعد ١٢ كم جنوب مُرسِيَّة ، وتوفي ابن مردّنيش بعد ذلك^(٣) .

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٩٤/١ - ٢٩٥ .

(٢) العبر ، ١٦٥/٤ .

(٣) انظر : الحلقة السيراء ، ٢٥٨/٢ - ٢٦٠ ؛ المن بالإمام ، ٢٧٢/٢ - ٢٧٣ ؛ الإحاطة ، ٢٩٦/١ - ٢٩٦/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٦٢/٢ - ١٨٣ .

اهم الموحدون بعد ذلك بتنظيم احوال الأندلس في مختلف النواحي . كتب الخليفة إلى الأندلس يأمر المسؤولين فيها بالعناية بالبلاد ، والاهتمام بأمور الرعية وأن تكون الأحكام جارية على سنن العدل ، وأن تُرفع أحكام الإعدام إليه مُدَوَّن فيها الشروح وتقييد الشهود والعلول مع تدوين حجج المظلومين . أما الجرائم الأخرى فلا بد من التدقيق فيها ، وكذلك في سائر المعاملات . أوصى بتقوى الله في السر والجهر وخيفته والجري على سنته ، وحث على العمل بكل ذلك « من إفاضة العدل ، وبسط الدعوة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعيَّن ، وسنته الواضح المبين إن شاء الله تعالى »^(١) .

خلال هذه الأحداث كانت عدواً نات ملك البرتغال تجد الفرصة السانحة لهاجمة أراضي الأندلس واحتلال بعضها . ملك البرتغال هذا^(٢) هو الفونسو انريكيث (AlFonso Enriquez) ، الذي تعرفه الرواية الإسلامية وتصفه بصاحب قُلْمُوريَّة (قُلْمُوريَّة)^(٣) أو قُلْنُبِيرَة^(٤) (قُلْنُبِيرَة) (Coimbra) ، وتسميه « ابن الرِّيق »^(٥) أو « ابن الرِّنْق »^(٦) أو « ابن الرِّنْك »^(٧) . كانت البرتغال حديثة الانفصال عن قشتالة وليون ، إذ أعلن هذا الملك استقلال البرتغال سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨ م) أو بعدها^(٨) . لضعف امكانياته – حين أراد الاستيلاء على أشْبُونَة (لشبونة) (Lisboa,Lisbon) – استنجد بالقوات الصليبية ، المتوجهة إلى المشرق من الانجلiz والألمان والمولنديين . بذلك أمكنَه – بعد حصار طويـل – الاستيلاء على المدينة ،

(١) المن بالإمامـة ، ٣٠٦/٢ - ٣٠٧/٢ . (٢) أعمال الأعلام ، ٣٣٦/٢ - ٣٣٧/٢ .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢٥١/٢ ؛ الإحاطة ، ٥٢٢/١ .

(٤) الحلـة السـيرـاء ، ٢٠٠/٢ .

(٥) المن بالإمامـة ، ١٥٢/٢ ؛ الحلـة السـيرـاء ، ٢٠٠/٢ ؛ المـعـجـب ، ٣٣٠ ، ٣٥٦ ، ٣٣٣ ، ٤٠٠ ، ٤٥٣ ؛ الذـيلـ والتـكـملـة ، ١٨٧/١ .

(٦) الذـيلـ والتـكـملـة ، ١٩١/١٥ ؛ أعمالـ الأـعلامـ ، ٢٥١/٢ ؛ الإـحـاطـةـ ، ٥٢٢/١ ؛ الـروـضـ المـعـطـارـ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٦١ .

(٧) المن بالإمامـة ، ٢١٩/٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، ٥٢٦ .

(٨) المن بالإمامـة ، ١٥٢/٢ ؛ الإـحـاطـةـ ، ٥٢٢/١ ؛ الحلـةـ السـيرـاءـ ، ٢٠٠/٢ ؛ عـصـرـ المـراـبـطـينـ وـالـموـحدـينـ ، ٥٢٨/١ ، ٦٠٩/٢ .

واستباختها سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . ثم استولى على مدينة شنترين (Santarem) واستولى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) على ثغر منيع يعرف بـ «قصر الفتح أو قصر أبي دانيس» (Alcacer do Sal) نسبة إلى بانيه أبي دانيس^(١) ، على بعد ٩٤ كم جنوب شرق مدينة أشبونة^(٢) .

تلت ذلك سلسلة جديدة من الاعتداءات قام بها مغامر برتغالي ، بقوات كانت تابعة له . تطلق الرواية الإسلامية عليه اسم «العلج جراندُه الحليقي»^(٣) (Geraldo Sem Pavor el Gallego)^(٤) . تذكرنا هذه الشخصية برُذْريق القنبي طُور^(٥) . استولى جراندُه غدرًا على بعض مدن غرب الأندلس^(٦) .

وقدت بعض الأحداث وأرسل الموحدون قوات عسكرية إلى الأندلس . قامت عدة اتصالات بين الموحدين وبعض حكام إسبانيا الشمالية أدت إلى عقد معاهدة صلح مع فرَانْدُه (فرِذِلنْدُه) (الثاني) (Fernando II de Leon) ملك ليون ، الذي خرق المعاهدة وهاجم الأراضي الأندلسية سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . قامت القوات الإسلامية (الموحدية والأندلسية) بهاجمة إحدى القواعد العسكرية لفرَانْدُه (الثاني) ، وهي : Ciudad Rodrigo de Leon : مدينة لُذْريق الليوني . تُسمى الرواية الإسلامية هذه المدينة (السُّبْطَاط) . كما تعرف فرَانْدُه (الثاني) هذا أيضًا باسم : البابُوج ، وهو تحريف الكلمة القشتالية (El Baboso) ، أي : الكثير اللعاب ، أو الأحمق^(٧) .

(١) جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ٥٠١ .

Andalusian diplomatic relations, 162

(٢) راجع : الحلة السيراء ، ٢٧٢/٢ .

المن بالإمامية ، ٣٧٢/٢ ، ٥٢٦ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٢٨/٣ .

Manual de historia de Espana, I, 652

(٤)

(٥) أعلاه ، ٣٦٩ وبعدها .

(٦) المن بالإمامية ، ٣٧٢/٢ - ٣٧٤ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٧٨/٣ - ٧٩ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢٦/٢ - ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ .

(٧) راجع : المعجب ، ٤٠٠ ، ٤٥٣ ؛ المن بالإمامية ، ٢١٩/٢ - ٢٢٠ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٩٧ ، ٣١/٢ .

كان الخليفة أبو يعقوب قد عبر إلى الأندلس سنة ٥٦٦ هـ بجيش ، جند من الشمال الإفريقي ، للقيام بأعمال الجهاد في الأندلس . قام مع جيش الأندلس بأعمال حربية في عدد من مناطق الأندلس ، لم يَجُنْ من ورائها ما كان يتَّنَظِرُ من النصر . استمر الخليفة يدير هذه الأعمال مدة خمسة أعوام ، فعاد إلى العاصمة مراكش سنة ٥٧١ هـ . تلت ذلك هجمات شَنَّها عدد من ملوك إسبانيا النصرانية . قام الموحدون برد هذا العدوان وخاضوا معارك سنة ٥٧٨ هـ – قرب طَلَبَيْرَة – مع القشتاليين وملكيهم الفونش (الثامن^(١)) . عبر الخليفة أبو يعقوب سنة ٥٨٠ هـ بجيش آخر ، اتجه صوب مدينة شَنْتَرِين (Santarem) شمال شرق لشبونة ، ونازلاها في عدة معارك موقعة لكن الخليفة أمر بالانسحاب فجأة قبل افتتاحها ، ثم أصيب الخليفة في المعركة وتوفي بعد قليل ، في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (تُوز = يوليو ١١٨٤ م) . بويع بالخلافة ، ولي عهده وأكبر أبنائه ، أبو يوسف يعقوب الذي لُقِّبَ – فيما بعد – بالمنصور ، ثم رحل الخليفة إلى مراكش . بعد أحداث جرت في الشمال الإفريقي بدأ يُعد العدة لمواصلة أعمال الجهاد في الأندلس . جهز جيشاً لهذا الغرض واتجه به صوب الأندلس سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) .

جرت خلال ذلك في الأندلس أحداث ، حيث أن ملك البرتغال ابن الريّق (الفونسو انكريكيث) توفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وخلفه ابنه شَانْجَهُ (Sancho I) الذي بدأ يشن الغارات على الأندلس منذ سنة ٥٨٥ هـ . ساعدته على ذلك ظروف المغرب ، إذ انشغل الخليفة المنصور الموحدى بإقرارها . فضلاً عن الإمدادات الصليبية المتوجهة إلى الشرق لنجدتها الجيوش الصليبية هناك . حيث خسرت مواقعها وكان سقوط دولتها باسترداد بيت المقدس من قبل المجاهدين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

استطاع شَانْجَهُ (الأول) احتلال مدينة شِلْب الأندلسية ، بمساعدة السفن الصليبية التي تحمل آلاف المقاتلة . لم يكن ذلك ليتم بسهولة ، بل إن المدينة ، بعد ضرب الحصار حولها والقيام بمحاولات عديدة لاقتحامها ، ثبتت بقوة . وحين

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٩٢/٢ ، ٩٧ ، ١٠٤ .

استطاع المهاجمون قطع الماء عن المدينة اضطرت لطلب التسليم من شانجُهُ^(١) (الأول) ، بينما رفض حلفاؤه الصليبيون ذلك . رغبوا بقتل أهلها المسلمين جميعاً لكنه أقنعهم بالاكتفاء بأسلاب المدينة بعد أن يتركها لهم أهلها بكل مافيها . هكذا دخلوا المدينة — بعد حصار دام ثلاثة شهور — سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م)^(٢) .

كان عبور الجيش الموحدي للأندلس بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٨٦ هـ لرد العتدين واستعادة مدينة شِلْب . قام بنشاط عسكري في عدة مناطق ، إلا أنه لم يسترد المدينة . عاد من هذا النشاط إلى إشبيلية للاستعداد وتنظيم شؤون البلاد . ثم جهز جيشاً كثيفاً لإعادة الكرة . خرج من إشبيلية في ربيع الآخرة سنة ٥٨٧ هـ (نisan = ابريل ١١٩١ م) ، متوجهاً نحو الشمال الغربي . استعاد قصر الفتح (قصر أبي دَانِس) ، جنوب شرق لشبونة ، ثم مدينة شِلْب^(٣) . عاد بعدها إلى إشبيلية . أنفق مدة يشرف بنفسه على تنظيمات الأندلس المدنية والعسكرية . توجهَ إلى مراكش في رمضان من نفس السنة^(٤) .

و عند وفاة الفونش بن رَمُنْد (الفونسو السابع ، المدعو عندهم : الإمبراطور) ، السُّلْطَنُين ملك قشتالة (١٣ ربجب ٥٥٢ = ٢١ آب ١١٥٧ م)^(٥) خلفه ابنه شانجُهُ (الثالث) في حكم قشتالة وابنه فِرَانْدُهُ في حكم ليون . ولما توفي شانجُهُ (الثالث) في العام التالي ورثه طفله الصغير الذي غدا — فيما بعد — حاكماً قشتالة باسم : الفُونش : الْهُنْشَهَ بن شانجُهُ بن الْهُنْشَهَ ، إنبرذور^(٦) (الفونسو الثامن ، ولقبه النبيل Alfonso VIII, el Noble) . جرت أحداث بينه وبين الأندلس بقيادة الموحدين ، عُقدت بعدها مُعااهدة بين الطرفين سنة ٥٨٦ هـ ، ومدتها خمس سنين^(٧) أو أكثر .

(١) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١٨٩ - ١٧٠ / ٢ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ٣٥٦ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٨٦ / ٣ - ١٨٩ . قارن : الذيل والتكميل ، ١٩١ / ٥ ؛ الحلقة السيراء ، ٢٧٢ / ٢ - ٢٧٣ .

(٣) عصر المرابطين والموحدين ، ١٨٦ / ٢ - ١٨٩ .

(٤) المن بالإمامية ، ٣٦٩ / ٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٥١٢ / ١ .

Manual de historia de Espana I , 637 .

(٥) الإحاطة ، ٣٨٣ / ١ . (٦) وفيات الأعيان ، ٤ / ٧ .

حين انتهت المذنة المعقودة مع الفونش (الثامن) ملك قشتالة - سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) - بدأ بهاجمة الأندلس والعيث فيها . أعدّ الموحدون حملة للتوجه إلى الأندلس . تم العبور إليها في جُمَادَى الْآخِرَة سنة ٥٩١ هـ (حزيران = يونيو ١١٩٥ م) بقيادة الخليفة الموحدي نفسه ، متوجهًا إلى إشبيلية العاصمة . اتجه للقاء جموع الفونش (الثامن) في مكان المعركة (الأَرْك) التي حملت اسمه سنة ٥٩١ هـ . هزمت جيوش الفونش ، كما سيأتي تفصيله ، بعد^(١) . قام الجيش الإسلامي بجولات حرية أخرى ، كما قام الخليفة الموحدي والمسؤولون بإنجازات أخرى تتعلق بأمور الأندلس وتنظيمها وإقرار أحواها وببعض الاصلاحات والإنشاءات العمرانية ؛ ثم عاد إلى مَرَّاكُش سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م) .

في السنة التالية توفي الخليفة المنصور ، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله . لما عاد الفونش (الثامن) إلى عدوانه على الأندلس تجهز الناصر وعبر إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) . التقى الناصر بالفونش (الثامن) عند حصن العِقَاب سنة ٦٠٩ هـ . كانت معه جيوش صليبية من عدد من دول أوروبا ، التي تولى البابا أنو صان (أنو سنت الثالث Innocent III) تشجيعها على المشاركة في حرب المسلمين في الأندلس . انتهى اللقاء بهزيمة جيش الناصر وتشتت قوة الموحدين^(٢) . ثم عاد الناصر إلى مَرَّاكُش حيث توفي سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) ، ربما كمدًا من نتيجة العِقَاب التي عُدَّت نذيرًا بانحلال الدولة الموحدية وأنهيارها .

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله . عقد معايدة سلم مع قشتالة بعد وفاة ملوكها الفُونش (الثامن) . لكن الأندلس خسرت بهذه المذلة بعض القواعد . منها قصر الفتح (قصر أبي دَانِس) في شهر ربيع سنة ٦١٤ هـ^(٣) بيد ملك البرتغال الفُونش (الثالث) ، بمساعدة اسطول الصليبيين الألمان – الذي كان متوجهًا إلى الشرق – بعد مقاومة وقتل مريض أبداه حصن قصر أبي دَانِس .

(١) أدناه ، ٤٨٤ وبعدها .

(٢) عصر المرابطين ، ٢٨٨/٢ وبعدها ؛ أوربا المصوّر الوسطى ، عاشر ، ١ - ٥٤٩ .

(٣) الروض المطار ، ١٦١ .

جرت أحداث « فقد فيها آلاف من المسلمين ، بتخاذل رؤسائهم يوم التقى الجماع ، وهي إحدى الكوارث المندرة حينئذ بما آلت إليه أمر الأندلس الآن ». كما يقول ابن الأبار (٦٥٨ هـ) في الحلقة السيراء^(١) .

لما لم يكن هناك أمل باستمرار دفاع المدينة (قصر أبي دانيس) أمام ضغط الجيوش الكثيفة عرض أهلها التسليم « على أن يُسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يُسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . . . ودخل النصارى مدينة القصر أو قصر أبي دانيس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالصياغ المجاورة ، من المسلمين . »^(٢)

من استُشهد من العلماء في هذه الواقعة أبو بكر محمد بن عبد النور من أهل إشبيلية ، « وكان من أهل المعرفة والعناية بالرواية ، كثير السماع ، وتصدر بيده لقراء القرآن ، وإسماع الحديث . وكان يصره مع الفضل والصلاح والتواضع والزهد ، واستُشهد في وقعة قصر أبي دانيس بغرب الأندلس في أحدى شهرى ربيع سنة ٦١٤ . »^(٣) « وكان كثيراً ما يحضر الغزوات ويبلي فيها البلاء الحسن ، نفعه الله [وجدد الرحمة عليه .] »^(٤)

لكن هذا الخليفة الفتى (يوسف المستنصر) توفي فجأة ، دون عقب ، في مراراً كُش سنة ٦٢٠ هـ (١٢٤٠ م) . خلفه أبو محمد عبد الواحد (المخلوع) بن الخليفة أبي يعقوب يوسف ، عم أبي الخليفة المستنصر . خُلِّع عبدُ الواحد بعد ذلك بأشهر ، حيث ثمت مبايعة أبي محمد عبد الله الملقب بالعادل ، ابن الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور . تلته بيعة أخيه أبي العلاء (العلوي) الملقب بالمؤمن ، ثم بيعة ابنه أبي محمد الملقب بالرشيد (٦٤٠ هـ)^(٥) .

(١) الحلقة السيراء ، ٢٩٥/٢ . كذلك : الحلقة ، ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٣٤٠ - ٣٢٩/٢ .

(٣) التكملة ، ٥٩٦/٢ (رقم : ١٥٧٧) .

(٤) الذيل والتكملة ، ٤١٢/٦ (رقم : ١١١٢) . الزيادة من برنامج شيخ الرعيني ، أبو الحسن الرعيني ، ١٨ .

(٥) راجع : المعجب ، ٤١٩ - ٤٠٣ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٠ - ٢٦٥/٢ ؛ الإحاطة ، ١/٤١، ٤٠٩ .

جدول أمراء الموحدين

- (١) محمد بن تُومَرْت (٥٢٤ هـ) الملقب بالمهدي ، مؤسس الدعوة الموحدية (٥١٤ هـ)
ثم الدولة . تولى الحكم بعده معاونه :
- (٢) أبو محمد عبد المؤمن بن علي الكُوِمي (تاجرة ، ٤٩٠ : ٥٢٤ هـ - سَلَا، ٥٥٨ هـ)
عند وفاته توارثه أبناؤه :
- أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ هـ - رجب ٥٨٠ هـ) (٣)
-
- | | |
|--|--|
| (٤) أبو يوسف يعقوب (المنصور)
(٦٢١ هـ - ذو الحجة ٦٢٠ هـ) | (٧) أبو محمد عبد الواحد (المخلوع)
(٥٩٥ هـ - صفر ٥٨٠ هـ) |
|--|--|
-
- | | |
|--|---|
| (٥) أبو عبد الله محمد (الناصر)
(٦٢٤ هـ - شوال ٦٢١ هـ) | (٨) أبو محمد عبد الله (العادل)
(٦٢٠ هـ - شعبان ٥٩٥ هـ) |
|--|---|
-
- | | |
|--|--|
| (٩) أبو العلاء ادريس (المأمون)
(٦٢٩ هـ - ذو الحجة ٥٩٤ هـ) | (٦) يوسف (المستنصر)
(٦٢٠ هـ - ٦١٠ هـ) |
|--|--|
-
- | | |
|---|--|
| (١٠) أبو محمد عبد الواحد
(الرشيد) (٦٤٠ هـ) | |
|---|--|

قائمة ملوك قشتالة حتى قيام غرناطة^(١)

- الفونش السابع (Alfonso Raimundez) بن رِمْنَد
البرُّجُوني (السلُّيُطِين ، الإمبراطور) (١١٥٧ = ٥٥٢ هـ)
-
- | | |
|---|---|
| (١) شَانْجَهُ الثَّالِث (أَكْبَرُهُما)
(١١٨٨ = ٥٨٤ هـ) | فِرَانْدُهُ الثَّانِي (البَبُوج)
(١١٥٨ = ٥٥٣ هـ) |
|---|---|
-
- | | |
|---|--|
| (٢) الفونش الثامن (النبييل) (١٢١٤ = ٦١١ هـ) | |
|---|--|

(١) انظر : أعلاه ، ٣٢٩ .

الفونش التاسع بن البيروج (٦٢٨ = ١٢٣٠ م) ، حكم ليون

(٣) فِرَانْدُهُ الثالث (٦٥٠ = ١٢٥٢ م)

حكم قشتالة وأضيفت إليه ليون بعد أبيه

(٤) الفونش العاشر (العالم) (٦٨١ = ١٢٨٢ م)

قائمة حكام أرغون

(١) شانجيه بن رُدْمير (٥٤٨٧ = ١٠٩٤ م)

(Sancho Ramírez)

(٢) الفونش الأول (المحارب)

(٥٢٨ = ١١٣٤ م)

(٣) رُدْمير الراهب

(اعتل ٥٣١ = ١١٣٧ م)

ينتقل حكم أرغون إلى :

(٤) رَمْنُد بن بَلَنْقِير الرابع

(٥٥٨ = ١١٦٢ م)

(Ramón Berenguer IV)

حكم برشلونة وغيرها

(٥) الفونش الثاني (٥٩٣ = ١١٩٦ م)

(٦) بِطْرُهُ الثاني (الكاثوليكي)

(٦١٠ = ١٢١٣ م)

(٧) جَائِيمِيش الأول (الغازي)

(٦٧٥ = ١٢٧٦ م)

قائمة حكام البرتغال

الفونش (ابن الريّق ، ابن الرنّق ،

ابن الرنّك : Alfonso Enriquez

(٥٨١ = ١١٨٥ م)

شانجيه الأول (٦٠٨ = ١٢١١ م)

الفونش الثاني (٦٢٠ = ١٢٢٣ م)

الفونش الثالث

شانجيه الثاني

٣ - الحالة العامة

هذه الأحوال، وما صاحبها أيضاً من التبدل السريع للخلفاء ، أباحت فرصة ملوك إسبانيا الشمالية للاعتماد على الأراضي الأندلسية واقطاع بعض الحصون والمدن . قام ملك قشتالة فردناند (الثالث) (Fernando III) بقسط وافر في هذا الأمر . وأمام ضعف السلطة الموحدية في المحافظة على الدولة في المغرب والأندلس ، ظهرت زعامات محلية استقلت في أماكنها بالغرب .

أ - المغرب

مهادت تلك الأحوال في المغرب (المغرب الكبير = الشمال الإفريقي) لظهور دولة .

ففي المغرب الأقصى ظهرت دولة بنو مرين . إحدى قبائل زناته ، وله دور بطيء في معركة الأرك (Alarcos) مع يعقوب المنصور . كان زعيمهم - يوم بدأت تظهر قوتهم في تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى - الأمير عبد الحق بن محيو الم توف سنة ٦١٤ هـ^(١) . استمرت هذه الدولة حوالي ثلاثة قرون . لها مجهود واضح في معاونة مملكة غرناطة للوقوف ثابتة في وجه عدوانات إسبانيا الشمالية . اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم ، ثم تحولوا إلى مدينة مراكش .

استقل بنوزيَّان ، من بنى عبد الواد ، في المغرب الأوسط (الجزائر) . أعلن زعيمهم يَغْمُرَاسِن (يَغْمُرَاسِن ، يَغْمُرَاسِن) بن زَيَّان بن ثابت استقلالهم في تلمسان سنة ٦٣٣ هـ^(٢) . استمرت دولتهم حوالي ثلاثة قرون .

استقل بنو حَفْص في المغرب الأدنى (تونس) . أقاموا دولتهم هناك بزعامة عبو (عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حَفْص) ، حوالي سنة ٦٢٣ هـ^(٣) . استمرت دولتهم ما يزيد على القرن .

(١) العبر ، ابن خلدون ، ٣٤٩/٧ ؛ الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرinية ، علي بن أبي زرع الفاسي ، ٣٠ ؛ روضة النسرين في دولة بنو مرين ، أبو الوليد اسماعيل بن الأحرار ، ١٤ ؛ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٦/٣ .

(٢) العبر ، ١٥٤/٧ ، ١٦٢ وبعدها .

(٣) العبر ، ٥٩١/٦ .

ب - الأندلس

جرت أحداث مهمة في الأندلس ، سواء في داخل شبه الجزيرة الأندلسية أو في الجزائر الشرقية التابعة لها . جرى في الجزائر الشرقية مما أصاب الأندلس .

سقوط الجزائر الشرقية

في يوم الاثنين ١٤ صفر سنة ٦٢٧ هـ (أول كانون الثاني = يناير ١٢٣٠ م) سقطت جزيرة مَيُورُقَة^(١) (Mallorca) كبرى الجزائر الشرقية ، وقادتها (العاصمة) مدينة مَيُورُقَة^(٢) ، بيد جيوش متحدة من مملكة آرْغُون (رَغُون) وملكيها « الطاغية جَائِمِش بن بُطْرُهُ بن جَائِمِش »^(٣) (Jaime I) ، ومن فرنسا وإيطاليا . أمعنا في أهلها سفكًا ، رافقين المصالحة غير الحرية في استسلامها^(٤) .

سمى المؤرخون الأندلسيون سقوط مَيُورُقَة « الحادثة العظمى من قِبَل الروم على مَيُورُقَة »^(٥) أو « الحادثة الشنعاء على أهل مَيُورُقَة »^(٦) أو « كاثنة » . للقاضي أبي المُطَرَّفِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ أَحْمَدِ بْنِ عَمِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ (جزيرة شُقَّر) ، قرب بلنسية ، ٥٨٢ - تونس ، ٦٥٨ هـ^(٧) « تأليف في كاثنة مَيُورُقَة وتأليب الروم عليها »^(٨) . أبو المُطَرَّفِ ابن عَمِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ غير كَنِيَّةٍ

(١) التكملة ، ١٥٦ - ١٥٥ / ١ (رقم : ٤٠٠) ، ٦٢٤ / ٢ (رقم : ١٦٢٩) ؛ الحلقة السيراء ، ٣١٨ / ٢ ؛ اختصار القديح المعل ، ابن سعيد الأندلسي ، ٢٨ ؛ الذيل والتكملة ، ١٢ / ٥ (رقم : ١١) ، ١٨٣ ، ٣٦٤ (رقم : ٧ / ٦) ، ٦٥٨ (رقم : ٥) ، ١٠٦٠ (رقم : ٢٧٧) ؛ نفح الطيب ، ٤٦٩ / ٤ .

(٢) المغرب ، ٤٦٦ / ٢ .

(٣) الإحاطة ، ٣٨٣ / ١ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٤٠٨ - ٤٠٢ / ٢ .

(٥) التكملة ، ٦٢٤ / ٢ (ورقم : ١٦٢٩) . كذلك : التكملة ، ١ / ١ (رقم : ٤٥١) .

(٦) الذيل والتكملة ، ٦ / ١٧٤ (رقم : ٤٧٠) .

(٧) عنوان الدراء ، أبو العباس الغربي ، ٣٠١ (رقم : ٩٢) ؛ اختصار القديح المعل ، ٤٢ ؛ نفح الطيب ، ٣٢١ - ٣٠٥ / ١ .

(٨) الذيل والتكملة ، ١ / ١٧٦ (ترجمة ابن عيارة المخزومي ، رقم : ٢٣١) ؛ نفح الطيب ، ٣١٤ / ١ . كذلك : الإحاطة ، ١٧٨ / ١ .

وسمّيه وبأبيه أبي جعفر أحمد بن عميرة الضبي (مرسية ، ٥٩٩ هـ)^(١) ، صاحب كتاب بُغْيَةِ الْمُلْتَمِسِ في تاريخ رجال أهل الأندلس ، الذي « توفي : بمُرْسِيَّة شهيداً ، سقط عليه هدم فأخْرَج منه وبه رَمَقَ فَنِيَّ بسرعة . وذلك ظهر يوم الأحد الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمس مئة ، ودفن عصري يوم الاثنين بعده ، بمسجده إزاء جنته التي وقع حائطها عليه . وكانت جنازته مشهودة . وهو ابن بضع وأربعين سنة ». ^(٢) للضبي هذا قريب هو أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى الضبي (٥٧٧ هـ)^(٣) .

ينقل المقرري في نفح الطيب ملخصاً من كتاب ابن عميرة المخزومي المفقود فيقول : « ولما رأى ابن سيري أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى الباية ، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ، ولما كان يوم الأحد أخذ البلد ، وأخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قُتلوا على دم واحد ، وأخذ الوالي وعدّب ، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً ، ومات تحت العذاب »^(٤) . أما صاحب الروض المطار فيقول عن هذه الكائنة : « إن الطاغية البراشلوني تحرك إلى ميورقة عازماً عليها ، فنزل عليها أسطوله في شوال سنة ٦٢٦ ، فأرماها من القتال وشدة الحصار وأنواع المحن مالم يَجْزِي مثله في زمان ، وحكم عليها عُنُوتةً بعد طول الحصار والقتل والسيء ، ثم أخذ إليها ابن يحيى فعذبه أشد العذاب حتى مات ، واستولى الشرك على الجزيرة في عام ٦٢٧ ». ^(٥)

من استشهد ، في هذه الكائنة من أهل ميورقة : أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن هارون العبدري ، الذي « كان مُقْرَنًا مُجَوَّدًا مشاركاً في العربية ، تصدر لإقراء القرآن وتدریس النحو ، وخطب بجامع بلده نحو عشرين سنة ، واستشهد رحمة الله في تغلب الروم عليه يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع

(١) التكلمة ، ٩٣/١ - ٩٤ (رقم : ٢٤٢) .

(٢) التكلمة ، ٩٤/١ .

(٣) التكلمة ، ٧٩/١ - ٨٠ (رقم : ٢١١) ؛ نفح الطيب ، ٦٠١/٢ .

(٤) نفح الطيب ، ٤٧٠/٤ - ٤٧١ .

(٥) الروض المطار ، ١٩ . كذلك : الروض ، ١٨٥ ؛ المغرب في حل المغرب ، ٤٦٧ - ٤٧٠ .

وعشرين وست مئة .^(١) كذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الله البكري « كان شاعرًا بلغاً كاتبًا متكلماً حسنـ الصحابة ، استشهد بميورقة عند تغلب الروم وقيامهم في قصبتها على أهل البلد .^(٢)

أما جزيرة الياپسة (Ibiza) ، صغرى الجزر الـ الشرقية الثلاث ، فسقطت بعد آخرها الكبـرى بـسنوات قليلة^(٣) .

لكن جزيرة منورقة (Menorca) لم تسقط إلا بعد حوالي ستين سنة ؛ سقطت سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) . دخلها الجيش الأرـغـوني وأجلـوا المسلمين عنها . غادرها حاكمها أبو عمر حـكـم بن سعيد بن حـكـم مع أهله حـامـلاً رـمةً أبيه ! ؟ أبي عثمان سعيد بن حـكـم (٦٠١ - ٦٨٠ هـ)^(٤) ، متوجـهاً إلى الأندلس .

يحدثنا عن كائنة منورقة هذه ابن الخطيب في أعمال الأعلام ويدرك حـاكـمـها سعيداً وابنهـ أبا عمر حـكـماً : « فانصرفـ أطمـاعـ العـدوـ البرـجـلـونـيـ المجـاورـ لـشـغـرـهـ إـلـىـ تـمـلـكـهـ ؟ فـقـمـ لـهـ ذـلـكـ ، وـنـفـذـ قـدـرـ اللـهـ فـيـهـ ، سـنـةـ ٦٨٦ـ . فـاسـتـولـىـ عـلـىـ الـجـزـيرـةـ ، وـأـجـلـىـ عـنـهـ الـمـسـلـمـينـ . وـلـقـأـبـوـ عـمـرـ بـسـبـبـةـ ، وـقـدـ رـفـعـ إـلـيـهـ رـمـةـ أـبـيهـ ، بـعـدـ أـنـ كـانـ قـدـ نـزـلـ بـالـمـرـيـةـ . وـوـصـلـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ وـأـقـامـ بـهـ إـيـامـ تـحـتـ جـرـاـيـةـ أـمـيرـهـ . وـحـدـثـيـ مـنـ رـآـهـ وـرـوـىـ عـنـهـ مـنـ شـيـوخـنـاـ أـنـ كـانـ رـجـلـ قـوـيـ السـمـتـ وـالـهـدـيـ ، جـمـيلـ الرـوـاءـ ، عـظـيمـ الـوـقـارـ وـالـتـوـدـدـ .^(٥) »

ُمـعـرـايـاتـ الـجـزـيرـةـ الـأـنـدـلـسـيـةـ

كـانـتـ الـحـالـةـ فـيـ دـاخـلـ شـبـهـ الـجـزـيرـةـ الـأـنـدـلـسـيـةـ مـمـاثـلـةـ فـيـ هـذـهـ النـاحـيـةـ ، حـيثـ ظـهـرـتـ زـعـامـاتـ مـحـلـيـةـ أـدـدـتـ إـلـىـ قـيـامـ مـلـكـةـ غـرـنـاطـةـ بـزـعـامـةـ بـنـيـ الـأـحـمـرـ .

(١) الذيل والتـكـملـةـ ، ١٢/١٥ (رقمـ : ١١) .

(٢) الذيل والتـكـملـةـ ، ٣٢٧/٦٦ (رقمـ : ٨٤٨) .

(٣) المـنـرـبـ ، ٤٧٠/٢ ؛ عـصـرـ الـمـراـبـطـينـ وـالـمـوـحـدـينـ ، ٤٠٨/٢ .

(٤) الذيل والتـكـملـةـ ، ٣١/٤ ، ٣١/٤ ؛ عنـوانـ الـدـرـاـيـةـ ، التـبـرـيـنيـ ، ٣٠٦ ؛ أـعـمـالـ الـأـعـلـامـ ، ٢٧٦/٢ ؛ المـنـرـبـ ، ٤٦٩/٢ . كذلك : الـحـلـةـ السـيـراءـ ، ٣١٨/٢ .

(٥) أـعـمـالـ الـأـعـلـامـ ، ٢٧٦/٢ - ٢٧٧ .

هناك أمر آخر في الأندلس ، لم يكن مثله في الشمال الافريقي ، حيث خطر إسبانيا الشمالية الجاثم ، كما هو الحال مع الجزائر الشرقية . كانت هذه الظروف في الأندلس هي فرصتها المرجوّة .

في المدة ما بين ضعف الدولة الموحدية وقيام غرناطة – نحو سنة ٦٣٥ هـ ، أو بعدها – احتلت من جزيرة الأندلس عدد من قواعدها الكبرى ؛ بعد أن سقطت على يد جيوش إسبانيا الشمالية .

سقطت قُرطُبة يوم الأحد ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (١) (١٢٣٦ م) . كان ذلك بجيوش ملك قشتالة فِرَانْدُهُ بْنُ الْفَتْنَشِ (٢) (هِرَانْدُهُ بْنُ الْمُنْشَهِ) ، فِرْدِلَنْدُ ، فرناندو الثالث Fernando III بن الفونسو التاسع Alfonso IX (٤) .

قرطبة حاضرة الأندلس الكبرى وعاصمة الغرب الإسلامي ، التي أفضت خلال القرون على من وما حولها خيراً وبركةً ونوراً ، حتى لِمَا وراء جبال البرُّت في الأرض الكبيرة . كانت قرطبة – خلال ما يزيد على خمسة قرون – مثوى للفضل والمعرفة ومرتوى للطلبة والعلماء ، وموطناً مِن مواطن النجدة والفروسيّة ومنتَجعاً للقادمين إليها ، كما كانت ثغر جهاد ورباط دعوة .

بذل قرطبة جهوداً مشهودة للوقوف ضد المعتدين من جيوش قشتالة بقيادة ملکهم ، فِرَانْدُهُ بْنُ الْفَتْنَشِ (هِرَانْدُهُ بْنُ الْمُنْشَهِ) . لكنها اضطرت إلى التسلّم . « وكان بعض الغلاة من صحّب ملك قشتالة من الأخبار والأشراف ، يرون رفض التسلّم واقتحام المدينة ، وقتل كل أهلها المسلمين ولكن ملك قشتالة ومعه فريق آخر من مستشاريه ، كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة إلى اليأس ، وتخيّب المدينة ، ومسجدها الجامع ، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها . » (٥) ثم كان تحويل مسجد قرطبة الجامع إلى كنيسة ، كما أخرج منها أهلها المسلمون أو

(١) التكملة ، ١٢٠/١ ، ٣٢٣ .

(٢) أعمال الاعلام ، ٢٢٢/٢ .

(٣) الاحاطة ٣٨٣/١ ، ٥٥١ .

(٤)

Manual de historia de Espana, I, 676.

(٥) عصر المرابطين والموحدين ، ٤٢٤/٢ .

اضطرواوا للذلّك « فحضرها [ابن] أذْفَنْش النصراوي ملك طُليْطُلَة فأخذها . وخرج منها أهلها . والله يعيدها بمنه وحوله . »^(١)

في صفر سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) سقطت بنسيبة ، إحدى المدن المجاهدة وكبرى قواعد شرق الأندلس وثغوره . وكانت مركزاً للعلوم والآداب والفضل والخير . هي التي قاست عن يد الطاغية القَمِيْطُور الكبير^(٢) . وكان أمير بنسيبة أبا جميل زَيَّان بن أبي الحَمَّالات مُدافعاً بن أبي الحَجَّاج يوسف بن سعد بن مَرْدَنيش الْجُذَامِي . اجتاحت الأندلس ظروف صعبة ، مع ضعف امكانياتها . استغرقت عمليات الاستيلاء على بنسيبة عدة سنوات ومع الصفة الصليبية التي توجّهت بها حروب ملك أرْغُون جَائِمِش (الأول) (Jaime I) بن بُطْرُه^(٣) . (الثاني) (Pedro II)^(٤) . وصفته المصادر الإسبانية الغازي (El Conquistador) معرف في مصادرنا الأندلسية : جَائِمِش بن بُطْرُه^(٥) بن جَائِمِش^(٦) أو جَاقِم^(٧) أو جَاقِمَة (Jacques) البرْشَلُوني^(٨) الموصوف بالطاغية .

أصدر البابا جريجوري التاسع (Gregory IX) مرسومه بإسقاط الصفة الصليبية على حروب إسقاط بنسيبة التي بدأت ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م)^(٩) .

وقعت - خلال هذه الحروب - معركة آنيشة^(١٠) (آنیجه) (Puig de Cebolla) في يوم الخميس الموافق عشرين من ذي الحجة ، عام أربعة وثلاثين وست مئة^(١١) .

(١) المغرب ، ٥٧/١ . وردت ، في الأصل « أذْفَنْش » خطأ ، إذ هو ابن أذْفَنْش (الفشن) : فراند ، فرديناند (فرناندو) الثالث بن القونسو التاسع .

(٢) التكلمة ، ١٢١/١ ، ٤٧٩/٢ ، ٩٠١ ، ٩٠٠ ، ٦٩٤ ، ٩١٤ ، ٣٠٣/٢ .

(٣) أعلاه ، ٣٦٩ وبعدها .

Manual de historia de Espana, I, 719 .

(٤)

(٥) أعمال الأعلام ، ٣٣٧/٢ ؛ الا حاطة ، ٣٨٣/١ .

(٦) الروض المطار ، ٤٨ ؛ أعمال الأعلام ، ٢ . ٢٧٣/٢ .

(٧) الحلقة السيراء ، ١٢٧/٢ .

(٨) عصر المرابطين والموحدين ، ٤٣٩/٢ .

(٩) الروض المطار ، ٣٢ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٣٦٠/٤ ، ٦٠١/٦ ، ٣٦٠/٤ ؛ نفح الطيب ، ٤٧٣/٤ .

(١٠) برنامج شيخ الرعبي ، ٧٠ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٤٤٢/٢ ؛ الحلقة السيراء ،

٣٥/١ (المقدمة) .

أنيشَه حصن يقع شمال مدينة بلنسية ، على بعد سبعة أميال . هاجمه الملك الأرغوني وهدمه ، وابنِي حصنًا منيعًا يكون مركزاً لعيشه وأعماله الحربية ضد بلنسية . لما رأى أبو جمِيل زَيَّان انتراع حصن أنيشَه سار بقوَة عسْكُرية ، اشتراك فيها كثير من علماء بلنسية ، منهم كثير علماء الأندلس ومحدثيها^(١) أبو الريبع سليمان بن سالم الكلاعي (مرسية ، رمضان ٥٦٥ - ٦٣٤ھ) . انه جندي جريء خاص عدداً من المعارك ، وخاض هذه المعركة في المقدمة . « وكان رحمة الله من أولي الخزم والجرأة والبسالة والإقدام والجزاء وثبات الحق والشهامة وين النقبية ، يحضر الغزوات ويبادر بنفسه القتال ويبلي فيه البلاء الحسن ، وآخرها الغزَاة التي استشهد فيها بالكافنة على المسلمين بظاهر أنيشَه من عمل بلنسية على نحو سبعة أميال منها ؛ حضرها وحرض المسلمين ، وقد اختلوا ، على قتال عدوهم ورغبتهم في مكافحته . ولم يزل متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مُقْبلاً على العدو غير مُذَبِّر [والراية بيده]^(٢) ينادي المهزمين : أَعْنَ الْجَنَّةِ تَفَرُّونَ؟ حَتَّى قُتِلَ صَابِرًا مُخْتَسِبًا غَدَاءَ يَوْمِ الْخَمِيسِ لِعَشْرِ بَقِينَ مِنْ ذِي حِجَّةِ أَرْبَعِ وَثَلَاثِينَ وَسَتِ مَهْةٍ ، وَكَانَ خَرْوَجَهُ إِلَيْهَا يَوْمَ الْأَرْبَاعَهُ الْمُتَصلُّبَهُ . . . وَاسْتَشْهَدَ فِي هَذِهِ الْوَقْعَهُ جَمَاعَهُ مِنْ عَلَمَاءِ بَلْنَسِيهِ وَفَضَلَائِهِ وَصَلَاحَاهُ ، وَقَدْ نَحُو سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصَّفَّ الْأَوَّلِ يَجَامِعُهَا الْأَعْظَمُ مِنْهُمْ ، نَفَعَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَهِ»^(٣) . رثى أبو الريبع وبقية الشهداء ، تلميذه ابن الأبار بقصيدة من مئة بيت وبيت ، منها مع المطلع^(٤) :

أَلَمَّا بَأْشَلَاءَ الْعُلُّ وَالْمَكَارِمِ تُقْدَّ بِأَطْرَافِ الْقَنَّا وَالصَّوَارِمِ
 هُمُّ الْقَوْمُ رَاحُوا لِلشَّهَادَهْ فَاغْتَدَّوا وَمَا لَهُمْ فِي فَوْزِهِمْ مِنْ مُقاوِمٍ

(١) التكملة ، ٨٨١/٢ (رقم : ٢٠٨٧) .

(٢) المرقبة العليا ، ١١٩ .

(٣) الذيل والتكميلة ، ٨٩٤ - ٩٠ . عن أبي الريبع الكلاعي ، راجع كذلك : التكملة (مدريد) ، ٧٠٨ ؛ إعتاب الكتاب ، ٢٤٩ ؛ تحفة القادم ، ١٣٩ ؛ برنامج شيخ الرعنى ، ٦٦ - ٧٢ ؛ الحلقة السيراء ، ١٠٢/٢ ؛ نفح الطيب ، ٦١٦/١ ، ٤٧٣/٤ ؛ الديباخ المذهب ، ١٢٢ ؛ تذكرة الخفاظ ، ١٤١٧/٤ ؛ عنوان الدرية ، ٢٧٩ ؛ الوافي بالوفيات ، ١٨٣/٨ (خطوط) ؛ أدناه ، ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٤) الذيل والتكميلة ، ٩٠/٤ - ٩٥ .

فمالتْ بهم مَيْلُ الغصون النواعمِ
 يطيرون من أقدامهم بقوادم
 كذلك جوارُ الله أنسى المغانيم
 وإن كنَّ عند الله غيرَ سواهِم
 اليه بإهداء النفوس الكراشم
 حقوقاً عليهم كالفروضِ اللازم
 شباباً وشيباً بالعواشي الغواشم
 سواحٍ تُزجيها ثقالُ الفمائِم
 فطَيَّبَ أنفاسَ الرياح النواسمِ
 فلا غَرُورَ أن فازوا بصفوِ المكارمِ
 بها الحور ، واهماً للمنادي المنادمِ
 ليحظى ياقبال من الله دائمِ
 تولى ولم تلْحِقْهُ لومةُ لائمِ
 إلا إنما الأعمال حُسْنُ الحوامِ
 لكلٍّ تقي خِيمَهُ ، غيرِ خائِمِ
 نزيلَ الريا قبلها والنعائمِ
 ترى ماعداها في عداد الماتمِ
 ففزتْ بأشتاتِ المني فوز غافمِ
 تساقوا كثوسَ الموت في حَوْمةِ الوعي
 مضوا في سبيل الله قدماً كأنما
 يرَونَ حِوارَ الله أَكْبَرَ مَغْنَمَ
 ألا بأبي تلك الوجهُ سواهِمَا
 فلا يبعد الله الذين تقربوا
 موقف أَبَارِ قَضَوا من جهادهم
 أصيروا و كانوا في العبادة أَسْنَمَا
 سقى الله أَشْلَاءَ بسْفَحِ أَنْيَشَةَ
 وصلَّى عليها أَنْفَسَا طَابَ ذَكْرُهَا
 لقد صبروا فيها كراماً وصابروا
 مُنَادٍ إلى دارِ السلامِ مُنَادِمَ
 أَنَاهَ رَدَاهُ مَقْبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ
 إماماً للدينِ أو قِواماً للدولةَ
 ويا أيها المختوم بالفوز سعيهُ
 هنيئاً لك الحسنى من الله إنها
 تبوأتَ جناتَ النعمِ ولم تزلَ
 ولم تأْلُ عيشاً راضياً أو شهادةً
 وحِمتَ على الفردوس حتى ورتهِ

أبدت معركة أَنْيَشَةَ صعوبةَ الموقف ودعت للاستعداد ورسم الخططة واتخاذ
 الخططة والأهبة واستصراخ الأخوة في الأندلس والمغرب .

تجهيز ملك أرغون جَائِمِش لإسقاط بلنسية . حاصرها في رمضان سنة ٦٣٥ هـ^(١) .
 كان معه كثير من الجندي الواقفين ، منهم حشود المتطوعة الفرنسيين ، بقيادة مُطران
 مدينة أربونة ، وآخرون من جنوة^(٢) . شددوا الحصار على المدينة وخرابوها بالآلات

(١) التكلمة ، ٢٦٧/١ ؛ الحلقة السيراء ، ١٢٧/٢ .

(٢) العبر ، ٦٠١/٦ .

الحربية . صمم سكان بلنسية على الدفاع حتى الرمق الأخير ، أرسل أميرُها سفراً إلى بعض المدن الأندلسية طالباً النجدة . وجّه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنباري (بلنسية ، رمضان ٥٥٤ - أربُولَة ، رجب ٦٤٠ هـ) ، من أهل بلنسية ، إلى مدينة مرسية « لاستمداد أهلها » .^(١)

وأرسل أبو جميل كاتبه ووزيره العلامة الأديب المؤرخ ابن الأبار - مع وفد بلنسية - إلى إخوانه في العدوة المغربية ، يستنجدُهم . توجّه إلى الحفصيين في تونس ، وأميرُها أبو زكريا يحيى بن أبي حفص ، يستنصرُه لنجدَة سريعة^(٢) . أمام هذا الأمير في تونس القى ابن الأبار - في حفل مشهود - قصيدة التي مطلعها^(٣) :

أَدْرِكْ بْنِيَّكَ خَيلِ اللَّهِ أَنْدَلْسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرْسَا

غير واضح تماماً - من النصوص المتوفرة - تاريخ هذه السفارة ، وما إذا توجهت إلى تونس أثناء حصار بلنسية الذي استمر حوالي ستة شهور ، ابتداء من رمضان ٦٣٥ هـ . تضع عدة من مراجعنا الأندلسية تاريخ السفارة بعد بداية هذا الحصار^(٤) (٥ رمضان ٦٣٥ - ١٧ صفر ٦٣٦ هـ) . يذكر ابن خلدون أن أبا جmil أولد إلى تونس « أعيان بلنسية وهي محصورة فرجع إلى دانية ».^(٥) إلا أن ابن الأبار يذكر فائدة في كتابه التكملة ، حين الحديث عن أبي علي القشتليوني: حسن بن عبد العزيز بن إسماعيل التجبي (بلنسية ، ٥٤٨ - تونس ، ٦٣٥ هـ) الذي « كان يكتب المصاحف وصار أخيراً إلى مدينة تونس وأقرأ بها القرآن . ورأيت الأخذ عنه في سلسلة شعبان سنة خمس وثلاثين وستمائة . وعلى إثر ذلك توفي بها ، قد مُتّها رسولاً من قبل والي بلنسية ودانية أبي جميل زيان بن سعد في منتصف السنة التي بعدها فلم أجده ».^(٦) يُفهم من هذا أن وصول ابن الأبار إلى تونس

(١) التكملة ، ٦٥٢/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٥٩٠/٢ . كذلك : أزهار الرياض ، ٣ / ٢٠٥ ؛ عنوان الدراسة ، ٣١١ .

(٣) نفح الطيب ، ٤٥٦/٤ - ٤٥٧ .

(٤) نفح الطيب ، ٥٩٠/٢ ؛ أزهار الرياض ، ٢٠٥/٣ ؛ اختصار القدر ، ١٩١ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٤٤٤/٢ - ٤٤٦ .

(٥) العبر ، ٣٦٠/٤ . كذلك : العبر ، ٦٠١/٦ .

(٦) التكملة ، ٢٦٦/١ - ٢٦٧ (رقم : ٧٠٥) .

كان قبل بدء حصار بلنسية ، بعد وقعة أنيشة . يقوى هذا الفهم ما ذكره ابن الخطيب في أعمال الأعلام – حين شرحه هذه الأحداث وجهود زيان – إذ « كانت عليه الوعية بأنيشة من ظاهر بلنسية ، هلك فيها من المسلمين مالا يحصيه إلا الله ؛ وكلب عليهم عدو الشرق ، ويسروا من نصرة أهل الأندلس وأهل المغرب ؛ فتعلقوا ببيعة الأمير أبي زكرياء بتونس ، واستصرخوه . . . ولم يصل جوابه وإمداده إلا والطاغية قد نازل بلنسية ، وذلك يوم الخميس الخامس رمضان من سنة ٦٣٥ ». ^(١) كانت وفادة ابن الأبار إلى أمير تونس الحفصي ، سفيراً بلنسية ، في شعبان سنة ٦٣٥ هـ أو قبلها . حيث تلقى العلم عن القشتليوني . عاد نحو الأندلس بالنجدة إلى بلنسية مع وفدها . بعد ذلك مدة ، غادرها إلى تونس ، فاستوطنها دار إقامة « وعاد أبو عبد الله ابن الأبار إلى مرسله فألفى الأحوال قد أعضل دواؤها وقواعد قد غالب عليها أعداؤها ، فتركها هاجراً ، وقصد حضرة تونس مهاجراً ». ^(٢) وكان الأجدر به ألا يرتح الأندلس ، بل بها يقيم ، مجاهداً بكل وسيلة هيأها الله تعالى له هناك وامكانية وهبها – سبحانه – أيها .

بادر الأمير الحفصي بتجهيز أسطول ، شحنه بالمؤونة والسلاح ، من ثمانين عشرة سفينة كبيرة وصغيرة . اتجهت إلى بلنسية ، صحبة ابن الأبار وبقية الوفد الأندلسي ^(٣) . لكن هذه السفن فشلت في إيصال الإمدادات إلى المدينة المنكوبة ، لشدة الحصار حولها . واضطررت لإفراغ المؤن في ثغر دانية جنوب بلنسية . ضاق الحال بأهل المدينة الباسلة ودهمهم الجوع لانعدام المورد وفناء الأقوات . في حين كان المعسكر الأرغوني في سعة من أمره « وواصل عدو الله جائمة ملك أرغون منازلة بلنسية ورميها بالمجانيق وشدة القتال ؛ وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، والنصارى توارد أمدادهم ، إلى أن نفت الأقوات ، واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق . وبلغ الكتاب أجاته ، فكانت المراوضة على إسلام البلد والخروج

(١) أعمال الأعلام ، ٢ / ٢ - ٢٧٣ .

(٢) الذيل والتكميل ، ٦/٢٦٩ (رقم: ٧٠٩ ، ترجمة ابن الأبار) . كذلك : العبر ، ٦/٦٠٤ - ٦٠٥ .

(٣) أزهار الرياض ، ٣ / ٢٠٥ .

عنه في الرابع عشر لشهر صفر من السنة ، بعد المنازلة . وخرج الأمير أبو جمبل والشهود ، وعقد الصلح بعدها على دَانِيَةٍ وَقُلَّيْرَه . وكان الرزءُ على المسلمين فيأخذ بنسية عظيماً ، والخطب فيها أليماً . ^(١)

أمام ذلك اضطررت المدينة للتسليم وأبرمت شروطه ، يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٣٦ ^(٢) (أيلول = سبتمبر ١٢٣٨ م) ، بعد حوالي خمس سنوات من المعارك والأحداث .

يصف ذلك ابن الأبار في *الحللة السيراء* ، حيث كان شاهد عيان لهذه الأحداث ومشاركاً في وقفه المدينة ، فيقول : « ثم ملكها الروم ثانية ، بعد أن حاصرها الطاغية جَاقِم البَرْشَلُونِي من يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين ، وفي هذا اليوم خرج أبو جمبل زَيَّان بن مُدَافع بن يوسف بن سعد الحُدَّامي من المدينة – وهو يومئذ أميرها – في أهل بيته ووجوه الطلبة والجندي ، وأقبل الطاغية وقد تزوي بالحسن زمي في عظماء قومه ، من حيث نزل بالرُّصافة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالوَلْجَة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سَلَمًا لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناواها بأموالهم وأسراهم . وحضرت ذلك كلَّه ، وتوليت العقد عن أبي جمبل في ذلك . وابتُدِيء بضعف الناس ، وسيروا في البحر إلى نواحي دَانِيَة ، واتصل انتقال سائرهم برَّا وبحرًا . وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور كان خروج أبي جمبل بأهله من القصر في طائفه يسيرة أقامت معه ، ووعند ذلك استولى عليها الروم ، أحانَهُم الله . ^(٣)

عند احتلال الطاغية الأَرْغُونِي ومن معه بنسية – بعد استسلامها – رحل عنها عشرات الآلاف من أهليها ، بلغت خمسين ألفاً . وتحولت – للتو – مساجدها

(١) أعمال الأعلام ، ٢٧٣/٢ .

(٢) التكملة ، ٦٤٠/٢ ؛ اختصار القدر ، ٤٧ - ٤٨ .

(٣) الحللة السيراء ، ١٢٧ / ٢ . كذلك : الحللة ، ٣٠٣/٢ ؛ التكملة ، ١٢١/١ ، ٩٠١ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٣/٢ .

كنائساً^(١) . نال المسلمين كلُّ أنواع الاضطهاد وتقلّبوا في فنون الأذى ، تعدد الأحياء إلى الأموات في قبورهم فنبشت . ذكره ابن الأبار في التكملة حين ترجم أبا عامر ابن شرويه محمد بن جعفر بن خيرة (٥٤٧ هـ) « من أهل بلنسية وصاحب الصلاة والخطبة يجتمعها ... »

« وكان شيخاً فاضلاً ، نزيهاً ، جميل الشارة ، ذا جهارة في خطبته ، ونباهة في بلده . واقتني من الدواين والدفاتر كثيراً ، وأحسنَّ وعمر طويلاً وثقل حتى كان لا يرقى المنبر للخطبة إلا بمعين . »

« . . . وتووفي سحر ليلة الاثنين السادس ذي القعدة سنة ٥٤٧ ودفن خارج باب بيطاله ، وما زال قبره هناك معروفاً يتبرك به إلى أن استولى الروم ثانية على بلنسية في أواخر صفر سنة ٦٣٦ فطمسموه وسائر قبور المسلمين . »^(٢) هذا في حين كرم الله تعالى الإنسان حياً وميتاً .

كل هذه التصرفات والأساليب مُغْرِبةً في الانحراف عريقة في المبوط بعيدة عن أية رفعة مجردة من أدنى فضيلة . إنها خاوية حتى من رائحة لصفة فيها خير ما ، لامبادأة ، بل – على الأقل – ردًا لما سبق المسلمين اليهم بالخير وعاملوهم بالحسنى وجلبوا لهم من نور الله القدير . لكن هذا الشنار والشناعات لهؤلاء وأمثالهم – البعيدين عن طاعة الله وشرعه – معروفة عنهم مألفة منهم . فلا ينشدون حقاً ولا يرعون كرامة ولا يحفظون كلمة ولا يخلعون بشيء . إنهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وأولئك هم المُعْتَدُون .^(٣) هم يُجيدون تلك ويفتخرون بها ولا يعرفون غيرها أو يتفهمون ؟ واتى يأتيهم منه شيء ؟ رأينا – ونرى – من ذلك الكثير .

تلا ذلك سقوط عدد من المدن القريبة ، مثل : جزيرة شُفَر (Alcira)

(١) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ٤٥٠/٢ .

(٢) التكملة ، ٤٧٨/٢ – ٤٧٩ (رقم : ١٣١٦) . كذلك : الذيل والتكملة ، ١٥٢/٦ (رقم : ٣٩٦) ؛ أدناه ، ٥٧٦ .

(٣) الآية ١٠ من سورة التوبة .

أواخر سنة ٦٣٩ هـ^(١) ، ودانِيَة (Denia) في ذي الحجة سنة ٦٤١ هـ^(٢) ، وجَيَّان (Jaén) سنة ٦٤٣ هـ^(٣) ، وشَاطِبَة (Játiva) صفر سنة ٦٤٤ هـ^(٤) ، ومُرْسِيَة (Murcia) سنة ٦٦٤ هـ^(٥) . لابن الأَبَارَ في الْحُلَّة السِّيرَاء نص مفيد ، حين الحديث عن يحيى بن أحمد بن عيسى الخزرجي حاكم شاطبة وابنه أبي بكر محمد ، فيقول :

« وصارت اليه دَانِيَة مدةً يسيرة ، إلى أن تغلب الرومُ عليها مُسْتَهْلَكَ ذي الحجة سنة إحدى وأربعين . ثم تَمَلَّكَ الرومُ أيضًا شَاطِبَة ، في آخر صفر من سنة أربع وأربعين ، بعد مهلدة نهود مداراة لطاغيتهم الْبَرْشَلُونِي ، من حين تغلبه على بَلَنْسِيَة في صفر أيضًا ، وفي يوم الثلاثاء السابع عشر منه سنة ست وثلاثين ، و كانوا قد شارطوا على سكانها بإتاوة معلومة . »

« وفي وقتنا هذا وصل بعض الشاطبيين يُخبر أنه أجلهم عنها مع أهل جهاتها - وهم ألف من المسلمين - ففرقوا في البلاد ، وأوى أبو بكر هذا في خاصته إلى حصن بمقربه منها ، وذلك في رمضان من سنة خمس وأربعين . »^(٦)

إجلاء المسلمين عن مدنهم - بعد سقوطها - سياسة واضحة ، من قبل حكام إسبانيا النصرانية (الشمالية) الذين لا يلتزمون بالعهد . الشواهد والأمثلة على ذلك كثيرة متضافة . يذكر ابن الأَبَارَ في التكملة عن الشاعر البلنسي أبي اسحاق ابن خفاجة (٤٥١ - ٥٣٣ هـ) ، من أهل جزيرة شُقُرَ أنه « لم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صُلْحَاً ، وأنْهَلُواً أهلها في آخر

(١) التكملة ، ١٤٤/١ ؛ فتح الطيب ، ٤٧٢/٤ .

(٢) الْحُلَّة السِّيرَاء ، ٣٠٣/٢ .

(٣) الا حاطة ، ٩٩/٢ . كذلك : الا حاطة ، ٣٨٣/١ ، ٥٥١ .

(٤) الْحُلَّة السِّيرَاء ، ٣٠٣/٢ .

(٥) الْحُلَّة السِّيرَاء ، ٦٣/١ ، ٣١٦/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٦٢/٢ . قارن : البر ، ابن خلدون ، ٤٣٥/٤ ؛ البيان المغرب (قطوان) ، ٤٣٨ ؛ التكملة ، ٦٥٢/٢٠ ، ٦٥٦ .

(٦) الْحُلَّة السِّيرَاء ، ٣٠٣/٢ . كذلك : التكملة ، ٩٤٢/٢ .

سنة تسع وثلاثين وستمائة .^(١) يذكر كذلك عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن وهب البكري ، من أهل شاطبة ، أنه « خرج عند إجلاء الروم أهل بلده ونقض مهادنتهم في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستة فتوفى على إثر ذلك بأوزيوله ودفن بها .^(٢) ويقول ، حين الحديث عن أبي العلاء بن زهر ، أنه : « نشأ بشرق الأندلس وبقايا داره بجفن شاطيبة لم تزل معروفة به إلى أن تملكتها الروم وأجلسوها عنها المسلمين ، وذلك في رمضان سنة ٦٤٥ ».^(٣) مثل هذا جرى لدانية وشرقي الأندلس من « إجلاء الروم من كان يساكنهم من المسلمين ببلاد الشرق التي تغلبوا عليها وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستة ».^(٤) آخرون كانوا يلقون التعذيب ، كما حدث لأبي جعفر أحمد بن أبي حجة الذي « سكن إشبيلية بعد خروجه من قرطبة ، وأسرته الروم في البحر وامتحن بالتعذيب وتوفي على إثر ذلك بميورقة في سنة ثلاثة وأربعين وستة ».^(٥)

يدرك ابن عذاري في البيان المُفَرِّب أنه بعد استسلام مدينة مُرسِيَة صُلْحَا لحايميش ملك أرغون سنة ٦٦٤ ، دخلها بجيشه . لم يرْعُوا في المسلمين عهداً ولا أدنى حد لإنسانية . تركها أهلها « وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة ، فسكنوا بها مدة من عشرة أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاثة وسبعين وغدروهم في الطريق أجمعين ، وذلك بموضع يعرف بوركال ، فسبوا النساء والأطفال ، وقتلوا جميع الرجال ، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح ، فتحكموا بهم كيف شاموا بالسيوف والرماح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ».^(٦)

(١) التكملة ، ١٤٤/١ (رقم : ٣٧٣) . عنه انظر كذلك : المعجب ، ٥٨ ؛ المقرب ، ٢/٣٦٧ ؛ وفيات الأعيان ، ١/٥٦ .

(٢) التكملة ، ١٢٤/١ (رقم : ٣١٠) .

(٣) التكملة ، ٢٣٤/١ (رقم : ٩٠٧) . كذلك : الإحاطة ، ٣٨٣/١ ، ٥٥١ ؛ نفع الطيب ، ٤٧٢/٤ .

(٤) التكملة ، ٢٤٤/١ (رقم : ٦٤٣) .

(٥) التكملة ، ١٢٣/١ (رقم : ٣٠٧) .

(٦) البيان المقرب (تطوان) ، ٤٣٨/٣ .

أما إشبيلية فسقطت بيد ملك قشتالة فراندُهُ (هراندُهُ بن المُنشَّهِ^(١)) (فرناندو الثالث ، Fernando III بن الفونسو التاسع) عام ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) . وذلك بعد أعمال حربية لعدة سنوات وحصار طويل استمر حوالي سنة ونصف ، ابتداء من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ هـ حتى أول شعبان ، أو أواخر^(٢) ، سنة ٦٤٦ هـ . اضطررت المدينة بعدها للتسليم بالشروط ، كان منها رحيل أهلها المسلمين عنها .

يذكر ابن الأبار في التكملة ، وهو يتحدث عن أحد العلماء ، أنه « تُوفَّى في حصار الروم إشبيلية : في صدر سنة ٦٤٦ - وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان منها ، ملكها الطاغية^(٣) (صاحب قشتالة) صُلْحًا ، بعد مُنازلتها حولًاً كاملاً وخمسة أشهر أو نحوها - وقيل : (توفى في ذي القعدة سنة خمس وأربعين) . وفي ربيع الأول منها ، ابتدأ الرم^٤ الحصار . »

تجزَّع أهل إشبيلية كثيراً من الأذى ونالهم الأسى . أشد منه وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزني ، يخللهم النكَّدُ ويفرِّهم فراقُ البلد . غادرها من أهلها ما يقدر بأربع مائة ألف^(٤) . قصدوا مدنَ الأندلس أو العُدوة الأخرى . ذلك في رمضان من نفس العام . كان ذاك لهم أيَّ عيد ، خسروا فيه الحاضر والتليد . يصف ابن عذاري ذلك وهو يشرح أحداث عام ٦٤٦ هـ ، حيث « جرَّعوا أهلها كأسَ الحِمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكل منهم في بحر المنيا غاص وعام ، ممل حل بهم من الأوجال والآلام ، . . . ، فسلَّموا لهم في المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام »^(٥) .

(١) الإحاطة ، ٣٨٣/١ ، ٥٥١ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٣٣٢/٢ ؛ أعلاه ، ٤٧٢ .

(٢) الذيل والتكميلة ، ٢٠٥/١٥ .

(٣) التكملة ، ٩٠٣/٢ (رقم : ٢١٢١) . كذلك الروض المطار ، ٢٢ ؛ التكملة ، ١٢٤/١ (رقم : ٣١١) ، ٩٠٨/٢ (رقم : ٢١٢٥) ؛ نفح الطيب ، ٤٧٢/٤ - ٤٧٣ ؛ البيان المغرب (قطوان) ، ٣٨٥ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٤٨٦/٢ .

(٥) البيان المغرب (قطوان) ، ٣٨٥ .

ذهبت إشبيلية ، تلك المدينة ذات التاريخ المجيد والفن والعمaran وموطن العلماء والشجعان ، صاحبة الشرف الكريم بظلال زيتونه الملفوف^(١) ؛ عروساً في حُلْتها أُسيرة لطَّخت بالدماء ، تَنَدُّب حاميها الطعين ، وتَزَفُّر من آلامها وهي أرملة ولُود .

هكذا سقط يد ملوك إسبانيا الشمالية ومن ساعدتهم من الصليبيين عدد من قواعد الأندلس^(٢) ، في هذه المدة التي عاصرت نهاية الدولة الموحدية .

استطاع المسلمون في الأندلس المحافظة على بعض المناطق في جنوب الجزيرة الأندلسية . حيث قامت مملكة غرناطة ، التي سيأتي الحديث عنها قريباً ، وبالإمكان تسميتها الأندلس الصغرى (الصغيرة) ، بعد انهيار الأندلس الكبرى (الكبيرة) .

ثانيًا : توحيد الأندلس وأهم الأحداث

بدا الضعف على الأندلس في رد عدوان إسبانيا الشمالية أواخر أيام المرابطين . كان من نتيجة ذلك أن ذهبتو وفود أندلسية تدعى الموحدين لنجد الأندلس ورد العدوان عنها . ثم لما استقر أمر الموحدين في الشمال الإفريقي بدأوا جهودهم لحماية الأندلس والحفاظ عليها ، من الأخطار التي تهددها . أنفقوا - لأجل ذلك ، خلال مدة - الكثير من الجهود . استطاعوا القضاء على محاولات شخصية ضد وحدة الأندلس ، تعاونت مع عدوها ؛ وعلى بقايا الدولة المرابطية ؛ وكذلك على هجموات إسبانيا الشمالية . بعد ذلك استطاعوا توحيد الأندلس وجعلها جناح الدولة الموحدية الغربي . بذلك الجهود والتضحيات التي سبق سردها .

أهم الأحداث في الأندلس - أيام الموحدين - القضاء على نشاط بعض الشخصيات التي قامت تدعو نفسها ، بأسلوب ملتوٍ ، واستعانت أو اتفقت مع قوات إسبانيا الشمالية ، من أمثال عصيán ابن مردَّنيش . ثم ردوا العلوانات الشمالية والارتفاع .

(١) انظر : نصوص عن الأندلس ، ٩٥ ؛ نفح الطيب ، ١٥٨/١ ؛ الروض المطار ، ١٩ ، ١٠١ .

(٢) انظر : العبر ، ابن خلدون ، ٣٦٨/٤ .

بتوحيد الأندلس وخلوصها لطاعة الموحدين .

ويمكن اعتبار إخضاع الموحدين للجزائر الشرقية سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) وإنهاء حكم بنى غانية فيها من الأحداث التي تسجل في عهد الموحدين في الأندلس ، على اعتبار أن الجزائر الشرقية كانت تابعة للأندلس^(١) .

لاشك أن هناك أحداثاً تتعلق بالمسائل الإدارية : مناشط عمرانية أو حضارية أخرى . لكن يقصد هنا بصورة رئيسية : الأحداث العسكرية التي يكتفى بذكر أشهرها .

١ - وقعة الأرك

حدثت سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) بين الجيش الإسلامي - من الموحدين والأندلسيين - وبين جيش قشتالة بقيادة ملكها الفونش (الثامن) . أقام الفونش في محلة الأرك حصنًا (حصن الأرك) . يقع على بعد حوالي عشرين كيلومترًا إلى الغرب من قلعة رباح ، على أحد فروع نهر وادي آنه (Guadiana) . - تقام الأرك (Alarcos) - وتشغل حالياً محلة تسمى (Sta. María de Alarcos) - غرب المدينة الإسبانية الحديثة (Ciudad Real) : المدينة الملكية^(٢) . يقع حصن الأرك إلى شرق السهل الذي جرت فيه الزلقة (٤٧٩ هـ) .

عقدت هذة سنة ٥٨٦ هـ مع الفونش (الثامن) ملك قشتالة لخمس سنين^(٣) . حتى إذا ما انتهى أجلها (سنة ٥٩٠ هـ) أرسل لتجديد ها ، وهو يضمmer كيداً لهاجمة الأندلس ، أو معه أئذر ثغور الأندلس بذلك ، وببدأ هجوماته وعيشه فيها ، على اختلاف في الرواية^(٤) . لما « انصرمت مدة صاحب ملك قشتالة فبعث المذكور اللعين إلى جميع ثغور المسلمين المجاورة له ليتذرهم ويختذرهم ، وقد كان وجه رسle إلى عقد المهادنة وأظهر بعده المكيدة فأعقبه الله سوء غدره وأحاق به وبالمكره »^(٥) .

(١) راجع : المعجب ، ٣٥٢ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٥٨/٢ وبعدها .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٠٠/٢ . (٣) انظر : أعلاه ، ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٤) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩١ - ١٩٢ ؛ المعجب ، ٣٥٨ .

(٥) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩٢ - ١٩٣ .

يقول المقرئ في **نفح الطيب** عن ذلك - حين الحديث عن أبي يوسف يعقوب المنصور - : « ولما انقضت مدة المدنة ، ولم يبق منها إلا القليل ، خرج طائفة من الإفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عيّناً فظيعاً ، فانتهى الخبر إليه ، فتجهز لقتالهم في جيوش مُوقرَة وعساكر مُكتَبة ، واحتفل في ذلك ، وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الإفرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه »^(١) .

يقول ابن عبد المنعم **الحمييري** في **الروض المطار** إنه لما « بلغ المنصور يعقوب أن صاحب قشتالة شنَّ الغارات على بلاد المسلمين بالأندلس شرقاً وغرباً في يوم واحد ، وعمَّ ذلك جهة إشبيلية ونواحيها ، فامتنع من ذلك ثم تحرك من حضرته مرَّاكُش إلى الأندلس واستقرَّ بإشبيلية »^(٢) .

توالت أخبار الأندلس بذلك ، على الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور . وجَهَ جيشاً ، وجَهَّزَ لأغراض أخرى ، إلى الأندلس . قاد هذا الجيش بنفسه وعبر به إلى الأندلس (للمرة الثانية) . كان عبور الخليفة إلى طريف يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ . توجه الجيش إلى إشبيلية العاصمة حيث أُنفق أسبوعين في وضع الخلط المحكم ، ثم رحل إلى قرطبة ومنها صوب قلعة رَبَاح . تَجَهَّزَ الفُونش (الثامن) ملكُ قشتالة للقاء الجيش الإسلامي ، منذ سمع بعبور الموحدين . طلب العون من ملكيْ ليون ونَبَارَة . سار مسرعاً ونزل في الأرَك ، نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس . نزل الخليفة الموحدي قريباً من المعسكر القشتالي .

مررت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك ، غير مناورات خفيفة ألحقت بالجيش القشتالي خسائر . أُنفق المنصور أيامًا يستشير أصحاب الرأي ويعقد معهم المجالس . أشار أبو عبد الله بن صناديد - كبير قادة الأندلس - على الخليفة برأيه في الأمر . وهو أن تبدأ معظم الجيوش الأندلسية ومن جاء مع الموحدين بالاشتباك ، ويبقى الخليفة في

(١) **نفح الطيب** ، ٤/٢٨١ .

(٢) **الروض المطار** ، ١٢ - ١٣ .

جيش من الموحدين في موضع مستور . إن كان النصر لل المسلمين فذاك ، والـ "فِيَادِرُ الخليفة بقواته لقاء العدو ، وليحمي ظهور المسلمين ، ويكون العدو قد خابت قوته . فأعجب الخليفة" برأيه وقرر الأخذ به^(١) .

كانت جموع القشتاليين كبيرة ، اختلفت الروايات في تقديرها . يذكر ابن عميرأة الضبي في كتابه *بُغْيَةُ الْمُلْتَقِيمِ* أن جيش الفونش (الثامن) كان « يتيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئي ألف راجل » ، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلامهم وأعدوا أموالاً ، فهزهم الله تعالى^(٢) . ويذكر عبد الواحد المراكشي ذلك في كتابه *المُعْجِب* ، فيقول : « وكان الأدْفُوش قد جمع جموعاً لم يجتمع له مثلها قط ؛ فلما تراءى الجماعان اشتدا خوف الموحدين وساعت ظنهم لما رأوا من كثرة عدوهم ؛ وأمير المؤمنين في ذلك كله لا مُسْتَنِدَ له الا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين . »^(٣)

نُظمَتُ الْجَيُوشُ التنظيم المناسب ، وكانت القيادة العامة لأبي يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، وال الخليفة مع جنده في المؤخرة – حسب الخطبة – يقف للحظة الخامسة . يذكر ابن عذاري في البيان المغربي أنه حين كمل الحشد خاطب القائد العام الجندي وأبلغهم بقول الخليفة المنصور : « يقول لكم أمير المؤمنين اغروا له – فإن هذا موضع غفران – وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا الله نياتكم . فبكي الناس وأعظموا ماسمعوه من سلطانهم وما جرى اليه من حسن معاملتهم^(٤) . ثم قام الخطيب وحرض على « الجهاد وفضله والتنبيه على مكانه وقدره ، ومدّ القول في ذلك بما وسعه من بيانه ، وانفصل الناس وقد تورت بصائرهم وخلقت لله ضمائيرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم واعترافهم وتضاعفت نجذبهم وإقدامهم »^(٥) .

(١) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ٢٠٠/٢ .

(٢) *بُغْيَةُ الْمُلْتَقِيمِ* ، ٤٥ - ٤٦ . (٣) *الْمُعْجِب* ، ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٤) البيان المغربي (تطوان) ، ١٩٤ .

(٥) نفس المصدر .

كانت محلة الجيش الإسلامي في سهل الأررك في حين كان الجيش القشتالي على المرتفع المشرف عليه ، قرب الحصن . وفي يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ^(١) (١٨ تموز = يوليو ١١٩٥ م) بدأت المعركة الخامسة . « وخلاصة الأمر : أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى ، وتزاحف الفريقيان ، فكان المصافُ شمال قُرطبة ، قرب قلعة رَبَاح ، في يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١ هـ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استُشهد فيها جمْعٌ كبيرٌ من المسلمين . »^(٢)

رأى القشتاليون الجيش الإسلامي يزحف نحوهم ببطء « فهبطوا من مركزهم كاللليل الدامس والبحر الزاحز ، أسراباً تتلو أسراباً ، وأمواجاً تعقب أمواجاً ، ليس إلا الصهيل والضجيج والحاديـد على وقع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام ، فتوقفت كابليـال الراسيات ، فمالوا على الميسرة فترـحـزـ قـوـمـ مـنـ الـمـطـوـعـةـ ، وـأـخـلاـطـ منـ السـوقـةـ وـالـرـجـرـجـةـ ، فـصـعـدـ غـبـارـهاـ إـلـىـ الـجـوـ ، فـقـالـ المنـصـورـ لـخـاصـتـهـ وـمـنـ طـافـ بهـ : جـدـ دـوـاـ نـيـاتـكـ وـأـحـضـرـوـاـ قـلـوبـكـ ، ثـمـ تـحـركـ وـحـدـهـ وـتـرـكـ سـاقـتـهـ عـلـىـ حـاـلـهـ ، وـسـارـ مـنـفـرـاـ مـنـ خـاصـتـهـ مـقـدـمـاـ بـشـاهـمـتـهـ وـنـجـدـتـهـ ، وـمـرـّ عـلـىـ الصـفـوـفـ وـالـقـبـائـلـ وـأـلـقـىـ الـيـهـمـ بـنـفـسـهـ كـلـامـاـ وـجـيـزاـ فيـ الـهـجـومـ عـلـىـ عـدـوـهـمـ وـالـنـفـوذـ إـلـيـهـ وـعـادـ إـلـىـ مـوـضـعـهـ وـسـاقـتـهـ . »⁽³⁾

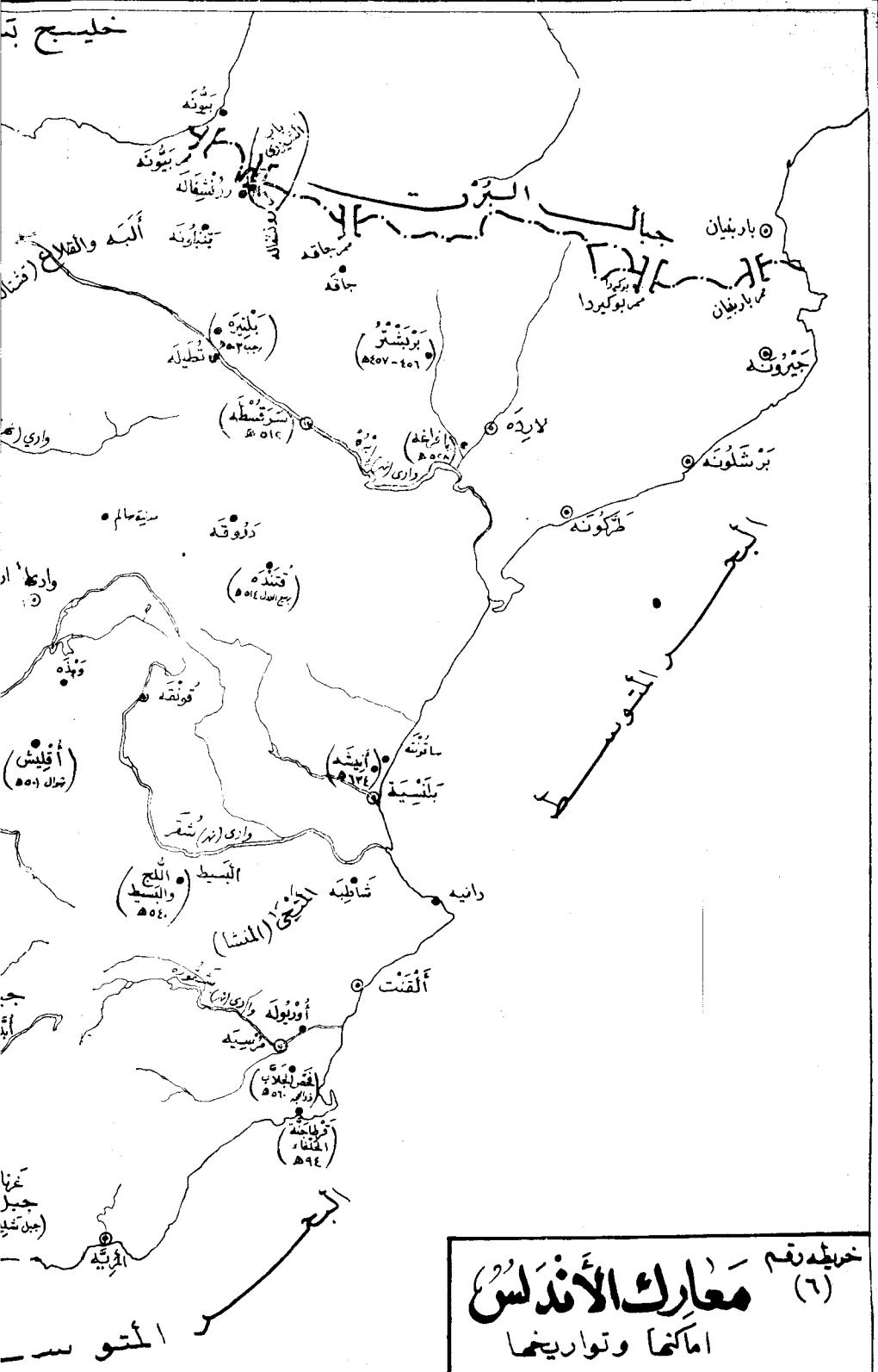
التحم الطرفان في قتال عنيف وكثير القتل في مقدمة القشتاليين التي أصيبت . ثم التحتم بقية الجيوش واضطرب الجيش القشتالي إلى التقهقر والفرار ، كما فرّ ملك قشتالة صوب طليطلة . استمرت المعركة يوماً واحداً . غنم المسلمين مغامن كبيرة وافتتحوا حصن الأرك . كان هذا النصر عظيماً ، أحرزه المسلمون بقيادة الموحدين ، وبذلك كبت ملك قشتالة ونجت الأندلس من اعتداءاته لحين . يسمى بعض

(١) التكملة ، ٢/٥٥٠ (رقم : ١٤٨٩) . كذلك : بغية الملتمس ، ٤٥ ؛ التكملة ، ٢/٥١٥ (رقم : ١٤٩١) . قارن : المعجب ، ٣٥٩ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٨٢/٤ .

(٢) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩٤ - ١٩٥ . راجع أيضاً النقول من «البيان المغرب» و«رفع الحجب المستور» ، التي نشرها أمبروسيو ويي ميراندي : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٤٤ - ٤٥ ، ٥٨ - ٥٩ (القسم الفرنجوي) .

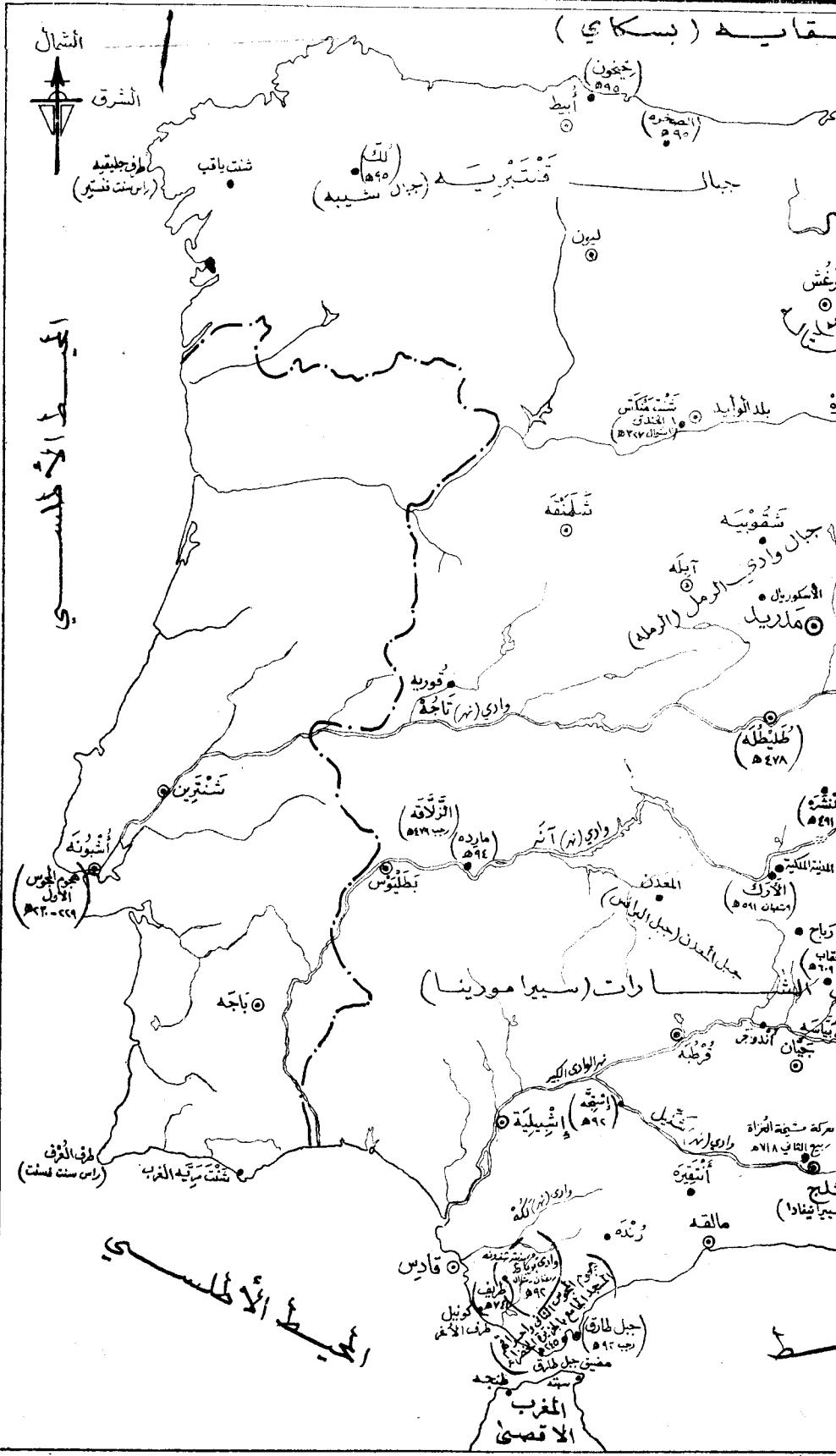
خليج بَدَ



خريطه رقم (٦) معارك الأندلس

ملاحظة: ما بين قوسين يشير إلى موضع المعركة

المقياس = (... درجات)



المورخين هذه المعركة أيضاً « الأرك »^(١).

نذكرنا موقعه الأرك (٥٩١ هـ) بأختها الزلاقـة (٤٧٩ هـ)^(٢) أيام المرابطين . هي ولباها من أيام الإسلام المشهودة . بل إن ذكر الأرك أربى على الزلاقـة ، وإن كان كلامها مما اعتبر به الإسلام وعلت كلمته . لكن الزلاقـة كانت « مقسمة الثقل مكدرة الصفو ، وجاءت هذه الواقعة هنية الموقـع عامـة المسـرة » كما يصفـه ابن عـذـاري في بيانـه حين المقارنة بين الزلاقـة والأرك^(٣) .

عاد المنصور إلى إشبيلية لينظم أمورـ البلاد ويشرف على تنفيـذ التعمـير والاصـلاح . أصلـح مسـجـدها وأتمـ بنـاء صـومـعتـه (مـذـنة) التي عـرفـت - فيما بـعد بالـجـيرـ الدـا (La Giralda) ، وسيـأـتيـ الحديث عنـ المسـجـدـ ومـذـنتهـ فيـ مـوـضـوعـ السـمـاتـ العـامـةـ . عـادـ الخـلـيـفـةـ الـمـوـحـدـيـ - فيـ رـبـيعـ السـنـةـ التـالـيـةـ - ليـجـهـزـ لـاستـثـانـ حـرـكـةـ الجـهـادـ .

٢ - وقـعةـ العـقـابـ

بعد هـزـيمـةـ الأـركـ ، التي لـحقـتـ بـجيـوشـ قـشتـالةـ وـملـكـهاـ ، أـخذـ يـعدـ العـدـةـ لـلـانتـقامـ . عـقدـتـ - بـعـدـ الأـركـ - هـدـنةـ بـيـنـ الطـرـفـينـ مـنـذـ ٥٩٤ هـ^(٤) (١١٩٨ مـ) ، وـمـلـدةـ عـشـرـ سـنـواتـ^(٥) أوـ أـكـثـرـ^(٦) ، أـيـامـ الـخـلـيـفـةـ الـمـنـصـورـ وـقـبـلـ مـغـادـرـتـهـ إـلـىـ مـرـاكـشـ .

(١) الذيل والتـكلـمةـ ، ١٩٨/٦ (رـقـمـ : ٥٦٩) ؛ بغـيةـ المـلـتـمـسـ ، ٤٥ .

(٢) أـعلاـهـ ، ٤٠٣ .

(٣) البيانـ المـغـربـ (تطـوانـ) ، ١٩٦ . كذلكـ : المعـجبـ ، ٣٥٩ . تـجـدـ شـرـحاـ وـتـفـصـيلـاتـ مـفـيدةـ - عنـ المـقارـنةـ - فـيـ : عـصـرـ المـرـابـطـينـ وـالـمـوـحـدـينـ ، ٢١١/٢ - ٢١٤ .

(٤) البيانـ المـغـربـ (تطـوانـ) ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ؛ نـقـحـ الـطـيبـ ، ٣٨٢/٤ ؛ نـصـ منـ « رـفعـ الـحـبـ المـسـتـورـةـ » فـيـ : صـحـيفـةـ مـعـهـدـ الدـرـاسـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ فيـ مـدـرـيـدـ ، ٥٩/٢ ؛ عـصـرـ المـرـابـطـينـ وـالـمـوـحـدـينـ ، Manual de historia de Espana, I, 643.

(٥) المعـجبـ ، ٣٦٠ . كذلكـ : صـحـيفـةـ مـعـهـدـ الدـرـاسـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ بـمـدـرـيـدـ ، بـحـثـ بـالـسـيـانـيـةـ عـنـ الأـركـ : « La Campaña de Alarcos », Huici Miranda, II, 39-40 .

(٦) انـظـرـ : البيانـ المـغـربـ (تطـوانـ) ، ٢٣٨ ؛ عـصـرـ المـرـابـطـينـ ، ٢٣٤/٢ - ٢٨٨ .

توفي الخليفة في مدينة مراكش ليلة الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ^(١)
 (١١٩٩ م). خلفه ابنه محمد الناصر لدين الله الذي كانت سنه دون العشرين .
 بدأ الفونش (الثامن) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) – قبل انتهاء أجل المدنة^(٢) –
 مهاجمة الأراضي الأندلسية^(٣). عاونه في ذلك بُطْرُهُ (الثاني) (Pedro II) ملك أرغون ، دون الالتفات إلى الاحتجاج على خرقها . توجه أهل الأندلس إلى
 الناصر بالاستغاثة فتأهب لذلك . كتب إلى الجهات في المغرب والأندلس يأمرهم
 بالتأهب . تَمَّ العبور إلى الأندلس في ذي حجة سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) . مشى
 نحو إشبيلية فقرطبة ، متوجهاً صوب قلعة شلبطرة (Salvatierra)^(٤) ،
 جنوب قلعة رَبَّاح (Calatrava la Vieja) . اقتحموا أوائل سنة ٦٠٨ هـ . عاد
 الناصر إلى إشبيلية حيث حلّ فصل الشتاء المطير ، وللاستعداد من جديد .
 مضى الفونش (الثامن) ، مبكراً ، يستعد ما أمكنه . ليس بنفسه فقط بل
 ببقية ملوك إسبانيا النصرانية وعدد من أقطار أوربا وكذلك بالبابوية^(٥) . كان
 البابا – لهذا الوقت – أنو صان الثالث (Innocent, Inocencio III) الذي يتمتع
 بروح صلبيّة عالية^(٦) . بعث هذا البابا إلى الأساقفة في جنوب فرنسا « بأن يعظوا
 رعاياهم بأن يسروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أي البابا يمنع كل
 من لبّي هذه الدعوة الغفران التام . »^(٧)

ذكرت عدد من مصادرنا هذا الأمر . فيقول الحميري صاحب الروض
المعطار أن : « الأذفونش بن شانجعه لم يقدر في ذلك الوقت على شيء حتى

(١) البيان المغرب (طوان) ، ٢١١ .
 (٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٨٣/٢ - ٢٨٤ ، ٥٩٠ - ٥٩١ .
 (٣) البيان المغرب (طوان) ، ٢٣٥ . هذا هو دينهم . انظر : نفع الطيب ، ٣٨١/٤ .
 (٤) انظر ، عن هذه الكلمة (المحسن) : الروض ، ١٠٨ ، ١٣٧ . ترسم كذلك : شلتة .
 الموجب ، ٣٩٩ .

Manual de historia de España, I, 644.

(٥)

(٦) انظر : أعلاه ، ٤٦٤ .

(٧) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٨٩/٢ .

استغاث بأهل ملته ، وكاتب من قرُب وبعده منهم ، وشكوا اليهم مادهاه من المسلمين ، وحثّهم على حماية دينهم ونصر ملتهم ، فاستجابوا له وجاؤوه من كل جهة وانثالوا عليه ، فكان من وقيعة العقاب على الملك الناصر في عام ٦٠٩ ما هو مذكور في موضعه .^(١) حتى إنَّ ملَكَ نَبَارَةَ شَانِجَهُ (شانجو السابع ، الملقب عندهم بالقوى) ، الذي كان قد ارتبط مع الموحدين في حلف وصداقة ، هدده البابا إذا لم ينقضه ويعاون ملك قشتالة ، ففعل . كان التجمع لهذا اللقاء واسعاً وضخماً .

يذكر عبد الواحد المراكشي في *المعجب* في تلخيص أخبار المغرب أن افتتاح قلعة شلبيطرة قد روع أهل قشتالة وملوكهم « وخامر هُم الرعب ؛ وخرج الأدْفُنْش – لعنه الله – إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجا به من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم . فاجتمعوا له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن أлан حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد آرغُن المعروف بالبرشتنوني لعنه الله .^(٢)

كذلك جاء الخبر عن هذه الأمور في كتاب الناصر الذي بعثه إلى مراكش وغيرها ، يعتذر عن الهزيمة في هذا اللقاء شارحاً أسبابها . نجدها في كتاب البيان المغربي لابن عذاري . يذكر أن ملك قشتالة « بـثـ القـسـيسـينـ والـرـهـبـانـ منـ بـرـتـقـالـ إـلـىـ القـسـطـنـطـيـنـيـةـ العـظـمـيـ يـنـادـونـ فـيـ الـبـلـادـ مـنـ الـبـحـرـ الـرـوـمـيـ إـلـىـ الـبـحـرـ الـأـخـضـرـ غـوـثـاـ غـوـثـاـ وـرـحـمـيـ رـحـمـيـ ، فـجـاءـهـ عـبـادـ الـصـلـيـبـ مـنـ كـلـ فـجـ عـمـيقـ وـمـكـانـ سـعـيقـ ، وـأـقـبـلـوـ إـلـيـهـ إـقـبـالـ الـلـيـلـ وـالـنـهـارـ مـنـ رـؤـوسـ الـجـبـالـ وـأـسـيـافـ الـبـحـارـ ، وـكـانـ أـوـلـمـ سـيـقـاـ إـلـفـرـنـجـ الـمـوـغـلـوـنـ فـيـ الشـرـقـ وـالـشـمـالـ . ثـمـ تـابـعـهـ الـبـرـجـلـوـنـيـ بـماـ عـنـدـهـ مـنـ العـدـدـ وـالـرـجـالـ . وـكـانـ صـاحـبـ نـبـرـةـ مـتـعـلـقاـ مـنـ الـمـوـهـدـيـنـ بـذـمـامـ ، وـمـنـقادـاـ إـلـيـهـ أـبـداـ فيـ أـسـمـعـ زـمـامـ ، فـسـخـطـ عـلـيـهـ صـاحـبـ رـوـمـةـ أـنـ لـمـ يـكـنـ لـقـوـمـهـ مـعـسـكـرـاـ وـلـسـوـادـ أـهـلـ مـلـتـهـ مـكـثـرـاـ ، فـلـحـقـ بـتـلـكـ الـجـمـوعـ^(٣) .

(١) الروض المطار ، ١٠٩ . كذلك : الروض ، ١٣٧ .

(٢) المعجب ، ٣٩٩ . (٣) البيان المغرب (قطوان) ، ٢٤١ .

وصل تقدير بعض الروايات لهذه الجيوش الوافدة من أوربا بحوالي مئة ألف مقاتل بين فارس ورجل^(١) . خرجت الجيوش بكليتها من طليطلة نحو الجنوب بهذا الطابع الصليبي للقاء الجيش الإسلامي ، الذي يبلغ عدده حوالى مئي ألف مقاتل ، وفي ذلك اختلاف . « وخرج الأدْفُنْش – لعنه الله – من مدينة طليطلة في جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رَبَاح – وهي كانت للمسلمين ، افتحها المنصور أبو يوسف في الوعة الكبرى – فَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ بَهَا بَعْدَ أَنْ أَمْنَاهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ؛ فرَجَعَ عَنِ الْأَدْفُنْش – لعنه الله – بِهَذَا السَّبَبِ مِنَ الرُّومِ جموعَ كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئتَ بنا لنفتح بنا البلاد ، وتمَنَّعْنَا مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ ؟ مَا لَنَا فِي صحبتكَ مِنْ حاجةٍ عَلَى هَذَا الوجه . »^(٢)

تم هذا اللقاء ، الذي كانت له نتائجه بمستقبل الأندلس والدولة الموحدية كذلك ، يوم الاثنين الخامس عشر (أو الرابع عشر) من صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٦ تموز = يوليو ١٢١٢ م) في سهل يقع جنوب غرب حصن العِقَاب^(٣) الذي عرف المعركة باسمه : وقعة العِقَاب (Batalla de las Navas de Tolosa) . كان الخليفة الناصر يرى النصر حليفه لِمَا يشهد من التفوق العددي لجيشه (!؟) . انتهى اللقاء – بعد قتال شديد من قبل الطرفين – بهزيمة المسلمين الذين كثُرَ فيهم القتل . كانت الخسارة فيها عظيمة ، ولها نتائج كبيرة ، مرت الإشارة إليها^(٤) .

لكن المَرَّاكُشِي صاحب المُعْجِب يقول : « فَعَبَّا الأَدْفُنْش جِيُوشَه وَرَتَبَ

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٩٤/٢ .

(٢) المعجب ، ٤٠١ .

(٣) الملة ، ٢٧٣/٢ ؛ التكميلة ١٠٢/١ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٦٢٤/٢ ؛ الروض ، ١٣٧ ؛ المغرب ،

٧٣/٢ ؛ النفح ، ٣٨٣/٤ ؛ الاحاطة ، ٣٨٣/١ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣١٣/٢ ؛

Manual de historia de Espana, I, 645.

قارن : البيان المغرب (تطوان) ، ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) عِقَاب : جمع عَمَّةَةَ ، وهو المرتفق الجبلي .

(٥) أعلاه ، ٦٤ .

أصحابه ودهم المسلمين وهم على غير أهبة ، فانهزموا ، وقتل من الموحدين خلق كثير .^(١) لعل أموراً كثيرة انتفع بها ملك قشتالة ، ومن عاونه من أهل ملته ، وقد اتبع لذلك كلّ وسيلة حتى الغدر والاحتيال ، وتلك أمور يأنف منها الخلق الإسلامي . بجانب نقاط ضعف كانت تَفْتُ عضد الجيش الموحدي . يذكر صاحب الروض المغطّار بعض أسباب هذه المزية ثم يقول : « ومخادعة النصارى لباقي الأجناد باشتئار الصلح والعمل على ضده ، حتى خالطوهم على غفلة فأخذ المسلمون في فرار ماسِعٍ بمثله »^(٢) .

كانت وقعة العِقاب من أشنع المزای التي لحقت المسلمين بالأندلس ، إن لم تكن عديمة النظير لديهم . خسروا فيها الكثير ، وما خسروه بعد المعركة كان أكبر . لكن يبدو أن الخسارة التي ترتبّت على المزية في هذه الواقعة شاركت فيها عوامل أخرى . وقتل في هذه المعركة خلق كبير ، كان منهم عدد وافر من الأعيان وأكابر العلماء . ومن استُشهد فيها :

* أبو عمر أحمد بن هارون بن عات التَّفْزِي (٥٤٢ - ٦٠٩ هـ) . من أهل شاطِبة ، صاحب التَّاليف الذي « كان أحد الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً ، لا يخل بحفظ شيء منها . موصوفاً بالذرية والرواية ، غالباً عليه الورع والزهد ، على منهاج السلف ، يأكل الحشيش ، ويلبس الخشن ، وربما أذن في المساجد ، وله تَاليف دالة على سعة حفظه ، مع النظم والثر .

« ... ثم توجّه إثر ذلك غازياً وشهِدَ وقعة العِقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى في تحبيف الروم بلادها حتى استولت عليها ، ففُقدَ حيئند ولم يوجد حياً ولا ميتاً . وذلك يوم الاثنين متتصف صفر سنة تسعة وستمائة . »^(٣)

(١) المعجب ، ٤٠١ .

(٢) الروض المغطّار ، ١٣٨ .

(٣) التَّكْمِلَة ، ١/١٠١ - ١٠٢ (رقم : ٢٦٢) . كذلك : الذيل والتَّكْمِلَة ، ١/٥٦٢ (رقم : ٨٠٨) . نفح الطيب ، ٦٠٢/٢ .

* القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري . من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بنسية « فُقِدَ في كائنة العِقَاب يوم الاثنين الرابع عشر لصفر سنة تسع وست مئة . »^(١)

* أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهْري . من أهل سبتة ، الذي « استوسع في الرواية . وكان معروفاً بالزهد ، . . . ، واستشهد في كائنة العِقَاب »^(٢) .

* أبو محمد تاشُفِين بن محمد المكتب . من أهل فاس « كان زاهداً ، عابداً ، معلماً بالقرآن له حظ من قرض الشعر ، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وست مئة ، فأقام هنالك أياماً يلْقَى الزاهدين ، ويذكر على قبور الصالحين ، ثم خرج إلى غزوة العِقَاب . ذكره ابن الطيسان وقال : أرأه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره . »^(٣)

* أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي ، من أهل الْيَسَانَة عمل قرطبة ، « ولِّيَ قضاء موضعه مدة طويلة ، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه . وله تأليف في رجال الموطأ ، . . . ، واستشهد في وقعة العِقَاب منتصف صفر سنة ٦٠٩ . »^(٤)

هذا ، كما لاحظنا في أكثر من مكان فيما سلف ، دَيَّنَ العلماء المسلمين وفقهم وقضائهم الذين كانوا كهفاً وملجأ للناس وقت الشدة ، وكانوا القادة في الأحداث واللمات ، وفي المخاطر تجدهم في المقدمة . عَلَّمُهم الإسلام أن العِلم - قبل كل شيء - خُلق وعمل . ويمكن بوضوح - خلال هذه الدراسة - ملاحظة هذا الخط واضحًا .

استولت جيوش الفُونش (الثامن) على الغنائم الكثيرة ، منها أشياء ثمينة كالعلم الموردي ، الذي مازال محفوظاً في إسبانيا^(٥) .

(١) التكملة ، ١٩٤/١ (رقم : ٥١٧) .

(٢) التكملة ، ٢٠٢/١ (رقم : ٥٣٦) .

(٣) التكملة ، ٢٣٥/١ (رقم : ٦٢٣) .

(٤) التكملة ، ٥٨٥/٢ - ٥٨٦ (رقم : ١٥٥٩) .

(٥) عصر المرابطين والموحدين ، ٣١٧/٢ ؛ الآثار الأندلسية الباقية ، ٣١٣ - ٣١٤ .

كان للهزيمة وقع وأثر سيء في كل من الأندلس والمغرب^(١). على الرغم من أن الموحدين قاموا بنشاط عسكري في الأندلس بعد هذه الواقعة ، إلا أنها مثلت بداية النهاية للدولة الموحدية ، وكذلك ضياع قواعد أندلسية كثيرة .

يصفها صاحب الروض المِعْتَار بأنها كانت « أول وهن دخل على الموحدين ». ^(٢)
ووصفت ابن عذاري في البيان المُغْرِب ، أنها : « كانت السبب في هلاك الأندلس »^(٣) . كما ذكر ابن الأبار أنها « التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى في تحجيف الروم بلادها حتى استولت عليها »^(٤) .

لكن لابد من اعتبار أسباب أخرى ، سواء بالنسبة للهزيمة في موقعة العِقَاب أو في نتائجها السيئة في الأندلس والمغرب^(٥) ، حيث تلا ذلك ذهاب قواعد أندلسية كبرى ، كما تقدم إيضاحه^(٦) .

استولى أدفونش – بعد العِقَاب – على بعض الحصون والمدن ، فأخذ عنزة مدينتي بَيَّاسَة (Baeza) وأبُنَدَة (Ubeda) وعاد فيهما تخريبًا وتدميرًا ، حتى المساجد ، وقتلاً لم ينج منه الجرحى والضعفاء والأطفال والنساء . وجرى – خلال حصار أبُنَدَة ، التي ثبتت بجيش الفُونش ومن معه – أن عرض أهلها فدية كبيرة لقاء المحافظة على عقيدتهم وسلامة أنفسهم فوافق هو وكل من بُطْرَهُ (الثاني، الكاثوليكي Pedro II, el Católico) ملك أرْغُون وشانجه^(٧) (السابع، الملقب عندهم القوي Sancho VII, el Fuerte) ملك تَبَارَة . لكن الأخبار رفضوا ذلك ، وكان بينهم مطران طُلَيْنِطُلَة ومطران أُرْبُونَة عارضاه باسم البابا^(٨) ، وأصرروا

(١) انظر : *فتح الطيب* ، ٤٤٦/١ .

(٢) *الروض المطار* ، ١٣٨ .

(٣) *البيان المغرِب* (تطوان) ، ٢٤٠ .

(٤) التكملة ، ١٠٢/١ (= أعلاه ، ٤٩٤) .

(٥) راجع : *عصر المرابطين والموحدين* ، ٣١٧/٢ – ٣٢٢ .

(٦) أعلاه ، ٤٧١ – ٤٨٣ .

(٧)

على عدم تنفيذ العهد وعلى استسلام المدينة دون قيد أو شرط . فوافق الملك على ذلك « ونقضوا العهد المقطوع ، واقتتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسيئوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسيبي من أهل أباده بعشرة ألف ، ويقدر بعضها السباعية وحدهم بعشرة ألف »^(١) .

ولم يكن هذا التصرف المثل الوحيد على هذه السياسة الصليبية لديهم ، فتلك طبيعتها المألوفة التي مرت لها الأمثلة المؤكدة على كل ذلك^(٢) . منها – يجانب هذا – ماجرى قبيل معركة العِقَاب^(٣) وسبق إيراده^(٤) . ويحدثنا عن ذلك عبد الواحد المرَاكُشِي (٦٤٧هـ) المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث ، وكان وقتها في الأندلس^(٥) ، فكان شاهد عيان لبعضها^(٦) ومت Hwyياً أو مستكتباً عن مشاهد ومشارك لبعض آخر . وبعد وقعة العِقَاب « فصل الأدْفُتش – لعنه الله – عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدي أصحابه أموالاً وأمتلة من مَتَاع المسلمين ، فقصد مدِينتي بيَاسَة وأبَدَّة ، فلما بَيَاسَةَ فوجدها أو أكثرها خالية ، فحرق أدُورُها وخَرَبَ مسجدها الأعظم ؛ ونزل على أبَدَّةَ وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المُنْهَزِّمة وأهل بيَاسَة وأهل البلد نفسه ؛ فاقام عليها ثلاثة عشر يوماً ، ثم دخلها عَنْوةَ ققتل وسيبي وغنم ، وفَصَلَ هو وأصحابه من السَّيْبَيِّنِ من النساء والصبيان بما ملثوا به بلاد الروم قاطبة . فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من المزيمة . »^(٧)

عاد الخليفة الناصر ومن معه إلى إشبيلية ثم إلى حضرة مرَاكُش ، حيث تُوفي في شعبان سنة ٦١٠هـ (كانون الأول = ديسمبر ١٢١٣ م) . اختلف في أسباب

(١) عصر المرابطين والمُوحدين ، ٢٢٢/٢ .

(٢) أعلاه ، ٢٧٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٢ – ٣٣٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ – ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٩١ – ٤٩٢ ، ٤٩٣ – ٤٩٤ . قارن ذلك بمعاملة المسلمين لنميرهم ، خلال الفتح وغيره . انظر : أعلاه ، ٧٧ ، ٧٩ – ٧٢ ، ٢٨٣ ، ٨٢ .

(٣) المجب ، ٤٠١ . (٤) أعلاه ، ٤٩٣ – ٤٩٤ .

(٥) المجب ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٠ ، ٤٠٢ .

(٦) المجب ، ٤١٤ . (٧) المجب ، ٤٠٢ – ٤٠٣ .

وفاته ، فربما « اغتم من أجلها غمّاً كبيراً كان السبب في وفاته بمراكبش في شعبان سنة عشرة وستمائة »^(١) . بويع بالخلافة – بعده – ابنه يوسف المستنصر .

ثالثاً : السمات العامة

بالإمكان تبين بعض سمات العهد الموحدي في الأندلس في الفترات السابقة المتعلقة بهم . كانت الأندلس – منذ انضووت تحت سلطان المرابطين ، والموحدين من بعدهم – احدى مناطق الدولة ، ليس مركزها في الأندلس ، لذلك كان اهتمام الخليفة بالأندلس يقتضيه الحضور إليها ورعايتها عن كثب . لم تكن هذه الرعاية تقتصر على الجهاد ومدافعة العدو المترbus ، الذي طالما استعان في حربه ضد الأندلس بخسود المتطوعة ، من بلدان أوربية أخرى بروح صلبيّة واضحة ، بل ان هذه الرعاية شملت النواحي المدنية كافة ، كالعلم والعمان والإدارة والإصلاح والراتب المختلفة . كان الخليفة يكثّ لهذه الأهداف السنوات العديدة ، تبلغ أحياناً خمساً، ثم يعود بعدها إلى حاضرته في المغرب . يكرر الخليفة المجيء إلى الأندلس كلما سُنحت الفرصة وكانت ضرورة . هذه الوضعية سمة لهذا العهد ، حيث أصبحت الأندلس ولاية ضمن الدولة الموحدية الكبرى .

اتخذت إشبيلية قاعدة للأندلس ، ثم انتقلت – لمدة قليلة – إلى قرطبة ، وأعيادت إلى مكانها الأول إشبيلية . غدت لهذه الحاضرة في أيامهم مكانة كبيرة^(٢) .

تعمّلت الأندلس في عصر الموحدين بمستوى كبير من القوة العسكرية والسياسية وال عمرانية والعلمية وغيرها ، كما هو الحال في المغرب ، الجناح الآخر للدولة الموحدية . تميزت الأندلس بالمستوى الحضاري العالي الذي استمر نموه في كثير من الجوانب برعاية الموحدين مع مكانة المغرب الحضارية .

قامت الدولة الموحدية تستمد وجودها من الإسلام ، وعليه ارتکزت أصول

(١) الخلل الموثيق ، ١٢٢ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٣٢٤/٢ . قارن : المعجب ، ٤٠٣ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٦٢٨/٢ ، ٦٤٠ .

سياستها ، رغم وجود بعض المفوات . انبثقت من الإسلام تنظيمات الدولة وسياستها الادارية وغيرها^(١) . أكد الخلفاء والولاة إقامة العدل والضرب على العبث والتمسك بشرعية الإسلام ، في أمورهم وإدارتهم . طالما أكدوا « وجوب التزام الدقة في تطبيق الأحكام الشرعية ، ووجوب الكف عن اقتضاء أية مغامر أو مكوس ، لاتبیحها الشريعة ولا تتفق مع قواعد العدل ، وأنه لا يجوز الحكم في مواد الحدود بالإعدام أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ، ليصدر هو قراره في هذا الشأن ، وأنه يجب تحريم الحمر ، ومطارتها فيسائر أنحاء الدولة ، وأنه يجب حماية أموال المخزن (أموال الدولة) ، وصونها وعدم التصرف في شيء منها ، دون استئذان الخليفة . »^(٢)

هذه المعاني الإسلامية وغيرها هي التي كانت تقوم عليها التوجيهات وبها تُساس الأمور . وظهرت آثار هذا النهج والالتزام بهذا الشرع في نواحي الحياة المتعددة ، سواء في ميدان الجهاد أو في النواحي المدنية الأخرى ومنها العلمية .

أنقذت الأندلس من الأخطار التي كانت تهددها ، وحين زالت هذه القوة والحماية ، بدأ الخطر يتهدد الأندلس ، واقتُطع منها عدد من القواعد .

بلغت الدولة الموحدية مكاناً عالياً من القوة العسكرية والسياسية والحضارية . كما حضرت الوفود الكثيرة سواء من دول إسبانيا الصرانية ، أو غيرها من الدول الأروبية ، إلى البلاط الموحدي للصداقة وعقد المعاهدات أو طلب المعونة . كذلك أحدث في أواخر العصر الموحدي منصب وزير يقوم باستقبال السفراء والاهتمام بأمورهم^(٣) . جرى ذلك عندما حضرت سفارة ملك إنجلترا هنري (الثاني) ، أو ملك نَبَارَة شَانِجُهْ (السابع)^(٤) ، إلى الخليفة الناصر .

(١) انظر : أعلاه ، ٤٦٠ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٦١٩/٢ .

(٣) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٣٤ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٨٩/٢ - ٢٩٠ .

الناحية العسكرية : مع المواقف الجهادية التي شهدناها كان يصح ذلك اتخاذ الأهمية الالزامـة والاستعداد ، سواء بالحاميات الدائمة أو العناية بالإنشاءات العسكرية والتحصينات والأسطول . كانت للجيش تنظيماته وأسلوبه في التحرك والقتال . طلما كان الخليفة يقود النشاط الحربي في الميادين ، وحركة الجهد قائمة والناس على أهبة واستعداد . اعتاد الخليفة (أو القائد) أن يستشير القادة (المجلس العسكري) في أمور الحرب وخُطط الميدان^(١) .

كان الاهتمام بالناحية الإدارية وافراً . يشرف الخليفة عليها أثناء وجوده في الأندلس ، ويحاسب العمال ويستبدل من لا يناسب منهم . استمر الاهتمام بأمور الناس وضمان حقوقهم على أساس من الشريعة ، كما سبق ذكره آنفاً . وكانت الخلافة وراثية . أما الأمور المالية فقد وضع لها منهاج . نظمت المعاملات وأمور المصارف والموارد ، ونعمت الأحوال الاقتصادية - في العموم - بالأمن والرخاء وتقدمت الزراعة والتجارة . وكان القضاء - كعادته - نظاماً جليلاً كبيراً تولاه أهل الأندلس ، بل إن من الأندلسيين من ولـي القضاء في المغرب أيضاً . وللقضاء متعلقات منها الشورى والحسيبة^(٢) .

توفرت في الجانب العمراني الإنشاءات الحربية بجانب بعض الانشاءات المدنية . أنجز الكثير من المشاريع العامة ، كما أنسـت بعض القصور الخاصة المزودة ببستان مزین بأنواع الغراس تُسقى بالتواعير . أنشأ الخليفة أبو يعقوب يوسف بعض المشروعات في إشبيلية ، منها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير . كما عمل على تحصين هذه المدينة وتجمـيلها وإقامة المنشآت الفخمة ، وتهيئة المياه الجارية وتوفيرها لسقاية الناس ، ثم أقام جامع إشبيلية الأعظم ومئذنته الكبيرة .

شارك في هذه الأعمال عدد من المهندسين (العُرَفَاء) المشهورين والبنائين

(١) البيان المغربي (تطوان) ، ١٩٨ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢١٧/٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠ - ٦٤٠ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٦١٩ - ٦٢٦ ، ٦٢٨ - ٦٣٠ .

والعمال المهرة ، أمثال : أحمد بن باسَه شيخ عُرْفاء الأندلس^(١) (عريف البنائين = المهندين) ، وال حاج يعيش المالقي (الذي شارك في الإشراف على بناء المدينة في جبل طارق^(٢)) وغيرهم^(٣) . بني الخليفة أبو يعقوب يوسف الجامع الكبير سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) وكذلك المئذنة (الصومعة) التي أتمها ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور من بعده سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . ويبلغ ارتفاعها ٩٦ متراً ، ولا تزال قائمة رغم ما أحدث فيها من تغيير ؛ أما المسجد فقد استبدل مكانه بكنيسة كبيرة^(٤) . يصف ابن صاحب الصلاة وصفاً عيانياً بناء المسجد الجامع وعمليات إنشائه في كتابه *المن بالإماماة*^(٥) . هناك إنشاءات ومشاريع أخرى ، لعله منها العناية أيضاً بالمشروعات الصحية والعلمية والاجتماعية .

استمرت الناحية العلمية بالنمو ورعاها الخلفاء الموحدون والمسؤولون منهم . ذلك وضع طبيعي للحياة الإسلامية وبناء مجتمع الإسلام وما يغرسه لديهم من حب العلم والعلماء وطلبه . تُصبح كثير من الجوانب العلمية والفكيرية جزئيات في هذا الخط للمجتمع المسلم ، أو هي ثمرات طبيعية ، وينظرُ أولاً إلى الأسس التي قامت عليه . كان الخلفاء والمسؤولون هم أنفسهم علماء ، وعلى مستوى عال من المعرفة ، وفي ميادين كثيرة منها .

سارت الحركة العلمية بالأندلس في النمو والإنتاج في كل ميدان ، وظهر الانتاج الكبير . ولدينا ثبت كبير من أهل المعرفة ، بفروعها ، والمؤلفات كثيرة والعناية بالمكتبات الخاصة وال العامة مألوقة . تُرجم عدد من هذا الإنتاج الرفيع إلى اللاتينية . وهذه بعض أسماء العلماء واللامعين منهم أيام الموحدين ، على سبيل المثال :

* أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن الفرج الأنباري (غرناطة ، ٥٠١ -

(١) انظر : *المن بالإماماة* ، ١٣٩/٢ ، ١٣٩ ، ٤٦٧ ، ٢٠٦ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ . قارن : *المقتبس* ، ٦٨/٢ .
الذخيرة ، ١١١/٢ - ١١١ ، ٤٧٢ الصلة ، ٥٧٢ (رقم : ١٢٦٣) ، الاحاطة ، ١/٤٦٨ ، ٢٠٤ .

(٢) أعلاه ، ٤٥٨ .

(٣) راجع كذلك : *المغرب* ، ١٦٢/٢ ؛ *فتح الطيب* ، ٣٢٥/٢ ؛ *المن بالإماماة* ، ٢٥١/٢ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٧٠/٢ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ وبعدها .

(٥) *المن بالإماماة* ، ٤٧٤/٢ - ٤٧٩ .

إشبيلية ، ٥٦٧ هـ) . « كان عالماً حافلاً » ، راوية مكثراً يتحقق بالقراءات والفقه ، ويشارك في الأحاديث والأخبار مع البصر بالفتوى ووجوهاها ، . . . ، أحد حفاظ الأندلس في المسائل مع المعرفة بالأداب والأغربة إلى الضبط وجودة الخط . وكانت أصوله أعلاقاً نفيسة لا نظير لها ، جمع منها عظيماً وكتب بخطه أكثرها .^(١)

* أبو بكر محمد بن خير (إشبيلية ، ٥٠٢ - قرطبة ، ٥٧٥ هـ) . من أهل إشبيلية ، صاحب فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدوادين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعرف . كان كثير التقىيد معتنباً بالرواية « مقرناً مجوداً ضابطاً محدثناً جيلاً » متقناً أدبياً نحوياً لغوياً ، واسع المعرفة رضياً ، مأموناً ، كريم العشرة ، خيراً ، فاضلاً ، ما صحب أحداً ، ولا صحبه أحد إلا أثني عليه . . . وكانت كتبه في غاية الصحة والإتقان لكثرة ما عانها ، وعالج تصحيحها بحسن خطه ، وجودة تقىيده وضبطه ، وفي ذلك قطع دهره ، وأنفق حياته ، فلحق بالمتقدمين ، وأربى على المتأخرین ، وأدى ذلك إلى المغalaة فيها بعد وفاته حتى بلغت أيامها العاية^(٢) .

* أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج بن عمارة الانصاري (غرناطة ، ٤٩٥ - ميورقة ، ٥٧٩ هـ) . من أهل العلم والمعرفة ، واشتغل بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه ، وألف فيها ، وكان « فكه النفس حلو النادرة ، حميد العشرة ، نشأ بغرناطة على طلب العلم ، وتقىيد الآثار ؛ وولّي القضاء بعده كُور من أعمالها »^(٣) .

* أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجند الفهري (لبلة ، ٤٩٦ - إشبيلية ، ٥٨٦ هـ) . فقيهُ الأندلس لوقته ، الحافظ المستبحر الذي « انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والفتوى ، وقدم للشوري مع أبي بكر بن العربي ونظرائه من الفقهاء حينئذ بإشبيلية في سنة ٥٢١ وأبو القاسم بن ورديلي قضاها ، وتمادى به ذلك نيفاً على ستين سنة في أزيدiad سُموَّ الرتبة ، واطراد تمكن المُحْظُوَة عند الملوك . . . وكان فصيحاً، خطيباً مفوهاً ، يبلغ بالبديبة ما لا يبلغ بالروية . أخذ عنه جلّةُ أهل الأندلس

(١) التكملة ، ٥١٠ - ٥٠٩ / ٢ (رقم : ١٣٩٤) .

(٢) التكملة ، ٥٢٤ / ٢ (رقم : ١٤٢٤) .

(٣) التكملة ، ١٥٥ / ١ (رقم : ٤٠٠) .

والعدوة ورحلوا إليه وانتفعوا به ، ولم يستغل بالتأليف على غَزَارة حفظه ، ومعانة مادة علمه . «^(١)

* علي بن عتيق بن أحمد بن عبد الله بن مؤمن الأنباري (قرطبة ، شوال ٥٢٢ هـ فاس ، ٥٩٨ هـ) . صاحب المؤلفات الكثيرة ، « وكان محدثاً راوية مكتراً ، عني بهذا الشأن طويلاً وبخت فيه ، حاضر الذكر للآداب والتواريخ عموماً ، وخصوصاً تواريخ المحدثين ، ماهراً في علم الكلام والطب موفق العلاج ، بارعاً في التعاليم ، أدبياً شاعراً حسن التصرف ، متقدماً في صنعة التوثيق وفي ما كان يتحله من العلوم ، ونظم في العقائد قصيدة جامعة كبيرة ، . . . ، وكان ممتع المجالسة »^(٢) .

* أبوالحسين محمد بن أحمد بن جُبَير (بنسية ، ٥٣٩ - الإسكندرية ، ٦١٤ هـ)^(٣) . من أهل بنسية ، الرحالة الشهير صاحب رحلة وكتاب رحلة ابن جبير . « وعني بالأداب فبلغ منها الغاية ، وتقدم في صياغة القرىض وصناعة الكتابة ، ونال بها دينا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وتحرك لنيته الحجازية في شوال سنة ٥٧٨ »^(٤) . « وكان أدبياً بارعاً كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً سيناً فاضلاً نزيه الهمة سري النفس كريم الأخلاق أنيق الطريقة في الخط ، كتب في شبيبته عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وعن غيره من ذوي قرابته »^(٥) .

* أبو الحسن علي بن محمد بن الفضل المعافري (إشبيلية ، ٦٢٧ هـ) . « كان كاتباً بارعاً ، شاعراً مجيداً ، حسن الخلق كريم الشمائل ، لوذعياً نظيف الملابس ، جميل العشرة »^(٦) .

* أبوالربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي (بنسية ، ٥٦٥ - أئشه ، ٦٣٤ هـ) . الحافظ المحدث الأديب الذي أربت مؤلفاته على العشرين ، « وكان بقية

(١) التكملة ، ٥٤٢/٢ - ٥٤٣ (رقم : ١٤٦٩) .

(٢) الذيل والتكلمة ، ١/٥ ٢٦١ (رقم : ٥٢٥) .

(٣) نفح الطيب ، ٣٨١/٢ .

(٤) التكملة ، ٥٩٨/٢ (رقم : ١٥٨١) .

(٥) الذيل والتكلمة ، ٦٠٧/٢/٥ (رقم : ١١٧٢) ؛ الإحاطة ، ٢٣١/٢ . كذلك: المغرب ، ٣٨٤/٢ .

(٦) الذيل والتكلمة ، ٣٧٦/١/٥ (رقم : ٦٥١) .

الأكابر من أهل العلم بتصنيع الأندلس الشرقي ، حافظاً للحديث مبرزاً في نقهه تام المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذاكراً لرجاله وتوارينهم وطبقاتهم ، ريان من الأدب ، كاتباً بليغاً شاعراً محيداً خطيباً مصقعاً خطب بجامع بلنسية في أوقات ، واستمعتْ ضي وعرف بالفضل والعدالة في أحواله جُمِعَ ؛ ورحل الناس اليه متنافسين في الأخذ عنه ، وله مصنفات في الحديث والسير والأداب تدل على رسوخ قدمه في المعرف وبراعته فيما تولاه منها ، جودة انتقاء وإجاده إنشاء^(١) . استُشهد في معركة آنِيشة بظاهر بلنسية سنة ٦٣٤ هـ^(٢) . كان فوق كل ذلك « كامل المروءة طيب العشرة حسن الخلق والخلق جميل الصحابة متع المجالسة عذب المنطق وجبيها سري الهمة أبي النفس نفأعاً بجاهه وماله وعلمه »^(٣) .

كان أبو الريحان شخصية بدت فيها الصبغة الإسلامية التي صاغته وأمثاله هذه الصياغة ، ينفرد بها الإسلام ومن عاش في ظله وارتوى هديه واتخذ سنته . وتاريخنا الإسلامي مملوء بهذه الأمثلة الكريمة التي أضاءت تاريخ الإنسانية - مِنْ أيّ لون و الجنس و قبيل - وأعلنت مكانتها وأجلت قدرها وأظهرت تكريم الله لها ، فقدَّمت نماذج طاهرة كثيرة و نوعاً صالحاً وفيراً ، تظل تُشير إلى رفعة الإنسان حين ينهج طريقَ الله الوحيد السديد ويأخذ بشرعه القويم ، لكن هذا كله ينعلم حين يبتعد الإنسان عنه فيهبط ويسرد منه فيبيد ، وتاريخ القرون بذلك أبلغ ناطق وأقوى شهيد .

* أبو الحسن علي بن جابر الدَّبَّاج (إشبيلية ، ٥٦٦ - إشبيلية ، ٦٤٦ هـ) . الأديب النحوي الذي « كان حسن السَّمْتُ والمَدْيُ ، دَبَّاناً صالحاً سَنِيًّا فاضلاً ، ظريف الدُّعَابَة حسن اللَّوْذَعِيَّة ، مُقْرَئاً مُجَوَّداً ، متعلقاً برواية يسيرة من الحديث ، متقدماً في العربية والأدب ، يقرض قطعاً من الشعر يجيد فيها ؛ عكف على إقراء القرآن

(١) النيل والكلمة ، ٤/٨٥ (رقم : ٢٠٣) .

(٢) أعلاه ، ٤٧٤ .

(٣) النيل والكلمة ، ٤/٨٨ .

وتدريس العربية والأدب نحو خمسين سنة لم يتعرض لسواء ولا عرج على غيره نزاهةً عن الأطماء وأنفةً من التعلق بالدنيا وأهلها ، وكان مبارك التعليم فنفع الله بصحبته والأخذ عنه خلقاً كثيراً ؛ وكتب بخطه الرائق الكثير وأتقن ضبطه وتقبيده^(١) . * أبو عبد الله محمد بن الأبار (بلنسية ، ٥٩٥ - تونس ، ٦٥٨ھ) . العلامة الموسوعي ، صاحب المصنفات الكثيرة التي جاوزت الأربعين^(٢) ، وقد مر ذكره^(٣) وتكرر نقل نصوص كثيرة من كتبه .

* أبو الحسن علي بن محمد الانصاري الجياني (مراكش ، ٦٦٣ھ) . تلميذ الدجاج ، وصاحب المؤلفات الذي « كان أديب النفس كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً ، رقيق العزل بارع المنازع فائق النظم والثر مبرزاً في فهم المعاني ، نحوياً ماهراً ذاكراً للغات والآداب ، من أربع من رأيته خطأ ، وكان لا يُحسن برؤيَ القلم إنما كان يُبُرِّى له »^(٤) .

* أبو الحسن علي بن محمد الرعياني^(٥) (اشبيلية ، ٥٩٢ - مراكش ، ٦٦٦ھ) . اشتغل بالتأليف ، له منها برنامج شيوخه ، يزيدون على مئة . كان أدبياً كاتباً « غابت عليه الكتابة واعتمدتها وتقدم فيها وكتب بحلة من الملوك بالأندلس والعُدوة »^(٦) . * من المؤرخين : أبو مروان عبد الملك بن محمد ابن صاحب الصلاة (بعد ٥٩٤ھ) ، مؤلف كتاب المتن^(٧) بالإمامية ؛ وعبد الواحد المرأكشي (٦٤٧ھ) ، صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ؛ وعلي بن موسى ابن سعيد (٦٨٥ھ) ، أحد مؤلفي المغرب في حلوي المغرب ؛ وابن عذاري (بعد ٧١٢ھ) ، صاحب البيان

(١) الذيل والتكملة ، ١/١٥ (رقم : ٣٩٤) . كذلك : برنامج شيخ الرعياني ، ٨٩ .

(٢) انظر : الذيل والتكملة ، ٢٥٣/٦ ؛ نفح الطيب ، ٥٩٢/٢ .

(٣) أعلاه ، ٤٧٦ وبعدها .

(٤) الذيل والتكملة ، ٥٧٩/٥ (رقم : ٢٨٨) .

(٥) الذيل والتكملة ، ٣٢٣/١٥ (رقم : ٦٣٦) .

(٦) صلة الصلة ، ابن الزبير ، ١٤١ . كذلك : برنامج شيخ الرعياني ، المقدمة ، ١٠٢ ، ٢٠٠ .

(٧) الذيل والتكملة ، ٣٢/١٥ (رقم : ٧٠) .

المُغْرِب ؛ ثم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري (٥٧٠٣ هـ) ، صاحب موسوعة **التراجم الذيل والتكميلة لكتابي الموصول والصلة**^(١) .

* في الطب : أبو جعفر أحمد الغافقي (٥٦١ هـ) ، برع في الطب والنبات^(٢) ، وأسرةبني زُهْر^(٣) ؛ وأحمد بن مفرج الأموي المعروف بابن الرومية (٦٣٧ هـ) ، اشتهر بعلم النبات^(٤) ؛ وأبو علي حسن بن مفرج البكري الأشبواني ، المعروف بالزرقالة^(٥) (٦٠٣ هـ) ، درس الحديث والأدب واشتهر بالطب والعلاج^(٦) ؛ وأبو بكر محمد الرقوطي ، برع في علوم كثيرة منها الهندسة والطب ؛ وأبو زكريا يحيى بن العوَّام الإشبيلي من علماء الزراعة وله كتاب الفلاحة^(٧) . أما أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طُفَيْل (٥٨١ هـ) صاحب رسالة حَيَّ بن يَقْظَان^(٨) ، وأبن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد (الخفيد) (٥٩٥ هـ)^(٩) فقد اشتهر بالطب والفلسفة^(١٠) .

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٧٠٣/٢ - ٧١٠ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٧١٢/٢ .

(٣) **الذيل والتكميلة** ، ٣٩٨/١ (رقم : ١٠٧٦) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٧١٣/٢ .

(٤) **التكميلة** ، ١٢١/١ (رقم : ٢٠٤) ؛ الاحاطة ، ٢٠٧/١ ؛ نفح ، ٥٩٦/٢ ؛ أعلاه ، ١٧٠ .

(٥) عرف أكثر من عالم - في الأندلس - بهذا القب أو نحوه . انظر كذلك : **التكميلة** (الجزائر) ، ٣٦

(رقم : ٧٥) ، ١٦٩ (رقم : ٣٥٨) ؛ درة الحجاز في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، ١٢٠/١ .

(رقم : ١٤٩) ، ٢٢٢/٣ (رقم : ١٢٥١) ، ٣٥٣ (رقم : ١٤٩٩) ؛ نفح الطيب ، ١٠٥/٦ ، ٢٠٦/١ .

يعتبر ابن الزرقالة أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التنجيبي النقاش (٤٩٣ هـ) ، من أهل طليطلة (**التكميلة** ، ١٣٨/١ ، رقم : ٣٥٨) ، مخترع الزرقالة (الزرقالة) ، ربما نسبة إليه . وهي صفيحة (آلة) الرصد (الأسطرلاب ، Astrolable ، مرآة النجوم) ، تستعمل لمعرفة الوقت والجهات ورصد النجوم .

(٦) **التكميلة** ، ٢٦٤/١ (رقم : ٦٩٩) .

(٧) عصر المرابطين والموحدين ، ٧١٨/٢ .

(٨) المعجب ، ٣١١ ؛ الاحاطة ، ٤٧٨/٢ - ٤٨٢ .

(٩) **التكميلة** ، ٥٥٣/٢ (رقم : ١٤٩٧) ؛ المعجب ، ٣١٤ .

(١٠) عصر المرابطين والموحدين ، ٧٢٣/٢ .

يكاد يكون لكل من مؤلِّفاته العلَّميَّة انتاجه العلَّمي ، وبلغت مؤلِّفات بعضهم العشرات . وهم ليسوا إلا القليل من الكثيرون ، زخرت بهم الأندلس في هذه المدة ، مثلاً بأمثالهم قبلها . شيوخ العلم والمعرفة وتوفُّر الانتاج فيها أمرٌ طبيعي في أي مجتمع مسلم . كان هذا الانتاج للجو الذي يهيئه مثل هذا المجتمع بطبيعته . تم كله رغم الأحداث والمواجهات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، الأمر الذي يستفرغ الكثير من الجهد ويهزِّم الجو الهدىء الذي يلزمـه العلم وتوافر الناس عليه وإنـتاجـهم فيه .
لایفوـتنا أنـ الكثـير منـ العـلـماء منـ كـلـ مـيدـانـ كـانـتـ لهمـ مـشارـكـةـ فيـ هـذـهـ الأـحـدـاثـ . وـقـفـ بـعـضـهـمـ فـيـ الـمـقـدـمـةـ ،ـ كـماـ تـبـيـنـ⁽¹⁾ـ .ـ لـيـسـ الـعـلـمـاءـ وـأـهـلـ الـفـكـرـ عـالـةـ ،ـ يـسـنـزـوـونـ حـيـنـ الـأـحـدـاثـ وـبـرـزـوـنـ فـيـ صـفـاءـ الـجـوـ وـالـنـعـمةـ .ـ فـكـمـ مـنـ عـالـمـ ،ـ لـاـ سـيـماـ عـلـمـاءـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـالـسـنـةـ الـنـبـوـيـةـ الشـرـيفـةـ وـعـلـمـاءـ الشـرـيـعـةـ الـمـطـهـرـةـ وـالـتـارـيـخـ وـالـقـضـاءـ ،ـ كـانـواـ دـوـمـاـ فـيـ الـمـقـدـمـةـ .ـ لـأـنـ الـعـلـمـ إـيمـانـ وـعـمـلـ ،ـ وـالـصـدـارـةـ فـيـ الـعـلـمـ هـاـ مـسـؤـولـيـتهاـ وـتـكـالـيـفـهاـ .ـ ذـلـكـ وـاضـحـ —ـ تـمـاماـ وـدوـاماـ —ـ فـيـ تـارـيـخـنـاـ ،ـ خـلالـ مـراـحلـهـ الـمـتـلـاحـقـةـ .

(1) أعلاه ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ - ٤٧٤ ، ٤٩٤ ، ٤٧٩ .



الفصل الثامن

مِنْ كِتَابِ غُرْفَةِ الْأَطْهَارِ

الأندلس الصغرى

(١٤٩٢ - ١٢٣٨ م) ٦٣٥ هـ

أولاً : نشأتها .

ثانياً : ثبات غرناطة وأسبابه .

ثالثاً : توقف الانحسار .

رابعاً : حالة إسبانيا الصرافية .

خامساً : الصراع بين غرناطة وسلطات إسبانيا الصرافية .

سادساً : أحوال غرناطة وأهم الإنجازات .

سابعاً : تزايد الخطر ووقوع الكارثة .

ثامناً : قائمة بأسماء ملوك غرناطة .

تاسعاً : حنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش .

ملكة غرناطة

نقد

تبين - باختصار - عموم حال الأندلس في نهاية العصر الموحدى الذي أفضى إلى سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، حين ضعفت المقاومة أمام قوى إسبانيا النصرانية المتحدة . رغم عدم مقدرة الموحدين على حماية الأندلس فإن أهل الأندلس رأوا أنه لابد من القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم ما بقي من بلدتهم . كانت الأندلس لا تزال خاضعة للموحدين ، وقد تخلخل وضعهم وذهب قوتهم وغدوا لا يُغفّون في الدفاع لإبعاد نهايّتهم التي قربت ؛ وتلك هي الحال في المغرب والأندلس . لكن زوال سلطانهم في الأندلس كان أسرع ، حيث لم يكن من السهل الانتظار والاعتماد عليهم .

استمرت الدولة الموحدية في المغرب تواجه القوى الناهضة حتى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦١ م) . اختمت حياتها ، لترثها هناك دولة بني مرين الفتية النشطة التي ستضطلع بعهدة الموحدين في الأندلس ، والمرابطين من قبلهم .

* * *

لعل تتبع الدول والسلطات في المغرب والأندلس - إثر ضعف السابق والتباين أمره ، لتتحقق به أخرى فتية قوية - فيه معنى آخر ، هو : التجدد في هذه الأمة المسلمة . إنها تشير إلى الحيوية المستمرة ، مادامت إلى دينها راكنة ومعانٍ فيها متمكنة ، مهما أصابها من ضعف في بعض الجوانب ، وترآكت عليها عوامل في حيّز من عالمها أو ردحاً من حياتها المطاولة ؛ فطالما كانت بوارق الأمل تبدو من بين ظلمات اليأس ويأتي النصر دون مخالفه . غير ضروري أن يكون ذلك جلاً بالخوف ؛ وإن غداً مصدرًا للأذى ، فهو مداعاة للاستعداد ودافع للتحفظ ، مادامت الأمة لم تخسر إيمانها بمصدر قوتها وينبوع وجودها ، بإسلامها . الأمة التي تخفي بعقيدتها لا تموت بموت قائد أو ذهاب دولة ، وإن كان هذا سبيلاً خطيراً ولله أهمية

كبرى . خسارة أو ضعف الأمة الاسلامية في عقلياتها هي المكون الحقيقي للنكبة المضيّعة والطامة الفانية . ذلك ما يسعى اليه خصوم الاسلام ، وإليه توجهت سهامهم المسمومة المحمومة . كانت حملتهم مجنونة ، وما خلت دوماً من رعنونه . ذلك باد تماماً من خلال الأحداث الاندلسية التي مرت في مناسبات عديدة^(١) ، ومواجهات كانت العملات فيها قاسية شديدة . سنلاحظ ذلك أيضاً في أحداث أخرى قادمة من تاريخ غرناطة . تلك فكرة فيها دروس وعبر ، تستأهل الاهتمام وتستحق النظر.

إذا كان الركب سائراً ، لابد له من قائد واع أمين . يقوده بحرص ويقتظة ، يعطي من نفسه أكثر مما يأخذ لها ، إن كان سيأخذ . إذا ذهب - ولأي سبب - فللابقاء على الركب ، راعياً لمقوّماته متسلكاً بعقيلته ، لابد من نبذ كل حالة تُفضي إلى المُزّال والتخلّف ونَفْي المعقّلات عن متابعة الركب لموكبه في الطريق المنير . هو ميدان واسع واضح عملي لإظهار أقدار هذا النوع من القيادة ، وأحياناً بعد مخاض طويل . طالما تحرك الركب بأجمعه في مثل هذه الأحوال – خلال الأحداث التي درسناها – لا جراء تصحيح في مكان ما من خطّه ، أو تعميق ارتباطه بعقيلته أو إعادة نظر في حاله ، حسب ظروف جدّت أو نازلة حلّت ؛ بطارئة في بنائه أو تدبير من أعدائه ، فيتّقدس يتصرف في نحو ما متّخذآ سبيلاً لتقيم الحال .

يحدث التغيير في شكل أو أكثر ، وبهـيء لذلك الأسباب في أي موضعٍ من المقدمة حتى النهاية أو في وسائل الرعاية والقيادة ، ليبقى الركب سائراً في نفس الوجهة والمصمّار ، يحملُ الولاء هذه العقيدة بكلٍّ أجزائه . ومن هـذا الولاء ذاته ينبعُ ولاء الأجزاء واللبيّنات بعضها البعض . وقد يكون في الركب ملتصقٌ أو متّهونٌ . من ذلك ما يتم بمجيء قائد بسهولة تامةً مكان غيره ، استشهاد أو عزل أو قتل ، كما حدث في عهد الولاة مثلاً ، أو بعد جهوده وربما إثر تبدّلات واجراءات أخرى يطول أمدها أو يقصر ، كما لاحظنا أيام الطوائف وكما سنلاحظ قبيل قيام غرناطة .

(١) انظر : أعلاه ، ٤٠٢ - ٤٠٠ .

لكن المروع لهذا النوع من العمل والتزوع إلى التضحيّة والبقاء منسجم مع مقدار صحة البُنيَّة ومرتبط ببعد الغور الذي وصلت إليه أُسسه . هذا أيضًا دليل بذاته إلى حقيقته وعنوان على طبيعته ، من غير بُرجة أو ادّعاء ، فذاك أسلوب لا يغيّر ولا يصلح أداة للتغيير نحو الأحسن . على هذه الأصوات بالامكان فهم عدد من الأحداث في التاريخ الأندلسي ، من مثل عهد الولاة ثم الطوائف . وقد مرت قضايا تفصّح عنه وتنبيء به .

الحالة قبل غرناطة

تلا ضعفَ السلطة الموحدية في الأندلس ضياعُ العديد من قواهده . زيادة على عدم توفر القوة الكافية لمواجهة إسبانيا النصرانية المتّنامية التي كثيراً ما كانت تتّحد لتجاه سويةٌ ضربة للأندلس ، كان ذلك سبباً مهمّاً في هذا الاتحاد . مهم أن تظهر محاولات وتبرز شخصيات ، تُمسّك على الأندلس ما بقي منها . كانت تلك مهمة شاقة وجدةً عسيرة ، لكن الأمل بها قائماً والنفوس متطلعة والإمكانية متوفّرة .

ابن هُود : أول شخصية أندلسية ظهرت في الميدان كانت من أسرة بني هود أصحاب سرّ قُسطنة^(١) . إنه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هُود الجُذامي الذي لُقب : أمير المسلمين سيف الدولة والموكل على الله^(٢) . كان يسكن مدينة مرسية ومن الأجناد فيها ، حيث بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ^(٣) . دخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية : مُرْسِيَّة وقُرْطُبَة وإشْبِيلِيَّة وغَرَّانَاطَة وَمَالَقَة وَالْمَرِيَّة وغيرها^(٤) .

كان « قليل المبالاة » ، تغلب على تحركه الحفة والاستعجال . لذلك خسر بعض المعارك ، حيث نازل فِرَانْدَه^(٥) (الثالث) ملك قشتالة ، ووالده الفونش (التابع)

(١) أعلى ، ٣٥٥ وبعدها .

(٢) المُنْرِب ، ١٠٩/٢ ، ٢٥١ ، ٤ البر ، ٣٦٤/٤ ، ٣٦٥ ، فتح الطيب ، ٢١٥/١ .

(٣) الخلة السيراء ، ٣٠٨/٢ ، الروض المطار ، ١١٨ ، المُنْرِب في حل المُنْرِب ، ٢٥١/٢ ، أعمال الأعلام ، ٢٧٨/٢ ، البر ، ٣٦٢/٤ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢٧٧/٢ - ٢٨٠ ، المُنْرِب ، ١٠٨/٢ - ١٠٩ ، ٢٥٢ - ٢٥١ ، الاحاطة ، ١٣٠/٢ . كذلك : الاحاطة ، ١٤١/١ - ١٤٢ ، المُنْرِب ، ٣٢٠/١ .

ملك ليون^(١) . عمل ابن هود على إثناء سلطان الموحدين في الأندلس ، الذين عجزوا - في هذه المدة - عن حماية الأندلس ، ثم الوقوف في وجه الأنططار وهجومات إسبانيا النصرانية . الظاهر أن ابن هود لم يكن في مستوى مقدرة قيادية يُعينه - في مثل تلك الظروف - للاحتفاظ بالأندلس . بل إن ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي (٦١٠ - تونس ، ٦٨٥ھ) يعتبر تولّي ابن هود أمر الأندلس ضاراً بها ، حيث وجد فيها « قلوبًا منحرفة عن دولة بَرِّ العُدُوّة ، مهيئة للاستبداد ، فملكتها ب AISير محاولة ، مع الجهل المفرط وضعف الرأي »^(٢) . لكن ابن الخطيب يسوق حاله مساقاً آخر فيراه « شجاعاً ، كريماً حرياً وفيما ، متوكلاً عاليه ، سليم الصدر ، قليل المبالاة بالأمور ، محدوداً ، لم يُنصر به جيش ، ولا وفق له رأي ، لغيبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد . وكان خروجه من مرسيية تاسع رجب سنة ٦٢٥ ، وظهوره بالصخور من جهاتها في نهر يسير من الأجناد . »^(٣)

هُزم ابن هُود في عدد من المعارك ضد إسبانيا النصرانية ، ثم سقطت بعض القواعد الأندلسية - كما سبق بيانه^(٤) - منها قرطبة العاصمة الثالثة . حيث حين حاصرها ملك قشتالة فِرَآنْدُه^٥ ، فِرْدِلَنْد (الثالث) وتأهب أهلها للدفاع والاستماتة وطلبو الغوث من ابن هُود نكل عنها وتركها لمصيرها المؤلم . في وقت واحد كانت الأندلس - وهي في هذه الظروف - تواجه هجوم عدد من ملوك إسبانيا النصرانية . حين بدأت الأندلس تجتاز هذه الظروف الصعبة ، كانت إسبانيا النصرانية تزداد قوة على حساب الأندلس ، وتتقرب وتتحدى سلطاتها لحرب الأندلس ، وبسبب منه . استمر حصار قُرطبة عدة أشهر . كانت قوات قشتالة قد احتلت - قبل ذلك - بعض أبراج المدينة ودفع أهلها عن مديتها المسلمة أروع دفاع . لكن الحصار كان قاسياً وشديداً أرهق المدافعين الذين حين انقطع عنهم الأمل في مساعدة اضطروا إلى

(١) راجع : أعمال الأعلام ، ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ ؛ نفح الطيب ، ٣٨٤/٤ ؛ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصررين ، عنان ، ٣٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٢١٥/١ . كذلك : المغرب ، ٢٥١/٢ .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢٧٨/٢ . كذلك : الاحاطة ، ١٢٩/٢ .

(٤) أعلاه ، ٤٧٢ وبعدها .

إلى التسلیم . دخل الجيش القشتالي قرطبة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ حزیران = یونیو ١٢٣٦ م) . تكررت هذه الطريقة في الدفاع المستمیت ونفاذ کل وسیلة ، أو بعد حرب الجوع والعطش وال الحاجة ، حيث يضطر الناس إلى الإسلام ، وبها تم ذهاب عدید من المدن الأندلسية وقواعدها . ذلك ما لاحظناه خلال عدة أحداث . فلم تهزم هذه المُدُنُّ أو تسقط في حرب تتكافأ فيها الأسباب أو الفرص ، على الأقل .

ابن الأحمر : لم يكن ابن هُود وحده في الميدان إذ كان ينافسه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، الملقب : الشیخ^(١) والغالب بالله . توفي ابن هُود ، في مدينة المریة أوائل سنة ٦٣٥ هـ^(٢) ، وهو يُعدُّ نفسه لإنجاد بلنسية وأميرها أبي جميل زَيَّان^(٣) .

استطاع ابن الأحمر أن يُكُونَ قوة احتفظت بعض المناطق في جنوب الأندلس وتأسیس مملکة غرناطة « الأندلس الصغرى (الصغيرة) » . ورثه — بعد وفاته — أبناء أسرته ، في حكم هذه المملکة حتى سقوطها بجيشه الملكين الكاثوليکيين فِرَانْدُه (الخامس Fernando V) ملك أرْغُون وإيزابيل أو إيزابيلا (Isabel, Isabella) ملكة قشتالة وليون ؛ بعد حصار طویل ، خربت خلاله المزارع والمحاصيل وتضور الناس جوعاً وقطعوا كل أمل . جرى ذلك سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، على شروط اتفق عليها ، نقضت شيئاً فشيئاً على مراحل ، بعد حين ؛ وقد رجال الکنیسة كبر هذا الأمر^(٤) .

عُمِّرت مملکة غرناطة — رغم الصعوبات المتعددة في الداخل والخارج — ما يزيد على قرنين ونصف . توالي على حکمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكماً (سلطاناً) ، وتمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات ممتازة . كما ظهرت بغرناطة

(١) العبر ، ٣٥٩/٤ (= فتح ، ٤٤٦/١) ، ٣٦٦ (= فتح ، ٤٤٧/١) .

(٢) البيان المغرب (طنوان) ، ٣٣٥ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٩/٢ - ٢٨٠ .

(٣) أعاده ، ٤٧٣ وبعدها .

(٤) انظر : أدناه ، ٥٦٨ وبعدها .

شخصيات سياسية ذات كفاءات عالية وقدرات ممتازة ، أدت كثيراً من واجبها نحو البناء . فضلاً عن أهل الملكات العلمية وأصحاب الموهاب الأخرى ، وعلى تعدد المستويات كلها ، عاونت في البناء والحفاظ على هذه البقعة الأندلسية الصغيرة . ربما كان بالإمكان أن تستمر الأندلس في الوجود ، لكن العوامل الداخلية ثم الخارجية ساقتها إلى تلك النهاية المروعة الكثيبة . فاندفعت إلى نهايتها ، حين سقط سلطان المسلمين وكان انتهاؤهم سياسياً . لم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل إن سياسة التعصب المقيت والخذل المبيت – التي عاملت بها سلطات إسبانيا النصرانية الغالبة بقايا المجموعات الأندلسية المسلمة المغلوبة – قضت على وجود المسلمين ، بل حُرم بعضهم حتى البقاء ، فكانوا طعنة للفناء . لاقوا خلال ذلك أسوأ ما عولم به مغلوب ، لاسيما من له عند الغالب أيدٍ يضياء سلفت ، سواء بحسن معاملته إياه أو بعمره بإحسانه على أ凡ين ، وفي الميادين كافة .

حقيقة أن الضغط من الخارج كان قوياً ومستمراً ، أنهك قوى مملكة غرناطة ، وأكل كثيراً من طاقاتها ، مما كان يجعل دفعه شاقاً وصعباً تبدو مقصرة فيه . ويظهر أن العدو نال منها كثيراً في أوقات كانت تستفرغ قواها فيما بينها في نزاعات داخلية . فذهبت إلى مصيرها المأسوف ومصرعها المبكي . لكن تلك سنة الله سبحانه – في خلقه ، وهي لا تختلف وقدرته القادرة في أمره ، وكما بين – جلت قدرته – في كتابه الكريم : ﴿ * وَاطِّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * ﴾⁽¹⁾

* * *

وبعد هذه المقدمات يشرع في تفصيل ما يتعلق بملكية غرناطة من موضوعات .

أولاً : نشأتها

ظهر ابن الأحمر في الظروف المذكورة واجتمع حوله الأعون ليحتفظوا بما يمكن من مدن الأندلس المتبقية ، ممثلة في مملكة غرناطة . ابن الأحمر هو : أبو

(1) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .

عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خَمِيس بن نصر بن قيس الخزرجي . يرجع نسبه إلى سعد بن عُبَادَةَ الْأَنْصَارِي ، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان « نقيباً ، شَهِيدَ الْعَقَبَةَ وَبَدْرَاً »^(١) .

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة (Arjona) ، « من حصن قُرطبة »^(٢) في جهة الشرق ، سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، وهو عام الأرك^(٣) . كان جندياً وأفر العزم والجرأة^(٤) ، دَعَا لِلَّمَ الشَّمْلَ ، فاجتمع حوله الكثير . دخلت في طاعته عدة مدن ، لا سيما في وسط الأندلس ، قبل سنة ٦٣٠ هـ ، ثم كانت بيعته ، أميرًا لمملكة غرناطة ، يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥ هـ^(٥) . وكانت مناطق أخرى قد دخلت تحت سلطان ابن هُود ، شرق الأندلس وكذلك غرناطة^(٦) . لكن بوفاة ابن هُود زال أكبر منافيسِ ابن الأحمر ، ودخلت غرناطة في طاعته . ثم استدعيَ إليها ، فدخلتها في أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (نيسان ١٢٣٨ م) . أصبحت مدينة غرناطة حاضرة المملكة ، وانضمت إليها مناطق أندلسية أخرى منها مناطق جنوب الأندلس وشقيها^(٧) .

نشأت غرناطة في هذه الظروف الشاقة وغَمْرَة الأحداث التي كان بالإمكان أن تُودي بها . لكن غرناطة لم تستطع المحافظة على كل الأندلس ، التي كانت خاصة لسلطان الموحدين . خلال هذه الآونة العصيبة ، التي ظهرت فيها مملكة غرناطة سقطت عديد من القواعد الأندلسية ، كما سبق ذكره^(٨) . سقطت قرطبة عاصمة

(١) الاستيعاب ، أبو عمر بن عبد البر ، ٢/٥٩٤ (رقم : ٩٤٤) .

(٢) البر ، ٤/٣٦٦ (فتح الطيب ، ٤٤٧/١) .

(٣) الاحاطة ، ٢/٩٩ ، ١٠٠ .

(٤) راجع عنه : فتح الطيب ، ١/٢١٦ ، ٤٤٧ ؛ المغرب ، ٢/١٠٩ ؛ الإحاطة ، ٢/٩٢ ؛ الروض المطرار ، ١٢ ؛ الوافي بالوفيات ، الصندي ، ٥/٢٥٥ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٤٣٦ . نهاية الأندلس ، ٣٨ .

(٥) الاحاطة ، ٢/١٠٠ - ١٠١ .

(٦) الاحاطة ، ١/١٤٢ .

(٧) نهاية الأندلس ، ٤٠ .

(٨) أعلاه ، ٤٧١ وبعدها .

الخلافة سنة ٦٣٣ هـ وبلنسية سنة ٦٣٦ هـ وإشبيلية سنة ٦٤٦ ، ثم تلتها مدن وحصون أخرى . أما المُدنُ والمناطق التي بقيت للمسلمين فقد احتوتها مملكة غَرْنَاتَة ، في الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية .

كانت غَرْنَاتَة (إغْرَنَاتَة) في الأصل – قبل الفتح الإسلامي للأندلس – مدينة صغيرة قرب مدينة إلْبِيرِه (Elvira) ، عاصمة الولاية أو الكورة التي تعرف بنفس الاسم . بمرور الزمن حَلَّتْ غَرْنَاتَة (Granada) محلَّها ، حتى غدت قاعدة إحدى إمارات الطوائف^(١) ، ثم حاضرة مملكتها . وتقع مدينة غَرْنَاتَة على وادي نهر (Genil,xenil) أحد فروع الوادي الكبير .

ضَمَّنتْ مملكة غَرْنَاتَة ، أيام بني الأَحْمَر ، الطرفَ الجنوبي من الجزيرة الأندلسية : جنوب نهر الوادي الكبير إلى البحر المتوسط ، حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق ؛ ومن لُورْقَة في ولاية مُرْسِيَة شرقاً إلى البحر المتوسط ؛ ومن الشمال حتى قلعة يَحْصُب (Alcala la Real) ، في ولاية جِيَان ، إلى شَدُونَة في ولاية قَادِيس غرباً . شَمَّلتْ ثلاثة ولايات كبيرة : ولاية غَرْنَاتَة في الوسط وفيها العاصمة غَرْنَاتَة ، ولاية المَرِيَّة في الشرق ، ولاية مَالَقَة في الجنوب والغرب^(٢) .

هذه هي المنطقة التي استطاع الاحتفاظ بها نَفَرٌ من رجال الأندلس بقيادة محمد بن الأَحْمَر مدي قرنين ونصف ، بقية عمر سلطان المسلمين في الأندلس . وكان شعار بني الأَحْمَر لا غالبَ إِلَّا الله . وقد أورد ابن الخطيب في الإحاطة وصفاً فيَّاماً لأحوال غَرْنَاتَة الجغرافية والبشرية والعمانية والسياسية^(٣) ؛ بجانب المعلومات الفضولية المتنوعة عما يتعلق بها .

ولقد اعتُبر من الغرائب استمرار مملكة غَرْنَاتَة هذه المدة ، رغم صغرها وقلة عدد سكانها ، مُحافِظةً على ما بقي للMuslimين من سلطان سياسي وجود حضاري معطاء .

(١) أعلاه ، ٣٥٥ ، ٣٩٥ (حاشية ٦) ، ٤٠٤ .

(٢) الإحاطة ، ١١٥/١ - ١١٩ ؛ نهاية الأندلس ، ٥٥ .

(٣) الإحاطة ، ٩١/١ - ١٤٣ . كذلك : الروض المطار ، ٢٣ ؛ نفح الطيب ، ١٤٧/١ - ١٥٠ .

ثانيًا : ثبات غرناطة وأسبابه

لم يكن من الميسور على مملكة غرناطة البقاء كُلَّ تلك المدة (قرنين ونصف) ، في هاتيك الظروف . حتى لقد كان ذلك مثاراً للدهشة والاستغراب لعديد من الباحثين المحدثين^(١) . ووجه الغرابة أن دولةً بهذا الحجم اليسير ، من المساحة والأعداد البشرية ، مع تلك الضخامة من السكاليف والتضحيات ، تواجه القوة العددية والإمكانيات الواسعة لدى دول إسبانيا النصرانية ، التي جعلت كلَّ واحدة منها (منفردةً أو متحدةً) مهاجمةً مملكة غرناطة هدفًا في المقدمة ، كلها تُعدُّ العدة وتضع الخطط . لذلك كانت هذه القرون مليئةً بالصراع ، وهي لا تخلو من مهادنات ، تدفع مملكة غرناطة فيها أحياناً المبالغ الباهظة . رغم ذلك فقد وُجدت مدد من العدو والمسالمة ، لم يكن يحرص عليها حكام إسبانيا النصرانية التي غدت في هذا الوقت صاحبة القوة .

لابد لهذا الثبات من أسباب ، نحاول التعرف عليها أو على بعضها ، في النواحي : الجغرافية والتاريخية والبشرية (الإنسانية) . لكن يجب أن تفهم كل هذه العوامل ضمن إطار معين ، سنتبعها ذكره .

١ - إن قوة العدو وتفوقه وجوده عوامل في داخل الأندلس مكتنته من افتراض الظروف لتنفيذ مشاريعه باقطاع أجزاء من الأندلس . كانت المناطق والمحصون ثم القواعد الأندلسية ، الأقرب إليه ، هي أول ما يلتقي هذا المصير خلال تقدمه . إنَّ ما ضمته مملكةُ غرناطة كان أبعدَ - مكاناً - عن الواقع في يد عدو الأندلس ، فهي أبعد عن تناوله ، مع متناعة في الموقع . بجانب قربها من عُدُوهُ المغرب ، وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة ، يقف حائلاً دون الاستعانة بإخوتها في المغرب وبقية الشمال الإفريقي .

٢ - إن موقع مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية - التي قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال - لم يدعها تعيش طوال

(١) نهاية الأندلس ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٠ - ٧٤ ، ٧٦ .

سِنِيَّهَا وحيدة . بل كان الأخوة في المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين . طالما جاهدوا صفاً واحداً لدرء الخطر ، لا يخلون بتضحية : استجابةً لأخوة الدين ورغبة في نصرتهم مجاهدين ، وليس وراء ذلك مغمٍ .

كان بنومرِين ، أصحاب الدولة الفتية في عدو المغرب ، نعم المعاون ؛ وإن أصحاب هذه العلاقة أحياناً بعض الضعف أو اعتراها التردد . بل اعتاد بنومرِين ترك فرق دائمة في الأندلس ، للمرابطة على تلك الثغور الأندلسية ، متفرغة للجهاد فيها .

لا بدّ من ملاحظة ظاهرة مع دول المغرب ، التي سبقت بني مَرِين في هذه السنة الحسنة تجاه الأندلس ، والتي لم تبخل بأيّ جُهْدٍ مُمْكِن . إذ قادت الأوضاع — أيام تلك الدول — إلى أن تنضم الأندلس تحت جناحها ، كما هو الحال مع المرابطين والموحدين . أما مع بني مَرِين فلم يحدث مثل ذلك ، لكنها استمرت تقوم بواجب المرابطة والجهاد في الأندلس . ما من شكٍ كان لهذا الموقف أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس . ويوم ضعفت الدولة المرينية عن القيام بهذا الواجب — مع العوامل الأخرى — عجزت الأندلس عن المقاومة ، فقطعت من أجنبتها مما تركها فريسة في النهاية .

لو استمرت الدولة المرينية على قوتها ، أو خالفتها مباشرةً دولة قوية ، لتغيرت مُجريات الأمور في الأندلس . مع ذلك فقد كان الأولى والأحرى بالأندلس أن تكون لنفسها من القوة الذاتية ما يعينها على البقاء . لو تم ذلك لانعدمت الأحداث صيغة أخرى ، وهي تلحظ بوضوح — من التجارب السابقة التي رأتها ، والأخرى التي تعيشها — أن العدو يتربص دوماً — مهما توقف — ليتخطّفها . إن دولاً أخرى أصحابها ما أصحاب الأندلس من الضعف وحلّ بها ما مائل مشاكله ، لكن لا خطر خارجي يهدّدها بالفناء^(١) .

الأندلس — مثل صقلية وغيرها ، في مختلف المعهود — كان الضعف يعني الفناء ، إذ هو مجلبة له . كان ذلك وحده يكفي دافعاً لتلقي العوامل المؤدية إليه ، وإن ذهاب

(١) قارن : أعلاه ، ١٣٥ .

سلطان المسلمين السياسي في الأندلس باب لذّاهبهم وانتهاء وجودهم . هكذا – في هذا المكان وفي غيره – واجهت الصليبية الإسلام ، الذي لم يختلف التعامل به عن الانصاف والإحسان في المعاملة إلى غير المسلمين الذين رضوا بالعيش في المجتمع الإسلامي . حتى ليبدو أن ذلك كان يُزعجهم ويقوّي لديهم ، ويثير فيهم ، رغبة الانتقام المفترس . والله تعالى يقول في القرآن الكريم : ﴿ لَا يَنْهَا كُمُّ اللَّهُ عَنِ الظِّلَافِ مَفْرُسٌ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * ﴾⁽¹⁾

٣ – بعد الذي جرى للأندلس - من سقوط عديد من قواudem ، في هذا المدة - بقيت في بعضها أعداد من المسلمين تحت الحكم النصري . سُمِّيَّ هؤلاء : المُدَجَّنُون (Los Mudejares) . احتملت مدن أخرى نفس المصير ؛ لكن البعض القليل نُصرَّت بحملات – عديدة مدينة – ضد المسلمين . كان كثير من المسلمين يهجرون مدينتهم ، حين تسقط ، ليتحققوا بمدينة ما زالت الكلمة فيها لسلطان المسلمين .

لما قامت مملكة غرناطة ، بعد أن لاح لُسلِّمة الأندلس شبحُ الفناء ، اعتبروها ملاذاً ، به يختapon واليه يلتجئون . ووصل بلد الأندلس مرحلة عالية من الحضارة ، كثُر فيه أهل المهن والكتفاليات من النساء والرجال ، وعلى مستويات عالية . فتجمعت فيها كثرة من هؤلاء الذين برعوا في كل ميدان ، حربياً كان أو مدنياً . كان من هؤلاء رجال الحرب والدفاع الأشداء الذين صمّموا على الوقوف والاستعداد للتضحية . توفر هذا اللون من الناس منع غرناطة انتعاشاً في مختلف الميادين التي استمرت في النمو مما اختلف الإطار ، وهيا الرجال تحميها من الأخطر . استمر انتاج غرناطة في أفانين الحضارة ، رغم الصراع الذي تطلب الجهد الكثيرة . وهو أمر يُلفت النظر ، مثلما فعل قيامُها واستمرار وجودها . فكانت غرناطة

(١) الآية ٨ من سورة المتحنة .

لململة غرناطة اتفقت – إلى أي حد ، في أوقات – بما كان يجري داخل أية من دول إسبانيا النصرانية من مشاكل أو تحدث من منازعات ، وحين تقوم فيما بين تلك الدول خصومات أو تدور مواجهات .

جَمَاعَةً لِطاقات أهل الأندلس من كُل لُون وَمِيدان^(١) . لكن هل كنا نتوقع منهم ، أو هم فكروا في استعادة ما فقدوه أم فقط للمحافظة على ما استنقذوه ؟ انصافت تلك الطاقات البشرية المهاجرة – من مناطق الأندلس ، خارج غرناطة – إلى ما كان في ذاتها ، فغدت بها غنية أُنعشت بقية الأمل وأمدت – ب توفيق الله – في الأجل . تركزت في هذه البقعة ألوانُ القدرات ومعادنُ المهم التي سمت بأصحابها عن الرضوخ لحياة – على حساب دينها – ذليلة ، واستعملت لهذه الغاية كل وسيلة . ما الذي كان سيحدث لو تعايشت إسبانيا النصرانية الظافرة مع مملكة غرناطة ، على الأقل كما بقيت إسبانيا النصرانية مدى القرون الأولى من الفتح ، أو حتى لو ترك المسلمون يعيشون النصارى في الوضع الجديد ولو على شكل أقلية ، كما كان هؤلاء قبلًا في المجتمع الأندلسي المسلم ؟

٤ - لا تبدو – الأسباب الثلاثة الآتية – كافيةً لتعليق وقوف غرناطة ، مجردة من معانيها الأصلية وأطْرُها الحقيقة ذات الطبيعة الواحدة . يجوز اعتبار هذا عاملًا واحدًا ، أو أكثر ، مُنْفِرًدًا أو ناظمًا لما سبق ، في عقد متناسق الشكل والمدلول .

ذلك المقدار الذي يبقى من الالتزام بالإسلام هو الذي وهب هذه المعاني معنى حيَاً وحياة حقيقة . هو الذي جَمَعَ هذه الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة ، والاستعداد للبذل ، وفتح القدرات ورفع المهم . كما كان العامل وراء وقف بنى مَرِين مع إخوانهم ، ثم الانتفاع بكل الإمكانيات الأخرى ضمن الظروف المتاحة . المعاني الإسلامية التي بقيت لدى الناس وما استمر من ذلك الغرس ، في حدود ما أتيح له من أجواء التنمية ، أنتجت ثمرات حضارية تحمل الألوان كافة وتمتلك صوراً شتى ، رغم ما أصبت به من غبَيش أو حلّ بها من ظلام كان السبب فيما انبَتَ منها أو ذهب .

لعل في هذا ما يزيد من الاستغراب والدهشة التي صاحبت تعلييل أسباب ثبات

(١) راجع : نهاية الأندلس ، ٧٠ - ٧١ .

هذه المملكة الصغيرة ، وهي في ذلك الخضم المزيد الزاحف . انه يوضّح حقيقة اللغر في ذُبالة تبدو قرية الانطفاء اذا بها تجدد ، وظروفها شاقة وما حولها عات مدمّر ، لستمر في الاشتعال مادام يسري فيها هذا المعنى الأصيل . ويوم ذَوِي ، ذَبَلت ثم أطافت بسهولة رغم وجود بعض العوامل السابقة ، مجردة من معناها ذاك^(١) .

ثالثاً : توقف الانحسار

بدأت بوادر الانحسار منذ لاحت الطوائف . تداورت الأندرس الأحداث وتقاذفتها المحن . لكن تداركتها عنایةُ الله القدير ، مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، بجهاد إخوانهم في عُدوة المغرب من المرابطين والموحدين ، فرَدَّت عنها المخاطر وحفظت عليها الدروب . حتى إذا ما ذهبت ريح هؤلاء ، فُتحت على الأندرس الباب المغلق وتتابع الانحسار ، في الفترة التي سبقت قيام مملكة غرناطة ، ولم يكن يلوح واضحاً توقّفه قبل النهاية . لكن الله سَلَّمَ ، وقامت هذه المملكة لتأوي إليها البقية الباقية ، عدداً من الأجيال .

قيامُ غَرْنَاطَةَ - في الظروف والأسباب التي تبيّنَها - كانت الحائط الذي حجب الانحسار عن بقية الأندرس والسد الذي عنده توقف . كان بالإمكان - على ما يبدو - الثبات والاستمرار ، على الأقل حتى يتهيأ من الأسباب المماثلة .

من لا تقوى نفسه على الثبات ووجد العونَ في يومه فقد يفقد في غده فيهوي . ومن لا تحمله قوته في الوقوف يكون - رغم الإمداد - عرضة للسقوط . هذا إذا كان العون من أخ العقيدة ، يَمْحَضُ المحبةَ ويشارك المِحْنَةَ ، يجاهد متكافئاً ويبذل محتسباً ، كما رأينا قبل قيام مملكة غرناطة وخلاله . لاحرج في استمداد العون وقت الحاجة فهو ضرورة وواجب ، على ألا يغدو الوسيلة الوحيدة ، تُفْتَقد غيرُها . ومهما يكن من أمر فقد قامت مملكة غَرْنَاطَةَ وتوقف الانحسار لقرون .

(١) قارن : نهاية الأندرس ، ٤٠ - ٤١ ، أدناه ، ٥٤٩ وبعدها .

رابعاً : حالة إسبانيا النصرانية

سلف الحديث عن إسبانيا النصرانية ، منذ نشأتها وظهورها تُصارِعَ الأندلس أيام الطوائف وما بعدها^(١) .

رأينا كيف بدأت دويلاتها صغيرة في الشمال (ليون وقشتالة ونَبَارَة) ، وكانت ليون أقواها . وفي نهاية القرن الرابع المجريي بدأت نَبَارَة تظهر قوية . وَرَث ملكها شَانِجُهُ (الثالث) عرش قشتالة ووضع ابنه فِرَانْدُهُ (فِرَانْدُ لَنْدُ) ملكاً عليهما^(٢) . تَلَقَّبَ شَانِجُهُ بملك إسبانيا النصرانية ثم احتل ليون ، التي ضُمِّنت بعد وفاته إلى ابنه فِرَانْدُهُ ، حيث توفي سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) . تُقْسَمَ المملكة بين أولاده الثلاثة وتجرى أحداث تنتهي بتولي الفونش (السادس) عرش قشتالة ولِيُون ، وكان له جهد في الأحداث أيام الطوائف . ثم كانت وراثة الفونش (السابع) السُّلَيْطِين لقشتالة ولِيُون . جرت بين السُّلَيْطِين والفونش (الأول ، المحارب) ابن ردمير ملك آرْغُون أحداث حتى وفاة الأخير في معركة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) . توفي الفونش (السابع) سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) .

بلغت دول إسبانيا النصرانية - في القرن السادس المجري - خمساً ، هي :
 قشتالة ولِيون وأرغُون ونبَّارَة والبرتغال . ظهرت الأخيرة مستقلة في عهد
 ملوكها الفونش ابن الرِّيق (Alfonso Enriquez)^(٣) . حين توفي ابن الرِّيق سنة ٥٨١ هـ
 (١١٨٥ م) ورثه ابنه شانجُهُ (الأول) .

استمرت مملكة قشتالة قوية ، ونازل ملوكها الفونش (الثامن) الموحدين في معركتين فاصلتين ، هما : الأررك (٥٩١ هـ) والعقاب (٦٠٩ هـ) .

تُضم مملكة نَبَارَةً - بعد ذلك - إلى الدول الأخرى ، وكذلك ليون . حيث

(١) أَعْلَمُ ٤٠٩ - ٤٢١ ٤٣٧ - ٤٦٠ ٤٦٥ - ٤٦٩ ٤٩٧ .

. ٤٦٠ ، ٣٥٧ ، أعلاه (٣) . ٣٢٧ ، ٢٧٦ ، أعلاه (٤)

يرث فِرَانْدُهُ (الثالث) - حفيدُ الفُونُش (الثامن) من ابنتهِ بِرْنُفَالَّه^(١) : Berenguela زوجة الفونش التاسع ملك ليون) - عرشَ قَسْتَالَة . ثم يرث فِرَانْدُهُ (الثالث) عرشَ ليون كذلك ، منذ وفاة أبيه الفونش (التاسع) سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) . كانت - خلال عهد غَرَنَاطَة - ثلات مالك في إسبانيا النصرانية : البرتغال وأَرْغُون وقَسْتَالَة أَقواها . وب gioش قَسْتَالَة وملكها فِرَانْدُهُ (الثالث) ومن معهم كان سقوط قُرْطُبة (٦٣٣ هـ) وإشبيليَّة (٦٤٦ هـ) وجِيَانَ (٤٦٣ هـ) ، فانتقلت عاصمة قَسْتَالَة من طُلَيْطُلَة إلى إشبيليَّة . وب gioش ملك أَرْغُون جائِمِش (الأول) (Jaime I) كان سقوط بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) . كانت هاتان الدولتان (قَسْتَالَة وأَرْغُون) تتعاونان في مهاجمة الأندلس والقضاء فيها على الدولة والأمة الإسلامية ، في حين كانت البرتغال تعمل على ضم الأراضي الأندلسية الواقعة جنوبها في ولاية الغرب^(٢) . وعلى هذا الخط ، في الوضع السياسي لإسبانيا النصرانية ، جرت الأمور حتى العصر الحديث . حيث توجد الآن في شبه الجزيرة الأندلسية دولتان ، هما : إسبانيا (من اتحاد مملكتي قَسْتَالَة وأَرْغُون) والبرتغال التي استمرت مستقلة في الخط الذي سلكته .

قَسْتَالَة :

توفي فِرَانْدُهُ (الثالث) ملكُ قَسْتَالَة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) فَوَرِثَهُ ابْنُه الفُونُش (العاشر) (الملقب عندهم : العالم El Sabio) ، الذي تُوفي سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) فورَّثَهُ ابْنُه شَانِجُهُ (الرابع) (الملقب عندهم : الباسل El Bravo) . عقد هذا معاهدة سلام مع مملكة غَرَنَاطَة . ولما توفي سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) خلفَهُ ابْنُه فِرَانْدُهُ (الرابع) الذي تلاه سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) ابْنُه الفونش (الحادي عشر) وكان رضيعاً وضع تحت الوصاية . وحدث في أيامه اللقاء المأمول بين المسلمين ، بقيادة شيخ الغُزَاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء ، وبين جند قَسْتَالَة (ومن معهم) الذين هزموا ، وذلك سنة ٧١٨ هـ (١٣٠٨ م)^(٣) .

(١) أعمال الأعلام ، ٢٣١/٢ .

(٢) راجع : نهاية الأندلس ٨٧ - ٥٤١ .

قائمة ملوك فَسْتَالَة أَيَامِ غَرْنَاطَة^(١)

- (١) الفُونُش العاشر (العالم) (خُلُع ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م)
- (٢) شَانْجُهُ الرَّابِعُ (البَاسِلُ) (٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م)
- (٣) فِرَانْدُهُ (فِرْدِلَنْدُ) الرَّابِعُ (٧١٢ هـ = ١٣١٢ م)
- (٤) الفُونُش الحادي عشر (٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م)
- (٥) بُطْرُهُ الْأَوَّلُ (القَاسِيُّ)
- (٦) إِنْرِيقُ (هَنْرِيُّ الثَّانِيُّ)
- (٧) يُوحَنَّا الْأَوَّلُ (٧٩٢ هـ = ١٣٩٠ م)
- (٨) إِنْرِيقُ الْثَّالِثُ (٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م)
- (٩) يُوحَنَّا الثَّانِيُّ (٨٥٨ هـ = ١٤٥٤ م)
- (١٠) إِنْرِيقُ الرَّابِعُ (٨٧٩ هـ = ١٤٧٤ م)
- (١١) إِزَابِيلُ (٩١٠ هـ = ١٥٠٤ م)

(١) انظر : أعلاه ، ٢٧٥ ، ٣٢٨ ، ٤٦٦ .

قائمة ملوك أرغون^(١)

جَائِمِشُ الْأَوَّل (٦٧٥ = هـ ١٢٧٦ مـ)

(١) بُطْرُهُ الثَّالِث (٦٨٤ = هـ ١٢٨٥ مـ)

(٢) الفُونْشُ الثَّالِث (٦٩٠ = هـ ١٢٩١ مـ) جَائِمِشُ الثَّانِي (٧٢٧ = هـ ١٣٢٧ مـ)

(٤) الفُونْشُ الرَّابِع (٧٣٦ = هـ ١٣٣٦ مـ)

(٥) بُطْرُهُ الرَّابِع (٧٨٩ = هـ ١٣٨٧ مـ)

+ ألينور (Leonor) ابنته :

(٦) يوحنا الأول (٧) مرتين (الأول) (Martin I) يوحنا الأول ملك قشتالة

(٧٩٨ = هـ ١٣٩٥ مـ) (٨١٣ = هـ ١٤١٠ مـ)

(٨) فِرَانْدُهُ الْأَوَّل (صاحب أنتقيه)
(Fernando el de Antequera)

(١٤١٦ = هـ ٨١٨ مـ)

(٩) الفُونْشُ الْخَامِس (٨٤٦ = هـ ١٤٤٢ مـ) (١٠) يوحنا الثاني (٨٨٤ = هـ ١٤٧٩ مـ)

(١١) فِرَانْدُهُ الْخَامِس (٩٢١ = هـ ١٥١٦ مـ)

(١٤٦٩ = هـ ٨٧٤ مـ) +

إِزَابِيلَ الْقَشْتَالِيَّة (٩١٠ = هـ ١٥٠٤ مـ)

(١) انظر : أعلاه ، ٤٦٧ .

۱۰۴۳ ، آذناه (۱)

٢) أعمال الأعلام ، ٣٣٥/٢

(۳)

Manual de historia de España, I, 755.

(٤) راجع : التعريف بـأين خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، ابن خلدون ، ٨٤ ؛ نهاية الأندلس ، ١٤٢ ، ١٧٣ .

(٥) راجع : العز ، ٤/٣٧٧ = ٣٧٨ .

(٦) راجع : نهاية الأندلس ، ١٧٢ = ١٨٠ . كذلك :

Manual de historia de España, I, 763, 803 - 4.

أرغون

لدى وفاة جائيمش (خايمي الأول Jaime I) ملك أرغون ، سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) ، خلفه ابنه بطره (الثالث) حتى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) ، حيث جاء ابنه الفونش (الثالث) ، فورثه سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أخوه جائيمش (Jaime II) ، حتى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، إذ ورثه ابنه الفونش (الرابع) . حكم بعده ، سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) ، ابنه بطره (الرابع) ، حتى وفاته سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) .

تولى الملوك على عرش أرغون حتى كان يوحنا (خوان الثاني) الذي سعى بترويج ابنه فراند (الخامس) من ابنة عمه إزابيل القشتالية . ترك يوحنا (خوان الثاني) العرش سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) لابنه فراند (الخامس) . تم بهذا الزواج وحدة إسبانيا النصرانية . ويجوش فراند (الخامس) وإزابيل ، الملكين الكاثوليكيين (كما عُرفا) ، ومن معهم يكون استسلام غرناطة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، آخر حصول المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية .

خامسًا : الصراع بين غرناطة وسلطات إسبانيا الصربية

مر شرح ألوان من الأحداث والمواجهات جرت بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، منذ وقت مبكر ؛ أخذ عدة أشكال ، أخذها الطابع الصليبي^(١) الذي حملت رايته في أكثر من مناسبة . وليس من الضروري أن يقتصر معنى « الحروب الصليبية » على تعدد الجهات التي ترد منها الجيوش للتجمع في حرب المسلمين ، لكنها ربما حتى لو كانت جهة واحدة فهي تحمل هذه الروح . ويراد بها : الحرب التي لا هدف لها ولا مبرر ، وعلى شكل من القسوة المبيدة والاففاء الشامل ، تخلو من أي مثل ، ولا ترعى ذمة ولا تلتزم بعهد ولا تُبقي شيئاً أو ترك أحداً ، وتفعل ذلك ابتداء ، بل تقابل به - وبشكل أعنف - من سبق لها منه خير وفضل وإحسان في المعاملة^(٢)

(١) أعلاه ، ٢٧٠ ، ٣١٢ ، ٤٩٧ ، أدناه ، ٥٧٦ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٧٨-٨٢ ، ٢٨٤ ، ٤٨١ ، ٣٣٥-٣٣٠ ، ٥١٩ ، أدناه ، ٥٦٨-٥٧٨ .

تخللت المدة التي سبقت عصر الطوائف أحداث ومصادمات ، وكانت تبدأها إسبانيا النصرانية ضد الأندلس . يتم ذلك - وفي أحيان كثيرة - رغم وجود معاهدة ومواثيق مع الأندلس . ولكن - في أغلب الأحوال - كانت تنتهي بالكف عن الاعتداء والعود إلى سابق العهود ، حين ترى من القوة التي لا قبل لها بها ، بسبب قوة الأندلس ويقطنها . وكانت إسبانيا النصرانية - طول تلك المدة - في موقف الضعيف رغم اتحادها للوقوف صفاً واحداً ضد الأندلس .

أما في عهد الطوائف فقد توزعت الأندلسـ الفتنةـ الحالكة التي شاركت كثيراً في إبعادها عن التوحيد ، حتى وقت الخطر . كان ذلك مبعث القوة لإسبانيا النصرانية التي نالت من الأندلس كثيراً ، بضعف الأخيرة وتوزعها ، أكثر مما نالت بقوتها . ثم تدارك الله الأندلس بالمرابطين ثم الموحدين . تلت ذلك أحداث أكدت هذا الاتجاه ، حتى قامت غرناطة ، مملكة صغيرة متزوقة في الركن الجنوبي لشبه الجزيرة الأندلسية . هذا ما رأيناها خلال دراستنا للموضوعات السابقة عن الصراع الذي تحمل إسبانيا النصرانية رايته ، وطالما كان سبباً في توحدها للوقوف جبهةً واحدةً ضد الأندلس .

لكن إسبانيا النصرانية - بعد قيام غرناطة - كانت في مصارعتها لها أعنف وأكثر وضوحاً حتى بالنسبة لمسلمي غرناطة ، وإن كانت أحياناً تجدهُ لدى بعض دولها أحداث داخلية أو فيما بينها تشغلهما لوقت ما ، لكن غرناطة لم تكن لتخلو من هذا المظهر . رغم ذلك فإن أية من دول إسبانيا النصرانية منفردة ، كانت أقوى من مملكة غرناطة ، حيث تجمّع لدى هذه أو تلك من دول إسبانيا النصرانية الإمكانيات العسكرية في العدة والعدد والمورد ما يفوق كثيراً الذي لدى غرناطة . زيادة إلى أنه طالما استعانت ببعضها وبقواتها من خارج شبه الجزيرة الأندلسية تحمل لواء الصليبية . وحتى لو لم تتعاون هذه الدول وقامت بأعمال حربية ضدَّ غرناطة فالأمر في صالح بعضها بإضعاف خصمها ، وذلك يعني أن على غرناطة أن تحارب في أكثر من جبهة . كان سقوط أية بقعة أو حصن من غرناطة في حرب أية من دول إسبانيا النصرانية لا يعني انتهاء الوجود السياسي بل حرب الإفباء في العقيدة وفي الوجود البشري . هذا

ما كان يعطي طابعاً مُرِيعاً لتصارع إسبانيا النصرانية ضد بقايا الأمة المسلمة الأندلسية في مكة غرناطة .

١ - المُدَجَّنُون

لعل هذا الوضع حمل بعض الأندلسين ألا يهاجروا من مناطق الأندلس الذاهبة إلى غرناطة بل إلى الشمال الإفريقي فراراً بذينهم وبأنفسهم ، إدراكاً لهذا النذير المثلث . مما دعا أن يصاغ اللوم لمن رضى بالبقاء من المسلمين تحت السلطة النصرانية في المدن الأندلسية الذاهبة ، وأطلق على هؤلاء : « **المُدَجَّنُون** » (Los Mudejares) ^(١) ، اسماً عُرِفوا به .

لعل هذا أيضاً دعا بعض العلماء إلى حث المدجنين على الهجرة إلى أراضي المسلمين . من أمثال أبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الوَتْشَرِيشِي ^(٢) (نسبة إلى قرية وَتْشَرِيش بالجزائر) ، أحد فقهاء المغرب (٩١٤ هـ = ١٥٠٨) . وقد عاصر سقوط غرناطة وكتب في ذلك كتاباً أو رسالة (فتوى) يفصح عنوانه عن موضوعه وهو : **أسنى المتاجِر في بيان أحكام من خلَّب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر** ^(٣) ، ويمثل قسماً صغيراً ضمن مجموعة الفتاوى (النوازل) التي وضعتها ، المسماة : **المعيار المُغْرِب والجامع المُغْرِب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمَغْرِب** .

لقي النصارى المعاهدون (أو المستعربون = Los Mozarabes) – في المجتمع (وغيره) – نظائر هؤلاء **المُدَجَّنُون** ، كل رعاية وحرية وإنصاف ، ورأينا ذلك في أكثر من مناسبة ^(٤) .

(١) عنهم راجع : نهاية الأندلس ، ٥٦ - ٧٠ ؛ الحلل السندينية ، ١١٨/٢ .

Los Mudejares, Isidro de las Cagigas, 2 vols., Madrid, 1948; « Un documento sobre los Mudejares de Nuez (Zaragoza), siglo XV », P. Longas, AL-ANDALUS, vol. XXVIII (28)/2,431-43.

(٢) راجع ترجمته في : درة الرجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، ٩١/١ (رقم : ١٣٠) . وترجمة ابنه عبد الواحد : ١٣٩/٣ (رقم : ١٠٩٤) .

(٣) صحيفـة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٢٩/٥ - ١٩١ .

(٤) راجع : اندلسـيات ، ١٩/٢ - ٣٦ .

لم يحمل المسلمون حقداً ضد النصارى أو غيرهم ، لا في الأندلس ولا خارجها . وليس يُدعى بالضرورة أن كافة النصارى كانوا يحملون هذا الحقد وبالشكل الذي دفع إلى شن هذه الحرب على الأمة الإسلامية في الأندلس . لكن الذي كان يزرع هذا الحقد ويثيره متراجعاً هم جماعة من الرهبان والقساں ، كما مر ذلك مثلاً أيام عبد الرحمن الأوسط ، متمثلاً في حركة التعصب التي شهدتها قرطبة^(١) . واستثناءً من هذا التعصب هو ما كانوا يفعلونه في إسبانيا النصرانية ذاتها^(٢) . فمن أسباب خلع شَانِجُهُ السمين (الأول) ملك ليون أنه هُزم أمام المسلمين^(٣) ، وسرى قريباً من هذا يحدث لـ *الفُسُونُش* (العاشر)^(٤) .

ظهرت بوضوح في هذا الصراع – منذ سقوط بعض القواعد الأندلسية بيد ملوك إسبانيا النصرانية ، قبيل قيام غرناطة – الحركة التي حملت لواء الإفباء ، طابعاً عاماً لها ، وسميت حرب الاسترداد (La Reconquista) ، وبذلت منذ أيام الطوائف .

لاتبدو هذه الحروب أنها كانت فقط لإستطاط الكيان السياسي للمسلمين في الأندلس وإزالة وجوده ، بل لإزالته وجودهم أفراداً ومحاربة عقidiتهم بأي شكل وأي مظاهر متصل بها ، وعلى أسلوب من الإفباء غريب ؛ سالكين سبيل الأذهاف للناس والاجهاض لكل ماتتمثل فيه عقidiتهم . لذلك كانت بعض المدن الأندلسية التي تعرض للإسلام صلحاً ترفضه بعض عناصر جيش إسبانيا النصرانية لا سيما رجال الكنيسة ، طالبة من فيها من المسلمين . حتى قد ترفض السماح لهم بالخروج من المدينة بأنفسهم . أما تحويل المساجد إلى كنائس ، في المدن الأندلسية ، بعد سقوطها مباشرة ، فهي الطريق التي سارت عليها كافة القوى العسكرية لإسبانيا النصرانية . كانت تعمل أيضاً على إزالة كل المعالم الإسلامية للمدينة ، حتى مع وجود العهود والمواثيق التي

(١) أعلاه ، ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) *أندلسيات* ، ٥٧/٢ - ٦٢ ، ٦٨ - ٦٩ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٢١٩/١ . *Andalusian diplomatic relations* , 46, 74.

(٣)

(٤) أدناه ، ٥٣٩ .

تُبَرِّم شروطًا للتسليم . في حين لم يحدث شيء من ذلك – ولا قريباً منه – من قبل المسلمين تجاه النصارى في كل الأحوال .

أسباب الإبقاء على المُدَجَّنِين في إسبانيا النصرانية

لبقاء المُدَجَّنِين في إسبانيا النصرانية أيام مملكة غرناطة ، أسباب منها :

١ - وجود كيان سياسي للمسلمين في الأندلس ، مُمثلاً في مملكة غرناطة ، جعل الدول النصرانية تتحاشى عملاً صريحاً تشير به المتاعب ضدها ، أو الخوف من عمليات انتقام يقوم بها المسلمون تجاه النصارى المقيمين في عَرْنَاطَة . هذه ظاهرة تبرز بقوة تدعو إلى اعتبار أهميتها . ذلك أنه رغم ما يلقاه المسلمون أثناء العمليات الحربية وبعدها ، بسبب سياسة إسبانيا النصرانية من الاضطهاد والقتل والمحاربة ، فقد تمعن النصارى بالحرية في غرناطة .

إن طرد المُدَجَّنِين من إسبانيا النصرانية وجلاءهم عنها إلى مملكة غرناطة قد يجعلهم يكُونون عنصراً جديداً يواجه إسبانيا النصرانية ويزيد من النشاط ضدها بحربهم المباشرة والإثارة .

ليس بقاء المُدَجَّنِين في بعض المناطق في إسبانيا النصرانية يعني أنهم كانوا يستمتعون بالحرية في أعمالهم وعبادتهم ويعاملون بالانصاف في أحوالهم ومعاملاتهم . بل كانوا يلقون الكثير من العنف والتكميل والضغط ، حتى ولو أخذوا أسلوب الموادعة والمهادنة . الأمر الذي انتهى بكثير منهم إلى النوبان والانصهار في ذلك المجتمع ، فانتهى المدجنون بعد أجيال ، ابتداءً من العقيدة ثم اللغة إلى أحوالهم الأخرى كافة .

وَجَدَ المُدَجَّنُونْ لِهُمْ لُغَةً يَكْتُبُونْ بِهَا ، هِي « الْخَمِيَادُو (Aljamiodo) : الأعمجمية » ، إذ استعملوا اللغة القشتالية وكتابتها بالحروف العربية . ولا يلغى هذا وجود نوع من العلاقة بين بعض هؤلاء وبين أفراد من المجتمع النصراني ، التي ربما ما كانت في صالحهم ، على المدى القريب والبعيد . فلا يستبعد أن أسلوب الموادعة الظاهري كان يجنب السلطات النصرانية احتمال وقوع عمل يقوم به هؤلاء المُدَجَّنِين ضدها ، بجانب ماتتنفع به سلطات إسبانيا النصرانية والسكان من وجودهم في مختلف الظروف ؛ لاحظنا – في الأحداث المبكرة للمواجهات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية –

أنه كان لا يُسمح لبقاء المسلمين في المناطق النصرانية . كذلك الأمر مع المسلمين الذين استقروا بعد الفتح في مناطق قاصية من إسبانيا الشمالية^(١) .

لو تركت الأمور على طبيعتها لخلف هذا التأزم كثيراً وتم تصييرها إلى المدْوِي النفسي والإجتماعي والسياسي . رغم ذلك فلا تعفي هذه الصورة انعدام العلاقات على الإطار الإجتماعي والسياسي . لكن العلاقات ، لاسيما في الإطار السياسي ، لم تكن تخدوها دائماً الرغبة الأصلية من قبل إسبانيا النصرانية ، ولا الحرص على الالتزام بها . مهما يكن من أمر فقد كانت هناك علاقات ودية ، العامل الفعال في وجودها قوة المسلمين السياسية ورقيهم الحضاري .

٢ - تتمتع أهل الأندلس - في كل ميدان - بالقدرات والمهارات والخبرات والمستوى الثقافي والفنون الحضاري الذي كانوا عليه ، مما كانت إسبانيا النصرانية محرومة منه . ويشكل إخراج هؤلاء وطردُهم خسارةً للمجتمع والسلطة النصرانية ، بعد سقوط مدينة أندلسية بيدها ، فاخراجهم يعني توقف الحياة وإيقافها . لذلك حين همت السلطة الأسبانية يوماً باخراج هؤلاء المدجنين ، قامت جماعات من النصارى بمعارضة ذلك راجية العدول عنه . ولم يكن ذلك رفقاً بهؤلاء المدجنين بل حرصاً على مصالحهم وأحوالهم هم . فاقتنت بذلك السلطة التي وافقت على عدم إخراجهم ، وإن كانت رفضت بقاءهم على الإسلام وأبْتَ الا تنصيرهم بالقوة^(٢) .

٢ - مقارنة بين الأندلس وإسبانيا النصرانية

من طريق ما يروى في المقارنة بين ما كانت تتمتع به الأندلس وتتفوق فيه على جارتها إسبانيا النصرانية ، حتى في الأمور القرية المثال :

* استئذان أَسْقُفْ قُرْطْبَةَ امْبَرَاطُورَ إسپانِيَا شارلَ لِكَانَ (شارل الخامس Carlos V) - سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) - في إقامة هيكل قُوْطِيْكَبِيرَ في وَسْطِ مسجد قرطبة الجامع فأذن له . واستدعي الأمر - وبسبب قبته العالية - إزالة السقف الأندلسي .

(١) راجع : أندلسيات ، ٤٢/٢ - ٤٣ .

(٢) نهاية الأندلس ، ٣٥٢ - ٣٥٣ .

ثم زار شارل كان مسجد قرطبة ، فتألم لهذا التشويه وندم على موافقته . كان مما قال « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر ، وقد قضيتم بذلك على ما كان أثراً وحيداً في العالم »^(١) . هذه الشهادة - من امبراطور إسبانيا - ذات مدلول خاص .

* بدا الأمر غريباً للأسبان حين اقترح البعض سنة ١١٧٤ هـ (١٧٦٠ م) « إزالة الأقدار التي كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها ، وأن رجال الصحة احتجوا على ذلك بشدة ذاكرين أن آباءهم العقلاة كانوا يعرفون ما يصنعون ، وأنه يمكن للسكان أن يعيشوا مثلهم بين الأقدار ، فإن رفعها ينطوي على تجربة لا يقدر أحد على كشف عوتها ».^(٢)

٣ - عَلَاقَاتُ وِمُواجهَاتٍ

Sad الهدوء أحياناً بين الطرفين ، وأخرى قالت فيها علاقات المودة وعقدت المعاهدات ، وكان لكل منها ظروفها ووراءها دوافعها . وُجِدت مناسبات أخرى، طابَّها التصارع والعنف ، كانت غرناطة خلالها تدفع عن حوزتها ، بنفسها أو بمعاونه أخواتها في عدوة المغرب ، لاسيما المرinيين الذين لم يكلوا عن إغاثة إخوانهم في الأندلس بكتائب الجهاد ، وكذلك عموم المتقطعين في المغرب^(٣) .

كان الشيخ محمد (الأول) بن الأحمر - الغالب بالله ، مؤسس مملكة غرناطة - يحاول تحجب الاصطدام بإسبانيا النصرانية . أوغل في ذلك أحياناً إلى درجة شاذة ومهينة . في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) قامت قوات إسبانيا النصرانية باعتدائها على مملكة غرناطة (أيام محمد بن الأحمر) . استطاعت قواتها - بمساعدة المجاهدين من المغرب - ردّها وهزمتها . لكن هذه البداية أثارت الفوضى (العاشر) ملك قشتالة إلى مضاعفة الجهد ، فقام بهجمات عديدة أسقط بها بعض الحصون . تجدد طلب الغوث من عدوة المغرب ومناطق إفريقية أخرى حتى تونس . ثم عقدت سنة

(١) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ٢٦ .

(٢) حضارة العرب ، ٥٨٥ - ٥٨٦ . قارن : أعلاه ، ٢٧٩ ، ٣١٤ - ٣١٧ .

(٣) راجع : نهاية الأندلس ، ٤٧ .

٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) المسالمة بين غرناطة والفونش (العاشر) ، تنازل ابن الأحمر له عن عديد من المناطق والمحصون^(١) . هكذا ذهبت المناطق الأندلسية في فترة وجيزة – حوالي ثلث قرن – ساقطة بيد جيوش إسبانيا النصرانية . شارك الأدب في ندب هذه الحال ، بُكاءً واستغاثةً . من المرأى الشهير قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرئيسي (٦٨٤ هـ) ، مطلعها^(٢) :

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وهي أكثر من أربعين بيتاً ، وآخر أبياتها :

مثل هذا ينوب القلب مِنْ كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

لعله يمكن تسمية هذا النوع من الأدب (شعره ونثره) بـ « المرأى السياسية أو البلدانية »^(٣) ، وهو في الأدب الأندلسي أمثلة كثيرة . من الممكن إفراد باب خاص بها في دراسة الأدب الأندلسي وجعلها أحد أغراض أدبه . هذا الفن في الأندلس تقوم به دراسة شاملة .

٤ – جهاد بني مرين في الأندلس

قبيل وفاة ابن الأحمر سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) عاد الفونش (العاشر) إلى مهاجمة الأرضي الأندلسية ، فوجه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المربي أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب النجدة . لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر ، أيام ولده محمد (الثاني) المعروف بالفقير .

٥ – الغزوة الدونونية

أرسل السلطان المربي جيشاً ، قوامه خمسة آلاف ، عَبَرَ إلى جزيرة طريف في ذي الحجة سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) ، ثم لحق به السلطان في صفر من السنة

(١) نهاية الأندلس ، ٤٩ .

(٢) انظر عنه وعن القصيدة : الذيل والتكميلة ، ٤/٤ ، ١٣٦/٤ (رقم : ٢٦٣) ؛ أزهار الرياض ، ٤٧/١ ، ٤٨٦/٤ ، « أبو البقاء الرئيسي » ، عبد الله كنون ، صحيفة مهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٢٠٥/٦ ؛ نهاية الأندلس ، ٤٩ ، ٤٥٦ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٣٤٧ – ٣٤٨ .

التالية . جرت لهم أحداث مع جيوش قشتالة ، كان منها معركة هائلة في يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ (أيلول ١١٧٥م) ، عند مدينة إستِجة ، جنوب غرب قرطبة . تقدّر الرواية الإسلامية عدد جيش قشتالة ، الذي يفوق الجيش الإسلامي اضعافاً ، بتسعين ألف مقاتل ، تحت لمرة القائد القشتالي الشهير الدون نونيودي لارا (Don Nuño de Lara) ، صهر ملك قشتالة الفونش (العاشر) . يعرف هذا القائد في مصادرنا الأندلسية باسم : ذنه ، ذونونه ، ذُنونه^(١) .

كان استعداد الجيش القشتالي ضخماً في العدد والعدد ، مقبلاً على الحرب بقوة وأمل وبقيادة مجربة مهرت في الحرب وخططها ، وما عرفت المزيمة قبل ذلك^(٢) . لكن المسلمين جاهدوا صابرين محتسسين ، وبasher أمير المسلمين المربي في القتال بنفسه ، وابنه يوسف على المقدمة . وكانت مقدمات المعركة صورة شبيهة بما جرى في معركة الأرك^(٣) . فإن الأمير المربي أبي يوسف يعقوب « تَرَجَّلَ عن جواده فأسبغ وضوئه وصل ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمّنون على دعائه ، فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم بدر للصحابية (اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوكم وعدوّها) فأجاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله ، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده ، واستعد للقتال وجلاده ، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادى على المسلمين فقال : يامعشر المسلمين ، وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذين عن حماه والمقاتلون عداته ، وهذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، له ما بعده ، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، وزينت حورها وأترابها ، فبادروا إليها ، وجيّدوا في طلاقها ، وابذلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيف ، و* إن الله اشتَرَى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم

(١) راجع : الا حادة ، ٥٦٥/١ ؛ العبر ، ٣٧٠/٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦/٧ ، ٣٩٩ - ٣٩٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٠٩ ، ٧٦٤ ؛ نفح الطيب ، ٤٤٩/١ ، ٣٨٥/٤ ، النخبة السنّية ، ١٤٨ - ١٥٦ ؛ نهاية الأندلس ، ١٠٠.

(٢) النخبة السنّية ، ١٤٨ .

(٣) أعلاه ، ٤٨٦ .

بأن هم الجنة^(١) ، فاغتنموا هذه التجارة الراحة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفارة ، وقتل المشركين الفجرة ، فمن مات منكم مات شهيداً ، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً ، فـ﴿اصبروا وصابروا ورabilو وانتقوا الله لعلكم تفلحون﴾^(٢)

« فلما سمعوا منه هذه المقالة ، تاقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضاً للوداع ، والدموع تسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم قد طابت نفسه بالموت ، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت ، وارتقت أصواتهم بالشهادة والتكبير ، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير ، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحيّ القيوم »^(٣) .

حازت الجيوش الإسلامية (المغربية والأندلسية) نصراً حاسماً في هذه المعركة ، التي أعادت ذكريات الزلاقة والأرك ، وتشتت الجيش القشتالي وقتل قائد . ثم ان السلطان المربي أبي يوسف يعقوب المنصور (سمى السلطان الموحدي الذي قاد معركة الأرك) ذهب إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء . عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤ هـ ، بعد أن أفق حوالى خمسة شهور في الأندلس ، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم^(٤) .

* * *

عبر السلطان يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) . توغل بيشه في أراضي قشتالة والتقي ب ابن الأحمر ، ثم عاد المنصور إلى المغرب . كان ابن الأحمر يتوجس من السلطان المربي ، فتصرف تصريفاً شاذًا حيث تحالف مع ملك قشتالة الذي أنزل قواته في الجزيرة الخضراء تبعاً لذلك . أرسل المنصور ابنه الأمير أبي يوسف في أسطولٍ ضخمٍ في أوائل سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) .

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة . (٢) من الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

(٣) النخبة السننية ، ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) النخبة السننية ، ١٥٩ .

حدثت معركة بحرية مع الأسطول القشتالي الذي انهزم واضطرت قواته ترك الجزيرة الخضراء . ثم بعث السلطان المريني إلى ابن الأحمر في وجوب التفاهم ، خشيةً على مصير المسلمين في الأندلس من هذا المسلك . تم التفاهم وعقد التحالف وصفا الجنو . بموجبه أصبحت مالقة لبني مرين ، لتكون محطةً وقاعدةً للقوات المرينية التي تعبّر إلى الأندلس للجهاد فيه .

ثم إن شانجة^(١) (الرابع) ثار سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) على أبيه الفونش (العاشر) ، الذي عرف بميله للعلم وكانت له صلات مع علماء الأندلس ، مما أثار السخط عليه في مملكته^(٢) . عبر السلطان المريني المنصور إلى الأندلس لمعاونة الفونش (العاشر) ، الذي هرع للقائه « بأحواز الصخرة من كُورَة تاكرُنَا »^(٣) ، قرب رُنْدَه (Ronda) ، فرَهَن تاجه عند السلطان . يذكر ابن خلدون أنه « خالف على هِرَانْدُه ملك قشتالة هذا ابنه شانجةً فوفد هِرَانْدُه على يعقوب بن عبد الحق صريحاً ، وقبل يده فقبل وقادته وأمده بالمال والجيش ورهن في المال الناج المعروف من ذخائر سلفه فلم يزل بدار بني عبد الحق من بني مرين لهذا العهد . »^(٤) ، كما يذكر ابن الخطيب « بقشتالة ، الفُنُش بن هِرَانْدُه ، إلى أن ثار عليه ولده شانجةً ، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب ، واستجار به ، وكان من لقائه بأحواز الصخرة من كُورَة تاكرُنَا ما هو معلوم . »^(٥) ، لكن المقرئ يجعل الذي استجار بالسلطان المريني هو شانجةً ، فيذكر « أن دُن شانجةً بن دُن الفُنُش ، استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، ولاذَّ به ، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى ، ولقيه بصخرة عَبَاد ، من أحواز رُنْدَه ،

(١) نهاية الأندلس . ١٠٤ .

(٢) الاحاطة ١/٥٦٤ . كذلك : نهاية الأندلس ، ١٠٥

(٣) البر ، ٣٩٣/٤ . ليس ملك قشتالة اللاحجي هو هراند (له فراند) بل الفُنُش بن هراند (الفونسو العاشر بن فرناندو الثالث) ، كما يتعين من نص الاحاطة التالي . لعل ابن خلدون وهم في الاس ، أو هو خطأ الناشر ، سقط منه .

(٤) الاحاطة ، ١/٥٦٤ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٢٢/٢ - ٣٢٢ . راجع : نهاية الأندلس ،

وسلم عليه «^(١)».

ثم توفي الفونش (العاشر) طريداً سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ، فانفرد ابنه شانجهُ في حكم قشتالة .

عبر المنصور - للمرة الرابعة - في صفر سنة ٦٨٤ هـ إلى الأندلس ، واشتبك مع جيوش قشتالة في البر والبحر . رغب شانجهُ طلب السلم ، فأرسل وفداً من الألحاب يفرض السلطان المريني مايراه . ووضعت شروط ، منها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس . « ثم هلك هِرَانْدُهُ » سنة ثلاثة وثمانين ، واستقل ابنه شانجهُ بالملك ، ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يوسف ، وعقد معه السلم . »^(٢)

ب - مشيخة الغزارة

كان من نتائج حسن التفاهم بين المرينيين وسلطان غرب ناظطة أن نزحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الجهاد مدافعين عن الأندلس . عُرف المنصب - في هذه المهمة الدفاعية في الخطوط الأندلسية لهذه المدة - بـ « مشيخة الغزارة » ورئيسها باسم « شيخ الغزارة » . هي من الخطوط التي أنشئت في هذه المدة ، وتولى بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة ، وهو منصب عسكري . تولى رئاسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣ هـ^(٣) ، فكانت لأنيه أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء .

عن هذه المشيخة يذكر المقرري في نفح الطيب أنه « لم يزل ملوك بنى مرين يُعيّنون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزارة ، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة ، ومواقف مشهورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناظة ، وعليهم رئيس من بيت ملك بنى مرين

(١) أزهار الرياض ، ٦١/١ . كذلك : نفح الطيب ، ١٢٠/٥ . نص المقرري هذا يحمل الأمر مختلفاً وليس مشتبهاً . لكن صورة بلوء الفونش الملك القشتالي وحاله تبدو أكثر رجحانًا .

(٢) البر ، ٣٩٣/٤ . كذلك : الا حاطة ، ٥٦٣/١ . راجع : نهاية الأندلس ، ١٠٦ .

(٣) العبر ، ٧٧١/٧ . كذلك : الا حاطة ، ١٦/٢ ، ٣٨ .

يسمّونه **شيخ الغزّاة** .^(١)

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٥ م) ، قبل أن يعود إلى المغرب ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس . كان من طراز يوسف بن تاشفين وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي . ورث حكم المرلينيين ابنه أبو يوسف ، وله شأن في الجهاد في الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمي غرناطة . كان ابن الأحمر محمد الفقيه ذا نشاط واضح في هذا الميدان ومهتماً به ، لكنه جنح أحياناً إلى المسلك الشاذ في مهادنة بعض ملوك إسبانيا النصرانية ضدّ آخر منهم ، بل وأحياناً ضدّ بني مرّين .

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالملحق الذي خُلع سنة ٧٠٨ هـ ليتولى الحكم أخوه نصر . ساءت العلاقات مع بني مرّين وجرت أحداث داخلية في مملكة غرناطة ، انهزّها فرآندهُ (الرابع) ملك قشتالة . أرسل جنده لحصار جبل طارق ومدينة المرية بمعونة ملك آراغون جائيمش (خافيي الثاني Jaime II) ، بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غرناطة . جرت قرب المرية معركة قادها عثمان ابن أبي العلاء ضد جند آراغون . هُزم ورفع الحصار عن المرية ، إلا أن جبل طارق ، بعد الحصار الشديد ، أُرغم على التسلّم .

ثم أُرغم نصر على التنازل سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل (بن الرئيس : أبي سعيد فرج بن أبي الوليد إسماعيل أخي محمد الأول بن ابن الأحمر المؤسس) . كان هذا السلطان وافر العزم ، وطدّ الأمن وأشاع الاستقرار وأعاد عهد الجهاد ، وحين عاد القشتاليون إلى مهاجمة الأراضي الإسلامية استنجد أبي الوليد ببني مرّين وسلطانهم أبي سعيد الذي رفض المساعدة لعدم استجابة أبي الوليد لمطالب معينة .

زحف الجيش القشتالي على غرناطة بجيش ضخم بقيادة دون بطره (Don Pedro) ودون خوان (Don Juan) الوصيين على ملك قشتالة الفونش (الحادي عشر) . جمعوا لذلك الجموع الكثيرة ، معهم عديد من أمراء قشتالة ومن المتطوعين الإنجليز في

(١) نفح الطيب ، ٣٨٥/٤ . كذلك : ٤٥٣/١ ؛ نهاية الأندلس ، ١٠٧ .

نَزْعَةٌ صَلَبِيَّةٌ . حَدَثَتْ مُعرِكَةٌ هَائلَةٌ فِي ٢٠ رَبِيعَ الثَّانِي سَنَةٌ ٧١٨ هـ (مايو = مايو ١٣١٨ م) قَرْبَ مَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ . كَانَ عَدْدُ الْجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ حَوْلَى سَتَةَ آلَافٍ ، مِنْهُمْ أَلْفٌ وَخَمْسٌ مِئَةٌ فَارِسٌ وَالبَاقِي رَجَالَةٌ . لَكُنُّهُمْ لَكُنُّهُمْ صَفَوةُ مُخْتَارَةٍ بِقِيَادَةِ شَيْخِ الْغُزَاةِ أَبِي سَعِيدِ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَلَاءِ ، الَّذِي أَخْلَصَ وَجْنَدَ النَّيْةَ لِللهِ ، مُجَاهِدِينَ مُسْتَشْهِدِينَ . كَانَ نَصْرًا حَاسِمًا شَبِيهًابِأَمْثَالِهِ مِنَ الرَّلَاقَةِ وَالْأَرْكِ وَغَيْرِهِمَا^(١) .

أَورَدَ المَقْرِيُّ فِي نَفْحَهِ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ كَلَامًا هَنَا بَعْضُهُ :

« وجاءها الطاغية دون بِطْرَهُ في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملوكاً ، وكان خبر هذه الواقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِطْرَهُ إلى طُلَيْطُلَةَ ، ودخل على مرجعهم الذي يقال له الباب ، وسجد له ، وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس ، وأكَدَ عزمه ، فقلق المسلمون بغرنطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمربي أبي سعيد صاحب فاس ، وأنفذوا إليه رسلاً ، فلم ينجع ذلك الدواء ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللَّجَأُ إلى الله تعالى ، وأخلصوا النيات ، وأقبل الإفرنج في جموع لا تحصى ، فقضى ناصر من لناصر له سواه بزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بِطْرَهُ ومن معه ، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً^(٢) .»

لَمْ يُقْتَلْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا العَدْدُ الْيَسِيرُ . وَيَقُولُ عَنْهَا ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْإِحْاطَةِ حِينَ جَرِيَ ذِكْرُ الطَّاغِيَّةِ بِطُرْهُ : « ثُمَّ صَرَفَ الْمَاطِمَ عَزْمَهُ إِلَى الْحَضْرَةِ ، فَقَصَدَ مَرْجَهَا ، وَكَفَّ اللَّهُ عَادِيَتَهُ ، وَقَمَعَهُ ، وَنَصَرَ الإِسْلَامَ عَلَيْهِ ، وَدَالَّتْ لِلَّدِينِ عَلَيْهِ الْهَزِيمَةُ الْعَظِيمَى بِالْمَرْجِ مِنْ ظَاهِرِ غَرْنَاطَةِ عَلَى بَرِيدِهِنَا ، وَاسْتَوَى عَلَى مَحْلِهِ النَّهَبِ ، وَعَلَى فَرْسَانِهِ وَرِجَالِهِ الْقَتْلِ ، وَعَظَمَ الْفَتْحُ ، وَبَهَرَ الصُّنْعُ ، وَطَارَ الذَّكْرُ ، وَثَابَ السُّعْدُ . وَكَانَتِ الْوَقِيَّةُ سَادِسُ جَمَادِيِّ الْأُولَى مِنْ عَامِ تِسْعَةِ عَشَرَ وَسَبْعِ مِائَةٍ^(٣) . يَتَحَدَّثُ ابْنُ خَلْدُونَ عَنْ ذَلِكَ بِاختِصارٍ شَدِيدٍ ، يَذَكِّرُهَا فِي مَوْضِعَيْنَ .

(١) نَهَايَةُ الْأَنْدَلُسِ ، ١١٨ ، ١٧١ .

(٢) نَفْحُ الطَّيِّبِ ، ٤٤٩/١ - ٤٥٠ . كَذَلِكَ : نَفْحٌ ، ٥١٠/٥ ؛ الْعَبْرُ ، ٤/٣٧٣ .

(٣) الْإِحْاطَةُ ، ٣٨٩/١ . لَعْلَهُ فِي هَذَا التَّارِيخِ (٧١٩ هـ) أَخْتِلَافًاً أَوْ تَحْرِيفًاً .

« وصابر وهم حتى خالطوهم في مراكزهم ؛ فصرعوا بُطْرَهُ وجوان ، وولوهم الأدباء . »^(١) ، « ثم كان من تكيف الله تعالى في قتله وقتل رديفه ، واستلحام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ما ظهرت فيه معجزة من معجزات الله . »^(٢)

* * *

ثم جرت أحداث كما سادت أحوال من المدوع والمسالمة . اغتيل — سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) — سلطان غرناطة أبو الوليد اسماعيل الغالب بالله ، فخلفه ولده أبو عبد الله محمد .

كان جبل طارق قد احتله الجيش القشتالي أيام فِرَانْدَهُ (الرابع) منذ سنة ٧٠٩ هـ ، حتى استطاع المسلمين استعادته بمساعدة بني مَرِين سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) . إلا أن سلطان غرناطة اغتيل أيضاً فور ثراه أخوه أبو الحجاج يوسف (الأول) بن أبي الوليد اسماعيل ، الذي كان من أربع ملوك بني الأحمر ، بعيد الهمة عالي الخلال شاعراً عالماً وحاماً للعلوم والفنون ، وهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة^(٣) . بدأ يظهر — في أيامه — لسان الدين بن الخطيب في أعمال الدولة الكبرى — محل أبيه عبد الله ، عند وفاته — ثم تولى الوزارة سنة ٧٤٩ هـ^(٤) .

حدثت — سنة ٧٤٠ هـ — معركة بحرية ، هزم فيها المسلمون . اشتركت فيها قوات من قشتالة وأرغون والبرتغال ، وبارك البابا هذه الحملة ، ودخلت جيوشهم مملكة غرناطة .

ج — وقعة طريف

تجهز — على إثرها — المسلمين لرد القشتاليين ومن معهم . المرينيون : بقيادة سلطانهم أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب ، والأندلسيون : بقيادة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف (الأول) (غرناطة ، ٧١٨ : ٧٣٣ - ٧٥٥ هـ)^(٥) . نشب معركة بين الفريقين في سابع جمادي الأولى سنة ٧٤١ هـ (٣٠ تشرين الأول =

(١) العبر ، ٥٢٠/٧ .

(٢) العبر ، ٤/٤ .

(٣) نهاية الأندلس ، ١٢٥ .

(٤) عنه انظر : لسان الدين بن الخطيب ، محمد عبد الله عنان ؛ درة الحجال ، ٢٧١/٢ .

(٥) أعمال الأعلام ، ٣٠٦ - ٣٠٤/٢ ؛ الا حادة ، ٤٤١/١ ؛ نفح الطيب ، ٨٠/٥ .

كتوبر ١٣٤٠ م) . استعمل المسلمون فيها نوعاً من المدفع تُقذف النيران^(١) ؛ غداً هذا السلاح مستعملاً ، فيما بعد^(٢) . لكن المسلمين خسروا هذه المعركة . ارتكب القشتاليون المناكر في المعسكر الإسلامي وغنموا ما فيه . وتحفظ كنيسة طليطلة – حتى اليوم ، بين ذخائرها – علمين لبني مرين من هذه المعركة^(٣) ، ولعلهم خسروا فيها مصحف عثمان^(٤) .

جرت هذه المعركة قرب طريف ، ولذا سميت « وقعة طريف »^(٥) Batalla del Salado) ، وهي تذكرنا بـ « وقعة العِقَاب »^(٦) . لما استولى ملك قشتالة الفونش (الحادي عشر) على معسكر المسلمين وموضع سلطان المغرب ، وفيه الحريم والأولاد ، ذبحوا جمعاً بوحشية مروعة^(٧) .

يبدو أنه حوالي هذا الوقت ظهر استعمال المسلمين لأسلحة جديدة ، تشبه المدفع ، مجهزة بآلات قاذفة ، وهي « الأنفاط »^(٨) .

حضر هذه المعركة عدد من العلماء والأكابر والأعلام ، واستشهد بعضهم . من استشهد :

* أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني (غرناطة ، ٦٧٢ – طريف ، ٧٤١ هـ) . والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب (لؤلؤة ، ٧١٣ – فاس ، ٧٧٦ هـ) ، « وفقد يوم القيمة الكبرى بظاهر طريف ، يوم الاثنين سابع

(١) نهاية الأندلس ، ١٢٧ .

(٢) الآثار الأندلسية ، ٢٨٢ .

(٣) الآثار الأندلسية ، ٨٥ .

(٤) نفح الطيب ، ٦٠٦/١ .

(٥) عن وقعة طريف راجع : العبر ، ٤/٤ – ٣٧٤ / ٣٧٥ ؛ نفح الطيب ، ١٤٥ / ٤٥٢ ، ١٤٥ – ١٥ ، ٤١٣ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٧ – ١٢٨ ؛ يوسف الأول بن الأحمر ، محمد كمال شبانة ، ١٣٤ . Manual de historia de Espana , I , 713.

(٦) أعلاه ، ٤٩٠ .

(٧) العبر ، ٥٤٦/٧ ؛ نهاية الأندلس ، ١٤٢ .

(٨) انظر : نبذة العصر ، ١٨ ، ٢١ ، ٤١ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٢١ . كذلك : درة الحجال ، ٢٢/٢ . قارن : أعلاه ، ٢٢٧ .

جمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبعين مئة^(١) . كما فقد فيها أخو لسان الدين الأكبر . يخبرنا عن ذلك لسان الدين بن الخطيب حين الحديث عن والده في هذه الواقعة الذي كان فيها « وفُقدَ في الكائنة العظمى بظرف يوم الاثنين سابع جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعين مئة ، ثابت الحاش ، غير جَزَّوع ولا هِيَابة . حدثني الخطيب بالمسجد الجامع من غَرْنَاطَة الفقيه أبو عبد الله ابن اللَّوْشِي قال : كبا بأخيك الطَّرْفُ ، وقد غَشَّيَ العدو ، وجَتَّحتُ إلى إرادته ، فانحدر إليه والدُّك ، وصرفني ، وقال : أنا أولى به ، فكان آخر العهد بهما »^(٢) .

* القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المَالَقِي (مالقة ، ٦٧٤ - طريف ، ٧٤١ هـ) . أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التَّمَهِيدُ وَالْبَيَانُ في مقتل الشَّهِيد عُثْمَان^(٣) . كان « حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً في العلم والعلماء مجلاً لأهله مُطَرَّح التصنُّع عديم المبالغة بالملابس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صَوَّالة معروفاً بنصرة مَنْ أَرَزَّ إلَيْهِ . تقدم للشيخة بيبله مَا لَقَّة ناظراً في أمور العَقد والحل ومصالح الكافة . ثم وُلِّيَ القضاء بها فَأَعْزَزَ الخُطْة وترك الموادة وإنفاذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة . ثم وُلِّيَ القضاء والخطابة بعَرْنَاطَة »^(٤) .

وكان « مَمَّنْ جمع له بين الدرائية والرواية ؛ ولم يزل مع ذلك ملازماً أيام قضائه للإقراء مع التعليم »^(٥) .

« وتصدرَ لبِثِّ العلم بالحضره يقرى فتواناً منه جَمَّة فنفع وخرج ودرَس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من اشرح الصدر وحسن التجميل وخفْض الجناح »^(٦) .

(١) نفح الطيب ، ١٧/٥ . كذلك : أزهار الرياض ، ١٨٧/١ .

(٢) نفح الطيب ، ١٢/٥ . كذلك : لسان الدين بن الخطيب ، ٣٣ - ٣٤ ، ٢٨٩ .

(٣) منشور (بيروت ، ١٩٦٤) ، بتحقيق الدكتور محمود يوسف زايد .

(٤) الاحاطة ، ١٧٦/٢ - ١٧٧ .

(٥) المرقبة العليا ، ١٤١ - ١٤٢ .

(٦) الاحاطة ، ١٧٧/٢ - ١٧٨ .

« واستمر على عمله من الاجتهد ، والرغبة في الجهاد ، إلى أن فُقد — رحمه الله — في مصاف المسلمين ، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف ، شهيداً محظياً ، يشحد البصائر و[يدمي] الأبطال ، ويشير على الأمير أن يكثُر من قول : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل * ﴾^(١) وقد كشف دابته التي كان عليها راكباً ، وهو رابط الحاش ، مجتمع القوى ، وأنشاً عليه بالركوب وقال له : (انصرف هذا يوم الفرح) يشير ، والله أعلم ، إلى قوله تعالى في الشهداء : ﴿ فرِحْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٢)؛ وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأولى عام ٧٤١ ، عن غير عقب من الذكور . ومولده أوآخر شهر ذي الحجة من عام ٦٧٣ . »^(٣)

يدرك المقرئ أنه « فُقد رحمه الله تعالى في المصاف يوم المناجزة بطريف ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها ، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يقدر ، وقال له : (انصرف هذا يوم الفرح) ، إشارة لقوله تعالى ﴿ فرِحْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران ، ١٧٠] وذلك ضحى يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ رحمه الله تعالى . »^(٤)

* أبو القاسم محمد بن جُزَيْ (غرنطة ، ٦٩٣ — طريف ، ٧٤١ هـ) ، وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات . كان « فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس ، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث ، حفظة للتفسير ، مستوعباً للأقوال ، جماعاً للكتب ، ملوكي الخزانة ، حسن المجلس ، متع المحاضرة ، قريب الغور ، صحيح الباطن ، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلدته على حداته سنه ، فاتفق على فضله ، وجرى على سن أصالته . »^(٥)

« فُقد وهو يحرض الناس ويشحد بصائرهم ويشتتُهم ، يوم الكائن بطريف ،

(١) من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١٧٠ من سورة آل عمران .

(٣) المرقة العليا ، ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٨٧/٥ .

(٥) نفح الطيب ، ٥١٤/٥ .

صحوة يوم الاثنين ، السابع بحمدادي الأولى عام واحد وأربعين وسبعين مئة . تقبّل
الله شهادته . »^(١)

من حضر هذه الواقعة من العلماء^(٢) :

* الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن مرزوقي^(٣) (تلمسان ، ٧١٠ - القاهرة ،
٧٨١ هـ) ، الذي ولاه السلطان أبو الحسن المريني (٧٥٢ هـ) عدة أعمال سلطانية .
تولى سفارات متعددة ، منها سفارته إلى بُطْرُهُ (الأول) بن الفُونُش (الحادي
عشر) ملك قشتالة^(٤) ، لعقد الصلح وافتتاح أسري وقعة طريف^(٤) ، وكان بين
الأسرى ابن السلطان أبو عمر تاشفين .

لم تيسر معرفة تاريخ هذه السفارة . يذكر ابن خلدون أنها « إلى ابن أدفنش
ملك قشتالة »^(٥) ، أي إلى بُطْرُهُ (Pedro I) . تمت - على ذلك - بعد وقعة
طريف بما لا يقل عن عشر سنوات .

تعرف بعض مصادرنا الإسلامية الأندلسية بُطْرُهُ (الأول) هذا باسم : بُطْرُهُ
ابن المُنْشِهِ بن هِرَآنْدُهْ بن شَانْجُهْ بن الْمُنْشِهِ بن هِرَآنْدُهْ^(٦) . وإلى ملك
قشتالة الطاغية بُطْرُهُ هذا سَفَرَ ابن خَلْدُون سنة ٧٦٥ هـ بإشبيلية ، خلال أول
قدوميه إلى الأندلس ، سفيرًا لسلطان غَرَّنَاطَةِ مُحَمَّد (الخامس) ، الغي بالله^(٧) .

(١) أزهار الرياض ، ١٨٧/٢ . كذلك : نفح الطيب ، ٥١٦ ، ٥٢٦ ؛ الك hicية الكامنة ، ٤٦ . عن أعلام
من أسرته الشهيرة (بنو جزى) انظر : درة الحجال ، ١٣/١ (رقم : ١١) ، ٢٦ (رقم : ٢٦) ،
٥٩ (رقم : ٨٠) ، ٢٦٥ (رقم : ٧٦٦) ، ٢٦٦ (رقم : ٧٦٨) .

(٢) انظر : التعريف بابن خلدون ، ٣٠ .

(٣) التعريف ، ٥٠ ؛ نفح الطيب ، ٤١٣/٥ .

(٤) الحاشية السابقة .

(٥) التعريف ، ٥٠ .

(٦) الاحاطة ، ٥٣١/١ ، ٢٢/٢ ، ٤٢ ، ٢٢/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٢ ، ٣٣٥/٢ .

(٧) التعريف ، ٨٤ ؛ أعلاه ، ٥٢٦ .

يدرك ابن خلدون (التعريف ، ٨٤) عن سفارته إلى إشبيلية ، موطن أسلافه « وسفرت عنه سنة
خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ بطره بن الْمُنْشِهِ بن أذفونش لا تمام عقد الصلح ».
أما القدوم الثاني لابن خلدون إلى الأندلس فكان سنة ٧٧٦ هـ . التعريف ، ٢٢٦ .

وابن مرزوق أحد أشياخ ابن الخطيب^(١) وصديق ابن خلدون^(٢) . عالم فاضل « غاص المترن بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخطأئقه ، عذب التلاوة متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفصير ، يكتب ويشعر ويقيّد ويؤلف ، فلا يعلو السداد في ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هياب »^(٣) .

٥ — مجريات الأحداث التالية في الجزيرة الأندلسية

كان الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . شمل الأندلس وبقية الجزيرة الأندلسية ومناطق أخرى من العالم الإسلامي وحول البحر المتوسط^(٤) . لعل بدء ظهوره كان في إيطاليا . وضع ابن الخطيب ، معاصر وشاهد عيّان ، في هذا الوباء كتابه مقنعة السائل عن المرض المهايل ، كما ألف عنه شاعر المرية أحمد بن خاتمة الانصاري (٧٢٤ - ٧٧٠ هـ)^(٥) رسالة تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد^(٦) ، كما ألف ابن خاتمة كتاباً عن مرية مرية على غيرها من البلاد الأندلسية^(٧) .
تجهز ملك قشتالة الفونش (الحادي عشر) سنة ٧٥٠ هـ للاستيلاء على جبل طارق ، فضرر بجيشه حوله الحصار الشديد . لكن الوباء فشا في هذا الجيش وكان الفونش من ضحاياه ، وأنقذ الله العلي القدير جبل طارق^(٨) ، فاضطر جيشه — بعد قرابة سنة

(١) نفح الطيب ، ٥/٣٩٠ .

(٢) التعريف ، ٤٩ .

(٣) نفح الطيب ، ٥/٣٩١ .

(٤) انظر : العبر ، ٤/٣٩٤ ، ٧/٦٧٩ ، ٦٧٦ ، ٧٧٦ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٥ ؛ درة الحجال ، ١/٤٥ ، ٨٣/٣ ، ٢٧٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٣١ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٢ ، ١٧٣ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، ١٨٢ - ١٨١ . كذلك : أعمال الاعلام ، ٢٥٩ - ٢٣٩ ، ١/١ درة الحجال ، ١/٨٥ (رقم : ١١٦) ، ٣٢٥/٢ .

(٥) عنه راجع : الاحاطة ، ١/٢٣٩ ، ٢٥٩ ؛ درة الحجال ، ١/١ (رقم : ٢٦٥) .
نفح الطيب ، ٦/٢٨ (= أزهار الرياض ، ١/١) .

(٦) نهاية الأندلس ، ١٣٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٧) الاحاطة ، ١/٨٣ ؛ نفح الطيب ، ١/١٦٣ ، ١٧٥/٢ ، ٣٦٠/٥ ، ٤٧٥ ؛ أزهار الرياض ، ٢٢٢/٣ ، ٨٦/١ .

(٨) العبر ، ٤/٣٧٥ ، ٧/٦٣٢ ، ٣٩٤ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ - ٧٧٦ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٥ ؛ أعمال الاعلام ، ٢/٣٣٥ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٢ ، ١٧٣ ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، ١٨١ - ١٨٢ .

من بلده الحصار - إلى فكه والانسحاب . ذكر ابن الخطيب هذا الأمر في أكثر من رسالة وجهت إلى الأندلس ^(١) والمغرب ^(٢) ومصر ^(٣) .

ترك المسلمين - تكريماً - موكب الملك يجتاز غرناطة إلى إشبيلية ، وارتدى عدد منهم شارات الحداد ^(٤) ، مجاملة ^(٥) .

استمرت قشتالة على سياستها من العيش في الأراضي الأندلسية ناقضة العهود ^(٦) . لكن صلحًا عقد بين الأندلس وبين ملك أرغون بطره بن شانجه ^(٧) (بيدرو الرابع Pedro IV : ٧٣٦ هـ = ١٣٣٦ م) .

ساد السلام والأمن ربوعَ غرناطة ، وازدهرت نهضة عامة خلال سنوات أبي الحجاج يوسف (الأول) . اغتاله سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) - مخرب ^(٨) ، لم يفصح عن دوافعه ، أثناء صلاته في المسجد الأعظم يوم عيد الفطر ، فبكاه أهل الأندلس بدموع غزير . خلفه ابنه محمد (الخامس) ، الغني بالله ، الذي خلُقَ وأعيد مرة أخرى . قامت أحداث كانت تهدف إلى استصفاء غرناطة ، وتوزيع تركتها بين حكام إسبانيا النصرانية ، وباركها البابا ، لكنها فشلت .

كذلك قامت مصالحة بينَ غرناطة وبينَ أرغون وقشتالة . وجدت أحداث وعلاقات صلح خلال حكم الغني بالله ، ثم ابنه محمد (السادس) الذي تولى الحكم سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) . عند وفاته سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) ، يرثه أخوه يوسف (الثالث) . تقدمت علاقات المودة خطوة بين قشتالة وغرناطة . توفي يوسف (الثالث) سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) . تبعه عدة أمراء ، اختلقت قدرتهم بين القوة والضعف .

(١) نفح الطيب ، ٤٤٢/٤ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٢ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، ١٨١ - ١٨٢ ؛ يوسف الأول ابن الأحمر ، رسائل رقم : ١٣ ، ١٦ .

(٢) يوسف الأول ، رسائل رقم : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧ ، ٢١ .

(٣) يوسف الأول ، رسالة رقم : ٣ .

(٤) ذكر ذلك عنان (نهاية الأندلس ، ١٣٢) وأشار إلى عبر ابن خلدون ، الذي لم أجده فيه .

(٥) كناعة الدكان بعد انتقال السكان ، ابن الخطيب ، ١٠٣ - ١٠٥ (الوثيقة العاشرة) ، ١٦٤ - ١٦٥ (يوسف الأول ، رسالة رقم : ١٧) .

(٦) العبر ، ٣٧٥/٤ ، ٦٣٢/٧ ، ٦٩٠ .

جرت أحداث وخلافات داخل غرناطة كان لها أسوأ الأثر . ثم جرت صدامات بين غرناطة وقشتالة ، كانت الحرب فيها سجالاً . خسرت فيها غرناطة بعض القواعد والغور واستولت عليها قشتالة بالحرب أو بالتنازل الذليل .

كان سقوط جبل طارق ، عن طريق المفاجأة ، بيد القشتاليين سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ م) ضربة عنيفة لسلمي غرناطة ، مما يحول دون وصول الإمداد من عدوة المغرب للأندلس . قل هذا العون نتيجة لضعف قوة الدولة المرinية التي تنتهي سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٤ م) . ، بعد أن عاشت قرنين من الزمان ، لتحول محلها دولة فتية نشيطة هي دولة بني وطاس . لكنها لم تكن في مستوى من القوة لتقوم بدور بني مرين ومن قبلهم تجاه نصرة الأندلس والجهاد فيه .

فتح المسلمين (العثمانيون) القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ، بقيادة السلطان محمد (الثاني) الفاتح . قد لا يخلو هذا الحدث من أثر في زيادة نشاط إسبانيا النصرانية لهاجمة الأندلس . ساعد على ذلك سوء الأحوال الداخلية التي كانت تمتاز بها هذه المملكة الصغيرة غرناطة . يبدو أنه ، في مثل هذه الأحوال (ومن غير اتحاد إسبانيا النصرانية في مملكة واحدة ، الأمر الذي سيتحقق بعد حوالي ربع قرن) ، لابد أن تسير الأندلس إلى نهايتها ، التي وصلتها فعلاً . في موعد لا يتأخر كثيراً ، إن كان ، عن الذي تم فيه ، يوم غربت شمس الأندلس وزال سلطان المسلمين السياسي ، وتلاه وترتباً عليه زوال وجودهم الحضاري والبشري .

تم اتحاد قشتالة وأرغون سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) بزعامة الملكين الكاثوليكيين . وكان قد تم الزواج بينهما قبل ذلك بعشرين سنتين^(١) . حوالي هذا الوقت بدأت مفاوضات مع غرناطة ، حيث طلب إلى سلطانها أبي الحسن شروط ثقيلة . أنذر السفير القشتالي ، الذي جاء إلى غرناطة لهذا الغرض ، لكن لم يكن ليستعد الاستعداد المناسب ويسلك السلوك المطلوب^(٢) . هاجم فرآنده^(٣) (الخامس ، زوج لازابيل ملكة قشتالة) غرناطة ، واستولت جيوشه - بعد مقاومة باسلة - على مدينة الحَمَّة (Alhama)

(١) أعلاه ، ٥٢٧ .

(٢) نهاية الأندلس ، ١٩٥ - ٢٠١ .

جنوب غرب غرناطة . فأمعنوا في أهلها قتلاً ، وذلك في محرم سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) . ثم زحف ملك قشتالة على مدينة لَوْشَة (Lojo) — بلد لسان الدين بن الخطيب — وحاصرها . لكن حاميتها الإسلامية دافعت عنها دفاعاً مجيداً ، وردهه على أعقابه ، بقيادة الأمير الشيخ علي العطار الجندي الباسلي الذي أُبلي بلاءً حسناً ، وكان في الثمانين من عمره^(١) . وما يزال سيف الشيخ العطار - رحمة الله - محفوظاً في المتحف الحربي (Museo del Ejercito) بمدريد .

تولى حُكْم غَرَنَاطَة — أواخر سنة ٨٨٧ هـ — محمد (الحادي عشر) بن علي مكان أبيه : أبو الحسن علي . يعرف الأمير محمد هذا : أبو عبد الله (Boabdil) أو أبو عبد الله الصغير^(٢) .

خاض هذا الأمير — في السنة التالية (٨٨٨ هـ) — معركة ضد جيوش قشتالة ، انتصر فيها المسلمون . ثم قاد جيشاً ، اتجه به نحو قُرطبة ، غالب في عدة معارك محلية . لكنه أُسر في معركة عند قلعة اللَّسَانَة (Lucena) جنوب شرق قُرطبة^(٣) . تولى حُكْم غَرَنَاطَة — يده — عمه : محمد بن سعد ، أبو عبد الله الرَّغَل (الشجاع الباسلي) . أطلق سراح أبي عبد الله محمد (الحادي عشر) سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، بعد توقيع اتفاق في صالح قشتالة . صاحب ذلك قيام انقسامات في داخل غرناطة ، حيث توزعتها الزعامات والأحزاب مؤيدة لهذا الزعيم أو ذاك . هاجم جندُ قشتالة مدينة لَوْشَة مرة أخرى ولم تقو على الاستمرار في المقاومة فاستسلمت سنة ٨٩١ هـ ، بشروط لصالح قشتالة . ثم كانت حرب بين العم وابن أخيه انتهت بتقسيم غرناطة . بدأ ملك قشتالة يشدد الضربات على المدن الأندلسية ويرهقها حصاراً وحرباً . يذكرنا مالاقاه بعضها ، بأحوال بلنسية أيام القَمْبِيْطُور^(٤) . كان يخرب ماحول غرناطة من

(١) راجع : نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، مجهول المؤلف ، ٩ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٠٢ ؛ الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ٣٣٥ .

(٢) وثائق عربية غرناطية ، ٤٠ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .

(٤) أعلاه ، ٣٦٩ وبعدها .

الزروع والمحاصيل . وكانت البقية الباسلة المتفانية من فرسان الأندلس وجندها – في كل ذلك – يبذلون أرواحهم . عقد الزَّاغَل – سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) – معاهدة مع ملك قشتالة ، ثم اضطر لترك الأندلس إلى تِلْمِسَان بالجزائر .

٦ – سقوط غَرَنَاطَة

جرت أحداث ، تتضمن كثيراً من التفصيات ، وقامت مفاوضات . بِلَا العدو – خلال ذلك – إلى التحرير والتضييق بين المسلمين وإذكاء الفتنة^(١) . وبعد حصار شديد لمدينة غَرَنَاطَة يتنهى الحال بتسليمها .

هَكَذَا تسقط غَرَنَاطَة ، آخر حصن إسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية . يورد المَقْرِرِي قول شاهد عِيَان^(٢) أندلسي وبخطه هو الفقيه الأديب المؤرخ أبو عبد الله محمد بن الحداد الودادي آشِي نزيل تِلْمِسَان أنه « كان الاستيلاء على مدينة غَرَنَاطَة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة »^(٣) . ثم يرد المَقْرِرِي « أنه قد يظهر من كلام بعضهم أن الصلح كان في محرم ، ودخول الجيش القصبة الحمراء كان في ربيع ، فلا منافاة ، والله أعلم ». ^(٤)

وُقِعَت معاهدة التسليم بين حاكم غَرَنَاطَة المتخاذل وبين ملكي قشتالة في ٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ^(٥) (٢٥ تشرين الثاني = نوفمبر ١٤٩١ م) .

المصادر الأندلسية المتوفرة – التي احتوت هذه الأحداث ، وما تلاها – قليلة . لعل الأيام تأتي بمزيد منها – بعون الله – لتلقي ضوءاً أشد على تلك المرحلة الفاسدة . كانت أياماً حالكة مرت بال المسلمين وأهوا لا عاشوها وشدائد ذاقوها ، من ذخائر طغاة قشتالة وليون . نجد بعض هذه الأخبار في المصادر الأوروبية . لكن لدينا معلومات

(١) نبذة العصر ، ٣٩ – ٤٢ .

(٢) أزهار الرياض ، ٣٥٥/٣ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٢/٦ (= أزهار الرياض ، ٦٦/١) .

(٤) أزهار ، ٦٦/١ . كذلك : نفح ، ٥٢٥/٤ (= أدناه ، ٥٥٣ – ٥٥٤) ؛ نبذة العصر ، ٣٩ – ٤٢ .

(٥) نبذة العصر ، ٣٩ – ٤٢ ؛ نفح الطيب ، ٥٢٥/٤ ، ٢٢/٦ ؛ أزهار الرياض ، ٦٦/١ ؛ نهاية

الأندلس ، ٢٤٤ ، ٢٥١ – ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٩ .

مهمة عن الأيام الأخيرة لغرناطة ، فيما بقي من مصادرنا الأندلسية . نجدها في كتاب شاهد عيان اشترك في الأحداث^(١) : نبذة العصر في أخبار ملوكبني نصر ، مؤلف مجھول . لعله نسخة غير كاملة من هذا الكتاب . كذلك كتاب جنة الرضي في التسلیم لما قدر الله تعالى وقضى ، لابن عاصم ، الذي توفرت مخطوته حالياً . نقل المقرري منه ومن غيره مقداراً جيداً في كتابيه : *فتح الطيب* و *أزهار الرياض*^(٢) .

تضمنت معاهدة التسلیم سبعة وستين شرطاً ، كما يذكر المقرري^(٣) ، أو أقل^(٤) . لم يتيسر الحصول على المعاهدة بنسختها العربي ، إن كان موجوداً الآن . لكن المقرري يحملها بقوله : « وفي ثاني ربيع الأول من السنة – أعني سنة سبع وتسعين وثمان مئة – استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمس مئة من الأعيان رهناً خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقاراتهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوها أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي من يتولى عليهم من قبيل سلطانهم قبل ، وأن يفتک جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم ، ومن هرب من أسرى المسلمين ودخل غرناطة لاسييل عليه مالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه مالكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكرياء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يُفْهَمَنَّ أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر

(١) انظر : نبذة العصر ، ١٦ (المقدمة) ، ٤٤ ؛ الحلل السنديمية ، ١٢١/١ .

(٢) *فتح الطيب* ، ٤/٥٠٧ - ٥٢٩ ؛ *أزهار الرياض* ، ١/٥٠ - ٧٢ .

(٣) *فتح الطيب* ، ٤/٥٢٥ .

(٤) يذكر عنان (نهاية الأندلس ، ٢٥٠ - ٢٥٢) أنها ست وخمسون مادة ، ترجمها متتمداً على الصورة القشالية لها . انظر : حاضر العالم الإسلامي ، ٤/٤ (تعليق أرسلان) .

حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على مَنْ قتل نصراً نِيَّا أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ماسلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر بلجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصراً نِيَّا للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه وماله ، ولا يجعل [لعلها] : يحمل [] علامه كما يجعل اليهود وأهل الدَّجَن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعقوب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رُوْمه ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره . «^(١)

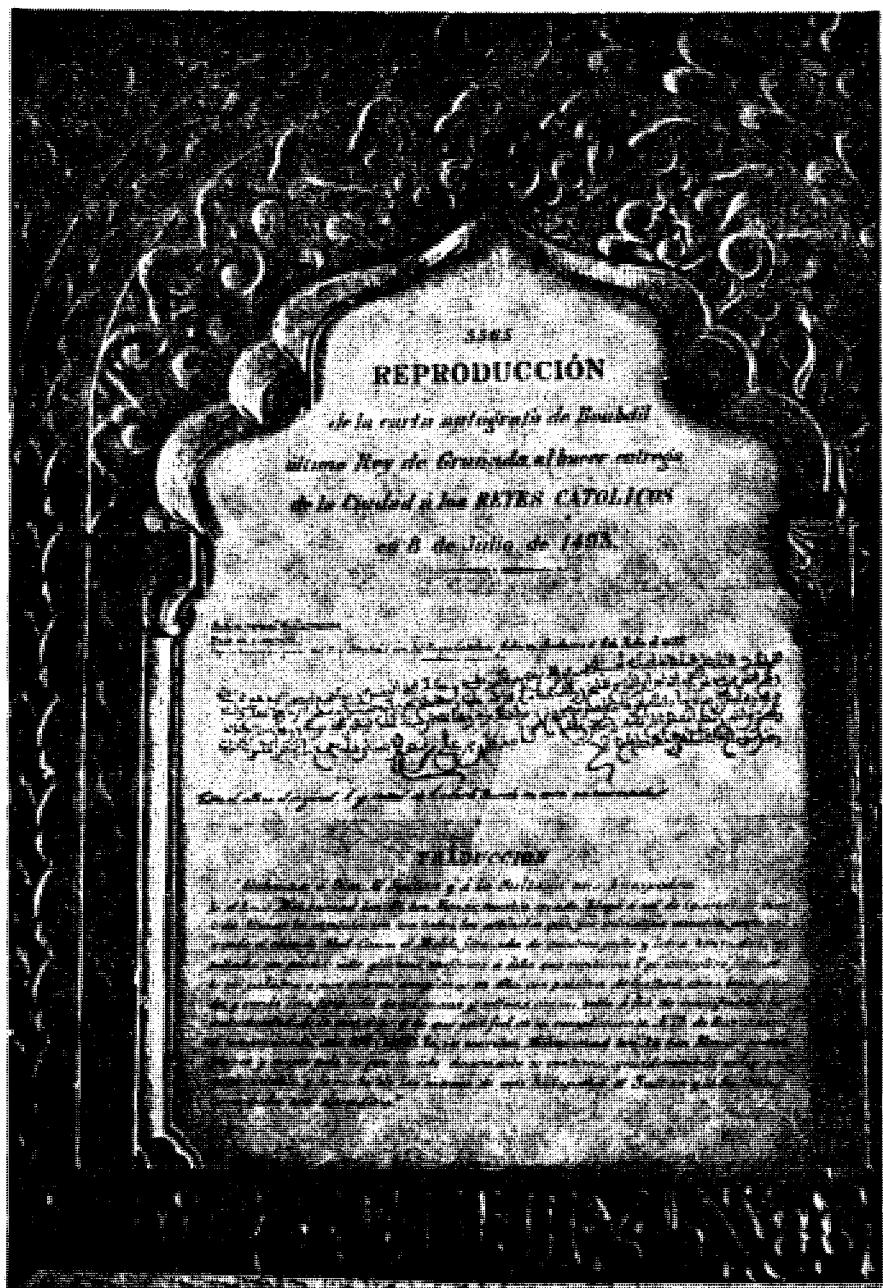
حسب هذه المعاهدة تعهد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين ، لكنها جمِيعاً نقضت ، الواحدة تلو الأخرى^(٢) ، كما سيتبين . بعد توقيع المعاهدة دخل الملكان قصر الحراء بغزارة في اليوم الثاني لربع الأول سنة ٨٩٧ هـ^(٣) (٢ كانون الثاني = ديسمبر ١٤٩٢ م) . تركها آخر ملوكها أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) إلى آندَرَش (Andarax) في منطقة البُشَرَة (البُشَرَات Alpujarras) جنوب جبل الثلج (Sierra Nevada = جبل شُلَيْر^(٤) Solarius Mons) في الأندلس . في العام التالي عبر أبو عبد الله محمد إلى المغرب ، حيث أن ملك قشتالة « أمر — لعنه الله — بانتقال سلطان غرناطة أبي عبد الله إلى قرية آندَرَش ، من قُرى البُشَرَة ، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه ، وأقام بها يتضرر ما يُؤْمِر به ، ثم ظهر للطاغية أن يُحيِّزه إلى العُدوة ، فأمره بالجواز ، وأعَدَ له المراكب العظيمة ، وركب معه كثير

(١) نفح الطيب ، ٤/٥٢٦ - ٥٢٥ . كذلك : نبذة مصر ، ٤١ ؛ أزهار ، ١/٦٧ .

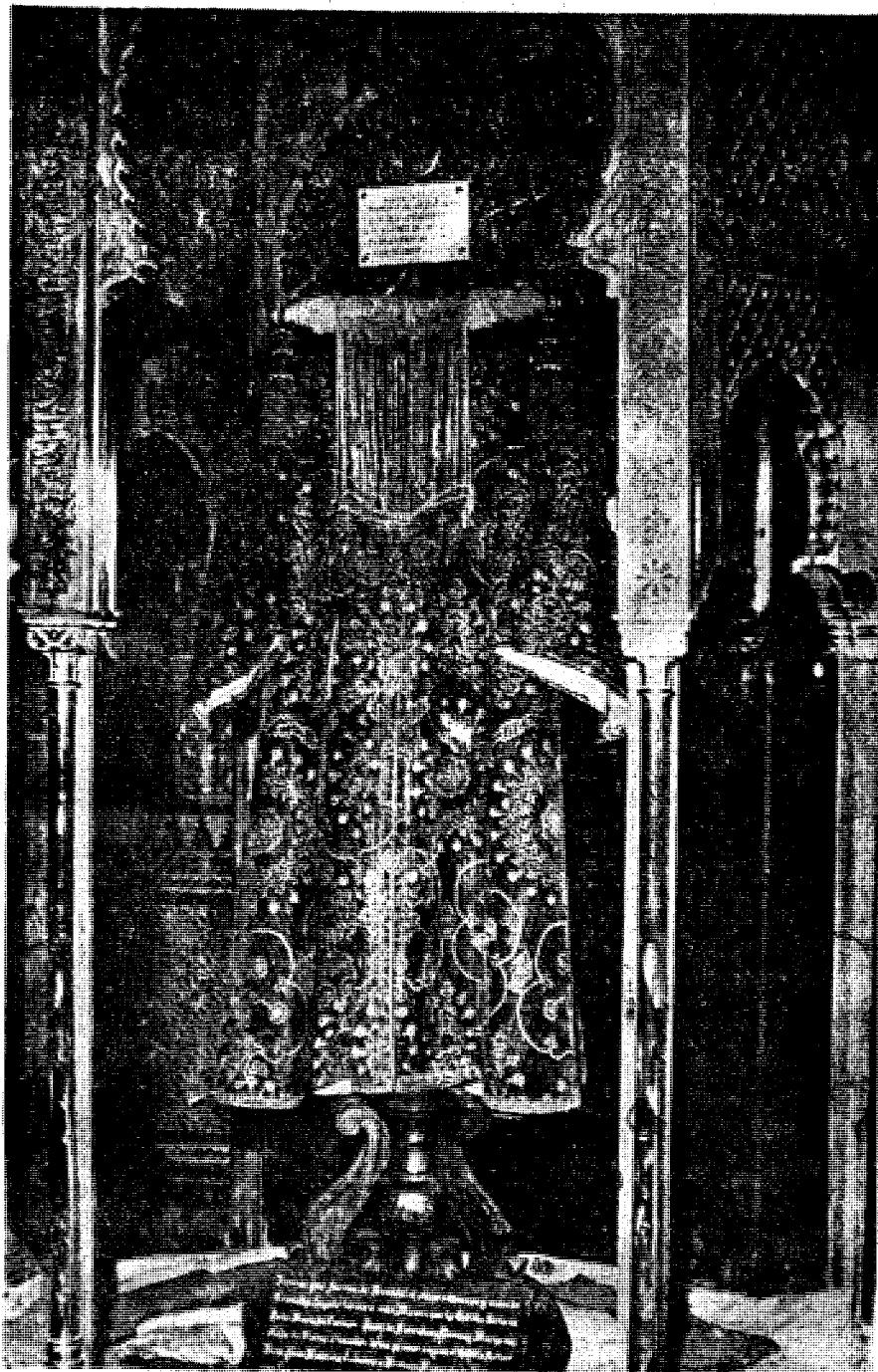
(٢) أزهار الرياض ، ١/٦٨ - ٧١ ؛ نبذة مصر ، ٤٤ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٥٧ .

(٣) نفح الطيب ، ٤/٥٢٥ - ٥٢٦ ؛ أزهار الرياض ، ١/٦٥ - ٦٥ ؛ نبذة مصر ، ٤٢ .

(٤) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢٠٣ (= الحلل السندينية ، ١٢٩/١) ؛ الإحاطة ، ٩٦/١ ، ٩٨ . كذلك : فرحة الأنفس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٣/٢/١ .



موالقة أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) ، آخر ملوك غرناطة ، على ترك الأندلس ، بتاريخ ٢٣ رمضان
٨٩٨ (١٤٩٣ م) . عن الصورة المحفوظة في المتحف العربي
بمدريد (Museo del Ejercito)



جية أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) ، آخر ملوك غرناطة . عثرت في المتحف المغربي
بمدريد (Museo del Ejercito)

من المسلمين ، من أراد الجواز ، حتى نزلوا بمليلة من ريف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس — حرسها الله — وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤَال ، بعد الملك الطويل العريض ، فسبحان المعز المذل ،
الماوح المانع ، لا إله إلا هو .^(١) أما في نفح الطيب فيذكر المقريي ذلك مع زيادة .
« ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البُشَّرات وأنها تكون له وسكناته
بأندَرَش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال في ارتحاله لبَر العُدوة ،
وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المِرِيَّة أنه ساعة وصول كتابي
هذا لاسبيل لأحد أن يمنع مولاي أبي عبد الله من السفر حيث أراد من بَر العُدوة ،
ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له ، فصرف في الحين
بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبل
طلبَ الجواز لناحية مَرَاكُش ، فلم يُسْعَف بذلك وحين جوازه لبَر العُدوة لقي
شدةً وغلاً ووباءً .^(٢) »

بعد أن استقر في فاس بقي مقيماً فيها حتى وفاته سنة ٩٢٤ هـ أو بعدها ، في ظل بنى وطّاس - وارثي المرينيين - وحاكمهم : أبو عبد الله محمد الشیخ بن زکریاء^(٣) . يذكر المقرّي أنه « انتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معترضاً عمّا أسلفه ، متلهفاً على ماحلفه . وبني بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ، وتوفي رحمة الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمئة ، ودفن ببازار المصلي خارج باب الشريعة وخَلَف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد ، وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن . وعهلي بذرتيه بفاس سنة ١٠٢٧ ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويُعَدُّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . »^(٤)

(١) أزهار الرياض ، ٦٧/١ . كذلك : نبذة العصر ، ٤٣ ، ٤٧ .

٥٢٧ / ٤) نفح الطيب ، (٢)

^(٣) انظر : نهاية الأندلس ، ٢٨٧ .

٥٢٩/٤) نفح الطيب ، (٤)

رحل بعض المسلمين الأندلسيين إلى العدوة المغربية ، كان منهم « جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلْمِسَان ، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق ، صاحب « الشرح العجيب على مختصر خليل »، وكتاب « السياسة » الملخص من مقدمة تاريخ ابن خَلَدون ، وفيه زيادات بديعات ، وكتاب « روضة الإعلام بمذكرة العربية من علوم الإسلام »، وغير ذلك ، وارتاحل من تِلْمِسَان إلى المشرق ، وسئل عن ذكره . ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبلأخذ غرناطة ؛ ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها ، وأنه آخذها لامحالة ، قوّضوا رحالم عنها ، فنزلوا بتلمسان المحروسة ، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتاحلهم بقريب ، رحمهم الله . ومنهم الفقيه الأديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة ، أبو عبد الله محمد بن الحَدَّاد الشهير بالوادي آشي ، وسنده كره إن شاء الله ، رحم الله الجميع . ومن خرج بفاس من العلماء ، الفقيه أبو العباس البقَنِي ، ثم رجع إلى غرناطة ، قضيته معروفة . »^(١)

لكن ختام هذه المأساة الأندلسية لم يكن بهذا الشكل السريع أو السهل . بل كانت دونه دماء ودموع وحرسات وأحداث وما سي وتصحيات من كل لون^(٢) . قدّمها المسلمون الأندلسيون دفاعاً عن عقيدتهم الإسلامية ، التي هي أغلى من كل شيء ،

(١) أزهار الرياض ، ٧١/١ - ٧٢ .

ابن الأزرق ، هو : أبو عبد الله محمد بن الأزرق (٨٩٦ هـ) ، قاضي الجماعة بغرناطة ، صاحب المؤلفات . انظر : نفح الطيب ، ٦٩٩/٢ ؛ أزهار الرياض ، ٣٠٥/٣ ، ٣١٧ ؛ نهاية الأندلس ، ٤٩٠ . الوادي آشي ، هو : الفقيه الأديب المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آشي ، نزيل تلمسان . أزهار الرياض ، ٥٥/١ ، ٣٠٢/٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ وبعدها . عدة علماء يحملون هذا اللقب : « الوادي آشي » ، نسبة إلى بلد « وادي آش » (وادي آش = وادي الأشات = مدينة الأشات = Guadix)، من أعمال غرناطة ، ٥٣ كم إلى الشمال الشرقي منها . « مدينة الأشات وهي المشهورة بوادي آش ، وهي كثيرة الأشجار والفواكه ، وتحدر إليها أنهار من جبل الثلج . » فرحة الأنفس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٣/٢/١ . عن « وادي آش » انظر كذلك : صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢٠٢ (= الحال السندينة ، ١٢٦/١) ؛ الروض المطار ، ١٩٢ ؛ نفح الطيب ، ١٤٩/١ ؛ الحال السيراء ، ٣٥٤/٢ ؛ درة الحجال ، ٧٧/١ .

(٢) راجع : نهاية الأندلس ، ٢١٥ - ٣٠٤ .

أمام الطغيان الأعمى والتعصب الأصم الذي استعمل كل وسيلة وتقلد كل سلاح في حرب لا يبرر لها . ضد من أحسنوا إليه معاملةً ، ووفروا له حضارةً ، وأقاموا لإنارة الطريق مشاعلاً ، وأناروا الأرض خيراً ، وعمرروا المكان إنسانيةً ، بعقيدة الإسلام القوية وشرعيته الربانية السمحاء و تعاليمها الندية البيضاء . فما تعلّموا منها ورفضوا خيراًها ، كما فعل شارل مارتل في بلاط الشهداء (١) . حتى لكان النور يزيدهم بالظلم تمسكاً فيعادونه . والخير يُقعدهم في الآلام فيبيدونه . تستثيرهم الفضيلة عداوةً فيحاربونها ، وتشبعهم الحضارة تخلفاً فيحرقوها ، وتمتحنهم السماحة الإنسانية الربانية وتذكر بها همجيةً فيذبحونها . معاني الخير تختفهم ضدّها فيدمرونها ، وشمائل المروءة تختفهم فيقطعونها . توّجوا مآثرهم بمحاكم الفتيش إعلاناً ، يأبى إلا التبجح والفخر ، يمثّل في التخلّف فريدة ولرفض الخير عنيدة . غدت لهم سمة أصيلة ، وفضيلة يتبارون في الدفاع عنها والخلاص لها . يحملون رايتها ويُسخرون من لا يرى رؤيتها ، وذلك عنوان طبيعتهم وغاية أمجادهم .

تلت ذلك محن أخرى قاساها مسلمو الأندلس ، حتى قضي على وجودهم البشري وعلى عقيدتهم وكل ما يتصل بهم . اللهم إلاّ بقايا رماد ، تفلّت من المخالف وهي عنيدة ؟ أما من الناس – إن وجد – فتلك أخرى عجيبة ، أن تبقى تسكن القلب عقيدة (٢) .

سادساً : أحوال غرناطة وأهم الإنجازات

اتضحت – من الشرح السابق – أحوال مملكة غرناطة ، كيف أنها كانت تردد بين القوة والضعف ، وبين الثبات والهزيمة ، وبين الأمن والقلق ، وبين المهدوء والاضطراب . رغم ذلك ، ففي الداخل كانت – كثيراً من الأوقات ، خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف – تمتليء بالإنتاج ، كما تطفح بالخير والرفاه . توفّرت لها

(١) أعلاه ، ١٩٣ ، وبعدها .

(٢) راجع : أندلسيات ، ١٦٩/٢ .

أيام مشهودة في الانتصار والغلبة ، ومع قلة الامكانيات وقسوة الظروف وكثافة الأعداء .

في هذه الظروف والفرص – وحتى مع الأيام العصيبة والانشغال – استطاعت أن تسير في الموكب الحضاري ، على قدر ما أوتيت من امكانيات ، وأن تقدم ألواناً عديدة من الانجاز . مما يدل على حيوية هذه الأمة المسلمة واستعدادها للعمل والانتاج ، بقدر مالديها من معانٍ الاسلام وما تمتلك من رسوخ عقيدته . إن الذي أصاب المسلمين بتقصيرهم وتخاذلهم ، حين المبوط عن المستوى الكريم الذي أراده الإسلام ، كان أكثر مما أصابهم من عدوهم^(١) . مع اعتبار أهمية هذا الأخير في الإشغال والاستراف والاطلاق من كل جهة ، يتقصى من أطرافها ويأكل وجودها ويطحن حضارتها ، تراباً تذروه رياحها العاصفة .

أول إنجاز هو الاستعداد – في تلك الظروف – للمحافظة على ماتبقى للأندلس من أرض ، تأوي إليها البقية الباقي ، والسير في الوجهة القوية على قدر . بعض هذه الانجازات كانت موجودة واستمرت ، وبعضاها الآخر وجد أيام غرناطة . وجدت – في أيامها – « مشيخة الغُزَاة » ، التي خلَّفت تلك البطولات ، بجانب الانتصارات الأخرى^(٢) .

أمِنَ الحفاظ على التكوين والبناء الاجتماعي في عدد من الجوانب ، ولو بحدود ، تضيق أو تتسع . وهو الذي ساعد على الوقوف في هذا الخضم الصعب لعدة أجيال . كما أن الآفاق والقيم التي رعاها وحافظ عليها انتجهت بناءً حضارياً كبيراً في مختلف الميادين ، قد تغير صوره أحياناً ، بعد أن كانت تفور .

في العلوم ، المتعددة الحقول ، قدمت التأليف الكثيرة والانتاج الضخم ، كما حافظت على مانحته يد العلماء الذين سبقوها ، وانتفعت به . نجد – في الميادين الكثيرة – شيئاً طويلاً من أسماء الالامعين . بعضها في الإحاطة لابن الخطيب (٧٧٦ هـ) وفي نفح الطيب للمقرئي (١٠٤١ هـ) . كما أنشئت المدارس ومعاهد العلم الأخرى في كل

(١) انظر : نفح الطيب ، ٥١١/٤ - ٥٣٣ .

(٢) أعلاه ، ٥٤٠ - ٥٤١ .

ناحية . وتوفرت الاختيارات ، من مثل : المدافع التي ترمي نوعاً من المحروقات ، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة ، عنهم انتقلت إلى أوروبا^(١) . لم يزل متحف مدريد الحربي يحفظ حالياً البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة .

وفي الصناعات ، ازدهرت أنواع كثيرة . برزت الأندلس بدور صناعة السفن ، ثم الأنسجة وصناعة الورق و « الفخار المذهب العجيب »^(٢) . وأنجذب الكثير في ميدان الأصباغ والدباغة والجلود وصناعة الحلي ، والصناعات الفنية الدقيقة . كذلك برزت بالزراعة ووسائل الري والعنابة بها وأنواع المزروعات .

ثم الجانب العماني المتمثل في المباني المختلفة كالمساجد والقصور والدور والقناطر . وقصر الحمراء الذي مازال باقياً ، مزياناً بالتقاويس التي تدل على فنية ماهرة رائعة . كذلك المباني الحرية المتعددة^(٣) .

أن يكون – في تلك الظروف – مثل هذه الانجازات وغيرها ، كذلك إنجاز مهم^(٤) ؛ وفي الكتب التي تركت لنا ، ووصلنا منها القليل ، إشارة إلى هذه الانجازات أو بيان عنها . للتنظيمات المختلفة في المجتمع والدولة أهميتها . غدت مدينة غرناطة في وقتها من أجمل مدن العالم بشوارعها و Miyadinya و حدائقها و مبنيتها و مراقبتها المتنوعة ، وكانت تضم حوالي مليون نفس . وتصدر كثيراً من الصناعات إلى عدة بلدان ، منها الأوروبية . وظهرت آثارها على هذه البلدان الأوروبية في بعض المسائل الأخرى المعنية ، فانتفعت – إلى حد – بالفروسية التي كانت لها الخفارات الرائعة المتفتنة ، بما تحتويه من ضروب البراعة والرشاقة والأعراف .

شَكَلَ الجانب الفكري في الانتاج كافة الميادين^(٥) . نعرف أسماء كثيرة من الأعلام ، أمثال : ابن البيطار (٦٣٦ هـ) وابن الرومية (٦٣٧ هـ) وابن الحَيَّاب

(١) انظر : نهاية الأندلس ، ١٢٧ - ١٢٨ ، ٢١١ ، ١٢٨ ؛ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٥٥ ؛ أعلاه ، ٥٤٢-٥٤١ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ٦٧٠ .

(٤) راجع : نهاية الأندلس ، ٥١١ .

(٥) انظر : الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٣٦ وبعدها .

(٧٤٩هـ) وابن خاتمة (٧٧٠هـ) وابن الخطيب (٧٧٦هـ) وأبوي عبد الله : محمد ابن الأزرق (٨٩٦هـ) ومحمد بن الحداد الوادي آشي^(١) ، وغيرهم كثير . كما كان عدد من ملوك بني الأحرmer هم من العلماء والأدباء وبعضهم ألف كتاباً ، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده وموطنه ، وغير ذلك في هذا الباب كثير جداً .

سابعاً : تزايد الخطر ووقوع الكارثة

أخذت مملكة غرناطة تنحدر نحو نهايتها بشكل واضح ، في الأيام الأخيرة من حياتها ، لما اشتد تأثير العوامل المفتتة لوحدتها والمملكة لقوتها . كان بعض هذا نتيجةسوء تصرف بعض الحكام أو الشذوذ في تصرفهم . كذلك لمبوط الحال والانشغال بالتراثات الداخلية وصرف الجهد في خصومات كانت أولى أن تتحدى لتواجه العدو ، في وقت كان العدو يقوى والنصر يقل .

إن بعض هذه الحالة كانت مبكرة . لكن قوة الأمة كانت تحتمل ، حتى وصلت إلى مرحلة أصبحت عاجزة عن تحملها . اشتد ضغط إسبانيا النصرانية ، في هذه المدة ، يكون ذلك - أحياناً - بإمدادات خارجية صليبية . كثُر هجومها ، مستفيدة من تلك الظروف . ثم إن المبالغ التي دفعت لإسبانيا النصرانية ، حيث فرضتها لتفوقها ، بجانب ما تزال عنه بعض سلاطين غرناطة الضعف ، من الحصون والمدن ، كل ذلك كان يفت في عضد الأمة ويشكّل خطرًا ، يقود إلى مثل هذه النهاية . وما ذكر في القسم الأخير من الفقرة الخامسة^(٢) يصبح مكملاً لهذا الكلام .

ثامناً : قائمة بأسماء ملوك غرناطة

حكم بني الأحرمر غرناطة ، وراثة . تولى حكمها - خلال القرنين والنصف - حوالي عشرين من الأمراء ، الذين أطلق على كل واحد منهم « أمير المسلمين » . وقد يعرف أحدهم « الغالب بالله » ، حيث كان شعار الدولة « لا غالب إلا الله » .

(١) انظر : أعلاه ، ٥٥٨ .

(٢) أعلاه ، ٥٥١ وبعدها .

تولى بعضهم الحكم أكثر من مرة . كان كثير منهم يمتازون بالهمة والصدق والجهاد الكريم والدأب المستمر ، يتمتع ببطاقات متعددة الجوانب ، عسكرية وعلمية وإدارية ، كما استعمل الرجال الأكفاء . حاز عدد منهم مستوى رفيع من المقدرة ، ولكن يفقد حياته مبكراً والبلد بحاجة إليه .

هذه قائمة بأسمائهم وسنوات حكمهم^(١) .

- ١ - محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر (المعروف : «الشيخ» و«الغالب بالله») ، مؤسس الدولة . حكمه : ٦٣٥ هـ ٦٧١ م (١٢٣٨ - ١٢٧٢ م) .
- ٢ - ورثه ابنه : محمد (الثاني) ، الفقيه^(٢) . حكمه : ٦٧١ م ٥٧٠١ - ١٢٧٢ م (١٣٠٢ م) .
- ٣ - ورثه ابنه : أبو عبد الله محمد (الثالث) ، المخلوع^(٣) . حكمه : ٧٠١ م ٧٠٨ هـ ١٣٠٩ - ١٣٠٢ م (١٣١٤ م) .
- ٤ - ورثه أخوه : نصر ، أبو الجيوش . حكمه : أول شوال ٧٠٨ - أواخر شوال ٧١٣ هـ ١٣٠٩ - ١٣١٤ م (١٣١٤ م) .
- ٥ - ورثه حفيد إسماعيل (أخو محمد الأول ، الشيخ المؤسس) : أبو الوليد إسماعيل^(٤) (الأول) . الجمعة ١٧ شوال ٦٧٧ ، حكمه : شوال ٧١٣ - الاثنين ٢٦ رجب ٧٢٥ هـ ١٣١٤ - ١٣٢٥ م (١٣٢٥ م) . في أيامه جرت معركة مشيخة الغزارة سنة ٧١٨ هـ .
- ٦ - ورثه ابنه : أبو عبد الله محمد^(٥) (الرابع) . محرم ٧١٥ ، حكمه : رجب ٧٢٥ - ذو الحجة ٧٣٣ هـ ١٣٢٣ - ١٣٢٥ م (١٣٢٣ م) .
- ٧ - ورثه أخوه : أبو الحاج يوسف (الأول) ، الغالب بالله^(٦) ، بن أبي الوليد

(١) راجع : الإحاطة ، ١٤٢/١ ؛ نفح الطيب ، ٥١١/٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ .
Historia de la Espana Musulmana , 160 .

(٢) الإحاطة ، ٥٥٦/١ وبيدها .

(٣) الإحاطة ، ٤٤/١ وبيدها .

(٤) الإحاطة ، ٣٧٧/١ - ٣٩٧ ؛ أعمال الاعلام ، ٢٩٤/٢ .

(٥) الإحاطة ، ٥٣٢/١ وبيدها ؛ أعمال الاعلام ، ٢٩٥/٢ - ٣٠١ .

(٦) انظر : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، محمد كمال شبانة .

- إسماعيل (الأول) . حكمه : ٧٣٣ - ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) .
- ٨ - ورثه ابنه : محمد (الخامس) ، الغني بالله . حكمه (المرة الأولى^(١)) :
- ٧٥٥ - آخر رمضان ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ - ١٣٥٩ م) ، خلع.
- ٩ - تولي الأمر بعده أخوه : إسماعيل^(٢) (الثاني) . الاثنين ٢٨ ربیع الأول ٧٤٠ هـ ، حکمه : ٢٨ رمضان ٧٦٠ - الأربعاء ٢٧ شعبان ٧٦١ هـ (١٣٥٩ - ١٣٦٠ م) ، خلع.
- ١٠ - تولي الأمر بعده زوج أخيه : أبو عبد الله محمد^(٣) (السادس) ، الغالب بالله . رجب ٧٣٢ ، حکمه : شعبان ٧٦١ - جمادى الثانية ٧٦٣ هـ (١٣٦٠ - ١٣٦٢ م) . يعرف كذلك في بعض المراجع الإسبانية : أبو سعيد البرميغو (El Bermejo) : الأشقر ، مائل إلى الحمرة ، خلع.
- ١١ - يعود محمد (الخامس) ، الغني بالله ، (المرة الثانية والأخيرة^(٤)) : ٧٦٣ - ٧٩٣ هـ (١٣٦٢ - ١٣٩١ م) .
- ١٢ - ورثه ابنه : أبو الحاج يوسف (الثاني) . حکمه : ٧٩٣ - ٧٩٧ هـ (١٣٩١ - ١٣٩٤ م) .
- ١٣ - ورثه أخوه : يوسف (الثالث) . حکمه : ٨١١ - ٨٢٠ هـ (١٤٠٨ - ١٤١٧ م) .

(١) انظر عنه : الإحاطة ، ٩١ - ١٣/٢ . كذلك : (محمد الخامس ، الغني بالله ، ملك غرناطة) بالإسبانية لأحمد مختار العبادي : Muhammad V, Al - Gani Bi - Llah, Rey de Granada . في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) ، ١١ - ٢٠٩/١٢ - ٣٢٧ ، ٤٣/٣ - ١٤٢ ، ١٣٩/١٤ - ١٩٢ .

(٢) الإحاطة ، ٣٩٨/١ وبعدها ؛ أعمال الاعلام ، ٣٠٧/٢ ؛ نفاضة الجراب وغلاة الاغتراب ، ابن الخطيب ، ١٢/٢ - ١٣ (المقدمة) ، ١٠٣ وبعدها .

(٣) الإحاطة ، ٥٢٣/١ وبعدها ؛ أعمال الاعلام ، ٣٠٨/٢ ؛ نفاضة الجراب ، ١٣ - ١٢/٢ (المقدمة) ، ١٠٣ وبعدها ، ١٨٣ . (محمد الخامس ، الغني بالله ، ملك غرناطة) ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١١ - ١٢ / ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٤١ ، ٢٦١ - ٢٦١ .

(٤) الإحاطة ، ٣١/٢ وبعدها ؛ (محمد الخامس ، الغني بالله ، ملك غرناطة) ، ١١ - ١٢ / ٢٦٣ .

- ١٤ - ورثه ابنه : أبو عبد الله محمد (الثامن) ، الأيسر (El Izquierdo, El Zurdo) . حكمه (المرة الأولى) : ٨٣١ هـ ١٤١٧ م - ٨٢٠ هـ ١٤٢٨ م) ، خلع .
- ١٥ - جاء ابنه (أوأخوه) : محمد (التاسع) ، الزغير ، أبو عبدالله الصغير (El Azquer) ، ابن محمد (الأيسر) بن يوسف (الثالث) . حكم عامين وأعيد الأيسر . أعيد الأيسر (المرة الثانية) ، خلع - بعد عامين - سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢ م) .
- ١٦ - ورثه : أبو الحجاج يوسف (الرابع) ، ابن المول (Abenalmao) . أمه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن محمد (الخامس) ، الغني بالله . توفي بعد أشهر وعاد الأيسر .
- ١٧ - أعيد الأيسر (المرة الثالثة والأخيرة) ، خلع سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤٢ م) .
- ١٨ - ورثه : محمد (العاشر) ، الأحنف^(١) (الأعرج El Cojo) ، بن نصر ابن محمد (الخامس) ، الغني بالله . (المرة الأولى) ، خلع .
- ١٩ - ورثه ابن عم الأيسر : يوسف (الخامس) بن أحمد (بن إسماعيل) بن يوسف (الثاني) . المرة الأولى : حكم أشهر وخلع .
- ٢٠ - عاد الأحنف ، (المرة الثانية) : أوائل سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٦ م) ، وخلع سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) .
- ٢١ - ورثه حفيد يوسف (الثاني) : سعد بن محمد . حكمه (المرة الأولى) : ٨٦٣ هـ - ١٤٥٨ م (١٤٦٢ م) ، خلع .
- ٢٢ - أعيد يوسف (الخامس) بن إسماعيل (المرة الثانية) : حتى سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) .
- ٢٣ - عاد سعد بن محمد (المرة الثانية) ، عزله ابنه أبو الحسن علي .

(١) انظر : بحث «سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع المجري» ، عبد العزيز الألواني ، في : مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، ١١٣/١١٦ ، بحث بالاسبانية (مع نص أندلسي) عن محمد العاشر ، لويس سيكوري دي لوثينا ، مجلة «الأندلس» الإسبانية : «La Familia de Muhammad X El Cojo, Rey de Granada»، Luis Seco de Lucena, AL-ANDALUS, XI /2, 379-85 .

قائمة نسب بنى الأحمر

محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصارى المخرجى

يوسف

(١) المؤسس: أبو عبد الله محمد(الأول)، ابن الأحمر، الشیخ الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل محمد

(٢) أبو عبد الله محمد (الثاني) ، الفقيه

(٣) شعبان ٦٣٣ هـ : ٩٧١ - ٦٣٥ هـ : ٩١٥

الرئيس: أبو سعيد فرج محمد علي يوسف

(٤) نصر، أبو الجيوش (٥) أبو الوليد إسماعيل (الأول) (٦١٣ - ٧٢٥ هـ) محمد

(الثالث) ، المخلوع (٧٠٨ - ٧١٣ هـ)

(٥) إسماعيل إسماعيل

(٦) أبو عبد الله محمد (الرابع) فرج

(٧) أبو المطلب يوسف (الأول) (٧٥٥ - ٧٣٣ هـ)

(٨) محمد (السادس) ، الغالب بالله

(٩) إسماعيل (الثاني) ، ابنته

(١٠) أبو عبد الله محمد (العاشر) (٧٦٠ - ٧٥٥ هـ)

(١١) يحيى وأبيه ثانية (٧٦٣ - ٧٥٢ هـ)

(١١) أبو الحجاج يوسف (الثاني) ، (٧٩٣ - ٧٩٧ هـ)

نصر
ابن محمد (المدرس)

(١٧) محمد (العاشر) ، الأخفف

(الأولى: ٨٤٥ - ٨٤٩ هـ)
(الثانية: ٨٦٣ - ٨٦٩ هـ)

يوسف (الثالث)
(١٣) محمد (السابع)
(١٢) محمد (السادس)
(١١) يوسف (الثالث)
(١٠) سعيد

إسماعيل
محمد

الأولى: ٨٦٣ هـ

٨٦٧ هـ

٨٦٧ هـ

٨٦٨ هـ

(الأولى: ٨٣٣ - ٨٣٦ هـ)
(الثانية: ٨٣٥ - ٨٣٣ هـ)
(الثالثة: ٨٣٦ - ٨٣٥ هـ)

(١٥) محمد (الناس)
(١٤) أبو عبد الله محمد (الثامن) ، الأيسر

(الأولى: ٨٢٠ - ٨٢١ هـ)
(الثانية: ٨٣٣ - ٨٣١ هـ)

(١٦) يوسف (الرابع)
ابن المول ، حكم أشهر (٨٣٦ هـ)

(٢٢) أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) ، الزَّاغل (٨٩٢ - ٨٨٧ هـ)
أبو الحسن علي (٨٦٨ - ٨٦٧ هـ)

(٢١) أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) ،
أبو عبد الله الصعيدير ، آخر ملوكها

(الأولى: ٨٨٧ - ٨٨٩ هـ ، الثانية: ٨٩٢ - ٨٩٧ هـ)

- ٢٠ - وَرِثَهُ ابْنُهُ : أَبُو الْحَسْنِ عَلَيْ بْنُ سَعْدٍ ، الْغَالِبُ بِاللَّهِ . حُكْمُهُ : ٨٦٨ - ٨٨٧ هـ
 (١٤٦٣ - ١٤٨٢ م) ، خَلَعَ .
- ٢١ - وَرِثَهُ ابْنُهُ : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (Boabdil) مُحَمَّدُ (الْحَادِي عَشَرُ) ، الْمَعْرُوفُ :
 الْغَالِبُ بِاللَّهِ ، وَالْمَلَكُ الصَّغِيرُ . حُكْمُهُ (الْمَرْأَةُ الْأُولَى) : ٨٨٧ - ٨٨٨ هـ .
- ٢٢ - وَرِثَهُ عَمُّهُ (أَخُو أَبِي الْحَسْنِ عَلَيْ بْنِ سَعْدٍ) : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ (الْثَّانِي عَشَرُ) ،
 الرَّغَلُ (الشَّجَاعُ أَوْ الْبَاسِلُ = El Bravo) ، بْنُ سَعْدٍ . حُكْمُهُ :
 ٨٨٨ - ٨٩٢ هـ . اسْتَسْلَمَ وَتَرَكَ الْأَنْدَلُسَ إِلَى تِلِمِسَانَ بِالْجَزَائِرِ .
 عَادَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ (الْحَادِي عَشَرُ) ، (الْمَرْأَةُ الثَّانِيَةُ) ، حَتَّى سَنَةُ ٨٩٧ هـ
 (١٤٩٢ م) .

اسْتَسْلَمَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ ، الْمَلَكُ الصَّغِيرُ ، وَسَلَّمَ غَرَنَاطَةَ ، آخِرَ حَصْنِ إِسْلَامِيِّ
 فِي الْأَنْدَلُسِ ، لِلْمُلْكَيْنِ الكَاثُولِيكِيْنِ : فِرَانْدُهُ (Fernando V) وَإِيزَابِيلَ
 (Isabel, Isabella) سَنَةُ ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . تَرَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ - فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ -
 الْأَنْدَلُسَ إِلَى فَاسِ (١) ، وَهُوَ آخِرُ مُلُوكِ غَرَنَاطَةَ . عَنْدَ رَحِيلِهِ جَرَتْ تِلْكَ الْقَصَّةُ
 الْمُؤْثِرَةُ وَمُوقَفُ أَمَّهِ عَاشَةُ أَوْ فَاطِمَةُ (٢) .

تاسِعًاً : مَحْنَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ سُقُوطِ غَرَنَاطَةِ وَمَحَكَّمِ الْقَيْسِيرِ

لَمْ تَكُنْ مَصِيَّبَةُ الْأُمَّةِ إِسْلَامِيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ تَتَنَاهِي بِزُوَالِ سُلْطَانِهِمُ السِّيَاسِيِّ وَسُقُوطِ
 آخِرِ مَعْقِلٍ إِسْلَامِيٍّ بِيَدِ سُلْطَاتِ اسْپَانِيَا النَّصْرَانِيَّةِ الْمُتَحَدَّةِ ، بَلْ إِنْ مَصِيَّبَةُ جَدِيدَةٍ تَبْدِأُ ،
 إِنَّهَا مَأسَةُ الْأُمَّةِ هُنَاكَ . مَأْسَةٌ تَمَثَّلُ فِيهَا الشَّبَاتُ وَالتَّصَارُعُ ضَدَّ الْفَنَاءِ الَّذِي كَانَ يَرِيدُهُ
 لَهُمُ السُّلْطَانُ الْإِسْبَانِيُّ ، لِفَنَاءِ الْأَفْرَادِ ، بَلْ قَبْلَهُ فَنَاءُ وَإِفَنَاءُ الْعِقِيدَةِ وَإِلْغَاءُ كُلِّ مَا يَتَصلُّ
 بِذَلِكَ . وَبَقَيَ الْمُسْلِمُونَ يَقاومُونَ مَا يَزِيدُ عَلَى الْقَرْنِ دَفَاعًا عَنْ عِقِيدَتِهِمُ مُمَثَّلَةً فِي وُجُودِهِمْ
 وَكُلِّ الْأَمْورِ الْمُتَعْلِقَةِ بِهِمْ ، حَتَّى الشَّمَارُ الْفَكْرِيُّ وَالْاِنْتَاجُ الْحَضَارِيُّ بِعُظُوْرِهِ ، لِذَلِكَ

(١) أَعْلَاهُ ، ٥٥٦ - ٥٥٨ .

(٢) راجع : أَنْدَلُسِياتُ ، ٣٥/٢ ؛ نَهَايَةُ الْأَنْدَلُسُ ، ٢٦٧ ، ٢٨٨ .

كانت محاكم التفتيش . وتقود كل هذا ويتم بروح صلبية ، تأخذ من تبدو عليه أية صلة بالإسلام ، أو يضبط متلبساً يؤدي الشعائر أو يترسم عادة من العادات أو يحمل شارة من شارته ، حتى الملابس والاغتسال اعتبرت دليلاً عليه . فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين النصرانية وأبطنوا الإسلام ، وأطلق على هؤلاء اسم « المورسكيون (Los Moriscos) : المسلمين الصغار ». لذلك ليس من السهولة أن نجد الآن أسرآً مسلمة في إسبانيا^(١) .

انهارت حرب الإسلام – بعد سقوط غرناطة – عدة أشكال ، مرت بمراحل ؛ لاسيما حين استتب الأمور للسلطان القشتالي ، بعد دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة واستحوذهما عليها وزال ما كانت تخشاه من انتقام المسلمين أو اتفاقيهم عليها ، فأحكم قبضته . بدأ يعد العدة لحرب المسلمين ، ونقض الشروط التي لم يعطها إلا إغراءً لهم وتعجيلاً بالاستسلام ، ليتجنب مقاومة ترهقه وتكلفه الكبير^(٢) . جرى ذلك رغم التأكيدات البابوية والملكية القشتالية وسلطاتها المدنية والكنيسة للوفاء بشروط « معاهدة تسليم غرناطة » . إذ اتفق على « أن صاحب رُومَة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنه من حمراء غرناطة والمعاقل والمحصون ، ويختلف على عادة النصارى في المعهود ، وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتنّ عليهم النصارى بما جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا إليها ووافقو عليها »^(٣) . تعهد الملكان الكاثوليكيان كتابةً – في المعاهدة بنفس تاريخ توقيعها ، ٢١ محرم ٨٩٧ هـ ١٤٩١ / ١١ م) – « أن ملكي قشتالة يؤكدان ويسقطان بدينهما وشرفهمما الملكي ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه بإسميهما ويعهراه بخطائهما »^(٤) .

(١) راجع : أندلسيا ، ١٦٨ / ٢ - ١٦٩ ؛ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٣١ .

(٢) انظر : نهاية الأندلس ، ٢٥٤ .

(٣) نفح الطيب ، ٤ / ٥٢٥ .

(٤) نهاية الأندلس ، ٢٥٠ (النص القشتالي) .

كرر هذا التعهد - بعد ذلك بسنة - في ربيع الأول ٨٩٨ هـ (٣٠ كانون الأول = ديسمبر سنة ١٤٩٢ م) «بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير ، وسائر عضماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شيء ، أو يت郢ض منه شيء ، الآن وإلى الأبد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ، ويأمرا بالمحافظة على كل ما يحتويه بندًا إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء .»^(١)

بعد سنوات قليلة بدأ الت郢ض لكل ماجاء في «معاهدة تسليم غرناطة» ، عن قصد مسبق وتدبير مخطط ، تعاونهما في ذلك السلطات الكنسية وكافة المسؤولين . اتخذ هذا الترتيب - لحرب المسلمين في عقيدته ونفسه - تدرجاً . لم تكن أولى خطواته مستساغة أو خالية من القسوة أو بعيدة عن الأهوال أو منافية للتوحش ، وحاشا للنصرانية - كما أنزها الله ، جلت قدرته ، على عيسى عليه السلام - أن ترضى بأي شيء من هذا .

بقيت أعداد كبيرة - ملابين - من المسلمين بعد سقوط غرناطة ، لم تخز إلى العدو المغربية ، سواء من كان منهم في مملكة غرناطة ، أو المجنون الذين بقوا في قواعد الأندلس تحت حكم إسبانيا النصرانية قبل سقوط غرناطة ، بل فضلت الإقامة في أماكنها والدجن ، أثار ذلك حفيظة السلطات القشتالية ، فنقضت الشروط . لم تمض سبع سنوات - أو دونها - على سقوط غرناطة ، حتى أُجبرت هذه السلطات المسلمين على التنصير . «فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الحواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمين أول مرة ، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً ، إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة المسلمين ، وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم المغامر الثقيلة ، وقطع عنهم الأذان في الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسعمئة ، فدخلوا فيه كرهًا ، وصارت الأندلس كلها دار كفر ، ولم

(١) نهاية الأندلس ، ٢٥٠ .

يبقى مَنْ يَجْهُرُ بِكَلْمَةِ التَّوْحِيدِ وَالْأَذَانِ ، وَجُعِلَتْ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَآذِنِ التَّوَاقِيسُ وَالصَّلَبَانُ ، بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَلْوِةِ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَاهُ اللَّهُ الْمَلِكُ الْدِيَّانُ . «^(١) فَاتِّيْعُ القَتْلَ – غَيْرُ بَعِيدٍ – لَمْ لَا يَتَنَصَّرْ » وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْرَهُوْهَا بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يَقْعُدْ مِنْهُمْ النَّطْقُ بِمَا يَقْتَضِي فِي الظَّاهِرِ الْكُفَّارُ ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ الْأَسْرُ ؛ وَكَانَ الْابْتِدَاءُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ غَرَّ نَاطِةٍ – جَدَّدَ اللَّهُ رَسْمُهَا ، وَأَعْدَادٌ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ اسْمُهَا ، وَخُصُوصًا أَهْلَ وَاسْطُوطَهَا »^(٢) . حِيثُ عَلِمَتِ السُّلْطَاتُ الْقَشْتَالِيَّةُ « بَأَنَّ مَنْ بَقَىَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا هُمْ أَسْرَى فِي أَيْدِيهِمْ ، وَعِيَالٌ عَلَيْهِمْ ؛ وَبَعْدَ أَنْ انتَزَعُوا مِنْهُمُ الْأَسْلَحَةَ وَالْمَعَاقِلَ ، وَعَتَّوْا فِيهِمْ بِالْخَرْوَجِ وَالْحَلَاءِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طَائِلٌ ؛ وَنَقْضُ الْلَّعِينِ طَاغِيَّةِ النَّصَارَى عَهُودَهُ ، وَنَشْرُ بِمَحْضِ الْقَدْرِ بِنَوْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ مَعْذِرَةٍ لَفَقَاهَا ، وَلَا كَذَبَةٌ فِي مَعْرِضِ الْعَذْرِ نَمَقَاهَا ، إِلَّا عَجَازًا مِنَ الْكُفَّارِ ، وَصَدُورًا مِنَ الْعَيْظِ وَالْمَكْرِ ، وَخَالِصُ الْغَدَرِ ، جَمِيعُهَا وَفَرَّقَهَا ؛ ... ثُمَّ انتَزَلَ عَنِ الْوَاسِطَةِ لِلْبَيَّازِينَ ، حِيثُ الْحَمِيَّةُ ، وَالنَّصْرَةُ الْإِيمَانِيَّةُ ، مَعَ السَّرَاجَةِ وَالْتَّحِيَّةِ [؟] ، وَالْعُقْلُ الرَّصِينُ ، وَالدِّينُ الْمَتِينُ ؛ فَجَعَلَ صَعْبَهَا ذَلَّوْلَا ، وَأَعْدَادُ الْكُفَّارِ كَرَهَا مَنْ كَانَ بِخَضْرَتِهَا ، وَتَمَتَّعَ أَحْزَابُ الشَّيْطَانِ – قَصْمَهُمُ اللَّهُ – بِنَضْرِهَا ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ تَنَعِّمَهُمْ قَلِيلًا »^(٣) .

مِنَ الْمُهُومِ الْإِسْتِعَانَةُ بِهَذِهِ النَّصْوصِ ، فَهِيَ مَعْبُرَةٌ وَمُوضِّحَةٌ ، دَوْتَهَا شَاهِدُ عِيَانٍ أَوْ قَرِيبُ عَهْدٍ بِالْأَحْدَاثِ . يَحْفَظُ الْمَقْرَرِيُّ (تِلْمِسَانٌ ، ٩٨٦ – الْقَاهِرَةُ ، ١٠٤١)^(٤) فِي فَحْضِ الطَّيْبِ نَصَّاً آخَرَ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْأَحْدَاثِ فَيَقُولُ :

« ثُمَّ إِنَّ النَّصَارَى نَكْثُوا الْعَهْدَ ، وَنَقْضُوا الشُّرُوطَ عِرْوَةَ عِرْوَةَ ، إِلَى أَنْ آلَ الْحَالَ لِحَلْمِهِمُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّنَصُّرِ سَنَةً أَرْبَعَ وَتَسْعَ مِئَةً ، بَعْدَ أَمْوَارٍ وَأَسْبَابٍ أَعْظَمُهَا وَأَقْوَاهَا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ الْقَسِيسِينَ كَتَبُوا عَلَى جَمِيعِ مَنْ كَانَ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى

(١) أَزْهَارُ الْرِّيَاضِ ، ٦٨/١ – ٦٩ . كَذَلِكَ : نَيْدَةُ الْعَصْرِ ، ٤٤ .

(٢) أَزْهَارُ الْرِّيَاضِ ، ٦٩/١ .

(٣) أَزْهَارُ الْرِّيَاضِ ، ٦٩/١ – ٧٠ .

أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك . وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصراً نياً فأسلم فترجع نصراً نياً . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكم وقتلواهم ، وهذا كان السبب للنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن منْ قام على الحكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت . وبالحملة فإنهم تتصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من النصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلْفِيق وأندَرَش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبباً ، إلا ما كان من جبل بلنقة فإن الله تعالى أعنهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة . وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خفت من مالهم دون الخسائر ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر النصر من المسلمين بعد الله في خفية ويصلّي ، فشدّ عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الحال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إليها بهدا العصر القريب أعوناً سبعة عشر وألف ، فخرجت ألف بفاس ، وألوف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس «^(١)».

اعتمدت إسبانيا الشمالية دوماً — سياستها المتبعة وطريقتها المؤهلة — عدم الالتزام بالعقود ، لاسيما حين تجد الفرصة لنقضها . فكيف هنا وهي متغلبة تمتلك القوة — ميدان لإثبات الحقيقة — وليس أمامها إلا ضعاف ، يعدموه وسيلة دفاع عن أنفسهم أو مطالبة بحقوقهم ، بله ما يحمونه بها . أَلْفُنا وضوح التضليل — خلال تاريخ الأندلس — من جانب إسبانيا الشمالية . بينما رأينا بوضوح كامل إلفة الترام المسلمين بالعقود ، في كل الظروف . حتى وهم يملكون القوة ويحوزون الانتصار وهم التوجيه^(٢) .

(١) نفح الطيب ، ٤/٥٢٧ - ٥٢٨ . كذلك : نبذة العصر ، ٤٥ .

(٢) انظر : أعلاه ، ١٤٠، ٨٢-٧٨ . كذلك : Andalusian diplomatic relations , 290-1.

أحيط بال المسلمين ، بعد سقوط غرناطة ، من كل مكان و خاضوا - في أوقات - معارك قدّموا فيها التضحيات ، سُبّيت فيها نساؤهم وأولادهم . بقوا و حدهم هناك ، مجردين من الوسائل ، عزلاً يذودون عن دينهم . رغم تغلبهم أحياناً ، إلا أنهم أُبيدوا في النهاية بصلبية عجفاء و حقد أسود ..

امتنع بعض الأندلسيين « من التنصّر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، كأهل قري ونجر والبشرة وأندرأش وبلفيق ، فجمع ملك الروم عليهم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد ، فقتل رجالهم وسبى نسائهم وصبيانهم وأموالهم ونصرهم واستعبدتهم إلا أن أنساً في غربية الأندلس امتنعوا من التنصّر وانحازوا إلى جبل منيع وعمر فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصّتوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطبع في الوصول إليهم كما فعل بغيرهم ، فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه ، بعد أكثر من ثلاثة وعشرين معركة ، فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقنان . »^(١)

لكن موضوع المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة (المورسكيون Los Moriscos) واسع ومهم . إنه بحاجة إلى دراسة مستقلة معينة ، لعل الله جلّ قدرته يوفق له بعونه ومتّه .



(١) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، ٤٥ .

خاتمة

لاحظنا – خلال دراستنا ، لا لمملكة غرناطة فقط بل لكافحة التاريخ الأندلسي – أموراً كثيرة . هذا الأسلوب في التناول والطريقة في العرض والسير في المتابعة وحسب الموضوعيات لكل عهد هو وجهاً متميزة عما اعتاد كثير من الدارسين ، مع ما قد يكون جديداً أو فيه شيء من الجد . ربما ينمو هذا الأسلوب ليكون اتجاهًا أكثر قوة ووضوحاً رعماً ، مع ما فيه من الشمول والعودة إلى الأصول والتوجّل الطويل والنظر الأصيل ، بأمانة نزيهة وأنأة صبور . يكمله – طبعاً – الحانب الحضاري ، الذي درست بعض جوانبه مستقلة ، تأخذ طريقها إلى الاتساع والتدقيق .

كانت رحلة مع المسلمين – من الفاتحين الأولين أو الأسبان الذين دخلوا الإسلام – خلال القرون الثمانية التي امتلأت بوجودهم السياسي والاجتماعي والحضاري وقبل ذلك الانساني . رأيناهم يملؤون تلك الأرض طيباً وخيراً وجمالاً منوعاً ، وعطراً وشجرآً باستقآ ، وغرساً ذاتمار عجيبة تزهو ساطعة فريدة . فاضت عدلاً ونعمـة وعلماً وفضلاً وعمراناً ، ما كان منها نجداً وسهلاً . شعر الناس به – حتى غير المسلمين – أمناً وراحة ، دفأً وسعادة « لم يكن فتح المسلمين للأندلس مجرد حدث سياسي أو انتصار عسكري ، بل كان حدثاً حضارياً وإنجازاً رائعـاً وإعلاناً عن حياة جديدة حلـت تلك الأرض ، كان لها أثر في تلك الديار وماجاورها من الأقطار . »^(١) إنه اليقظة الكبرى ، حين يقظهم الإسلام من سبات عميق ونعمـة فضلـي يوم أنقذـهم من ضلال مغرـق عـنـيد ، ليحيـوا في نورـه الـغـامر وظـله الـوارـف وخيـره الـعـريـض .

كم لاحظنا من تقلبات الأحوال مرتبطة بأصول وأسباب . لكن أمراً مهماً لابد من اعتباره . هو أن كل تقدم أو ارتقاء حضاري وسياسي ونعمـم اجتماعي أو اقتصادي وسمو فكري وارتفاع معنوي وأية عزة في السلطـان وتمكنـ في الـبـنيـان كان مرده إلى التمسـك بالإسلام ، ومرتهـناً بمقدار الالتزام بشـريعـته . صدقـاً نقـيـاً أمـيناً ، وحرـصـاً ذاتـياً

(١) أندلسـيات ، ١٥٢ - ١٥١ . كذلك : أعلاه ، ٢٨٥ - ٢٨٧ .

دفيناً ، وعمقاً متأصلاً مكيناً . هذه القاعدة سليمة المنطق والتطبيق في كل عصور المسلمين ، منذ أول يوم في إشراقته الوضيئه وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . كما لاحظنا أن الجهد والطاقات ، التي صرفت في حماية الأندلس ، كانت ضخمة طوال تلك القرون . كان كثير من المواجهات تحمل الطابع الصليبي بوضوح . تثير هذه المواقف المتاعب في داخل الأندلس . رغم ذلك كله ، نجد الأندلس يمتاز بالنشاط والغزارة في الأحداث وفي الانتاج الحضاري المتعدد الجوانب . إنه إنتاج ضخم في كل ميدان . منه احتوت أوروبا على أصول نهضتها العلمية وما أخرجها من عصور جهالتها . هذا التيار فرحت لصده في معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ) ، واعتبرت ذلك إنقاذًا . لكن كان من الخير والعدل والمثل القيمة والحضارة التي علمت الإنسان مكانته وهدّاته إلى حقيقته ورفعت فكره وظهرت بصيرته وأجلت بصره وأعلنت قدره . حتى عندما نقلت أوروبا من الأندلس حضارة ، فإنها أهملت أصولها التي بها قامت . أخطأت السبيل ، فضلت وأضلّت .

لابد للمسلمين ، وهم أولى ، ألا ينصرفوا فقط للاستيعاب الذهني الجاف والمشوه . بل بحاجة أيضاً إلى التعبئة النفسية والخلقية التي تقدم للإنسان وعقله غذاء ، يجعل نموه سليماً متناسقاً . يرعى نفسه ويحرص ، فرحاً حين يقدم لنغيره من الخير ما أصابه . يكون ذلك أحد التزاماته التي تلبسه حالة السعادة ، لا يعوضه عنها فقدانها . أي تناولها الموضوع دراسة لتعيد البناء على أساس من المثانة قوية في ظروف واضحة تقدم بها .

إن المجتمع الذي أقامه الإسلام في الأندلس ، وبه كان وجوده ، رعى الحقوق حتى لغير المسلمين . وجدوا فيه الظل الوارف ، والعش الأمين والكتف اللين ، يوم كان لا يتوفّر ذلك لأهلها ، في مجتمعات تدين بما يدينون . فلقد منع فقهاء قرطبة المنصور بن أبي عامر (٣٩٢ هـ) - حين استشارهم - من « أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة ، أراد شراءها »^(١) .

لكن يوم ذهبت دولة الإسلام وأمست كلمته ، لم تردّ السلطات الغالية للمغلوب

(١) ترتيب المدارك ، ٣ - ٦٤٥/٤ .

بنفس صاعه ولا نصيفه أو جزء منه ، أو به شبيه (والبادي بالخير أكرم) لمقابل ما صدر عنه غير الظلم . بل وكأن ذلك نفسه يجمع لها من الحقد ما وجدت الفرصة لإفراغه .

اعتمدت سياسة اسبانيا النصرانية مختلف الأساليب لاقناء الإسلام وإبادة أهله في جزيرة الأندلس ، وقد مرت النماذج على ذلك^(١) . فألفت عمليات الإبادة ورفض المصالحة والاستسلام ؛ بل آثرت تدمير المدينة الأندلسية ، التي تقع في حوزتها ، وتقتل أهلها ؛ كما ارتضت إحراق المساجد^(٢) أو إحالتها إلى كنائس^(٣) . وقد يتم ذلك كله مع وجود معاهدات مؤكدة ومخلف عليها^(٤) . كذلك جرت عادتها على إجلاء المسلمين عن المدينة الأندلسية حين تقع بين يديها^(٥) .

فلما أغارت على مدينة سُهِيْل (Fuengirola) جنوب غربي مالقة^(٦) . خربتها وقتلت من أهلها الكثير . فتذكر مصادرنا الأندلسية ، في ترجمة المحدث اللغوي ، أبي القاسم عبد الرحمن السُّهِيْلِي^(٧) (مالقة ، ٥٠٨ – مراكش ، ٥٨١ هـ) ، أنه « اجتاز على سُهِيْل وقد خربه العدو لما أغار عليه وقتلوا أهله وأقاربها ، وكان غائباً عنهم ، فاستأجر من أركبه دابة وأتى به إليه ، فوقف بيازاته ، وأنشد»^(٨) شعراً يصف الحراب الذي حلَّ مدينة سُهِيْل .

وبلغ الأمر بعد سقوط بلنسية (٦٣٦ هـ)^(٩) أنَّ مُنْيَعَ المسلمين من استعمال مقابرهم . فلقد تُوفِي أبو محمد عبد الله بن محمد بن مطروح تاسع ذي قعدة سنة ٦٣٥ هـ ، خلال حصار بلنسية « والروم محاصرون بلنسية . ودفن بمقدمة باب الخنش

(١) انظر : أعلاه ، ٤٩٧ ، والخاتمة ، ٢٠٥٥٩ – ٥٥٤٠٥٥١ – ٥٥٠٠٥٤٢٠٥٣٩٠٥٣٢٠٥٤٩٠٥٤٢ وبنها.

(٢) انظر : أعلاه ، ٣٨٦ ؛ البيان المغرب ، ١٧٢/٢ .

(٣) أعلاه ، ٣٣٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ – ٤٧٩ ؛ الحل السندي ، ١٠٠/١ .

(٤) انظر مثلاً : نصوص عن الأندلس ، ٣٨ .

(٥) أعلاه ، ٤٦٥ ، ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ – ٤٨٠ ، ٤٨٢ – ٥٥٦ ، ٤٨٢ وبنها .

(٦) نفح الطيب ، ١٦٤/١ ؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ٧٥ .

(٧) وفيات الأعيان ، ١٤٣/٣ ؛ العبر ، الذهبي ، ٢٤٤/٤ .

(٨) نفح الطيب ، ٤٠٠/٣ . كذلك : المغرب ، ٤٤٨/١ .

(٩) أعلاه ،

لصلة ظهر الجمعة ، قبل امتناع الدفن بخار جها »^(١) .

ربما كان العداء لل المسلمين السبب الوحيد لاجتماع كلمة دول إسبانيا النصرانية ، في مراحل كثيرة أو في كلها . هل على ذلك يصح القول بأن موقف العداء كان لهم نافعاً؟ فلو كان الآخر لكان النفع إنسانياً دائماً . مع كل ذلك كان المسلمين يتدون اليد لأية بارقة أو إشارة سلم أو مودة .قصد أيضاً يوم كانت لهم الكلمة في مصائر الأمور في شبه الجزيرة الأندلسية . كم أحسنوا إليهم – رغم ذلك – والتزموا بالعهود مع الحلف المترکر . تلك هي عقidiتهم الإسلامية ، منها يستمدون وعنها يصدرون وعلى ضوئها يتصرفون ، لا بمستوى الآخرين ، بل بمستوى ما علّمهم إسلامهم .

مررت الأمثلة المتعددة بالتكلاثة لكتابنا الوجهين ، علواً سامناً ، وهبوطاً حالكاً . كذلك يذكر ابن عبد المنعم الحميري – حين الحديث عن حصن شنفيري ، قرب مرسية – أن نصارى الشمال الإسباني استولوا عليه غدرًا مع قيام صلح بينهم وبين المسلمين . إذ أن « أبا سعيد بن الشيخ أبي حفص المحتناتي ، لما طاف على حصون الأندلس يتقدّمها في أيام المدنة ، نظر إلى هذا المَعْقِل وهو بارز إلى السماء مع وثاقة بنائه فأعجبه وقال : كيف أخذ الروم هذا الحصن من المسلمين؟ فقيل : غدروا به في زمان الصلح »^(٢) . ثم إن محمد بن يوسف بن هود^(٣) استرجعه سنة ٦١٤ هـ .

لكن يقال أيضاً أن فرات الصعف ومواضع الحلف فتّت في عضد المسلمين أكثر من العوامل الخارجية ، لعلها تبين . إذ كان الإسلام دوماً للأمة الحصن الحصين ، خلال الزمن . أوجد مجتمعًا فريداً في عالم الإنسان على هذا الكوكب ، وما له أن يفكر في مثله بدونه .

الإمكان أن تستوعب هذه الخاتمة أشياء كثيرة أخرى ، مأخوذة من الدراسة السابقة . لكن عدم توفر بعض المراجع هنا وصعوبات أخرى لاتبع التفصي للاسترسال ، ولا

(١) التكملة ، ٩٠٠/٢ (رقم : ٢١١٧) .

(٢) الروض المعطار ، ١١٦ . انظر : التعريف بابن خلدون ، ٩ ، ٢٢ .

(٣) عنه انظر : أعلاه ، ٥١١ .

تدع مجالاً جديداً للتوقف الكثير لتسطير معلم آخرى لهذا الإطار ، تجعله في حالة أكثر من التناستى وأبرز في الإيضاح وأقوى في التعبير وأقدر على التصور والتصوير ، في عين الإطار . المناسبة هنا قافية لتناول موضوع « المورسكيون » ، فيما بعد إن شاء الله تعالى .

إذاً ألا يصح أن نستعيض أسلوب كتابنا وعلمائنا - رحهم الله تعالى وأثابهم - من أهل الفطنة والنظر ، ونقول ما قالوا حين كان يرد ذكر الأنجلوس : أعادها الله للإسلام^(١) ، وبإضاف : وأمثالها . ثم لا يتحقق القول كذلك : أعادها الله تعالى للإسلام ، مع زيادة : وغيرها كافة . يقول الله جل ذكره في القرآن الكريم : ﴿ وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾^(٢) . هذا الأسلوب في التعبير لدى علمائنا ، أسلوب له معناه ويحمل مغزى معلوماً ، يستحق الإشارة والإشادة .



(١) انظر مثلاً : نفح الطيب ، ١٦٥/١ .

(٢) من الآية ٣٨ من سورة محمد .

المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية

(المخطوطة والمطبوعة والترجمة : الكتب والبحوث)

* القرآن الكريم *

جامع الأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مجد الدين بن الأثير الجزّاري^(١) (جزيرة ابن عمر ، أحد الريعين ٥٤٤ - الموصل ، ٦٠٦ هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، ١٣٩٢ هـ - ١٣٨٩ هـ (١٩٧٢ - ١٩٦٩ م) ، الأجزاء : الأول والسادس والثامن .

مختصر صحيح مسلم ، الحافظ المُنْذِرِي (مصر ، ٥٨١ - رابع ذي القعدة ٦٥٦ هـ^(٢)) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) ، الجزءان .

« أبو البقاء الرُّبَّدِي »^(٣) (٦٠١ - ٦٨٨ هـ^(٤)) . عبدالله كنون ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السادس ، مدريد ، ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) . آثار البلاد وأخبار العباد ، زكريا القزويني (قزوين ، ٦٠٠ - ٦٨٢ هـ) ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) .

الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، محمد عبد الله عيّنان ،

(١) وفيات الأعيان ، ١٤١/٤ .

(٢) العبر ، النهبي ، ٢٣٢/٥ .

(٣) تشير الأقواس - في قائمة المصادر هذه - إلى أن العنوان لبحث وليس لكتاب .

(٤) النيل والتكميل ، ١٣٦/٤ (رقم : ٢٦٣) ؛ نهاية الأندلس ، ٤٥٦ .

القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) .

الإحاطة في أخبار غرّنطة ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلْماني ابن الخطيب (لوشة ، ٢٥ رجب ٧١٣ - فاس ، أحد الربيعين ٧٧٦ هـ) . المجلد الأول ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) . المجلد الثاني ، نفس المحقق ، القاهرة ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) . المجلد الثاني ، طبعة القاهرة القديمة ، ١٩١٩ .

أخبار عمر ، الأَخْوَان : علي وناجي الطنطاويان ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) .
أخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، نشر أميلو لافونتي أبي الكنтра ، مدرید ، ١٨٦٧ .
اختصار الأخبار عما يشقر سبّحة من سنّيّ الآثار ، محمد بن القاسم الانصاري السّبّي ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

اختصار القِدْح المُعلَّى في التاريخ المُحلَّى ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي^(١) (غرّنطة ، ٦١٠ - تونس ، ٦٨٥ هـ) . تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

أزهار الرياض في أخبار عياض ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرري التلمساني (تلمسان ، ٩٨٦ - القاهرة ، جمادى الآخرة ١٠٤١ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي ، القاهرة ، ١٣٣٩ - ١٣٤١ هـ (١٩٣٩ - ١٩٤٢ م) ، الأجزاء الثلاثة المطبوعة ، برعاية المعهد الخليفي للأبحاث المغربية (بيت المغرب) .

الاستبصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف (القرن السادس الهجري) ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

الاستقصا لأنباء دول المغرب الأقصى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، تحقيق ولدي المؤلف : جعفر ومحمد ، الجزءان الثاني والثالث ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

(١) النيل والتكمة ، ٤١١/١٥ (رقم : ٦٩٧) ؛ المغرب في حل المغرب ، ١/١ - ٩ ، ٢/٦٠ - ١٧٩ .

الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، أبو عمر يوسف بن عبد البر (قرطبة ، ٣٦٨ - ٤٦٣ هـ) ، تحقيق علي محمد الجاوي ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) ، الأجزاء : ٢ - ٤ (أربعة أجزاء) .

الإسلام والحضارة العربية ، محمد كردي علی ، الجزء الأول (جزءان) ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
الإسلام في الشرق الأقصى ، الدكتور قيسر أدب مخول (Cesar Adib Majul) ، ترجمه عن الإنجليزية : الدكتور نبيل صبحي ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .
الإسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) ، ترجمه عن الإنجليزية : الدكتور نبيل صبحي ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

الإسلام في المغرب والأندلس ، ليفي بروفنسال (١٩٥٦ م) ، ترجمه عن الفرنسية : الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم و محمد صالح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٦ (سلسلة «ألف كتاب» ، رقم ٥٩) .

أسئلة المتأجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهجر وما يتربّ عليه من العقوبات والزواجر ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الوَنْشَرِي (٨٣٤ - ٩١٤ هـ - فاس) ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

إعتاب الكتاب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضايعي ابن الأبار (بلنسية ، ٥٩٥ - تونس ، ٦٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور صالح الأشتر ، دمشق ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

أعمال الأعلام ، ابن الخطيب^(١) (ثلاثة أجزاء : الأول مابزال مخطوطاً) .
القسم الثاني من أعمال الأعلام ، نشر ليفي بروفنسال تحت عنوان :

(١) تشير النجمة (*) إلى أنه مر - حين ذكر مرجع سابق لنفس المؤلف في هذه القائمة - اسم هذا المؤلف الكامل وموضع وسنوات حياته (ولادته ووفاته) ، ما وجد منها .

« تاريخ إسبانيا الإسلامية » ، بيروت ، ١٩٥٦ م . وهو متعلق بالأندلس ؛ ونشر أيضاً قطعة منه في مجلة « الأندلس » الإسبانية (مدريد - غرناطة) ملحقاً بدراسة في المجلد الخامس عشر . (١٩٥٠) ٣ - ٢,٣٦١ - AL - NDALUS,XV,٢,٣٦١ (= أعمال الأعلام ١٠٦ - ١٠٧) .

• القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي و محمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء (المغرب) ، ١٩٦٤ . نشر بعنوان : « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » .

الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التَّوْزُّري (بعد ٥٧٣ هـ) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، مدريد (معهد الدراسات الإسلامية) ، مدريد ، ١٩٧١ . نشر تحت عنوان : « تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشَّبَّاط : نصان جديدان » .

الإمامية والسياسة ، المنسوب لابن قُتيبة الدِّينَوَري . انظر : تاريخ افتتاح الأندلس . أندلسيات ، عبد الرحمن علي الحجي ، المجموعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) . المجموعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

أوربا العصور الوسطى ، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجزء الأول : التاريخ السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

البداية وال نهاية ، ابن كثير (٧٧٤ هـ) ، القاهرة ، الجزء السابع . برنامج شيخ الرُّعَيْيَي ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرُّعَيْيَي الإشبيلي (٥٩٢ - ٥٦٦ هـ) ، تحقيق إبراهيم شبَّوح ، دمشق ، ١٣٨١ هـ (١٩٦٢ م) .

بُغْيَة الْمُلْتَمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (مُرْسِيَة ، الأحد ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٧ . بُغْيَة الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (مستهل رجب ٨٤٩ - القاهرة ، جمادى الأولى ٩١١ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ، الجزء الأول (جزء آن) .

البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب ، أبو عبد الله محمد المَرَّاكُشِي ابن عِذَّارِي (بعد ٧١٢ هـ)^(١).

- ٠ الجزءُ آن : الأول والثاني ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٤٨ .
- ٠ الجزءُ الثالث ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٩ .
- ٠ الجزءُ الرابع (قطعة من تاريخ المرابطين) ، جمع وتعليق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٧ (بعضها سبق نشره) .
- ٠ القسمُ الثالث ، نشر أمبرسي هوبي ميراندا ومساهمة محمد بن تاویت ومحمد إبراهيم الكتّاني ، طوان ، ١٩٦٠ . قطعة منه نشرها ميراندا في «صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد» ، المجلد الثاني (١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م)، ٤٢-٥٦ .
(القسم الفرنجي) (= البيان المغرب ، القسم الثالث ، طوان ، ١٩٢ - ٢٠٤) .
- ٠ **تاريخ الأدب الأندلسي** (عصر الطوائف والمرابطين) ، الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧١ .

تاریخ الإسلام ، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قایماز التركماني الذہبی (دمشق ، ٦٧٣ - ذو القعده ٧٤٨ هـ) ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، الجزء الثالث.
تاریخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشّبّاط ، انظر : الإكتفاء وصلة السّمّط .

و «الاكتفاء» هذا غير كتاب «الاكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء» للإمام الشهيد أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي الأندلسي (أئية ، ٦٣٤ هـ) .

تاریخ افتتاح الأندلس ، أبو بكر محمد بن القوطية (قرطبة ، ٣٦٧ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله أئیس الطبّاع ، بيروت ، ١٩٥٧ م (معه قطعة من الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، وقطعة من الرسالة الشرفية) .

(١) البيان المغرب (طنوان) ، ٤٥٤.

تاریخ أوربا (العصور الوسطى) ، فشر (القسم الأول) ، ترجمه عن الانجليزية :
الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العُربِي ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

تاریخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم
والدكتور أحمد مختار العَبَّادي ، بيروت ، ١٩٦٩ .

تاریخ الحغرافية والحضرافین في الأندلس ، الدكتور حسين مؤنس ، مدرید ،
١٣٨٦ هـ (١٩٦٧ م) .

تاریخ الطبری (تاریخ الأمم والملوك) ، أبو جعفر محمد ابن جریر الطبری
(طبرستان ، ٢٢٤ - بغداد ، ٣١٠ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهیم ، القاهرة ،
١٩٦٣ ، الجزءان : الرابع والسادس (عشرة أجزاء) .

تاریخ علماء الأندلس ، الحافظ أبو الولید عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر
الأزردي ابن القرَّاضی (قرطبة ، ٣٥١ - قرطبة ، ٤٠٣ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ ،
جزءان (مجلد واحد) .

تاریخ غزوات العرب ، جوزيف رينو ، ترجمه عن الفرنسيه وعلق عليه : شکیب
أرسلان ، بيروت ، ١٩٦٦ . ملحق به ترجمة لكتاب فردناند كلر من الألمانية وبحث
للاستاذ عبد العزيز الشعالي .

تاریخ الفكر الأندلسي ، آنخل جيثالث بالشیا ، ترجمه عن الإسبانية : الدكتور
حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

تاریخ مدينة المَرْيَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ، ١٩٦٩ .
تاریخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ،
١٩٦٢ .

تاریخ الموسيقى الأندلسية ، عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ
(١٩٦٩ م) .

التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر
فروخ ، بيروت ، ١٩٦٤ .

التبيان ، عبد الله بن بُلقيس بن بَاديس بن حَبّوس بن زيري (ثالث وآخر أمير لملكة غرناطة الطوائف ، ٤٤٧ - ٤٦٩ هـ) ، تحقيق ليهي بروفسار ، القاهرة ، ١٩٥٥ . نشر بعنوان : « مذكرات الأمير عبد الله ، آخر ملوكبني زيري بغرناطة » .

تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) ، علي بن عبد الرحمن بن هذيل (ق ٨ - ٩ هـ) ، نشره مصوراً لويس مرسيه (Louis Mercier) ، باريس ١٩٣٢ .

تحفة القادر ، انظر : المقتضب من كتاب تحفة القادر .
تذكرة الحفاظ ، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قابعاز التركمانى الذهبي (دمشق ، ٦٧٣ - ذو القعدة ٧٤٨ هـ) ، الجزء الرابع (أربعة أجزاء) .
تراث الإسلام (مجموعة بحوث لعدد من المستشرقين) ، ترجمه من الانجليزية : الدكتور حسين مؤنس ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، مقال تورنر : « إسبانيا والبرتغال » . انظر كذلك : المراجع الفرنجية .
تَرَاجِم إِسْلَامِيَّة (شرقية وأندلسية) ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) .

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، القاضي عياض بن موسى بن عياض (سبعة ، ٤٧٦ - ٥٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٥ م) ، الجزء الرابع (المجلد الثاني) ، (أربعة أجزاء) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (تونس ، ٧٣٢ - القاهرة ، ٨٠٨ هـ) . تحقيق محمد بن تاویت الطنجي ، القاهرة ، ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) .

تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى (طبرستان ، ٢٢٤ - بغداد ، ٣١٠ هـ) ، تحقيق الآخرين : أحمد و محمود محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

- التكاملة لكتاب الصلة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضايعي ابن الأبار (بنسيمة ، ٥٩٥ - تونس ، ٦٥٨ھ). وكلها أجزاء تكمل بعضها ولا تغطي الكتاب.
- ٠ طبعة العطار ، جزء آن ، القاهرة ، ١٣٥٥ھ (١٩٥٦ م).
 - ٠ طبعة الجزائر (جزء) ، نشرة محمد بن أبي شنب.
 - ٠ نشرة كوديرا (F.Codera) مדרيد ، ١٨٨٧ م ، الجزء الثاني (جزء آن).
- التلخيص لوجوه التخلص ، رسالة : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (قرطبة ، رمضان ٣٨٤ - مُنْتَ لِيَشَمْ ، لَبْلَه ، شعبان ٤٥٦ھ). نشرت مع رسائل أخرى له بعنوان : « الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى »، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، القاهرة ، ١٣٨٠ھ (١٩٦٠ م).
- جَذْوَةُ الْمُقْتَبِسِ فِي ذِكْرِ وَلَاةِ الْأَنْدَلُسِ ، الإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي نَصْرِ فَتَّوْحِيدُ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِيِّ الْحُمَيْدِيِّ (مِيَورَقَةٌ - بَغْدَادٌ ، ٤٨٨ھ)** ، القاهرة ، ١٩٦٦.
- جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب «المسالك والممالك»)، عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد بن أيوب بن عمرو أبو عبد البكري (شلنطيش ، ٤٠٥ - قرطبة، ٤٤٨٧ھ)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٧٨ھ (١٩٦٨ م). انظر كذلك : وصف إفريقياً والمغرب .
- جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم *، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٣٨٢ھ (١٩٦٢ م).
- حاضر العالم الإسلامي ، لوثر و ب ستودارد ، ترجمة من الانجليزية: عجاج نويهض (يتضمن فصولاً و تعليقات بقلم شكييب أرسلان ، وإليها الإشارة) ، بيروت ، ١٣٩١ھ (١٩٧١ م) ، الجزء الثاني (أربعة أجزاء).
- حججة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، محمد ناصر الدين الألباني ، بيروت .
- الحضارة الإسلامية في الأندلس ، عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٨٩ھ (١٩٦٩ م).

- حضارة العرب ، غوستاف لوبيون ، ترجمة من الفرنسية : عادل زعير ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .
- الحُلَّةُ السِّيَّرَاءُ ، ابْنُ الْأَبَارَ *** ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، الجزءان .
- الخلل السنديسي في الأخبار التونسية ، محمد بن محمد الأندلسى الوزير السراج (تونس ، نحو ١٠٧٠ - ١١٤٩ هـ) ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس ، ١٩٧٠ ، الجزء الثاني من القسم الأول .
- الخلل السنديسي في الأخبار والآثار الأندلسية ، شكيب أرسلان ، فاس (المغرب) ، ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) ، الأجزاء الثلاثة .
- الخلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجھول المؤلف (منسوب لابن الخطيب) ، تونس ، ١٣٢٩ هـ .
- حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندھلوی (دھلی) ، جمادی الأولى ١٣٣٥ - لاهور ، ١٣٨٤ هـ) ، بعنایة نايف العباس و محمد علي دولة ، دمشق ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) ، المجلد الرابع (أربعة مجلدات) .
- خریدة القصر وجربدة العصر ، أبو عبد الله محمد بن محمد العمام الأصفهانی (أصفهان ، جمادی الآخرة ٤١٩ - دمشق ، رمضان ٥٩٧ هـ) ، الجزء الأول والثاني من القسم الرابع ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .
- الدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، برہان الدین إبراهیم بن علی بن محمد ابن فرحون ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ .
- دُرَّةُ الْحِجَّالَ في أَسْمَاءِ الرِّجَالِ (ذيل وفيات الأعيان) ، أبو العباس أحمد بن محمد المكتناسي ابن القاضي (مكتناس ، ٩٦٠ - ١٠٢٥ هـ) ، تحقيق محمد الأحمدی أبو التور ، القاهرة - تونس ، ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) ، الأجزاء الثلاثة .
- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابد وإسماعيل النحراوي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

دول الطوائف ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .
دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م)
الجزءان .

« دولة الرستميين أصحاب تاهرت » ، محمد بن تاویت التطاوی ، صحیفة معهد
الدراسات الإسلامية في مدريد ، مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .
دولة القوط الغربيين ، الدكتور إبراهيم طرخان ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

الذخائر والتحف ، القاضي الرشيد بن الزبير (ق ٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد
حمید الله ، الكويت ، ١٩٥٩ م .

الذخيرة السنّية في تاريخ الدولة المرئيّة ، علي بن أبي زرع الفاسي ، الرباط ،
١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) .

الذخيرة في مخاسن أهل الخزيرة (أربعة أقسام) ، أبو الحسن علي بن بسّام
الشّترني (شترن - قرطبة ، ٥٤٢ هـ) .

• القسم الأول (مجلدان) ، تحقيق عبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام ،
القاهرة ، ١٣٥٨ - ١٣٦١ هـ (١٩٣٩ - ١٩٤٢ م) .

• القسم الثاني ، مخطوطة المتحف العراقي ، بغداد ، رقم ١٥٨٧ .

• القسم الثالث ، خطبة الزاوية الحمزاوية بالغرب ، الخزانة العامة بالرباط .
صورة ضوئية منها عن مصورة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول
العربية ، القاهرة ، رقم ١٦٣٦ تاريخ .

• القسم الرابع ، المجلد الأول ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ
(١٩٤٥ م) .

الذيل والتكميلة لكتابي الموصول والصلة ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك
الأنصاري الأوسي المراكشي (مراکش ، ذو القعدة ٦٣٤ - تلمسان ، محرم ٥٧٠).
• السفر الأول (القسم الأول والثاني) ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، بيروت .
• بقية السفر الرابع ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

- ٤ السفر الخامس (القسم الأول والثاني) ، المحقق السابق ، بيروت ، ١٩٦٥ م.
- ٥ السفر السادس ، المحقق السابق ، بيروت ، ١٩٧٣ م.
- رأيات المبرزين ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك ابن سعيد الأندلسي (غرناطة ، ٦١٠ - تونس ، ٦٨٥ هـ) ، تحقيق غرسية غومس ، مدريد ، ١٩٤٢ م.
- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ابن بطوطة (طنجة ، ٧٠٤ - فاس ، ٧٧٩ هـ) ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).
- رحلة الأندلس ، الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ م.
- رحلة الوزير في افتتاح الأسير ، محمد بن عبد الوهاب الغساني ، العرائش (المغرب) ، ١٩٤١ .
- رسالة ابن فضلان ، أحمد ابن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (بغداد ، بعد ٣١٠ هـ) ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) .
- رفع الحجب المستور في محسن المقصورة ، الشريف الغرناطي ، قطعة منه (من الجزء الثاني) ، نشرها وبيّن ميراندا في «صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد»، المجلد الثاني (القسم الفرنج) ، ٥٧ - ٦١ (مدريد ، ١٩٧٣ هـ = ١٩٥٤ م) .
- الروض المعطار ، انظر : صفة جزيرة الأندلس .
- روضة التعريف بالحب الشريف ، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني ابن الخطيب * ، تحقيق محمد الكتاني ، بيروت ، الجزء الثاني ، (جزء آن).
- روضَةُ النسرين في دولة بنى مَرِين ، أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (فاس ، ٨٠٧ هـ) ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م).
- رياض التفوس ، أبو بكر عبد الله المالكي ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، الجزء الأول .
- «سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري» ، الدكتور

عبد العزيز الاهواني ، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، القاهرة ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول ، ١٩٥٤ .

« سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، الدكتور أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

« السيد القميطور وعلاقته بالمسلمين » ، الدكتور حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، ١٩٥٠ .
سير أعلام النبلاء ، الذهبي * ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المجد ، القاهرة .

سيرة عمر بن عبد العزيز ، أبو محمد عبد الله ابن عبد الحكم (الاسكندرية ، ١٥٠ - القاهرة ، رمضان ٢١٤ هـ) ، تحقيق أحمد عبيد ، دمشق ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

السيرة النبوية ، أبو محمد عبد الملك ابن هشام (القاهرة ، ١٣ ربيع الآخر ٢١٨ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) ، المجلد الثاني (مجلدان) .

صفة الأندلس (قطعة من جغرافية الرازي) ، أبو بكر أحمد بن محمد الراري (قرطبة ، ١٠ ذو الحجة ٢٧٤ - قرطبة ، ١٢ رجب ٣٤٤ هـ) ، نشر ليفي بروفسال (مع ترجمة فرنسية) ، مجلة « الأندلس » الإسبانية (مدريد - غرناطة) ، المجلد ١٨ ، الجزء الأول (١٩٥٣) ، بعنوان :

(La "Description de l'Espagne" d' Ahmad al-Razi , AL-ANDALUS (1953) , vol. XVIII, I.

صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار ، أبو عبد الله محمد ابن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (سبتة ، نحو ٧١٠ هـ) ، تحقيق ليفي بروفسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) = صفة المغرب وأرض السودان ومصر

والأندلس (من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (الإدريسي) (سبعة ، ٤٩٣ ، أو قبلها - ٥٦٠ هـ) ، تحقيق دوزي ودي خويه (R. Dozy & De Goeje) ، أمستردام (هولندا) ، طبعة مصورة ، ١٩٦٩ . انظر كذلك : نزهة المشتاق .

الصقالبة في إسبانيا ، الدكتور أحمد مختار العادي ، مدريد ، ١٩٥٣ .
الصلة (قسمان في مجلد) ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بشكوال الأنباري (قرطبة ، ٣ ذو الحجة ٤٩٤ - ٨ رمضان ٥٧٨ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

صلَّة السُّمْط وسِمَة المِرْطَف في شرح الهدى في الفخر المحمدي ، محمد بن علي بن محمد بن الشَّبَّاط المصري التَّوَزَّرِي ، (قسطنطينة - توزر ٦٨١ هـ) ، قطعة منه ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العادي (مع « الاكتفاء » لابن الكردبوس) بعنوان : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشَّبَّاط (نصان جديدان) ، مدريد ، ١٩٧١ .

صلة الصلة ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبيير (جيَان ، ٦٢٨ - غرناطة ، ٨ ربيع الأول ٧٠٨ هـ) ، تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٧ .

صورة الأرض (قسمان في مجلد) ، أبو القاسم محمد بن علي ابن حوقل الموصلي البغدادي (ق ٤ هـ) ، بيروت .

طبقات الأمم ، أبو القاسم صاعد الأندلسي (الطليطي) بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد (المرية ، ٤٢٠ - طلبيطلة ، شوال ٤٦٢ هـ) ، القاهرة .
الطبقات الكبرى (طبقات ابن سعد) ، أبو عبد الله محمد ابن سعد (البصرة ، ١٦٨ - بغداد ، ٤ جمادى الآخرة ٢٣٠ هـ) ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) ، الجزء الثالث والخامس (٨ أجزاء) .

طبقات علماء أفريقيا وتونس ، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القبروانى (القبروان ، بعد ٢٥٠ - القبروان ، ذو قعدة أو حجة سنة ٣٣٣ هـ) ، تحقيق علي الشابي ونعمت حسن اليافي ، تونس ، ١٩٦٨ .

طوق الحمامنة في الألفة والألاف ، الإمام الفقيه ابن حزم * ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

العِبَرُ فِي خَبْرِ مَنْ غَبَرَ ، الْذَّهَبِيُّ * ، الْكُوَيْتُ (خَمْسَةُ أَجْزَاءٍ) .

• الجزء الأول (١٩٦٠) ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

• الجزء الثالث (١٩٦١) ، تحقيق فؤاد سيد .

• الجزء الرابع (١٩٦٣) ، تحقيق المنجد .

العبر (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، ابن خلدون * ، المجلدات : ٤ ، ٦ - ٧ ، بيروت ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ (سبعة مجلدات) .

العرب في إسبانيا ، استانلي لين بول ، ترجمه من الانجليزية : علي البارم ، القاهرة ، ١٩٦٠ . انظر كذلك المراجع الفرنجية : The Moors .

العرب والاسلام في المخوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، الدكتور عمر فرُوخ ، بيروت ، ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) .

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٣ - ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ، الجزءان .

« العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري » ، عبد الرحمن علي الحجي ، بحث تحت التشر ، صحيفية معهد الدراسات الاسلامية في مدريد . عنوان الدراسة فيمن عرف من العلماء في الملة السابعة ببجاية ، أبو العباس أحمد ابن أحمد بن عبد الله الغربيني (بجاية ، ٦٤٤ - بجاية ، ٧١٤ هـ) ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، ١٩٦٩ .

العواصم من القواصم في تحقيق موافق الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (قطعة منه) ، الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي القاضي الاشبيلي (اشبيلية ، ٢٢ شعبان ٤٦٨ - فاس ، ربيع الآخر ٥٤٣ هـ) ، تحقيق محب

الدين الخطيب ، جدة ، ١٣٨٧ .

« العوامل السوقية والتبعوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا » ، الدكتور علي المياح ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، بغداد ، المجلد الخامس ، ١٩٦٩ .
الغارة على العالم الإسلامي ، شاتليه ، ترجمة من الفرنسية : مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ، جدة ، ١٣٨٧ هـ .

فجر الأندلس ، الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

فروحة الأنفس في أخبار الأندلس (مختصر منه) ، بعنوان : تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس) ، محمد بن أيوب ابن غالب الغناطي (غرناطة ، ق ٦ هـ) ، تحقيق الدكتور الطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية (جامعة الدول العربية) ، القاهرة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) .

قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيت خطاب ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) ، الجزء الأول ، (جزء آن) .

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ، ١٩٧١ ، الجزء الأول (جزء آن) .

قضاء قرطبة ، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القير沃اني الخشني (قرطبة ، ٣٦١ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

« القضاء ودراسته في الأندلس » ، عبد الرحمن علي الحجي ، مجلة كلية الإمام الأعظم ، بغداد ، العدد الأول ، ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) .

قلائد العقيان في محسن الأعيان ، الفتح بن خاقان ، تونس ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) مصورة عن طبعة باريس .

الكامل في التاريخ ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزار (جزيرة ابن عمر ، ٤ جمادى الأولى ٥٥٥ - الموصل ، شعبان ٦٣٠ هـ) ، بيروت ، ١٩٦٥ - ١٩٦٧ م ، الأجزاء : ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ (اثنا عشر جزءاً) .

كتاب أحكام السوق ، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني

التاريخ الأندلسي - ٣٨ - ٥٩٣

(قرطبة ، ٢١٣ - سوسة ، ٢٨٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، صحيفه معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مدريد ، المجلد الرابع ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦م).

كتاب الجغرافية (الجغرافية) ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (بعد ٥٤٥ هـ) ، تحقيق محمد حاج صادق ، مجلة الدراسات الشرقية (Bulletin d' ETUDES Orientales) ، دمشق (المهد الفرنسي) ، المجلد : ١٩٦٨، ٢١.

كتاب الوفيات ، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني (قسطنطينية ، ٧٤٠ - قسطنطينية ، ١٢ ربيع الأول ٨٠٩ هـ) ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، ١٩٧١.

الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراً المئة الثامنة ، ابن الخطيب * ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٣.

كتناسة الدكان بعد انتقال السكان ، ابن الخطيب * ، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانه ، القاهرة .

لسان الدين ابن الخطيب ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م).

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الشدّوي ، الكويت ، ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م).

المتين (مفقود) ، ابن حيان القرطبي ، نُقول منه ؛ وانظر : المقتبس .

مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبي والخلافة الراشدة ، جمع وتحقيق الدكتور محمد حميد الله ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩م).

مديريد العربية ، الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة .

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن الحسن النسائي (مقالات ، ٧١٣ - غرّنطة ، قبل ٧٩٣ هـ) ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨.

المسالك والممالك ، أبو عبيد البكري ، انظر : «جغرافية الأندلس وأوروبا» و«وصف افريقيا والمغرب» .

المسالك والممالك ، أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (أواسط القرن الرابع الهجري) ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).

المسلمون (مجلة) ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (دمشق ، ذو القعدة ١٣٧٥ هـ = حزيران = يونيو ١٩٥٦ م).

المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ، الدكتور إبراهيم علي طرخان ، القاهرة ، ١٩٦٦ م (سلسلة «الف كتاب» ، رقم : ٥٩٦).

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، أحمد توفيق المدنى ، تونس ، ١٣٦٥ هـ.

«**المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية**» ، الدكتور حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، ١٩٥١.

المسلمون في الفلبين ، الدكتور قيسر أديب مخول* ، ترجمة من الانكليزية : الدكتور نبيل صبحي ، بيروت ، ١٩٧٢ م.

مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب* ، جمع وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية ، ١٩٥٨.

المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب ، الخاَفِظ مُحَمَّد الدِّين أَبُو الْخَطَاب عُمَر بْنُ الْحَسَن اَبْنُ عَلِيٍّ بْنِ دِحْيَةِ الْكَلَبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ الْبَلَانْسِيِّ (سِبْتَة ، مُسْتَهْلِ ذِي القعْدَة ٥٤٤ - القَاهِرَة ، ١٤ رَبِيعُ الْأَوَّل ٦٣٣ هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٤ ؛ مخطوطة المتحف البريطاني (لندن) ، رقم : OR. 77.

مع الرَّعِيلِ الْأَوَّل ، محب الدين الخطيب ، الرياض .

معالم الإيمان في معرفة أهل التَّقِيرَوَان ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأَسِيدِي الدَّبَاغ (٦٠٥ - ٦٩٦ هـ) ، زاده وعلمه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن

ناجي التنخبي (رجب ٨٣٩ هـ) ، تحقيق إبراهيم شبيح ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) ، الجزء الأول .

المُعجِّب في تلخيص أخبار المغرب ، محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي (مراكش ، ٧ ربيع الآخر ٥٨١ - ٦٤٧ هـ) ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، ابن الأَبَارَ * ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

معجم البلدان ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (بلاد الروم ، ٥٧٥ - حلب ، ٢٠ رمضان ٦٢٦ هـ) ، طبعة وستينيلد ، الجزء الرابع (ستة أجزاء) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، جزء آن .

المقانم المُطابقة في معالم طابة ، مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي (كارزين ، جنوب شيراز ، ٧٢٩ - زَبَيد ، اليمن ، ٢٠ شوال ٨١٠ هـ) ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

المُغْرِب في حُلِّ المُغْرِب ، ابن سعيد الأندلسي * وأسرته ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، الجزء آن .

المُفْتَيس في أخبار بلد الأندلس ، أبو مروان حَيَّان بن خلف بن حسين بن حَيَّان بن محمد بن حَيَّان (قرطبة ، ٣٧٧ - قرطبة ، ٢٧ ربيع الأول ٤٦٩ هـ) .
الجزء الثاني ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) .
قطعة من الجزء الثاني ، نشرها ليفي بروفنسال في مجلة « الأندلس » الإسبانية ، المجلد ١٥ ، العدد الأول ، ١٩٥٠ .

الجزء (القسم) الثالث ، نشر ملشور م. انطونية (Melchor M. Antuña) . باريس ، ١٩٣٧ .

الجزء (السفر) الخامس ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط ، رقم ٨٧ .
جزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .

مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون * ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٥ م) ، الجزء الأول والثاني (أربعة أجزاء).
 «المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية» ، خليلان ريبيرا (Julian Ribera) ، ترجمة من الإسبانية : الدكتور جمال محمد محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، المجلد الرابع ، العدد الأول (القسم الأول) ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٩ م) .

المن بالإمامية على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباقي ابن صاحب الصلاة (بعد ٥٩٤ هـ^(١)) ، تحقيق الدكتور عبد الهادي النازري ، بيروت ، ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤ م) ، السفر الثاني .

مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، محمد أبو راس البحري (جربة ، نحو ١١٩١ - بعد ١٢٢٣ هـ) ، تحقيق محمد المرزوقي ، تونس ، ١٩٦٠ .

المونس في أخبار إفريقيا وتونس ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعوني القيرواني ابن أبي دينار ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، ١٩٦٧ .

نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، مجهول المؤلف (معاصر لأحداث غرناطة الأخيرة وسقوطها) ، تحقيق الفريد البستاني ، العرائش (المغرب) ، ١٩٤٠ .

نرفة المشتاق في اختراق الآفاق (القسم الأوروبي) ، الأدريسي * ، روما ، ١٥٩٢ ؛ مخطوطة المكتبة الوطنية (باريس) ، رقم : ٢٢٢١ . انظر : صفة الأندلس.

نص أندلسي ، مجهول المؤلف ، يتعلّق بأوائل القرن الرابع الهجري ، نشره ليفي بروفنسال وغرسييه غومس ، غرناطة - مديريه ، ١٩٥٠ ، مع الترجمة الإسبانية

عنوان : Una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman III Al-Nasir

نص أندلسي ، رسالتنا راهب وجوابها لسليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبي الوليد الباقي (بطليوس ، ذو القعدة ٤٠٣ - المرية ، ١٩ رجب ٤٧٤ هـ) ، مجلة «الأندلس» الإسبانية ، المجلد ١٧ ، العدد ٢ (١٩٥٢) . نشر النص (مع ترجمة ودراسة بالإنجليزية) الدكتور دنلوب (D.M.Dunlop) .

(١) انظر : المن بالإمامية ، ٢٤/٢ - ٢٥ ، ٤٨٤ .

نص أبي مروان عبد الملك بن حبيب السُّلَمِي (قرطبة ، ٤ رمضان ٢٣٨ هـ) ، نشر ودراسة (بالاسبانية) الدكتور محمود علي مكي ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

نصوص عن الأندلس (قطعة من : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع المالك) ، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري ابن الدلائني (المرية ، ٤ ذو القعدة ٣٩٣ - المرية ، آخر شعبان ٤٧٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوازي ، مدريد ، ١٩٦٥ .

نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، عبد الرحمن علي الحجي ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

نظم الجُهْمَان (الجزء السادس) ، أبو علي حسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي ابن القبطان (ق ٧ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، الرباط .

نفّاضة الجراب في علاة الاغتراب ، ابن الخطيب* ، الجزء الثاني ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، القاهرة .

فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، المقري* ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) ، الأجزاء السبعة (الثامن فهارس كله) .

نقط العروس ، ابن حزم* ، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، المجلد ١٣ ، العدد ٢ (١٩٥١) .

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، فيسبادن ، الجزء الخامس ، باعتماء س. ديدربنخ ، ١٣٨٩ هـ (١٩٧٠ م) . الجزء السابع ، باعتماء الدكتور إحسان عباس ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) . الجزء الثامن ، باعتماء الدكتور محمد

يوسف نجم ، ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) . الجزء الثامن (مخطوط) .

«وثائق تاريخية جديدة» ، نشر الدكتور محمود علي مكي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مدريد ، المجلدان : ٧ - ٨ (١٩٥٩ - ١٩٦٠) .

وثائق عربية غرناطية ، تحقيق لويس سيكتو دي لوثينا ، مدريد ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) .

وصف إفريقية والمغرب ، أبو عبيد البكري . انظر : «المسالك والممالك» و «جغرافية الأندلس وأوروبا» .

وفيات الأئمّة وأئمّة أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (أربيل ، ٦٠٨ - ٢٦٠٨ جمادى الأولى ٦٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ . الأجزاء : ٢ - ٥ ، ٧ (سبعة أجزاء) والثامن فهارس .

يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، الدكتور محمد كمال شبانة ، القاهرة . ١٩٧٩

ثانيًا : باللغات الفرنجية

Altnordisches Leben, Karl Weihold, Berlin, 1856.

Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad Period, Abdurrahman Ali El-Hajji, Beirut, 1390 (1970).

Arte Hispano Musulman, L. Torres Balbas, Madrid, 1957.

«La Campaña de Alarcos» , A. Huici Miranda,

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) ، المجلد الثاني ، ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤ م) .

La Chanson de Roland y el neotradicionalismo, R. Menendez Pidal, Madrid, 1959.

La Civilisation Arabe en Espagne, E. Levi-Provencal, Paris, 1961.

The Decline and Fall of The Roman Empire, Edward Gibbon, New York, Vlo. III.

« La Familia de Muhammad X el Cojo, Rey de Granada », Luis Seco de Lucena, Al-ANDALUS (Madrid - Granada), XI, 2 (1946).

Histoire de l'Espagne Musulmane, E. Levi-Provencal, Vol.I, Paris, 1950.

والترجمة الإسبانية :

Historia de España, España Musulmana, Vol. IV., tr. E. Garcia Gomez.

Historia de la España Musulmana, A. Gonzalez Palencia, Barcelona, 1932.

Historia de España : VI, España Cristiana, F. J. Perez de Urbel, Madrid, 1959.

History of the dominion of the Arabs in Spain, J.A. Condé (Eng. tr. J. Foster), London, 1854, Vol. I.

The Legacy of Islam.

Manual de historia de España, Pedro Aguado Bleye, vol. I, Madrid, 1963.

Memoria sobre la autenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis,

Memorial de la Real Academia de la historia, Pascual de Gayangos, Madrid, 1852.

The Moors in Spain, Stanley Lane-Poole, London, 1897.

Los Mozarabes, Isidro de Las Cagigas, vol. I, Madrid, 1947.

Muhammad V, Al-Gani Bi-Llab, Rey de Granada, A. Mujtar Al-Abbadi,

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) ، المجلدات : ١٢ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ (١٩٦٣ - ١٩٦٤) .

Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland, J.T. Reinaud, (Eng. tr. Haroon Khan Sherwani), Lahore, 1964.

Les Premieres incursions des Vikings en Occident d'apres les sources Arabes, Arne Melvinger, Uppsala, 1955.

Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen-Age, R.P.A. Dozy, Leiden, 1860, Vol. I.

Una Cronica Anonima : انظر : نص أندلسي ، مجهول المؤلف .

للمؤلف

١ - تحقيق ودراسة اسفل من كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس للمؤرخ الكبير ابن حيّان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ) ، بيروت ، ١٩٦٥ . يتحدث هذا الجزء من المقتبس عن خمس سنوات (٣٦٠ - ٣٦٤ = ٩٧٠ - ٩٧٤ م) من أيام الحكم الثاني ، المستنصر بالله (٣٦٦ - ٣٥٠ = ٩٦١ - ٩٧٦ م) .

Critical edition of « AL-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS », by Ibn Hayyan (d. 469 = 1076), Beirut, 1965. This volume, of « AL - MUQTABIS », discusses almost five years (360 - 4 = 970 - 4) of the Reign of al - Hakam II (350 - 66 = 961 - 76).

٢ - تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عبد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ، ٤٠٥ - ٤٨٧ هـ) . ظهر هذا النص تحت عنوان جغرافية الأندلس وأوروبا ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م) .

Critical edition of « THE GEOGRAPHY OF AL - ANDALUS AND EUROPE », from the Book « AL-MASALIK WAL-MAMALIK », by Abu Ubayad al - Bakri (d. 487 - 1094) .

٣ - أندلسيات ، المجموعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) ؛ المجموعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) . وتضم بحوثاً ومقالات غالبيتها في التاريخ الأندلسي .

٤ - نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ، الطبعة الأولى : بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) ؛ الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

٥ - الحضارة الاسلامية في الأندلس ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٦ - تاريخ الموسيقى الاندلسية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٧ - الدكتوراه (بالانجليزية) عن : « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوروبا الغربية حتى نهاية الخلافة » :

*ANDALUSIAN DIPLOMAIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE
DURING THE UMAYYAD PERIOD, BEIRUT, 1390 (1970).*

٨ - التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ - ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ - ٧١١ م) ، دمشق ، ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٩ - بحث بالانجليزية :

« Intemarriage between Andalusia and Northern Spain in the Umayyad period » , *THE ISLAMIC QUARTERLY*, London, Vol. XI, Nos. 1-2, 1387 = 1976.

نشر بالعربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١٠ - نقد (Review) بالانجليزية ، لكتاب :

A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN, W. Montgomery Watt (Islamic Survey 4), EUP., 1965. In « *THE ISLAMIC QUARTERLY* », Vol. X, Nos. 3 - 4, 1386 (1966).

نشر (النقد) باللغة العربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١١ - بحث بالإنجليزية يتناول جانباً من شخصية الرحالة الأندلسي (ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشى) :

«At - Turtushi The Andalusian travller, and his meeting with Pope John XII », *THE ISLAMIC QUARTERLY*, Vol. XI, Nos. 3 — 4, 1387 (1967).

نشر باللغة الإيطالية في مجلة :

RIVISTA STORICA ITALIANA, NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. 1, 1967, PP. 164 — 73.

١٢ - بحث «القضاء ودراسته في الأندلس» ، نشر في العدد الأول (١٣٩٢ هـ م ١٩٧٢) من مجلة كلية الإمام الأعظم (بغداد) .

١٣ - بحث «الكتب والمكتبات في الأندلس» ، نشر في العدد الرابع (١٣٩٢ هـ م ١٩٧٢) من مجلة كلية الدراسات الإسلامية (بغداد) .

١٤ - بحث « حول التراث والحضارة »، نشر في العدد الخامس (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣) من مجلة كلية الدراسات الإسلامية (بغداد) .

١٥ - بحث « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع المجري » ، تحت النشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد .

١٦ - بحث « ابن زيدون السفير الوسيط » ، كتب له « الاحتفال الأربعى لولادة ابن زيدون » (٣٩٣ - ٤٦٣ هـ) في الرباط (المغرب) في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥ . وتقوم بنشره وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية(المغرب) .

تمَّت طباعة هذا الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه
بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦/٥/١٩ م)



C A. A. EL - HAJJI,
BAGHDAD UNIVERSITY,
A. H. 1396 (A. D. 1976)

THE ANDALUSIAN HISTORY

**From The Beginning
until the End of Granada**

A. H. 92 - 897 (A. D. 711 - 1492)

BY

ABDURRAHMAN ALI EL-HAJJI

(B. A., Cairo Univ.; Ph. D., Cantab.)

**DAR AL-QALAM
POB. 4523, DAMASCUS**